

من ذخائر التراث الإسلامي
النوازل الكبرى
في التاريخ الإسلامي
د/ فتحي زغروت

من ذخائر التراث الإسلامي

النوازل الكبرى في التاريخ الإسلامي

د/ فتحي زغروت

الطبعة الأولى للناشر

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

رقم الإيداع: ٢٠٠٨/١٩٦٥٨

الترقيم الدولى: .I.S.B.N

978-977-456-153-0



18 شارع مطر- أحمد حلمى- شبرا مصر- ت: ٠١٠١٠٦٨١٢٥
newandalus@hotmail.com





﴿ وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩، ١٤٠].

صدق الله العظيم



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة



إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أما بعد،

بين يديك أخى المسلم كتاب (النوازل الكبرى فى التاريخ الإسلامى)، والنوازل من قدر الله المر التى يجب أن يتلقاها الإنسان المسلم بالرضا، لأنها جزء من معتقده -الإيمان بقضاء الله حلوه ومره خيره وشره- وكما أوصى الإسلام الإنسان المسلم بأن يصبر ويرضى، أوصاه بأن ينازل تلك النوازل وأن يقارع تلك النواكب حتى يعصم نفسه وأمته من آثارها ونتائجها المهلكة، فقد كان المسلمون الأوائل يستقبلون تلك النوازل راضيين بقضاء الله كما علمهم الرسول ﷺ وفق منهج القرآن الكريم لمقاومة النوازل حيث كان يدفعهم بعد وقوع الكارثة إلى الإيجابية بكل أشكالها لمقاومة تلك النوازل، فالإسلام لا يعرف السلبية أو التهاون أو الإعراض وعدم المبادرة، وهذا أمر قد عرفته الأمة الإسلامية منذ عصر النبوة.

فقد واجهت الدولة الناشئة نوازل شديدة ولكن الرسول ﷺ وصحبه الكرام قد واجهوها ونازلوها بحكمة رشيدة وقدرة بارعة حكيمة، ولا غرو فى ذلك فإن نبينا الكريم صلوات الله عليه قد اتخذ من تلك النوازل منهجًا قويمًا لتربية الصحابة والأخذ بأيديهم لمواجهة النوازل، فمثلاً فى نازلة «هزيمة أحد» قد أصاب المسلمين الفزع إذ قتل منهم سبعون صحابيًا، وكسرت رباعية الرسول ﷺ وشج وجهه الكريم وأثخن أصحابه بالجراح، ومن نتائج هذا كله أن أصيب المسلمون بهزة شديدة فى النفوس وصدمة لم تكن متوقعة بعد النصر العزيز فى بدر حتى قال المسلمون فى عجب: «أنى هذا وكيف تجرى الأمور معنا هكذا

ونحن المسلمون؟» من هنا جاءت نظرة السماء إلى تلك الجماعة المؤمنة الملتاعة، ويردها القرآن الكريم إلى سنن الله فى الأرض، فهم ليسوا بدعًا فى الحياة وإنما هناك نواميس للحياة لا تتوقف ولا تتخلف، من أمثلة هذه السنن التى يشير إليها السياق، عاقبة المكذبين للرسل الكرام على مدار التاريخ، ومداولة الأيام بين الناس والابتلاء لتمحيص السرائر، وامتحان قوة الصبر على الشدائد واستحقاق النصر للصابرين والمحق للكافرين، ونكبات الأمم والشعوب، وزوال الدول إلى غير ذلك من النوازل.

ثم يتجه المولى سبحانه وتعالى إلى المسلمين بعد هزيمة أحد بالتأسية والتثبيت والإعلاء من قدرهم فيقول: ﴿ **وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، ويريد بقوله تعالى﴿ **وَلا تَهِنُوا** ﴾ أى لا تضعفوا فى طلب القوم والثأر منهم، فهو سبحانه لا يدعهم لأنفسهم يركنون إليها ويبكون أمرهم وإنما يدفعهم إلى العمل والإيجابية ومنازلة النازلة فإن الشدة بعد الرخاء والرخاء بعد الشدة هما اللذان يكشفان عن معادن النفوس وطبائع القلوب التى تصفو حسب درجة الثقة بالله وعدم القنوط والاستسلام.

من هنا كانت تربية الأمة المسلمة وتمحيصها وإعدادها لدورها الأعلى، والتمحيص ضرورى فى تربية الأمة المسلمة حتى تنهض بمسئولية الاستخلاف ولترتفع الأمة إلى درجة هذا الشرف، وهكذا التربية النبوية الشريفة لأمة الإسلام التى ميزها الله وجعلها خير أمة أخرجت للناس، وجعل لها حق القيادة، لتعطى جميع أمم الأرض مما لديها من هدى وعلم ومعرفة وخلق، ولن تشغل تلك المكانة إلا بشرط أداء واجبها الذى يحتمه عليها مركزها القيادى وأن تلتزم بشروط هذا المركز ومقتضياته، وأول هذه الشروط أن تكون لها القوة التى تمكنها من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حتى لا يعم الفساد وتختل الموازين وتضيع الفضائل. بهذا كله استحقت الأمة الإسلامية أن تكون خير الأمم بقوتها وهديها ورشدها. قال تعالى: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ**



وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وهكذا استطاعت الأمة المسلمة أن تواجه الشدائد بهذه الخيرية المشروطة، وانظر إلى صحوتها بعد كبوتها فى «معركة أحد»، كيف سارت على الدرب فانتصرت فى معاركها، وأفلتت من كبوتها كما حدث فى «معركة الأحزاب»، إذ أعد المسلمون عدتهم وحفروا خندقهم ودفعوا عن أنفسهم رزء تلك النازلة، وظل الرسول ﷺ متمسكًا بذلك المنهج القويم فى تربية الصحابة، نرى ذلك فى «هزيمة مؤتة» حينما استهان أهل المدينة بالجيش العائد المنهزم، وصاحوا قائلين فى وجوه المقاتلين: «جيش الفرار» فيرد الرسول ﷺ قائلاً: «بل جيش الكرار»، فيحول الهزيمة إلى نصر وعزيمة وإرادة فى نفوس المنهزمين، ولم يكتف بذلك بل يقلد خالد بن الوليد وسامًا شريفًا حيث سماه (سيف الله المسلول).

وقد أثمرت تلك التربية التى رباها الرسول ﷺ لأصحابه وجعلتهم على قدر كبير من المسئولية وتحمل التبعات، فأبوبكر -رحمه الله- يواجه «نازلة المرتدين» بكل حزم وثقة مصمما على أن ينازل تلك النازلة، وأن يقارع تلك القاصمة التى كادت تودى بالإسلام، وصمم على حرب المرتدين وجرد لهم أحد عشر جيشًا، وبعد منازلات وخطوب شديدة انتصر أبو بكر على المرتدين وخرج من تلك النازلة أقوى مما كان.

وهكذا الصحابة رضوان الله عليهم، قد التزموا المنهج نفسه وواجهوا النوازل بكل إرادة صلبة وبكل قوة ممكنة غير ملتفتين إلى المنافقين والمرجفين ضعاف النفوس وبذلك بقيت الأمة الإسلامية لها القيادة فى الأرض رافعة رايتها بالأمن والاطمئنان التى نعمت بها الإنسانية.

وعندما حادت الجماعة الإسلامية، ونكصت عن الشروط التى اشترطها الله لدوام الخيرية للأمة الإسلامية، ووهنت وضعفت واجتمعت عليها من النوازل ومن الأعداء ما لم يجتمع على أمة من الأمم فى كثرتها وفى قسوتها، ولم يستطع المسلمون أن يدفعوا عن أنفسهم ذلك البلاء الذى أوقعهم فى اليأس والاستسلام

على الرغم من كثرة أعدادهم وتحقق قول الرسول ﷺ **«توشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، قالوا:** أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ **قال: لا بل أنتم كثير ولكنكم كغثاء السيل ولينزعن الله المهابة من قلوب أعدائكم، وليقذفن فى قلوبكم الوهن.** قيل وما الوهن يا رسول الله؟ **قال حب الدنيا وكراهية الموت»** صححه الألبانى، (صحيح أبى داود رقم ٤٢٩٧). وغثاء السيل فى هذا الحديث يعنى افتقاد الأمة المسلمة لقوتها وإرادتها وعدم الرغبة فى دفع الأعداء.

والنوازل التى واجهت الأمة المسلمة كثيرة والذى يعنينا فى هذه العجالة، أن نقف على ملاحظتين مهمتين هما:

إن الأمة الإسلامية اليوم فى أمس الحاجة إلى الفهم الواسع للسنن الإلهية فى الخلق والكون والنصر والهزائم، وبقدر دراستنا لتلك السنن تتكون لدينا الحصانة العقدية والثقافية والمعرفية ومن ثم يجنبنا الوقوع فى الزلل، والكشف عن هذه السنن التى تحكم حركة المجتمعات يكون بالسير فى الأرض والسعى فيها وبالنظر فى تاريخ الأمم، وكذلك الاطلاع على القوانين الضابطة لحركة الناس فى الحياة يقول الله تعالى ﴿**قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**﴾ [آل عمران: ١٣٧].

والواجب على المسلمين الذين يتأملون سنن الله أن يجعلوا هذه السنن علمًا من العلوم، فالعلم بسنن الله تعالى من أهم العلوم وأنفعها، والقرآن يرشدنا فى مواضع كثيرة إلى أخذ العظة والعبرة والهداية من تلك العلوم. يقول تعالى: ﴿**وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً (٥٤) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً**﴾ [الكهف: ٥٤-٥٥].

لقد تركت التوجيهات القرآنية الحكيمة أثرًا مهمًا فى تشكيل العقلية الإسلامية التى استطاعت فيما بعد إرساء قواعد البحث العلمى وتطبيق مقاييس المنهج التجريبى لأنها غيرت نظرتها إلى الكون، وأصبحت تنظر نظرة جديدة لا تكتفى

بمجرد الدهشة والانبهار من اكتشاف سر من أسرار الخلق، أو سنة من سننه، بل أصبحت تنظر إلى الوجود بنظرة علمية إيجابية. ومن ثم تمكن الإنسان من تسخير هذه السنن والاستفادة من معطياتها فى تصريف شئون الحياة وعمارة الأرض على الوجه الذى أمر الله عز وجل به. ومن ثم تم التآلف والتكيف بين الإنسان والكون والخلق، ثم تم ربط هذا بالخالق سبحانه وتعالى.

كما نتعلم من تلك السنن مسألة التعاقب والتناوب الحضارى التى تحكم حركة الحياة وحركة التاريخ، كما يصورها القرآن الكريم بقوله تعالى ﴿**إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ**﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وسنة التداول الحضارى أو التدافع الحضارى هذه هى السنة الأساسية لباقى السنن الإلهية فى خلقه، أى أنها سنة ثابتة ومطردة حكمت كل المجتمعات البشرية وتجلت فى شتى مناحى الحياة والأحياء، وهذه السنة ماثلة فى قوله تعالى: ﴿**وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾ [البقرة: ٢٥١].

وفى تفسير هذه الآية يقول السيد رشيد رضا: لولا أن الله تعالى يدفع أهل الباطل والفساد فى الأرض بأهل الصلاح فيها، لغلب أهل الباطل والفساد فى الأرض حتى يكون لهم السلطان وحدهم، فتفسد الأرض بفسادهم. فكان من فضل الله على العالمين أن أذن لأهل دينه الحق المصلحين فى الأرض بقتال المفسدين فيها من الكافرين والبغاة المعتدين، وقد سمى هذا دفعًا على قراءة الجمهور - باعتبار أنه منه سبحانه إذ كان سنة من سننه فى الاجتماع البشرى وسماه دفاعًا كما جاء فى قراءة نافع باعتبار أن كلا من أهل الحق المصلحين وأهل الباطل المفسدين يقاوم الآخر ويقاتله.

وسنة التدافع الحضارى هى من السنن الغائبة عن أذهان كثير من الناس إذ لا يفقهون أن غاية التنازع بين الناس هى سنة صراع بين الحق والباطل، وهذا ماثل

أيضًا فى قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا** ﴾ [الحج: ٤٠].

كما أن سنة النصر أو الهزيمة، تعد من السنن التى ينبغى أن نتأملها وأن نتدبرها فإن النصر أو الهزيمة بيد الله سبحانه وتعالى، يهب النصر لمن يشاء حتى وإن كانوا قلة، وهذا يدفعنا إلى الإيمان الدقيق بقدرة الله وعظمته لأن هذا الإيمان هو الواقى من انكسار النفوس من جراء الهزائم وتحصينها ضد الوهن والحزن ومن ثم يدفعها دائمًا إلى الاستعلاء وعدم السقوط يقول الله تعالى: ﴿ **وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾ [الحج: ٤٠].

إن الروابط بين السنن الإلهية ووقوعها على الأنفس والواقع، كان من أهم الأهداف التى حركتنا لتأليف هذا الكتاب، فقد تمر على أمتنا الإسلامية فى تاريخنا المعاصر نوازل شديدة ونكبات مهلكة ومع ذلك لم نجد لرجال أمتنا عزمًا أو دفعًا لتلك النوازل وهذا موقف سلبى ومهين لا نرضاه للأمة الإسلامية التى كرمها الله وشرفها بنبى الإسلام محمد ﷺ، فقد خالف مسلمو اليوم منهج السلف الصالح فى مواجهة النوازل كما عرفنا سابقا، ولكن العجب كل العجب أن نرى أمتنا إزاء تلك النوازل كتلة هامدة لا حول لها ولا قوة، فإن المسلمين اليوم شاردون تائهون فى معترك الحياة يعانون الضغوط الخارجية والداخلية، بين مطرقة الاستعمار الغربى وسندان الملوك والرؤساء العرب، فالدول تتساقط دولة وراء الأخرى والدماء تراق فى كل مكان، لا حركة لها ولا أصالة، ففقدت قيمتها وهويتها، وأصبحت كالمياه لا طعم لها ولا لون ولا رائحة، واستبيحت الأعراض وقتلت الأطفال، واكتظت السجون بالمعتقلين الأبرياء من أبناء الأمة فلا نسمع صوتًا يجأر بالحق ولا حمية تغضب للعرض ولا قلوب تنفطر لذبح الأطفال، وأصبحنا ألعوبة الأمم بأيدى الاستعمار والصهيونية وأصبحت أمة الإسلام مرتعًا خصبًا للأفاكين ومجرمى الحرب والمرتذقة من كل صنف ولون، هبطوا جميعًا إلى بلاد المسلمين للسلب والنهب والقتل وإشعال الفتنة وتقطيع أوصال الأمة إلى كيانات أصغر، ناهيك عن

القواعد العسكرية التى انتشرت فى أنحاء البلاد لتمكن الاستعمار الغربى والأمريكى من الاحتلال والسيطرة وإلهاب ظهور المناوئين والثائرين والمطالبين بحقوقهم المشروعة. فأين حمية المسلم؟ وأين شهامة الفرسان؟ وأين حماة الديار؟. لقد انبطح الجميع مستسلمين واختلط الحق بالباطل، والصالح بالطالح وغابت معالم الحياة الكريمة وباع حكامنا ضمائرهم جريًا وراء كسب مادى ضئيل.

أما الشعوب والجماهير العربية المسلمة فقد خيم عليها اليأس، وتوارت الإرادة الحرة وعاش الجميع منشغلين بأعباء الحياة وقسوتها مما جعلت المسلمين منصرفين عن مواجهة جدية، ودفع قوى للمصائب، والكوارث التى حلت بهم.

أما عن موضوع ذلك الكتاب فقد وقع اختيارنا فى الحديث عن النوازل التى اشتمل عليها الكتاب على أربع من النوازل الكبرى فى تاريخنا القديم، وجدت فيها الفائدة المرجوة فى إحاطة المسلم بكيفية مواجهة النوازل، ودفع القواصم، وكيف ينفذ منها من ضعف إلى قوة ومن هدم إلى بناء ومن يأس إلى رجاء.

وهذه النوازل هى:

١- سقوط بغداد على أيدى المغول.

٢- سقوط بيت المقدس على أيدى الصليبيين.

٣- سقوط غرناطة وإنهاء دولة الإسلام على أيدى الإسبان.

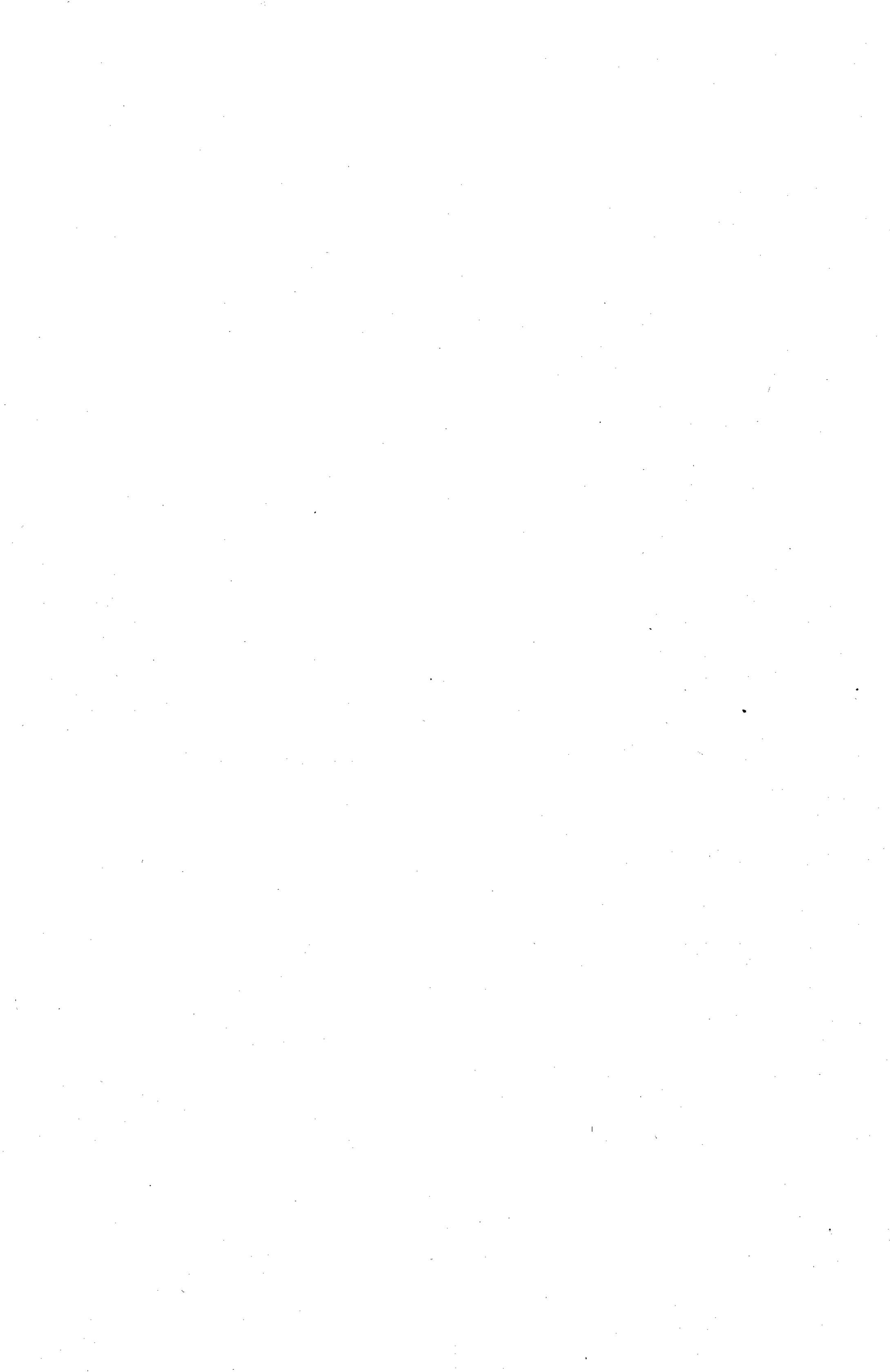
٤- سقوط الخلافة العثمانية الإسلامية فى تركيا.

هذا وأدعو الله العلى القديم أن يتقبل منى هذا العمل المتواضع وأن ينفع به الإسلام والمسلمين. وسبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، هذا وآخر دعونا أن الحمد لله رب العالمين.

المؤلف

الدكتور/ فتحى زغروت

٢٠٠٨/٧/١٠م



مدخل تمهيدى عن النوازل



يتناول هذا الكتاب الحديث عـن النوازل الكبرى التى ألمت بأمتنا الإسلاميـة عبر تاريخها الطويل، فقد تعرضت الأمـة لعديد من النوازل شأنها فى ذلك شأن الأمم الأخرى، ولكـن الأمة الإسلامـية فى مـواجهـتهـا للنوازل ومقـاومتهـا للكوارث والخطوب تختلف اختـلافًا بينًا إذ يحكمها فى ذلك منهج عقـدى وتصور إسلامى وعقـيدة تؤمن بالقضاء والقـدر خيره وشـره، وأن النوازل أو النوائب هى من قدر الشر المر، ومـع مرارته فينبـغى الإيمان به علـى أنه ركن من أركان الإيمـان يقول الرسول: «**لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره، حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه**»[1].

والنازلة فى اللغـة هى الشـديدة من شـدائد الدهر تنـزِلُ بالناسِ، وجـمعـهـا النوازل. وقد جـاء فى الحديث النبوى الشريف «رفـع اليدين فى قنوت النازلة عن رسول الله ﷺ فى دعائه على المشـركين الذين قتلوا السبـعين قارئًا»[2]، وقد جاء فى كتاب البداية والنهـاية، للإمام إسماعيل بن كثير الدمـشقى، الجزء العاشر عن سنة ٢٤٣هـ على لسان ابن خلكان:

ولـربَّ نازلة يضـيق بهـا الفـتـى	ذرعًـا وعند الله منـهـا المخـرج
ضـاقت فلما استـحكمت حلقاتها	فـرجت وكنت أظـنهـا لا تفـرج

فالمسلم يصـبر على أقدار الشر ويحـمد الله عليها، مع التـزامنا التام بمدافعـتها ومقـاومتهـا شرعا بحسـب الوسع والطاقة وفى حدود مـا شرع الله، وعلى المؤمن أيضا أن يؤمن أن تلك الأقدار خيرها وشـرها من تدبير الله، وأن الله لا يقدر شيئًا

(١) صحيح، سلسلة الأحاديث الصحيحة المجلد الخامس للألبانى.

(٢) الألبانى -إسناده صحيح- إرواء الغليل - الصفحة ٢/ ١٨١.

منها عبثًا كما وأنه لا يجعل شيئًا منها شراً محضًا بل قد يكون فى الشر حكمة بالغة يخفى على المؤمن فقهها أو فهمها.

وفى ناحية أخرى نرى عظمة الإسلام فى استغلال النوازل، إذ اتخذ القرآن الكريم من تلك النوازل منهجًا قويمًا لتربية الأمة المسلمة، فقد اعتبر النوازل سنة من سنن الله ينزلها بعباده ليتعظ الإنسان ويعتبر وليتأمل فى قدرة الله وعظمته؛ فتدفعه تلك النازلة إلى الإيجابية الحقة، وانظر معى أيها القارئ الكريم كيف اتخذ الله سبحانه وتعالى من هزيمة معركة أحد درسًا يمحص به المؤمنين، فقد أصابهم القرح وأصابهم القتل والهزيمة، وقتل منهم سبعون من الصحابة، وكسرت رباعية الرسول، وشُجَّ وجهه الكريم وأثخن أصحابه بالجراح، فكان أول توجيه للقرآن الكريم أن رد المسلمين إلى سنن الله فى الأرض وعرفهم أن هناك نواميس للحياة لا تتوقف ولا تتخلف، ومن هذه النواميس مداولة الأيام بين الناس، والابتلاء لتمحيص السرائر، وامتحان قوة الصبر على الشدائد، واستحقاق النصر للصابرين ولو كانوا قلة، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿**قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ**﴾ [آل عمران: ١٣٧، ١٣٨].

فقد جعل الله سبحانه وتعالى استقراء تاريخ الأمم السابقة والنظر فى الكيفيات والاهتداء إلى السنن والقوانين التى تحكم حركة المجتمعات وتحولاتها والاتعاظ والاعتبار بها تكليفًا شرعيًا يثمر الوقاية والمناعة.

ثم يتجه القرآن فى الآية التالية التى تعالج نازلة موقعة أحد وهزيمتها المرة إلى حث المؤمن على النهوض من تلك الكبوة ثم مقاومتها ومنازلتها؛ فلا يضعف ولا يتهاون فى مطالبة القوم، ففى قول الله تعالى: ﴿**وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ [آل عمران: ١٣٩]. فقوله تعالى: ﴿**وَلا تَهِنُوا**﴾ أى أنه يأمرهم ألا يهنوا فى طلب القوم ولا يضعفوا فى تدافعه ولا يحزنوا لما أصابهم وما فاتهم، ويطمئنهم على حالهم الإيمانى وعلى مكانتهم على الرغم من تلك الهزيمة المرة

فيقول لهم: أنتم الأعلون عقيدة ومنهاجًا؛ فأنتم تسيرون على منهج من صنع الله، والآخرون أعداؤكم يسيرون على منهج من صنع البشر ودوركم أعلى؛ فأنتم الأوصياء على هذه البشرية، فإن كنتم مؤمنين حقّاً فلابد أن تقارعوا تلك النازلة وأن تدفعوا ذلك البلاء وأنتم واثقون بالله ثقة كبيرة دون أن تقعوا فى القنوط واليأس، أو فى درجة من درجات الاستسلام، وهذا اليأس والاستسلام خلاف الرضا بالقضاء والقدر، وقد حذرنا الرسول من حالة الوهن والضياع التى تنتهى إليها الأمة بعد وقوع النازلة فيقول: «**يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها**. . قالوا: أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: **لا بل أنتم كثير ولكن غثاء كغثاء السيل، ولينزعنَّ الله المهابة من قلوب أعدائكم وليقذفنَّ فى قلوبكم الوهن**. قيل: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: **حب الدنيا وكراهية الموت**»(1) وغثاء السيل فى هذا الحديث يعنى افتقاد الأمة المسلمة لقوتها وإرادتها وعدم الرغبة فى تدافع الأعداء. فهل تعلمت أمتنا الدرس وحاولت الإفاقة مما أصابها من كوارث ومحن ونوازل القدر؟!

لقد اجتمعت على أمتنا من النوازل فيما مضى ما لم يجتمع على أمة من الأمم فى كثرتها وفى حدتها وفى قسوتها. ولا أريد إحصاء تلك النوازل فهى كثيرة، وإنما سأكتفى بأربع منها تعد من النوازل الكبرى التى تركت آثارها الوخيمة على شعوب أمتنا العربية والإسلامية وأقصد بتلك النوازل: «نكبة بغداد على أيدى المغول عام ٦٥٦هـ، وسقوط بيت المقدس على أيدى الصليبيين عام ٤٩٢هـ، ثم سقوط الأندلس وانتهاء دولة الإسلام عام ٨٩٧هـ، وأخيرا سقوط الخلافة العثمانية عام ١٣٤٢هـ-١٩٢٤م آخر معقل من معاقل الإسلام».

والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن الآن: ما موقف المسلمين من هذه النوازل هل نازلوها وقاوموها؟ وهل تدافع المسلمون لإزالة آثارها أم استكانوا لها وضعفوا أمامها؟ وقد يأتى التساؤل بمعنى آخر: هل استفاد المسلمون من نهج القرآن الكريم

(١) صحيح المحدث الألبانى المصدر. صحيح أبى داود الصفحة أو الرقم ٤٢٩٧

فى مقاومــة النوازل؟ وهل ساروا على نهج الرسول وهديه كمـا فعل مع المسلمين بعد نازلة موقعة أحد، وغزوة هوازن وهزيمة مؤتة وغير ذلك من شدائد كانت تقع بالمسلمين؟ إن إجابتنا عن الـتساؤل السابق سوف ترينا أن هناك اختـلافًا فى موقف المسلمين إزاء تدارك النوازل الأربع؛ فـقد تداركوا الأمر وقاومـوا النوازل فى اثنتين «نكبة بغداد - سقوط القدس»، بينما ضعـفوا واستكانوا وظهرت عليهم الذلة فى النازلتين الأخريين «سقوط الأندلس - سقوط الخلافة العثمانية».

***

لقـد كانت نكبـة بغداد مـن أشد النوازل عنفًـا على المسلمـين فقـد أتت على الأخضر واليابس، وذبح فيها العديد من المسلمين ذبح الشياه وعلى رأسهم الخليفة العباسى وأولاده وقواده وعلماء المسلمين، ولقد استحر القتل حتى زاد على المليون نفس، هذا ناهيك عن سلب الأمـوال والذهب والحلى والثروات الثـمينة، وإتلاف تراث المسلمين حيث أحـرقوا البعض وألقوا البعض الآخـر فى نهر دجلة والفرات ليعبروا عليـه، وبصفة عامة فإن تلك النكبـة قد تسببت فى تأخر المسلمين سـياسيًا وثقافيًا واقتصاديًا كما هو معروف.

وعلى الرغم من قسوة تلك المحنة فإن المسلمـين فى بعض النواحى قد جمعوا شملهم، ولملموا أمرهم، ونهضـوا من كبوتهم، وقاوموا تلك المحنة، ونازلوا تلك النازلة حتى كللت جهودهـم بالنجاح، فقد حافظوا على منصب الخلافة العـباسية وأقاموه فى مـصر والشام، وظل ذلك المنصب قائمًا كـرمز دينى وإن كان لا يملك من أسباب القـوة ما يجعله مسـيطرًا على مجريات الحيـاة آنذاك، وفى جانب آخر عبـئت قوى المسلمين فى مواجـهة عسكرية على يدى الملك المظفـر قطز الذى قام ليثأر لنكبة المسلمين فـى بغداد، فجرَّد الجيوش وعبأ القوى فى معـركة حاسمة من معارك الإسـلام وهى معركة «عين جـالوت» تلك المعركة التى كتـبت نهاية فاصلة للمغول حيث طاردهم المسلمون بعد النصر المؤزر إلى أن وصلوا إلى حدود بلادهم وانتهى خطر المغول إلى الأبد؛ بل هؤلاء المغول الذين كـانوا أعداء الأمس أصبحوا أحبابنا اليوم إذ دخلوا فى الإسلام وأصبحوا إخوة لنا فى العقيدة.

***

وكذلك الأمر فى النازلة الثانية وهى سقوط القدس على أيدى الصليبيين، فعلى الرغم من احتلال هؤلاء الصليبيين لبلاد الشام ونجاحهم فى تكوين أربع مستعمرات ذاق المسلمون فى بلاد الشام مرارة العيش وقسوة الحياة من غارات الصليبيين المتكررة وخطف الأولاد وقتل الرجال وسبى النساء. وعلى الرغم من ضعف المسلمين آنذاك وخضوعهم لتسلط الصليبيين الدينى والعقدى فإن الله قد قيض للمسلمين رجالاً أبطالاً قادوا الأمة للجهاد فى سبيل الله أمثال نور الدين زنكى الذى وحد مصر والشام، وأقام منهما دولة موحدة وجيشًا قويًا موحدا استطاع به صلاح الدين الأيوبى أن يوقع الهزيمة بالصليبيين فى موقعة حطين ثم يسترد بيت المقدس بعد ذاك ليعود إلى الحظيرة الإسلامية كما كان.

وهكذا قاوم المسلمون النازلتين بقدر طاقاتهم وبقدر إمكاناتهم آنذاك. المهم أن النوايا صحت، واليقظة بعد الغفلة وجدت، والنهضة بعد الكبوة استطالت، وهذا أمر ضرورى لاستمرار الأمم لعدم مواتها أو سقوطها. فطالما اتبع المسلمون منهج القرآن وساروا على هدى النبى محمد ﷺ فى منازلة النوازل فى إيجابية تامة فإن ذلك يحول دون انهيار الحضارات وسقوط الأمم.

***

أما النازلتان الأخريان: «سقوط الأندلس» و«سقوط الخلافة العثمانية» فأقول: إن تاريخ سقوط الأندلس سوف يبقى شاهد إدانة عبر الزمن وجرحًا غير قابل للاندمال والشفاء، فهى ذكرى مؤلمة والذكرى تتبع الذكرى والآلام مستمرة. ومع ذلك لم نجد بين المسلمين اليوم من أحيا ذكرى سقوط الأندلس ليذكر المسلمين بماضيهم ويطلع الشباب على أمجاد إسلامهم الحنيف ويعرفوا أن نور الإسلام وحضارته قد أضاءا جنوب غرب أوروبا. ويبقى هذا التساؤل وهو تساؤل ملح ومهم: هل قرأنا تاريخ الأندلس ووقفنا على ما فيه من عبرة وعظة؟ الإجابة بطبيعة الحال سلبية. إن عزوفنا عن قراءة تاريخ الأندلس وتاريخ أمتنا بصفة عامة يعنى إلغاء ذاكرة الأمة ويعنى أيضا إطفاء مشاعل الهدى التى نتلمسها من هدى التاريخ

لحاضر أمتنا ومستقبلها، فنحن المسلمين آثمون أمام الله فبعزوفنا ذلك، لم نضع الأندلس فقط وإنما أضعنا غيرها وغيرها، وقد تكاثر كم الضياع بدءًا من نكبة بغداد وضياع حضارتها الإسلامية الراقية، ثم ضياع بيت المقدس على أيدى الصليبيين وضياعه مرة أخرى على أيدى الصليبيين الجدد من اليهود، ثم ضياع دولة الإسلام فى الأندلس، ثم الضياع الأكبر فى سقوط الخلافة العثمانية آخر معقل للمسلمين. إن مسلسل الضياع قد هيمن على حياتنا حتى أصبحنا نهبًا لكل أمم الأرض.

لقد استبد بنا الضعف بكل أشكاله وأنواعه حتى أصبحنا اليوم غير قادرين على حماية تاريخنا، وهذه علامة تدل على موات الأمة وسقوطها الحضارى، فأمة يكون تاريخها نهبًا لأعدائها من لصوص التاريخ فإنه لا يستحق لها أن تعيش. فإن تاريخنا فى الأندلس يتعرض اليوم للنهب والسلب والتزوير والتحريف إذ يدعى اليهود بأنهم صانعو التاريخ الإسلامى فى الأندلس، وكأن المسلمين لم يمكثوا ثمانية قرون فى صنع تلك الحضارة، ثم تأتى تلك العناصر اليهودية من مستشرقين يهود ومزورين ويدعون هذا الادعاء الكاذب!. يقول الأستاذ عبيد حسنه: «وقد لا نستغرب أن تاريخ الأندلس يهوَّد اليوم أو تعاد قراءته بأبجدية يهودية حيث يثب اليهود على التاريخ الأندلسى كاملا ويجعلون من أنفسهم شركاء فى بناء الحضارة، وليس هذا فقط وإنما يحاولون سرقة الحضارة الإسلامية كلها واعتبارها جزءًا مهمًا من تاريخ اليهود فى الشتات، ومن ثم يخطفون علماءها وأحداثها الكبرى وينسبونها إلى تاريخ الحضارة العبرية»[1].

وكانت حجة هؤلاء المزورين هو قولهم إن تألق الحضارة والثقافة فى الأندلس والتقدم الاقتصادى العظيم الذى شهدته قد أسهم فى صنعه خبراء ومستشارون يهود استعان بهم حكام المسلمين كابن ميمون وابن جبريول وغيرهما، لذا فالحضارة الأندلسية فى نظرهم هى صنع يهودى شارك به اليهود العرب فى صنع تلك الحضارة.

(١) انظر تقديمه لكتاب الصحوة الإسلامية فى الأندلس اليوم للدكتور على المنتصر الكتانى ص١٨.

إن انتهاء دولة المسلمين فى الأندلس أمر يشغل عقول المسلمين وغير المسلمين فى العالم اليوم، فإن مرور خمسة قرون قبل السقوط اعتبرها المسلمون حقبة تاريخية يعتزون بها وتحسب للإسلام والمسلمين بلا شك بل هى التاريخ الحقيقى لأسبانيا، وإن كانت تلك الحقبة بدينها ورجالها وثقافتها قد واجهت عنتًا من نصارى الأسبان بعد سقوط غرناطة فحاربوا رجالها وأقاموا لهم محاكم التفتيش التى حكمت بتعذيب الكثيرين منهم حرقًا أو قتلاً أو بترًا لأعضائهم، كما قاموا بحرق كل الكتب التى تشير إلى الإسلام من قريب أو بعيد وعلى الرغم من كل ذلك فإن الأسبان يعتبرونها اليوم جزءًا من تاريخ أسبانيا القومى ممثلا لثقافتها وحضارتها وعلمائها. وهذا الاعتبار لمن دواعى الفخر والاعتزاز لنا نحن المسلمين لأن هذا التاريخ وتلك الحقبة الإسلامية تعد من أعظم الحقب فى أسبانيا، وما عداها فهو تاريخ لا يذكر مشوب بالتعصب والفتن والحروب التى لم تنقطع، فإننى أعتقد وليس فى اعتقادى شئ من المبالغة أن الإسلام ليس أمرًا طارئًا على الأندلس... ولا احتلالاً من الخارج وإنما هو خيار أندلسى ونبات من تربة الأرض نفسها».

وفى ظنى أيضًا أن اعتراف الأسبان بتلك الحقبة الإسلامية فى الأندلس وافتخارهم بها وضمها إلى تاريخهم القومى، إن هذا الاعتراف يفتح الباب من جديد ليعود الإسلام إلى تلك الأرض الخصبة بعطائه الثقافى والحضارى بعيدًا عن كل الأحقاد؛ فليس الإسلام مقصورًا على العرب وليس له أرض دون أرض، وإنما هو خطاب الله للبشرية ورسالته الخاتمة أنزلها على خاتم الأنبياء محمد ﷺ ليكون بشيرًا ونذيرًا للعالمين أجمعين. وإننى لأتساءل فى قرارة نفسى: كيف يهتم الغرب بذكرى المسلمين فى الأندلس ويحتفلون بحضارته الراقية التى كانت مفتاح الرقى والتقدم لأوروبا، أقول: كيف يحتفل هؤلاء القوم بتلك الذكرى ونحن المسلمين لم نعقد لها ندوة واحدة أو مؤتمرًا تاريخيًا ولم نسطر خطبة واحدة أو قصيدة واحدة ولم تتردد تلك الذكرى على صالون من صالونات رواد الأدب فى بلادنا.

***

أما عن سقوط الخلافة العثمانية فقد كانت حدثًا جللاً فى حياة المسلمين إذ لم تقف المأساة عند حد إسقاط الخلافة بل إن معظم النوازل التى حلت بالمسلمين قد تولدت عن تلك الحادثة بدءًا من بعثرة عقد الدويلات العثمانية وسيطرة الغرب على إصدار القرار، ثم توريثه للعلمانيين، ومن ثم كانت كارثة ضياع فلسطين وسقوط العراق وأفغانستان والشيشان والفلبين، فبدء تلك النوازل كلها جاء نتيجة سقوط الخلافة العثمانية التى كانت جامعة لشمل المسلمين. إن سقوط هذه الدولة لم يأت عبثًا أو تحصيل حاصل وإنما جاء وليد خطة محكمة عمل لها أعداء الإسلام عملا محكمًا دقيقًا. ولم لا؟! فقد كانت تلك الدولة من أقوى الدول آنذاك، وقد امتدت فى الزمان واستطالت فى المكان، واستمر بقاؤها أكثر من خمسة قرون وامتدت مساحتها من آسيا إلى أفريقيا وكانت تقوم على حمايتها أكثر جيوش العالم عددًا وعدة حتى إنها عبرت الأناضول إلى جنوب شرق أوروبا وأوساطها، ووصل محمد الفاتح إلى تلك البلاد بخيوله التى قرعت حوافرها آذان الأوروبيين ثم توجت انتصاراته بعد ذلك بفتح القسطنطينية عام ٨٥٧هـ، بعدها تم فتح اليونان وبلغاريا ورومانيا ويوغسلافيا وألبانيا ورودس وقبرص والمجر وكريت وواصلت جيوشه حتى جنوب إيطاليا.

ولكن هذا الصرح الإسلامى الكبير الذى أزعج الغرب أيما إزعاج قد تكالب عليه الغرب المسيحى لتقويض أركانه وإسقاط دولته، وكان أقرب طريق يوصلهم إلى هدفهم هو أن يقوضوا ذلك الصرح الشامخ من الداخل، فالحضارة لا تموت ولكنها تقتل بأيدى أبنائها، فبدأت عمليات الغزو الفكرى فى تنسيق متكامل مع المنافقين الكارهين للبلاد من المسلمين ثم تم تكثيف إرساليات التنصير وإثارة النعرات الطائفية والمذهبية، ومن ثم تهيأت الدولة للسقوط بعد استعصاء طويل. ولا يعنينا الخوض فى هذا المجال لأنه ليس مجالنا الآن وحسبنا هنا أن نتتبع أثر سقوط الخلافة الإسلامية على الواقع الإسلامى آنذاك. فلم يستطع المسلمون بعدها أن يعيدوا دولة الخلافة كما كانت أو على الأقل يردوا الاعتبار لذلك المنصب بإقامته فى مكان عربى آخر، ولكن مما يؤسف له أن رأس الخلافة دمرها الاستعمار

فى تركيا ثم تتبعوا الأطراف فقضوا عليها فى أى مكان عربى. والعجيب أن ذلك المنصب المقدس قد تجرأ عليه أردأ خلق الله إذ جاءت نهاية الخلافة على يد رجل وضيع لئيم، رجل تحدى أمة بأكملها وهو مصطفى كمال أتاتورك حيث تم له هدم ذلك الصرح العظيم، إن ذلك الرجل الأحمق هو النازلة العظمى الحقيقية التى مرت بالمسلمين آنذاك فإنه يُعد وحده نازلة لأنه فعل ما عجزت عن فعله أمم:

١- فقد عمل على إلغاء الخلافة ودعا إلى فصل الدين عن الدولة مخالفا بذلك الدستور الذى ينص على أن الإسلام دين الدولة، وكان يهدف من وراء فصل الدين عن الدولة أن يبقى الخليفة مجردًا من السلطات وأن ينظر إليه فقط على أنه صاحب وظيفة دينية روحية فحسب، مع ترك تصريف شئون الدولة للوزراء فى ظل نظام علمانى لا دينى ولا أخلاقى، وكان أول من طبقت عليه هذه الأفكار هو الخليفة عبد المجيد. وبعد مداولات ومناورات مع الإنجليز أعلن إلغاء منصب الخلافة عام ١٩٢٤م وطلب من الخليفة عبد المجيد وأسرته مغادرة البلاد ومنذ ذلك الحين أصبح للعلمانيين اليد الطولى فى البلاد.

٢- إننا لا نكاد تسمع رأيًا أو اعتراضًا من المسلمين سواء فى تركيا أو فى البلاد الإسلامية العربية لسقوط تلك الخلافة سوى بضعة أصوات مخلصة مثل الشيخ أحمد صبرى شيخ الإسلام فى تركيا الذى ألف كتابا عارض فيه العلمانيين، وكذلك بعض الأصوات المخلصة فى مصر. ولا يظنن أحد أن اعتزازنا بالخلافة الإسلامية فى تركيا يعنى إشادة تامة ومطلقة بالأتراك أو تزكية لهم دون تبصر أو وعى، فلا شك أنهم إذا كانوا فيما سبق يستحقون الإشادة بما حققوه من انتصارات إبان قوتهم إلا أنهم فى الآونة الأخيرة قد اعتراهم كثير من مظاهر الضعف وخاصة فى إدارتهم لشئون الدولة.

ولن أكون مبالغا إذا قلت إن تحكم العلمانيين فى إصدار القرار فى تركيا بعد سقوط الخلافة كان أشد ضررًا وأنكى أثرًا من سقوط الخلافة العثمانية، إذ تحقق على أيدى هؤلاء العلمانيين من جمعية الاتحاد والترقى المبدأ الفاسد الذى طالما حذرنا منه رسولنا الكريم وهو فصل الدين عن الدولة، أو فصل السلطان عن

القرآن، حيث يقول صلوات الله عليه: «**ألا أن السلطان والقرآن سيفترقان**»[١] وتحقق هذا الفصل بين الدين والدولة، أو بين الشرع والحكم، وتحقق ما حذرنا منه رسول الله ﷺ فقد ضاع الشرع وساءت أمور الحكم، وكان هذا تمهيدًا لإضاعة الدين والدنيا معًا.

وفى حديث أخرجه أحمد فى مسنده وابن حبان فى صحيحه، وصححه الألبانى يقول ﷺ: «**لتنقضنَّ عُرى الإسلام عُروة عُروة، فكلما انقضت عروة تشبث الناس بالتى تليها فأولهن نقضًا الحكم وآخرهن الصلاة**»[٢].

ويقول الدكتور عبد العزيز كامل[٣]: قد صدقت حقائق التاريخ المعاصر هذه **النبوءة المعجزة** لرسول الله ﷺ، فما أن ينقض الحكم فى الإسلام فى أرض إلا **ويتسلط عليها** شياطين الإنس فيقوضون بنيانه وينقضون عراها بدءًا بمنصة **القضاء الشرعى** وانتهاء بإقامة الصلاة التى جعل الرسول إقامة الولاة لها فى الناس **فيصلا بين** شرعية ولايتهم أو عدم شرعيتها؛ وذلك عندما سأله بعض **الصحابة عن حكم أئمة** الجور قائلين: «أفلا ننابزهم بالسيف؟ قال: **لا ما أقاموا فيكم الصلاة**»[٤].

٣- **ثم صدرت قوانين** تركية يغلب عليها التعصب الجنسى والطائفى بهدف تفتيت **الدولة العثمانية من الداخل** فصدرت القوانين التالية:

أ- **تقسيم الرعايا إلى** عثمانيين وأجانب إذ صدر ما يسمى «إعلان التنظيمات **العثمانية» وهذه** تنظيمات وضعية هدفها تقسيم المسلمين إلى مسلمين عثمانيين **وهم** رعايا ومواطنو الدولة العثمانية ومسلمين غير عثمانيين وهم **الأجانب. وقد** تناسى هؤلاء الجهلة أن خلافة المسلمين لكل المسلمين وأن

(١) أخرجه الطبرانى فى المعجم الصغير ج١ ص٢٦٤.

(٢) انظر مسند أحمد ج٥ ص٢٥١، وصحيح ابن حبان حديث ٢٥٧، وانظر تصحيح الألبانى فى صحيح الجامع الصغير ج٢ ص٩٠٥ الحديث رقم ٥٠٧٥.

(٣) العلمانية إمبراطورية النفاق.. من مهد الطريق؟! ج١.

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه حديث ٣٤٤٧، ٣٤٤٨.

رابطة الإسلام أسمى وأعلى من كل الروابط الاسمية العنصرية، وقد تحولت النزعة العنصرية بعد ذاك إلى قومية طورانية يدعى أصحابها أن الطورانيين قوم من آسيا متميزون عن غيرهم، وسرعان ما فشت القومية الطورانية كرابطة بديلة للرابطة الإسلامية، ومن ثم نشأ رداً على ذلك ما سماه العرب «القومية العربية» وسرعان ما ظهرت النعرات الطائفية والعصبية القومية، ففى مقابل القومية الطورانية ظهرت القومية الفارسية والكردية والبربرية والهندية والبشتونية، واستفحل الشعور القومى بالمسلمين الذى مزق الروابط أشد تمزيق.

ب- سيطر على تركيا فريق القومية الطورانية الذى شكل بهدف القضاء على الرابطة الإسلامية وكل ما يمت للخلافة الإسلامية بصلة، وكانت جمعية الاتحاد والترقى هى اليد الطولى فى هذا الأمر إذ سيطر الطورانيون بعد سقوط الخلافة الإسلامية على كل أجهزة الدولة عسكريًا وإداريًا وسياسيًا من خلال الاتحاد والترقى، وصارت تلك القومية التى أنبتت مصطفى كمال أتاتورك من أشد النوازل على الأمة الإسلامية فى بقاع الأرض حتى كتب السفير البريطانى آنذاك فى تركيا مذكرة إلى وزير خارجية بريطانيا فى ٢٨ / ٦ / ١٩١٠م يقول فيها: «الآن قد أخذ الكثيرون يعلنون أن رابطة الإسلام انفصمت وأن القضية أمست قضية ترك وعرب».

٤- وقد وصل حنق أتاتورك على الإسلام وغضبه على الخلافة أنه أخذ يبيت لها أمرًا هو وأتباعه ليجهضوها فى صورة متردية، فبعد العبث الذى ظهر من القوميين الطورانيين والذى أدى إلى اصطدام العرب بالأتراك واصطدام الأتراك بسائر الجنسيات نرى توجه أتاتورك إلى زوال سلطة الخليفة الشرعى الأخير «وحيد الدين»وتحويل الخلافة إلى سلطة روحية -كل ذلك قبل إسقاط الخلافة رسميا- إذ حول السلطة الفعلية إلى البرلمان الذى كان يشرع بقوانين غربية قاصدًا من ذلك تحويل الخلافة إلى سلطة روحية بعد تحويل السلطة الفعلية إلى

برلمان الأمة، وبذلك أصبحت الخلافة كالبابوية فى روما لا تملك إلا السلطة الروحية فقط فقد هيمنت عليها النصارى واليهود ومن ثم حولها أتاتورك بإيعاز وتشجيع من الإنجليز إلى سلطة روحية على غرار سلطة بابا النصارى الكاثوليك، وهكذا تحكم الإنجليز فى سلطة الخلافة إلى حين محو هذا اللقب وذلك المنصب من الوجود. وليس غريبًا بعد ذاك أن نرى السفير البريطانى «كروزن» بعدما احتل الإنجليز الأراضى التركية فى نهاية الحرب العالمية الأولى اشترط على «عصمت أونونو» رئيس وزراء تركيا عند عقد مؤتمر الصلح عام ١٩٢٢م لكى يمنح الأتراك الاستقلال اشترط عليهم:

١- أن تقطع تركيا صلتها بالإسلام .

٢- أن تقوم بإلغاء الخلافة.

٣- أن تتعهد بالقضاء على كل حركة يمكن أن تقوم لإحياء الخلافة.

٤- أن تحل القوانين الوضعية محل الشريعة الإسلامية وتضع لنفسها دستورًا علمانيًا مدنيًا بدلاً من الدستور العثمانى المستمد من الإسلام.

ولعل هذه الشروط تبرز مدى تخوف الإنجليز من الخلافة الإسلامية التى هى جامعة أمر المسلمين.

***

أما عن نظريات سقوط الدول كسقوط بغداد على أيدى التتار وهو ما عرف فى التاريخ بنكبة بغداد الأولى أو النكبة الثانية فى أيامنا هذه، وكذلك سقوط الأندلس وأفغانستان إلى غير ذلك من سقوط قديم أو حديث. فإن هذا السقوط سنة من سنن تقلب الدهر فالدهر دول؛ والأيام كلب، ولو بقيت الدنيا لمن قبلنا ما وصلت إلينا، ولو بقى الملك فى أيدى السابقين لما وصل إلى اللاحقين، يقول الله تعالى: ﴿ **فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى**

الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١] ويقـول فى موضع آخر: **﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾** [الحج: ٤٠، ٤١]. فالله يدفع الناس بعضهم ببعض فيدفع الكافر بالمؤمن ويدفع البلاء عن الفاسقين بالمطيعين. وهذه الآية تبين لنا سنة إلهية كما يسميها الشيخ سلمان العودة «سنة الخلفية» ويعنى أن كل شىء فى هذه الدنيا له خلف لا يبقى، فالإنسان مثلا يموت ويخلفه أولاده من بعده، وهكذا كل شىء فى الحياة من حيوان ونبات حيث جعله الله سبحانه وتعالى قابلا لأن يكبر عن شىء آخر يضمحل ويزول. وهكذا الشأن تماما فى الدول فقد مرت فى هذه الدنيا حقب وعصور ودهور طويلة تشهد نهاية دولة وقيام دولة أخرى، وقد يطول عمر الدولة وقد يقصر لكن النهاية عليها محتومة كالموت بالنسبة للإنسان، فقد تعيش الدولة كدولة العباسيين مثلا أو دولة الأندلس أو دولة العثمانيين وتزيد على خمسة قرون ولكن لابد أن تأتيها النهاية فتنتهى وتزول وتباد، وقد تقوم دولة على فكرة قوية وتزول الدولة وتسقط بانتهاء تلك الفكرة أو التفريط فيها من قبل حكام تلك الدولة، وغالبا ما تتدافع الأفكار كما ورد فى الآية السابقة، فتاريخ البشرية يحكى هذا التدافع الذى ينتج عنه فرض صاحب القوة لفكرته -حتى وإن كانت كاسدة- على المغلوب مهما كانت عقيدته راجحة وصالحة، فقد تبقى الفكرة المفروضة حينًا بمدى صلاحيتها فتعشش فى عقول الناس زمنًا فى حياتهم ولكن سرعان ما تقوى الفكرة الصالحة المسايرة للزمن والمعتقد الدينى وتبقى وتجبر أصحابها على التدافع.

إن قضية موت الأمم وزوالها قضية يجب أن نقف عندها متأملين فإن ذلك الموت فى بعض الحالات قد يكون علامة لحياة جديدة أكبر، والمثال على ذلك عندما تذوب الدولة فى كيان وحدوى أكبر شأنًا وأكثر قدرة ومنعة فهل يعد ذلك موتًا؟ ففى أوروبا مثلا تحول مستقبل الدولة إلى كيان أوروبى موحد فإن دخول

هذه الدولة فى ذلك الكيان لا يعد موتًا، وبالتـالى فإن دخول بعض الدول العربية فى كيان عربى أكبر لا يكون هذا انهيارًا أو موتًا للدولة بل هو ميلاد جديد للأمة.

ومن ناحية أخرى فـإن موت الأمم قد يعنى موتها الحرفى المباشـر أى اختفاءها المادى من الوجـود، وفى تاريخ البـشـرية نماذج كثيـرة لأمم وحـضارات قـامت وازدهرت ثم اختـفت مـن الوجـود، ومن هذا المنطلق قـد يـرد إلى الذهن دولة المسلمين فى الأندلس التى عاشت مـا يقرب من ثمانية قرون متـصلة ثم سرعان ما اختفت من الوجود.

وهناك نوع ثالث لموت الأمم أو انهيـارها؛ فقد توجد الأمة وجـودًا ماديًا على قيد الحياة ولكن لا وزن لتلك الدولة ولا تأثير ولا دور فاعلا لها فى العالم المحيط حولها فهى أمة موجودة وغير موجودة.

ويقـسم الشيخ سليـمان الـعودة زوال الأمم إلى نوعـين كمـا جاء فى إحـدى محاضراته:

١- زوال الملة: مثلما حدث فى بلاد الأندلس فقد كانت دولة إسلامية رفعت فيها رايات الجهاد وبنيت فيها المسـاجد وارتفعت المنائر، ولكن ضعف أمر المسلمين واشتد إصـرار النصارى على استرداد الأرض، وإزاء إصرارهم استـرد الأسبان بلاد الأندلس بلـدًا بلدًا، وزال الإسـلام من تلك البـلاد وحـولـت المنائر إلى أجراس كنائس وسادت النصرانية مكان الإسلام.

٢- زوال الدولة: وهى أن تبقى الدولة على ديانتها وإنما التى تتغير هى الحكومات فقط، فـتتغيـر معهـا الدولة ولا يتغير من الشـرائع الدينية ولا رسومـها شيء يذكر، فـمثلا زالت دولة الخلفاء الراشـدين وخلفتها دولة بنى أمـية، ثم زالت دولة بنى أمية وخلفتها دولة بنى العباس، ثم زالت وخلفتها دولة العثمانيين ثم جاءت دولة المماليك وهكذا فإن الدين باق بينما المتغير هى الحكومات.

وقضيـة انهيار الحضارات أو سـقوط الدول قضيـة كبرى خاض الحديث فـيها

المفكرون العرب وغير العرب، وإن كان لابد من الخوض فى هذه القضية فينبغى أن نبدأ من العلامة العربى والمفكر الاجتماعى ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع فقد ناقش قضية موت الأمم وقيامها فى مقدمته المعروفة بـ«مقدمة ابن خلدون» والتى أعطته شهرة فى الأوساط العلمية على أنه رائد علم الاجتماع، فهو أول من فكر فى تلك الظواهر الاجتماعية وفى اعتقادى أن أغلب من كتبوا فى قضية موت الأمم وزوالها أو قيامها من المعاصرين قد تأثروا بفكر ابن خلدون. فماذا قال هذا الفيلسوف عن قيام الدول أو نشأتها أو مواتها؟

إنه يرى أن أعمار الدول لا تكاد تتجاوز المائة والعشرين عاما، ويقسم ابن خلدون المائة والعشرين عاما إلى ثلاث مراحل أطلق عليها أجيال الدول والمراحل على النحو التالى:

الجيل الأول: وهو جيل النشأة حيث يحصل النصر والظفر والتمكين ويكون القائمون فى الدولة أقوياء، فيهم شظف العيش وشىء من البداوة والبسالة، يتميزون بالحزم والصبر وحسن سياسة الأمور.

الجيل الثانى: وهو أقل من الأول وأضعف منه فهو لم يتعب فى إقامة الدولة ولكنه استلم دولة قائمة مستقرة وورث ملكًا عن الآباء، فهم يترفون بالأموال ويغرقون بالمآكل والمشارب ويركنون إلى النساء، وقد ورثوا شيئًا من القوة أو سمعوا عنها من جيل الآباء ما يجعلهم أقوياء أو أشداء إلى حد ما.

الجيل الثالث: وهو جيل وجد ملكًا موطأ ووجد مالاً وجاهًا عريضًا فمال إلى الراحة والدعة والاسترخاء، وعلى يد هذا الجيل غالبا ما تكون نهاية الدول.

وتحدث ابن خلدون عن مراحل تطور الأمم ويرى أن الدول لها دورة حياة مثلها مثل الإنسان أى تولد ويقوى عودها وتشتد وتهرم ثم تموت. كما أنه يرى أن الدولة تقوم على العصبية، والعصبية فى مفهومه ليست مرادفًا للمعنى الضيق المباشر الذى يرد إلى ذهن البعض لكنها تعنى بتعبيراتنا المعاصرة «الروح الوطنية والقومية»،

والعصبية التي تقوم عليها الدولة هي في رأيه تتعزز بالدين وتقوى به، وهما متلازمان. فالدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية وبمعنى آخر فإن العلاقة الوثيقة بين الدين والعصبية في قيام الدول عند ابن خلدون هي قائمة على ما نقوله من التلازم القوى بين «العروبة والإسلام».

ويرى ابن خلدون أن الدولة تمر بخمسة أطوار على النحو التالي:

الطور الأول: طور القيام والنشأة حيث نرى مجموعة من الناس أصحاب عصبية جاهدت وقاتلت حتى حصلت على الملك وهم مجتمعون على ذلك الملك، متميزون بالتعاون والتلاحم.

الطور الثاني: وهو طور الاستبداد والاستئثار بالسلطة والسلطان كأن يحرص أحدهم على أن يكون الملك فيه وفي بنيه من بعده، وأن تكون له السمعة الحسنة والجاه العريض.

الطور الثالث: وهو طور الفراغ والدعة لتحصيل ثمرات الملك.

الطور الرابع: وهو طور الخنوع والمسالمة والتقليد للسابقين بحيث يؤمن الإنسان منهم أن ما كان عليه آباؤه وأجداده هو السليم.

الطور الخامس: وهو طور الإسراف والتبذير واصطناع قرناء السوء وإبعاد الصالحين الناصحين.

وعلى ما يبدو فإن ابن خلدون قد قدم لنا تصورًا رائعًا لانهيار الدول انهيارًا تدريجيًا، وقد قرن كل مراحل الانهيار بأسباب الزوال حتى ينتهي الأمر أخيرا بزوال الدولة.

أما قضية انهيار الحضارات وسقوط الدول في الفكر الأوروبي فقد تأثر المؤرخون والكتاب الغرب بنظرية ابن خلدون تأثرًا كبيرًا، ومن المتأثرين بذلك المفكر توينبي المؤرخ البريطاني الشهير و«وول ديورانت» المؤرخ الأمريكي المعروف وغيرهما كثير، وسوف نتناول من أفكارهما ما يدل على تأثرهما بابن خلدون

فالمؤرخ توينبى قد كتب عن انهيار الحضارات واعترف بتفوق ابن خلدون إذ يقول: «إن المجال الذى اختاره ابن خلدون بجهوده العقلية يبدو أنه كان سابقا فيه فلم يطرقه أحد من أسلافه ولم يكن له منافسون من معاصريه، وتعد مقدمته فى فلسفة التاريخ بلا شك أروع إنجاز من نوعه قد أبدعه عقل فى أى زمان وأى مكان»(١).

ويذكر توينبى فى موسوعته الضخمة «دراسة للتاريخ» وهى مكونة من ١٢ مجلدا ذكر فيها قصة قيام ٢٢ حضارة فى تاريخ البشرية، وتاريخ البشرية عند توينبى هو تاريخ الحضارات وليس تاريخ الدول المتفرقة الصغيرة، ويطلق على نظريته تلك «نظرية التحدى والاستجابة»؛ فالحضارات تقوم وتصعد استجابة لتحديات محددة سواء كانت هذه التحديات مادية أو اجتماعية، وفى تحليله أن الحضارة عندما تصل إلى مرحلة تعجز فيها عن الاستجابة للتحديات التى تجابهها فإنها تدخل فى مرحلة الانهيار.

وعجز الحضارات عن الاستجابة للتحديات فى رأيه ترجع إلى سبب أساسى وهو «فقد الحضارة قوتها الأخلاقية والقيمية والروحية» أى عندما تشهد انهياراً قيميًا وأخلاقيًا ودينيًا، فهذا الانهيار كما يرى توينبى يقود إلى الجمود وإلى العجز عن الابتكار والتجديد والإبداع، ومن ثم عن مواجهة التحديات وحين يحدث هذا تصاب الأمة بما يسميه توينبى «شرخ فى الروح» يعمل هذا الشرخ على موت القدرة الروحية والأخلاقية والقدرة على الابتداع والتجديد ومجابهة التحديات. هذه هى سمات نظرية توينبى فى تفسيره لانهيار الحضارات وسقوط الدول، وقد تأثر فيها على ما يبدو بابن خلدون حيث نراه يقسم مراحل تطور الحضارات إلى خمس مراحل على النحو التالى(١):

١- مرحلة الميلاد والنشأة.

٢- مرحلة الازدهار والتوسع.

(١) لماذا تموت الأمم وكيف تحيا؟ السيد زهرة. شبكة البصرة.

٣- مرحلة الجمود والعجز عن التطور والإبداع.

٤- مرحلة الانحلال والتدهور الأخلاقى.

٥- مرحلة السقوط والانهيار.

ومن الملاحظ أن نظرية توينبى تقوم أساسًا على أن أسباب موت الأمم والحضارات ترجع أساسها إلى عوامل داخلية، وفى القلب من هذه العوامل الداخلية انهيار القيم والقوة الأخلاقية، ويلخص نظريته فى جملة واحدة إذ قال: «الحضارة لا تموت قتلاً وإنما تموت انتحارًا».

أما المفكر الأمريكى وول ديورانت فإنه يرى أن هناك مقومات محددة تقوم عليها الحضارة وهى:

١- وجود نظام سياسى.

٢- وجود شكل وحدة لغوية تكون وسيلة اتصال وتفاعل عقلى وثقافى.

٣- لابد أن تتوافر معايير قيمية وأخلاقية متعارف عليها تكون هاديًا وحافزًا لأبناء الأمة.

٤- وجود دين أو عقيدة أساسية.

٥- وجود نظام تعليمى ينقل القيم والثقافة والعلم إلى الأجيال الجديدة.

ويرى ديورانت أن أسباب سقوط الحضارات تكون من داخل الأمة وبالتالى فإن اختفاء أو انهيار بعض المقومات السابقة أو واحد منها يمكن أن يدمر الحضارة ويقود إلى انهيارها.

وكذلك سقوط وانهيار الحضارات فى الفكر الإسلامى على نحو ما عرفنا عن ابن خلدون فهو مرتبط بانهيار الأخلاق وضعف الدين، وهذا فى مقدمة عوامل السقوط، فالحضارات العظيمة لا تنهزم أو تتوارى إلا عندما تدمر نفسها بنفسها من الداخل كما حدث فى حضارات الأمم البائدة مثل عاد وثمود وقوم فرعون وقوم صالح ولوط إلى غير ذلك من أمم كانت لها حضارات، ولكنها زالت بسبب

(١) لماذا تموت الأمم.

ضعف المعتقد الدينى والانحراف الخلقى كما هو ظاهر فى انحراف قوم لوط «اللواط»، وانحراف قوم شعيب فى «بخس الميزان» إلى غير ذلك من فساد خلقى ودينى حطم الحضارات من الداخل، وهذا ما حدث أيضا فى سقوط حضارة العباسيين والعثمانيين ومسلمى الأندلس، وقد كان الترف والفساد الخلقى من أهم أسباب انهيار تلك الدول، وسأشير إلى بعض المواقف التى تؤكد هذا البند من التاريخ العباسى والأندلسى، فالخليفة العباسى المستعصم حين كان المغول يحيطون ببغداد ويحاصرون الدولة كان هو يلهو مع القينات فى مجلس لهو وأنس جعله غافلا عما يجرى فى دولته حتى إن بعض الغيورين قد كتب بيتًا من الشعر وقذفه بسهم من خلال نافذته أصاب إحدى جواريه. ومثال آخر من الأندلس فلك أن تتصور ترف المعتمد ابن عباد فى مدينة قرطبة بالأندلس كيف وصل به هذا الترف حداً لا يتصوره إنسان، فقد تمنت إحدى زوجاته أن تخوض فى الطين ولكى يلبى لها رغبتها أمر بأن يؤتى بالمسك والكافور ويخلط بماء الورد وبالحناء ويوضع كأنه طين على الأرض لمسافات طويلة، وقد حملت تلك الزوجة قربة فاخرة من خيوط الحرير وصارت تحملها فى دلال هى وبناتها ووصيفاتها على أكتافهن ويمشين فى هذا الطين، فحقق المعتمد بذلك رغبة تلك الزوجة. فهل هناك ترف أو سفه أكثر من ذلك؟! وبهذا الإسراف تحقق موعود الله إذ قرن سقوط الحضارة بالترف والبذخ والإسراف فى قوله عز وجل: ﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا** ﴾ [الإسراء: ١٦].

كما أن الكيد الخارجى للدولة والصراع الطويل بينها وبين غيرها من الدول قد يؤدى إلى ضعف إحداهما أو هما معا، وهذا ما حدث للدولة العباسية لأن تلك الدولة قد نشب الصراع بينها وبين الدولة الفاطمية الناشئة من ناحية، وبينها وبين أصحاب الحركات الاستقلالية فى مشرق الدولة الإسلامية والتى كانت تدعو إلى إسقاط الدولة العباسية من جهة أخرى، وقد شكلت تلك الجبهات جبهات معارضة شديدة مثل جبهة المعارضة الفارسية وجبهة المعارضة العلوية، وقد كانت بعض هذه الدويلات تخضع خضوعًا اسميًا للدولة العباسية كالدولة الطاهرية والدولة

الصفارية والدولة السامانية والدولة الغزنوية فى مشرق الدولة الإسلامية، هذا بالإضافة إلى دولة الأغالبة ودولة الطولونيين ودولة الإخشيديين فى مصر، كما أن هناك دويلات استقلت استقلالاً تامًا بل ناصبتها العداء مثل الدولة الشيعية الزيدية فى طبرستان ودولة الأدارسة فى فاس والأمويين فى الأندلس، الأمر الذى جعل الدولة العباسية تزداد ضعفًا وتفككًا.

كما أن سيطرة العناصر الأعجمية مثل الأتراك والفرس أدت إلى ضعف الدولة العباسية حتى أصبح الخليفة العباسى فاقدًا لصلاحياته الإدارية والسياسية وأصبح مجرد مظهر من المظاهر الدينية.

وقد كانت بين الطرفين العباسى والفاطمى فى هذه الفترة مواقف وأحداث مهمة تركت آثارًا عميقة فى جسم الأمة الإسلامية لأن الصراع بين الدولتين كان صراع بقاء أو فناء، وقد عاش العالم الإسلامى إبان تلك الفترة حياة قاسية حرجة للغاية حيث توزعته الانقسامات وأنهكته الحروب وأصبح فريسة للحروب والمجاعات والأمراض، وأصبح مستهدفًا للقوى الخارجية والمعادية. فلا غرو أن يقع مطمعًا لإحدى القوى الأجنبية المناوئة للإسلام وهى قوى الصليبيين الذين غزوا العالم الإسلامى فى وقت حرج كانت قوى الدولة العباسية ممزقة أشد تمزيق، واستطاعت تلك القوى الأجنبية أن تكتسح بلاد الشام وأن تؤسس أربع إمارات صليبية فى غفلة من قوى المسلمين نتيجة للضعف والتمزق والانقسامات الداخلية وتلك الحروب التى استطال أمدها بين الفاطميين والعباسيين.

ولعل هذه الحقبة التاريخية تعد أحرج حقب التاريخ فى حياة أمتنا الإسلامية التى ينبغى أن يسلط عليها الضوء فى إعادة جادة لكتابتها من جديد فإن سقوط بغداد على أيدى المغول لم يكن مفاجأة بل كان نتيجة حتمية لا مفر منها لذلك الانحطاط والتدنى اللذين كانت حكومة العباسيين تعانيهما فى جميع شئونها العسكرية والاقتصادية والإدارية والاجتماعية إبان تلك الفترة، إذ لم يفشل الخلفاء العباسيون المتأخرون فى انتهاج سياسة بناءة وإدارة حازمة فحسب بل أصبح هؤلاء الخلفاء أنفسهم ألعوبة فى أيدى رجال البلاط زينوا لهم أفعال السوء واستغرقوا

أوقاتهم فى اللهو والعبث وشرب الخمر، فأصبح أقصى هم أحدهم هو مداعبة جارية جميلة أو قضاء ليلة ممتعة مع غلمانه وجواريه. وقد عاش هؤلاء الخلفاء منعزلين داخل قصورهم وانقطعت صلتهم بوجهاء الناس من أهل العقد والحل، واستبدت بهم بطانة السوء مثل ابن العلقمى وغيره الذى عمل على عزلة الخليفة المستعصم عن الحياة الخارجية عزلة تامة، فلا عجب أن تأتى النهاية بنكبة لبغداد على أيدى المغول أهانوا فيها العالم الإسلامى أشد إهانة حيث قتل خليفة المسلمين ورأس الدولة شر قتلة هو وقواده وأبناؤه وعلماؤه وسلبت مجوهرات الخليفة وأمواله وذهبه بطريقة ماكرة، وانتهت الحياة ببغداد نهاية بشعة حيث قتل ما يقارب المليون أو يزيد من مسلمى بغداد.

وقد اقتضت طبيعة المنهج فى ذلك الكتاب أن يقسم إلى مدخل تمهيدى وأربعة نوازل، وقد انتهت كل نازلة بخاتمة، على النحو التالى:

النازلة الأولى: نكبة بغداد على أيدى المغول

وتشتمل على ثلاثة فصول على النحو التالى:

الفصل الأول: الخلافة العباسية بين مظاهر القوة والضعف ويحتوى على :

أولا: بين الخلفاء الأمويين والخلفاء العباسيين.

ثانيا: تقسيمات العصر العباسى ودلالاتها.

ثالثا: من مظاهر رقى العصر العباسى وتقدمه.

الفصل الثانى: ضعف الخلافة العباسية وانحلالها ويحتوى على :

أولا: ظاهرة الدول المستقلة عن الخلافة العباسية.

ثانيا: أسباب ضعف الدولة العباسية.

الفصل الثالث: المغول وسقوط بغداد ويحتوى على :

أولا: تعريف بالمغول وشريعتهم.

ثانيا: غزوات المغول وسقوط الخلافة العباسية.

ثالثا: أسباب سقوط بغداد.

رابعا: تحليل لبعض القضايا المتعلقة بسقوط بغداد.

النازلة الثانية: الصليبيون وسقوط القدس

وتشتمل على أربعة فصول وهى :

الفصل الأول: القدس فى مسيرة التاريخ ويحتوى على:

أولا: تاريخ القدس من سيدنا إبراهيم إلى سبى بابل.

ثانيا: تاريخ القدس من ٥٩٧ ق.م إلى ١٣٥م .

ثالثا: القدس فى كنف الإسلام .

الفصل الثانى: مسير الحملة الصليبية الأولى نحو بيت المقدس ويحتوى على:

أولا: الحركة الصليبية «الفكرة والمصطلح».

ثانيا: دوافع وأسباب الحركة الصليبية .

ثالثا: الإعداد للحملة الصليبية الأولى.

الفصل الثالث: سقوط بيت المقدس ويحتوى على :

أولا: أوضاع العالم العربى عند قدوم الحملة .

ثانيا: الفاطميون وسقوط القدس .

ثالثا: سقوط القدس.

رابعا: نتائج الحملة الصليبية.

الفصل الرابع: القدس فى التخطيط الصهيونى ويحتوى على :

أولا: النوايا الصهيونية تجاه احتلال القدس والحرم الشريف.

ثانيا: عوامل ساعدت اليهود على اغتصاب القدس.

ثالثا: أساطير وخرافات ضللت الشعوب.

رابعا: القدس عربية لحمًا ودمًا وستبقى إسلامية .

النازلة الثالثة: سقوط الأندلس وانتهاء دولة الإسلام عام ٨٩٧هـ

وتشتمل على أربعة فصول وهى:

الفصل الأول: موجز لتاريخ الأندلس من القوة حتى الضعف «عصر النشأة والتكوين» ويحتوى على:

أولا: عصر الولاة من ٩٢-١٣٨هـ.

ثانيا: عصر الإمارة الأموية ١٣٨-٣١٦هـ.

ثالثا: عصر القوة «فترة الخلافة» ٣١٦-٤٢٢هـ.

الفصل الثانى: عهدا الفوضى والكفاح ويحتوى على:

أولا: عهد الفوضى والانحلال «سقوط الخلافة الأموية» .

ثانيا: عصر الطوائف وكفاح النصارى الأسبان.

ثالثا: المرابطون والموحدون وحركة التغيير.

رابعا: من مثالب المرابطين والموحدين.

الفصل الثالث: سقوط دولة الموحدين «الضعف والانحلال وسقوط الأندلس» ويحتوى على:

أولا: دولة بنى نصر ومملكة غرناطة.

ثانيا: تسليم غرناطة وإنهاء دولة الإسلام.

الفصل الرابع: من قضايا الموريسكيين بعد تسليم غرناطة ويحتوى على:

أولا: التنصير القسرى ومحاكم التفتيش.

ثانيا: طلب النجدة من مسلمى الشرق .

ثالثا: تشتيت الموريسكيين وطردهم الجماعى من أسبانيا.

رابعا: هل أعرض العثمانيون عن مساعدة الموريسكيين.

النازلة الرابعة: إسقاط الخلافة الإسلامية فى تركيا

وتشتمل على أربعة فصول وهى:

الفصل الأول: الجماعات المتسلطة على الخلافة العثمانية ويحتوى على:

أولا: العلمانيون وهيمنتهم على صنع القرار.

ثانيا: يهود الدونمة وتآمرهم على الخلافة.

الفصل الثانى: زعزعة أركان الدولة العثمانية ويحتوى على:

أولا: إثارة الأقليات غير المسلمة.

ثانيا: سياسة التتريك وبعث القوميات والتعصب العرقى.

الفصل الثالث: إلغاء الخلافة وإعلان الجمهورية ويحتوى على:

أولا: تمجيد الحضارة الغربية وتغريب تركيا.

ثانيا: فصل الدين عن الدولة وإلغاء الخلافة.

الفصل الرابع: تركيا بين الأمس واليوم ويحتوى على:

أولا: تقييم تجربة مصطفى كمال العلمانية.

ثانيا: تركيا بين الإسلاميين والاتحاد الأوروبى .

هذا وأدعو الله العلى القدير أن يتقبل منا هذا العمل ويجعله فى ميزان أعمالنا يوم القيامة، إنه على كل شىء قدير . . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

د. فتحى زغروت

فاقوس - شرقية

جمهورية مصر العربية

٢٠٠٨/٧/١٠

النازلة الأولى

نكبة بغداد على أيدى المغول عام ٦٥٦هـ

سقوط مُرّدٍ بعد تاريخ زاهر



الفصل الأول:

الخلافة العباسية بين مظاهر القوة والضعف

تمهيد

أولا: بين الخلفاء الأمويين والخلفاء العباسيين

ثانيا: تقسيمات العصر العباسى ودلالاتها

ثالثا: من مظاهر رقى العصر العباسى وتقدمه

الخلافة العباسية بين مظاهر القوة والضعف

• تمهيد

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد..

هذه دراسة فى العصر العباسى تبحث عن أسباب سقوط بغداد على أيدى المغول، وهى تبدأ منذ سقوط الدولة الأموية عام ١٣٢هـ وحتى عام ٦٥٦هـ وهو العام الذى سقطت فيه بغداد على أيدى المغول وقتل فيه الخليفة أبو أحمد عبدالله المستعصم شر قتلة. وهذه المدة تقارب ٥٢٤ عامًا.

ويفضل قبل الاسترسال فى الحديث عن سقوط بغداد على أيدى المغول أن نمهد للقارئ تمهيدًا سريعًا مختصرًا عن حالة الدولة العباسية قبل السقوط حتى يقف القارئ الكريم على أسباب هذا السقوط، ومن ثم تتجلى العظة والعبرة من التاريخ مع التنبيه أننا لم نقصد سرد التاريخ العباسى سردا -فإن هذا السرد قد غصت به كتب التاريخ بسرد بعض الحقائق أو المواقف- بقدر ما يحتاجه التحليل التاريخى أو تتناوله القضية التى أريد أن أبرزها للقارئ.

إن المتأمل فى دراسة سلسلة خلفاء بنى العباس يجد أن الخلافة لم تنته بقتل الخليفة المستعصم نفسه، وإنما امتدت بعد ذلك إلى عام ٩٠٣هـ وعاشت ما يقرب من ٢٤٧ عامًا أى ما يناهز القرنين والنصف، وهى خلافة بطبيعة الحال كانت رمزية ولكن تحتويها بعض الظواهر الدينية والسياسية التى ينبغى دراستها والوقوف على أهميتها لندرك سر هيبة الخلافة الإسلامية وعظمتها[1].

---

(١) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة. ابن تغرى بردى. تقديم محمد حسين شمس الدين. وقد عاش الخلفاء العباسيون فى مصر وبعضهم الآخر عاش فى الشام منعمين تحت إمرة سلاطين المماليك، وكان سلاطين المماليك يستمدون منهم الشرعية فى الملك بأن يخلع عليه الخليفة شارة الملك مصحوبا بمرسوم. ج١٦ ص٣ وما بعدها.

ويتمتع العصر العباسى بمدته الطويلة وحقبه المتنوعة الضاربة فى أعماق الزمان والمكان فنراه يختلف من عصر إلى عصر وفق متطلبات الخلافة مع المجتمعات المسلمة آنذاك، ولما كان العصر العباسى أطول العصور فإن المؤرخين قد قسموه إلى عدة أقسام منها عصور القوة وعصور الضعف وعصور نفوذ القوى الأجنبية إلى غير ذلك من تقسيمات تحمل فى طياتها التنوع والخصوبة، وعوامل القوة تارة، وعوامل الضعف تارة أخرى.

والعجيب أن تلك الدولة قد استعانت بالفرق الأجنبية غير العربية منذ قيامها حيث اعتمدت على الفرس ثم الترك ثم هيمن عليها فترة البويهيون ثم السلاجقة. فهل خدمت هذه الفرق القضية الإسلامية؟! وإن كنا نعرف أن البيت لا يبنيه إلا أهلوه، وأن الأوطان لا تقام إلا بسواعد أبنائها، فإن الدولة العباسية قد قامت بقوة فارسية ومرآة عربية، وهى فى ذلك تختلف عن الأمويين الذين كانت الدولة خالصة لهم شعبا وحكاما وقادة، أما الدولة العباسية فنظرا لاعتمادها على الخرسانيين فإنها تعرضت لكثير من المؤامرات على الصعيد العسكرى والسياسى والثقافى بهدف القضاء على دولة العرب الإسلامية وإحلالها بدولة ساسانية؛ ذلك لغياب العرب عن دور البناء.

ولعلنا نلاحظ ملاحظة لها أهميتها من خلال قراءتنا للتاريخ العباسى وهى أن قضيتى العروبة والإسلام هما المحوران اللذان انصبت عليهما مؤامرات هذه الفرق وألاعيبها المختلفة، حيث رأينا تمسك هذه الدولة وعلى رأسها الخلافة بمذهب أهل السنة والجماعة فى أغلب فترات التاريخ، ذلك المذهب الذى أفرز فكرا إسلاميا صافيا قاوم كل الأفكار المنحرفة التى غزت العقلية المسلمة آنذاك من فرق الزندقة والإلحاد التى أماتها الإسلام من قبل، بينما أحياها أنصار الشعوبية البغيضة.

ولما جاءت الدولة الفاطمية إلى القاهرة وبدأت تنشر مذهبها الشيعى الباطنى، وانتشر دعاتها فى أرجاء المعمورة، وقد اشتد الصراع العسكرى والثقافى بين الخلافة العباسية نصيرة السنة والجماعة وبين الخلافة الفاطمية صاحبة المذهب الباطنى

الإسماعيلى كنا نرى نجـاحا تلو النجاح للخلافة العباسيـة التى التزمت خطا واضحا هو الالتزام بالفكر الإسلامى الصحيح الذى يحمله أهل السنة والجماعة غالبا.

وإذا كان العصر العباسى قد امتد طويلا فى أعماق الزمان -كما قلنا- فإنه امتد عرضيا، ودانت له العديد من ممالك الأرض ودويلاتهـا، فقد امتدت حدود الدولة شرقا إلى حدود الصين ثم امتدت غربا حتى المحيط الأطلسى وصحراء المغرب.

وقد كـان المحرك الأساسى فى العصـور العباسـية هى الخلافة سـواء أكان فى عصور الـقوة حيث قبض الخلفـاء الأقوياء على الحكم وأداروا دفته، أم فـى عصر الخلفاء الضعاف حيث هيـمنت القوى الأجنبية على الدولة. إلا أنه من الملاحظ أن تلك القوى المهيـمنة كانت تحكم سياسيا باسم الخـلافة ولا تستطيع إسقاطهـا مهما لاقى الخليفة من عنت أو ظلم على أيديهم.

ومن هذا المنطلق يتضح قـيمة وجود ذلك المنصب فى حيـاة المسلمين سواء فى فترات الضـعف أو القوة، وذلك لأن مكانة الخلافة فى المجـتمع المسلم هى مكانة الرأس من الجسد، فـلا يصلح حال مجتـمع مسلم إلا بوجود خلافـة تجمع شمل المسلمين وتوحد كلمتـهم على رأى واحد. أقول ذلك ونحن اليوم فى الطريق إلى بناء المجتمع المسلم، ثم الدولة المسلمة. فالخلافة الإسلامية غائبة وليست منقطعة -كما يتوهم البعض- ومن يدرس التـاريخ الإسلامى تتضح له تلك الظاهرة واضحة بينة -كما قلت- فإن المغـول لم يستطيعوا القضاء على الخلافة قـضاء مبرما وذلك لأنهم لم يكسروا إرادة الأمـة العربية، ولـذلك نراها تظهر فى مصـر وتستقـر بها قرنين من الزمان وإن كانت خلافة رمزية هشة ليس لها تأثير سياسى يكاد يذكر.

كل ذلك يثبت أن الخلافة الإسلاميـة ضرورة لابد منها وبخاصة فى هذه الأيام التى نعيشها، فهى سبيل وحدة المؤمنين، وهى القوة الوحيدة التى سوف تنظم أمور المسلمـين وتزن كل فكر بميـزان الإسـلام، وعن طريقـهـا تعود العـزة والكرامـة للمسلمين الذين أهدرت كـرامتهم من القوى الكبرى التى تقـودهم باسم الحضارة والتـقدم والإصـلاح. ومن هذه الرؤية ينبغى دراسـة تاريخ الدولة العـباسـية لأن

دراستـها هى دراسة لواقع المسلمين اليوم، وعلى المسلم أن يربط بين الماضى والحاضر لأخذ العبرة. ثم اسقاطها على الواقع الذى نعيشه اليوم.

وما اعتداء أمريكا على العراق واحتلالها له، وما يكابده الشعب العراقى اليوم فى ظل الاحتلال من قتل وهتك للأعراض وسفك للدماء بالجملة ونهب للثروات، أقول إن هذا كله ما هو إلا تكرار لنكبة بغداد على أيدى المغول، فما أشبه الليلة بالبارحة.

لذا ينبغى علينا أن نعود إلى التاريخ لندرس كيف تم سقوط بغداد على أيدى التتار ونقف على الدسائس والمؤامرات التى دبرت ضد الخلافة العباسية، وقد فوجئ بها الخليفة المستعصم دون أن يعيها أو يقف على حقيقتها.

وقبل أن ندرس هذا السقوط المردى ينبغى أن يقف القارئ على حقيقة العصر العباسى وأوضاع الخلافة العباسية فيه إذ تراوحت تلك العصور ما بين عصور قوة ونمو وتقدم، وعصور ضعف واضمحلال وتفسخ -كما قلنا- وإلى القارئ الكريم لمحة من هذا التاريخ سوف نبرزها من خلال قضايا مركزة فى عدة نقاط ولم أعتمد على دراسة وصفية أو مفصلة تبعد بنا عن بؤرة الاهتمام بالموضوع الأساسى:

أولا: بين الخلفاء الأمويين والخلفاء العباسيين:

إن دارس التاريخ الإسلامى وخصوصا عصرى الأمويين والعباسيين سوف يلاحظ عدة فروق شكلية تميز العصر الأموى عن العباسى، ولعل إدراك تلك الفروق الشكلية يساعدنا مساعدة عظيمة فى تفهم أحداث العصر العباسى. ومن أمثلة الاختلاف بين هذين العصرين:

١- أن العصر الأموى كان عصر جهاد فى سبيل الله وحروب، وجيوش انتشرت فى ربوع الأرض من أجل نشر الإسلام وحماية الدعوة الإسلامية، وقد استفاضت تلك الفتوحات وامتصت طاقات الدولة الأموية بشريًا وماديًا إذ قد وصلت الفتوحات إلى أقصى اتساع لها بدءًا من حدود الصين شرقًا إلى المغرب

والأندلس وسواحل المحيط الأطلسى غربا، وبطبيعة الحال فإن عصر الأمويين عصر قلما عرف حياة الاستقرار والدعة التى تعيشها بعض الأمم بل كان عصر جهاد وكفاح لتثبيت أركان دولة الإسلام الكبرى. وإن كان الهدف الأكبر هو نشر الدعوة الإسلامية.

ثم جاء العباسيون ليحصدوا ما ألقى فى تربة العصر الأموى وورثوا دولة كبيرة مترامية الأطراف، وقد انتعشت فيها الأحوال الاقتصادية ونمت فيها حركة العلوم العقلية والترجمات، وقد حصد العباسيون ثمار ذلك النضج العقلى والعلمى فى حضارة عربية إسلامية لم نعرف لها نظيراً. ومن هنا عرف هذا العصر بأنه عصر الاستقرار العقلى والعلمى وهو فى طبيعته يختلف عن طبيعة العصر الأموى السابق ذكره.

٢- الفرق الأخر هو أن الأمويين كانوا يعظمون جانب العروبة ويحافظون عليها معتزين بها أيما اعتزاز، ومن مظاهر ذلك أنهم أسندوا مناصب الدولة ووظائفها للأمراء العرب وحرموها على العناصر الأجنبية، فكانت الدولة الأموية حقيقة تسيطر على الدولة بنفوذ عربى وتستأثر بسيادة عربية خالصة مما ثقل أمر هذه الدولة على الجنسيات غير العربية كالفرس والروم وغيرهم، كما أنهم كانوا يطلقون على هؤلاء الفرنج الموالى وربما دفع ذلك الامر هؤلاء الموالى إلى القيام بالثورات تلو الثورات مما أجهد الأمويين.

ظاهرة العروبة تلك التى أحياها الأمويون وحرصوا عليها كظاهرة خصوصية فى دولتهم لم نعد نراها فى الدولة العباسية حيث اعتمدت على الفرس فى جميع مراحل قيامها بدءاً من الدعوة السرية إلى قرب الحروب الصليبية، أى أننا نستطيع القول إن الدولة العباسية ذات واجهة عربية بينما أنظمة الحكم وبناؤها الداخلى أنظمة فارسية من مشاركة الفرس والموالى أى دولة ذات صبغة أجنبية بمرآة عربية.

٣- لا يمكن الفصل التام والحاد بين العصرين وخاصة بين الشعوب واحتكاكاتها الثقافية والاجتماعية وهو ما يعرف «بوحدة التاريخ»، حيث لا يمكننا الفصل

التام بين العصرين وخاصة فى نهاية الدولة الراحلة وبداية الدولة القادمة، ومما يؤيد ذلك تلك الظاهرة التى عرفت بـ «جيل المولدين» حيث تم الانصهار والاختلاط بين العربى وغير العربى بالدماء عن طريق المصاهرة والتزاوج؛ فاختلطت العادات والتقاليد والثقافات بعضها ببعض وانصهرت جميعها فى بوتقة الإسلام.

ومما لا شك فيه أن العصر العباسى هو الذى جنى ثمار ذلك الانصهار ونلمس أثره واضحا فى مجالات العلم والتأليف والترجمة والأدب والدراسات الدينية حيث ظهر فى هذه المجالات أعلام وأعلام فى العصر العباسى.

وإن كانت تلك الظاهرة «الانصهار» لها إيجابياتها الكثيرة -كما سنعرف بعد- فإن لها سلبياتها أيضا، فقد حاولت بعض هذه العناصر هدم كيان العروبة بوصفها سياج الإسلام، وكذلك محاولاتهم العيب على عادات وتقاليد المسلمين، وسوف نرى ذلك فى المعارك الثقافية التى حاول الشعوبيون من الفرس فيها تجريد العرب من كل مقومات الأمم، ومما يحمد للعرب المسلمين آنذاك أنهم قاوموا ذلك بنفس السلاح.

ومن سلبيات هذه الظاهرة «الشعوبية» أيضا فى العصر العباسى، تلك الحملة المسعورة على مفاهيم الإسلام الصحيحة والتى تبلورت واضحة وذلك بإدخال مفاهيم وثنية وفارسية ومجوسية لطمس مفاهيم الإسلام وقيمه العليا، وتلك الجريمة فى نظرهم هى الطريقة المثلى والسريعة والأنجع للقضاء على السلطة السياسية فى الإسلام.

وهذا الفعل السابق ذكره دأبت الدول الاستعمارية الغربية اليوم على ممارسته من تسليط المبادئ الهدامة والأفكار المضللة والإباحة الجنسية وغير ذلك لضرب الإسلام فى مقتل والهيمنة على العالم العربى شعوبا وحكاما.

إذن باعتبار وحدة التاريخ للعصرين: الأموى والعباسى والتى نركز فيها على نشاط المجتمعات والجماعات التى تتكون بعلمائها وفقهائها وصناعها إلى غير ذلك

نقول: إن كانت هناك بعض الفروق الشكلية والتى ألمحنا إليها سابقا، فإنه فى الحقيقة لم يكن هناك فرق واضح أو تناقض كبير بين العصرين، إنما كانت المرحلة الثانية امتدادا طبيعيا للمرحلة الأولى من حيث تطور المجتمع المسلم الذى بنى الأسس وأقام القواعد أولا ثم عاش مطمئنا مستقرا متفرغا للعلم والحضارة ثانية حسبما تملى عليه طبيعة العصر.

وإن كان هناك من فرق أو تغيير قد تحقق فهو قيام دولة لا يسيطر على قيادتها أصحاب السيادة العربية وإن كان خلفاؤها وقادتها من العرب، فقد قامت تلك الدولة بنفوذ الفرس -كما قلنا- حيث انصهرت القيادات والقطاعات العربية فى الحكم، وكل ما تحقق هو أن العناصر الإسلامية قد سيطرت وأن السيادة العربية فى المجتمع الإسلامى قد تراجعت.

ولعل هذه ميزة للدولة العباسية ساهمت فى التفاف الجماهير حول حكامها فى الغالب الأعم مما ساعد على التفاعل الفكرى والعلمى والتعامل السياسى وغيره مع جميع الطوائف العربية وغير العربية من المسلمين حتى فى علاقاتها مع الدول الخارجية من الفرنج، وهذا يخالف طبيعة الدولة الأموية التى انغلقت على الجنس العربى، ومن هنا فإن المد فى الدولة العباسية كان مدًا إسلاميًا ولم أقل مدًا عربيًا.
وقد ترتب على ذلك:

أ- انتشار الرخاء والترف وبلوغ الحضارة الإسلامية قمة عالية نعمت بها الشعوب، كما توسع نطاق الفكر الإسلامى ترجمة وتأليفا وانصهارا فى مجال الفلسفة والفقه والعلوم، وقد شارك فى ذلك المد الإسلامى للشعوب غير العربية.

ب- زاد الترف مما أدى إلى انحلال وفساد وزندقة ومجون وانحرافات فى الأخلاق والعادات ولا يغيب عن أذهاننا قصة عرس المأمون العباسى على بوران بنت الحسن بن سهل وهى قصة بالغة الحد فى الترف.

ج- وإذا كان هذا الترف غير مقبول فى الإسلام فهو سرعان ما بدد الأموال من خزائن الدولة فيما كانت الطبقات الوسطى والفقيرة تعانى من الفقر والجوع، مما

أدى إلى قيام حركات مناهضة برزت فى ظل العباسيين يغذيها المد الإسلامى للبلدان المفتوحة كبلاد فارس مدفوعة بخصومة التآمر على الإسلام ولكنها وجدت مجالا من مناقص المجتمع وعيوبه ما يثيرها ويحركها.

د- ولم يكن المجتمع العباسى بطبيعة الحال يجرى كله فى مجارى الترف والانحلال والزندقة، بل كان يضم فئات من العلماء والزهاد والمتصوفة غصت بهم المساجد ودور العلم، ولكن مما يجدر الإشارة إليه أن تيارا جديدا هو تيار الصوفية الزاهدة المنعزلة عن المجتمع ظهر كرد فعل لتيار الترف والمجون والزندقة.

كما ظهرت حركة الشعوبية إبان ذلك العصر حيث أظهرت العناصر غير العربية عداءها للعرب وللإسلام عداءً سافرًا فى العديد من المؤلفات، ولكن الخلفاء العباسيين كانوا يقظين لها وأبطلوا تلك المحاولات عبر العصور المختلفة فى أغلب الأحيان.

هذه أهم الملاحظات التى يمكن أن نلاحظها من خلال المقارنة لتاريخ الأمويين والعباسيين حتى يدرك القارئ طبيعة المرحلة التى نتحدث عنها، فهى مرحلة حساسة فيها من المواقف والتجارب ما يشير إلى حالنا اليوم.

ثانيا: تقسيمات العصر العباسى:

ولما كان العصر العباسى قد امتد زمانه وطالت أحداثه فقد دأب الباحثون على تقسيم هذا العصر الممتد إلى عصور أو حقب مميزة، ولعل هذا التقسيم التالى يعد أفضلها من وجهة نظر الباحث.

١- العصر الأول أو العصر الذهبى١٣٢- ٢٣٢هـ.

٢- العصر التركى٢٣٢ - ٣٣٤هـ.

٣- العصر البويهى ٣٣٤ - ٤٤٧هـ.

٤- العصر السلجوقى ٤٤٧ - ٦٥٦هـ.

وخلال العصر العباسى ظهرت العديد من الدول التى استقلت، إما لبعدها المكانى عن بغداد وإضعاف قبضة الخليفة عليها، وإما لوقوع الخلفاء تحت سيطرة المتغلبين من الأتراك وغيرهم، ومن تلك الدول:

- الدولة الصفارية ٢٥٤-٢٩٠هـ.
- والدولة السامانية ٢٦١- ٣٨٩هـ.
- والدولة الغزنوية ٣٥١- ٥٨٢هـ.
- والدولة الطولونية فى مصر ٢٢٤- ٢٩٢هـ.
- والدولة الإخشيدية فى مصر ٣٢٣- ٣٣٤هـ.
- والدولة الفاطمية بالمغرب ومصر ٢٩٦- ٥٦٧هـ.

وغير ذلك من الدول التى استقلت بالعديد من المناطق

قائمة بأسماء الخلفاء العباسيين مصحوبة بأهم أعمالهم[1]

العصر العباسى الأول «عصر القوة و الازدهار»

١- الخليفة عبدالله بن محمد: الملقب أبو العباس السفاح «١٣٢-١٣٦هـ» مدة حكمه أربع سنوات وعاصمة حكمه الهاشمية بالأنبار.

٢- عبد الله بن محمد أبو جعفر المنصور «أخو الخليفة» ١٣٦-١٥٨هـ مدة حكمه ٢٢ عامًا وهو الذى وطد الحكم العباسى وهو من الدهاة السياسيين، وقد بنى مدينة بغداد سنة ١٤٥هـ، وكان بعيدا عن اللهو والعبث وهو والد الخلفاء العباسيين جميعًا الذين تولوا بعده، وقد قتل خلقا كثيرا حتى استقامت له الدولة، ومات سنة ١٥٨هـ.

٣- أبو عبدالله محمد الملقب بالمهدى وقد خلف أباه «١٥٨-١٦٩هـ» ومدة حكمه عشر سنين وشهر وخمسة أيام. وكان جوادًا عالمًا، محمود العهد والسيرة، محببًا

(١) هذه الأسماء مأخوذة من كتاب دكتور احمد شلبى «موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية» ج٣. مكتبة النهضة المصرية ص٢١: ٢٦.

إلى الرعية. وقد أسرف فى قتل الزنادقة وقطع كتبهم والبحث عنهم فى الآفاق. وقد مات سنة ١٦٩هـ.

٤- وقد خلفه ابنه موسى بن محمد الملقب بالهادى «١٦٩-١٧٠هـ» ومدة حكمه سنة وثلاثة أشهر، وهو الذى أراد خلع أخيه هارون من ولاية العهد وجعلها لابنه جعفر فلم تر أمه الخيزران ذلك فزجرها فأمرت جواريها أن يقتلنه فخنقنه، ودفن فى بستانه سنة ١٧٠هـ.

٥- وقد خلفه أخوه أبو جعفر هارون بن محمد الملقب بالرشيد «١٧٠-١٩٣هـ» وكانت مدة خلافته ٢٣سنة، والرشيد هو أشهر خلفاء بنى العباس وقد ازدهرت الدولة فى أيامه.

أما بغداد فقد أصبحت فى عصره أعظم مدينة فى ذلك الزمان حيث أنشئت فيها المستشفيات والمدارس والمساجد. وكان بينه وبين شارلمان ملك فرنسا اتصال، فكانا يتهاديان التحف، وقد قضى على البرامكة الذين ازداد نفوذهم فى عهده، وكان يحج سنة ويغزو سنة، ومات عام ١٩٣هـ قرب طوس.

٦- وقد خلفه ابنه أبو موسى محمد بن هارون الملقب بالأمين «١٩٣-١٩٨هـ» ومدة حكمه أربع سنين وسبعة أشهر وثمانية أيام، وهو الذى خلع أخاه المأمون من ولاية العهد بتحريض من أمه زبيدة إلا إنه لم يتيسر له ذلك فقتل على يد طاهر بن الحسين قائد جيش المأمون سنة ١٩٨هـ.

٧- تولى الخلافة بعده أبو جعفر عبد الله بن هارون الملقب بالمأمون «١٩٨-٢١٨هـ» ومدة حكمه عشرون سنة، وهو من أعظم خلفاء بنى العباس فى سيرته وعلمه وسعة ملكه الممتد من أفريقيا إلى أقصى خراسان وما وراء النهر والسند، وقد اهتم بالعلوم وترجم كتب فلاسفة الإغريق وأنشأ دار الحكمة. وقرب إليه العلماء والفقهاء والمحدثين والمتكلمين وأهل الجدل، وفى عهده كانت المحنة بالقول بخلق القرآن وقد مات سنة ٢١٨هـ بعد رجوعه من غزو بلاد الروم التى فتح فيها خمسة عشر حصنًا وكانت وفاته فى الرقة.

٨- ثم خلفه أخوه أبو اسحق محمد بن هارون الملقب بالمعتصم بالله «٢١٨-٢٢٧هـ» ومدة حكمه ثماني سنوات وثمانية أشهر، وقد اشتهر المعتصم بالبأس والشدة في جسمه وشجاعة قلبه إلا أنه لم يكن له حظ من التعليم حيث كان شبه أمي. وقد غزا المعتصم بلاد الروم وفتح عمورية حتى وصل إلى القسطنطينية وأراد فتحها، ولكنه اضطر إلى الرجوع بسبب الفتنة التي عملها ابن أخيه العباس بن المأمون.

ومما يؤخذ على المعتصم امتحان علماء الدين السنة بالقول بخلق القرآن وتعذيبهم ومنهم أحمد بن حنبل، وكذلك استجلاب المماليك الأتراك حتى بلغ عددهم سبعين ألفًا، وقد اضطر أن يبني مدينة جديدة هي مدينة سامراء لتكون مقرًا لجيشه من الأتراك. وقد اتخذها عاصمة له وتوفي المعتصم سنة ٢٢٧هـ وكل الذين بعده من الخلفاء من ذريته.

العصر العباسي الثاني: عصر يتراوح بين الضعف والقوة «٢٢٧-٢٩٥هـ»

٩- أبو جعفر هارون الواثق بالله ٢٢٧هـ.

١٠- أبو الفضل جعفر المتوكل ٢٣٢هـ.

١١- أبو جعفر محمد المنتصر ٢٤٧هـ.

١٢- أبو العباس أحمد المستعين ٢٤٨هـ.

١٣- أبو عبدالله محمد المعتز ٢٥٢هـ.

١٤- أبو إسحق محمد المهتدي ٢٥٥هـ.

١٥- أبو العباس أحمد المعتمد ٢٥٦هـ.

١٦- أبو العباس أحمد المعتضد ٢٧٩هـ.

١٧- أبو محمد علي المكتفي ٢٨٩هـ.

هذا العصر يتراوح ما بين قوة الخلفاء وضعفهم ويمتد من سنة ٢٢٧هـ حتى سنة ٢٩٥هـ، وهو عصر زاد فيه نفوذ المماليك الأتراك في الدولة وفي شؤون

الخلفاء من الخليفة الواثق بالله حتى الخليفة المكتفى بالله وعددهم تسعة خلفاء واشتهر فيه خليفتان قويان هما: جعفر الملقب بالمتوكل على الله الذى رفع محنة الدين، وهو القول بخلق القرآن، وأخرج أحمد بن حنبل من الحبس، وقد قتل المتوكل غيلة من قبل ابنه المنتصر بالله بمساندة من باغر التركى الذى باشر القتل مع جماعته الأتراك.

أما الخليفة الآخر فهو أحمد بن طلحة بن جعفر الملقب بالمعتضد بالله وهو حفيد المتوكل على الله، وكان عادلاً ضابطًا ذا تجربة وحنكة، وضع عن الناس ما يطالبون به من قبل الدولة، وأسقط المكوس، وبذل المال، وحج، وغزا، وجالس المحدثين وأهل الفضل والدين. تولى الخلافة وليس فى بيت المال سوى قراريط لا تبلغ الدينار، والأعمال منهوبة، والأعراب والأكراد عابثون، والأعداء متسلطون فأصلح الأمور، وأحسن التدبير، وقمع الأشرار، وبالغ فى العمارة، وأنصف فى المعاملة، ورفق بالرعية. وخلف المعتضد فى بيت المال تسعة عشر ألف ألف دينار وأربعين ألف ألف درهم. ويؤخذ عليه شدته فى العقوبة، وعدم العفو لمن يغضب عليه.

العصر العباسى الثالث: عصر ضعف الخلفاء العباسيين

١٨- أبو الفضل جعفر المقتدر بالله ٢٩٥هـ.

١٩- أبو منصور محمد القاهر ٣٢٠ هـ.

٢٠- أبو العباس أحمد الراضى ٣٢٢هـ.

٢١- أبو إسحق إبراهيم المتقى ٣٢٩هـ.

٢٢- أبو القاسم عبدالله المستكفى٣٣٣هـ.

٢٣- أبو القاسم الفضل المطيع ٣٣٤هـ.

٢٤- أبو الفضل عبدالكريم الطائع ٣٦٣هـ.

٢٥- أبو العباس أحمد القادر٣٨١هـ.

٢٦- أبو جعفر القائم ٤٢٢هـ.

٢٧- أبو القاسم عبدالله المقتدى ٤٦٧هـ.

٢٨- أبو العباس أحمد المستظهر ٤٨٧هـ.

٢٩- أبو منصور الفضل المسترشد ٥١٥هـ.

٣٠- أبو جعفر المنصور الراشد ٥٢٩هـ.

٣١- أبو عبدالله محمد المقتفى ٥٣٠هـ.

٣٢- أبو المظفر المستنجد ٥٥٥هـ.

٣٣- أبو محمد الحسن المستضىء ٥٦٦هـ.

٣٤- أبو العباس أحمد الناصر ٥٧٥هـ.

٣٥- أبو نصر محمد الظاهر٦٢٢هـ.

٣٦- أبو جعفر المنصور المستنصر ٦٢٣هـ.

٣٧- أبو أحمد عبدالله المستعصم ٦٤٠-٦٥٦هـ.

ثالثا: من مظاهر رقى العصر العباسى وتقدمه:

شهد العصر العباسى تطورا رائعا وحضارة راقية ولاسيما فى العصر العباسى الأول، وقد عنى هارون الرشيد بتنظيم التجارة وعهد إلى المحتسب بمراقبة الأسواق والإشراف على الموازين والمكاييل ومراعاة أثمان الحاجات منعا للغش أو ابتزاز أموال الناس، وتم تبادل السلع بين بغداد وغيرها من دول العالم فاتجهت القوافل نحو الصين لتجارة الحرير وبخارى وسمرقند وبلاد اليمن والحجاز والحبشة. يقول جميل نخلة فى كتابه: «أنه لما توافرت الأموال فى أيدى العباسيين وأمن هارون الرشيد طرق القوافل والسفن حملت السلع من جميع أرجاء العالم إلى العراق فحملت الآنية من الهند، والحديد من خراسان، والرصاص من كرمان، والنسيج

الملون من كشمير، والعود والمسك والسروج من الصين، والعطر وأنواع الطيب من اليمن، واللؤلؤ من عذاب، والكافور والعود والقرنفل والنارجيل والثياب القطنية والفيلة من الهند والسند، والياقوت والماس من سرانديب، والجلود والرقيق من بلاد الروم، والفاكهة والسلاح والحديد من بلاد الشام، وجلود الثعالب من الروسيا»(١).

« والحقيقة أن العصر العباسى لم يكن عصرا متطورا وناهضا فى الزراعة والتجارة فقط بل كان عصرا مزدهرا علميا وثقافيا، وقد ظهر اهتمام كبير بالعلوم النقلية والشرعية، فالعلوم النقلية مثل علم التفسير وعلم القراءات وعلم الحديث وعلم الفقه وعلم النحو واللغة والبيان والأدب، أما العلوم العقلية فتشمل: الفلسفة والهندسة وعلم النجوم والموسيقى والطب والسحر والكيمياء والتاريخ والجغرافيا»(٢)

وظهر فى هذا العصر أيضا المتكلمون أو علماء الكلام الذين تكلموا فى مسألة خلق القرآن، وظهرت المعتزلة التى تمجد العقل والذين قربهم المأمون إليه فيما يعرف بمحنة «خلق القرآن»(٣). وقد ظهر نوعان من العلماء؛ صنف يغلب عليه النقل والاستيعاب وهو أهل علم، والنوع الثانى هم الذين يغلب على ثقافتهم الابتداع والاستنباط ويسمون أهل عقل. وقد ورد فى بعض المصادر أن الخليل بن أحمد اجتمع بابن المقفع وتحدثا فى شتى المسائل، فلما افترقا قيل للخليل: كيف رأيت ابن المقفع؟ فقال: رأيت رجلا علمه أكثر من عقله، وقيل لابن المقفع: كيف رأيت الخليل؟ قال رأيت رجلا عقله أكثر من علمه، وبعدما بينا أنواع العلوم التى انتشرت فى ذلك العصر أود أن أشير إلى قضيتين مهمتين:

القضية الأولى: صنع الحضارة الإسلامية لم يكن حكرًا على العرب وهذه ميزة تحسب للعصر العباسى حيث إن الأغلبية الغالبة من الذين عملوا بالعلم كانوا من

(١) انظر كتاب حضارة الإسلام فى دار السلام ص١١٨.

(٢) انظر حسن إبراهيم حسن. تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى. المجلد الثانى ص٣٢٣: ٣٥٣.

(٣) تاريخ الإسلام السياسى. مرجع سابق ص١٦٠.

الموالى وخاصة الفرس، وكانت اللغة العربية هى الوسيلة الوحيدة للتفاهم بين المسلمين؛ فالعباسيون لم يضيقوا على غيرهم ولم تأخذهم عصبية العروبة كالأمويين، ولكنهم رضوا بأن تساهم العناصر غير العربية فى صنع تلك الحضارة الراقية، وبذلك اتسعت صنوف العلم واتسعت فنونه وألوانه باتساع رقعة الأرض إبان العصر العباسى. فمن الملاحظ أن حملة العلم فى الإسلام أكثرهم من العجم كما يقول ابن خلدون: «حملة العلم فى الإسلام أكثرهم من العجم حتى وإن كان منهم العربى فى نسبته فهو أعجمى فى لغته ومرباه»[1]. وهذا التسامح الذى ظهر من العباسيين تجاه العناصر غير العربية هو الذى أعطى فرصة لظهور الكفاءات النادرة فى الدولة «التميز»، فلا غرو أن نرى تفوق الفرس فى صناعة النحو مثل سيبويه والزجاج وهما من العجم، وكذلك حملة الحديث الذين حفظوه عن أهل الإسلام كان أكثرهم عجما أو مستعربين باللغة، وكان علماء أصول الفقه أغلبهم من العجم، وكذلك معظم علماء الكلام والمفسرين[2]. هذا القول بجملته لا ينكر دور العرب أيضا فى الحضارة فنحن لا ننفى دورهم؛ فالدين الإسلامى فى أوله لم يكن فيه صناعة أو حذق لأنواع العلوم لأن العرب كانوا أصحاب بداوة، وإنما كان يهمهم في المقام الأول أحكام الشريعة التى هى أوامر الله ونواهيه، كان الرجال ينقلونها فى صدورهم وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة بما تلقوه من صاحب الشرع وأصحابه، ولم يكن العرب آنذاك يعرفون أمر التعليم والتأليف والتدوين وكانوا يطلقون على حملة القرآن الكريم والذين يقرأونه قراء. فالعرب حملوا الدين بأوامره ونواهيه وشريعته كاملا فى صدورهم وعقولهم وانساحوا فى الأرض يعلمونه للناس وعملوا بقول رسول الله ﷺ: **«تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما بعدى: كتاب الله وسنتى»**، فلما بعد النقل احتيج إلى وضع التفاسير القرآنية وتقييد الحديث مخافة ضياعه، ثم احتيج إلى معرفة الأسانيد وتعديل الرواة للتمييز بين الصحيح وما دونه من الإسناد، ثم احتيج إلى وضع القوانين النحوية حينما كثر استخراج أحكام الوقائع من الكتاب والسنة وفسد مع ذلك اللسان،

(١) وانظر المرجع السابق ص٣٢٠ (٢) المرجع السابق ص٣٢١

وبعد فترة من الوقت ظهر اشتغال الأعاجم بعلم الأحاديث والتفسير والنحو إلى غير ذلك، وبحكم النشأة والتربية اكتسب العجم اللسان العربى وذلك بمخالطة العرب وصيروه قوانين وفنًا لمن بعدهم، وكذلك حملة الحديث الذين حفظوه عن أهل الإسلام أكثرهم عجم أو مستعربون وهكذا يظهر لنا أنه لم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم غالبا. أما العرب الذين أدركوا تلك الحضارة فقد شغلتهم الرياسة فى الدولة العباسية فهم أهل الدولة وحاميتها والموجهون لسياستها مع ما يلحقهم من الأنفة فى انتحال العلم حينذاك فيما صار من جملة الصنائع»[١].

ويقول نيكلسون: «كان لانبساط رقعة الدولة العباسية ووفرة ثروتها ورواج تجارتها أثره الكبير فى خلق نهضة ثقافية لم يشهدها الشرق من قبل حتى لقد بدا أن الناس من الخليفة إلى أقل أفراد العامة شأنا غدوا فجأة طلابا للعلم أو على الأقل أنصارا للأدب، وفى عهد الدولة العباسية كان الناس يجوبون ثلاث قارات سعيا إلى موارد العلم والعرفان ليعودوا إلى بلادهم كالنحل يحملون الشهد إلى جموع التلاميذ المتلقية ثم يصنفون بفضل ما بذلوه من جهد متصل هذه المصنفات التى هى أشبه شئ بدوائر المعارف والتى كان لها أكبر فضل فى إيصال هذه العلوم إلينا بصورة لم تكن متوقعة من قبل»[٢].

القضية الثانية: الترجمة والانفتاح على فكر وثقافة الآخرين:

اشتغل المسلمون بالترجمة منذ عصر مبكر وإن بدأت فى العصر الأموى بوجود خالد بن يزيد الذى بدأ يعمل بالترجمة وترجم بعضا من كتب الفرس والروم فى الطب والكيمياء.

ولكن فى العصر العباسى زادت الترجمة والانفتاح على علوم الآخرين وبدأت بمساعدة الفرس وتم ترجمة بعض علوم من اليونان وعلوم الفرس، فترجم حنين بن إسحاق للخليفة أبى جعفر المنصور بعض كتب أبقراط وجالينوس فى الطب

---

(١) انظر حسن إبراهيم حسن. تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى. المجلد الثانى ص٣٢١.

(٢) المرجع السابق ص٣٣٢.

ونقل وترجم كتاب «السند هند» وكتاب إقليدس فى الهندسة، وقد ازدادت العناية بالترجمة فى عهد هارون الرشيد كما نشطت بفضل تشجيع البرامكة وإدرار الأرزاق عليهم، وفى عهد المأمون ازدادت حركة النقل والترجمة من اليونانية والفارسية إلى العربية، كما قام البعض بنقل كثير من الكتب إلى العربية مثل أبناء موسى بن شاكر المنجم الذين أنفقوا الأموال فى الحصول على كتب الرياضيات وكانت لهم آثار عظيمة فى الهندسة والموسيقى والنجوم، وقد ظهرت فى عهد المأمون طائفة من علماء الرياضيات أمثال محمد بن موسى الخوارزمى واضع علم الجبر.

ولم يكن العاملون بالترجمة قد قصرت هممهم على الترجمة فقط وإنما قام بالترجمة كثير من جهابذة العلماء فكانوا يستوعبون المادة المترجمة ثم يضيفون عليها إضافات من روح العصر لتتناسب مع الواقع فأبدعوا إبداعات رائعة، ومن أمثال هؤلاء يعقوب بن إسحاق الكندى الذى نبغ فى الطب والفلسفة وعلم الحساب والمنطق والهندسة وعلم النجوم، ومن أشهر المترجمين فى تلك المرحلة حنين بن إسحاق ويعقوب الكندى وثابت بن قرة وعمر بن فرحان الطبرى وغيرهم كثير[1]. وقد ترتب على حركة الترجمة والتأليف فى العصر العباسى أن تقدمت صناعة الورق ونشطت صناعة الوراقة واتخذ الوراقون حوانيت واتخذوا أمكنة فسيحة يجتمع فيها العلماء والأدباء ليتزودوا من العلم فانتشرت المكتبات التى تزخر بالكتب الدينية والعلمية والأدبية. ومن آثار الترجمة:

١ - الازدهار العلمى والتطور الحضارى:

عرفنا سابقا أن العصر العباسى تميز بالاستقرار العقلى بعدما توقفت حركات التوسع والامتداد العسكرى حيث بدأ العلماء الاتجاه نحو الإسلام فى شتى مجالاته الفكرية والعلمية ليستخلصوا منه اتجاهاته السامية وفكره الراقى الداعى إلى السلام

(١) تاريخ الإسلام السياسى مرجع سابق. المجلد الثانى ص٣٤٨ ، وانظر أيضا أحمد شلبى موسوعة التاريخ الإسلامى ج٣. مرجع سابق ص٢٤٦- ٢٥٠.

وبدأت الشعوب التى انضوت تحت لوائه تدرك هذا جيدا وتعرف أن الشريعة الإسلامية قائمة على التوحيد والعدل والمساواة بعدما ذاقت تلك الشعوب الظلم والتعصب من حكامها، وهى روح بغيضة بعيدة عن الإنسانية تماما، وأقبل العلماء فى شتى مجالات تخصصاتهم على نشر العلم، وتأليف الكتب، وتفسير القرآن الكريم، وجمع السنة المشرفة بجانب الازدهار العلمى لشتى فروع المعرفة ولما كان الناس ينعمون بالأمن والطمأنينة وباتوا بعيدين عن الحروب والكوارث اتجهوا بجانب التأليف إلى إقامة المساجلات والمناظرات الأدبية وإلى أنواع من الجدل بين المسلمين والشيعة أو بين المسلمين وأصحاب الديانات الأخرى، وقد تسلح علماء المسلمين فى مناظراتهم بالفلسفة الإسلامية «علم الكلام» إذ يعد ذلك من ألزم لوازم المناظرات.

وإذا كان العصر الأموى هو عصر الفتوحات والحروب كما قلنا فإن عصر العباسيين هو العصر الذى ترسبت فيه كل مفاهيم الإسلام الضخمة وانصهرت جميع العلوم الفارسية أو الرومية التى ترجمها العرب، وقد انصهرت فى بوتقة واحدة هى بوتقة الإسلام حيث كان الإسلام بسماحته وسعة أفقه ومرونته قادرا على تقبل كل ذلك من ثقافات وأفكار وعادات إلا أنه صبغها جميعًا بالصبغة الإسلامية بعد نقد وتميز لها وانتقاء الصالح منها واستبعاد الطالح الذى لا يفيد.

وقد كان للنظام السياسى للدولة وتلك الحرية الفكرية أثر كبير فى ظهور مناهج فكرية تدافع عن الإسلام مثل منهج المعتزلة الذين يجمعون بين العقل والقلب، وهما معًا يمثلان الإسلام الذى يقوم على التعاون والشمولية، وقد أسلم على أيدى المعتزلة كثيرون فمثلا أسلم على يدى أبى الهزيل العلاف وحده -وهو رأس المعتزلة- أكثر من ثلاثة آلاف رجل، وإن كانت المعتزلة خلال هذه الفترة قد دافعت عن الإسلام بإعطاء العقل مكانه فى مفهوم ذلك الدين وفى الأمور التى يدركها العقل فقط، غير أن تلك الفرقة قد غالت فى الإسلام بتمجيد مكانة العقل بطريقة بعدت بها عن التصور الإسلامى الصحيح وبعدت فى ذلك أيضا عن شمولية

الإسلام الذى تميز بها. وكان من أعلام ذلك العصر الجاحظ الذى كان عليمًا بأساليب الكلام وقد سما على المشبهة والنصارى واليهود ودحض شبهاتهم، كما أنه وقف فى مواجهة الشعوبية. وقد بسطنا ذلك كله ليتضح لنا أن الجدل الحر المنطلق والمناظرات المفيدة هما أروع ما عرف عن ذلك العصر بسبب سماحته الدينية. وأنا هنا لا أدافع عن المعتزلة ولكنه نظام جيد التفكير ضعيف الروح، فإن ذلك الاعتدال بنظامه هو الجناح الثانى للتصوف، وقد بلغ أمر المعتزلة غايته فى الإسراف حينما استأثروا بالسياسة ووضعوا الناس فى عهد المأمون موضع الامتحان فى القول بخلق القرآن؛ وأثاروا أزمة سياسية وفكرية بعيدة المدى تصدى لها الإمام أحمد بن حنبل، ونحن لسنا بصدد تقييم هذه الحركة أو تلك وإنما بسبب إبراز ما يتمتع به العصر العباسى من نضوج فكرى وحرية فكرية أدت إلى اتساع دائرة الثقافة الإسلامية الدينية وإن كانت هذه المحنة فى ذاتها تشير أول ما تشير إلى استبداد الحكام بالرأى، فكم أوذى فى هذه المحنة نفر من علماء المسلمين.

ولا شك أن الاشتغال بجملة العلوم التى سبق الحديث عنها سواء أكانت نقلية أو عقلية كان لابد أن يخلق دولة ناهضة قوية يخفق عليها لواء الأمن والطمأنينة ويطيل فى عمرها، يقول الأستاذ نيكلسون: (كان لانبساط رقعة الدولة العباسية ووفرة ثروتها ورواج تجارتها أثر كبير فى خلق نهضة ثقافية لم يشهدها الشرق من قبل، حتى لقد بدا الناس جميعًا من الخليفة إلى أقل أفراد العامة طلابًا للعلم أو أنصارًا للأدب، وفى عهد تلك الدولة كان الناس يجوبون ثلاث قارات سعيًا إلى موارد العلم والعرفان ليعودوا إلى بلادهم كالنحل يحملون الشهد إلى جموع التلاميذ المتلهفين، ثم يضعون ما بذلوه من جهد فائق فى مصنفات هى أشبه شىء بدوائر المعارف)[1].

وإن كانت هناك حقيقة مهمة هى أن أيديولوجيا الإسلام قد حددها الرسول ﷺ وفقًا لمنهج ربانى فإن كل ما ترجم أو نقل أو ألف قد أثمر فى عملين عظيمين ظهرا فى ذلك العصر هما:

(١) تاريخ الإسلام السياسى. مرجع سابق المجلد الثانى ص٣٢٢.



أ- تحقيق الحديث والسنة وتنقيحهما لبيان الصحيح من عدمه، كما قام به البخارى ومسلم ومالك والترمذى وأبو داود والنسائى وابن ماجه وغيرهم.

ب- تم تقنين الفقه على النحو الذى قام به مالك والشافعى وأبوحنيفة وابن حنبل، ومن هنا تكونت صورة واضحة لمفهوم الإسلام الصحيح ومقوماته، وقد استوعب ذلك ميراث الفكر الإسلامى منذ بدأ الرسول محمد ﷺ وما تبع ذلك من أحكام وقضايا واجهها الخلفاء الراشدون وما اتصل بذلك كله أيضا من أمور تتعلق بتنظيم المجتمع الإسلامى فى مجالات المعاملات بين المسلمين وبعضهم وبين المسلمين وغيرهم.

وكان خلق مثل هذه المرحلة فى مواجهة مختلف التيارات والأفكار والقضايا النابعة من الفلسفات اليونانية والهندية والفارسية ومن مفاهيم الديانات والمذاهب الهدامة. أقول كان ذلك مهمًا ليستطيع الفكر الإسلامى أن يقاوم المفاهيم الخاطئة ويدافع عن دولة الإسلام، ومن هنا يتضح بحق ما يتميز به الفكر الإسلامى من سمو ورفعة ومرونة كافية وشمولية تجعله صالحًا لكل زمان ومكان وقدرة كافية على مجابهة الأفكار الهدامة ودحضها.

ومما هو جدير بالذكر أن فقهاء الإسلام وعلماءه ومحدثيه فى العصر العباسى قد كشفوا عن مقدرة فائقة على التواصل العلمى وتوسيع آفاقه حتى وصلت إلى كل مكان فى أرجاء الدولة العباسية حيث نرى الإجابات السمحة للمعضلات واستخراج النتائج والفتاوى فيقال: إن أبا حنيفة قد أجاب عن ستين ألف مسألة منها خمسة وأربعون ألفًا فى المعاملات، وأورد مالك فى مدونته ستة وثلاثين ألف مسألة وجمعت مسائل أحمد بن حنبل فى أربعين مجلداً[(١)].

وقد صارت هذه المدارس الفقهية كلها فى طريق واحد وتقوم على أربعة أسس هامة هى:

- الاجتهاد بإعطاء المجتمع الحلول الفقهية لمختلف معضلاته.
- تصحيح المفاهيم إذا اضطرب الطريق أو خرج عن مفهوم التكامل والوسطية.

(١) موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية. د. أحمد شلبى ج٣ ص٢٣٩: ٢٤١.

- الدفاع عن الإسلام والرد على الشبهات الموجهة إليه.
- النقد الاجتماعى للمجتمع ومناصحة ولاة الأمر.

ويمكن للباحث فى إطار الحركة العلمية لهذا العصر أن يستخلص تلك القاعدة المهمة التى نحن فى أمس الحاجة إليها اليوم وهى «إعادة صياغة لبعض المفاهيم أو التصورات الإسلامية وفق روح العصر ومشكلاته»، وقد تبلور ذلك واضحًا فى شتى مجالات الحياة فى العصر العباسى وانعكس أثره على العلاقات الخارجية للدولة فى عقود المهادنة والصلح وفى معاملة أصحاب الديانات الأخرى سواء المنعمين بمواطنة الإسلام أو غيرهم فى بلاد أخرى. وفى بعض معاملات البيع والشراء إلى غير ذلك من مسائل اجتهادية وقياسية مثل التى قام بها الأئمة المجتهدون كالشافعى وأبى حنيفة وغيرهما.

وفى هذا العصر ظهرت أيضًا شمولية الإسلام التى تعمقت وانصهرت وأتاحت الفرص لكل العناصر أن تقيم دولاً وحكومات، وقد انسحبت هذه العناصر من أديانها القديمة أولا بأول كما انسحبت من لغاتها. وقد ظهرت حركات النقد الاجتماعى ومناصحة الولاة والزهد كرد فعل على الانحرافات التى اضطرب بها المجتمع، ومن ضمن هذه الحركات حركتا «خالد الدربوس - وسهل بن سلامة الأنصارى» وهما من دعاة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، يقول ابن خلدون: «إن الذى دعا إلى هذه الحركة توافر أهل الدين والصلاح على منع الفسق وكف عاديتهم، كما ظهرت حركات الزهد التى قادها عبدالله بن مبارك وشعبان بن عتيبة وسفيان الثورى وهى رد فعل لانحراف بعض جماعات من المجتمع».

وعندما ظهرت حركات الزندقة متأثرة بأخلاقيات الفرس قاومها العلماء والخلفاء يقول المسعودى: «إن المهدى أمعن فى قتل الملحدين والمداهنين كما قاوموا ما انتشر من كتب «مانى» و«ابن ديصان». وقد اقتفى الخليفة الهادى ١٦٩هـ نفس الطريق الذى سلكه المهدى فقاوم أصحاب مانى، كما تعقب الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ) الزنادقة، كما واجه العلماء والفقهاء كل فرقة ظهرت تقاوم الإسلام من أمثال عبد الكريم بن أبى العوجاء الذى وضع أربعة آلاف حديث مكذوب وحماد الراوية وصالح بن عبدالقدوس وبشار بن برد وغيرهم.

هكذا يتضح انتصار الإسلام فى معاركه من خلال أنظمته الفكرية وانصهاره الاجتماعى، ورأينا كيف مضت قوى الدفاع عن الإسلام وتحريره من الزيف وتنقيته من التقاليد والبدع وإعادة عرضه فى صورته الصادقة بما يوائم تطور المجتمعات وتعاقب العصور، وهكذا نرى أنه طوال عصور الدولة العباسية لم ينقطع تاريخ الإصلاح والتجديد بل ظل مستمرًا، فلم تمر فترة دون ظهور مصلح أو مجدد يعارض التيار المنحرف ويكافح الفساد الشامل ويرفع صوت الإسلام الحق عاليا.

وقد شهد العصر العباسى الأول تطوراً علميًا وأدبيًا رائعًا قد ساعدت عليه عوامل كثيرة منها:

- دور المساجد التى لم تعد مقصورة على العبادة فحسب بل كانت ساحات واسعة للعلماء ومجالس الدرس والمناظرة، وكان لكل علم حلقاته الخاصة به من فقه ونحو ولغة وشعر وغير ذلك من العلوم.
- التطور العقلى المستمد من تجارب الأمة والأحداث التى مرت بها.
- التأثر بثقافات الأمم السابقة من فرس وإغريق وهنود فى الفلسفة وعلوم الطب والطبيعة والفلك والرياضيات.
- اتساع آفاق البحث فى ذات الله وصفاته والحساب والجزاء مما أدى إلى ظهور علم الكلام والرد على الملحدين والزنادقة، ونشاط المعتزلة واضح فى هذا المجال كما عرفنا.
- ازدهار الثقافة الدينية بتفسير القرآن الكريم وجمع الحديث الشريف وتوثيق رواياته فى كتب الصحاح ومنها صحيح مسلم كما ظهرت مذاهب الفقه المتعددة، فى العصر العباسى الثانى[1] «٣٣٤-٦٥٦هـ» وهو لا ينفصل عن العصر العباسى الأول تاريخيًا ذلك أن الظواهر الأدبية والعلمية فى كليهما ممتدة

---

(١) اختلف المؤرخون فى تقسيم العصر العباسى. فمنهم من قسمه إلى عصر عباسى أول ثم عصر عباسى ثان ومنهم من قسم العصر العباسى إلى قسمين متميزين فالقسم الأول من العصر العباسى الثانى كان ناهضًا ومتطوراً بينما القسم الثانى كان متخلفًا لسيطرة الأجانب على الحكم. وأحيانًا يطلق على القسم الثانى من العصر العباسى الثانى العصر العباسى الثالث (٢٩٥- ٦٥٦هـ).

لم تتوقف وإنما داخلها التطور بحكم تطور الحياة فى مناحـيها المتعددة، وقد تميز ذلك العصر «العباسى الثانى» بظاهرتين سياسيتين هما:

الظاهرة الأولى: أنه عصر الدويلات، فقد أعلنت فيه كـثير من الدول استقلالها عن الدولة العبـاسيـة كالإخشـيدية والحمـدانية والبويـهية وقـد أخذت هذه الدول تتصارع ويأكل بعضها بعضا حتى استقرت فى ثلاث دول فى شرق الدولة هى:

أ- الدولة البويهية فى فارس والعراق وامتد حكمها من سنة «٣٢١ -٤٤٧هـ».

ب- الدولة الغـزنوية فى أفغـانسـتان والهند وامـتـد حكمهـا من سنة «٣٥١- ٥٨٢هـ».

ج- الدولة الفاطمية فى مصر والشام وامتد حكمها من سنة «٢٩٧- ٥٦٧هـ».

ثم توالى الصراع والانقسام فى هذه الدول المترامية الأطراف فاستولى السلاجقة على بغداد سنة ٤٤٧هـ، كما قامت الدولة الأيوبية بعـد انهيار الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ حتـى كانت النهـاية المحزنة للدولة العـباسـية بهجـوم المغول علـى بغداد واستيلائهم عليها سنة ٦٥٦هـ.

الظاهرة الثانية: هى قيام الحروب الصليبية التى بدأت عام ٤٩١هـ وشنتها أوروبا على الشرق العربى الإسلامى، واستمر هذا الصراع بين الشرق والغرب نحو قرنين من الزمان.

وعلى الرغم من هذا الانحلال السياسى الذى كان نتـيجة الضعف والتفكك فى جسم الدولة العباسية فى عصرها الثانى عصر الضعف إلا أن الأدب ظل قويا رائعا ولاسيـما فى أوائل العـصر الثـانى، وذلك راجع لزوال الفارق بين الفكر الـعربى الخـالص والفكر الأجنبى، مما أدى إلى خصـب ثقافى وإبداعى فى الشـعر والنثـر وتقدم فى بعض العلوم العظيمة. وكان سبب هذا التقدم:

أ- التنافس الشـديد بين الدويلات المنفـصلة الجـديدة إذ شملـت تلك المنافسـة ميادين العلم والفن والحضارة فى سبيل جـذب النابغين إليها حتى يكون لها السبق على غيرها.

ب- تعدد المراكز الثقافية أمام الأدباء والعلماء وذلك بتعدد العواصم والحواضر، فبعد أن كان الأديب أو العالم ليس أمامه إلا «بغداد وحدها» فى عصر القوة ليظهر أدبه أصبحت أمامه حواضر أدبية متعددة تتسع لإظهار مواهبه كالقاهرة وحلب ودمشق وقرطبة.

ج- تشجيع الخلفاء والحكام للأدباء والعلماء فقد كان أكثرهم أدباء وعلماء يتذوقون الشعر ويتفوقون فى الفصاحة والبلاغة كالحمدانيين الذين اشتهروا بالفصاحة والأدب والعلم وعلى رأسهم سيف الدولة أميرهم، والذى كان يضم بلاطه أشهر الأدباء والنابغين فى عصره كالمتنبى وغيره، وكالفاطميين فى مصر الذين جعلوا من القاهرة مركزًا ثقافيًا ينشر أضواءه على العالم الإسلامى فبنوا الأزهر الشريف وأسسوا الحركات العلمية وأنشأوا مركزًا عظيمًا على جبل المقطم.

وهكذا اتسم العصر العباسى الأول وبداية العصر العباسى الثانى بنهضة علمية فائقة فى شتى مجالات العلم والمعرفة وبتطور حضارى راق امتد أثره إلى جميع شعوب أوروبا حيث كانت بغداد إحدى الجامعات التى يغشاها الأوروبيون لطلب العلم.

٢- مقاومة الغزو الفكرى:

من الأمور التى ينبغى أن نلاحظها جيدًا حينما نتحدث عن الأسباب التى جعلت العصر العباسى أخصب العصور نراها أسبابًا غالبًا ما تكون بعيدة عن الحروب والثورات، ولكننا نراها كامنة ومستقرة تمامًا فى الجوانب العلمية والإبداعية التى اتسمت بها روح العصر، فلهذه الجوانب أثر كبير فى مقاومة هذه الدولة لأغلب حركات الهدم والتقويض وسقوط الدول. ولا عجب فى ذلك، فإذا اعتبرنا الدولة الأموية هى دولة الاتساع الأفقى لانتشار الإسلام فإن الدولة العباسية هى دولة الاتساع الرأسى لتعميق الإسلام فى قلوب مسلمى البلدان المفتوحة ولعل عمر بن عبدالعزيز الخليفة الأموى «٩٩-١٠١هـ» قد ترجم أو عبر عما نقول حيث أوقف الفتوحات وقام بتعميق ضخم لدولة الإسلام ونقل مجال الدعوة الإسلامية

من التوسع الجغرافى إلى التعمق العقائدى حيث أرسل مختلف رسائله إلى الرؤساء والأمراء فى العالم أجمع يدعوهم إلى الإسلام.

وقد كان المأمون الخليفة العباسى «١٩٨-٢١٨هـ» مثلاً بارزًا فى هذا المجال حيث أرسل إلى كثير من أمراء البلاد مثل بلاد ما وراء النهر وغيرها يدعوهم إلى الإسلام.

وعندما دهم الصليبيون بلاد الإسلام كان لابد من وحدة الأمة لمجابهة تلك الحملات الشرسة وما يغذيها من عقائد نصرانية ضد الإسلام حيث كانت حربًا دينية عقائدية فى المقام الأول، وكان لزامًا على المسلمين أن يوحدوا أفكارهم وأن تتلاقى اتجاهاتهم المختلفة حول فكر إسلامى صحيح يوحد الأمة ويقويها للوقوف والتصدى، ومن ثم بدأ الصراع الضخم بين الفقهاء والفلاسفة والصوفية فى معركة ذات نحل مختلفة كان دافعها فى أول الأمر سياسيًا ولكنها سرعان ما تراجعت لتبحث عن المفهوم الإسلامى الصحيح من خلال القرآن والسنة، هذه هى الكليات التى اتفقوا عليها ولا خلاف فيها وهى تمثل قواعد الإسلام الأصلية ولم يبق الخلاف قائمًا إلا فى الفرعيات والتطبيقات.

وكانت قضية «العقل والروح» إحدى القضايا التى شغلت أهل السنة والشيعة، وصبغت الفكر الإسلامى آنذاك بالصبغة الفلسفية الاعتزالية على حين أن الإسلام فى جوهره ما هو إلا امتزاج بين العقل والروح ولا يمكن الفصل بينهما.

وهذا هو التصور الصحيح للإسلام، ومن هنا يعرض كل قضية خلافية على الإسلام بمفهومه الصحيح فيحكم لها أو عليها، وخلال تلك المرحلة برزت الصوفية معتدلة فى أول الأمر تدعو إلى الزهد والبعد عن التطرف والانحلال حيث كانت رد فعل لتطور المجتمع العباسى إلا أن هذه النزعة قد تطورت فى القرن السادس إلى فلسفة نظرية منحرفة أساسها وحدة الوجود والحلول والاتحاد، وبذلك انحرفت عن الفكر الإسلامى الصحيح وتعلقت بها شبهات التآمر على الإسلام، وقد تصدى كثير من أئمة المسلمين لهذه المعتقدات الخاطئة والغارقة فى فلسفات



الحادية مثل الإمام الغزالى الذى استطاع أن يقضى على هذا التمزق الذى قطع أوصال الفكر الإسلامى مما استوجب إعادة صياغة الفكر الإسلامى من جديد وتقارب التصوف والفقه وعادت إلى الإسلام وحدته، وقد ساعد ذلك على توحد الصفوف الإسلامية لمواجهة الغزو الصليبي.

ومن المظاهر الاجتماعية لانحراف التصوف حين يعبر عن مفهوم الإسلام حيث كان من المفروض أن يدعو إلى إحقاق العدل الاجتماعى وذلك ليس بإقرار الفقر وفلسفة الرضا به إذ ظهر فى ظل تلك الدعوة مفهوم التواكل والاستسلام وقبول الذل وإن كانت قد ظهرت بعض دعوات الإصلاح فإنها دعوات جزئية لا تمثل شمولية الإسلام وتكامله ووسطيته التى تجمع بين الروح والمادة، والعقل والقلب، والعمل للدنيا والآخرة.

يكفينا تلك الصورة للفكر الإسلامى بفروعه المختلفة التى تبلورت فى ذلك العصر، وكان هو الحصن الحصين والقلعة العتيدة التى قاومت هجمات المتطرفين أعداء الإسلام، وهذا بلا شك ساعد على امتداد أمد الدولة العباسية وساعد على ظهور العديد من العلماء المعتدلين.





الفصل الثاني:

ضعف الخلافة العباسية وانحلالها

أولا: ظاهرة الدول المستقلة عن الخلافة العباسية.

ثانيًا: أسباب ضعف الدولة العباسية.

لقد مرت الدولة العباسية بكثير من عوامل الضعف والهدم على مر العصور. كان منها عوامل داخلية تتصل بطبيعة الدولة العباسية واتساع مساحتها، ومنها ما يتصل بالنظام الإدارى الذى لم يحكم القبضة على تلك البلاد المترامية، ومنها ما يخص رجالات الحكم: الخليفة والوزراء والقواد الذين استشرى الفساد بينهم فأقبلوا على شرب الخمر واللهو والانصراف إلى الشهوات والملذات حتى ساءت أحوال الدولة.

وقد أوضحنا سابقا أن العصر العباسى بسبب امتداده قسمه المؤرخون إلى عصور متباينة بين القوة والضعف ومتميزة وفق حالة الخلافة ووفق قبضتها على دويلاتها المنتشرة فى أرجاء الأرض.

وقد مر العصر العباسى الثانى على وجه الخصوص من سوء إلى أسوأ، وقد تضافرت عوامل سياسية كثيرة بعضها من داخل البلاد وبعضها الآخر من الخارج مما أدى إلى إصابة الخلافة بالضعف والتفسخ، وتسببت فى فقد الخليفة العباسى سلطانه ولم يعد قادرا على إحكام قبضته على الدويلات التى يحكمها.

ومن هذا المنطلق انبثقت ظاهرة استقلال بعض الدول الإسلامية عن الخلافة الإسلامية فى بغداد ومن هذه الدول:

١- الدولة السلجوقية فى فارس والعراق.

٢- الدولة الأموية فى الأندلس.

٣- الدولة الطولونية-الإخشيدية ثم الفاطمية فى مصر.

٤- الدولة الزيدية -الصفارية-السامانية-البويهية فى فارس.

٥- دولة الأغالبة - الأدارسة - الفاطمية فى «طورها الأول» - المرابطون ثم الموحدون فى الشمال الإفريقى.

٦- الدولة الأموية فى الأندلس.

٧- الحمدانيون فى حلب.

وظاهرة الدول المستقلة لو تناولناها بالدراسة والتحليل لوجدناها قد نجمت عن سوء إدارة الخلافة العباسية للدولة وخاصة فى أنظمتها الإدارية ومدى إحكام قبضتها على البلاد.

فقد كان تمسك الخلفاء العباسيين بنظام الحكم المركزى الموجه من عاصمة الدولة إلى جميع أطرافها المترامية قد أضعف من قبضة الحكومة المركزية ومن بسط نفوذها والعمل على إصلاح أمر دويلاتها. فلا غرو أن تتمرد بعض الدويلات البعيدة وأن تستقل عن الخلافة استقلالا ذاتيا مما أدى إلى انقسام الدولة إلى دويلات متباينة ومتنازعة فيما بينها. وكان الأفضل لمثل هذه الدولة أن تتبع نظام الحكم اللامركزى فتعطى كل دويلة حكمها الذاتى تحت راية الدولة الإسلامية الكبرى وهو ما يطلق عليه اليوم بالنظام المحلى، الذى من أهم أهدافه ربط الدولة بالعاصمة ربطا فيه المصلحة والفائدة الدائمة والمستمرة.

ولكن نظرا لهذا الاتساع الكبير ظهر عيب من عيوب إدارة الدولة، كل أمر يصدر من بغداد دون معرفة تامة بأحوال الإمارات وما يناسبها من تلك الأوامر. بل كان الواجب ألا يكون محليا، لكل إقليم إدارته الخاصه به فى توجيه سياسته وتنفيذ أحكام الشريعة الإسلامية وإن كان خاضعا لبغداد.

إن وجود ذلك العيب قد ساعد على استقلال بعض الدويلات وانسلاخها عن بغداد تمامًا. وعلى الرغم من أن ظاهرة انقسام الدولة إلى دويلات تدل على الضعف السياسى وتمزق الدولة فإنها من ناحية أخرى قد أفادت فى عدة مجالات مثل التنوع الفكرى والحضارى حيث تعددت الحواضر بدلا من حاضرة واحدة، وأصبح هم كل أمير مستقل أن يزين عاصمة ملكة بالعلم والعلماء وأن يقرب الشعراء والأدباء ليتخذ منهم واجهة علمية وأدبية ودينية ترقى بها عاصمة ملكه،

ولا أدل على ذلك من تلك المنافسة الفريدة التى كانت بين بغداد والقاهرة وقرطبة فى عصور الخلافة العباسية والفاطمية والأموية فى الأندلس.

ومع أن هذه الظاهرة قد عمقت الولاء للإسلام فى نفوس كثير من أبناء الدول المستقلة إلا أننا نرى تنوعًا للفكر الإسلامى آنذاك، ففى مصر توجد مدارس فقهية نشطة، وعلماء الكلام فى معاركهم الفلسفية ومجادلاتهم النشطة، بينما نرى روح الجهاد فى سبيل الله ملتهبة فى حلب يقودها سيف الدولة الحمدانى مع الروم، إلى غير ذلك من فكر إسلامى ظل فى جزر ومد إلى أن استقرت مفاهيمه الصحيحة بعد ذلك، كما نشط الشعر والنثر وبرزت مجموعة عظيمة من الشعراء فى الدويلات المستقلة - كما قلنا سابقا - أمثال أبى فراس الحمدانى والشاعر الكبير أبى الطيب المتنبى والبحترى وابن العميد وغيرهم كثيرون.

ومن المعروف أن بعض هذه الدول كانت مستقلة عن الخلافة استقلالاً تامًا، والبعض الآخر ظل محافظًا على ولائه واتصاله بها مع الاستقلال الذاتى، وقد تبلورت هذه الظاهرة وظهرت جلية فى الشمال الأفريقى الذى يمثل الجناح الأيسر لأمتنا العربية وهو الذى تحمل عبء الجهاد ومقاومة الاستعمار الصليبى فى جنوب غرب أوربا باعتبارها القوة الخلفية وراء الأندلس.

كذلك كان لهذه الظاهرة أثرها على «الموالى» الذين شجعتهم الدولة العباسية منذ قيامها، فقد هبَّ بعضهم يدافع عن الإسلام فى وقت ضاعت فيه قوى الخلافة مثل المماليك الذين دافعوا عن الإسلام ضد المغول، وكان لهم صولات وجولات فى معركة «عين جالوت» التى قادها قطز وحقق نصرا هائلا، وكذلك بيبرس الذى طاردهم فى موقعة حمص فى الشام وهزمهم هزيمة منكرة، كما ظهر منهم السلطان قلاوون بن محمد وابنه الملك الأشرف ويعدان من أهم المماليك المدافعين عن الإسلام وقد تكسرت على أيديهما آخر موجات الغزو الصليبى.

وقد يظن ظان أننى أدعو إلى الحركات الانفصالية أو أدعو إلى الانشقاق والتمزق، ولكن ما أخذ على العباسيين من حيث الضعف الإدارى لإدارة بلدان

الخلافة كان يمكن أن يعالج بطريقة أخرى وليس من الضرورى أن يكون الخليفة قابضا على كل شيء وهو وحده المتصرف فى شتى الأمور، وإنما كان من الأفضل أن يتبع نظام الحكم اللامركزى لجميع بلدان الخلافة العباسية، وبذلك يضمن تماسك الدولة وقوتها من ناحية وولاء حكام الأقاليم له من ناحية أخرى. ومن فوائد الحكم المحلى أيضا أنه يشجع على ظهور الخصائص المتميزة لأفراد تلك الشعوب والتى تميز كل قطر بسمات محلية تكسبه الهوية الخاصة وبذلك يكون الخليفة العباسى قد ضمن البلاد تحت قبضته ثم كفل لها التنوع والتميز والإبداع الفنى من ناحية أخرى. ولعل هناك ميزة أخرى قد نراها فى اتساع الدولة على الرغم من استقلال دويلاتها وهى ميزة التنوع بين هذه الدويلات قوة وضعفًا حيث نرى أن من السنن الكونية أن الضعف أمر طبيعى فى دورات التاريخ فكلما وقفت موجة وتجمدت وضعفت فى مكان ما اندفعت موجة أخرى إلى الأمام والتقدم فى مكان آخر وهكذا تأخذ بلدان العالم الإسلامى بعضها بعضا نحو التكافل.

وقد كان انفساح مساحة العالم الإسلامى وامتدادها فى بيئات مختلفة كفيلة بصنع ثقافة إسلامية مشتركة متميزة صبغتها الأولى الإسلام ولكن لا بأس أن تتنوع تلك الثقافة دون ازدواجية حسب بيئتها، فالثقافة الإسلامية للمجتمعات الإسلامية التى تتعامل مع ثقافة حوض البحر الأبيض المواجه لأوربا مثلا غير الثقافة الإسلامية التى نراها فى المجتمعات الإسلامية فى شرق آسيا وهما معا يختلفان أيضا عن مجموعة الثقافات التى نراها فى صحراء إفريقيا.

نعم يجمعها جميعًا أصل واحد ويغزيها فكر واحد هو الفكر الإسلامى الصحيح ولكنها مختلفة فى التطبيق والشكل والفروع والبيئات والمجتمعات، وهذا هو التميز الذى يميز طبيعة الشعوب ويعطيها هويةً خاصةً بها وهو ما تلغيه العولمة ولا تعترف به.

ولم تكن عيوب الحكم المركزى وحدها سببًا فى ضعف الخلافة العباسية بل كان هناك سبب آخر وهو الاستعانة بالترك فلما ولى المعتصم بالله الخلافة سنة ٢١٨هـ-

٨٣٣م استعان بالأتراك فى دولته وأخذ فى جلب أعداد كبيرة منهم، وأسند إليهم أهم المناصب العسكرية والمدنية، فقوى شأنهم وازداد نفوذهم، وحلوا محل العنصر الفارسى فى أعمال الدولة العباسية، ولم يمض وقت قصير حتى تمكن زعماء الأتراك من الاستبداد بشئون الدولة، والتسلط على الخلفاء فضاعت هيبة الخلافة[١]، وفقد الخليفة ما كان يتمتع به من هيبة وتقدير واحترام فى الفترة السابقة؛ ففى عهد المعتصم بالله وصل أحد الأتراك ويدعى «أشناس» إلى مرتبة القائد العام للجيش العباسى، كما عين المعتصم بالله تركيًا آخر يدعى «إيتاخ» واليًا على بلاد اليمن.

وفى عهد الخليفة الواثق بالله «٢٢٧-٢٣٢هـ» احتل قواد الأتراك مكانة بارزة فى الدولة العباسية، حتى إن هذا الخليفة جعل القائد أشناس فى سنة ٢٢٨هـ-٨٤٣م واليًا على الأقاليم الممتدة من سامراء إلى بلاد المغرب، كما أسند إلى القائد إيتاخ حكم الولايات الشرقية من الدولة العباسية، وقاعدتها خراسان[٢].

ثم ازداد النفوذ التركى حدة بعد وفاة الخليفة الواثق بالله، واستأثر قواد الأتراك بالسلطة، وهيمنوا على الدولة، وأخذوا يتدخلون فى شئونها فأثار هذا النفوذ المتزايد قلق الخليفة المتوكل على الله «٢٣٢ -٢٤٧هـ/ ٨٦١- ٨٤٦م». وعزم على وضع حد له عن طريق التخلص من كبار القواد الأتراك، ومع أن هذا الخليفة نجح فى القضاء على أكبر أولئك القواد وهو إيتاخ إلا أنه فشل فى استعادة سلطة وهيبة الخلافة، وذهب فى نهاية الأمر ضحية لمؤامرة دبرها ونفذها الأتراك[٣]. وبعد مقتل الخليفة المتوكل على الله استفحل النفوذ التركى وأصبح لدى القواد الأتراك من السلطة والقوة ما جعلهم قادرين على التدخل المباشر فى عزل وتعيين الخلفاء، وذلك وفقًا لأهوائهم ومنافعهم الشخصية.

---

(١) تاريخ الإسلام السياسى. د/ حسن إبراهيم ج٣ ص١٩٢ : ١٩٧ .

(٢) المرجع السابق ص٨٠ .

(٣) المصدر السابق المجلد ٣ ص٤ : ٦ .



لقد اختل توازن الدولة العباسية اختلالاً مشينًا نتيجة لاستفحال نفوذ الأتراك، وأصبحت البلاد مسرحًا للفوضى والقلاقل والاضطرابات السياسية، وقد حاولت العناصر العربية والفارسية التى فقدت ما كانت تتمتع به من امتيازات أن تعمل على استرداد مكانتها ونفوذها فى الدولة، فنجح الفرس فى الاستقلال ببعض أقاليم الدولة العباسية فى شرق الدولة الإسلامية وأقاموا بها دولاً مستقلة عن الخلافة.

ولقد شغل المشرق الإسلامى أهمية كبرى منذ قيام الدولة العباسية إذ يعد الركيزة التى استمدت منها الدولة قوتها ودعامتها حيث ساندها القادة الساسانيون حتى كتب لها النجاح، وهذا بلا شك يفسر المكانة المتميزة التى احتلتها العناصر الفارسية فى الدولة العباسية فى مهدها الأول.

ولما تغلب الأتراك على الدولة على نحو ما عرفنا واستبدوا بها وهيمنوا على الخلافة نقل الفرس نشاطهم إلى المشرق وأقاموا لهم به دولاً مستقلة هى الدولة الصفارية، والدولة الساسانية، والدولة العلوية بطبرستان.

ومن الملاحظ أن الدولة الصفارية قد قامت على أنقاض الدولة الطاهرية، ثم أزال السامانيون بعد ذلك الدولة الصفارية واستولوا على البلاد التابعة لها، ثم سقطت الدولة السامانية وحلت محلها الدولة الغزنوية التى ضمت أجزاء كبيرة من أقاليم المشرق الإسلامى، وفى أواخر القرن الخامس الهجرى ظهر السلاجقة وأقاموا دولتهم على أنقاض دولة الغزنويين كما سنعرف بعد.

وسوف نلقى الآن نظرة سريعة على الدول المستقلة التى قامت فى المشرق الإسلامى، وكان لكل دولة طابعها الخاص وأهدافها المميزة ورجالها الذين عضدوها وقاموا بها ومن ثم استأثروا بالسلطة فيها دون الخلافة العباسية، وذلك ليتضح لنا كيف أصبحت سلطة الخليفة منحصرة فى مدينة بغداد، لا حول له ولا قوة، وكيف كان الخليفه ألعوبة فى أيدى هؤلاء المستقلين فى شرق الخلافة.

١- الدولة الصفارية[1]:

مؤسس هذه الدولة هو يعقوب بن الليث الصفار، وهو رجل فارسى من مدينة القرنين بإقليم سجستان وكان يعقوب فى بداية أمره يعمل لدى أحد الصفارين «النحاسين»، ثم التحق بجيش القائد صالح بن النضير الكنانى الذى تطوع لقتال الخوارج فى إقليم سجستان ونظرا لما أبداه يعقوب الصفار من شجاعة فائقة وإخلاص فى قتال الخوارج فقد أصبح من المقربين إلى صالح بن النضير، وكان صالح يعتمد عليه ويثق به حتى إنه جعله فى مقام النائب، ولما توفى زعيم المتطوعين خلفه أخوه درهم بن نصر غير أنه لم يكن فى كفاءة سلفه وبالتالى ظهر عجزه فى القيام بأعباء القيادة فالتف أفراد الجيش حول يعقوب وجعلوه قائدًا لهم، ويذكر اليعقوبى أنه لما استفحل خطر الخوارج فى المشرق استأذن يعقوب الصفار الأمير محمد بن طاهر فى قتالهم فأذن له، فتصدى يعقوب للخوارج فى إقليم سجستان وكرمان، ففتك بهم وطهر البلاد منهم. ومن ثم كافأه الخليفة المعتز بالله بجعله واليا على إقليم سجستان.

أظهر يعقوب بن الليث الصفار مقدرة وكفاءة فى القيادة وضبط أمور الجند فأطاعه أتباعه طاعة تامة فبسط نفوذه فى إقليم سجستان وأقر الأمن والنظام فيه. ومن ثم أخذ يعمل على توسيع رقعة نفوذه فى البلاد المجاورة فاستولى فى سنة «٢٥٣هـ- ٨٦٧م» على مدينتى هراه وبوشنج بعد أن ألحق بواليها من قبل الطاهريين هزيمة ساحقة وفى سنة «٢٥٥هـ- ٨٦٨م» انتزع ولاية كرمان وفارس من والى الخلافة على بن العباسى بعد دخوله مدينة شيراز عاصمة إقليم فارس وبعث رسالة يظهر فيها الطاعة والولاء للخلافة العباسية، وأرفق الرسالة بهدية جليلة للتدليل على طاعته وحسن نواياه تجاه الخلافة. وفى سنة «٢٥٧هـ- ٨٧٠م» وافق الخليفة العباسى المعتمد

(١) اعتمدنا فى الكتابة عن الدولة الصفارية على المراجع التالية: محمد الخضرى تاريخ الأمم الإسلامية «الدولة العباسية». الطبرى تاريخ الأمم ج١١، الكامل لابن الأثير ج٧، تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى. حسن إبراهيم حسن ج٣، مروج الذهب للمسعودى ج٤.



على الله على ضم بلخ وطخارستان والسند إلى يعقوب الصفار فقوى أمره، وتطلع إلى بسط نفوذه على كل أقاليم المشرق الإسلامى.

وفى سنة «٢٥٩هـ- ٨٧٢م» دخل يعقوب بن الليث الصفار مدينة نيسابور قاعدة خراسان، وأزال حكم الطاهريين منها، وضمها إلى دولته.

ولكى يبرر يعقوب عمله هذا كتب للخليفة العباسى يخبره بأن أهل خراسان كتبوا إليه يطلبون معونته نظرًا لعجز الأمير محمد بن طاهر عن ضبط أعمال خراسان، مما أدى إلى انتشار الخوارج وأعداء الدولة بها. غير أن الخليفة لم يقر يعقوب على تصرفه واعتبر ذلك تحديًا سافرًا لسلطان الخلافة، وبالتالى كتب إليه يأمره بأن يكتفى بما أسند إليه من أعمال سنة «٢٥٧هـ- ٨٧٠م» وإلا فإنه يعتبر خارجًا عن الطاعة.

لم يكترث يعقوب بموقف الخلافة منه بعد استيلائه على نيسابور وأخذ يواصل نشاطه التوسعى حتى إنه هدد بغداد نفسها سنة «٢٦٢هـ- ٨٧٥م» ففى هذه السنة زحف يعقوب بجيشه إلى إقليم خوزستان واستولى عليه، وكتب للخليفة العباسى رسالة طالبه فيها أن يوليه رسميًا جميع البلاد التى كان يحكمها الطاهريون بالإضافة إلى شرطتى بغداد وسامراء وأن يجمع حجاج المشرق الإسلامى الموجودين فى العراق ويخبرهم بذلك.

ولما كانت جيوش الخلافة آنذاك تتأهب لمواصلة القتال ضد صاحب الزنج فقد اضطر الخليفة إلى الموافقة على مطالب يعقوب الصفار وأنه ولاه خراسان وسجستان وفارس وكرمان وطبرستان وجرحان وغيرها من بلاد المشرق الإسلامى.

وبهذا أكسب يعقوب حكمه لهذه الأقاليم الواسعة صفة شرعية، وأصبحت حدود دولته الغربية تتاخم الأقاليم التى تحكم من قبل الخلافة مباشرة، ومع كل هذا التساهل من قبل الخلافة أصر يعقوب على دخول مدينة بغداد بحجة مقابلة الخليفة والتشرف بالسلام عليه، فأرسل الخليفة جماعة من الفقهاء والقضاة لإقناع يعقوب بالعودة إلى بلده وترك الفتنة غير أن يعقوب أصر على دخول بغداد مما أثار

شكوك ومخاوف الخليفة وأخيه الموفق بالله، فأعدا جيش الخلافة ونجحا فى إلحاق هزيمة ساحقة بالجيش الصفارى فى معركة دير العاقول على مقربة من بغداد، فعاد يعقوب مهزومًا إلى خوزستان وأخذ يعد العدة من جديد لمهاجمة العراق ولكنه توفى وتخلصت الخلافة من شره.

آلت رئاسة الدولة الصفارية بعد وفاة يعقوب بن الليث الصفار سنة «٢٦٥هـ-٨٧٨م» إلى أخيه عمرو بن الليث الصفار فكتب عمرو للخليفة يعلن طاعته فأصدر الخليفة أمره بتعيينه على خراسان وسجستان وفارس وأصبهان والسند وكرمان وشرطتى بغداد وسامراء.

ثم ساءت علاقة عمرو الصفار بالخلافة العباسية سنة «٢٧١هـ- ٨٨٤م» نتيجة لما قام به عمرو من أعمال لم يرض عنها الخليفة العباسى ومنها أنه صك عملة ذهبية ونقش عليها اسمه، فاعتبر الخليفة هذا الإجراء خروجًا عن الطاعة، وبالتالى أعلن الخليفة عزل عمرو بن الليث الصفار عن الأقاليم التى أقرته الخلافة عليها سنة «٢٦٥هـ- ٨٧٨م».

ثم تحسنت العلاقة بين الخلافة العباسية وبين الدولة الصفارية اعتبارًا من سنة «٢٧٦هـ- ٨٨٩م» فصاعدًا، ويذكر بعض المؤرخين أن الخليفة العباسى أعاد منصب شرطة بغداد فى شوال من هذا العام إلى عمرو بن الليث الصفار، وفى سنة «٢٧٩هـ- ٨٩٢م» كتب الخليفة العباسى المعتصم بالله «٢٧٩-٢٨٩هـ/ ٨٩٢م-٩٠١م» لعمرو عهدًا بولاية خراسان وفى سنة «٢٨٤هـ- ٨٩٧م» ضم الخليفة العباسى ولاية الرى للدولة الصفارية، وذلك بمثابة مكافأة لعمرو الصفار على قتله للقائد الخارج على الخلافة رافع بن هرثمة.

وفى سنة «٢٨٥هـ- ٨٩٨م» استجاب الخليفة العباسى لطلب عمرو بن الليث الصفار، وأصدر عهدًا بضم إقليم ما وراء النهر إليه. فكانت هذه الولاية سببا فى سقوط الدولة الصفارية كما سيمر بنا.



٢- الدولة الزيدية[١]:

مؤسس هذه الدولة الشيعية هو الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب.

أما ظروف قيامها فكانت على النحو التالى فى سنة ٢٥٠هـ- ٨٦٤م منح الخليفة العباسى المستعين بالله محمد بن عبدالله بن طاهر رئيس شرطة بغداد بعض الأراضى الزراعية فى إقليم طبرستان على مقربة من بلاد الديلم، فبعث محمد بن محمد بن عبدالله بن طاهر إلى وكيله جابر بن هارون النصرانى لاستلام تلك الأراضى، إلا أن الوكيل ضم إليها أرضًا -وهى كلاروثالوى والرويان- كان أهل القرى المجاورة لها يحتطبون منها، ويرعون فيها مواشيهم، فوقفوا فى وجه النصرانى ومنعوه من التصرف فى الأرض، فهرب إلى أمير طبرستان الطاهرى سليمان بن عبدالله بن طاهر يطلب معونته فخاف أهل تلك الناحية على أنفسهم واتصلوا بجيرانهم من الديلم، وكان بينهم علاقة مودة وحسن جوار، واتفق الجانبان على حرب سليمان بن عبدالله بن طاهر. ولكى يكسبوا النجاح لحركتهم رأوا أن يولوا عليهم رجلاً يتمتع بنفوذ روحى فأشير عليهم باستقدام الحسن بن زيد العلوى. وبالفعل أحضروا الحسن من الرى وبايعوه وطردوا عمال الأمير الطاهرى. وكان بعض أهالى طبرستان ينقمون على سليمان بن عبدالله بن طاهر لظلم عماله لهم وعدم إنصافهم فانضموا الى الحسن بن زيد وأنصاره، فقوى شأنه، واستطاع أن يستولى على أهم المدن فى إقليم طبرستان مثل أثل وسارية بعد أن ألحق بجيش الطاهريين عدة هزائم.

واصل الحسن بن زيد نشاطه العسكرى بعد سيطرته على إقليم طبرستان فاستولى على الرى سنة ٢٥٦هـ- ٨٦٩م وعلى جرجان سنة ٢٥٧هـ- ٨٧٠م وعلى قومس سنة ٢٦٦هـ- ٨٧٩م وكان فى أثناء ذلك يرسل الدعاة إلى مختلف

---

(١) اعتمدنا فى الكتابة عن هذه الدولة على المراجع التالية: الكامل لابن الأثير ج٧، ابن خلدون العبر ج٥، مروج الذهب للمسعودى ج٤، تاريخ الطبرى ج١١ .

النواحى لاستمالة الناس إليه ونجح فى الاحتفـاظ بحكم طبرستان لمدة عشرين عامًا ولم ينجح العباسـيون ولا أمراء الدولة الصفـارية فى انتزاع هذا الإقليم منه بالرغم من الحملات العسكرية الكبيرة التى كانت توجه لقتاله باستمرار.

وفى سنة ٢٧٠هـ- ٨٨٣م توفى الحسن بن زيد وآلت زعامة الدولة الزيدية إلى أخيه مـحمد بن زيد، ويبدو أن محـمدًا كان أقل خبرة ومقـدرة فى شؤون الحرب والسياسة من أخـيه الحسن، مما أدى إلى توالى الهزائم على جيشـه وبالتالى فقدان الدولة الزيدية لنفـوذها فى بعض الأقاليم التـابعة لها، فـفى سنة ٢٧٢هـ- ٨٨٥م استولى الجيش العباسى على الرى وفى سنة ٢٧٥هـ- ٨٨٨م استولى على جرجان ثم تمكن الجيش السـامانى فى سنة ٢٨٧هـ- ٩٠٠م من انتزاع إقليم طبـرستان من محمد بن زيد بعد معركة هزم فيهـا الجيش الزيدى وأصيب محمد نفسه بجراحات بالغة أدت إلى وفاته.

وفى سنة ٣٠١هـ- ٩١٣م نجح العلوى الحسن بن على بن الحسن الأطروش فى انتزاع إقليم طـبرسـتـان من السامانيـين بعد أن بقى فى أيديهم مـا يقارب ثلاثة عشر عامًا. وأحيـا الدولة الزيدية غير أن الأطروش ما لبث أن توفى سنة ٣٠٤هـ- ٩١٦م فخلفـه فى الحكم الحسن بن القـاسم بن على الملقب بالداعى، وكـان بمثابة وصى على أولاد الأطروش، وظلـت طبرسـتـان تحت حكـم الزيديين حـتى سنة ٣٥٥هـ- ٩٦٥م.

ويلاحظ أن قيـام الدولة الزيدية كان سببًا مباشـرًا فى بدء الهجرة الديلمـية، وبروز الديلم على مسرح الأحداث فى الدولة الإسلامية آنذاك.

٣- الدولة السامانية[١]:

ينتسب السامـانيون إلى «سامان خداه» وهو رجل فـارسى عريق النسب اعتنق الإسلام فى عهد الخليفة الأموى هشام بن عبدالملك. ولما قامت الدعوة العباسية فى

(١) اعتـمدنا فـى الكتابة عن هذه الدولة على المراجـع التاليـة: الكامل لابن الأثير ج٧، ٨. تاريخ الطـبرى ج١٢. تاريخ الإسلام السياسى. حسن إبراهيم. مرجع سابق المجلد ٣.

خراسان انضم «سامان خداه» إلى صفوف أبى مسلم الخراسانى وأسهم فى نشر الدعوة هناك.

وقد لعب أبناء أسد بن سامان خداه «نوح وأحمد ويحيى وإلياس» دورًا بارزًا فى إنهاء ثورة رافع بن الليث بن نضير بن سيار الذى خرج عن طاعة الخليفة العباسى هارون الرشيد واستولى على مدينة سمرقند، فكافأهم الخليفة المأمون بجعلهم ولاة على أهم مدن إقليم ما وراء النهر من قبل والى خراسان «غسان بن عباد».

ولما آل المشرق إلى «طاهر بن الحسين» سنة ٢٠٥هـ- ٨٢٠م أقر أبناء أسد فى أعمالهم، فظل السامانيون ولاة على إقليم ما وراء النهر فكانت دولتهم درعًا منيعًا لحماية حدود الدولة الإسلامية من غارات القبائل التركية.

ولما زالت الدولة الطاهرية على يد يعقوب بن الليث الصفار سنة «٢٥٩هـ- ٨٧٢م» استقل السامانيون بحكم إقليم ما وراء النهر وأصبحوا يحكمونه من قبل الخلافة العباسية مباشرة حيث صدر عهد الخليفة العباسى المعتمد على الله لنصر بن أحمد بن أسد بن سامان بجعله واليًا على أعمال إقليم ما وراء النهر من جيحون إلى أقصى بلاد المشرق. ويذكر أحد المؤرخين أن الخليفة العباسى جعل من بلاد ما وراء النهر إقليمًا قائمًا بذاته وعهد بحكمه إلى الأمير السامانى «نصر بن أحمد» من أجل إيجاد قوة موالية للخلافة العباسية وراء المنطقة الخاضعة لأسرة الصفارية، لكى تستفيد الخلافة من هذه القوة عند الحاجة.

ولما توفى الأمير «نصر بن أحمد» سنة «٢٧٩هـ- ٨٩٢م» آلت رئاسة الدولة السامانية إلى أخيه إسماعيل بن أحمد وهو أعظم حكام هذه الدولة، وأكثرهم شهرة، وبلغت الدولة فى عهده أقصى اتساعها وأوج ازدهارها، وقد تمكن فى سنة ٢٨٠هـ- ٨٩٣م من بسط نفوذه على كل بلاد خوارزم وبلاد ما وراء النهر وتركستان والسند والهند وجرجان.

وفى سنة «٢٨٧هـ-٩٠٠م» نجح الأمير إسماعيل بن أحمد فى القضاء على الدولة الصفارية، وكان الخليفة العباسى المعتضد بالله قد أصدر عهداً فى سنة «٢٨٥هـ-٨٩٨م» بضم إقليم ما وراء النهر إلى الأمير عمرو بن الليث الصفار فأدى ذلك إلى قيام الحرب بين الدولتين السامانية والصفارية، وكانت النتيجة وقوع الأمير عمرو ابن الليث الصفار أسيراً فى يد الأمير إسماعيل بن أحمد وضم إقليم خراسان إلى الدولة السامانية. وفى نفس العام «٢٨٧هـ- ٩٠٠م» زحفت الجيوش السامانية من خراسان إلى طبرستان، ونجحت فى انتزاع هذا الإقليم من الدولة الزيدية بعد مقتل الأمير محمد بن زيد.

وبعد وفاة الأمير إسماعيل بن أحمد سنة «٢٩٥هـ- ٩٠٧م» تعاقب أفراد أسرته فى رئاسة الدولة السامانية سبعة من الحكام من سنة ٢٩٥هـ إلى سنة ٣٨٧هـ، وكان عبد الملك بن نوح الذى آل إليه الحكم بعد وفاة أخيه منصور بن نوح سنة «٣٨٩هـ- ٩٩٨م» آخر أمراء الدولة السامانية، وبعد عدة شهور من توليه الحكم هاجم أحد ملوك الترك ويدعى أيلك خان إقليم ما وراء النهر، ودخل مدينة بخارى «العاصمة» وقبض على الأمير نفسه وعلى قواد الجيش السامانى.

وفى الوقت نفسه بسط الأمير محمود بن سبكتكين نفوذه فى إقليم خراسان وقطع منها خطبة السامانيين.

٤- الدولة الغزنوية[(١)]:

مؤسس هذه الدولة قائد تركى يدعى سبكتكين، كان فى أول أمره غلامًا لألبتكين حاكم خراسان العسكرى من قبل السامانيين، ولما تغير قلب الأمير السامانى منصور بن نوح على ألبتكين، رحل من خراسان إلى غزنة، واستولى عليها بالقوة من حاكمها السامانى وأسس بها إمارة مستقلة وفى سنة «٣٥٢هـ-٩٦٣م» توفى ألبتكين فآلت السلطة إلى ابنه أبى إسحاق، ولكن أبا إسحاق ما لبث

(١) اعتمدنا فى الكتابة عن هذه الدولة على المراجع التالية: الكامل لابن الأثير ج٨،٩ . تاريخ ابن خلدون ج١، تاريخ الإسلام السياسى. مرجع سابق المجلد ٣ .

أن توفى فحدث نزاع على السلطة بين قواده، ثم وقع اختيار الجند على سبكتكين فولوه الحكم لما عرفوا عنه من شجاعة وكرم وتدين وجوده فى الرأى، وكان ذلك فى سنة «٣٦٦هـ- ٩٧٦م».

فأسس سبكتكين الدولة التى حملت اسم العاصمة «غزنة» فسميت الدولة الغزنوية ولما استقر الحكم فى غزنة لسبكتكين أخذ يعمل على توسيع رقعة نفوذه فاستولى على قصدار وبست وقام بحملات ناجحة فى بلاد الهند وفتح بعض القلاع بها وهدم بيوت الأوثان، وأقام شعائر الإسلام.

فى سنة «٣٨٤هـ- ٩٩٤م» تغلب أحد قواد السامانيين ويدعى أبو على ابن سيمجور على إقليم خراسان، وجبى أمواله، وامتنع عن إرسال نصيب المركزية فى بخارى، فكتب الأمير السامانى نوح بن منصور إلى الأمير سبكتكين وكان ذلك بمثابة مكافأة له ولوالده على جهودهما فى إخماد تلك الفتنة. ويذكر أحد المؤرخين أن سبكتكين كان يحكم آنذاك كل المنطقة الواقعة بين غزنة وضفاف نهر السند، وكان على اتصال وثيق بأمراء الدولة السامانية.

توفى الأمير سبكتكين سنة «٣٨٧هـ- ٩٩٧م» بعد أن عهد بالإمارة لولده إسماعيل، وكان أصغر من أخيه محمود، فاستاء محمود وكتب لأخيه إسماعيل يعزيه بأبيه ويذكره بأنه أحق بالإمارة لأنه أكبر منه سنًا وترددت بينهما الرسل، فلم يستمع إسماعيل لأخيه فسار محمود بجيشه إلى غزنة، وحاصر إسماعيل وضيق عليه، فاضطر إسماعيل إلى الاستسلام بعد أن أمنه أخوه محمود وعفا عنه، وبالتالى استقر الحكم لمحمود بن سبكتكين ولما آلت السلطة إلى الأمير السامانى منصور بن نوح سنة «٣٨٧هـ- ٩٩٧م» أصدر قرارًا بعزل محمود بن سبكتكين عن إقليم خراسان وعهد بولايته لقائد تركى يدعى بكتوزون وكان محمود آنذاك بغزنة، فلما بلغه الخبر بعزله كتب للأمير السامانى يذكره بما قدمه هو ووالده من خدمات للدولة السامانية، ويطلب منه أن يقره فى عمله، فأصر الأمير السامانى على إنفاذ قراره، وعند ذلك زحف محمود بجيشه إلى نيسابور ودخلها سنة «٣٨٨هـ-

٩٩٨م» ونجح بعد عـدة معارك مع الجيش السامـانى فى تثبيت نفـوذه فى خراسان وقطع منها خطبة السامانيين وخطب للخليفة العباسى القادر بالله.

ويذكر ابن العـمرانى أن محمود بن سـبكتكين تلقب آنذاك بـ «السلطان» فكان أول من حمل هذا اللـقب، وفى سنة «٣٩٣هـ- ١٠٠٢م» تمكن السلطان محـمود من الاستـيلاء على إقليم سجـستان، وضمـه إلى دولته كمـا بسط نفوذه فى سنة «٤٠١هـ- ١٠١٠م» على بلاد الغـور المجاورة لغزنـة، وبعد ذلك بعامـين دخلت طبرستان وجرجان فى طاعة الدولة الغزنوية، وخطب السلطان محمود للخليفة فى سنة «٤٠٤هـ-١٠١٣م». أرسل السلطان مـحمـود للخليفـة العباسى الـقادر بالله يطلب منه إقراره فى حكم خراسان والبلاد التى كانت فى حوزته فأجابه القادر بالله إلى طلبه، وأصدر عهداً بذلك ولقبه بـ «يمين الدولة وأمين الملة» فاكتسب السلطان محمود بذلك الصفة الشرعية لدولته.

واصل السلطان مـحمـود نشـاطه العسكرى الرامـى إلى توسيع رقـعة نفـوذه فاستولى فى سنة «٤٠٧هـ- ١٠١٦م» على إقليم خوارزم.

وفى سنة «٤٢٠هـ- ١٠٢٩م» ملك السلطان محمود الرى وبلاد الجبل.

قام السلطان محمود خـلال حكمه بغزوات منتظمة على بلاد الهند وأوغل فى أراضيها وتمكن من فتح أقاليم كثيرة بها، وأقام بها شعائر الإسلام، ورتب فيها من يعلم من أسلم من أهلها. وغنم المسلمون من تلك الغزوات الموفقة أموالا طائلة.

وفى سنة «٤٢١هـ- ١٠٣٠م» توفى السلطان مـحمود الغـزنوى فآلت السلطة إلى ابنه محمد، فخطب له من أقاصى بلاد الهند إلى نيسابور.

ويذكر بعض المـؤرخين أن السلطان محـمود كـان على خلاف مع ابنه الأكـبر مسعود مما جعله يعهد بالحكم لابنه محمـد، وكان مسعود آنذاك بأصبهان فلما بلغه الخبر أسرع بجيشه عائداً إلى غزنة لانتزاع الحكم من أخيه محمد.

وكان بعض قواد جـيش الأمير محمد يميلـون إلى مسعود لشجاعتـه وكبر سنه وتمرسه فى قيادة الجيوش، فثاروا على محمـد وقبضوا عليه وأعلنوا طاعتهم لأخيه

مسعود، وكتبوا له يحثونه على سرعة القدوم إلى غزنة لتولى مهام السلطة، ولما وصل مسعود إلى غزنة سنة ٤٢٢هـ - ١٠٣٠م خرج أهلها لاستقباله وأجلسوه على كرسى السلطنة. وتلقى بعد قليل تقليداً بالحكم من الخليفة العباسى.

ويذكر بعض المؤرخين أن نفوذ الدولة الغزنوية آنذاك كان يشمل خراسان وغزنة والهند والسند وسجستان وكرمان ومكران والرى وأصبهان والجبل وغير ذلك.

وفى عهد السلطان مسعود فقدت الدولة الغزنوية ممتلكاتها فى إقليم خراسان وأعماله، وحلت الدولة السلجوقية محلها فى هذه البلاد كما سنعرف بعد.

بقى أفراد الأسرة الغزنوية يتوارثون الحكم فى غزنة واحداً بعد آخر حتى سنة ٥٥٥هـ - ١١٦٠م حيث نجح الأمير الغورى الحسين بن الحسن فى انتزاع غزنة من يد ملكشان بن خسرو شاه بن يهرام بن مسعود بن محمود بن سبكتكين آخر ملوك الدولة الغزنوية.

٥- قيام دولة السلاجقة[١]:

ينتمى السلاجقة إلى قبائل الغز وهى إحدى القبائل التركمانية وهى قبائل كثيرة تبلغ الثلاث والعشرين قبيلة، وكانت تعيش فى الصحراء الواسعة والسهوب التى تبدأ عند حدود الصين، وتمتد حتى شواطئ بحر الخزر. وقد أخذت هذه القبائل التركية تترك مواطنها الأصلية وتهاجر على شكل جماعات نحو الجنوب الشرقى. وازدادت هذه الهجرات بوجه خاص فى أثناء حكم السامانيين. ويبدو أن جدب الأرض وكثرة النسل كانا وراء هجرة هذه القبائل التركية.

لم يكن هذا الفرع من قبيلة الغز «السلاجقة» يحمل اسما خاصا به إلا عندما ظهر سلجوق بن دقاق فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى حيث نجح فى

(١) اعتمدنا فى الكتابة عن هذه الدولة على المراجع التالية: نفوذ السلاجقة السياسى فى الدولة العباسية للدكتور محمد بن مسفر الزهرانى «بتصرف» حسن محمود. العالم الإسلامى فى العصر العباسى، عبد المنعم حسانين دولة السلاجقة. ابن الأثير الكامل ج٩. حسين آمين. تاريخ العراق فى العصر السلجوقى. البداية والنهاية ج١٢. كتاب السلوك للمقريزى ج١ .

توحيد أفراد هذا الفرع، فنسبوا إليه وسموا بالسلاجقة، وفى حوالى سنة «٣٧٥هـ- ٩٨٥م» نزح السلاجقة من موطنهم الأصلى إلى بلاد ما وراء النهر ونزلوا فى ولاية أحد ملوك الترك، ويدعى «أيلك خان» واستولوا على المراعى الموجودة قريبا من بخارى وسمرقند، فكانت منازلهم فى الشتاء فى نور بخارى وفى الصيف فى سغد سمرقند. ويذكر فامبرى أن سلجوق هاجر بألف رجل فقط من أفراد قبيلته ومعهم ألف بعير وخمسون ألف رأس من الماشية.

ويذكر بعض المؤرخين سببًا آخر لهجرة السلاجقة من منازلهم الأصلية ومفاده أن «دقاق» والد سلجوق كان مقربا إلى ملك تركى يدعى «بيغو»، وكان دقاق شهما وصاحب رأى وتدبير، وكان بيغو يستنير برأيه وحسن تدبيره. فاتفق أن هذا الملك أخذ يعد العدة لغزو بلاد الإسلام المجاورة لدولته، فنهاه دقاق عن ذلك فلم ينته، فاختلفا فأغلظ ملك الترك لدقاق فى الكلام فلطمه دقاق، وقاتل خدام الملك الذين حاولوا القبض عليه، والتف أنصار دقاق حوله ودافعوا عنه. ثم اصطلح الملك ودقاق فيما بعد. وبعد وفاة دقاق جعل ملك الترك ابنه سلجوق قائدا للجيش، ولقبه سباشى أى القائد. وكانت زوجة الملك تخوف زوجها من سلجوق والتفاف الناس حوله وطاعتهم له، فلما علم سلجوق بذلك خاف على نفسه، وسار بأنصاره إلى ديار الإسلام فى بلاد ما وراء النهر واعتنقوا الإسلام جميعا.

ويبدو أن مجاورة السلاجقة للسامانيين كان لها دور كبير فى اعتناق السلاجقة للإسلام، ووفقا للمذهب الحنفى الذى ساد بعد ذلك فى دولة السلاجقة. ويعلل بروكلمان اعتناق السلاجقة للإسلام على المذهب السنى، بأن مذهب السنة الواضح الرصين كان يتلاءم مع عقولهم البسيطة مما جعلهم يقبلون عليه ويعتنقونه بكل ما فى نفوسهم من قوة وحماسة.

وتذكر بعض الروايات أن السلاجقة كانوا يدينون بالمسيحية قبل اعتناقهم للإسلام، ويستشهد أنصار هذه الروايات بأسماء أبناء سلجوق إسرائيل وميكائيل وموسى، وهى أسماء وردت فى الكتاب المقدس.

كان سلجوق متحمسًا للإسلام وغيورًا عليه، وقد أخذ على عاتقه حماية سكان المناطق المسلمة المجاورة له من غارات القبائل التركية غير المسلمة، فذاع صيته، وغدا بلاطه ملاذًا للمضطهدين من المسلمين مما أدى إلى زيادة أتباعه وتزايد قوته تبعا لذلك بشكل ملحوظ ومستمر. وقد تمكن سلجوق بطموحه وقوة شخصيته من خلق كيان مستقل لقبيلته، فعلا شأنها، وأصبح يحسب لها ألف حساب. خاصة أن سلجوق أخذ بعد استقراره فى موطنه الجديد فى شن غارات متتالية على كفار الترك المجاورين له، ونجح فى إزالة نفوذ ملوكهم من تلك الديار، ومنع عنهم الخراج الذى كان يدفعه لهم المسلمون فيما مضى. ويذكر الراوندى أن الملك التركى «أيلك خان» حذر السلطان الغزنوى محمود بن سبكتكين من السلاجقة ولفت نظره إلى كثرة عددهم وقوة رجالهم وطموح قائدهم سلجوق.

أخذ السلطان محمود الغزنوى يخطط للتخلص من السلاجقة، فكتب لأبناء سلجوق بعد وفاة والدهم يبدى رغبته فى مصادقتهم ويطلب معونتهم له ضد أعدائه، وأبدى استعداده التام لتنفيذ مطالبهم، ودعاهم جميعا للحضور إلى بلاطه، أو على الأقل إيفاد واحد منهم لعقد العهود والمواثيق معه. فسار إليه إسرائيل، أكبر أبناء سلجوق يرافقه جيش قوى. فلما علم السلطان محمود بذلك أرسل إليه رسالة عاجلة قال فيها: إنه ليس الآن فى حاجة إلى معونة جيشه، وإنما يود رؤيته شخصيًا. فخدع إسرائيل بقول السلطان محمود، وأرسله معتقلا إلى الهند، وحبسه فى إحدى قلاعها، فبقى إسرائيل معتقلا مدة سبع سنوات. ولم تنجح محاولة إخوته فى إنقاذه من محبسه لشدة الحراسة فظل سجينًا حتى مات.

لم يجاهر السلاجقة السلطان الغزنوى بالعداء، بل أخذوا يعدون العدة للانتقام منه فى الوقت المناسب، والتزموا الحيطة والحذر فى تعاملهم معه. ثم نجح ميكائيل ابن سلجوق فى نقل السلاجقة إلى إقليم خراسان حيث كتب للسلطان محمود طالبا السماح له بعبور نهر جيحون إلى أقليم خراسان ليقيموا بين نسا وباورد لضيق أراضيهم وقلة مراعيها، فسمح لهم السلطان محمود بالعبور بالرغم من تحذير أصحابه له من نتيجة ذلك.

وبالفعل عـبر السلاجقـة النهر فى حدود سنة «٤١٦هـ- ١٠٢٥م» ولزمـوا الهدوء والسكينة طوال حيـاة هذا السلطان. ويذكر الحـسينى أن ميكائيل بن سلجـوق كان يعمل آنذاك فى خـدمة السلطان مـحمود، فـحدث أن السلطان محـمود عبـر نهر جيحون إلى بخارى فرأى أحياء السلاجقة وكـثرة مواشيهم فأمر ميكائيل أن يتحول بقبـيلته إلى خراسـان. ولما رفض ميكائيل قبض الـسلطان عليه وعلى جمـاعة من أعيان قومه، ويضيف البندارى أن ميكائيل تقرب إلى أمير خراسان أبى سهل أحمد ابن الحسن الحمدون، وقدم له بعض الهـدايا فأنزلهم مرج داندانقان، بين سرخس ومرو، فأقامـوا فيه. ويبدو التناقض واضحا جـدا بين هذه الرواية والرواية السابقة لها، الأمر الذى يجعل رواية الحسينى محل شك، إذ إنه من غير المعقول أن يقبض السلطان محـمود على إسرائيل بن سلجوق، فـيموت فى سجنه، ثم يـعمل أحد إخوته فى خدمتـه مع علمهم بنوايا السلطان محمود العـدائية نحوهم. وعلى هذا الاعتبار يرجح أن الرواية الاولى أقرب إلى الصحة.

ولما استشهد مـيكائيل سلجوق سنة «٤٢٢هـ- ١٠٢٠م» فى بعض المعارك التى دارت بينه وبين كفار الأتراك آلت رئاسة السـلاجقة إلى ولديه: جغرى بيك داود، وطغرلبك مـحمد. فكتب هذان الزعيـمان للسلطان الغزنوى مـسعود بن محـمود يطلبان منه أن يسمح لهما بالانتقال إلى الأراضى المجاورة لمدينة نيسابور، وأن ينعم عليهـما بولايتى نسـا وفراوة نظير أن يتـعهدا بالتـعاون التام مع الـدولة الغزنوية، والمشاركة فى قتال أعدائهم غير أن السلطان مسعود رفض مطالب السلاجقة وأرسل جيشًا قويًا لإجـلائهم عن خراسان، فتصدى السلاجقـة للجيش الغزنوى، وهزموه شر هزيمة وحصلوا على غنائم من الأسلحة والدواب والألبسة وما شابه ذلك تقدر قيمتها بعشرة ملايين دينار.

كان من أهم نتائـج هذه الحرب أن السلطان مسعود اضطر إلـى عقد صلح مع السلاجقة ليتفرغ لحل مشاكل دولته فى الهند، فأتاح هذا الصلح للسلاجقة الفرصة لإعادة تنظـيم صفوفـهم للصراع مع الغـزنويين،ن وقد زاد ذلك فى قـوتهم. هذا

فضـلا إلى أن الصلح نص على منح السلاجقـة ولايتى نسا وفراوة بالإضـافة إلى ولاية دهسـتان، وهكذا أصـبح جغـرى بك داود واليًا على دهسـتان وطغـرل بك محمد واليًا على نسا بينما عين الاخ الثالث بيرو واليًا على فراوة.

وفى (سنة ٤٢٦هـ- ١٠٣٤م) عبأ السلطان مسعود إلى غزنة وبلغه ما وصل إليه السلاجقة من قوة ومنعة فساءه ذلك وأصـدر أمره لوالى خراسان بمحاربة السلاجقة وإبعادهم عن هذا الإقليم، وقد حارب الوالى السلاجقة وهزم هزيمة ساحقة غضب لها الغـزنويون ودخل طغرل بك مدينة نيسـابور قاعدة خرسـان وجلس على عرش السلطان مسـعود، وانتشر الجيش السلجوقى فى أنحاء خراسـان وتلقب طغرل بك بالسلطان المعظم ركن الدنيا والـدين، وقد فرض السلاجـقة حصارًا اقتـصاديًا على الجيوش الغزنوية، وقد ساعد ذلك على انتصار السلاجقة انتصارًا عظيمًا.

انشغل السلطان مسـعود بأمور دولته فى غزنة والهند وقد أدى هذا لـلسلاجقة فرصة عظيمة لتوسيع رقعة نفوذهم فى خرسان.

وفى سنة ٤٢٩هـ- ١٠٣٧م عبـأ السلطان مسـعود جيـوشه وخرج بهم لقـتال الغزنويين فهربـوا من وجهه وأخذ يتعقبـهم من مكان إلى آخر، وفى النهاية هاجم السلاجقـة الجيش الغزنوى وهزموه هزيمة سـاحقة، وقد خرج كثـير من القادة فى جيش الغزنويين وانضموا إلى صفوف السلاجقة مما أدى إلى هزيمة الجيش الغزنوى ولم تعد له قائمة وبذلك صفت خراسان للسلاجقة دون منازع.

واصل السلاجقة بعد استيـلائهم على إقليم خراسان نشاطهم العسكرى الرامى إلى توسـيع حدودهم غـربًا فى إيران. ففى عـام (٤٣٢هـ- ١٠٤٠م) فاسـتولى السلطان طغـرل بك على الرى، وفى سنة ٤٣٣هـ- ١٠٤١م دخل طغـرلبك إقليم طبـرستان صلـحا وخطب له على منابرها، وبعـد عشـر سنوات دخلت جـيوش السلاجقة أصـفهان حيث اتخذها طغرل بك عـاصمة لملكه، وفى سنة ٤٤٦هـ دان إقليم أذربيجان بالطاعة للسلاجقـة، وهكذا بسط السلاجقة نفوذهم على بلاد إيران وأصبحت جيوشهم على أهبة الاستعداد لدخول العراق.

٦- قيام دولة البويهيين وصراعهم على السلطة[١]:

فى سنة ٣٣٤هـ- ٩٤٥م وقعت الخلافة العباسية تحت نفوذ أسرة حاكمة برزت على مسرح الأحداث آنذاك، وهى الأسرة البويهية، وتتكون هذه الأسرة من ثلاث إخوة، هم على والحسن وأحمد أبناء أبى شجاع بن بويه بن فناخسرو، أحد زعماء قبائل الديلم. وقد نجح هؤلاء الإخوة خلال زمن قصير فى الاستيلاء على بلاد فارس والرى وأصبهان والجبل.

ثم تطلعوا إلى مد نفوذهم إلى العراق، وشجعهم على ذلك الصراع العنيف الذى كان قائما بين أمير الأمراء وبين منافسيه على السلطة فى مدينة بغداد عاصمة الخلافة العباسية، وفى نطاق هذا النزاع أتيحت الفرصة لبنى بويه لتحقيق مطامعهم، فاستولوا فى سنة «٣٢٦هـ- ٩٣٧م» على مدينة الأهواز. كما نجح الجيش البويهى فى دخول مدينة واسط، ومنها زحف إلى بغداد، ودخلها سنة «٣٣٤هـ- ٩٤٥م».

ويذكر الصولى أن الخليفة المتقى لله «٣٢٩-٣٣٣هـ/ ٩٤٠- ٩٤٤م» كان قد كتب لبنى بويه يدعوهم لدخول بغداد، وذلك أثناء نزاعه مع أمير الأمراء «توزون» ورحب الخليفة المستكفى بالله ٣٣٣-٣٣٤هـ/ ٩٤٤- ٩٤٥م بالجيش البويهى لأنه وجد فيه خير منفذ للعراق من شبح المجاعة التى كانت تهدده نتيجة للصراع العنيف الذى نشب بين الأمراء وكبار القواد على منصب «أمير الأمراء».

أسس بنى بويه فى العراق إمارة وراثية، دامت مائة وثلاث عشرة سنة «٣٣٤-٤٤٧هـ- ٩٤٥-١٠٥٥م» وبمعنى آخر جعل البويهيون إمارة الأمراء وراثية فى بيتهم، ووقفا على أفراد أسرتهم، وقد أدى هذا الإجراء إلى إيجاد نوع من الاستقرار السياسى للخلافة.

كان الأخ الأكبر عماد الدولة على بن بويه يتولى رئاسة الدولة البويهية وعاصمة ملكه شيراز، وكان أخوه ركن الدولة الحسن ومعز الدولة أحمد يحميان من قبله،

(١) اعتمدنا فى الكتابة عن هذه الدولة على المراجع التالية: نفوذ السلاجقة السياسى «بتصرف»، وكذلك ابن الأثير الكامل ج ٨، ٩، وحسن أحمد محمود، العالم الإسلامى فى العصر العباسى، ابن خلدون، العبر ج ٣ .

الأول فى بلاد الجبل، وقاعدة حكمه الرى، والثانى فى العراق ومقر حكه بغداد، ولما توفى عماد الدولة سنة «٣٣٨هـ- ٩٤٩م» انتقلت رئاسة الدولة إلى الأمير ركن الدولة وكان يربط بين هؤلاء الإخوة الثلاثة عماد الدولة وركن الدولة ومعز الدولة رابطة قوية قوامها الطاعة والمحبة والاحترام المتبادل والتضافر الوثيق، وهذا هو السبب الفعلى وراء ما وصل إليه البيت البويهى فى أول حكمه من قوة وعزة وسلطان واسع.

بلغت الدولة البويهية أوج عظمتها فى عهد الأمير عضد الدولة ابن ركن الدولة الذى ولى الحكم سنة «٣٦٦هـ-٩٧٦م» خلفا لوالده ونجح هذا الامير فى توحيد البلاد الخاضعة للنفوذ البويهى تحت سلطانه ولم يسمح لأحد من أفراد أسرته بالمشاركة فى الحكم كما كانت عليه الحال من قبل. وتعتبر وفاة الأمير عضد الدولة سنة «٣٧٢هـ- ٩٨٢م» خطا فاصلا بين مرحلتين مختلفتين من تاريخ الدولة البويهية تميزت الدولة فى المرحلة الأولى منها بالقوة والوحدة بينما اتسمت فى المرحلة الثانية بالانقسام والتفكك، ثم آلت إلى الزوال. ولما توفى الأمير عضد الدولة سنة «٣٧٢هـ- ٩٨٢م» دب النزاع على السلطة بين أولاده الثلاثة: صمصام الدولة وشرف الدولة وبهاء الدولة وكان النصر فى النهاية لصالح بهاء الدولة.

عاد الانقسام من جديد فى صفوف أمراء آل بويه وبشكل أكثر حدة بعد وفاة الامير بهاء الدولة سنة «٤٠٣هـ- ١٠١٢م» وذلك نتيجة للصراع العنيف الذى قام على السلطة بين أولاده: سلطان الدولة وشرف الدولة وقوام الدولة وجلال الدولة، هذا فضلا عن نزاع آخر بين أمراء بنى بويه وبين عناصر جيشهم من ديلم وأتراك، وقد استمر هذا النزاع المزدوج قائمًا على أشده حتى أدى فى النهاية إلى سقوط الدولة البويهية، ومما زاد الأمور سوءًا تنافس الديلم والأتراك إذ كان كل فريق منهما يعمل على تقسيم أوضاعه وخاصة المالية منها على حساب الفريق الآخر، مستفيدين من تعطش أفراد الأسرة البويهية. للسلطة وتنافسهم للحصول عليها بأى ثمن.

آلت الأمارة بعد وفاة بهاء الدولة إلى ابنه سلطان الدولة فجعل أخاه أبا الفوارس قوام الدولة أميرًا على كرمان، وهناك نجح الجند الديلمَ فى تحريض قوام الدولة على الثورة وحسنوا له انتزاع الإمارة من أخيه سلطان الدولة، فسار فى سنة «٤٠٨هـ- ١٠١٧م» لقتال أخيه غير أن سلطان الدولة هزمه وانتزع ولاية كرمان منه فلجأ قوام الدولة إلى السلطان الغزنوى محمود بن سبكتكين يطلب منه العون فأمده بجيش عاد به واستولى على كرمان وشيراز إلا أن اختلاف قوام الدولة مع قائد الجيش الغزنوى جعله يصطلح مع أخيه سلطان الدولة فى العراق حتى سنة «٤١١هـ-١٠٢٠م» ثم شغب عليه الجند ونادوا برفع أخيه شرف الدولة إلى الحكم، فأشير على سلطان الدولة باعتقال أخيه تفاديًا لما قد يحدث منه، ولكن سلطان الدولة رفض ذلك ثم أخطأ سلطان الدولة مرة ثانية حين سار إلى الاهواز، وأناب عنه فى بغداد أخاه شرف الدولة مع معرفته بميل الجند إليه. ولما اكتشف سلطان الدولة خطأه أرسل فرقة من جيشه لإخراج شرف الدولة، وهزموا جيش سلطان الدولة، وأقروا الحكم لشرف الدولة فى بغداد وواسط. ثم عقد صلح بين الأخوين فى سنة «٤١٣هـ- ١٠٢٢م» وتضمن أن يكون العراق جميعه لشرف الدولة، وكرمان وفارس لسلطان الدولة.

وفى سنة «٤١٦هـ- ١٠٢٥م» توفى شرف الدولة، وتقرر أن يخلفه أخوه جلال الدولة، وكان أميرًا على البصرة، فتوجه إلى بغداد، غير أنه اضطر للعودة إلى البصرة عندما بلغ واسط لأنه وجد أن ما لديه من المال لا يكفى لعلاج الموقف فى بغداد. وعند ذلك قطعت الخطبة لجلال الدولة، وخطب لأبى كاليجار بن سلطان الدولة. وكان أبو كاليجار آنذاك فى خوزستان يحارب عمه قوام الدولة الذى استولى على كرمان بالقوة عقب وفاة الأمير سلطان الدولة مباشرة، إذ إن أبا كاليجار كان يرى أنه أحق بها من عمه قوام الدولة.

علم جلال الدولة بانشغال أبى كاليجار بالحرب فى كرمان، فسار إلى بغداد ليستولى عليها، ولكن الجند الأتراك تصدوا له ومنعوه من دخولها ونهبوا أمواله

فعاد مكرها إلى البصرة. وعندما علم الأتراك بانعقاد الصلح بين أبى كاليجار وبين عمه قوام الدولة، على أن تكون فارس للأول وتكون كرمان للثانى، طلبوا من الخليفة استدعاء جلال الدولة فتقدم إليها سنة «٤١٨هـ- ١٠٢٧م» وتولى الإمارة بها. ويذكر ابن الأثير أن الأتراك اضطروا إلى قبول إمارة جلال الدولة لما حصل فى بغداد من فتن واضطرابات نتيجة عدم وجود حاكم بها.

استمر نزاع أمراء بنى بويه على السلطة فى العراق، ودارت عدة معارك بين جلال الدولة ومنافسه أبى كاليجار بن سلطان الدولة، غير أن جلال الدولة تمكن من الاحتفاظ بمنصبه فى بغداد حتى توفى سنة «٤٣٥هـ- ١٠٤٣م». وكان وضع جلال الدولة فى بغداد سيئًا للغاية لتزايد نفوذ الأتراك بها. وعلى سبيل المثال ثار الأتراك على هذا الأمير فى سنة «٤٢٣هـ- ١٠٣١م» وأخرجوه من بغداد وهاجموا دار الإمارة، ونهبوا محتوياتها، ثم راسلوا أبا كاليجار وعرضوا عليه منصب الإمارة فى بغداد، غير أن أبا كاليجار خاف من غدر الأتراك ولم يقبل عرضهم، وعندئذ أعادوا جلال الدولة إلى الحكم.

وهكذا أصبح للجند الأتراك من النفوذ فى بغداد ما جعلهم قادرين على تعيين الأمراء وخلعهم وفقا لمصالحهم الشخصية، فيرفعون من يستجيب لمطالبهم إلى السلطة، ويطيحون بحكم من يقف فى وجه مطامعهم ونفوذهم المتزايد.

وبعد وفاة جلال الدولة سنة «٤٣٥هـ- ١٠٤٣م» بعث قواد الجند إلى ابنه أبى بكر منصور الملقب بالملك العزيز، وكان حاكما لواسط من قبل أبيه وطلبوا منه مبلغا من المال نظير تعيينه خلفا لوالده، فلما لم يقدم لهم ما طلبوه من مال، أحضروا أبا كاليجار إلى بغداد، وولوه الإمارة بها.

ويذكر ابن خلدون أن أبا كاليجار كاتب الأتراك بشأن الإمارة، فلما لم يستجب الملك العزيز لمطالبهم، حولوا منصب الإمارة إلى أبى كاليجار. ويبدو أن هذا الأمير قدم للأتراك بعض المال، فقبلوا به أميرًا.

وفى سنة «٤٤٠هـ- ١٠٤٨م» توفى الأمير أبو كاليجار فخلفه ابنه أبو نصر خسرو فيروز الملقب بالملك الرحيم، وهو آخر أمراء الدولة البويهية، وفى عهد هذا الأمير ثار الأتراك عام «٤٤٦هـ- ١٠٥٤م» بحجة تأخير الوزير البويهى لبعض أرزاقهم، ولما هرب الوزير، حاصروا دار الخلافة وأرسلوا مناديًا فى بغداد بأن من وجد الوزير فى داره فقد حلّ دمه وماله، ومن دلّ عليه فله مكافأة حسنة. وفى الوقت نفسه أخذوا يهاجمون دور الناس وينهبونها بحجة البحث عن الوزير الهارب، فاضطر أهل بغداد إلى توحيد صفوفهم، والتصدى للأتراك دفاعًا عن أنفسهم وممتلكاتهم. ولم تهدأ ثورة الأتراك إلا بعد أن عزل الوزير ودفع لهم ما طلبوه من مال، وهددهم الخليفة بالخروج إلى بغداد.

أدى هذا النفوذ المتزايد للجند، وتدخلهم فى تولية وعزل الأمراء البويهيين المتصارعين على السلطة إلى انعدام الأمن والاستقرار فى بغداد عاصمة الخلافة، وإلى تدهور الأحوال الاقتصادية بها نتيجة لذلك، فندرت المواد الغذائية وارتفعت الأسعار ووقف أمراء بنى بويه عاجزين تمامًا عن كبح جماح تلك الفئة الباغية من جندهم، وعلاج الموقف المتردى فى العاصمة، كما كان الخليفة العباسى فى موقف لا يحسد عليه، مما سهل على السلاجقة عملية انتزاع السلطة من آل بويه.

ثانيا: أسباب ضعف الدولة العباسية وانحلالها:

بعد هذا العرض للدول المستقلة عن الخلافة العباسية والتى استأثرت بالسلطة السياسية والدنيوية دون الخلافة، بل بعضهم ضيق على الخليفة وحاربه رغم قلة جيوش الخلافة وانحصارها فى مدينة بغداد، يقول ابن خلدون عن الخليفة المستنصر: «لم يزل هذا الخليفة المستنصر ببغداد فى النطاق الذى بقى له بعد استبداد أهل النواحى.. ثم انحل أمرهم من هذا النطاق عروة، وتملك التتر سائر البلاد وتغلبوا على ملوك النواحى ودولهم أجمعين» ثم يتحدث بعد ذلك عن المستعصم آخر خلفاء العباسيين فيقول: «وكان وزيره ابن العلقمى رافضيًا وكانت الفتنة ببغداد لا تزال متصلة بين الشيعة وأهل السنة وبين الحنابلة وسائر أهل

المذاهب وبين الدعار والمفسدين»[١] ثم يقول عن الخليفة المستعصم: «كيف أستقبل الحكم وضاقت الأحوال على المستعصم فأسقط أرزاق أهل الجند وفرض أرزاق الباقين على البيعات والأسواق وفى المعايش فاضطرب الناس وضاقت الأحوال وعظم الهرج ببغداد ووقعت الفتن بين الشيعة وأهل السنة»[٢].

ويعتبر بعض المؤرخين أن عهد الخليفة المتوكل العباسى بدء عصر انحلال الدولة العباسية الذى انتهى بسقوطها على أيدى التتار عام ٦٥٦هـ، ويرجع ضعف هذه الدولة إلى عدة عوامل سوف نذكرها فيما بعد، ولكننى أود أن أشير إلى قضية قد ألمحنا إليها سابقا وقد ظهرت مع العصر العباسى وهى قضية اعتماد العباسيين على الفرق الأجنبية فى إقامة دولتهم، وفى إدارة شئونها على الخرسانيين أولا ثم الترك ثانيا وكذلك البويهيين والسلاجقة وغيرهم، ومن هنا استأثرت هذه الفرق الأجنبية بالمناصب المدنية والعسكرية -وبخاصة الفرس والأتراك- على العرب الذين كانوا فيما قبل مادة الإسلام وقوام الدولة العربية، ومن هذا المنطلق ضعفت عصبيتهم وانحطت منزلتهم وانصرفت قلوبهم عن تأييد الدولة، وإذا أضيف إلى ذلك حقد العرب المتواجدين فى العصر العباسى لفتك الفرس والعباسيين ببنى أمية وتمثيلهم بهم ومناصبتهم العلويين العداء فقام العلويون بثوراتهم لأنهم استأثروا بالخلافة دونهم، وهم أحق منهم فى ذلك، وإذا أضفنا إلى ذلك أيضا عدم احترام الخلفاء العباسيين لقيمة العهود والمواثيق ونقضهم لها إذا عارضت مصالحهم، كل ذلك أدى إلى انصراف الناس عن تأييد دولتهم.

ومن يتصفح تاريخ خلفاء هذا العصر سيتضح له مدى استبداد الأتراك بالسلطة فى جميع أمور الدولة حتى أصبح فى أيديهم تولية الخلفاء وعزلهم، وكان المعتصم أول الخلفاء العباسيين الذين استعانوا بالأتراك وأسندوا إليهم مناصب الدولة وأقطعوهم الولايات الإسلامية، وهذا التصرف العجيب وهو التحول من الحكم العربى إلي الحكم التركى يعد مظهرا من مظاهر الثورة التى أحس بها معظم

(١) تاريخ ابن خلدون ج٣. طبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة ص٥٣٦.

(٢) المرجع السابق ص٣٧.

أصحاب الخلافة أنفسهم، وهذا بالتالى أدى إلى إضعاف سلطة الخليفة وزوالها فى النهاية.

وقد أدرك المعتصم خطر هؤلاء الأتراك الذين كانوا عبئا كبيرا على أهل بغداد ففكر فى نقلهم إلى سامراء بعيدا عن مقر الخلافة الأولى فى بغداد، وبلغ من ازدياد نفوذهم أن حقد عليهم العرب والفرس إذ تآمروا على المعتصم وكبار رجال دولته من الأتراك وبذلك أصبحوا خطرا على الخلفاء العباسيين وعلى الدولة نفسها.

ومن مظاهر تغلغل نفوذ الأتراك أن المتوكل رأى أن يقدم ابنه المعتز على أخويه المؤيد والمنتصر لتولى الخلافة من بعده، ولكن المنتصر غضب لذلك وحاول بعضهم من الملتفين حول المنتصر قتل المتوكل غيلة بدمشق ولكنهم أخفقوا فى تدبيرهم بفضل بغا الكبير والفتح ابن خاقان على أن بغا الصغير اتفق مع باغر التركى على قتل المتوكل فضربه بالسيف واستقرت الخلافة لابنه المنتصر.

من هنا يتضح كيف كانت أمور الخلافة ألعوبة سهلة فى يد هؤلاء الأتراك إذ وصل بهم الأمر أن يعزلوا خليفة وأن يولوا خليفة آخر، وهكذا ضعف شأن الخلفاء العباسيين وساءت أحوال الخلافة إلى درجة أنها أصبحت خلافة اسمية فقط فلا غرو أن تنهار أمام جنود هولاكو.

هذا وإذا أضفنا إلى أوضاع الدولة العباسية المتهالكة عامل آخر وهو عامل الصراع بينها وبين الدولة الفاطمية التى ظهرت على الساحة سنة «٢٩٦هـ- ٩٠٨م» حيث ظهرت فى بلاد أفريقيا والمغرب وتدعى خلافة المسلمين وتنكر على العباسيين أحقيتهم فى الخلافة، وهذه الدولة الجديدة تختلف فى مفاهيمها ومبادئها الدينية والسياسية مع الدولة العباسية، ثم لم تلبث هذه الدولة أن سيطرت على بلاد أفريقيا والمغرب بعد أن طردت الزعامات المتغلبة وفى مقدمتهم الأغالبة حكام أفريقيا من قبل العباسيين، وفى هذا الوقت أيضا أخذت تلك الخلافة تطلع إلى بلاد المشرق والسيطرة على بغداد لإنهاء الدولة العباسية، وبالفعل بدأت التخطيط لهذه التطلعات وقد شجعها على ذلك بعض الزعامات الفاطمية المتحمسة لهذا

الأمر أمثال جوهر الصقلى وجعفر بن فلاح وقد كللت مساعيهم بالنجاح فسيطروا على البلاد المصرية سنة «٣٥٨هـ- ٩٦٨م» ودعى لها فى السنة نفسها على منابر الحرمين الشريفين. ولم تلبث بعد ذلك أن مدت نفوذها إلى بلاد الشام التى تعتبر امتدادا طبيعيا واستراتيجيا للبلاد المصرية عام «٣٥٩هـ- ٩٦٩م» ووصل نفوذها إلى بلاد العراق أيضا مما أزعج السلطات العباسية، وقد كانت الدولة العباسية تعانى من النزعات الاستقلالية كما أوضحنا سابقا. والتى كانت تدعو إلى إسقاط الدولة العباسية وقد انشقت جبهة المعارضة الفارسية وجبهة المعارضة العلوية كما كانت هناك ظاهرة الدول التى استقلت سواء فى شرق الدولة العباسية كما قلنا أو فى غربها . وإذا كانت بعض هذه الدويلات تخضع خضوعا اسميا للدولة العباسية كالدولة الطاهرية والدولة الصفارية والدولة السامانية والدولة الغزنوية فى المشرق، ودول: الأغالبة والطولونيين والإخشيديين فى المغرب فإن هناك دويلات استقلت عنها استقلالاً تامًا بل وناصبتها العداء مثل الدولة الشيعية فى طبرستان ودولة الأدارسة فى فاس والأمويين فى الأندلس، الأمر الذى جعل الدولة العباسية تزداد ضعفا وتفككا وبخاصة بعد سيطرة العناصر الأعجمية مثل الأتراك ثم الفرس ممثلين فى البويهيين كما أسلفنا القول عند الحديث عن ظاهرة الدول المستقلة.

وكان من أبرز مظاهر ضعف الدولة العباسية فقدان الخليفة لصلاحياته الإدارية والسياسية، وأصبح مجرد مظهر من المظاهر الدينية بل إن البويهيين بحكم تشيعهم لا يعترفون حتى بمكانته الدينية ولا يعترفون إلا بمصالحهم الخاصة. من هذا المنطلق تقدم الفاطميون على العباسيين واستمروا متمسكين بزمام التفوق وإذا كان البويهيون الذين انشقوا عن الخلافة العباسية قد عرفوا بتعصبهم للشيعة وعدم الاعتراف للخليفة العباسى بسلطته الدينية والسياسية فإن السلاجقة على العكس من ذلك عرفوا بتعصبهم لمذهب أهل السنة والاحتفاظ للخليفة العباسى بسلطته الدينية.

وبصفة عامة شهدت الساحة الإسلامية أحداثا وتطورات كبيرة على بغداد وكان بين الطرفين العباسى والفاطمى فى هذه الفترة مواقف وأحداث مهمة تركت آثارا

عميقـة فى جسم الأمة الإسلامية لأن الصراع بين الدولتـين كان صراع بقاء أو فناء لكل منهمـا، فعاش العـالم الإسلامى فى تلك الفـترة حيـاة حرجة للغـاية حيث توزعته الانقسامات وأنهكته الحـروب وأصبح فريسة للغلاء والمجاعات والأمراض، وفوق هذا وذاك صار مستهدفا من القوى الخارجية والداخلية.

وإذا كان العالم يشـهد أنماطا من العلاقات الاقـتصادية والاجتمـاعية والثقـافية والسيـاسية فإن العـلاقات بين الدولتين العبـاسية والفاطمـية كانت عـلاقات عداء وتنافس مستمـرين، وكان العالم الإسلامى فى تلك الفترة مسـرحًا للنزاع والسباق الفاطمى العباسى وعاش منهوك القوى ممزقا، فإذا نجا من حرب وقع فى أخرى مما جعله فـريسة سهلة للقوى الأجنـبية المتحـفزة للإغارة والنهب، وفى مقـدمة تلك القوى «الصلـيبيـون» الذين كانوا على علم تام بتلك النزاعـات والخصـومات التى قسمت العالم الإسلامى إلـى كيانات صغرى، فنرى الصليبيين حيـنئذ قد استغلوا ذلك الصراع وحددوا له الزمـان والمكان تحديدا جيدا وبدأوا يكتسـحون بلاد الشام ابتداء من عام «٤٩٠هـ- ١٠٩٦م» وأن يؤسسوا لهم فى الشام أربع إمارات صليبية فى ظل غياب الجبهة الإسلاميـة الموحدة، ونتيجة للتفسخ والضعف الداخلى الذى كانت تعيشه كل من الدولتين العباسيـة والفاطمية ونتيجة أيضا للصراع المذهبى بين أهل السنة والشيعة. كل هذه الظروف حالت بلا شك دون أن تسعى قوى المسلمين المتأثرة إلى لم شـعثهـا وإلى تجمعهـا فى إطار وحدوى يشكل قوة صـادة وضاربة لجيوش الصليبيين وكان من الممكن أن يحدث ذلك.

ويمكننا من هذا العرض أن نوجز الأسباب التى أدت إلى ضعف الدولة العباسية:

١- إقبال الخليـفة وأبنائه ووزرائه على الشهوات والملذات التى أفقـدتهم الإحساس بالمسئولية والتبعه فتركـوا أمور الدولة وأهملوا شئونها، ويكفينا دليلا على ذلك أن التتـار قد أحـاطت بدار الخلافة «بغـداد» يرشقـونها بالنبـال من كل جانب فأصيبت جارية كانت تلعب بين يدى الخليـفة وتضحكه حيث أصابها سهم من إحدى النوافـذ فقتلهـا وهى ترقص فانزعج انزعـاجا شديدا من ذلك وأحـضر

السهم الذى أصابها بين يديه فإذا مكتوب عليه: إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره أذهب من ذوى العقول عقولهم[(١)].

٢- لم يكن هذا الخليفة «المستعصم» آخر خلفاء العباسيين يصلح لتولى الحكم أو تحمل الأحداث أو المسئولية إذ كان ضعيف الهمة، مترددا سهل الانقياد، غير مدرك لعواقب الأمور، يميل إلى الملذات كما وصفه ابن أيبك الدواداري فى كتابه «كنز الدرر» بأنه كان فيه هوج وطيش وظلم مع بله وضعف وانقياد إلى أصحاب السخف، يلعب بطيور الحمام ويركب الحمير المصرية غير ناظر إلى مصالح المسلمين. ويروى عنه أنه كتب إلى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يطلب منه جماعة من ذوى الطرب وفى تلك الحال وصل رسول هولاكو إليه يطلب منه منجنيقات وآلات الحصار فقال بدر الدين: «انظروا إلى المطلوبين وأبكوا على الإسلام وأهله».

٣- لم تكن الجبهة الداخلية لبغداد جبهة متماسكة بل كانت مصابة بالفتنة الطائفية وبالنزاع الأبدى بين الشيعة والسنة وقد حدث ذات يوم نزاع بينهما وأمر الخليفة ابنه أبا بكر بفض هذا النزاع فأغار أبو بكر على مقر الشيعة فى الكرخ وارتكب كثيرا من الفظائع؛ فقتل الرجال وسبى النساء وسفك الدماء وهتك الأعراض واستباح الحرمات، فكان وقع هذه التصرفات له أثره السيئ على نفوس الشيعة فقد زاد الفتنة بين السنة والشيعة اشتعالا، وكان من هؤلاء الشيعة الخوارج وزير للخليفة وحنق حنقا شديدا وأقسم لينتقم وقد بر بوعده عندما تعرضت بغداد لهجوم المغول وكان سببا من أسباب هزيمة المسلمين وقتل الخليفة كما سنعرف بعد[(٢)].

٤- انقسام الدولة إلى دويلات استقل بعضها أو انفصل بعضها الآخر عن الخلافة، أو مازال تابعًا ولكنه استقل ذاتيًا بمملكته. ولقد ساعد على هذا الانقسام اتساع مساحة الدولة إذ كانت تمتد من حدود الصين شرقا إلى المحيط الأطلسى غربا وبذلك لم يستطع الخليفة إحكام قبضته على البلاد واستبد كل حاكم بولاية

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير المجلد ٧ ج١٣ ص٢١٣.

(٢) جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ج٧ ص٤٣.

ينعم بخيراتها ولم يقدم أموال الولاية أو الجباية إلى الخلافة كما كان يتم سابقا. ومن هنا فقدت الخلافة العباسية فاعليتها ولم يعد للخليفة العباسى أى نفوذ سوى مدينة بغداد فقط ولعل هذا الضعف المشين أغرى الدول المسيحية من ناحية والمغول من ناحية أخرى بالعدوان على ممتلكات الدولة العباسية والطمع فى خيراتها.

٥- اعتمدت الخلافة العباسية على بعض الفرق غير العربية فى خدمة الخلافة، وتلك الفرق الأجنبية قد كثرت واستطال شرها حتى أصبحت تتحكم فى صنع القرار الذى يصدره الخليفة، وهذا الأمر معروف فى التاريخ إذ استعانت الخلافة العباسية فى أول أمرها بالفرس ولما اشتدت وطأتهم على الخليفة أتى الخلفاء العباسيون بالأتراك ليحلوا محل الخراسانيين ولكنهم هم أيضا اشتدت وطأتهم فيما بعد وتحكموا فى أمر الخلافة وهكذا كان شأن السلاجقة والبويهيين الذين تدخلوا فى شئون الخلافة.

٦- كما كان التنظيم الإدارى فى الدولة العباسية تنظيمًا ضعيفًا وضاربت فيه السلطات بعضها ببعض، كذلك اعتمد على النظام المركزى فكيف لهذا الخليفة أن يباشر تلك البقعة الفسيحة من أرض الدولة، وكان يجدر بالعباسيين أن يأخذوا بالنظام غير المركزى ولو فعلوا ذلك لتغيرت الأمور تماما.

٧- إنهاك خزينة الدولة وقدراتها المادية بالحروب الدائرة والمستمرة والتى لا تنقطع من الدول المسيحية المجاورة التى كانت دومًا تعتدى على حدود الدولة وتجبرها على الاشتباك معها فى حروب لا تنقطع. ولنا أن نتصور كيف واجهت البلاد عدوين فى آن واحد؛ العدو المغولى الآتى من الشرق، والعدو الصليبى الذى جاء من أوروبا ليستنزف طاقات الأمة ويمحو معتقداتها ودينها.

٨- ومما أدى إلى ضعف الدولة وتمزقها ظهور كثير من بدع الملاحدة والزنادقة كالراوندية والخرمية وطوائف المتكلمين والمعتزلة وغيرهم.. كل هذا أدى إلى انقسام المسلمين شيعا وطوائف تناهض بعضها بعضا بل يحاول بعضها القضاء على الدولة نفسها.

الفصل الثالث:



المغول وسقوط بغداد

أولاً: تعريف بالمغول وشريعتهم

ثانيًا: غزوات المغول وسقوط الخلافة العباسية

ثالثًا: أسباب سقوط بغداد

رابعًا: تحليل لبعض القضايا المتعلقة بسقوط بغداد

أولا: تعريف بالمغول وشريعتهم:

التعريف بالمغول:

شهد القرن السابع الهجرى -الثالث عشر الميلادى- تأسيس إمبراطورية المغول الضخمة بعد أن كانت تعيش فى السهول والهضاب الواقعة فى شمال الصين، وقد ازدادت نفوذا وضمت أمما أخرى ذات حضارات عريقة ومتباينة، وبسرعة مذهلة امتد سلطانها حتى شملت أراضى الجزء الأعظم من قارة آسيا وعلى الخصوص شرق آسيا، وبذلك ضمت تحت سلطانها دولة واحدة تشمل حضارات الشرقين الأقصى والأدنى.

وعلى الرغم من أن هذه الإمبراطورية قد شيدها أقوام من البدو وكانت عناصرها متباينة ومختلفة المشارب والأصول فإنها نجحت فى أن تحافظ على وحدتها لوقت طويل حتى حينما قسمت إلى عدة أجزاء على كل جزء حاكم من أسرة جنكيزخان فإنها عاشت أيضا دولة موحدة لها بأسها إذا ما قورنت بغيرها من الأمم والممالك الأخرى. وإذا ما رجعنا إلى دراسة موقع تلك القبائل المغولية نراها كانت تقطن الإقليم المعروف بإقليم منغوليا الممتد جنوبا والحزام الجنوبى من سيبيريا الواقع فى الجهة الشمالية من الأراضى الصينية وإلى الجهة الشرقية من إقليم التركستان، وهذا الإقليم أراض كانت تقطنها مجموعة من القبائل البدوية فى القرن السادس الهجرى[1]، وكانت أغلب هذه القبائل مغولا ولكنهم لم يعرفوا بهذا الاسم إلا فيما بعد حيث أطلقه الأوروبيون عليهم فى الوقت الحاضر أيضا. وهذا الجنس يمتد إلى الجنس التركى، وقد عاش أسلاف المغول فى وحدات صغيرة «أموك» وهذه الوحدات الصغرى كانت منقسمة بدورها إلى أقسام أصغر فى شكل فخوذ أو مجموعات ذات صلات وروابط اجتماعية، وفى أغلب الأحيان كانت

(١) حياة جنكيزخان الإدارية والسياسية والعسكرية. للدكتور ب. يا فلادمير ستوف. ترجمة سعد محمد حذيفة الغامدى. الطبعة الأولى ١٩٨٣م ص١٥.

تتحد العديد من القبائل فيما بينها فتمثل قبيلة كبيرة واحدة أو أحيانًا أخرى تلتحم بعض القبائل ذات العلاقات النسبية المتقاربة فيما بينها فتكون اتحادًا قبليًا فدراليًا، فالجامع لهم والباعث على وحدتهم هو الشعور بالقربى أو الإحساس به، كما كان يجمعهم اللسان الواحد واللهجة الواحدة. وتنقسم العشائر المغولية من حيث الحرفة إلى قسمين: قسم ينتمى فى حرفته إلى الرعاة فى السهول والأعشاب. والقسم الثانى هم الصيادون داخل الغابات والأدغال وإن كان هذان القسمان يتكلمان باللهجات المحلية إلا أن كل قسم منهما يختلف عن الآخر من حيث نمط الحياة والمستوى الثقافى ولم يرتبط القسمان بأنظمة حكم خاصة تسير على نمطها كما تفعل دول اليوم. ولكن كان يبرز على الساحة بعض شخصيات قيادية تتصف ببعض الأوصاف وتلقب أحيانا ببطل «بهادر»، وحكيم «سِتشِن» وعاقل «بيلجى» وأمير «تيسى» وقائد أو نبيل «نويان» أما رؤساء القبائل فكانت تحمل لقب ملك «خان» أو لقب إمبراطور «خاقان»، هذا فيما يتعلق بالطبقة الحاكمة «الأرستقراطية» أما ما يخص الطبقة الدنيا وهى التى كان يطلق على أفرادها «آرت أو قارتشو» وكان يطلق على طبقة العبيد «بيكول». وقد كانت قبيلة التتر تتمتع بالمركز القيادى بين العشائر أو القبائل المغولية عامة فى القرن الثانى عشر الميلادى- السادس الهجرى[١].

وفى المنطقة الواقعة بين أراضى قبائل التتر وقبائل الكيرايت وعلى ضفاف نهرى أونون وكرولن كان يعيش حشد من القبائل والعشائر التى تعيش على حرفتى الرعى والصيد، وكان من بين هذه القبائل قبيلة المغول حيث كانت قد حققت لنفسها مكانة ذات أهمية خاصة بين بقية القبائل فى القرن الثانى عشر الميلادى- السادس الهجرى واتخذ قائدها لقب خاقان، وقد جاء وقت من الأوقات أصبح فيه قويًا بشكل ملموس وأخذ يقود الحملات العسكرية داخل الأراضى الصينية حيث كانت آنذاك تحكمها أسرة أجنبية وهى تعرف باسم الكنى أو الكنز، وأصبحت العشيرة الحاكمة والتى ترأسها «برجيكين» ولم تحمل اسم المغول إلا بعد أن أخضعت تحت نفوذها ووحدت العديد من القبائل والعشائر المجاورة لها؛ وبذلك

(١) حياة جنكيزخان.

تكونت أول وحدة سياسية لأمة متحدة والتى تلقبت بأولوس وهو الذى أعطى اسم المغول إحياءً لذكرى أمة أو شعب عظيم، ومن ثم ظهر التتر كقوة بارزة فى حوالى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى.

وفى حوالى سنة ١٠٥٥ ميلادى وعلى ضفاف نهر أونون بالقرب من منطقة ديليون ولد ابن من أسرة «يسو كاى بهادر» وكان يحمل ذلك المولود الجديد فى قبضة يده اليمنى كتلة متخثرة من الدم وهو الذى أصبح معروفًا فى الأوساط الدولية آنذاك باسم جنكيزخان، وهو الذى صار فيما بعد قائدًا كبيرًا من قواد المغول أو التتر.

وهنا يظهر تساؤل مهم وهو: هل المغول هم التتر أما هما تسميتان مختلفتان؟ لقد عرفهم مؤرخو العرب والذين عاصروهم وشهدوا غزواتهم بأنهم هم التتر أو التتار وقد سار على منهجهم من جاء بعدهم من المؤرخين وكذلك مؤرخو المسلمين من العرب المعاصرين، كما سار على هذا التعريف أيضا المؤرخون والرحالة الأوروبيون وبخاصة الأقدمون إلا أن المستشرقين المعاصرين الأوروبيين قد أبانوا عن الفرق بين التتر والمغول وذلك من خلال ما كتبه المؤرخ المسلم الفارسى رشيد الدين الوزير وخاصة ما كتبه فى كتابه المشهور «جامع التواريخ» كما عرف المستشرقون ذلك أيضا مما كتب باللغة المغولية ويتمثل ذلك بصورة رئيسية فى الكتاب المعروف «التاريخ السرى للمغول»[١].

وبناء على هذا نجد أن المغول شيء والتتر شيء آخر ويمكن أن توجد صلة تعريفية بين الاثنين نذكرها باختصار: أن التتر مغول ولكن ليس المغول تترًا، فالتتر شعبة متفرعة من المغول، وليس المغول فرعا من التتر، فالأصل هنا هو المغول وليس الأصل التتر، وعلى الرغم من أن التتر تفرعوا أصلا من المغول وأصبحت لهم دولة مستقلة سيطرت على المغول حقبة من الزمن إلا أنه فى الفترة التى نتكلم عنها وهى القرن السادس الهجرى جاء المغول تحت زعامة جنكيزخان فهزموا التتر

(١) سعد بن محمد حذيفة مسفر الغامدى. سقوط الدولة العباسية. مؤسسة الرسالة ص٥٤.

وقتلوا رجالهم وسبوا نساءهم واسترقوا أطفالهم، ولهذا نجد أن التتر قد تلاشوا على يد الزعيم المغولى وأصبح المغول هم أصحاب الدولة والغلبة وأسسوا إمبراطورية لهم عرفت فى التاريخ بالمغول وليس بالتتر[١].

«الياساق» شريعة المغول:

فكر جنكيزخان فى ترقية حالة بلاده وبخاصة الاجتماعية والخلقية بوضع قانون يكون أشبه بكتاب دينى يسيرون على هديه فى معاملاتهم وأحكامهم ووضع لهم الياساق أو الياسة، وهذه الكلمة «الياساق» -كما قال القلقشندى- تعنى «السياسة»؛ إن السياسة كلمة مغولية أصلها «ياسة» فحرفها أهل مصر وزادوا بأولها سينًا فقالوا: سياسة وأدخلوا عليها الألف واللام فظن من لا علم عنده أنها كلمة عربية وما الأمر فيها إلا ما قلت لك[٢].

واسمع إذن كيف نشأت هذه الكلمة حتى انتشرت بمصر والشام وذلك أن جنكيزخان القائد لدولة التتر فى بلاد الشرق لما غلب «أونك خان» وصارت له دولة قرر قواعد وعقوبات أثبتها فى كتاب سماه ياسة ومن الناس من يسميه «يسق» ولكن الأصل فى اسمه ياسة، وياسة كلمة تركية قديمة معناها القانون الاجتماعى. ومما شرعه جنكيزخان فى هذا الياساق:

١- قتل الزانى.

٢- قتل من تعمد الكذب أو السحر أو تجسس على أحد أو كان سببًا فى تخاصم شخصين وأعان أحدهما على الآخر.

٣- قتل من بال فى الماء أو على الرماد.

٤- قتل من أعطى بضاعة فخسر فيها فإنه يقتل بعد المرة الثالثة.

٥- قتل من أطعم أسير قوم أو كساه بغير إذن قومه.

---

(١) سقوط الدولة العباسية ص٥٤.

(٢) صبح الأعشى ج٤ ص٢٢٠

٦- قتل من وجد عبدا هاربا أو أسيرا قد هرب ولم يرده على من كان فى يده.

ومما شرعه جنكيز خان أيضا ويخص الحيوان:

أ- أن تكتف قوائم الحيوان «ويمرس» أى يدلك قلبه إلى أن يموت ثم يؤكل لحمه.

ب- من ذبح حيوانًا كذبيحة المسلمين ذبح.

ج- من وقع ثوبه أو شيء من متاعه وهو يكر أو يفر فى حالة القتال وكان وراءه أحد وجب عليه أن ينزل ويناول صاحبه ما سقط منه، فإن لم ينزل ولم يناوله إياه كان جزاؤه القتل.

ومن أحكام الياسق الأساسية أيضا:

٧- تعظيم جميع الملل من غير تعصب لملة ما، كما شرط ألا يكون على أحد من ولد على بن أبى طالب مؤنة ولا كلفة، وألا يكون على أحد من الفقراء ولا القراء ولا الفقهاء والأطباء وغيرهم من أرباب العلوم وأهل التقشف والزهد والتعبد والمؤذنين ومغسلى الموتى شئ من ذلك

٨- وألزم الناس ألا يأكل أحد من طعام غيره حتى يأكل هو منه أولا ولو كان أميرا ومن يناوله أسيرا.

٩- وألا ينفرد أحد بأكل شيء وغيره يراه بل يجب أن يشركهم فى طعامه وألا يتميز أحد بالشبع على أصحابه، وإن مر أحد بقوم يأكلون فله أن يأكل معهم من غير إذنهم وليس لأحد منهم أن يمنعه من الطعام.

١٠- ألا يدخل أحد يده فى الماء بل يتناوله بشيء ومنعهم من غسل ثيابهم حتى تبلي كما منعهم أن يفرقوا بين الطاهر والنجس.

١١- حرم تفخيم الألفاظ ومنح الألقاب وإنما يخاطب السلطان ومن دونه باسمه المجرد.

١٢- ألزم جنكيزخـان بعرض العسـاكر والأسلحة إذا أرادوا الخروج للقـتال، وأن يعرض كل واحد مـا معه حتى إبرة الخيط، فمن وجـد أنه قصر فى شىء مما يحتاج إليه عند عرضه عوقب.

١٣- ألزم نساء العـسكر بالقيام بما على الرجـال من الواجبات عند غـيبتـهم كلفة يقومون بها للسلطان، وألزمـهم عند رأس كل سنة أن يعرضوا بناتهم الأبكار على السلطان ليختار منهن من يشاء لنفسه أو لأولاده.

١٤- اتخذ «جنكيـزخان» أمراء العسكر وجـعلهم أمراء ألوف وأمراء مئـين وأمراء عشرات.

١٥- إذا أذنب أحد الأمراء ولو كان كبيـرا وبعث إليه رسولا لينزل به عقابه وجب عليـه أن يسرع إلى تنفـيذ طلب الـرسول وهو خـاضع ذليل حتى ينفـذ فيـه العقوبة التى أمر بها الملك ولو كانت العقوبة تفضى بإزهاق روحه.

١٦- ألزم الأمراء ألا يترددوا على غير الملك ومن تردد منهم على غيره قتل.

١٧- وأقام جنكيزخـان البريد حتى يقف على أخبـار بلاده أولا بأول، وعهد إلى ابنه جغطاى بالإشراف على تنفيذ ما جاء فى الياساق.

ويقول المقـريزى: «فلما مات جنكيـزخان التزم من بعده أولاده واتبـعوا حكم الياسة كالتزام أول المسلمين حكم القرآن وجعلوا ذلك دينا لم يعرف عن أحد منهم مخالفته»(١).

ويقـول السيوطـى عن ديانتهم أنهم: «يسـجدون للشـمس عند طلوعـها، ولا يحرمـون شيئًا، ويأكلون جـميع الدواب، وبنى آدم، ولا يعرفـون نكاحا بل المرأة يأتيها غير واحد»(٢).

---

(١) خطط الآثار ج٢ ص ٢١٠: ٢٢١.

(٢) تاريخ الخلفاء. مرجع سابق ص٥٥٥.

ولا شك أن هذا الدستور أو تلك السياسة أو القانون الذى وضعه جنكيز خان كان له أثر عظيم على حيوية الدولة وعلى رفع شأنها اجتماعيا وخلقيا، وهذا على ما يبدو فيما بينهم، أما أخلاقهم الشرسة وغدرهم بالمواعيد وكرههم للديانات فهى أمور واضحة نسمعها فى معاركهم الوحشية، وإن كانت هذه الشريعة التى وضعها جنكيز خان قد تميزت بالقسوة وفيها بعض المبالغات إلا أنها ساعدت على تقدم المغول من النواحى العسكرية والاجتماعية كما حرمت التعرض للأديان والملل وحالت بذلك دون قيام الاختلافات الدينية أو المذهبية، تلك التى جرت على المسلمين كثيراً من المصائب والويلات. هذا إلى أن هذه الشريعة قد ساعدت على وجود جند قوى مزود بكامل العدد والعدة، وقواد لا يعرفون غير طاعة السلطان وحب الوطن وجعلت الإنسان المخطئ يعاقب نفسه بل يسارع إلى العقاب بمجرد الإشارة إليه، كما جعلت من النساء عنصراً يعتمد عليه فى وقت الحاجة، وجعلت من المغول شعبا بصيراً بعواقب الأمور. أما عن سلبيات هذا الياساق فهو تحريم التمييز بين النجاسة والطهارة، ولعل هذا كان من نتائجه عدم غسل الثياب إلى أن تبلى، ولعله يرمى من وراء ذلك إلى تعويد شعبه التقشف فى المعيشة وتركه الترف الذى يجر إلى الضعف فتفسد الروح العسكرية، أما رفع المؤن عن أولاد على بن أبى طالب وتعظيمه لأهل الدين والمسلمين فلعل جنكيزخان كان متأثرا بالشيعة الذين كانت بلادهم تحيط بهم من أكثر جهات إمبراطوريته، ثم أنه أراد بذلك أخيرا أن يتودد إلى المسلمين بتعظيم آل نبيهم ورجال الدين عندهم وإذ كانت هناك بعض النواحى التى نأخذها على الياساق فلا شك أنه يعتبر أساسا صالحا لبناء النظم الإدارية والاجتماعية عند المغول فى فترة مبكرة من حياة دولتهم.

ثانيا: غزوات المغول وسقوط الخلافة العباسية:

قبل أن نتكلم عن تلك الغزوات لابد أن نقف أمام خبر تردد على ألسن بعض الرواة والذى بات عندهم كأنه حقيقة ثابتة، هذا الخبر يقول إن الخليفة الناصر العباسى هو الذى دعا جنكيز خان لغزو أراضى الخوارزمية فهل يا ترى هذا الخبر صحيح أم مختلق؟

إن أول من قال بذلك هو ابن الأثير حيث كتب شائعات عارية من الحقيقة، ومما قاله يدرك المرء لأول وهلة أن الخليفة الناصر هو الذى قام باستدعاء التتار للقيام بغزو أراضى المسلمين ويعنى بذلك أراضى السلطان محمد الخوارزمى. يقول ابن الأثير: «.. وكان سبب ما ينسبه العجم إليه -يعنى بالضمير الخليفة الناصر- صحيحا من أنه هو الذى أطمع التتار فى البلاد وراسلهم فى ذلك، فهو الطامة الكبرى التى يصغر عندها كل ذنب عظيم»[1]. ويقول الدكتور سعد بن محمد الغامدى الذى ينكر صحة هذا الخبر: أن ابن الأثير ربما أراد بهذا الخبر تلك الاتهامات التى كان يقولها الأمير جلال الدين بن خوارزم شاه من أن الخليفة الناصر هو المسئول عن قتل والده عندما أغرى الكفار ليغزو أراضى والده. وقد قام جلال الدين بنفسه بالإشارة إلى هذه الاتهامات ضد الناصر فى مراسلاته التى تبادلها مع الأمير الأيوبى عيسى وطلب منه مناصرته فى هجوم مشترك ضد الخليفة الناصر، وقد تداول الناس هذه الاتهامات فى البلاد الأيوبية وانكشفت فحوى تلك الرسالة فى سوريا. وقد كان ابن الأثير مؤرخا معاصراً للخليفة الناصر وربما كان متحاملا عليه، ومما روى عنه من معاملته القاسية للشعب وظلمه له وتقاعسه عن أداء واجباته ومسئولياته كخليفة بشكل مشرف أنه كان من واجباته أن يدافع عن أراضى المسلمين من الكرج أولا ثم المغول ثانيا، ومن هذا فقد شك ابن الأثير فى نية الناصر فصدق الشائعات وحاول أن ينسب إليه ما سبق واتهمه به جلال الدين.

وقد ناقض ابن الأثير نفسه حيث يقول فى موضع آخر فى كتابه الكامل بأن الأسباب التى أدت للغزو المغولى للبلاد كانت لأغراض توسعية، وهذا الرأى يتفق مع ما قاله تاجر من أهل الرى كان قد استسلم للمغول ودخل فى طاعتهم حيث كتب خطابا إلى أحد أصدقائه بالموصل وهى بلدة ابن الاثير وقد ذكر هذا التاجر فى خطابه بأن الغرض الرئيسى للغزو المغولى هو فتح جميع البلاد الإسلامية بما فى ذلك أراضى الخليفة الناصر نفسها. ثم يستخلص الدكتور الغامدى من هذا كله أن

---

(١) ابن الأثير. الكامل. ج٩ ص٣٦١

ابن الأثير لم يكن يعرف الفرق بين أولئك الناس من أتباع كوتشولوك خان النيمان وبين المغول ويسميهم جميعا بالتتر(١).

وقد شارك ابن الأثير فى رأيه بعض المؤرخين فهذا المؤرخ السورى سبط بن الجوزى وهو مؤرخ سورى معاصر والذى قال بهذا الإدعاء بتآمر الناصر مع المغول فإن معلوماته كانت غير واضحة ولم تكن صحيحة فهو يقول إنه فى سنة «٦١٥هـ-١٢١٨م» كاتب القُمّى وزير الناصر الخطا الذين كانوا مع خوارزم شاه بأن يغزو بلاد خوارزم شاه لأن الأخير أراد أن يغزو الخلافة فتفرق عسكره ثم يردف سبط بن الجوزى القول بأن التتر ظهروا على الخطا بعد سنين وساروا وأخذوا البلاد(٢).

وهكذا ينتقل الدكتور سعيد الغامدى من دليل إلى دليل حتى يصل إلى النتيجة المرضية التالية حيث يقول: «بناء على ما سبق ذكره يمكننا القول: بأنه لم يكن للخليفة الناصر ولا للبطريرك النسطورى المسيحى فى بغداد أية علاقة لا من قريب ولا من بعيد بالغزو المغولى. ومن الحقائق المعروفة أنه أصبح واضحا لنا أن الناصر من جانبه لم يكن له أية صلة بأى شكل من الأشكال ولا على أى مستوى من المستويات بجنكيزخان أو بالمغول، كما أنه لم يكن له أيه علاقة بالحرب التى نشبت بين السلطان محمد وكورخان ملك «القراخطائيين»، ولا بالحرب التى قامت بين كوتشولوك خان فيما بعد وبين السلطان الخوارزمى على أراضى ما وراء النهر وأن ذلك كان تسجيلا لشائعات ليس لها أى سند تاريخى»(٣).

أ- غزو إيران والقضاء على الإسماعيلية:

نجح جنكيزخان فى إقامة إمبراطورية كبيرة ضمت أقاليم الصين الشمالية واستولت على العاصمة بكين ثم اصطدم بالدولة الخوارزمية التى كانت تجاور مملكته بسبب سوء تصرف حاكمها محمد خوارزم شاه -كما سنعرف بعد- فقد

(١) سقوط الدولة العباسية ص١٦٩.
(٢) المصدر السابق ص١٦٩.
(٣) للتوسع فى هذا الموضوع انظر المصدر السابق من ١٦٧ : ١٧٩.

سقطت الدولة وحواضرها المعروفة مثل بخارى وسمرقند ونيسابور فى يد المغول بعد أن قتلوا أغلب من فيها من الأحياء ودمروا معالمها الحضارية، ثم توفى جنكيز خان سنة «٦٢٤هـ- ١٢٢٧م» بعد أن سيطرت دولته على كل العالم الإسلامى، وبعد سلسلة من الصراعات على تولى السلطة بين أمراء البيت الحاكم «تولى منكوقا آن بن تولوى بن جنكيزخان» عرش المغول سنة «٦٤٥هـ- ١٢٤٧م» وبعد أن نجح فى إقرار الأمن وإعادة الاستقرار إلى بلاده اتجه إلى غزو البلاد التى لم يتيسر فتحها من قبل فأرسل أخوه الأوسط «قوبيلاى» للسيطرة على جنوب الصين ومنطقة جنوب شرق آسيا وأرسل أخاه الأصغر هولاكو لغزو إيران وبقية بلاد العالم الإسلامى وعهد إليه بالقضاء على طائفة الإسماعيلية وإخضاع الخلافة العباسية فكيف تم ذلك؟.

أعد هولاكو حملته إعدادا قويا وقاد جحافل من الجيوش سار بها باتجاه الغرب ولم يكد يصل بها إلى بلاد التركستان وما وراء النهر حتى قدم إليه أمراؤها فروض الطاعة والولاء، ثم وجه همه بعد ذلك إلى القضاء على طائفة الإسماعيلية الباطنية فى فارس، وأرسل إلى ملوك إيران كتبا يدعوهم فيها إلى مساعدته حيث كانت استراتيجيتهم الحربية أن يستعينوا بجيوش البلاد التى فتحوها ويدينوا لها بالولاء بأن يجندوا جنود هذه البلاد فى جيوشهم بعددهم وآلاتهم وأسلحتهم وبذلك تزداد قوتهم وبطشهم لمن يعصونه من البلاد هذا من جهة ومن جهة أخرى يضمنون بقاء البلاد المفتوحة فى حوزتهم، ومن هنا أرسل هولاكو كتبا إلى ملوك إيران يدعوهم فيها إلى مساعدته ومما جاء فى أحد هذه الكتب: «جئنا بأمر الخان الأعظم لتخريب أصول الإسماعيلية وقتل هذه الفئة فإذا أتيتم إلينا ووافقتم على مشروعنا لتقديم المساعدة من الرجال والذخائر فإنى أعدكم بالبقاء فى بلادكم آمنين تتمتعون بقصوركم وجيوشكم، أما إذا أظهرتم العكس سرت إليكم بعد إتمام مشروعى بعون الله وخربت بلادكم دون الالتفات إلى ما تقدمونه من الأعذار»[١].

(١) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى المجلد ٤ ص١٥٥.

وعلى إثر وصـول هذه الكتب إلى الملوك خـرجـوا لمقـابلة هولاكو مـحـملين بالهدايا، وأتت إليه الرسل فرحب بقدومهم وكثـرت جيوشه من المغول والتتار ولا زال أمره فى زيادة مطردة، ولما أحس بذلك اتجه إلى تنفيذ وصية أخيه بالقضاء على الإسماعـيلية فى فارس، ووصل إلى بلادهم سنة ٦٥٤هـ، ولما صار وجـها لوجه أمام قـلاعها المنيـعة أمر قـواده بتخريبـها لأن المغول حـين فكروا فى إزالة الدولة العباسية أدركوا أن طائفة الإسمـاعيلية ستكون شوكة فى ظهورهم، عندئذ فكر بأن يستعين بجيوش وقوات من الخليفة العـباسى المستعصم وهذا هو دأبهم أن يستعينوا بقوات من يهـادنهم من البلاد ليتغلبـوا بها على من يستـعصى عليهم -كمـا سبق ذكره- فأرسل رسالة للمسـتعصم بالله آخر خلفاء العباسيـين يعاتبه ويهدده ويطلب منه الخضـوع لسلطانه وكان هذا سنة ٦٥٥هـ: لقد أرسلنا إليك رسـالة وقت فتح قـلاع الملاحدة، وطلبنا مـددا من الجند ولكنك أظهـرت الطاعة ولـم تبـعث الجند وكانت آية الطاعة والاتحاد أن تمدنا بالجيش عند مـسيرنا إلى الطغاة فلم ترسل إلينا الجند والتمسنا العذر ومهما تكن أسرتك عريقة وبيتك ذا مجد تليد فإن لمعان القمر قد يبلغ درجة يخفى معها نور الشمس الساطعة ولابد أنه قد وصل إلى سمعك ما حدث للعالم على أيدى الجـيوش المغولية، وعلمت أية مذلة لحـقت بأسرة خوارزم شاه والسلاجقة وملوك الديلم والأتابكة وغيرهم. . . والآن نقول لك: تجنب الحقد والخصام والضغـينة، ولا تحاول أن تقف فى سبيلنا لأنك ستتعب نفـسك عبثا ومع هذا فقد مضى ما مضى فعليك أن تهدم الحصون وتطم الخنادق وتسلم ابنك المملكة ثم تتوجه لملاقاتنا. . .»[1].

قرأ الخليفـة المستعصم تلك الرسالة وأدرك منها أنه يأمـره بالتنازل عن الخلافة، وألا يُعـد الدولة للحرب، وأنه يهـدده بعـقاب رادع فـأرسل إليه رسـالة حملهـا لهولاكو شرف الدين بن الجوزى وبدر الدين محمود وزنكى النخجوانى. وقد جاء

(١) انظر تلك الرسالة فى النجوم الزاهرة ج٧ ص٣٣٨.

فى تلك الرسالة: «أيها الغر الذى لم يخبر الأيام بعد، والذى يتمنى قصر العمر، والذى أغرته إقبال الأيام، فتخيل نفسه مسيطرًا على العالم، وحسب أن أمره قضاء مبرم وأمر محكم، لِـمَ تبحث عن شيء لا طائل وراءه؟ هل جهلت أنه من المشرق إلى المغرب يدينون بالطاعة عباد الله جميعهم غنيهم وفقيرهم وشيخهم وشابهم، وإننى أستطيع أن أصدر إليهم أمرا بالاحتشاد فأستولى على إيران ثم أتوجه إلى توران وأضع كل شخص فى موضعه، غير أنى لا أود أن أسير وراء البغضاء، ولا أن أشترى أذى الناس، ولا أبتغى من وراء تردد الجيوش ردحا ولا ذنبا، فلو كنت تزرع بذور المحبة كما أفعل أنا لما كان لك دخل بخنادق رعيتى ولا بحصونهم، فاسلك طريق الود وعد إلى خراسان وإلا فالقتال دونك»[1]. فأجابه هولاكو برسالة وقد جاء فى هذه الرسالة: «إن الله الأزلى رفع جنكيز خان ومنحنا وجه الأرض كله من الشرق إلى الغرب فكل من سار معنا وأطاعنا واستكان قلبه ولسانه تبقى له أمواله ونساؤه وأولاده، ومن يفكر فى الخلاف والشقاق لا يستمتع بشيء من ذلك[2]. لقد فتنك حب الجاه والمال والعجب والغرور للدولة الفانية فلم يعد يؤثر فيك نصح الناصحين بالخير وإن فى أذنيك وقرا فلا تسمع نصح المشفقين، ولقد انحرفت عن طريق آبائك وأجدادك وإذن فعليك أن تكون مستعدا للحرب والقتال فإنى متوجه إلى بغداد بجيش كالنمل والجراد، ولو جرى سير الفلك على شاكلة أخرى كمشيئة الله العظيم[3]. وبعدما قرأ الخليفة رسالة هولاكو رد عليه برسالة على يد بدر الدين قاضى بندنجيان: «لو غاب عن الملك فله أن يسأل المطلعين على الأحوال إن كل ملك حتى هذا العهد قصد أسرة بنى عباس ودار السلام بغداد كانت عاقبته وخيمة، ومهما قصدهم ذوو السطوة من الملوك

(١) النجوم الزاهرة ص٣٢٩.

(٢) هذا القول يذكرنا بقول بوش فى حادث الحادى عشر من سبتمبر عند قصف مبنى مؤسسة التجارة العالمية والبنتاجون عندما قال للعالم وخيَّرهم: إما مع أمريكا أو هم إرهابيون ضدها.

(٣) المرجع السابق، ونفس الصفحة.

وأصحاب الشوكة من السلاطين فإن بناء هذا البيت محكم للغاية وسيبقى إلى يوم القيامة. . .[1] تحول دون تحقيق أطماعهم فى السيطرة على الشرق الإسلامى.

ولنرجع إلى الحديث عن هولاكو والإسماعيلية:

وقد استطاع هولاكو بعد محاولات كبيرة أن يتغلب على أكثر قلاع الإسماعيلية فضرب عليها الحصار وقد طال ذلك الحصار على قلعتين «ميمون دوز وألموت» وأخيرا وجد ركن الدين خورشاه آخر حكام الإسماعيلية أن الأمر قد خرج من يده ولم يعد قادرا على المقاومة فنزل من قلعة ميمون دوز التى كان يعتصم بها وسلم نفسه إلى هولاكو الذى أرسله إلى قراقوم عاصمة ملك المغول آنذاك حيث أمر منكو خان بقتله وعلى الرغم من استسلام حاكم الإسماعيلية فقد رفض قائد القلعة الأخرى «ألموت» الخضوع واستمر فى المقاومة حتى سقطت هى الأخرى فى يد المغول بعد قتال مرير، ومن ثم استطاعوا أن يقتحموا الوكر الأصلى للحسن بن الصباح وخلفائه فحطموا ما وجدوه من أسلحة واستولوا على الكنوز والأموال، ودمروا مكتبتهم النفيسة التى أعدها الإسماعيليون وتعبوا فى إعدادها، وبذلك انتهت دولة الإسماعيلية بعد أن عاشت نحو ١٧١عاما[2]. وبعد الاستيلاء على مدينة ألموت عين عليها ركن الدين كيقباد بن غياث الدين حاكما لا يملك من الملك شيئًا بل الحكم والتصرف كانا لشخص آخر بعدما انتصر هولاكو على الإسماعيلية كما عرفنا.

ثم وصل هولاكو إلى مدينة همذان التى اتخذها مركزا لقيادته وأرسل إلى الخليفة المستعصم كتابًا يعاتبه فيه على عدم إمداده بالجند فى أثناء محاربته طائفة الإسماعيلية: وطلب منه أن يهدم الحصون ويردم الخنادق ويسلم البلاد لابنه، وأن يحضر لمقابلته أو يرسل الوزير سليمان شاه أو الدويدار يحملان رسالته إليه وختم رسالته بقوله: «إنه إذا استمع الخليفة لهذا النصح تجنب حقده عليه وإلا عرض جيوشه للهزيمة أمام جيوش المغول التى قهرت جيوش خوارزم وإيران.

(١) انظر المصدر السابق ونفس الصفحة.

(٢) انظر النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة. جمال الدين أبى المحاسن بن يوسف بن تغرى بردى تحقيق محمد حسين شمس الدين ج٧ ص٤٢، ٤٣. الهامش رقم ٣.

وقد أوفد الخليفة المستعصم شرف الدين بن الجوزى يحمل كتابه إلى هولاكو يدعوه فيه إلى الإقلاع عن غروره والعوده إلى بلاده، ومما جاء فى هذا الكتاب: «لقد جعلت نفسك فوق العالم أجمع وظننت أن أوامرك هى أوامر قضاء كيف تطلب منى طلبا لا تستطيع تنفيذه؟ أيخيل إليك أنك بذكائك وقوة جيشك ستأسر نجما من النجوم؟ ثم أخذ الخليفة يذكره بمجد الخلافة فقال: «إن ملايين من الفرسان والرجالة على استعداد للقتال وهم رهن إشارته حتى إذا حلت ساعة الانتقام جففوا مياه البحر.. ثم ختم الخليفة كتابه بقوله: «فما بالك بخنادق رعيتى وحصونهم؟ فاسلك طريق الود وعد إلى خراسان وإن كنت تريد الحرب فلا تتوان لحظة ولا تعتذر إذا عزمت، إن لى ألوفا مؤلفة من الفرسان والرجالة على أتم استعداد لخوض غمار الحرب»(١). وقد حمل شرف الدين بن الجوزى ومن معه من الرسل هذه الرسالة ومعها بعض التحف والهدايا، فلم يهتم بها هولاكو وأبدى أسفه وحزنه من العبارات التى تضمنها كتاب الخليفة إليه وقال: «لقد ألقى الله فى روع هؤلاء القوم مثل هذه الأوهام»(٢) ورد على الخليفة برسالة يهدده فيها ويتوعده ومما جاء فيها: «إنك تركت نهج آبائك فاستعد للحرب وانتظر جيشا قويا ولو أن الشيطان وضع عراقيله أمام خططى لانتصرت عليه بعون الله»(٣). فلما عادت رسل الخليفة وأدرك ما ينطوى عليه رد هولاكو بالتهديد والوعيد واستطلع رأى وزيره ابن العلقمى وأشار عليه ببذل الأموال لأن الخزائن والدفائن تجمع لوقاية عزة العرض وسلامة النفس.

أما عن سقوط بغداد فكان سقوطا أكيدًا ومزريًا إلا أن المؤرخين قد اختلفوا فى ذكر أسباب هذا السقوط وأفاضوا القول فيمن لفت أنظار المغول إلى بغداد وهذا أمر سنفصله بعد، وقد دارت أغلب الآراء حول وزير الخليفة المستعصم بالله(٤).

---

(١) انظر تلك الرسالة فى ملحق النجوم الزاهرة ج٧ ص٣٥٩. وكذلك تاريخ الإسلام السياسى ص١٥٥.

(٢) ابن الأثير ج١١ ص٦٥.

(٣) انظر الرسائل فى ملحق النجوم الزاهرة. المرجع السابق.

(٤) أبو أحمد عبد الله بن المستنصر بالله آخر الخلفاء العراقيين ولد سنة تسع وستمائة وبويع له بالخلافة عند موت أبيه، وكان كريمًا حليمًا سليم الباطن حسن الديانة. قال الشيخ قطب الدين فى ذيل مرآة الزمان: ١ -٢٥٤ كان متدينا متمسكا بالسنة كأبيه وجده، ولكنه لم يكن مثلهما فى التيقظ والحزم وعلو الهمة، وقد ركن =

ب- دور ابن العلقمي في سقوط بغداد وقتل الخليفة:

كان مؤيد الدين بن العلقمي رافضيًا خبيثًا حريصًا على زوال الدولة العباسية وطامعا في نقل الخلافة إلى العلويين، ومن مظاهر نفاقه أنه كان يدبر لهذا الأمر بالباطن ويظهر للخليفة المستعصم خلاف ذلك، وأخذ يثير الفتن بين أهل السنة والرافضة حتى تقاتلوا بالسيوف وقتل جماعة من الرافضة ونهبت ديارهم، فسارع أهل الرافضة بالشكوى إلى الأمير مجاهد الدين الدوايدار وللأمير البكر بن الخليفة فأقدما إلى الجند بنهب الكرخ فركبوا من وقتهم وهجموا على الرافضة بالكرخ وقتلوا منهم جماعة وارتكبوا معهم العظائم، فاستاء الوزير العلقمي من ذلك وأضمر الشر في نفسه وأمر أهل الكرخ من الرافضة بالصبر والكف عن القتال وقال لهم: أنا أكفيكم فيهم. كما سبق ذكره.

وكان الخليفة المستنصر أبو الخليفة المستعصم قد أدرك بحسه خطورة حركة المغول إذا ما جاءوا إلى البلاد فاستكثر من الجند قبل موته حتى بلغ عدد عسكره مائة ألف[1].

ويروى جمال الدين أبو المحاسن في كتابه أن الوزير ابن العلقمي كان منافقا يضمر الشر في نفسه للقضاء على تلك الدولة وانتصارا لأهل ملته ، فإذا به يشير على الخليفة بتسريح أكثر الجند وقطع أرزاقهم وأنه ينبغي عليه ألا يواجه التتار وإنما يصانعهم ويبالغ في إكرامهم، وبذلك يحصل المقصود ويرضى عنه هولاكو فلا حاجة لكثرة الجند حينئذ ففعل الخليفة ذلك. ثم إن الوزير ابن العلقمي بعد ذلك كاتب التتار وأطمعهم في البلاد سرا وأرسل إليهم غلامه وأخاه وسهل عليهم فتح العراق وأخذ بغداد وطلب منهم أن يكون هو نائبهم على البلاد فوعدوه بذلك.

= المستعصم إلى وزيره مؤيد الدين بن العلقمي الرافضي فأهلك الحرث والنسل، ولعب بالخليفة كيف أراد. وقد ازداد خطر التتار وتزايد شرهم ونارهم تستعر في البلاد والخليفة والناس في غفلة عما يراد بهم، والوزير العلقمي حريص على إزالة الدولة العباسية ونقلها إلى العلوية، كل هذا والمستعصم تائه في لذاته لا يتطلع على الأمور. انظر ترجمته في ذيل مرآة الزمان ١ -٢٥٣، المختار من تاريخ ابن الجزري ص٢٤٤، فوات الوفيات ٢-٢٣٠، سير أعلام النبلاء ٢٣ -١٧٤، والنجوم الزاهرة ٧ -٦٣.

(١) النجوم الزاهرة. مرجع سابق. ج٧ ص٤٣.

وتأهب المغول لقصد بغداد وكاتبوا لؤلؤا صاحب الموصل فى أن يهيئ الإقامات والسلاح والمؤن، فكاتب لؤلؤ الخليفة سراً وحذره ثم هيأ لهم الإقامات والسلاح، وقد وقف الخليفة المستعصم بالله على خطورة الموقف فأرسل رسالة إلى هولاكو يعاتبه ويهدده ويطلب منه الخضوع سنة ٦٥٥هـ، وكان الوزير ابن العلقمى قد استبد بأمور الخليفة ولا يستطيع أحد أن يغير من سياسته وصار لا يوصل مكاتبات لؤلؤ ولا غيره للخليفة، وغمّى عنه الأخبار والنصائح وكان يقرأها هو ويجيب عنها بما يختار، فاستشرى بذلك أمر التتار غاية الاستشراء وأخذ أمر خليفة المسلمين فى الإدبار(١).

وكان «تاج الدين بن صلايا» نائب الخليفة بإربل قد حذر الخليفة وأراد أن يحرك عزمه ويستثيره ولكن الخليفة لا يجاوبه فلا يتحرك ولا يستيقظ! ولما تحقق الخليفة من صدق حركة التتار نحوه، سير إليهم شرف الدين بن محيى الدين بن الجوزى(٢) رسولا يعدهم بأموال عظيمة ثم سير مائة رجل إلى الدَّربند ليكونوا فيه طليعة يطالعون الخليفة بالأخبار فمضوا وقتلوا جميعا؛ لأن الأكراد الذين كانوا فى هذه المنطقة دلوا التتار عليهم فهجموا عليهم وأبادوهم. وقبل أن يتحرك هولاكو أرسل رسالة للخليفة المستعصم قبل هجومه النهائى على بغداد يقول فيها: «إذا كان الخليفة قد أطاع فليخرج وإلا فليتأهب للقتال وليحضر إلينا قبل كل شىء الوزير وسليمان شاه والدوادار ليسمعوا ما نقول»(٣)؛ فأرسل رساله نهائية وأيقن بالبوار بعد هزيمة جيشه وبدأت بغداد السقوط فى يد هولاكو، وقد أرسل الخليفة هذه الرسالة مع الوزير ابن العلقمى ونفر آخر ليقولا لهولاكو: «إن الملك قد أمر أن أبعث إليه بالوزير ها أنا ذا قد لبيت طلبك وينبغى أن يكون الملك عند كلمته»(٤).

---

(١) مسألة موقف الوزير ابن العلقمى وخيانته فى هذا الموقف سوف نحللها فيما بعد حيث كثرت الروايات فى هذا الشأن.

(٢) هو شرف الدين عبد الله بن محيى الدين أبى محمد يوسف وحفيد أبى الفرج جمال الدين عبد الرحمن ابن الجوزى العالم المشهور، كان محتسبا ببغداد ومدرسا بالمدرسة البشيرية، كما كان مبعوث المستعصم إلى هولاكو عدة مرات قبل وصوله إلى بغداد. النجوم الزاهرة مرجع سابق ج٧ ص٤٥.

(٣) النجوم الزاهرة ص٣٣٠. (٤) المصدر السابق. نفس الصفحة.

فأجاب هولاكو الخليفة على رسالته السابقة يقول: «إن هذا الشرط قد طلبته وأنا على أبواب همذان، أما الآن فنحن على باب بغداد وقد ثار بحر الاضطراب والفتنة فكيف أقنع بواحد ينبغى أن ترسل هؤلاء الثلاثة»[١]، ثم ركب هولاكو وقاد جيوشه والتى يقدرها بعض المؤرخين بمائتى ألف[٢] من المغول والتتار، قصدوا العراق وكان على مقدمة جيشه الأمير «بايجونوين» وقد شارك فى هذا الجيش خلق كبير من أهل الكرخ الرافضة ومن عسكر بركة خان بن عم هولاكو ومدد من صاحب الموصل مع ولده الملك الصالح ركن الدين إسماعيل ووصلوا جميعًا قرب بغداد واقتتلوا جميعا من جهة البر الغربى عند دجلة فخرج عسكر بغداد وعليهم ركن الدين الدوادار[٣] فالتقوا على نحو مرحلتين من بغداد، فهُزم البغداديون وحصدتهم السيوف وغرق البعض فى الماء وهرب الباقون ثم تقدمت مقدمة جيش هولاكو فنزلت القرية[٤] مقابل دار الخلافة.

ولما رأى الخليفة المستعصم أنه لا مفر من دخول المغول مدينة بغداد عول على التسليم فأرسل رسوله شرف الدين بن الجوزى ثانية إلى هولاكو يحمل إليه كثيراً من الهدايا الثمينة معلنا رضاه بالتسليم ووقف القتال، ولم تمض على ذلك بضعة أيام حتى خدعه المغول بالوعود الكاذبة. وقد ذكر ابن كثير أن الوزير ابن العلقمى كان قد اجتمع بهولاكو مع أهله وأصحابه وحشمه ثم أشار على الخليفة بالخروج إلى هولاكو والمثول بين يديه لتقع المصالحة على أن يكون نصف الخراج لهولاكو والنصف الآخر للخليفة[٥].

ويقول صاحب «جامع التواريخ» إنه فى يوم الأحد ٤صفر سنة ٦٥٦هـ خرج الخليفة لملاقاة هولاكو وكان بصحبته أولاده الثلاثة وهم: ولده الأكبر أبو العباس

(١) يعنى بالثلاثة الوزير وسليمان شاه والدوادار. انظر المرجع السابق ٣٣٠.

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطى تحقيق إبراهيم صالح ص٥٥٥.

(٣) والصواب أنه عليهم مجاهد الدين أيبك الدوادار الصغير، كما فى عقد الجمان والحوادث الجامعة. انظر النجوم الزاهرة ج٧ ص٤٦.

(٤) محلة ببغداد فى حريم دار الخلافة فيها محال وسوق كبيرة. انظر المرجع السابق.

(٥) البداية والنهاية ج١٣ ص٢٠١.

أحمد، وولده الأوسط أبو الفضائل عبد الرحمن، وولده الأصغر أبو المناقب مبارك، وثلاثة آلاف من القضاة والفقهاء والصوفية والأمراء وأعيان المدينة، ولما اقترب هذا الركب من دار هولاكو حجبوا عن الخليفة ولم يبق معه إلا سبعة عشر شخصًا. ولما أحضر الخليفة بين يدى هولاكو كان الاضطراب يبدو عليه، فقال له هولاكو: «أنت المضيف ونحن الضيوف فأحضر ما يليق بنا» وقد بلغ من اضطرابه أنه لم يعد يعرف المكان الذى أودع فيه مفاتيح خزائنه وأمر بكسر عدة أقفال، وأحضر لهولاكو عشرة آلاف دينار وكثيرًا من الجواهر والنفائس ومنحها كلها للأمراء، ثم قال للخليفة: إن الأموال التى تملكها على وجه الأرض ظاهرة وهى ملك عبيدنا، ولكن اذكر ما تملكه من الدخائل. وما هى؟

فاعترف الخليفة بوجود حوض مملوء بالذهب فى ساحة القصر فحفروا الأرض فكان الحوض مليئا بالذهب الأحمر وكان كله من سبائك تزن الواحدة مائة مثقال، وقد أحصى نساء القصر فكن سبعمائة ما بين زوجة وسرية وخادمة(١).

يقول ابن كثير: إن جنود التتار قد نازلت بغداد فى عام ست وخمسين وستمائة، وجاءت إليهم أمداد صاحب الموصل يساعدونهم. وأحاطت التتار بدار الخلافة يرشقونها بالنبال من كل جانب حتى أصيبت جارية كانت تلعب بين يدى الخليفة وتضحكه وكانت من جملة حظاياه وكانت مولدة تسمى عرفه، جاءها سهم من بعض الشبابيك فقتلها وهى ترقص بين يدى الخليفة، فانزعج الخليفة من ذلك وفزع فزعًا شديدًا وأحضر السهم الذى أصابها بين يديه فإذا عليه مكتوب: إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره أذهب من ذوى العقول عقولهم. فأمر الخليفة عند ذلك بزيادة الاحتراز وكثرة الستائر على دار الخلافة(٢).

ويروى السيوطى أنهم دخلوا بغداد يوم عاشوراء، فأشار الوزير ابن العلقمى على المستعصم بمصانعة التتار فقال: أخرج إليهم أنا يا سيدى فى تقرير الصلح،

---

(١) جامع التواريخ المجلد الثانى ج٢ ص٢٩١ - ٢٩٢.

(٢) البداية والنهاية المجلد ٧ ج١٣ ص٢١٣.

فخـرج وتوثق بنفسه منهم وورد إلى الخـليفة يقـول له: إن الملك قد رغب فى أن يزوج ابنته بابنـك الأمير أبى بكر ويبـقيك فى منصب الخـلافة كمـا أبقى صاحب الروم فى سلطنته، ولا يريد إلا أن تكون الطـاعة كما كان أجـدادك مع السلاطين السلجوقية، وينصـرف عنك بجيوشه، فليجب مولانا إلى هذا فإن فـيه حقن دماء المسلميـن ويمكن بعد ذلك أن تفـعل ما تريد، والرأى عندى يا مـولاى أن تخرج أنت إليه، فـخرج إليـه فى جمع من الأعيـان، وأنزل فى خيمـة؛ ثم دخل الوزير فاستـدعى الفقهاء والأمـاثل والعلماء والوجهاء من بـغداد ليحضروا عـقد النكاح وعندما وصلوا إلى هولاكو للتـهنئة باغتهم بضرب أعناقهم، وصـار كذلك تخرج طائفة بعد طائفة فـتضرب أعناقهم حتى قتل جمـيع من هناك من العلماء والأمراء والحجاب الكبار[1].

ثم يروى أبو المحاسن بن تغرى بردى أنه قد مـد الجسر ودخل بايجونويون بمن معه من الجنود إلى بغـداد وبذلوا السيف فيها، واستمـر القتل والنهب والسبى فى بغداد بضعـة وثلاثين يوما لم ينجوا منهم إلا من اختفى، ثم أمر هـولاكو بإحصاء عدد القـتلى فبلغوا ألف ألف وثمـانمائة ألف وكسرًا، وقال الذهبى رحـمه الله فى تاريخ الإسلام: والأصح أنهم بلغوا ثمانمائـة ألف ثم نودى بعد ذلك بالأمان فظهر من كان اختفى وهم قليل من كثير[2].

---

(١) انظر رواية هذا الخبر فى تاريـخ الخلفاء للسـيوطى ط٥٥٥، ٥٥٦. وانـظر أيضا النجـوم الزاهرة ج٧، ص٤٦، ٤٧ لأنه يروى رواية بطش هولاكو بالمسلمين وهى رواية متشابهة مع رواية السيوطى.

(٢) قال ابن الفوطى فى الحوادث الجامعـة: ولم يبق من أهل البلد ومن التجأ إليهم من أهل السواد إلا القليل ما عدا النصارى فـإنهم عين لهم ومن ثم حرسوا بيوتهم والتـجأ إليهم خلق كثير من المسلمـين، فسلموا عندهم. وكان ببغداد جماعة من التجار الذين يسافرون إلى خراسان وغيرها قد تعلقوا من قبل على أمراء المغول وكتب لهم فرامين، ولما فتحت بغداد خرجوا إلى الأمراء وعادوا ومعهم من يحرس بيوتهم والتجأ إليهم جماعة من جيرانهم فسلموا، وكذلك دار الوزير ابن العلقمى فإنه سلم بها خلق كثير ودار صاحب الديوان ابن الدامغانى ودار حاجب الباب ابن الدوائى. وما عـدا هذه الأماكن فإنه لم يسلم فيها أحد إلا من كان فى الآبار والقنوات. نقلا عن النجوم الزاهرة ج٧ ص٤٦، ٤٧.

ج- مصير كل من الخليفة المستعصم وابن العلقمى:

أما الوزير ابن العلقمى فلم يتم له ما أراد، وما اعتقد يوما أن التتار يبذلون السيف مطلقا فى أهل السنة والرافضة معا، وراح مع الطائفتين أيضا أمم لا تحصى كثرة، وذاق ابن العلقمى الهوان والذل من التتار، ولم تطل أيامه بعد ذلك كما سيأتى ذكره ثم ضرب هولاكو عنق مقدم جيشه بايجونويون لأنه بلغه عنه من الوزير ابن العلقمى أنه كاتب الخليفة المستعصم لما كان بالجانب الغربى، أما الخليفة فإن هولاكو بعدما انتهى من القتل فى بغداد طلب الخليفة وقتله خنقا وقيل: غم فى بساط، وقيل: جعله هو وولده فى عدلين وأمر برفسهما حتى ماتا[1].

ثم قتل الأمير مجاهد الدين الدوادار والخادم إقبال الشرابى صاحب الرباط بحرم مكة، والاستادار محيى الدين ابن الجوزى وولداه وسائر الأمراء والأكابر والحجاب والأعيان، وانقضت الخلافة من بغداد وزالت أيامها من تلك البلاد وخربت بغداد الخراب العظيم، وأحرقت كتب العلم التى كانت بها لسائر العلوم والفنون التى ما كان لها مثيل فى الدنيا. وقيل: إنهم بنوا بها جسرا من الطين والماء عوضا عن الآجر وقيل غير ذلك، وكانت كسرة الخليفة يوم عاشوراء من سنة ست وخمسين وستمائة، ونزل هولاكو بظاهر بغداد فى العاشر من محرم وبقى السيف يعمل فيها أربعة وثلاثين يوما، وآخر جمعة خطب الخطيب ببغداد كانت الخطبة: «الحمد لله الذى هزم بالموت مشيد الأعمار وحكم بالفناء على أهل هذه الدار... إلى أن قال: اللهم أجرنا فى مصيبتنا التى لم يصب الإسلام وأهله بمثلها وإنا لله وإنا إليه راجعون»[2].

---

(١) هذه هى الرواية الأشهر، والسبب الذى جعل المغول يقتلون المستعصم بهذه الطريقة هو جريا على عادتهم كما أشار إلى ذلك ابن خلدون «وتقبض على المستعصم فشدخ المعاول فى عدل تجافيا من سفك دمه بزعمهم» ويروى النويرى فى نهاية الأرب أن المغول لا يريقون على الأرض دم السلاطين والأمراء الذين يحكم بقتلهم. ويشرح ماركوبولو الكيفية التى تم بها قتل أحد الأمراء المغول المسمى تايان على يد قوبيلاى قان بما يؤيد رواية النويرى. انظر المصدر السابق ص٤٠. وقد قتل مع الخليفة أولاده الثلاثة أبى الفرج عبد الرحمن بن يوسف وشرف الدين عبد الله بن يوسف وتاج الدين عبد الكريم بن يوسف.

(٢) النجوم الزاهرة ج٧ ص٤٨.

ولابد قبل أن ننهى الحديث عن تلك النكبة الفظيعة لبغداد أن نشير إلى السياسة الناجحة التى اعتمدها هولاكو وإلى تكتيكه السياسى والحربى، ولعل تلك السياسة تذكرنا بحالنا اليوم وبالسياسة الاستراتيجية والتكتيكية التى تتبعها أمريكا مع واقعنا العربى، فقد اعتمد هولاكو على تمويه أهدافه الحقيقية فى تفكيك جبهة المسلمين مستغلا بذلك تناقضاتهم السياسية والمذهبية، وقد أجاد ذلك الرجل استغلال واقع المسلمين آنذاك كما تجيد أمريكا استغلال واقع العرب والمسلمين اليوم، فانظر إليه كيف استغل ذلك الواقع ففى رسالته إلى الخليفة المستعصم يلمح إلى عدم رغبته فى إسقاط الخلافة ويضع حملته فى سياق السعى لتسلم مركز النفوذ على نحو ما كان موجودا أيام البويهيين والسلاجقة والأتابكة وغيرهم؛ أى أن يتسلم الوزارة مع إبقاء الخليفة وفى هذا الصدد يقول مخاطبا الخليفة: «وعلمت أية مذلة لحقت بأسر خوارزم شاه والسلاجقة وملوك الديلم والأتابكة.. ممن كانوا أرباب العظمة وأصحاب الشوكة، ومع ذلك لم يغلق باب بغداد قط فى وجه أية طائفة من تلك الطوائف التى تولت هنا السيادة فكيف يغلق فى وجوهنا رغم ما لنا من قدرة وسلطان.. فإذا أطعت أمرنا فلا حقد ولا ضغينة ونبقى لك ولايتك وجيشك ورعيتك»(١).

نرى هنا أن هولاكو قد استغل النزاعات السنية والعلوية ووعد العلويين بحجب دمائهم بل لعله مناهم بالسلطة والنفوذ، ويضاف إلى ذلك موقف النصارى الذين لم يعتبروا أنفسهم مستهدفين لحملة هولاكو، فقد كان ينادى ويقال: إن دار ابن العلقمى ودور العلويين والنصارى أماكن محيدة يلتجأ إليها كل خائف من بطش التتار(٢).

كما اعتمد هولاكو أيضا على بث الرعب والخوف والهلع فى نفوس الناس، حتى تنخلع قلوب الملوك فيسارعون بالتقرب إليه والتزلف بين يديه بتقديم الأموال والهدايا. ويرى الملك الناصر صاحب حلب يرتعد خوفا ويتوسل بجميع السبل لإرضاء هولاكو. وها هو بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل والاتابك أبو بكر فى

(١) انظر نص هذه الوثيقة فيما قلناه سابقا.

(٢) النجوم الزاهرة ج٧ ص٦٥٦.

إقليم فارس يمدون هولاكو بالمال والرجال طمعا فى رضاه وتجنبا لسخطه حتى إن بعض سلاطين سلاجقة الروم وهو عز الدين كيكاوس الثانى الذى رسم صورته هو على نعل زوج من الأحذية وقدمها للخان المغولى قائلا: «عبدك يأمل أن يتفضل الملك فيشرف رأس عبده بوضع قدمه المباركة عليها»(١).

فلا غرو إذن أن تتقطع نياط القلوب وأن تغلى الأكباد من ذلك التكتيك الذى اتبعه هولاكو ونجح فيه أيما نجاح، وكان وقعه شديدا ونتائجه مرعبة إذ حصدت ما يزيد على مليون رأس مسلم بجانب الخليفة ووزرائه وقواده ونهب الثروات الضخمة التى كدست- كما تقول بعض المراجع- فبدت وكأنها جبل، وفى نكبة بغداد تلك أسعفت قريحة الشعراء بقصائد فى مراسى بغداد وأهلها ومن أمثلة ذلك:

قول سبط بن التعاويذى إذ قال:

بادت وأهلوها معا فبيوتهم ... ببقاء مولانا الوزير خراب

وقال بعضهم:

يا عصبة الإسلام نوحى واندبى ... حزنا على ما تم للمستعصم

دست الوزارة كان قبل زمانه ... لابن الفرات فصار لابن العلقمى

وقال تقى الدين بن أبى اليسر:

لسائل الدمع عن بغداد أخبار ... فما وقفك والأحباب قد ساروا

يا زائرين إلى الزوراء لا تفدوا ... فما بذاك الحمى والدار ديار

تاج الخلافة والربع الذى شرفت ... به المعالم قد عفاه إقفار

أضحى لعصف البلا فى ربعه أثر ... وللدموع على الآثار آثار

علا الصليب على أعلى منابرها ... وقام بالأمر من يحويه زنَّار(٢)

---

(١) النجوم الزاهرة ج٧ ص٤٤.

(٢) انظر هذه الأبيات فى تاريخ الخلفاء للسيوطى ص٥٥٦، ٥٥٧.

ثالثًا: الأسباب المباشرة لسقوط الخلافة العباسية:

لقد ذكرنا سابقا عند الحديث عن ظاهرة الدول المستقلة كيف أثرت هذه الظاهرة فى الخلافة العباسية، وكانت أحد الأسباب التى ساهمت فى إضعاف تلك الخلافة وهى أسباب بلا شك غير مباشرة ولكن كان لها تأثيرها على مر السنين حتى أدت فى النهاية إلى سقوط دولة بنى العباس مع الأسباب القريبة والمباشرة والتى ظهرت إبان حصار بغداد.

أما الأسباب المباشرة التى أدت إلى سقوط دولة العباسيين وهى أسباب قريبة فيمكننا أن نوجزها فيما يأتى:

١ - مصاعب الخلافة فى بغداد:

فقد كانت الخلافة العباسية المتداعية تعانى من مشاكل عديدة وأسباب مختلفة أدت فى النهاية إلى سقوطها منها:

أ- الصراع المذهبى الممقوت بين المسلمين بمذاهبهم المختلفة بصفة عامة وبين المذهبين اللدودين: المذهب السنى والمذهب الشيعى، والذى لم يستفد من الصراع بينهما إلا العدو الذى كان يتربص بهما فجاء مستغلا أحدهما ضد الآخر حتى قضى على الجميع قضاء مبرما، وما أشبه الليلة بالبارحة. فما يجرى بالعراق اليوم فهو غنى عن الحديث.

ب- الشلل الكامل الذى أصاب الجهاز الإدارى بسبب النزاع المستمر بين كبار موظفى بلاط الدولة العباسية وقوادها، وقد كان كل منهما لا يتوانى فى إلصاق التهم بالآخر، وقد أذكى ذلك العداء التنافس بين المذهبين سالفى الذكر.

ج- ضعف الخلفاء العباسيين بسبب تلاعب قواد حركات الاستقلال عن الدولة، فقد كانوا يتحكمون فى شئون الدولة ويسيطرون على مجريات الأحداث، وأصبح الخلفاء ألعوبة فى أيديهم حتى أضحى فى أيديهم تنصيب الخلفاء أو عزلهم وكأنهم دمى فى أيديهم، وكان الخليفة لا ينفذ أمره إلا فى حدود بغداد فقط. على حين كانوا يواجهون قوات غازية مغولية قوية ثابتة الأركان ليس بين قوادها نزاع أو خلاف.

٢- الحملة العسكرية التى قام بها المغول كانت حملة عسكرية قوية ومنظمة ومتفوقة فى شتى المجالات مما أدى إلى نجاح خطتهم العسكرية، ومما كانت تتميز به تلك الحملة وهى ميزات يفتقر إليها الجيش العباسى بطبيعة الحال ومنها:

- تنظيم فرق الاستطلاع والجاسوسية: فقد اندس من عملائهم الكثيرون بين القوافل التجارية وكانوا يتزيون بزى التجار، وكان هؤلاء الرجال يتميزون بالخبرة والثقافة والذكاء ومعرفة الطرق ومداخل البلاد، وقد اعتمد عليهم قائد الحملات المغولية جنكيز خان اعتمادا كبيرا إذ قدمت له هذه الشبكة معلومات سرية فى غاية الدقة والأهمية بنى عليها خطته العسكرية التى قام بها ضد المسلمين، ولا غرو فى ذلك فقد كان هؤلاء الجواسيس يرتدون ملابس التجار المسلمين ويندسون بينهم فلا يتميزون، وهذا يفسر لنا النجاح العظيم الذى صادف الحملات المغولية وفتوحاتهم السريعة إبان القرن السابع الهجرى. ولا أكون مبالغا إذا قلت إن حكام المسلمين وشعوبهم المتمثلة فى التجار والمسافرين وخاصة فى المشرق الإسلامى قد لعبوا دورا بارزا فى نجاح تلك الحملات المدمرة ضد بلاد المسلمين.

٣- وفى المقابل كانت الخلافة العباسية فى بغداد تفتقر إلى وجود جيش نظامى قوى، فقد كان سلطات الخليفة الفعلية تنتهى فى حدود مدينة بغداد حيث استبد به أصحاب الحركات الاستقلالية ولم يكن يمتلك مائة وعشرين ألف جندى -كما يزعم بعض المؤرخين- وإنما الذى كان يملكه مجموعة مماليك من الأتراك لا حول لها ولا قوة، بينما بقية الجيوش فى أيدى الأتراك من السلاجقة أو فى أيدى البويهيين وغيرهم من الحكام المستقلين عن الخلافة، لذا نجد أنه كان من المستحيل على تلك الخلافة الهزيلة وحكومتها المتداعية أن تقوى على الوقوف أمام الغزو المغولى. كما أن مسألة سقوط الخلافة العباسية الحاكمة فى بغداد كان أمرا متوقعا من اللحظة التى تحركت فيها قوات المغول نحو بلاد المسلمين.

٤- اتسمت الجماهير العربية بالسلبية التامة إزاء هجمات المغول لأراضيهم فى بغداد ثم الشام، فلم يتحمس منه م أحد لحمل السلاح ثم الذهاب لقتال الغزاة فى سبيل الدفاع عن الإسلام وأرض الدولة المستباحة، أو عن خليفتهم رمز الدولة أو عن الخلافة الإسلامية حصن الأمة ومعقلها وسبب عزتها ووحدتها عبر العصور الزاهية. وعلى ما يبدو أنهم أدركوا أن هذا الأمر يخص الحكومة العباسية وحدها ولا يعنيهم فى شىء سواء سقطت الخلافة وقتل الخليفة أم بقى كخيال الظل فى خلافته. فلا عجب أن نرى أهل الشام يفرون عندما سمعوا بنكبة بغداد ويأتون إلى مصر فزعين مضطربين من هول ما سمعوه، وتركت الجماهير العربية مدينة بغداد تواجه مصيرها المحتوم دون أن تتدخل أى قوة إسلامية لإنقاذ الموقف أو أن تدافع عن الخلافة الإسلامية رمز الولاء الدينى والقومى والوطنى.

بل الأغرب من ذلك أن نرى جماعات من المسلمين جندت فى جيوش المغول لتحارب بجانبهم ضد إخوانهم المسلمين، وهى أعداد غفيرة مزودة بالقادة والجند والسلاح والمؤن كاملة، قدمها الحكام المسلمون فى كرمان وفارس والموصل وآسيا الصغرى لتشارك بصورة فعلية فى الغزو العسكرى المغولى تحت قيادة هولاكو ضد المسلمين، كما كانت هناك أعدادِ هائلة من المسلمين فرادى وجماعات من أراضى العراق وإيران وبلاد ما وراء النهر والتركستان كانت قد جندت كقوات تخدم فى الجيش المغولى وتقوم باعمال حفر الخنادق وردم الأنفاق وجلب الحجارة وجذوع النخيل وسحب المنجنيقات وجلب الماء والعلف إلى غير ذلك من اعمال تخدم المقاتل المغولى.

٥- كما ارتكبت القوات المغولية الغازية أعمالا وحشية يندى لها الجبين وتتقطع لها نياط القلوب؛ فقد ذبح أكثر من مليون رأس مسلم، وكم بقرت بطون العديد من النساء الحوامل، وقد وصلت بهم القسوة مداها فى قتلهم لخليفة المسلمين إذ ألقوه تحت سنابك الخيل ليلقى مصيره، هذا ناهيك عن الثروات

الضخمة التى سلبوها أو اغتصبوها والتى جمعت فكانت -كما يقول الرواة- أشبه بالجبال وإننا لنجد فى زماننا المعاصر ما هو أفظع وأقسى مما ارتكبه هؤلاء المغول فقد شاهدنا فى حرب العراق وأفغانستان أعمالا بشعة تأباها الإنسانية ويرتكبها أناس بدعوى الديمقراطية والحرية، وأنهم أبناء حضارة ورقى وتقدم، فما أقسى هؤلاء وهؤلاء وما أبشع ما يقومون به، فالاستعمار واحد قديمًا أو حديثًا.

رابعا: تحليل لبعض القضايا المتعلقة بسقوط بغداد:

القضية الأولى: غفلة الخليفة المستعصم: إن من الأسباب الرئيسية لسقوط بغداد غفلة الخليفة المستعصم ذلك الرجل الذى تولى الخلافة وهو غير كفء لها، فقد ترك الأمور لوزيره الشيعى ابن العلقمى ولم يحاول أن يتفهم الأمر أو يعقله وإنما كان فيه من السذاجة الكثير والكثير، فكان يصدق كل ما يقال له كما أنه لم يكن مستنير البصيرة إذ اختار وزيره من الرافضة أو الشيعة على الرغم من أنه سنى وقد كان هذا الوزير خبيثا حريصا كل الحرص على زوال الدولة العباسية ونقل الخلافة إلى العلويين. ثم كيف لهذا الخليفة بعد أن استكثر من الجند حتى بلغ عدد عسكره مائة ألف ويعرف أن بغداد مهددة من التتار يقطع أرزاق الجند ويسرح الكثيرين منهم؟ وتشير المراجع إلى أن هذا الخليفة كان دائما مشغولا عن أعباء الحكم بمجالس الرقص والغناء وشرب الخمر، وقد روى بعض مؤرخى العصر عن الخليفة المستعصم بالله كثيرا من الروايات التى تثبت غفلته وسوء حاشيته وسوء أخلاقهم وطبائعهم، فقد كتب ابن الطقطقى مؤلف كتاب الفخرى عن خليفة المسلمين المستعصم: «كان شديد الكلف باللهو واللعب وسماع الأغانى لا يكاد مجلسه يخلو من ذلك ساعة واحدة وكان ندماؤه وحاشيته جميعهم منهمكين معه. وقد أثار ذلك الرعية والعامة من المسلمين فكتبوا الرقاع وفيها أنواع التحذير من الأشعار المثيرة وألقيت فى أبواب دار الخلافة لعله يقرأ إحداها ويفيق مما هو فيه. ومما روى عنه أنه كتب إلى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يطلب منه جماعة من ذوى الطرب وفى تلك الأثناء وصل رسول القائد هولاكو إلى الخليفه يطلب منه أن

يساعده بآلات الحصار والمنجنيقات فقال بدر الدين حينئذ: «انظروا إلى المطلبين وابكوا على الإسلام وأهله. ويروى أيضا عن ذلك الخليفة أنه أرسل إلى سلطان مصر وطلب منه أن يرسل إليه جارية تجيد الغناء اسمها شويكار فهو يطلب ذلك فى الوقت الذى كانت جيوش المغول تستعد لغزو العراق وتدمير مركز الخلافة فى بغداد، إن ذلك لمن المضحكات المبكيات[1].

ويقول عنه أبو المحاسن: كان قليل المعرفة بتدبير الملك نازل الهمة مهملا للأمور المهمة، محبا لجمع الأموال. وتذكر المصادر أن هولاكو بعدما قبض على الخليفة المستعصم أمر بحرمانه من الطعام ولما أحس بالجوع طلب طعاما فقدم له هولاكو طبقا مملوءا بالذهب وأمره أن يأكل فقال الخليفة: كيف يمكن أكل الذهب؟ فرد عليه هولاكو: إذا كنت تعرف أن الذهب لا يؤكل فلم احتفظت به ولم توزعه على جنودك حتى يصونوا لك ملكك الموروث من هجمات هذا الجيش المغير؟ ولِمَ تحول تلك الأبواب الحديدية إلى سهام وتسرع إلى شاطئ نهر جيحون لتحول دون عبوره؟ فقال الخليفة: هكذا كان تقدير الله، فرد هولاكو: وما سوف يجرى عليك إنما هو كذلك تقدير الله.

القضية الثانية: عناصر مسلمة وقفت بجانب المغول ضد المسلمين: هناك بعض المسلمين شاركوا العدو فى حملتهم الغازية بقيادة هولاكو وتحت راية المغول، وهذا أمر جد خطير حيث حدثت تلك الخيانة من عناصر إسلامية وليس من داخل بغداد بل من خارجها وخارج أراضى الدولة العباسية، فكان بعضهم من إقليم خوزستان والبعض الآخر من الأقاليم المجاورة وشاركوا فى حملة هولاكو وارتكبوا مع المغول أعمالا شنيعة بل شاركوا فى مذبحة مسلمى بغداد وساهموا فى جرائم المغول ضد إخوانهم المسلمين فى أراضى العراق والجزيرة والشام، وكانت نكبة اهتز لها العالم كله. وممن شارك فى هذه النكبة من المسلمين:

(١) انظر النجوم الزاهرة ج٧ ص٤٦ وما بعدها.

أ- براق حاجب وخلفاؤه: يقول الدكتور سعد بن محمد مسفر الغامدى أن براق هذا كان حاكم «كرمان» وهو من أول الحكام المسلمين الذين يمكن أن يوجه اللوم إليهم من التهمة بالخيانة والغدر لما وقع فى أراضى الدولة العباسية وبقية أراضى المسلمين إبان حملة المغول هذه(١).

وتعد كرمان جزءاً من أراضى الدولة الخوارزمية يحكمها محمد خوارزم شاه بعد موت أبيه، وقد استناب الأمير شخصا ينوب عنه فى الحكم وهو براق حاجب هذا، وقد دب خلاف فى الأسرة الخوارزمية بين الأخوين غياث الدين وجلال الدين فاستغل حاجب هذه الفرصة واغتال غياث الذى كان قد هرب إلى كرمان فقطع رأسه وأرسله إلى القائد المغولى أكتاى فى «قره -قروم» وأعلن دخوله تحت سلطان المغول، وبذلك أصبحت جميع أراضى كرمان جزءاً من الإمبراطورية المغولية، وأعلن موالاته للمغول أعداء الإسلام وخالف مبدأ الولاية فى الإسلام التى تنص على موالاة الجماعة المسلمة فقط وعدم موالاة الأجنبى، ولم يكتف بذلك بل عمل جاسوسا يمد المغول بأخبار الأقطار العربية وما يجرى فيها من تطورات سياسية وعسكرية، وكان يوصل أخبار جلال الدين بن خوارزم شاه إليه وما يقيمه من استحكامات عسكرية، ومن هنا تمكن المغول من ملاحقته والقضاء على قواته وإبادة دولته إبادة نهائية عام ٦٢٩هـ(٢).

وظل براق حاجب ومن جاء من بعده يستجيب لدواعى أسيادهم المغول فى المشاركة فى حملاتهم التى يقومون بها وقد شاركوا المغول فى حربهم جند السلاطين السلاجقة، وأخذ خلفاؤه «ركن الدين خواجة الحق وقطب الدين محمد» يتنافسان فيما بينهما فى تقديم الولاء والطاعة للمغول وعندما وصل المغول إلى منطقة شرق إيران فى حملتهم الكبرى بقيادة هولاكو وشرعوا فى هجومهم ضد أراضى وقلاع الدولة الإسماعيلية قام قطب الدين محمد حاكم كرمان بإرسال قوات خاصة لبلده لتشارك تحت راية المغول، فكانت قوات كرمان البلد المسلم مع

(١) سقوط الدولة العباسية ص٣٥٢.

(٢) المصدر السابق ص٣٥٣.

قوات «يزد» إحدى الكتائب العسكرية المغـولية التى عرفت بالعنف والقسوة وظلت تلك القوة من المسلمـين بجانب قوات المغـول لتشاركـهم فى عمليات فـتح بغداد والجزيرة والشام[1].

ب- الأتابك مظفـر الدين أبى بكر بن الأتابك سـعـد السلغرى: وهو الحـاكم المسلم الثـانى الذى يمكن أن يقال بأنه خـان الله ورسوله والمسلمين، حـاكم إقليم فارس، قد كانت حكومة ذلك الأتابك تهيـمن بنفوذها السياسى وسلطاتها الإدارية على أراضى البـحرين بالإضـافة إلى أراضى فـارس، وتمارس نفوذها أيضـا على المضايق المائية مثل هرمز والخليج والأراضى المجـاورة لتلك الأصقاع، فعندما قضى المغول على جـلال الدين وانتهت بذلك سلطته على إقليم فـارس قام ذلك الأتابك بتغييـر ولائه ووالى المغول أعداء الإسلام. وكما حافظ براق حـاجب حاكم كرمان على ولائه للمغول نجد أن ذلك يثير حمـاسة أتابك فارس فيرسل ممثليه إلى البلاط المغولى فى «قره - قروم» حاملين الهدايا وفروض الطاعة. ولقد شارك هذا الأتابك المسلم بقوة عـسكرية هو وحاكم كرمان وأرسل كل منهـما قواته لتعـمل تحت إمرة بايجونويـان الذى قام بحملة ضـد المسلمين فى بلاد الإسـلام، كمـا شارك أتابك فارس بقوة عسكرية ذهبت لترحب بمقدم هولاكـو ضد الإسماعيلية فى إيران وضد خلافة العباسـيين فى العراق. وتقول المصادر إنه أرسل كتيبـة عسكرية خاصة كان أغلبها من الفرسان لتلحق بجيش هولاكو ليشاركوا بها المغول فى حربهم ليس فقط ضد الإسماعيلية والخلافة العباسية بل ليشاركوا مع المغول فى حروبهم الهمجية فى الجزيرة وأراضى الشام ومصر[2].

ج- بدر الدين لؤلؤ حاكم الموصل: وهو الشخصية الثالثة التى ساعدت المغول ضد إخـوانه المسلمين فـهو مسلم خـائن، وقد كان يحكم إقلـيم الموصل والقرى والأرياف التابعة لها، وكـان حاكما مستقـلا عن أى سلطان وقد خضع هذا الحاكم لسلطان المغـول ما بين سنـتى ٦٣٣-٦٣٤هـ، وتحكى المراجع أنه قد زود القـوات

(١) سقوط الدولة العباسية ص٣٥٤، ٣٥٥.

(٢) المرجع السابق ص٣٥٦، ٣٥٧.

المغولية بقوات وسلاح ومؤن وعتاد حربى ليثبت ولاءه للمغول[١]، وأنه أرسل لهم الضرائب المفروضة عليه كل سنة وشارك فى أغلب الحملات والغارات العسكرية التى كانوا يقومون بها ضد المسلمين، كما كان بدر الدين يشارك فى الاحتفالات الرسمية التى كانت تقام فى المناسبات فى عاصمة المغول «قره- قروم» عن طريق ممثلين له فيذكر الجوينية[٢]. إن بدر الدين لؤلؤ شارك فى احتفالات رسمية كانت تقام فى العاصمة المغولية بمناسة تتويج هذا الخان على عرش المغول[٣].

وقد شارك المغول فى اتجاههم نحو بلاد الإسلام الغربية وذلك باشتراكه فى حملتهم تلك، فأرسل من يمثله لاستقبال الأمير المغولى عندما وصل إلى أراضى ما وراء النهر، للترحيب به، والقيام بتنفيذ ما قد يأمر به هذا القائد.

وقد طلب هولاكو من بدر الدين المشاركة بقوة كبيرة فأرسل إليه كتيبة عسكرية كاملة انضمت تحت القيادة المغولية وهاجمت أراضى العراق وأنزلت الويل بسكانها المسلمين، وشاركت فى الإطاحة بالخليفة العباسى وإسقاط خلافة المسلمين فى بغداد، ولك أن تتصور أخى المسلم كيف للمسلمين فى الموصل أن يشاركوا المغول أعداء الإسلام جرائم تشيب لها الولدان من قتل وسلب وبقر لبطون النساء وما ذبحوه من المسلمين ما يناهز المليون عند بعض المؤرخين، وكانت تلك القوات الموصلية التى هاجمت المسلمين فى بغداد تحت قيادة الملك الصالح بن حاكم الموصل نفسه كما زود حاكم الموصل القوات المغولية الزاحفة نحو أراضى العراق بقوارب وقناطر عائمة ومعديات نهرية سهلت عبور قوات المغول على نهر دجلة، هذا بالإضافة إلى المؤن الغذائية والعلوفات التى قدموها للجيش المغولى. وما أشبه الليلة بالبارحة فإن قوات التحالف التى تقوده أمريكا لضرب العراق وأفغانستان قد طلبوا المعونات العسكرية والتسهيلات من دول الوطن العربى فاستخدموا المطارات

(١) جمال الدين أبو المحاسن. النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ج٧ ص٤٤

(٢) الجوينى جهانكشاى ج١ ص٢٠٥، الترجمة الإنجليزية ج١ ص٢٥٠، نقلا عن سقوط الدولة العباسية. مرجع سابق ص٣٥٨.

(٣) سقوط الدولة العباسية. مرجع سابق ص٣٥٨.

العربية والطرق والموانى بل أقاموا القواعد العسكرية فى قلب بلداننا العربية وسارع الحكام فى مد يد العون العسكرى والمادى والمعنوى لضرب العراق، فالخيانة موجودة فى كل عصر ولا سيما خيانة الحكام. وتقول الروايات إنه بعد انتهاء هولاكو من أمر بغداد وإسقاط خلافتها عاد باتجاه أذربيجان وأثناء عودته قدم بدر الدين لؤلؤ لمقابلة القائد المغولى وجاءه رغم سنه المتقدمة جدا وقدم تهانيه الشخصية لهولاكو على ذلك النجاح الذى لاقته قواته فى عملياتها العسكرية ضد أراضى العراق عامة وبغداد بوجه خاص بل كانت فرحته الكبرى هى نجاح ذلك القائد فى الإطاحة بالخليفة المستعصم والقضاء على الخلافة العباسية(١).

ويذهب بعض المؤرخين فيتهمون حاكم الموصل بأنه كان وراء مقتل الخليفة على أيدى المغول. إذ يقول الجوزجانى: «.. ملك الموصل بدر الدين لؤلؤ لعنة الله عليه.. أنه واحد من الكفار الذين حرضوا هولاكو على قتل الخليفة»(٢).

د- بعض سلاطين آسيا الصغرى: وقد كانوا من المسلمين وقاموا بمساعدة هولاكو وانضموا إلى جيوش المغول وشاركوا بجيوشهم تحت رايتهم، وعلى ما يبدو أن أراضى سلاطين السلاجقة كانت قد خضعت لإمبراطورية الروم مبكرا إذ استطاع بايجونويان أن يخضعهم إلى سلطته فى سنة ٦٤٠-٦٤١هـ. ويتحدث مؤرخ فارسى عن إخضاع هذه المناطق للمغول بعد معركة «كوسة-داغ» فيقول: إن «بيجوقرتشى» -كما يسميه المؤرخ- سار بقواته واستطاع أن يحاصر بها بعض المدن والذى ساعده فى دفعها بعض الخونة داخل المدينة، وبهذا استطاع المغول أن يتغلبوا على المدافعين بسرعة وأن يدخلوا أرزروم ويحتلوها وذلك سنة ٦٤٠هـ، ثم استطاعوا بعد ذاك الاستيلاء على مدينة «سيواس» بعد أن استغاث بالأيوبيين ولكن لم ينجده أحد ولقد كان من نتائج معركة «كوسة- داغ» أن سقطت الأراضى السلجوقية فى بلاد الروم مدينة بعد مدينة فى أيدى المغول وحلفائهم حيث أعلنت

---

(١) رشيد الدين. جامع التواريخ ج٢ ص٧١٦. نقلا عن سقوط الدولة العباسية ص٣٥٩

(٢) يعنى بكلمة الكفار أولئك المسلمين أتباع المغول والذين كانوا يرافقون هولاكو. انظر هذا القول فى المصدر السابق ص٣٦٠

مدينة سيوس الاستسلام ثم تبعتها مدينة أرزنجان ثم قيسرية، ولم يستطع اقتحام هذه المدينة إلا بمساعدة العناصر غير الإسلامية حيث كان فى المدينة من المناصرين للمغول عناصر إسلامية وأخرى غير إسلامية وفى ذلك تآمر مع العدو، وبالتآمر أيضا مع العدو كسرت أقفال بوابات المدينتين السابقتين وفتحتا فاندفع المحاصرون منها وكأنهم سيل جارف، ونظرا لما وصلت إليه أحوال البلاد السلجوقية من انهيار شامل فإن الوزير الصاحب مهذب الدين ذهب هو وفخر الدين البخارى إلى بايجونويان للتفاوض بشأن التوصل إلى حل سلمى وقد حملا الكثير من الهدايا والتحف المختلفة له ولكبار الضباط من الجيش، وقد توصل الطرفان إلى اتفاق بمقتضاه أن تخضع السلطنة السلجوقية تحت حكم المغول المباشر وعلى أن يظل الحاكم عليها السلطان نفسه نيابة عن الخان فى قره- قروم وأن يكون واحدا من أتباع المغول وأن يدفع ضريبة سنوية وهى مبلغ من المال ذهبا إضافة إلى أشياء عينية أخرى. وهكذا نجد أن أراضى الخليفة فى بغداد قد طوقها العدو من الناحية الشمالية والشمالية الغربية ويقوم على تنفيذ أوامر وحكم المغول عليها نواب وحكام مسلمون، وعلى هذا الأساس نجد أن أراضى الدولة العباسية تحدها ممتلكات الدولة المغولية من جميع جهاتها تقريبا ما عدا الجهة الغربية، ومن هذا المنطلق أيضا فإن مسألة سقوط بغداد وخضوع أراضى الخلافة النهائى تحت سلطان المغول بات وشيكا وسرعان ما يتحقق، وقد شاركت قوات خاصة مسلمة من السكان القاطنين فى أرض السلطان ركن الدين أرزلان الرابع فى آسيا الصغرى السلجوقية أثناء زحف المغول على أراضى الدولة العباسية سنة «٦٥٥هـ-١٢٥٧م».

وكان التنافس بين الأمراء والسلاطين السلاجقة فى آسيا الصغرى شديدا حيث تنافسوا على تقديم الخضوع والطاعة للخان المغولى، فقد كان خلفاء السلطان غياث الدين كيخسرو الثانى، وهما عز الدين كيكاوس الثانى، وركن الدين قيليج أرسلان الرابع يتنافسان حتى فى الخنوع الذليل للمغول وكان من جملة الذين حضروا فى بلاط الخان الذى حضره ركن الدين سابق الذكر للتعبير عن ولائهم

ووفائهم للخان فى منغوليا. وقد ذكر المؤرخون أنه غندما وصل هولاكو إلى إقليم ما وراء النهر وهو فى طريق تنفيذ حملته ضد الإسماعيلية فى إيران والخليفة فى العراق وأراضى الشام ومصر ذهب هذان المتنافسان السلجوقيان عز الدين وركن الدين وحضرا عنده للتعبير له عن وفائهما وفرحتهما، وكل واحد منهما يمعن فى التذلل رجاء أن يحظى برضا الأمير القائد(١). إن تلك الأوضاع المذلة ليست بغريبة على واقع حكامنا اليوم فكم من متسابق لتقبيل عتبات عواصم الغرب.

- بعض المشاركين فى جيش المغول من المسلمين غير مرتبطين بدولة وقد جاؤوا أفرادا وجامعات من الأقطار الإسلامية وقد شجعهم على الخروج أولئك النواب الذين عينهم المغول على الأقطار الشرقية لبلاد الإسلام، ومن أشهر هؤلاء النواب مسعود يلواتش حاكم إقليم التركستان وأراغون آقا حاكم المغول على إقليم إيران، وقد ساهما هما وآخرون فى تجنيد أعداد كبيرة من المسلمين فى جيش، هولاكو، كما كان الفيلسوف المسلم الخواجة نصير الدين الطوسى، والمؤرخ المشهور علاء الدين عطا ملك الجوينى، والمنجم حسام الدين هؤلاء الثلاثة كانوا على صدر قائمة المسلمين الذين أغضبوا الله ورسوله لانضمامهم إلى جيش المغول.

وخلاصة ما تقدم فى هذه القضية هو أن هؤلاء المسلمين الذين انضموا إلى جيش الكفر من المغول سواء أكانوا حكاما أو قوادا لجيوشهم أو أفرادا أو جماعات، هؤلاء يعدون من الموالين للكفار وقد نهى الله عن تلك الموالاة حيث يقول الله تعالى: ﴿**لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ**﴾ [آل عمران: ٢٨].

فإن هؤلاء الحكام عليهم ذنبهم وذنب أتباعهم إذ جروهم أو أجبروهم على أن يوالوا وأن يتقربوا إليهم بالمودة والمحبة كما شاهدنا هؤلاء الملوك الذين يتقربون لملوك التتار بالأموال ودفع الجزية والهدايا الكثيرة وإخضاع الرأس والذل لملوك التتر، وأن تلك الموالاة لا تجوز للمسلم فلا يحق له أن يوالى غير المؤمنين فيتخذ من الكفار الذين يتربصون بالمؤمنين السوء أولياء؛ يصادقهم ويتودد إليهم أو يستعين

(١) رشيد الدين. جامع التواريخ ج٢ ص٦٨٨ نقلا عن سقوط الدولة العباسية ص٣٦٨.

بهم ويترك إخوانه المؤمنين فليس بين الإيمان والكفر نسب أو صلة، فالآية صريحة فى تحذير المؤمنين من موالاة الكافرين وإذا كان هذا من الضرورة خوفا من ضرر هؤلاء الأعداء واتقاء شرهم لأنهم جيوش لا تقهر فقد تجوز موالاتهم على أن يقتصر ذلك على الظاهر مع إضمار الكراهية والبغض لهم فى الباطن، والآيات الدالة على تحريم موالاة الكافرين كثيرة، يقول الله تعالى: ﴿ **لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [المجادلة: ٢٢].

القضية الثالثة: قضية ابن العلقمى والتحالف الشيعى المغولى:

هذه القضية قضية شائكة تناولها العديد من المؤرخين بوجهات نظر مختلفة وأفاضوا فيها الحديث عن موقف الوزير ابن العلقمى الذى ساعد فى سقوط بغداد على أيدى التتار ومن ثم قتل الخليفة. فبعض المؤرخين يتهمه بالخيانة ومواطئة المغول ومن هؤلاء أبو المحاسن بن تغرى بردى، والمقريزى، والعينى، وابن كثير والسيوطى ويعللون سبب تلك الخيانة بأنها راجعة إلى انتسابه إلى الشيعة حيث استبد بتدبير أمر الخليفة وصار لا يوصل مكاتبات بدر الدين لؤلؤ ولا غيره ممن نصحوا للخليفة فقد عمَّى عنه الأخبار والنصائح وكان يقرأها هو ويجيب عنها بما يختار مما أدى إلى تمكن التتار من إسقاط بغداد وانحطاط أمر الخليفة.

بينما ينفى بعض المؤرخين الآخرين عنه تلك التهمة وفى هذا الصدد يقول ابن الطقطقى فى تاريخه الفخرى: «ونسبه الناس إلى أنه خامر بالخلافة وليس ذلك بصحيح ومن أقوى الأدلة على عدم مخامرته، سلامته فى هذه الدولة - يعنى بالدولة سلطة التتار - فإن السلطان هولاكو لما فتح بغداد وقتل الخليفة سلم البلد إلى الوزير وأحسن إليه حكمه. فلو كان قد خامر على الخليفة لما وقع الوثوق

إليه»[1]. وإذا كانت الدلائل التى قدمها ابن الطقطقى غير مقنعة وخاصة لو أخذنا فى الاعتبار أنه متشيع فإن ما ذكره ابن واصل لا يؤكد تهمة المخامرة على ابن العلقمى وإن كان لا ينفى طبعه فى استغلال الموقف لصالحه، قال ابن واصل: «وكان الوزير مؤيد الدين قد أطمع نفسه بأن الأمور تكون مفوضة إليه فى العراق وكان قد عزم أن يحسِّن لهولاكو «ملك التتر» أن يقيم ببغداد خليفة من الشرفاء الفاطميين، فلم يتم له ذلك وأطرحه التتر وبقى معهم على صورة بعض الغلمان فمات بعد قرب كمدا، وندم على ما فعل حيث لم ينفعه الندم»[2]. وترى بعض الروايات أن الوزير ابن العلقمى نجا من بطش هولاكو وبالإضافة إلى ذلك ثبت أن الوزارة انتقلت إلى ابنه عز الدين من بعده[3].

وفى اعتقادى أن القضية لا تدرس هكذا ولكن ينبغى أن ندرس الظواهر الكبرى التى كانت سائدة فى ذلك الوقت، ونقف على مقتضيات الواقع التى فرضت نفسها على ابن العلقمى والخليفة والمؤرخين أنفسهم. ولكى نوضح موقف ابن العلقمى ينبغى أن نأخذ فى الاعتبار حالة بغداد قبيل مجئ المغول، وشخصية الخليفة والسياسة الاستراتيجية والتكتيك الذى اتبعه هولاكو ليلقى الرعب فى نفوس الناس ويخلع قلوب الأمراء والحكام فى بغداد وما حولها من العواصم كما سنوضح بعد فى القضايا التالية:

أ- الخليفة المستعصم وهو آخر خلفاء الأسرة العباسية كان ضعيف الشخصية ضعيف البطش، مستضعف الرأى قليل الخبرة، وليس كفئًا لمنصب الخلافة، ينقصه الوعى لمعرفة مهام الأمور غير مطلع على حقائقها، شخصية تقليدية ليست لها هيبة فى نفوس الناس، ولم يحسن إدارة الدولة كان ميالا للهو والترف، وكان يقضى أغلب زمانه بسماع الأغانى ويحب رقص الجوارى والمحظيات ويأنس لهن، ويكفينا فى هذا المقام أن بغداد كانت تحاصر من المغول وهو جالس مع القينات

(١) انظر قول ابن الطقطقى فى النجوم الزاهرة ج٧ ص٤٤.

(٢) انظر المقريزى. السلوك لمعرفة دول الملوك تحقيق مصطفى زيادة. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ج١ ص٤٤٠ حاشية رقم٢، وانظر أيضا النجوم الزاهرة ج٧ ص٤٤.

(٣) انظر الحوادث الجامعة لابن الفوطى ص١٦٠.

يستمع إليهن حتى نفذ سهم من أحد الشبابيك إلى قلب تلك المغنية التى ماتت على الفور وهذا مثال سقناه أكثر من مرة لأهميته فى إبراز شخصية الخليفة وكان اختيار الخليفة لوزرائه وقواده ومستشاريه اختيارا غير موفق حيث اختارهم من أضعف الشخصيات فى البيت العباسى، وذلك أمر مبيت ليتمكن هؤلاء الرجال وحاشية بلاطه من الهيمنة عليه وتحكمهم فى شئون الدولة[1].

ب- الحقبة التاريخية التى تولى فيها المستعصم الخلافة كانت نهاية لفترة طويلة من الانشقاق والنزاع وانقسام الدولة إلى دويلات وتسلط العناصر غير العربية كالبويهيين والصقالبة والأتراك والسلاجقة على الخلافة مما جعلها خلافة اسمية فقط وتحكم أصحاب النفوذ فى جميع شئون الدولة. كل هذا أضعف سلطة الخليفة وباتت سلطة مترنحة لا تقوى على صد الغزو الخارجى.

ج- اضطراب الدولة العباسية وتمزق كيانها: لقد تعرضت الدولة العباسية فى ذلك الوقت لنوعين من الغزاة لا يقل أحدهما خطرا عن الآخر: الغزو التترى من الشرق والغزو الصليبى من الغرب، وإن كان الغزو الصليبى أشد ضررا على الإسلام حيث جاء مسيحيو الغرب رافعين شعار الصليب متسترين به ليستأصلوا شأفة الإسلام والمسلمين.

د- الانشقاق الداخلى والتنازع الطائفى: أصبحت الخلافة العباسية فى تلك الفترة خلافة مضطربة تعانى من مشاكل داخلية فى بيت الخلافة من المنشقين عليهم ومن التنازع الطائفى بين أهل السنة والرافضة من الشيعة وحركة القرامطة الإسماعيلية والخوارج إلى غير ذلك من فرق.. كل هذا أخذ يهد من قوة تلك الدولة ويزعزع كيانها.

---

(١) يقول السيوطى (إن الخليفة المستعصم بالله لم يكن مثل أبيه وجده فى التيقظ والحزم وعلو الهمة، وكان للمستعصم أخ يعرف بالخفاجى يزيد عليه فى الشجاعة والشهامة وكان يقول إن ملكنى الله الأمر لأعبرنَّ بالجيوش نهر جيجون وانتزع البلاد من التتار، فلما توفى الخليفة المستنصر أبوهما لم ير الدويدار والشرابى والكبار تقليد الخفاجى الأمر وخافوا منه وآثروا المستعصم للينه وانقياده ليكون لهم الأمر فأقاموه ثم ركن المستعصم إلى وزيره مؤيد الدين العلقمى الرافضى فأهلك الحرث والنسل ولعب بالخليفة كيف أراد وباطن التتار وأطمعهم بالمجىء إلى العراق). تاريخ الخلفاء ص٥٤٩. ولك أن تتصور أن الخليفة سني المذهب ووزيره شيعى رافضى.

ولذلك فإن الخلافة العباسية بهذه الأوضاع المزرية كان حتما أن تسقط ويصير مآلها إلى الزوال سواء كان على أيدى المغول أو على أى يد غازية أخرى، لذا لو صح القول فإن سبب سقوط بغداد ونهاية الخلافة العباسية لم يكن على أيدى المغول فقط، وإنما تعاونت مظاهر الضعف والقلق والعناصر الأخرى غير المغولية سواء أكانت سياسية أم اقتصادية أم اجتماعية؛ كل هذا العوامل متضافرة تعاونت على سقوط بغداد بجانب المغول، فإن العمل العسكرى وحده غير كاف لإخماد أنفاس الخلافة بدليل أننا نرى الخلافة قد ظهرت مرة أخرى فى مصر والشام حتى وإن كانت آنذاك مجرد خلافة رمزية دينية هشة لا تأثير لها يذكر.

وهكذا ظهرت طبيعة الأمور وحقيقة الموقف الذى باتت عليه بغداد قبيل مجئ المغول، وقد اتبع هولاكو سياسة حربية ناجحة إذ عرف عنه شدة البطش وعدم الرحمة وغلظة القلب، وقد كانت سياسته أن يستعين بجيوش البلاد التى كانت تقبع فى حوزته فيستعين بها فى الهجوم على البلاد الإسلامية الأخرى، وكان يفرض عليها أن تقدم العدد الحربية والأموال اللازمة والمؤن المطلوبة، وقد استغل ذلك الرجل الداهية الطائفية الموجودة ولعب على أوتارها فانحاز إلى الشيعة ضد السنة واستعان ببعض المسلمين الخونة فى حكم ما وقع تحت يده من دويلات، ولا غرو أن نرى بعض الملوك من المسلمين والعرب يسارعون لإرضائه والركوع عند قدميه. وإذا كان قائد التتار قد جاء إلى تلك البلاد طامعا فى ثرواتها إلا أنه لم يستطع أن يخفى أهدافه الحقيقية وهى القضاء على دولة المسلمين قضاء مبرما وعلى ألا تكون للإسلام دولة بعد ذلك، وقد ساعده على تفكيك تلك الدولة والقضاء عليها ما منى به المسلمون آنذاك من تناقضات فى السياسة والمذهب الدينى والتعصب العرقى والقبلى والطائفى على نحو ما نحن عليه اليوم من فرقة وتخاذل.

وبعد هذا العرض ينبغى علينا بسط قضية ابن العلقمى وأن نوضح التهم التى علقت به من قبل الرواة وأن نقف على أسباب تلك التهم، فكانت التهمة الموجهة إليه هى الخيانة للخليفة المستعصم، وقد خان دينه وخان المسلمين وكاتب هولاكو



وأطمعه فى البلاد وأغراه بسهولة فتحها، وقد اعتمد الرواة القائلون بهذه التهم على عدة نقاط منها:

١- أن ابن العلقمى يكره أهل السنة وله وللرافضة من شيعته حسابات مع بعض مستشارى الخليفة وابنه أبى بكر وقائده مجاهد الدين الدوادار الصغير، وذلك بسبب الوقعة التى نكبت فيها محلة الكرخ عام ٦٥٤هـ والتى نتج عنها إزهاق الكثير من أرواح أهلها وسبى العديد من نسائها ونهب دورها وثرواتها وهم أقارب الوزير.

٢- أن ابن العلقمى كان شيعيًا رافضيًا واضحًا للجميع، وهو بذلك يكون مخالفا لسياسة وديانة الدولة العباسية.

٣- استطاع أن يضعف الحامية العسكرية العباسية من خلال مشورته للخليفة بتسريح أكثر الجنود وانقطاع أرزاقهم، وهذا مما شجع هولاكو على الهجوم على بغداد.

٤- أشار على الخليفة بالخروج لملاقاة هولاكو حينما أحاطت جيوش التتار ببغداد وذلك بقصة مختلقة غُرر بها الخليفة وهى حضور عقد نكاح ابنة هولاكو من ابن الخليفة.

٥- كما كان ابن العلقمى يهون للأمور الخطيرة حتى تصغر فى عين الخليفة فلا يدرك خطورتها.

بعد أن أوردنا بعض أقوال المؤرخين التى تشير إلى موقف ابن العلقمى من الخيانة ومنافقته للخليفة ومحاولته ترجيح الكفة للشيعه أهله وخاصته، وجريا على سنن الله فى خلقه أن تسقط الأمم من الداخل بظلم أهلها وترفهم وفسقهم وخروجهم عن الدين والمبادئ الأخلاقية حينئذ تنهار الدولة وتسقط ويستبدل بها الله أمما أخرى أفضل منها، يقول الله تعالى: ﴿**وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ**﴾ [الأنبياء: ١١] والظلم هنا هو وضع الأمر فى غير موضعه، فالخروج عن الحق ظلم والمجرم ظالم والكاذب ظالم والمنافق ظالم

والكافر ظالم، لذا يعجل الله بسقوط الدول إذا عم فيها الظلم بأنواعه. ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٤٨]، ويقول في موضع آخر: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

فلا نعجب إذ دمرت بغداد تدميرا شديدا من جميع جوانبها، الجانب البشرى الذى أزهقت أرواحه، والجانب العلمى حيث دمر التراث وضاع أغلبه، وانتهبت الثروات الكبيرة من ذهب وحلى وجواهر إلى غير ذلك، وجرت الدماء أنهارا إذ قتل ما يزيد على مليون شخص فقد سلط الله عقابه هذا على أيدى التتار لما استشرى فى بغداد فى ذلك الوقت من ظلم كبير وترف شديد وخروج عن الدين مثل انتشار شرب الخمر وكثرة الحانات فى بغداد وانتشار الرقص والمجون وشيوع الغناء والاستئناس للجوارى، فكم هز مشاعرنا أن تحاصر التتار بغداد بينما الخليفة المستنصر كان يلهو مع جواريه فماذا كنا نتوقع غير هذه النهاية لهذا المجتمع الذى فاحت فيه الفواحش وعم فيه الظلم؛ فإن عاقبة الظلم لا تخص أصحابها وإنما تعم الجميع.

ومن هذا المنطلق لا نعجب إن كان فى ذلك المجتمع وزراء غشاشون وقادة خائنون وأمراء لاهون، فليس من المستغرب والحالة هذه أن يخطط ابن العلقمى ذلك التخطيط الجهنمى مع هولاكو إذ وجد خليفة ضعيفًا فاقد الوعى لما يجرى حوله. وبعد هذا العرض يمكننا أن نسند إليه تلك التهم وهى:

أ- أن ابن العلقمى لما كان شيعيا رافضيا مخالفا لمذهب الدولة الرسمى فقد انحاز إلى قومه الرافضية، وبعد نكبة بلدته الكرخ صمم على تحويل الأمر إلى الدولة العلوية وسيادة الشيعة فى هذا المجال، ومما يقوى هذا الأمر أن أغلب الملوك الذين ساندوا المغول ووقفوا بجانبهم فى الحرب كانوا من الشيعة، فلا ضير عند ابن العلقمى من أن يحلم بأن يكون مثلهم وأن يشيع التشيع فى البلاد ويتقرب إلى هولاكو فيجعله نائبا له على تلك البلاد كما فعل ملوك الجبهة الشرقية الإسلامية.

ب- استطاع ابن العلقمى أن يقنع الخليفة بعدم إنفاق المال من أجل الاستعداد العسكرى لصد المغول، ومن هذا المنطلق أشار عليه بتسريح أكثر جنوده ومنع أرزاقهم فكان هذا ظلما واقعا على هؤلاء الجنود المسرحين ومن هنا فترت حرارتهم وحرارة الجند الآخر للدفاع وللقتال.

ج- ومن جانب آخر ظهر غدر ابن العلقمى بالخليفة فقد هيأ الأمور لهولاكو من جهة، ثم طلب ابن العلقمى من الخليفة الخروج لهولاكو إبان إحاطته بغداد بجيوشه، وقد احتج بحجة دبرها مع المغول وهى خروجه هو والقادة والعلماء والأمراء لشهود عقد نكاح ابنة هولاكو من ابن الخليفة.

أما بالنسبة إلى دور الشيعة الرافضة واتهامهم بالخيانة فهذا أمر لا ينكره العقل، وأنا هنا لا أدعو إلى عنصرية أو تعصب ولكن من المشاهد على الساحة الإسلامية ذلك الصراع الأبدى بين أهل السنة وبين الشيعة، وعلى مدى التاريخ كان للشيعة الرافضة أساليبهم وطرقهم الملتوية والخبيثة لما لمسوه من اضطهاد للعلويين، ولما كانت الخلافة الإسلامية مذهبها هو مذهب أهل السنة والجماعة فإذ بهؤلاء المتشيعين يواجهونها بالعداء، فقد استطاعت الشيعة فى نواحى ما وراء النهر أن تقوى وتتساند وكان سلاحها فى نحر الخلافة العباسية هو تواطؤهم مع المغول لإسقاط الخلافة الإسلامية أو تحويلها إلى شيعة كما كان يريد ابن العلقمى.

القضية الرابعة: الخلافة الإسلامية ظاهرة رمزية:

يرى بعض الباحثين أن الخلافة العباسية قد انتهت باستيلاء المغول على بغداد عام ٦٥٦هـ وقتل الخليفة العباسى. ولكن يبدو لى أن الحقيقة كانت غير ذلك فإن الخلافة العباسية امتدت قرابة القرنين ونصف القرن بعد ذلك وإن كانت خلافة رمزية فى أغلب الأوقات يغلب عليها الطابع الدينى، أو لهدف سياسى خاص.

ويروى لنا الإمام السيوطى أنه قد تولى الخلافة بعد نكبة بغداد «المستنصر بالله أحمد» الذى كان محبوسا ببغداد ثم أفرج عنه بعد سقوطها، وقد وفد إلى مصر فى أيام سلطنة «الظاهر بيبرس» وقد استقبله بيبرس وأكرم وفادته، وقد بايعه السلطان ثم قاضى القضاة تاج الدين ثم الشيخ العز بن عبد السلام.

ويقول السيوطى: إن اسمه قد نقش على السكة وخطب له، وصلى بالناس، وفى محضر من القضاة وكبار الناس ألبس الخليفة السلطان الخلعة بيده ثم كتب له أمرا أن يمنح السلطان التقليد بالحكم[1].

إذن نحن أمام ظاهرة لها عمقها الدينى والسياسى وهى حاجة السلطان بيبرس إلى الخليفة الحاكم الشرعى الذى جاء إلى مصر وذلك ليستمد منه شرعية حكمه لأنه مملوك، ومن هنا أصبحت العلاقة عكسية فالسلطان قوى مستبد بينما الخلافة ضعيفة ذات منصب رمزى، ومع ذلك فقد كان لها هيبتها فى النفوس بدليل مسارعة القضاة والشيخ العز بن عبدالسلام والعلماء لاستقباله والبيعة له.

ثم نسمع أن أمير حلب الأمير «شمس الدين آقوش» أقام بحلب خليفة ولقبه الحاكم بأمر الله وخطب له ونقش اسمه على الدراهم[2].

وقد تنازل خليفة حلب إلى المستنصر وأصبح الأمر له وقد قتل فى معركة قامت بينه وبين المغول.

ثم تولى الخلافة بعد ذلك الحاكم بأمر الله ودانت له الخلافة ما يزيد على الأربعين عامًا وقد أنزله السلطان بيبرس بالبرج الكبير بالقلعة وخطب بجامع القلعة مرات.

وقد بدأ خطبته بقوله: «الحمد لله الذى أقام لآل العباس ركنا وظهيرا» وقد تعرض فى خطبته للجهاد والإمامة وإلى ما جرى من هتك حرمة الخلافة، ثم أشاد بالسلطان قائلا: «وهذا السلطان الملك الظاهر قد قام بنصر الإمامة عند قلة الأنصار، وشرد جيوش الكفر بعد أن جاسوا خلال الديار»[3].

إذن للخلافة حرمتها ومكانتها كمنصب دينى سياسى، وقد حرص المسلمون على إبرازه ولو أن دورها كان دورا ضئيلاً، فقد كان يسارع سلاطين المماليك لأخذ تقليد الحكم من كل خليفة يظهر.

---

(١) السيوطى: تاريخ الخلفاء ص٥٦٢.

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة.

(٣) المرجع السابق.

والعجيب أن الخلافـة إبان تلك الفترة قد انقلبت أوضاعهـا فأصبح السلطان فى يده عزل الخليفة بعـدما كان الأمر عكس ذلك تماما، وقد جـاء العزل على ما يبدو خوفا من الخليفة الذى أصبح أتباعه يتـحدثون فى أمر السلطنة حينما ضعف شأنها إذ تم تجريد القضاة الأربعة من كل مذهب حيث تعطل تنفيذ كثير من الأحكام كما يروى السيوطى.

ولما وثب «لاجين» على السلطة فى مـصر ورضى به الأمراء خلع عليه الخـليفة الخلعة السوداء وكتب له تقليدا.

ثم تولى الخليفـة «المستكفى بالله أبو الربيع» بعـد موت والده أمر الخـلافة سنة ٦٨٤هـ وسارت البشارة بذلك إلى جميع الأقطار والممالك الإسلامية.

كما كان الخليفة يقف بجانب السلطان دائما فى الجهاد فى سبيل الله كما حدث عند محاربتهم للتتار، وقد يقع أحيانـا خلاف بين الخليفة والسلطان، فيأمر الأخير بالقبـض على الخليفة واعـتقـاله ومنعه من الاتصـال بالناس، ولم يكتف السلطان بذلك بل يأمر بنفيه إلى مدينة قوص بالصعيد.

ثم نفاه إلى قوص هو وأولاده وأهله ورتب لهم ما يكفيـهم. واستمر المستكفى بمدينة قوص إلى أن مـات بها سنة ٧٤٠هـ، هذا ويمكنـنـا أن نذكر أسمـاء الخلفاء العباسيين الذين بويع لهم بالخلافة فى مصر على النحو التالى:

١- المستنصر بالله أحمد بن الطاهر بأمر الله بن الناصر.

٢- الحاكم بأمر الله أحمد بن الحـسن بن أبى بكر بن الحسن بن على بن المسترشد بالله بن المستظهر بالله.

٣- المستكفى بالله سليمان بن الحاكم بأمر الله.

٤- الواثق بالله إبراهيم بن المستمسك بالله بن الحاكم.

٥- الحاكم بأمر الله أحمد بن المستكفى بالله.

٦- المعتضد بالله أبو بكر بن المستكفى بالله.

٧- المتوكل على الله محمد بن المعتضد بالله بن المستكفى بالله .

٨- الواثق بالله عمر بن إبراهيم بن المستمسك بالله بن الحاكم.

٩- المستعصم بالله زكريا بن إبراهيم بن المستمسك بالله.

١٠- المستعين بالله العباس بن المتوكل على الله.

١١- المعتضد بالله داود بن المتوكل على الله.

١٢- المستكفى بالله سليمان بن المتوكل على الله.

١٣- القائم بأمر الله حمزة بن المتوكل على الله.

١٤- المستنجد بالله يوسف بن المتوكل على الله.

١٥- المتوكل على الله عبدالعزيز بن يعقوب بن المتوكل على الله.

خمسة عشر خليفة عباسى عاشوا تقريبًا قرنين ونصف منذ نكبة بغداد عام ٦٥٦هـ إلى آخر خليفة وهو المتوكل على الله عبدالعزيز بن يعقوب عام ٩٠٢هـ فعلام يدل ذلك؟ وما الذى يراه المؤرخ أو الباحث من أحداث تلك الفترة.

أ- إن منصب الخلافة بعد مقتل الخليفة العباسى على يد التتار -هذا المنصب- لم يُضَيَّع من قلوب المسلمين آنذاك بل ازداد مهابة فى قلوب جماهير القاعدة العريضة فى الدولة العباسية وبخاصة أهل السنة والجماعة، تلك الجماهير التى نشأت تناصر الخلافة العباسية منذ نشأتها، فإن تلك الدعوة السرية التى بدأت بتربية الفرد على الرضا من آل محمد، والدعاة الذين انبثوا فى أرجاء الأرض الإسلامية شرقا وغربا يلقنون الناس مبادئ المذهب السنى الجديد. أقول إن تلك بلا شك ميزة للخلافة العباسية التى بدأت بتربية الفرد أولاً ثم الأسرة ثم المجتمع، وبذلك نُقشت معالم المذهب السنى الذى يناصره العباسيون فى أذهان المسلمين جيلا بعد جيل فكانت الثمرة هنا على النحو التالى: إن الخلافة العباسية رغم حالة ضعفها

السياسى فإن مكانتها الدينية لا تزال فى قلوب المسلمين حتى تلك الفرق المستقلة التى هيمنت على الخلافة العباسية مثل السلاجقة الذين كانوا يدعون أنهم يحكمون بواجهة عباسية، كانوا يبقون على منصب الخلافة ولو رسميا حيث إنهم يستمدون منها شرعيتهم فى حكم المسلمين.

إن تلك الظاهرة الجماهيرية التى ساندت الخلافة العباسية لا تراها مثلا فى الخلافة الأموية، تلك الخلافة التى كانت متسلطة حيث جاءت من أعلى قمة الهرم بالضغط والإكراه وحكمت الشعوب بالحديد والنار، وظهر فيها الاستعلاء العربى على الفرس ومن يسمونهم بالموالى وعلى سائر الأجناس غير العربية، وكان الخلفاء الأمويون يدركون ذلك جيدا، ومن هنا حنق الموالى والجماهير على ذلك الحكم المنتزع من أهله والذى أصبح مُلكا عضوضا، فما كانت تلوح فرصة للثورة أو الخروج على بنى أمية إلا وكان يشارك فيه الكثيرون من تلك الأجناس. من هنا انتهت الخلافة الأموية ولم تترك أثرًا طيبًا فى نفوس الغالبية العظمى من الجماهير الإسلامية.

أما ظاهرة الخلافة العباسية فقد اختلفت تماما عن نظام الخلافة الأموية وإن كانت نظرية الوراثة مازالت قائمة، فلا عجب أن نرى طائفة من الحكام غير العرب آنذاك مثل المماليك يستمدون شرعيتهم من اعتراف الخليفة العباسى المنزوع سلطانه غالبا، فيصبح الأمر معتدلا: قوة عسكرية فى أيدى المماليك، وبجانبها قوة دينية وسياسية من الخليفة العباسى، وبذلك تم للسلطان عز الدين أيبك «الملك المعز» شرعيته فى الحكم، وقد سار على هذا الدرب من جاء بعده من المماليك.

وبذلك اكتسب المماليك صفة الشرعية فى حكمهم للبلاد، فلا غرو مرة أخرى أن يشجع ذلك سلاطين المماليك على تثبيت أقدامهم ثم تحقيق النصر مثلما حقق السلطان محمد بن قلاوون نصرا عظيما على الجيوب الأخيرة للصليبيين باستيلائهم على عكا. ولعل ذلك يعد امتدادا للعصر العباسى وإن كانت فيه الخلافة رمزية.

ب- وعلى ما يبدو أن الإصلاح الذى بدأ من القاعدة مع فكرة تكوين القواعد والركائز والخلايا الدعوية التى مارسها الدعاة فى فترة الدعوة السرية - فى التاريخ العباسى الأول أو فى التاريخ العباسى المبكر- كان لها أكبر الأثر فى المحافظة على الولاء للخلافة العباسية بغض النظر عن نوعية وطبيعة الفرد التى تتكون منها شخصية الخليفة، وكان يزيد الولاء عمقا السيرة الطيبة التى كان يحياها بعض الخلفاء العباسيين مع شعوبهم.

ولو نظرنا إلى رسالة «الشباب» إحدى رسائل الشهيد حسن البنا، وكذلك رسالة «دعوتنا فى طور جديد» ص٢٣٥ لوجدناه عليه رحمة الله يضع الأسس اللازمة لبناء المجتمع الإسلامى والأمة الإسلامية على نفس المنحى تقريبا فى تسلسل متصاعد أقوى وأرسخ، فإنه يبدأ بالتكوين الفردى، ثم التكوين الأسرى، ثم الشعب المسلم، ثم الحكومة المسلمة، ثم دولة إسلامية كبرى متحدة، وأخيرا مرحلة أستاذية العالم. ما أجمله من بناء يبدأ بالفرد على أساس أنه اللبنة الأولى، ثم الأسرة، ثم المجتمع، ونلاحظ أنه كلما ارتقينا خطوة فى سلم البناء خفت حدة الفردية المقرونة دائما بالأنانية والاستبداد والتحكم.

ج- كما نلاحظ أن انتقال الخلافة العباسية فى أواخر عهدها إلى مصر على وجه الخصوص ليرمز لنا إلى أكثر من معنى يجب أن نتأمله:

- إن الخلافة منصب يشغل قلوب المسلمين وعقولهم ولا غنى لهم عنها، فقد رأينا الجماهير تهرع إلى الخليفة فى مصر وقت الأزمات والشدائد أو وقت الحروب التى دارت مع التتار، تهرع إلى الخليفة وهى تدرك أنه ليس فى يديه الأمر، أملا فى أن يوحد الصفوف ويجمع القوى للمقاومة والتصدى والجهاد فى سبيل الله.

- وإذا كانت الخلافة قد قضى عليها فى مكان فإنها سرعان ما تظهر فى مكان آخر بمشيئة الله، وتلك سنة جارية أكدها التاريخ الإسلامى ويدعمها الدين، فالمغول الذين قتلوا الخليفة شر قتلة، ثم أعدموا أهله وما يقرب من مليونى مسلم معه فى بغداد، كل هذا لم يكسر إرادة الأمة العربية المسلمة، بدليل أنه سرعان ما أقام المسلمون خلافة فى مكان أمين آخر هو مصر. وكذلك ظهرت مرة أخرى فى

تركيا حيث الخلافة العثمانية التى أقامها سلاطين المماليك وسادت حقبا طويلة فى دولة إسلامية واحدة اتسعت رقعتها شرقا وغربا حتى سادت بعض أجزاء من الأراضى الأوربية، ثم عمل بعد ذلك على إسقاطها العلمانيون من أعضاء جمعية الاتحاد والترقى. وسوف تظهر بمشيئة الله مرة أخرى فى عصرنا الحاضر، وهذا أمل للأمة الإسلامية لا تحيد عنه فى مقاومة أعدائها، إن تلك الشجرة التى لم ينتزع جذرها ستظل فروعها قائمة فإن كسر أحد الفروع ظهر فرع آخر حتى وإن كسرت جميع فروعها فإنها ستبقى قائمة لأن الجذر مازال باقيا، فالخلافة تستمد أصولها من الدين الإسلامى وهى سوف تظهر مادام الإسلام قائمًا.

- أما مصر التى أقامت ذلك المنصب على أرضها دون البلاد الأخرى فهذا يدل على عظم مقدار مصر ومكانتها آنذاك فهى الدولة التى أبادت التتار فى عين جالوت، وهى القادرة على حماية منصب الخلافة على أرضها، وهى التى تملك أكبر قوة بشرية وعسكرية آنذاك متمثلة فى فرسان من أمراء المماليك.

وهى الدولة التى تعمقت فيها مفاهيم الإسلام على مر التاريخ حيث الأزهر الشريف الذى حافظ على علوم اللغة والدين من الضياع، وهى الدولة التى تتنوع فيها مصادر الفقه الإسلامى حيث توجد مناصب للفقه على المذاهب المختلفة، وهى الدولة التى شهدت صحوة دينية هائلة فى عصرنا الحاضر على أيدى الشهيد حسن البنا وامتد تأثيرها ليعم العالم أجمع.

فلا غرو بعد هذا كله أن تظهر الخلافة فى مصر أو فى أى بلد إسلامى آخر يوحد كلمة المسلمين ويجمعهم على رأى واحد أمام مشكلات ذلك العصر الذى تكالبت فيه قوى الصهيونية العالمية واليهود والاستعمار والجماعات السرية التى تفرز إفرازاتها وسمومها فى العقلية المسلمة، وعلى الرغم من هذا كله فإن أمل المسلمين فى قيام تلك الخلافة ليس وهما ولا حلما عجيبا، وإنما هو حقيقة واقعة وإن كانت غائبة، فسوف يأتى اليوم الذى تتوحد فيه الأمة الإسلامية وترفرف عليها أعلام الخلافة رغم أنف أعداء الإسلام الكارهين له فى الداخل والحاقدين عليه فى الخارج، هؤلاء الأعداء الذين لم تضعف عزائمهم ولم تنته مكائدهم فى العمل المتواصل للقضاء على خلافة المسلمين.

خاتمة البحث



لابد لأخذ العظة والعبرة من التاريخ أن نربط بين أحداث الماضى والحاضر وبخاصة إذا ما تشابهت الوقائع والأحداث لنعرف ما الأسباب التى أدت إلى احتلال بغداد ثم سقوطها فى زمنين بعيدين ولكنهما متشابهان فى الظروف والأهداف التى رمى العدو من ورائها إلى إسقاط تلك المدينة، وعلى الرغم من اختلاف المحتلين لبغداد إلا أن هناك تشابها كبيرا فى محصلة الاحتلال وعملائه فى الأهداف والغايات، أولئك الذين يأتون فى ساقات الجيوش القديمة أو على دبابات العدو المعاصر.

والحقيقة أن بغداد عاصمة ليست كالعواصم الأخرى سواء فى القديم أو الحديث، لقد تميزت تلك المدينة بأنها موطن الحضارات القديمة فهى مدينة أصيلة ضاربة بجذورها فى القدم ومتميزة بحضاراتها المتراكمة من بابلية وآشورية وغيرهما، وتميزت أيضا وهذا هو الأهم بأنها كانت عاصمة الدولة الإسلامية ومقر الخلافة العباسية، وقد عرفها الغرب إذ كانت عاصمة حضارية تتعامل مع العالم من خلفية إسلامية، وتوثقت العلاقات بينها وبين جيرانها، فرفرفت عليهم جميعا ألوية الأمن والسلام التى غمرت ساحات شاسعة من الأرض، وقد ازدهرت علاقتها مع الشعوب الأوروبية وذاقوا حلاوة العلاقات السلمية من خلال تمتعهم بحضارتها ورقيها إذ تدفق طلابهم على جامعات بغداد لتحصيل العلم والمعرفة، وكما ذاق الغرب نعيم حضارتها ذاق أيضا مرها ولهيب نيرانها من خلال الجهاد فى سبيل الله حينما كانت تنضح قلوبهم بالحقد والكراهية ومحاولة التحدى والتصدى للإسلام فى حملات صليبية انتهت بالإخفاق والفشل والهزيمة الساحقة على يدى صلاح الدين الأيوبى ومن جاء بعده. ومن أجل هذا كله تكالبت قوى الشر للقضاء على مركزها وأهميتها كمدينة دينية أولا ومركز حضارى ثانيا سواء فى

القديم أو الحديث، وما اعتداء أمريكا وحلفائها اليوم على تلك المدينة إلا تجديد للحروب الصليبية والنقمة على الإسلام والمسلمين.

لقد سقطت بغداد ونكبت مرتين لا مرة واحدة، وقد تشابهت النكبتان فى الهدف والحركة والشكل والأداء والخيانة تشابها يدعو إلى العجب والتأمل، لقد كان السقوط الأول عام ٦٥٦هـ- ١٢٥٨م على أيدى المغول وعلى رأسهم هولاكو ومن جاء معه من العملاء الذين شاركوا هولاكو فى حملته العسكرية. بينما كان السقوط الثانى عام ٢٠٠٣م والذى كان على أيدى قوات الاحتلال من الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها ومن جاء معهم من العملاء بزعامة «بوش».

وكم أدهشنا وراعنا ما لاحظناه على الشاشات الفضائية عند ضرب بغداد بالقنابل الذكية وكانت قلوبنا تحترق بما شاهدناه حينما اقتحم اللصوص من كل أجناس العالم متحف بغداد ونهبوا ما فى هذا المتحف -مما لا يقدر بمال- من آثار وتماثيل وتحف وبرديات نادرة تدل على أصالة هذا البلد وحضارته الضاربة فى القدم منذ عهد الآشوريين والبابليين والفينيقيين والإسلاميين، وما حدث كان خطبا مروعا وحدثا جللا إذ نهب هذا المتحف على مرأى ومسمع من العالم أجمع، ولم تتحرك أى قوة من العالم المتحضر لإنقاذ ذلك الإرث الثقافى والحضارى الرفيع الذى لا يقدر بملء الأرض ذهبا.

ومن الملاحظ أن المهاجمين لبغداد سواء فى القديم أو الحديث كان يجمعهم هدف واحد هو القضاء على الإسلام ودولته بأى طريقة من الطرق سواء بمحق المسلمين أو الطعن فى العقيدة الإسلامية ومحاولة تحريف القرآن والسنة النبوية وإغلاق المعاهد العلمية والدينية فى أغلب بلادنا الإسلامية استعدادا للوصول إلى ذلك الهدف.

وسنحاول فى هذه العجالة أن نقارن بين نكبتى بغداد القديمة والحديثة لنخرج منهما بالعبرة والعظة والدرس التاريخى المنشود؛ إذ تكررت الأحداث وتشابه السقوطان وعظمت النكبتان:

١- تم اجتياح المغول لمملكة خوارزم شاه وهم فى طريقهم لبغداد وكذلك فعل الأمريكان فقد اجتاحوا أفغانستان وهم فى طريقهم للعراق. كما تم حصار المغول لبغداد من الشرق والغرب وكذلك فعل الأمريكان حيث حاصروا بغداد كحصار المغول من جهتى الشرق والغرب، وذلك بهدف القضاء على كل مراكز التنوير الإسلامية التى تعد مشاعل تنير وتهدى ما حولها.

٢- وقد تحالف هولاكو فى حربه على العراق مع بعض القوى الإسلامية الخائنة التى جاءت من إيران والتى أرسلها بدر الدين لؤلؤ. وكذلك أمريكا فقد جاءت لحصار بغداد هى وحلفاؤها من إنجلترا واستراليا وغيرهما لتستمد من وجودهم بجانبها شرعية فى حرب العراق وكذلك لتعاونها بالجند والسلاح فى العمليات العسكرية اللازمة واتخاذهم من البلاد المتحالفة مراكز وقواعد عسكرية متقدمة ليسهل عن طريقها نقل وتوفير الإمدادات اللازمة للجيوش.

٣- لقد كانت خطة هولاكو أن يستعين بجيوش الدول المحاربة الأخرى غير المغولية حيث تتم الاستعانة بها فى الحصار وعمليات الهجوم الصعبة وقد استعانوا بجيوش أعدها لهم بعض الحكام المسلمين.

٤- كما عرفنا سابقًا عند اجتياح المغول لبغداد أن هاجرت كثير من العائلات إلى دول الجوار فقد اكتظت بلاد الشام ومصر بعائلات وأفراد جاءوا إلى تلك البلاد طلبا للأمان وليس لهم حديث إلا الحديث عن جبروت المغول الذين أتوا على الاخضر واليابس. وقد ذكر ياقوت الحموى الكثير عن المدن والقرى وما آلت إليه أحوالها فى العراق بسبب هجرة أهلها وما رافق ذلك من ويلات ومشاكل بسبب الأحداث التى افتعلها العملاء حين هجوم المغول؛ إذ باعوا الأرض وهجروا القرى واستشرى الخراب فيها بعدما كانت تعج بكثافة أعداد أهلها وحيواناتها ومزروعاتها قبل تلك النكبة. وهذا ما تم أيضا فى احتلال العراق حديثا إذ هرب الناس من الدمار والقذف بالقنابل ومن الموت المحقق فتركوا بغداد والأنبار والموصل وتكريت والنجف والديوانية والسماوة والبصرة وغيرها

من مدن العراق، وتقدر إحصاءات المنظمات الدولية أعداد اللاجئين من الاحتلال الأمريكى بأنها بلغت ثمانية ملايين مهاجر فى داخل وخارج العراق اليوم والتى امتد تواجدها فى الأردن وجنوب الخليج العربى ومصر وسوريا ولبنان والسعودية والبحرين وشمال أفريقيا، وأصبح هؤلاء اللاجئون لا يجدون طعاما ويعانون من قلة العمالة والرعاية الطبية وغيرها.

٥- إن تحالف أمريكا وحلفائها فى حربهم على العراق كتحالف المغول مع الخائنين من إيران وغيرهم من حكام المسلمين فى حربهم على بغداد، فقد وقف بجانب هولاكو بعض المسلمين الخونة من مسلمى إيران وكذلك صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ الذى ساهم بجنوده فى العدوان على العراق، وكذلك ساهم بعض الخونة من الحكام والزعماء العرب سواء داخل العراق أو خارجها من المنفيين، وقد وقفوا بجانب المعتدين ومهدوا بالمعلومات والأخبار الإستراتيجية المهمة.

٦- استباح الأمريكان العراق مع عملاء لهم قاموا بسلب ونهب وحرق المكتبات والمؤسسات والعلوم والمتاحف، وهذا ما فعله المغول فى الأمس البعيد إذ استباحوا بغداد مع أقوام جاءوا من عدة أنحاء وسلبوا ونهبوا وحرقوا مكتبات بغداد وأتلفوا التراث الذى ألقوه فى نهر دجلة بل نهبوا ثروات ضخمة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة وصفها بعض المؤرخين بأنها كانت مكدسة تبدو كالجبل.

٧- الدور الذى لعبته الشيعة العراقية مع الأمريكان اليوم من تحريض على غزو العراق والقضاء على أهل السنة فإنه يشبه تماما تآمر ابن العلقمى الشيعى وغيره من الشيعة المقربين للمغول وتحريضهم على غزو بغداد ومحق أهل السنة والجماعة.

٨- لقد غنمت أمريكا فى عدوانها على العراق الكثير والكثير، فقد استولت على آبار النفط وثروات العراق الطائلة واستباحت مواقع البلاد العربية لإقامة قواعد

عسكرية لهــا فى المنطقة، وهذا ما فعله التــتار فقد استــولوا على ثروات بغداد والشــام ووصلت لهم الهــدايا من كل ناحــية وشــاركت مــعهم جــنود عربيــة وإسلامية، وأقاموا من البلدان التى استولوا عليــها قواعد عسكرية وعُين عليها عمال خونة من قبل المغول يتابعــونهم بالأخبار ويرسلون إليهم الأموال والجزية المطلوبة.

وإن كانت موقعة عين جالوت هى الموقعة الحاسمة التى هزم فيها المغول هزيمة ساحقة استــأصلت شأفتهم من بلداننا العربيــة إلى الأبد، فهل يهيئ الله لمغول اليوم و«هولاكــو الأمريكان» من يهزمهم فى عــين جالوت أخرى؟ لا نستــبعد ذلك على الله، فإن الله منجز وعده إذا صلــح حال المؤمنين ورجعوا إلى الله، وإننى ليملأنى الأمل والتفاؤل والثقة الكاملة بعلو كعب الإسلام فى أيامنا هذه رغم أنف الحاقدين، وكما انقلب أعداء الأمــس من المغول عن كفرهم واعتنقوا الإسلام فإننى أقول أن إسلامنا الحنيف سيــغزو عقول هؤلاء الأمريكان وسوف يملأ قلوبهم بالسلام وينقلب الأعداء إلى أحباب ومــسلمين كما حدث للمغول وهو على كل شيء قدير.



النازلة الثانية

الصليبيون وسقوط القدس ٤٩٢هـ - ١٠٩٩م



الفصل الأول:

القدس فى مسيرة التاريخ

أولاً: تاريخ القدس من إبراهيم إلى سبى بابل

ثانيًا: تاريخ القدس من ٥٩٧ ق.م إلى ١٣٥م

ثالثًا: القدس فى كنف الإسلام

تمهيد

مكانة مدينة القدس والمسجد الأقصى فى الإسلام

مدينة القدس هى مدينة مقدسة استمدت قدسيتها من الديانات المنزلة، وقد كانت مأوى كثير من الأنبياء والمرسلين منذ سيدنا إبراهيم حتى آخر الأنبياء محمد ﷺ، وقد زادها الإسلام قدسية وبركة، فهى مسرى النبى ﷺ، وهى مكان معراجه أو عروجه إلى السماء، يقول الله تعالى: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ** ﴾ [الإسراء: ١].

ويعد المسجد الأقصى الذى أكسب تلك المدينة قدسيتها أولى القبلتين وثانى مسجدين وضعا فى الأرض. يقول الرسول: «**لا تشد الرحال إلا لثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدى هذا والمسجد الأقصى**» ويقول: «**فضلت الصلاة فى المسجد الحرام على غيرها بمائة ألف صلاة وفى مسجدى بألف صلاة وفى مسجد بيت المقدس بخمسمائة صلاة**» وقد بارك الله حول المسجد الأقصى إذ تتضاعف فيه الحسنات وتغفر فيه الذنوب يقول أبو أمامة الباهلى: إن رسول الله ﷺ قال: «**لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لعدوهم قاهرين، لا يضرهم من خالفهم، حتى يأتيهم أمر الله عز وجل وهم كذلك**، قالوا: يا رسول الله وأين هم؟ قال: «**بيت المقدس وأكناف بيت المقدس**».

ولهذه المدينة مسميات كثيرة استمدت أغلبها من مكانتها المقدسة فهى تسمى القدس، ومعنى القدس هو الطهر والبركة والشرف، وتسمى أيضا دار السلام أو مدينة العدل، ودار السلام هو اسمها العربى والذى ينطقه اليهود أورشليم ومن أسمائها إيلياء، أو يبوس وهى المكان الذى كلم الله فيه موسى، وهذا المكان أيضا أحبه عيسى عليه السلام وهى مسرى ومعراج نبينا محمد عليه السلام، كما عرفنا، وهى قدس الأديان الثلاثة، وهى مهد العبادة لأهل الشرق والغرب، وهى رمز لوحدة الأديان، وهى زهرة المدائن وبهجتها وصفوتها حتى اليوم.

ونظرا لتلك الأهمية الدينية لهذه المدينة التى عانت الكثير من وطأة الطامعين فيها عبر العصور المختلفة وبخاصة من اليهود أرى أن نعيش مع تلك المدينة نستعرض تاريخها حتى تتأكد لنا قيمة تلك المدينة وأهميتها على شتى المستويات.

ولقد كثرت مطامع اليهود فى تلك المدينة منذ القدم فما زالت الحركة الصهيونية تروج مزاعمها وافتراءاتها عن حق اليهود فى فلسطين وحشدت لذلك كل أجهزة الإعلام التى أثرت على الرأى العام الغربى، والذى وقف يساندهم ويردد مقولة الصهيونية «فلسطين أرض الميعاد» وينكرون بذلك حق الشعب الفلسطينى فى أرضه ومقدساته مستشهدين فى ذلك بالنصوص التوراتية المزورة، ولكى نقف على الحقيقة المصحوبة بالأدلة ينبغى علينا ألا نقف عند نصوص التوراة بل ينبغى أن نقارنها بالرؤية الإسلامية كما جاءت فى القرآن الكريم، فنواجه النصوص بالنصوص هذا من جهة، ومن جهة أخرى نقف أمام معطيات التاريخ من جهة وعلم الآثار من جهة أخرى، وإذا اتبعنا ذلك المنهج لوجدنا أنه يؤكد على تاريخية المدن الكنعانية وعمرها الضارب فى جذور التاريخ حيث يشير الباحث «حسن الباشا» إلى أن المكتشفات الأثرية ألقت الضوء على الشعب العربى الكنعانى فى مكتشفات تل العمارنة فى مصر فيرى أن المدن الكنعانية هى مدن قديمة ضاربة بجذورها فى التاريخ وقد أورد أسماء كثيرة من تلك المدن الكنعانية فى كتابات تل العمارنة والكتابات الآشورية، ومن هذه المدن عكا، وأكزيب «الزيب» الحالية. ويذكر أن هناك أسماء مدن فلسطينية قديمة وردت فى مكتشفات تل العمارنة المصرية فمدينة نابلس الحالية اسمها مأخوذ عن اسم يونانى «نيابوليس» الذى يعنى المدينة الجديدة، ومن المدن التى يذكرها مدينة عسقلان التى كانت تعتبر من أهم المدن التى بناها الفلسطينيون القدماء وحصنوها أمام غزوات اليهود، وإلى جانب عسقلان أسس الفلسطينيون أربع مدن كبيرة «غزة، جت، أسدود، عقرون» وكانت كلها على الساحل عدا مدينة جت[1].

---

(١) قراءة فى كتاب: «القدس بين رؤيتين» عن مجلة الإسلام وفلسطين العدد ٨.

ويرجع بناء هذه المدينة إلى حوالى ٢٠٠٠ أو ٢٥٠٠ قبل الميلاد، وقد هاجر العرب الكنعانيون من قلب الجزيرة العربية ونزحوا إلى أن وصلوا إلى أرض كنعان وهناك بجانب ينبوع ماء حطت تلك القبيلة رحلها ثم بنوا مدينة سموها أورسالم أى مدينة السلام وتفرع عن الكنعانيين بطون عدة من عموريين ويبوسيين وآراميين وفينيقيين وغيرهم.

وتشير بعض الروايات أن أول اسم أطلق على القدس هو اليبوس نسبة إلى يبوس الكنعانيين الذين وجدوا فى الأساس فى قلب الجزيرة العربية ثم نزحوا عنها مع من نزح حوالى ٢٠٠٠-٢٥٠٠ قبل الميلاد ويشير الدكتور حسن الباشا إلى أن الملك سالم اليبوسى بناها وأقام تحصيناتها، فهو أول من اختطها من ملوك اليبوسيين الذى عرف عنه أنه كان محبا للسلام حتى أطلق عليه ملك السلام، ومن هنا جاء اسم أورسالم، وعرفت المدينة باسمها الكنعانى أورسالم، ويشير الباحث أيضا إلى تحريف اليهود لكلمة أورسالم حيث حولوها إلى أورشليم والتى حاول الصهاينة نسبتها إلى الأسماء العبرية وهى كلمة كنعانية آرامية أصيلة[1]. وعند الفتح الإسلامى للمدينة المقدسة كان اسمها إيلياء أو إيليا وقد ورد هذا الاسم فى وثيقة الأمان التى أعطاها عمر بن الخطاب لسكان تلك المدينة والتى عرفت «بالعهدة العمرية»، أما سبب هذه التسمية «إيلياء» فإن الرومان حينما غزوا أرض فلسطين عمد الإمبراطور الرومانى «إيليوس هدريان» إلى إكمال ما بدأه طيطس من هدم المدينة والمسجد وأجلى عنها اليهود وأقام مكان المعبد هيكل[2] لوثن الرومان جويبتير وهو كبير آلهتهم، ووضع فى المعبد تمثالا لهذا الإله المزعوم كالتمثال الذى فى معبد الكابيتول الرومانى، وقرر الإمبراطور «إيليوس» محو وتغيير كل أثر للمدينة المقدسة حتى اسمها فإنه اختار اسما جديدا يتكون من كلمتين إحداهما مأخوذة من اسمه هو إيليوس والثانية من اسم معبد الرومان كابيتول فأصبح اسم

(١) حسن الباشا. قراءة فى كتاب القدس بين رؤيتين. انظر المقال السابق.

(٢) الهيكل اسم يطلق على المكان الذى يتعبد وتذبح فيه القرابين فى الديانات السابقة على الإسلام.

المدينة إيليا كابيتولينا، ويقال إن معنى إيليا بيت الله[١]، ثم استقر اسم المدينة بعد الفتح على تسمية إسلامية عربية هى بيت المقدس أو القدس أو الأرض المقدسة أو الأرض المباركة، وهذه تسميات موجودة فى القرآن الكريم والسنة النبوية.

وتقع مدينة القدس فى منتصف فلسطين تقريبا على تلال يتراوح ارتفاعها عن سطح البحر ما بين ثمانية وثلاثين إلى سبعمائة وعشرين مترًا وهى تتوسط عدة مدن فى غاية الأهمية فهى تبعد عن عمان ثمانية وثمانين كيلو مترًا، وعن بيروت ثلاثمائة وثمانين كيلو مترًا، وعن دمشق مائتين وتسعين كيلو مترًا، وعن القاهرة خمسمائة وثمانية وعشرين كيلو مترًا، كما أنها تبعد عن البحر المتوسط اثنين وخمسين كيلو مترًا وعن البحر الميت اثنين وعشرين كيلو مترًا وعن البحر الأحمر مائتين وخمسين كيلو مترًا.

وتنقسم المدينة إلى قسمين، قسم داخل السور، وهو البلدة القديمة ومساحتها تقريبا كيلو متر مربع واحد، وتقع فيها الأماكن المقدسة عند الأديان الثلاثة، والقسم الآخر خارج السور[٢].

والقدس من أقدم مدن الأرض، وهى أقدم من بابل ونينوى وليس أقدم منها إلا «أون» أو «أيوتو»[٣] أولى عواصم مصر فى فجر التاريخ، و«منف» أو «ممنفيس» ثانى عواصم مصر التى أنشئت ٣٤٠٠ ق. م.

وتشتمل المدينة على المسجد الأقصى وهو ثانى مسجد بناه سيدنا إبراهيم عليه السلام، وقد قال النبى ﷺ لأبى ذر الغفارى كما ورد فى الصحيحين قال: «لقد سأل أبو ذر النبى قائلا: أى مسجد وضع فى الأرض أول؟ قال: **المسجد الحرام**. قلت: ثم أى؟ قال: **المسجد الأقصى**. قلت: كم بينهما؟ قال: **أربعون سنة**»[٤] والمسجد الأقصى يعرف ببيت المقدس ومعنى الأقصى أى الأبعد، والمراد بالبعد هنا

(١) انظر أهمية القدس فى الإسلام. عبد الحميد السائح ص١١.

(٢) تاريخ القدس. د. شفيق جاسر ص٢٠. دار البشير للنشر والتوزيع. عمان.

(٣) وهى عين شمس الآن بالقاهرة.

(٤) أخرجه أحمد ج٥ ص١٥٠.

بعده عن مكة، يقول الله تعالى فى سورة الإسراء: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الإسراء: ١].

ومما ينبغى الإشارة إليه أن المسجد الأقصى ببنائه المعروف الآن لم يكن موجودا عند حادثة الإسراء، وكذلك مسجد الصخرة لم يكن موجودا أيضا آنذاك، وإنما الذى كان موجودا هو مكان المسجد المحاط بسور فيه أبواب داخلها ساحات واسعة، وهذا هو المقصود من المسجد الأقصى إذ إن الإسلام قد جاء والمسجد قد أندرس بناؤه ولكن ظل المكان معروفا ومقدسا وحينما أسرى بالنبى ﷺ نزل بهذه الساحة وربط البراق بباب المسجد أى بباب السور الخارجى، وهذا الحائط المسمى بحائط البراق هو الحائط الذى يسميه اليهود بحائط المبكى حيث إنهم يعتبرونه أحد أسوار الهيكل القديم والأثر الوحيد الباقى منه بعد هدمه الثانى[١].

ويروى أن عمر بن الخطاب حين جاء إلى بيت المقدس استشار كعب الأحبار إذ كان يهوديا ثم أسلم وقال له: أين أضع المسجد؟ ويقال إنه سأله: أين ترى أن أصلى؟ فقال: إن أخذت عنى صليت خلف الصخرة وكانت القدس كلها بين يديك فقال عمر: «ضاهيت اليهودية، لا ولكن أصلى حيث صلى رسول الله ﷺ فتقدم إلى القبلة فصلى[٢].

أما المسجد الأقصى على صورته القائمة فهو إنما بنى فى عهد الأمويين وقد بدأ بناءه الخليفة عبد الملك بن مروان الذى تولى الملك (٦٥هـ-٦٨٤م) وأتم بناءه ابنه الخليفة الوليد بن عبد الملك الذى تولى الحكم عام (٧٠٥م) فاستكمل بعض الإضافات فى المسجد الأقصى، وكان بناءه غاية فى الفخامة والإبداع وبلغ طوله ٨٠ مترًا وعرضه ٥٥مترًا ويقوم على ٥٣عمودًا من الرخام و٤٩ سارية مربعة مبنية من الحجر القدسى الجميل وكان له خمسون بابا وسبعة محاريب[٣].

(١) انظر أهمية القدس فى الإسلام. عبد الحميد السائح ص٤٦.
(٢) قال ابن كثير عن إسناد هذا الأثر: وهذا إسناده جيد اختاره الحافظ ضياء الدين المقدسى فى كتابه المستخرج.
(٣) القدس مدينة عربية إسلامية. مقال للأستاذ حسنين محمد ربيع.

وقد أطلق المؤرخون تسمية المسجد الأقصى على جميع ما دار عليه السور وفيه الأبواب وهو الذى كان معروفا عند الإسراء والمعراج ويشمل المسجد المعروف الآن ومسجد الصخرة المشرفة وجميع الساحات المحيطة بها(١).

ويتبين مما سبق أن المسجد الأقصى الذى وقع الإسراء إليه، والذى وردت فيه الأحاديث فى فضل زيارته ومضاعفة أجر الصلاة فيه هو ما دار عليه السور، وقد كان أهل الكتاب قديما يسمون هذا المسجد بالهيكل وهى تسمية التصقت أكثر ما التصقت باسم سليمان عليه السلام وقيل: هيكل سليمان لأنه أقامه على أحسن الهيئات التى بنى عليها.

أما مسجد الصخرة المشرفة فإن للصخرة التى أقيم عليها المسجد تاريخ عريق فهى قبلة الأنبياء منذ موسى عليه السلام وحتى بداية عهد خاتم الأنبياء محمدﷺ. إذ صلى إليها ستة عشر شهرًا، وعند الصخرة اتخذ سيدنا إبراهيم عليه السلام معبدا ومذبحا، وهى التى أقام يعقوب عليه السلام عندها مسجده أيضا بعد أن رأى عمودا من النور فوقها، وهى التى نصب عليها يوشع عليه السلام قبة الزمان أو خيمة الاجتماع - التى أنشأها موسى عليه السلام فى التيه- وهى التى بنى عندها داود عليه السلام محرابه وشيد سليمان عليه السلام الهيكل العظيم المنسوب إليه، وهى التى عرج النبى محمد ﷺ من فوقها إلى السماء فى ليلة الإسراء، وأول من بنى فوقها مسجدا فى العصر الإسلامى هو الخليفة عبد الملك بن مروان ٧٣- ٦٨٥، وهو المسجد المعروف بمسجد الصخرة والمشهور بقبته الذهبية على المبنى المثمن والذى تنصرف الأذهان إلى صورته كلما ذكر اسم المسجد الأقصى مع أن المسجد الأقصى بناء آخر مستقل.

بعد هذا العرض يتبادر إلى الذهن هذا التساؤل: لماذا استهدف اليهود فى هذا العصر بيت المقدس على وجه الخصوص مع أن الأرض واسعة وفى جنباتها من الثروات والكنوز ما ليس فى أرض بيت المقدس، بل قد يجدوا فيها الاستقرار

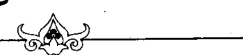
(١) انظر أهمية القدس فى الإسلام. مرجع سابق.

والأمن الذى لم يجدوه فى تلك البقعة المليئة بالبشـر وقد كثر فيها التنازع والعداء؟ إن الإجابة عن هذا التساؤل تحـتاج إلى وقفة متأنية؛ لقـد عرضت على اليهود فى أوائل سعيهم لإنشاء وطن يهودى قومى أراض متعددة فى أماكن مختلفة من العالم فرفضـوا كل شىء إلا أرض فلسطين، فلم يقبلوا أرض العراق أو أوغنـدا بأرضها الخصبة ومجرى نيلها الخصب والأرجنتيـن أو شرق أفريقيا أو فى ليبيا أو فى سيناء أو غير ذلك من أماكن عرضها عليهم زعـماء الاستعمار فى العالم آنذاك، وما زلنا مع هذا التساؤل: لماذا إذن أرض بيت المقدس، إن الإجابة عن هذا التساؤل ترجعنا إلى التاريخ البعيد لنقف على الصلة أو الرابطة التى ربطت اليهود قديما بهذه البقعة الطاهرة المقدسـة والتى اعتبـروها ملكا لهم وميراثهم الأبدى لأنهم أبناء الأنبـياء، ونقلب صفحـات التاريخ معا حتى نرى ألهم أحقـية فى هذه الأرض أم هذا ادعاء وتزوير؟!.

❀❀❀

أولا: تاريخ القدس من إبراهيم عليه السلام إلى سبى بابل

٢٠٠٠ - ٥٩٧ ق.م



القدس مدينة عربية إسلامية لحما ودما فى ماضيها وحاضرها وفى مستقبلها الذى سيقدره الله لها، فتاريخ بناء هذه المدينة يرجع إلى حوالى ٢٠٠٠ أو ٢٥٠٠ قبل الميلاد، وقد هاجر العرب الكنعانيون من قلب الجزيرة العربية ونزحوا إلى أن وصلوا إلى أرض كنعان وهناك بجانب ينبوع ماء حطت تلك القبيلة رحلها ثم بنوا مدينة سموها أورسالم أى مدينة السلام وتفرع عن الكنعانيين بطون عدة من عموريين ويبوسيين وآراميين وفينيقيين وغيرهم(١). كما قلنا سابقًا.

وفى عام ١٩٠٠ق.م عاش سيدنا إبراهيم عليه السلام الذى هو الجد الأول لليهود والعرب، وقد كان إبراهيم أو «إبرام» زعيم عشيرة كلهم من الساميين الذين سكنوا العراق حيث كان الساميون يقطنون أواسط وشمال أرض العرب، وكان موطنها على أرجح الآراء فى أقصى الجنوب من أرض الجزيرة بإقليم أور على مصب نهر الفرات وإليهم ينتسب الآشوريون العرب.

وقد عاش إبراهيم عليه السلام فى العراق التى ولد فيها حينما اختلف مع أبيه وأهله وهدم أصنامهم ثم اعتزلهم وهاجر ماراً بأرض كنعان ثم بمنطقة الآراميين وهذا المرور الذى عبروه فى هذه المنطقة هو الذى سمى به أهل إسرائيل «بالعبرانيين» فهم عبرانيون لأنهم عبروا نهر الفرات وتلك المفازة الصحراوية من العراق إلى الشام، وهذه التسمية تذكرهم بحقيقة أصلهم، لذا فهم ينفرون منها وكان ذلك تقريبا فى عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد ومنذ ذلك التاريخ استقر العبرانيون فى أرض كنعان ولكنهم عاشوا منعزلين عن بقية الشعوب إذ وجدوها تختلف عن

(١) حسن الباشا. قراءة فى كتاب القدس بين رؤيتين.

الدين الذى يدين به إبراهيم، وقد ورد فى التوراة أن إبراهيم عـليه السلام ظل مدة فى أرض الشام ثم هاجـر إلى مصر بعـدما أصيبت بلاد كنعان بقـحط شديد ولم يطل بقاؤه فى مـصر حيث طمع فرعون مـصر فى زوجته سـارة وعلى ما يبدو أن مصر آنذاك كانت تحـت حكم الهكسوس، وتذكر التوراة أيضا أن فرعـون مصر قد أهدى إلى سارة زوجة إبراهيم جارية مصرية تسمى هاجـر، ولما كانت سارة عقيما لا تلد وأصبحت على حالة لا يرجى فيها الولد تزوج إبراهيم من هاجر فأنجبت له إسـماعـيل وهو الجد الأعلى للعـرب ولمحمـد ﷺ وشاء الله بعـد ذلك أن يرزق إبراهيم من زوجه الأولى سارة بابنه إسحاق.

ولما أحست سارة بالغيـرة دفعت بسيدنا إبراهيم إلى إبعاد إسماعـيل وأمه السيدة هاجر، وقد أوحى الله تعـالى إلى سيدنا إبراهيم أن يستجيب لرجـائها فاصطحب إسماعيل وأمه هاجر وتركهـما بمكة فى جزيرة العرب ثم عاد إلى أرض كنعان،[1] يقول الله تعالى: ﴿ **رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ** ﴾ [إبراهيم: ٣٧] وكان إبراهيم يتردد عـلى زوجته فى مكة من وقت إلى آخر، ولما شب إسماعيل عليه السلام بمكة تـزوج من قبيلة جرهم العربية التى كان زعمـاؤها سادة مكة ومن نسله جاءت العـرب المستعـربة، وبناء على أوامر الله أتم إبراهيم وولده إسماعيل بناء الكعبة المشـرفة كما حكى القرآن الكريم وأقام إبراهيم عليه السلام فى أرض كنعان واسـتقر بها، وفيها نشـأت ذريته الطيبة[2]. ثم اتخذ إبراهيم فى تلك البقعـة الطاهرة مكانًا لعبادة الله، وكانت تلك البقـعة المقدسة هى التى أقام فيها إبراهيم مسجده فكان المسجد الأقصى فى تلك البقعة منذ عهد سيدنا إبراهيم عليـه السلام كمـا يقول ابن تيمـية، ولكن سليـمان عليه السـلام بناه بناءً جديدًا وعظيمًا[3].

(١) تاريخ الطبرى ج١ ص٢٥٤ وما بعدها .

(٢) البداية والنهاية المجلد الأول ج١ص١٤٥ وما بعدها.

(٣) مجموع الفتاوى ج١٧ ص٣٥١.

ويروى صاحب البداية والنهاية أن إبراهيم عليه السلام لما قدم الشام أوحى الله إليه إنى جاعل هذه الأرض لخلفك من بعدك فابتنى إبراهيم مذبحًا وشكر الله على هذه النعمة وضرب قبة فوق بيت المقدس[١].

كما يقال إن إبراهيم عليه السلام لما سكن أرض كنعان نصب خيمة فى الجبل شرقى بيت إيل وبنى هناك مذبحا للرب، وأهل الكتاب يطلقون المذبح على المسجد لأنهم يذبحون القرابين فى معابدهم. ومسجد إبراهيم هذا هو الموضع الذى توخى داود عليه السلام أن يضع عليه الخيمة وأن يبنى عليه محرابه، وهو الذى أوصى ابنه سليمان عليه السلام أن يبنى عليه المسجد أو الهيكل، ويقول الشيخ محمد الطاهر بن عاشور كما ورد فى كتاب «قبل الكارثة نذير ونفير» أن مؤرخى العبرانيين يقولون إن الجبل الذى سكنه إبراهيم بأرض كنعان اسمه نابوا وهو الجبل الذى ابتنى عليه سليمان الهيكل فيما بعد وهو الذى به الصخرة[٢].

ولعل المتأمل فى دراسة تلك النصوص يدرك تماما أن أرض المسجد الأقصى هى التى كان يسميها اليهود قبل الإسلام أرض الهيكل، والجبل نفسه الذى يسميه هؤلاء قبل الإسلام وما زالوا يسمونه حتى الآن جبل الهيكل هو الجبل نفسه وذاته الذى يقوم عليه المسجد الأقصى والمسمى جبل «نابوا أو نيوبو».

وإسحاق بن إبراهيم عليه السلام قد تزوج وأنجب توأمين هما: «عيسو ويعقوب» وكانت النبوة فى نسل يعقوب، ويعقوب هذا هو إسرائيل الذى انتسبت إليه بنو إسرائيل، وذلك لأن سلسلة الأنبياء كانت من عقبه، وهاجر يعقوب إلى أرض بابل بالعراق حيث أقام عند خاله عشرين عاما تزوج خلالها من بنتيه «ليا وراحيل» وأهدته كل واحدة منهما جارية فأهدته ليا «زلفه» وأهدته راحيل «بلهه»، وقد عاد بعد ذلك إلى فلسطين وولد له منهن جميعا اثنى عشر ولدا وهؤلاء هم أسباط بنى إسرائيل الذين ظلت فيهم النبوة حتى مجئ عيسى ابن مريم عليه السلام

(١) ابن كثير البداية والنهاية ج١ ص١٤٢.

(٢) انظر كتاب قبل الكارثة لعبد العزيز بن مصطفى ص٨٢.

وهؤلاء الأبناء هم «روبين - شمعون - لاوى[١] - يساكر - زبولون - يهوذا» وهؤلاء من زوجته ليا، و«يوسف - بنيامين» من زوجته راحيل، - «جاد وآشير» من جاريته زلفه و«دان ونفتالى» من بلهه».

ويروى المؤرخون أن يعقوب عليه السلام أعاد بناء المسجد الذى كان إبراهيم عليه السلام قد اتخذه مكانا يتعبد فيه، وتروى فى ذلك رواية مؤداها أنه قد حدث خلاف بين ولدى إسحاق يعقوب وعيسو فأمرت زوجة إسحاق ابنها يعقوب أن يذهب إلى أخيها بأرض حران وأن يبقى عنده إلى حين يهدأ أخوه، وخرج يعقوب عليه السلام قاصدا خاله فأدركه المساء فى موضع فنام فيه وأخذ حجراً ووضعه تحت رأسه ونام فرأى فى نومه معراجا منصوبا من السماء إلى الأرض وإذ الملائكة يصعدون فيه وينزلون، فلما هب من نومه فرح بما رأى ونذر لله لئن رجع إلى أهله سالما ليبنينَّ فى هذا الموضع معبداً لله عز وجل، وأن جميع ما يرزقه من شىء يكون له عشره، ثم وضع على ذلك الحجر علامة ليتعرف عليه فيما بعد، وسمى ذلك الموضع بيت إيل أى بيت الله، وهو موضع بيت المقدس اليوم الذى بناه يعقوب عليه السلام بعد ذلك[٢]. ويذكر ابن كثير أن يعقوب عليه السلام لما عاد من رحلته وكان الله تعالى قد فتح عليه بالثروة والمال وقد مر على قرية أورشليم - قرية شخيب- فنزل قبل القرية واشترى مزرعة كبيرة بمائة نعجة وضرب هناك فسطاطه وابتنى مذبحا فسماه «إيل إله إسرائيل»، قال ابن كثير: «وهو بيت المقدس الذى جدده بعد ذلك سليمان بن داود عليهما السلام وهو مكان الصخرة التى علمها بعدما استيقظ من نومه»[٣].

ومرت السنون وتعاقبت القرون ومكان «بيت إيل» مقدسا عند بنى إسرائيل، وقد دخل هؤلاء النفر إلى مصر فى زمن يوسف عليه السلام، وتكاثر بنو إسرائيل فى مصر ولاقوا العنت على يدى فرعون ثم بعد ذاك خرجوا منها فى عهد موسى

(١) من نسله موسى عليه السلام.
(٢) البداية والنهاية المجلد الأول ج١ ص١٨٢.
(٣) المصدر السابق ج١ ص١٨٤.

عليه السلام سنة ١٣٥٠ قبل الميلاد، ومن هنا بدأت مرحلة جديدة تعلق فيها بنو إسرائيل بالأرض المقدسة فقد خرجوا من مصر بهدف العودة إلى بيت المقدس بعد أن يجاهدوا الوثنيين الذين استوطنوها، وقد خان بنو إسرائيل تعليمات موسى عليه السلام أكثر من مرة وأعرضوا عن جهاد أعدائهم حتى عاقبهم الله بالتيه، وقد ذكر القرآن الكريم هذه الأحداث مفصلة إذ يقول الله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ**﴾ [المائدة: ٢٠- ٢٢].

وظل بنو إسرائيل فى التيه مدة أربعين عاما محرومين من الدخول إلى أرض بيت المقدس تأديبا لهم، وفى تلك المدة حدثت لهم أمور عجيبة -كما يقول ابن كثير- من تظليلهم بالغمام وإنزال المن والسلوى عليهم، ومن إخراج الماء الجارى من صحراء صماء تُحمل معهم على دابة، فإذا ضربها موسى عليه السلام بعصاه انفجرت من ذلك الحجر اثنتا عشرة عينا تجرى لكل شعب منهم عين. وهناك فى التيه نزلت التوراة، وشُرعت لهم الأحكام، وعُملت «قبة العهد» ويقال لها «قبة الزمان»[1].

هذه القبة هى التى وضع فيها «تابوت الشهادة» المذكور فى سورة البقرة فى قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ [البقرة: ٢٤٨] قال ابن كثير: «وهذا التابوت كان بنو إسرائيل يستنصرون به على

(١) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٠، وانظر الوصف المفصل لهذه القبة فى البداية والنهاية ج١ ص٣٠٧، ٣٠٨ وأيضا التوراة، سفر الخروج، إصحاح ٣٦. ويحسن التنبيه هنا إلى أن اليهود المعاصرين أعادوا صناعة هذه القبة تمهيدا لنقل التابوت إليها، وهو الموجود الآن -كما يقولون- فى أثيوبيا!، انظر تفاصيل ذلك فى كتاب «حُمَّى سنة ٢٠٠٠» لعبد العزيز بن مصطفى كامل. الناشر: المنتدى الإسلامى مجلة البيان ص «٢٨٦، ٢٨٧» أو «خيمة الاجتماع».

الأعداء بعد ذلك[1]، وفى التيه توفى هارون، ثم بعده بمدة ثلاث سنين تُوفى موسى»[2].

وكان موسى عليه السلام قد طلب من الله تعالى أن يقبضه قريبًا من الأرض المقدسة، فأجابه إلى ذلك، ومات قريبا منها بقدر رمية حجر كما فى حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال: «أرسل ملك الموت إلى موسى - عليهما السلام -، فلما جاءه صكه، فرجع إلى ربه فقال: «أرسلتنى إلى عبد لا يريد الموت. فرد الله عليه عينه وقال: ارجع فقل له يضع يده على متن ثور، فله بكل ما غطت به يده بكل شعرة سنة. قال: أى ربّ، ثم ماذا؟ قال: ثم الموت. قال: فالآن. فسأل الله أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية حجر» قال: قال رسول الله ﷺ: **«فلو كنت لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر»**[3].

القدس والمسجد الأقصى فى عهد يوشع بن نون عليه السلام:

أقام يوشع بن نون عليه السلام نبياً فى بنى إسرائيل بعد موسى عليه السلام، ويوشع هو فتى موسى المذكور فى سورة الكهف، ونبوته ثابتة بالسنة الصحيحة.

وعندما مات موسى عليه السلام كانت مدة التيه لم تنته بعد، ومات أكثر بنى إسرائيل فى تلك المدة، فلما انقضت خرج يوشع بن نون بمن بقى من بنى إسرائيل الذين دخلوا التيه، وبسائر بنى إسرائيل من الجيل الثانى فقصد بهم بيت المقدس فحاصرها وفتحها يوم الجمعة بعد العصر، وفى ذلك يروى ابن كثير: «وعندما مالت الشمس إلى الغروب خشى يوشع دخول السبت وكان القتال محرما عليهم فى ذلك اليوم، فدعا الله أن يحبس الشمس فلا تغيب حتى يتم فتحه لتلك المدينة فاستجاب الله له وحبس الشمس حتى تم فتح المدينة، وأمره الله هو وقومه من بنى إسرائيل حين دخول تلك المدينة أن يدخلوا من بابها سجدا وهم يقولون «حطة» أى

(١) فى التوراة -سفر الخروج، الإصحاح السابع والعشرين- وصف تفصيلى مطول لهذا التابوت.

(٢) تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٠.

(٣) أخرجه البخارى، كتاب: الجنائز، ح «١٣٣٩»، وأحاديث الأنبياء، ح «٣٤٠٧» وأخرجه مسلم فى الفضائل، ح «١٥٧، ١٥٨»

حط عنا ذنوبنا فبدلوا القول والفعل المأمورين به ودخلوا يزحفون وهم يقولون: حنطة[١].

والمعروف من قراءة التاريخ أن يوشع بن نون هو الذى دخل ببنى إسرائيل بيت المقدس بعدما حرموا من دخوله فى عهد موسى وهارون عليهما السلام، وقد جاء فى تفسير ابن كثير: «ولما استقرت يده على بيت المقدس نصب القبة على صخرة بيت المقدس فكانوا يصلون إليها، فلما بادت صلوا إلى محلتها وهى الصخرة فلهذا كانت قبلة الأنبياء إلى زمان رسول الله ﷺ قبل الهجرة، وكان يجعل الكعبة بين يديه، فلما هاجر أمر بالصلاة إلى بيت المقدس فصلى إليها ستة عشر شهرا وقيل: سبعة عشر شهرا ثم حولت القبلة إلى الكعبة فى شعبان فى وقت صلاة العصر وقيل الظهر. والحديث الذى أشار إليه بن كثير فى البخارى فى تفسير سورة البقرة: «ولما استقرت يده على بيت المقدس نصب القبلة على صخرة بيت المقدس».

القدس والأقصى بعد زمان يوشع بن نون عليه السلام:

ينقسم تاريخ بقاء بنى إسرائيل فى أرض فلسطين بعد دخولهم زمن يوشع إلى ثلاثة أقسام:

الأول: عهد القضاة: وهو العهد الذى كان يحكمهم فيه القضاة من اثنى عشر سبطا، واستمر هذا العهد حوالى ٤٠٠ سنة -ويذهب البعض إلى أنه أقل من ذلك- وبدأ بنو إسرائيل فى هذا العهد ينتقلون من حياة البداوة إلى حياة الاستقرار، واستقرت عقائدهم فيه.

الثانى: عهد الملوك: بعد أن عجز القضاة عن تسيير أمور بنى إسرائيل، وبعد أن ضعفت شوكتهم اجتاح العمالقة أرضهم[٢] فعمد الشعب الإسرائيلى إلى نبى لهم هو «صموئيل» وقالوا له: نصِّب علينا ملكًا نستطيع معه أن ندفع العمالقة عن أرضنا فكانت القصة التى حكاها القرآن الكريم: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ**

(١) انظر تفسير ابن كثير سورة البقرة الآية رقم ٥٨.

(٢) العمالقة: هم الفلسطينيون يومئذ، ولم يكونوا على دين صحيح حينذاك.

مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

وقد استجاب لهم النبى، وملك عليهم طالوت، وكان داود عليه السلام أحد رجاله، وبرز فى الجيش المعادى الفلسطينى «جليات» أو«جالوت» كما سماه القرآن، فبادره داود عليه السلام وتغلب عليه، وتهيأ بعد ذلك الأمر لداود، وأصبح هو الملك الثانى، وبقى المُلك وراثيا فى عقبه. وفتح داود عليه السلام «أورشليم» أو «أورسالم» أى مدينة السلام.

العهد الثالث: عهد التفكك وزوال الشوكة، وانقسام المملكة، وسيأتى الكلام عنه فى عهد سليمان عليه السلام.

القدس والأقصى فى عهد داود عليه السلام:

لما فتح داود عليه السلام (مدينة القدس عام ٩٩٧ق. م، نقل التابوت إليها، وأعد بها مساحة منبسطة فسيحة ليشيد عليها الهيكل المقدس، وجهز المواد اللازمة للبناء، ولكنه أحس أن الأجل لن يمهله حتى يكمل بناء المسجد، فعهد إلى ابنه سليمان بأن يتم بناءه، فجمع له من الذهب والفضة والأحجار الكريمة الشىء الكثير، وهذا يفسر لنا لماذا اتخذ اليهود النجمة السداسية[١] شعارا لهم وسموها باسم داود؛ إنها تمثل -على بعض الآراء- قاعدة الهيكل الذى نوى داود أن يقيمه.

القدس والأقصى فى عهد سليمان عليه السلام:

ولد سليمان عليه السلام فى القدس ونشأ بها، وتولى عرش المملكة بعد أبيه داود عليه السلام واستمر ملكه لمدة أربعين سنة من «٩٦٣-٩٢٣ ق. م». وذكر المفسرون أنه غاب عن سرير ملكه أربعين يوما، ثم عاد إليه، ولما عاد شرع فى بناء الهيكل المقدس بناءً محكمًا، وتُورد المراجع اليهودية وصفا مفصلا عن معبد

(١) لأن الهيكل فى الأصل بنى على هيئة خيمة الاجتماع، ولو وصلت رؤوس النجمة السداسية لكونت خيمة سداسية الأضلاع.

سليمان بما يحوى من أروقة وبيوت وخزائن وغرف وأمتعة وموائد وكؤوس وأقداح ومذابح، بما يلائم نبيا ملكا أوتى من كل شىء، وسخر الله له معالم الطبيعة. وسليمان عليه السلام هو أحد أربعة ملكوا الدنيا، وهم ذو القرنين وبختنصر والإسكندر وسليمان(١)، فلا يستغرب ولا يستبعد أن تكون الأوصاف المذكورة عند أهل الكتاب عن هيكل سليمان صحيحة فى مجملها، فهو الذى دعا الله عليه السلام قائلا: ﴿**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ**﴾ [ص: ٣٥] جاء فى سفر الملوك الأول: «بنى سليمان البيت وأكمله، وبنى حيطان البيت من الداخل بأضلاع أرز من أرض البيت إلى حيطان السقف، وغشاه بخشب، وفرش أرضية البيت بأخشاب سرو، وبنى عشرين ذراعا من مؤخر البيت بأضلاع الأرض إلى الحيطان، وبنى داخله لأجل المحراب -أى قدس الأقداس- وهيأ محرابًا وسط البيت من داخل البيت ليضع هناك تابوت عهد الرب، وغشى المحراب بذهب خالص، وغشى المذبح بأرز، وغشى البيت من الداخل بذهب خالص. ويذكر المؤرخون أن ذلك البناء كان سياجا من بناء يضم عدة أجنحة(٢).

قال ابن كثير: وكان سؤال سليمان عليه السلام الملك الذى لا ينبغى لأحد من بعده كان بعد إكمال بناء بيت المقدس كما يتضح ذلك من الحديث الذى رواه الإمام أحمد والنسائى وابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان والحاكم بأسانيدهم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن سليمان لما بنى بيت المقدس سأل ربه عز وجل خلالا ثلاثا فأعطاه اثنتين ونحن نرجو أن تكون لنا الثالثة؛ سأله حكمًا يصادف حكمه فأعطاه الله إياه، وسأله ملكا لا ينبغى لأحد من بعده وأعطاه**

(١) ورد المعنى بذلك عن سفيان الثورى فى قوله: «ملك الأرض أربعة: مؤمنان وكافران، سليمان النبى، وذو القرنين، ونمرود، وبختنصر»انظر فتح البارى ج٢ ص٤٢. ويؤكد هذا الكلام عن سليمان عليه السلام ما جاء عنه فى القرآن: ﴿**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ**﴾ [ص: ٣٥].

(٢) انظر مقارنة الأديان: «اليهودية» لأحمد شلبى. مكتبة النهضة المصرية ج١ص٢١٠.

الله إياه، وسأله أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة فى هذا المسجد خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه، فنحن نرجو أن يكون الله قد أعطانا إياها»[1].

القدس والأقصى بعد وفاة سليمان عليه السلام:

بعد وفاة سليمان عليه السلام تولى الملك بعده ابنه رحبعام وبايعه من الأسباط اثنان فقط هما سبط يهوذا وسبط بنيامين، وكانت البيعة فى أورشليم ثم اتجه إلى الشمال لأخذ البيعة من باقى الأسباط فى نابلس فرفضوا أن يبايعوه وبايعوا أخاه يربعام بعد عودته من مصر، وقد حرص على أن يستقل بدولته عن أخيه وهكذا انقسمت الدولة إلى مملكتين بين الأخوين فكانت مملكة يهوذا فى الجنوب وعاصمتها أورشليم، ومملكة إسرائيل فى الشمال وعاصمتها نابلس أو شكيم، وكان أغلب الأسباط فى دولة الشمال «إسرائيل» وكانت أوسع رقعة من دولة يهوذا ولكن دولة إسرائيل على الرغم من اتساعها كانت أشد اضطرابًا.

نهاية المملكتين والتدمير الأول للهيكل:

فى سنة ٧٢١ق.م استطاع ملك الآشوريين «سرجون» أن يمحو مملكة إسرائيل من الوجود وأزال شعبها قتلا وتشريدا واعتقل آخر ملك فيها ونفاه مع عدد من رجاله إلى مملكته وقد أقام ملك الآشوريين حاكما على مملكة إسرائيل نائبا عنه.

وفى سنة ٦٠٨ق.م زحف فرعون مصر على مملكة يهوذا فاحتلها واستمر فى زحفه حتى احتل مملكة إسرائيل الشمالية التى استولى عليها الآشوريون، فغضب ملك بابل الجديد بختنصر الذى آل إليه الملك على آشور، وزحف بختنصر على فلسطين بقسميها يهوذا وإسرائيل، وهزم فرعون مصر واستعاد منه المملكتين وقتل «صدفيا ابن يواقيم» آخر ملوك يهوذا ونهب أورشليم ودمر المعبد سنة ٥٨٧ ق.م، وسبى أكثر السكان إلى بابل وفر بعضهم إلى مصر وغيرها من الأقطار وعرفت هذه المدة فى التاريخ بعصر السبى البابلى.

---

(١) البداية والنهاية طبعة أولى ١٩٨٨ج٢ ص٢٤، رواه أحمد والحاكم والنسائى وصححه الحاكم عن ابن عمرو. وقال العلامة أحمد شاكر: إسناده صحيح، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله.

وأقام بختنصر على فلسطين واليا من قبله وانتهى بذلك ملك اليهود فى فلسطين، وظل اليهود فى الأسر البابلى بعد أن تم التدمير الأول للهيكل وكان هذا الغزو لديار بنى إسرائيل وتشريدهم وهدم معبدهم جزاءً وفاقا لتخليهم عن هدى الرسالات وحقائق الدين، وتحولهم من دور الإصلاح الذى أتى به الرسل إلى دور الإفساد فى الأرض، والذى كان الغاية الكبرى لإرسال الرسل من أجل تطهير تلك الأرض من الفساد، وجرت سنة الله التى لا تتبدل على أمة بنى إسرائيل إذ عاقبهم الله على الإفساد وسلط عليهم الأعداء، وقد جاء ذكر هذا فى القرآن الكريم إذ يقول الله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ [الإسراء: ٤، ٥] وظل بيت المقدس فى خراب تام عهدًا طويلاً بعد استيلاء بختنصر عليه وهدمه للمسجد.

وقد كانت مدة بقاء بنى إسرائيل فى فلسطين منذ دخول يوشع بن نون عليه السلام حتى سقوط مملكة يهوذا حوالى خمسة قرون، وفى أسباب هذا الانتقام الإلهى من بنى إسرائيل فى تلك الفترة قد عقد ابن كثير بابًا فى الجزء الثانى من البداية والنهاية ذكر فيه حكمًا ومواعظ وعبرًا عظيمة، وقد سجل القرآن هذه الأحداث[1].



(١) انظر ذلك فى البداية والنهاية ج٢ ص٣٦- ٣٨ ط دار البيان للتراث.

ثانياً: تاريخ القدس اليهودية
من ٥٩٧ ق.م - ١٣٥م

بعد سقـوط مملكتى إسرائيل ويهوذا احتل قورش الإخـمينى، وفى رواية أخرى أنه هو ذو القـرنين ملك الفرس، بلاد بابل، ومن ثم أصـبح له سلطان على أرض يهوذا ومنذ ذلك الوقت أطلق الفرس على شعب يهوذا اسم «اليهود» وعلى ديانتهم «اليهودية»، ومنذ ذلك التـاريخ أصبحت كلمة اليهود تعنى من اعـتنق اليهودية ولو لم يكن من بنى إسرائيل.

سمح قورش لليهود بالعودة إلى فلسطين سنة ٥٣٨ ق.م إذ كان على صلة طيبة بهم لأنهم أصـحاب دين سمـاوى فعـادت طوائف من اليهود إلى بـيت المقدس، وفضلت طوائـف أخرى البقـاء فى أرض بابل وعمـدت الطائفة العـائدة إلى إعادة تعمـير المدينة المقدسـة وأعادوا بناء المعبد مـرة أخرى، ولكن عودتهم كـانت عودة شعب بلا دولة؛ إذ كـان الحكم الفارسى هو المسيطر على أرض فلسطين، ثم مع توالى العهود بدأ الفـرس يشتدون على اليهود حتى تذمر اليـهود من بطشهم، وفى هذه المرحلة زحف الإسكندر الأكبر سنة ٣٢٠ ق.م على فلسطين ورحب به اليهود وظل بيت المقدس فترة تحت حكم الإسكندر ثم آل الأمر فيه إلى البطالسة.

غزو الرومان وتجديد بناء الأقصى:

ثار اليهـود على الغزاة البطالسة وقاد تـلك الثورات أسرة المكابيين اليـهودية فى محاولة منهم لاستلام الملك مرة أخـرى، ولكن اليهود لم يفلحوا فى الوصول إلى كامل غرضـهم من الاستقلال على الرغم من تنصيـبهم لملك منهم إذ ظل الصراع قائـمًا بين اليـهود وبين أعـدائهم المجاورين فـاستـغل الرومان ذاك الوضع المـتأزم واكتـسحوا فلسطين سنة ٦٣ ق.م واسـتولوا على القـدس بقيادة القـائد الرومانى

بامبيوس، وتم تنصيب «هيردوس» الرومانى ملكًا على فلسطين بعد أن تخلص من آخر ملوك المكابيين.

وحاول هيردوس بعد ذلك أن يهدئ الأحوال ويسترضى اليهود فى الهيكل الذى كان قد أصابه التلف الشديد على نسق هيكل سليمان، وكان هذا هو الهيكل الثانى وذلك عام «٢٠-١٨» ق.م وظل المعبد على هذه الحالة حتى جاء نبى الله زكريا وابنه يحيى عليهما السلام وجاء عيسى ابن مريم ابنة خالة يحيى، عليهم جميعا صلاة الله وسلامه.

الأقصى فى عهد يحيى وزكريا:

وقد ورد فى القرآن ما يدل على أن المعبد كان قائما فى عهود هؤلاء الأنبياء يحيى وزكريا؛ فإن مريم عليها السلام كانت أمها قد وهبتها لخدمة بيت المقدس، قال تعالى: ﴿**إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ**﴾ [آل عمران: ٣٥- ٣٩].

فالنذر فى هذه الآيات كان لخدمة المكان المقدس، ولكن جاء المولود أنثى وهى مريم عليها السلام وقد كفلها زكريا الذى كان رئيس الهيكل وقتئذ، وفى محراب الهيكل أو المسجد دعا زكريا عليه السلام ربه أن يرزقه الذرية الطيبة فجاءته البشرى بيحيى عليه السلام وهو قائم يصلى فى المحراب، ثم إن زكريا عليه السلام قد

نشره اليهود بالمنشار فقتلوه كما قتلوا ولده يحيى عليه السلام عندما وشوا به إلى ملك ظالم فى عصره ويعد قتل زكريا ويحيى عليهما السلام هو الإفساد الثانى لليهود الذى ذكر فى أول سورة الإسراء كما قال كثير من المفسرين.

الأقصى على عهد عيسى عليه السلام:

كان عيسى عليه السلام معاصرا ليحيى عليه السلام فهما ابنا خالة، وقد بُعث عيسى عليه السلام وأحوال بنى إسرائيل فى غاية الفساد والإفساد؛ فعقائدهم قد طمست، وأخلاقهم قد رذلت، وسيطرت عليهم المادية الجشعة، حتى إنهم اتخذوا من الهيكل سوقًا للصيارفة والمرابين، وملهى لسباق الحمام، فأخبرهم عليه السلام بأن العقوبة الثانية قادمة إليهم على إفسادهم الثانى.. «يا أورشليم.. يا أورشليم، يا قاتلة الأنبياء، وراجمة المرسلين إليها، كما أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحها ولم تريدوا هو ذا بيتكم يترك لكم خرابا»[1].

تدمير الهيكل الرومانى الوثنى:

لم يكن الرومان قد اعترفوا بالديانة النصرانية عندما بنوا جوبيتر على الهيئة الوثنية إلى أن تمكنت النصرانية من أرض فلسطين فدمره النصارى من أساسه فى عهد الإمبراطور قسطنطين مفسد النصرانية ومدخل التثليث والصليب فيها، وهكذا أصبحت أرض المسجد الأقصى قاعا صفصفا بلا بناء ولكنها ظلت مع ذلك أرضا مقدسة لأن قداسة الأرض لا تزول بزوال ما فوقها من بناء، وكذلك لا تزول تلك القداسة من على الأرض ولو علتها أشياء غير مقدسة كما كان الشأن فى الكعبة المشرفة التى انتشرت الأصنام داخلها قبل فتح مكة.



(١) إنجيل متى «٢٣».

ثالثاً: القدس فى كنف الإسلام

ظل مكان المسجد خاليًا من بناء يقام فيه بقية عهد الرومان النصارى حتى حدث الإسراء للنبى ﷺ فى عهد الحاكم الرومانى هرقل «٦١٠-٦٤١م» فى العام السابق للهجرة، ولما جاء وقت الفتح الإسلامى لبيت المقدس «١٥هـ- ٦٣٦م» فى عهد خلافة عمر رضى الله عنه «١٣-٢٣هـ» لم يكن لليهود آنذاك وجود بها بل إن سفروليوس بطريرك النصارى قد اشترط عليه عمر فى عقد تسليم المدينة ألا يدخل المدينة أحد من اليهود، وهكذا أغلق التاريخ ملف بنى إسرائيل أو أهل الكتاب من اليهود والنصارى فيما يتعلق بحيازة تلك الأرض المباركة ووراثتها وسدانة معبدها، لتنتقل الأرض والمسجد بعد ذلك إلى حيازة ووراثة وصبغة الأمة الإسلامية وارثة الرسالات وحامية المقدسات بعد أن أسرى بالنبى محمد ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى إيذانا ببدء العهد الإسلامى فى الأرض المقدسة فى ظل الرسالة الخاتمة، وقد احتلت القدس والمسجد الأقصى -بعد أن تحولا إلى إرث الأمة الخاتمة- مكانة عظيمة فى نفوس المسلمين ولم يكن تعلق المؤمنين من بنى إسرائيل بهذه المقدسات بأكثر من تعلق المؤمنين من أتباع محمد ﷺ بها فهما يقبعان فى قلب كل من له قلب من المسلمين، ولقد جاء النبى الخاتم محمد ﷺ بالشريعة الخاتمة والكتاب الأخير المهيمن على كل ما سبقه من كتب ورسالات يقول تعالى: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ**﴾ [المائدة: ٤٨]، الأمر الذى ألقى مسئولية حفظ وتكريم المقدسات على كاهل المنتسبين للكتاب المهيمن والرسالة الخالدة، إن مكة والكعبة كانتا مقدستين فى ملة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام فامتد تقديسهما وتكريمهما عند هذه الأمة المسلمة؛ وبيت المقدس والمسجد الأقصى كانا مقدسين فى ملة إبراهيم وإسحاق وامتد تقديسهما وتكريمهما كذلك عند الأمة المسلمة، وقد وصف القرآن تلك الأماكن بصفات البركة والطهر والقدسية فى أكثر من موضع، فقد قال الله تعالى: ﴿**يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ**﴾ [المائدة: ٢١] إلى غير ذلك من آيات.

يقول ابن كثير فى تفسير سورة الإسراء التى سبق الحديث عنها **﴿مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾** [الإسراء: ١] هو بيت المقدس الذى بإيلياء معدن الأنبياء - أى الأصل الذى نبتوا فيه من إبراهيم الخليل عليه السلام ولهذا جمعوا له هناك كلهم فأمهم فى محلتهم ودارهم، فدل على أنه هو الإمام المعظم والرئيس المقدم[١]. فكانت صلاته بالأنبياء فى ليلة الإسراء إقرارا بأن الإسلام كلمة الله الأخيرة إلى البشر أخذت تمامها على يد محمد ﷺ بعد أن وطأ لها العباد الصالحون من رسل الله الأولين. وكان فى الإسراء دلالة على أن آخر صبغة للمسجد الأقصى -وهو المعبد العريق فى القدم- هى الصبغة الإسلامية، فاستقر نسب المسجد الأقصى إلى الالتصاق بالأمة التى أم رسولها سائر الأنبياء، ولقد سميت السورة التى ذكر فيها المسجد الأقصى سورة الإسراء بسورة بنى إسرائيل، وجاء فيه قوله تعالى لبنى إسرائيل: **﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً﴾** [الإسراء: ٨] أى إن عدتم للإفساد عدنا عليكم بالعقوبة، ففى حادثة الإسراء إلغاء أبدى وطى مستمر لصفحة بنى إسرائيل من سجل التفضيل والاصطفاء، ولا شك أن فى اقتران الإسراء بالنبى ﷺ إلى السماوات العلا بالمسجد الأقصى دليلا باهرا على مدى ما لهذا البيت من مكانة وقدسية عند الله تعالى، ودليلا كذلك على صحة القول بأن المسجد الأقصى فوق مركز الدنيا وأنه المصعد من الأرض إلى السماء، ولهذا عرج بالنبى إلى السماء منه. وقد جاءت فى الآيات آنفة الذكر أحاديث نبوية يتبين لنا منها مدى ما لبيت المقدس والمسجد الأقصى من منزلة وفضل فى الإسلام منها:

١- عن أبى هريرة -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام ومسجد الرسول ﷺ والمسجد الأقصى»**[٢].

(١) انظر تفسير ابن كثير ج٣ ص٢٢ .

(٢) رواه البخارى «٣/٨٦» (٢٠)، كتاب فضل الصلاة (١) باب فضل الصلاة فى مسجد مكة والمدينة ١١٨٩ واللفظ له.



٢- عن أبى ذر -رضى الله عنه- سألت رسول الله ﷺ عن أول مسجد وضع فى الأرض قال: **المسجد الحرام**. قلت: ثم أى؟ قال: **المسجد الأقصى**. قلت: كم بينهما؟ قال: **أربعون عاما، ثم جعلت الأرض لك مسجداً فحيثما أدركتك الصلاة فصلِّ»**(١).

٣- وعن ميمونة مولاة النبى ﷺ قالت: قلت: يا رسول الله أفتنا فى بيت المقدس قال: **«أرض المحشر والمنشر ائتوه فصلوا فإن صلاة فيه كألف صلاة فى غيره»** قلت: أرأيت إن لم أستطع أن أتحمل؟ إليه قال: **فتهدى له زيتا يسرج فيه، فمن فعل ذلك فهو كمن أتاه»**(٢) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: كان النبى يصلى بمكة نحو بيت المقدس والكعبة بين يديه وبعدما هاجر إلى المدينة ستة عشر شهرا، ثم صرف إلى الكعبة(٣).

وهذه المناقب والفضائل كانت حاديا للمسلمين منذ عهد الرسالة ثم عهد الصحابة ثم ما تلا ذلك من عروض، لكى يرفعوا رايات الجهاد كلما تهددت قدسية الأرض المقدسة بسوء، وكان علماء الإسلام يشحذون همم المسلمين بتلك المناقب لكى تظل الأرض المقدسة فى الشام خالصة للتوحيد، هذا وقد قال ابن تيمية رحمه الله: «ثبت للشام وأهله مناقب بالكتاب والسنة وآثار العلماء وهى أحد ما اعتمدته فى تحضيض المسلمين على غزو التتار وأمرى لهم بلزوم دمشق ونهيى لهم عن الفرار إلى مصر، واستدعائى العسكر المصرى إلى الشام، وتثبيت الشامى فيه، وهذه المناقب إحدى أمور: أحدها البركة، وتثبت بخمس آيات من كتاب الله؛ حيث ذكر الله أرض الشام فى هجرة إبراهيم إليها، ومسرى الرسول إليها وانتقال بنى إسرائيل إليها، ومملكة سليمان بها، وأيضا ففيها الطور الذى كلم الله عليه موسى والذى أقسم الله به فى سورة

---

(١) أخرجه البخارى ٦/ ٤٦٩ « (كتاب) أحاديث الأنبياء وأخرجه مسلم «١/ ٣٧٠ « (٥) كتاب المساجد ومواضع الصلاة رقم ١، ٢ واللفظ له.

(٢) رواه أحمد «٦/ ٤٦٣»، ورواه أبو داود (١/ ٣١٥) (٢) كتاب الصلاة (١٤)، باب من السرج فى المساجد رقم ٤٥٧ .

(٣) أخرجه أحمد «١/ ٣٢٥».

الطور وفى ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ﴾ [التين: ١، ٢] وفيها المسجد الأقصى، وفيها مبعث أنبياء بنى إسرائيل، وإليها هجرة إبراهيم وإليها مسرى نبينا ومنها معراجه، وبها ملكه وعمود دينه وكتابه وطائفة منصورة من أمته، وإليها المحشر والمعاد، كما أن من مكة المبدأ فمكة أم القرى من تحتها دحيت الأرض والشام إليها يحشر الناس كما فى قوله تعالى: ﴿لأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ [الحشر: ٢٠] حيث نبه على الحشر الثانى فمكة مبدأ وإيلياء معاد فى الخلق وكذلك فى الأمر، فإنه أسرى بالرسول ﷺ من مكة إلى إيلياء ومبعثه ومخرج دينه من مكة، وكمال دينه وظهوره وتمامه بالشام فمكة هى الأولى والشام هى الآخرة فى الخلق والأمر، فى الكلمات الكونية والدينية»[1].

المسجد الأقصى هو المكان الذى أسرى إليه النبى وهو المكان الذى صعد منه إلى السماء، وقد شرف الله تلك الأرض بإسراء النبى إليها ومعراجه منها إلى السماوات العلى، وبذلك كان هذا الحدث شرفا كبيرا آثر الله به نبيه محمداً ﷺ فى ذلك المسجد العظيم ليرقى إلى ملأ عظيم فى ليلة مباركة، ولم يقتصر الاعتناء النبوى بالمسجد الأقصى على هذا الحدث، فبعد أن توطدت دعائم الدولة الإسلامية فى المدينة المنورة وبعد أن تم فتح مكة المكرمة ورفرفت راية الإسلام والتوحيد فوق ربوع الكعبة المشرفة اتجهت أنظار النبى ﷺ صوب بيت المقدس ليطهره من أدران الشرك الرومانى النصرانى، كما طهر مكة من الأصنام والأوثان، وبدأت بذلك الخطوة الأولى وهى تحرير الأرض المقدسة وتكسير الآثار التى حلت بها، ثم أرسل رسول الله ﷺ برسائل إلى هرقل عظيم الروم الذى كان يحكم الشام يدعوه إلى الإسلام، وفى العام الثامن للهجرة ندب الرسول ﷺ المسلمين للخروج إلى معركة مؤتة، وإن كان المسلمون قد انهزموا فى تلك المعركة ودارت الحرب بعد ذلك بين الروم والمسلمين فى محاولة من الروم للسيطرة على بلاد الشام وضمان الأرض المقدسة فى أيديهم إلا أن الرسول ﷺ قد استنفر المسلمين لملاقاة ذلك العدو فى

(١) مجموع الفتاوى ج٢٧ ص٥٠٥ .



السنة التاسعة للهجرة، وقد اكتنفت كتائب الجيش الإسلامى الذى أعد لقتال الروم فى الشام ظروف عصيبة وبسببها سميت تلك الغزوة بجيش العسرة أو غزوة العسرة، ولما بلغ الجيش الإسلامى تبوك لم يجد للرومان أثرًا يدل على الاستعداد للحرب، وعلى ما يبدو أنهم فضلوا الاختفاء عن ملاقاة جيش الإسلام الذى كان يضم آنذاك نحو ثلاثين ألفًا من المقاتلين، ورجع الرسول ﷺ قافلا بالجيش إلى المدينة بعد أن أزال رهبة حرب الروم من قلوب المسلمين، وبعد أن عاد النبى من حجة الوداع أمر المسلمين بالاستعداد لغزو معاقل الروم فى بلاد الشام واختار لإمرة ذلك الجيش أسامة بن زيد بعد مقتل أبيه زيد بن حارثة فى معركة مؤتة، ولكن مرض الرسول ﷺ أعاق هذا الجيش عن الخروج فلم ينفذ إلى الشام إلا بعد أن تولى أبو بكر الصديق الخلافة فكان أول شىء فعله هو إنفاذ جيش أسامة بن زيد كما أوصى النبى ﷺ قبل وفاته على الرغم من خطورة المرتدين آنذاك.

وبعد أن انتصر أبو بكر بجيوشه على المرتدين فكر فى أن يوجه الجيوش إلى ميدان الشام وإلى ميدان العراق ووجه أبا عبيدة عامر بن الجراح إلى حمص وولاه إمرة الجيوش، كما أرسل يزيد بن أبى سفيان إلى دمشق، وعمرو بن العاص إلى فلسطين، وشرحبيل بن حسنة بوادى الأردن، ثم أسند أبو بكر القيادة العامة لجيوش الشام إلى خالد بن الوليد بعد انتقاله من ميدان القتال فى الفرس وعبوره الصحراء، وكان فى أرض الشام أربعة جيوش إسلامية متفرقة بقيادة كل من شرحبيل بن حسنة وكان بأرض البصرة، ومعاذ بن جبل بجيشه وكان بحوران، ويزيد بن أبى سفيان وكان بالبلقاء، وعمرو بن العاص كان بفلسطين، واتجه الجميع إلى أجنادين بفلسطين يتقدمهم سيف الله المسلول خالد بن الوليد وانتصر المسلمون على الروم فى معارك كثيرة تمخضت عن فتح عدة مدن فى فلسطين منها نابلس وعسقلان وغزة والرملة وعكا واللد. وفتح عمرو بن العاص مدنا أخرى كان منها يافا ورفح، ثم توفى أبو بكر فى ٢٢ جمادى الآخرة سنة ١٣هـ وقبل أن يخطر المسلمين بموته كان خالد بن الوليد قد حقق نصر اليرموك العظيم على الروم.

تولى عمر بن الخطاب الخلافة وكان أول شيء فعله أن أرسل رسالة إلى أبى عبيدة بن الجراح طلب فيها عزل خالد من قيادة الجيوش وأن يتولى مكانه أبو عبيدة بن الجراح قائدًا عاما للمسلمين، وكان لعمر بن الخطاب رحمه الله فلسفته الخاصة فى ذلك لقد خشى أن يفتن به الجنود حيث لم يهزم فى معركة قط وحتى يتيقن المسلمون أن النصر من عند الله وليس بقدرة خالد بن الوليد.

ثم وجه عمر بن الخطاب أبا عبيدة بن الجراح لفتح بيت المقدس وكان أبو عبيدة معسكرًا فى الجابية ولما وصله رسول عمر قام بتوجيه خالد بن الوليد فى خمسة آلاف فارس نحو بيت المقدس ثم اتبعه بخمسة آلاف أخرى بقيادة يزيد بن أبى سفيان ثم خمسة آلاف بقيادة شرحبيل بن حسنة واجتمعت الجيوش كلها ولحق بها أبو عبيدة وضرب الحصار حول المدينة المقدسة، وقد أحس أهل المدينة باليأس وعدم القدرة على المقاومة فطلبوا الصلح من أبى عبيدة على أن يتولى الخليفة عمر بنفسه تسلم المدينة، وطلبوا العهد والأمان منه، فأجابهم أبو عبيدة وأرسل إلى عمر ابن الخطاب يخبره بذلك ويطلب منه الحضور لتسلم المدينة فوافق على ذلك وقد جاء فى كتاب أبى عبيدة إلى أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه:

«بسم الله الرحمن الرحيم لعبد الله عمر أمير المؤمنين من أبى عبيدة بن الجراح سلام عليك، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو أما بعد، فإنا أقمنا على إيلياء وظنوا أن لهم فى المطاولة فرجا ورجاء، فلم يزدهم الله بها إلا ضيقا ونقصا وهزلا وأزلا؛ فلما رأوا ذلك سألونا أن نعطيهم ما كانوا به ممتنعين قبل ذلك وله كارهين، وأنهم سألوا الصلح على أن يقدم عليهم أمير المؤمنين فيكون هو المؤمن لهم والكاتب لهم كتابا، وإنا خشينا أن يقدم أمير المؤمنين ثم يغدر القوم فيرجعون فيكون سيرك - أصلحك الله- عناء وفضلا؛ فأخذنا عليهم المواثيق المغلظة بأيمانهم لأن أنت قدمت عليهم فأمنتهم على أنفسهم وأموالهم ليقبلنَّ ذلك وليؤدنَّ الجزية وليدخلنَّ فيما دخل فيه أهل الذمة ففعلوا وأخذنا عليهم الأيمان فى ذلك، فإن رأيت يا أمير المؤمنين أن

تقدم علينا فافعل فإن فى سيرك أجرا وسلاما. . .»[١]. وقد قرأ عمر «الخطاب» على رؤوس المسلمين فى المدينة واستشارهم وبعد دراسة ومشاورة قال عمر: «سيروا على اسم الله فإنى معسكر وسائر»[٢]، وقد خطب عمر خطبة بالجابية وقال: «الحمد لله الحميد المستحمد المجيد الغفور الودود. . .»[٣].

وقد أجابهم عمر وقرر الخروج إلى إيلياء وكانت لا تزال تسمى بهذا الاسم ووصل عمر الفاروق ليحرر مسرى رسول الله من آثار الشرك الصليبى ودخل القدس عن طريق جبل المكبر الذى سمى بهذا الاسم لأن عمر رضى الله عنه لما أشرف على المدينة المقدسة من فوقه كبر وكبر معه المسلمون، وكتب عمر وثيقة الأمان وهى المسماة بالعهدة العمرية ونصها كالآتى:

هذا ما أعطى عبد الله أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب» أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها أنه لا تسكن كنائسهم، ولاتهدم، ولا ينتقص منها، ولا من حيزها، ولا من صُلُبهم، ولا من شىء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء «القدس» معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن، وعليهم أن يُخرجوا منها الروم واللصوص، فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم، فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وعلى صلبهم حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان فيها من أهل الأرض، فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شىء حتى يحصدوا حصادهم».

(١) الأزدى. تاريخ فتوح الشام. تحقيق عبد المنعم عبد الله عامر. مؤسسة سجل العرب ص٢٤٨ .

(٢) المرجع السابق ص٢٥٠

(٣) المرجع السابق ٢٥١ وما بعدها.

شهد على ذلك الصحابة الكرام: خالد بن الوليد، عمرو بن العاص، عبد الرحمن ابن عوف، معاوية بن أبى سفيان[1].

ويلاحظ أن عمر بن الخطاب الخليفة الملهم وصاحب الفراسة المسلم اشترط ألا يسكن مع أهل إيلياء أحد من اليهود إذ إن عمر بن الخطاب كان يتفهم تلك القضية، ويدرك تماما أنه ليس لليهود حق الإقامة فى تلك البلدة المقدسة حتى لا يتخذوها فيما بعد ذريعة لأحقيتهم فى المدينة.

وبعد أن انتهى من كتابة العهدة العمرية طلب من البطريرك أن يدله على مكان مسجد داود أى مكان تعبد داود فسار وسار معهما أربعة آلاف من المسلمين متقلدين سيوفهم، وراوغهم البطريرك ليعمى عليهم مكان المسجد، وفى النهاية مضى بهم البطريرك إلى مكان مسجد بيت المقدس حتى وصلوا الباب المسمى باب محمد، وكان الباب يكاد أن يغلق لانحدار ما فى داخل السوق من الزبالة على درجه، فتجشم الجميع الدخول إلى الصحن ونظر عمر يمينا وشمالا ثم قال: الله أكبر هذا والذى نفسى بيده مسجد داود عليه السلام الذى أخبرنا رسول الله ﷺ أنه أسرى به إليه، وكان على الصخرة زبل كثير مما طرحته الروم غيظا لبنى إسرائيل فبسط عمر رداءه وجعل يزيل هذا الزبل والمسلمون يحذون حذوه، ومضى عمر نحو مكان محراب داود فصلى فيه وقرأ سورة ص وسجد[2]. وذكر المؤرخون أن الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه عندما دخل الساحة سأل كعب الأحبار الذى كان من جنود الفتح وكان يهوديا فأسلم سأله عن مكان الصخرة فدله عليها وكانت بالزبل فأزال عمر ومعه المسلمون الزبل من عليها وقرر أن يبنى هناك مسجدا فاستشار كعب الأحبار فأشار عليه أن يبنيه خلف الصخرة لتجتمع قبلتا موسى ومحمد عليهما السلام ولكن عمر رفض وقال له: ضاهيت اليهودية يا كعب وأقام المسجد أمام الصخرة وجعلها فى مؤخرته[3].

(١) ابن الجوزى. فضائل القدس ص١٢٣، ١٢٤.

(٢) البداية والنهاية ج٧ ص٥٦، ٦٢.

(٣) فتوح الشام ج١ ص ٢٤٢.



وقد نال القدس فى العصر الأموى اهتماما كبيرا؛ ففى عهد معاوية بن أبى سفيان أول خلفاء بنى أمية نودى بالبيعة له فى مدينة القدس ولكنه اختار مدينة دمشق عاصمة لخلافته بعد البيعة التى كانت سنة ٤٠هـ فى مدينة القدس[١].

ثم تولى بعد ذلك الخليفة عبد الملك بن مروان وابنه الوليد عملية إعمار المدينة المقدسة وتجديدها، وظلت أعمال الإعمار جارية على قدم وساق حتى أصبحت مدينة بيت المقدس فى عهدهما من أعظم المراكز فى الدولة الإسلامية، فقد أعاد بناء الأسوار المحيطة بالمدينة وأقام الأبنية والقصور بجوار الزاوية الجنوبية فى سور المسجد ليسكنها أمراء القدس فى العهود الأموية ثم العباسية ثم الفاطمية فيما بعد[٢]. وأخذ عبد الملك البيعة لنفسه فى بيت المقدس كما ذكر ذلك خليفة ابن خياط[٣]، وتولى تشييد مسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى وكلف عبد الملك لهذه المهمة أحد العلماء الأعلام وهو أبو المقدام رجاء بن حيوة ومعه يزيد بن سلام وكان البدء فى ذلك البناء عام ٦٦هـ وأوقف عبد الملك خراج مصر لسبع سنين لتشييدها وتم البناء عام ٧٢-٧٣هـ، وهما المهندسان المكلفان ببناء المسجد وبعد الانتهاء من هذا الإنجاز كتب رجاء ويزيد إلى الخليفة عبد الملك بدمشق رسالة جاء فيها: قد أتم الله ما أمر به أمير المؤمنين من بناء قبة صخرة بيت المقدس والمسجد الأقصى ولم يبق لمتكلم كلام، وقد بقى مما أمر أمير المؤمنين من النفقة عليه بعد أن فرغ البناء وأحكم مائة ألف دينار فيصرفها أمير المؤمنين فيما أحب. فكتب إليهما الأمير: «قد أمرت بها لكما جائزة لما وليتما من عمارة البيت الشريف المبارك» فكتبا إليه «نحن أولى أن نزيده من حلى نسائنا فضلا عن أموالنا»[٤].

أما الخليفة الأموى العادل عمر بن عبد العزيز فإنه لما تولى الحكم طلب من جميع ولاته أن يزوروا المسجد الأقصى ويقسموا يمين الطاعة والعدل بين الناس فيه.

(١) تاريخ الطبرى ج٦ ص٩٣ .

(٢) قبل الكارثة نذير ونفير ص١٢٥ .

(٣) نقلا عن المصدر السابق ص١٢٥ .

(٤) المصدر السابق ص١٢٦ .

أما فى العصر العباسى فقد ازداد اهتمام العباسيين بالمسجد الأقصى ومدينته المقدسة وبخاصة فى عهد أبى جعفر المنصور وقد أولاهما عنايته بعد أن تعرضت الأرض المقدسة لزلزال شديد تهدمت بسببه أجزاء من المسجد، وكان إيراد بيت المال لا يفى بالإصلاحات المطلوبة فأرسل أبو جعفر المنصور إلى أمرائه وعماله بأن يتولى كل واحد منهم بناء رواق من أروقة المسجد فبنوه أفضل وأحسن مما كان وكان ذلك سنة ١٥٤هـ[(١)].

وكذلك قام الخليفة المهدى بإصلاحات فى المسجد عام ١٥٨هـ وقد زاد فى طوله، وفى عهد المأمون الذى بويع سنة ١٩٨هـ وجه نظره لإصلاح المسجد بعد أن بليت بعض معالمه. وهكذا ظل المسجد الأقصى ومسجد الصخرة فى أمن وحماية طوال العصر العباسى إلى أن انتهى.

ثم وقعت القدس تحت حكم بنى عبيد أى فى العصر الفاطمى وخاصة فى عهد المعز لدين الله الفاطمى حيث احتل قائده جوهر الصقلى فلسطين عام ٣٥٩هـ وكان هؤلاء شيعة إسماعيلية فعانت كثيرا تحت وطأة هؤلاء الحكام الذين عملوا على تقريب اليهود والنصارى إليهم، وساعدوا على نزوحهم إلى فلسطين واتخذوا منهم الوزراء والمستشارين والأطباء، وهيمن اليهود على أغلب مدن الدولة الفاطمية وخاصة فى النواحى المالية والتجارية وأعمال الطب والقيام بأعمال السفارة والوساطة بين ملوك العرب والخلافة الإسلامية.

وقد ازدادت هذه الظاهرة فى عهد العزيز بالله الخليفة الفاطمى «٣٦٥-٣٨٦هـ» الذى تزوج من امرأتين نصرانيتين كانت إحداهما أم ولده وهو الحاكم بأمر الله ٣٨٦هـ وقد عمل الحاكم على تقريب النصارى أكثر وأكثر، ولا عجب فى ذلك لقد كانت أمه وجاريته نصرانيتين وتلقى تربيته وعلمه على أيدى النصارى وعين شقيق جاريته النصرانى أسقفا بالقدس، وكان وزيره عيسى بن نسطور نصرانيا وكذلك طبيبه أبو الفتح منصور بن معشر نصرانيا أيضا، وكان نائبه فى سوريا

(١) قبل الكارثة نذير ونفير. مرجع سابق ص١٢٧ .



يهوديا. وفى عهد الخليفة الظاهر والخليفة المستنصر بالله أبرمت المعاهدات بين الدولة الفاطمية والدول الرومية البيزنطية وأدى هذا إلى رواج وانتعاش الوجود النصرانى فى المدينة المقدسة، وفتح ذلك أعين النصارى على الاستيلاء على هذه الأرض فيما بعد. وفى عام ٤٦٥هـ- ١٠٧١م بعث ألب أرسلان السلجوقى بجيش إلى فلسطين استطاع به أن ينتزعها من يد الدولة الفاطمية وأقام الدعوة العباسية بالقدس.

ثم استعاد الفاطميون الباطنيون القدس من الأتراك السلجوقيين مرة أخرى عام ٤٩١هـ- ١٠٩٨م فى زمن الخليفة المستعلى بالله، ولم تلبث القدس أن انتزعها الصليبيون من يد أوليائهم الفاطميين، الذين كانوا من الأسباب الرئيسية فى النكبة الصليبية التى حلت ببيت المقدس والتى سوف نفرد لها فصلاً خاصًا.







مسير الحملة الصليبية الأولى نحو بيت المقدس

أولاً: الحركة الصليبية «الفكرة والمصطلح»

ثانيًا: دوافع وأسباب الحركة الصليبية

ثالثًا: الإعداد للحملة الصليبية الأولى

أولا: الحركة الصليبية «الفكرة والمصطلح»

إن دراسة الفكرة التى قامت عليها الحروب الصليبية ذات أهمية كبرى فى فهم طبيعة الحملات الصليبية ولاسيما الحملة الصليبية الأولى على المشرق العربى، فقد كانت تلك الحملات بمثابة المشروعات الاستعمارية الأوروبية المبكرة وهى التى سبقت مرحلة الاستعمار الأوروبى الحديث، وهى أيضا الفكرة التى تغذى الغرب اليوم ليقوم بتلك الحركة الصليبية مرة أخرى وهى أيضا التى ألهمت الصهيونية بأن تستوطن فلسطين وتقتطع هذا البلد من قلب الأمة العربية لتجعله أرضا تتحقق بها أسطورة أرض الميعاد.

وقد كان للحركة قوة دفع كبرى إذ حركت شعوب الغرب الأوروبى نحو الشرق العربى للإغارة عليه واستعماره، وقد بدأت تلك الفكرة منذ سنة ١٠٩٥م حين ألقى البابا (أربان) الثانى خطبته الشهيرة فى حفل دينى بجنوب فرنسا جمع فيه الأساقفة لمناقشة أحوال الكنيسة الكاثوليكية المتردية ولكى يثير فيهم الحماسة دعاهم إلى شن حملة تحت راية الصليب ضد المسلمين فى فلسطين، وكانت هذه الدعوة نقطة دراسة وتفكر أثارت جدلا ونقاشا حادا بين زعماء الغرب وصارت لتلك الدعوة الصليبية جاذبيتها فى أنحاء أوروبا الغربية آنذاك.

من هذا المنطلق ما زلت أقول: إن فكرة الحركة الصليبية لفكرة جديرة أن نقف على دراستها دراسة متأنية لأنها ما برحت فكرة حية متجددة لم تمت، فما فتئت حتى يومنا هذا تخامر فكر الغربيين من حين إلى حين، بل ما زال حكام الغرب ينطقون بها عندما تتحرج المواقف وتأخذهم الحماسة الدينية عند أدنى احتكاك بأى جانب سياسى أو عسكرى، وقد سمعناها بالفعل أكثر من مرة من رؤساء الغرب إبان حرب العراق، والعجيب فى تلك الحركة أنها تحمل فى طياتها التجدد والتلون إذ يمكن أن يجدوا لكل حملة صليبية سببا ظاهريا يقنعون به العالم فى كل مرة ومع ذلك فإنهم يضمرون سببا أساسيا فى أعماق نفوسهم وهو العداء

الدينى للإسلام ونبى الإسلام. من أجل هذا لابد أن نقف على الأصول الفكرية لتلك الحركة حتى نواجهها بفكرة أخرى تقضى عليها أو تصطدم معها على الأقل: فشعار الحركة وهو الصليب -إذ سميت الحركة الصليبية بهذا المصطلح- الذى رفعوه شعارا لحملاتهم الحربية وهو شعار مضطرب فى دلالته اللغوية وحقيقته التاريخية، يقول الدكتور قاسم عبده قاسم: «لقد ارتبط اسم هذه الحركة بالصليب بعد حوالى قرن ونصف القرن من دوران عجلة أحداثها والناظر فى مجريات وقائعها يجد مزيجا من القسوة والوحشية والتدين العاطفى الذى يشوبه التعصب ويكتشف فى ذلك كله تناقضا مع الصليب رمز الفداء والتضحية بالنفس فى سبيل الآخرين، ولم يكن الصليب أبدا رمزا للحرب والقتل والعدوان»(١).

إذن لم تكن إشارة الصليب قد أخذت عمقها الفكرى آنذاك حتى أصبح مصطلحا وإشارة للحملة الصليبية التى جاءت من الغرب بل كانت هناك ممهدات لهذا الأمر إذ ظهر بعض الفرسان الأوروبيين فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى كانوا يخيطون صلبانا من القماش على ستراتهم بل إن من شارك فى تلك الحروب فى مهدها الأول أطلق عليهم «حجاج» وكانوا يطلقون على تلك الحملات «رحلة الحج» ثم استخدمت بعد ذاك كلمة الحملة وعبارة الرحلة إلى الأرض المقدسة كمصطلح الحرب المقدسة أو الحملة العامة أو حملة الصليب أو مشروع يسوع المسيح، كل هذه المصطلحات ظهرت فى أطوار الحملة الصليبية الأولى وعلقت فى أذهان الناس فى أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية إذ رأى بعضهم فى الحملات الصليبية حملة خيرة نبيلة القصد والهدف فقد كان غرضها فى أذهانهم رعاية المرضى ومساعدة المنكوبين. وظلت الحملات الصليبية تلك تشغل عقول العامة من الأوروبيين حتى أصبحت موروثًا شعبيًا تعبر عنه الأغنيات الشعبية وبذلك بعدت روح الحرب عن مصطلح الحروب الصليبية حتى صارت تلك الحملات حلمًا من أحلام الفقراء(٢).

أما فى محيطنا العربى فقد تناول المؤرخون القدماء هذه الحركة بالتأريخ وتحدثوا عنها بمفارقة عجيبة فنرى الجيل الأول منهم والذين عاصروا تلك الحرب فى أولها

(١) قاسم عبده قاسم. ماهية الحروب الصليبية. عالم المعرفة رقم ١٤٩ ص٩.

(٢) المرجع السابق ص١١.

لا يستخدمون مصطلح الصليبيين أو الحملة الصليبية إنما عبروا عنها بعبارات أخرى مثل «حـركة الفـرنج» بدلا من وصفـهم بالصليبـيين لأنهم لم يروا بعـد من تلك الحركة صور أبعادها الحربية.

ولكن الجيل الذى تلا هذا الجيل من المؤرخين المسلمين قد فهموا أبعاد تلك الحركة بطريقة أعمق وأوضح فربطوا بين حركة الفرنج والمسيـحية والصليبية بطريقة ما، حيث كان البحث التاريخى فى العالم العربى آنذاك قد أصابه الفتور بفعل التخلف كما يقول الدكتور عـبده قاسم الذى أحاط كل جوانب الحيـاة العربية حتى القرن التـاسع عشر، وعندما بدأت حركة البحث تنهض من جديد فقد تأثر مؤرخونا فى تلك الفترة بالفكر الغربى والثـقافة الغربيـة وبالحركة العلمـية أيضا التى تأجج أوارها فى أوروبا، فـتأثر هؤلاء المؤرخون بـالمدرسة الأوروبية وخـاصة فى ترجـمة بعض المصطلحـات والأخذ بالتقسيمات على نهـج التقسيمات الأوروبية كما سادت الرؤية الإستـشراقية فترة[1] مما يمكننا القول إن بعض كتابنـا قد وقع فى شباك الترجمة الأوروبية وبدأوا يسـتخدمون مصطلح «(صليـبى) أو حملة صليـبية أو حـروب صليبيـة» فى تناولهم للظاهرة التى عالجها أسلافهم من قبل تحت مصطلحات (الفرنج). ولعل استخدام هذا المصطلح يبرز لنا خطورته لأنه يوحى بأن الحركـة الصليبية كـانت حركة دينية مـرتبطة بالصليب رمز المسيحية، فـهل هذا المصطلح فى إطاره الصحيح وخاصة أن الحملات الصلـيبية كانت أشبه بمغامرات لتكوين مسـتعمرات متعصبة لاستغلال خـيرات الشرق كما يضاف إلى ذلك أن هذا المصطلح «الحملات الصليبـية» قد يسىء للمسيحيين الشـرقيين المتواجدين فى بلادنا، وقد يفهم البعض أنهم قد تضـامنوا مع مسيحيى أوروبا على الرغم من أن قسما كبيرا منهم قد عانى من وحشية هؤلاء الفرنج.

وبعد هذا العرض فى تفسير فكرة الحروب الصليبية وبيان المصطلح الذى سميت به نحاول توضيح الأسباب التى أدت إلى ظهور تلك الحملات الصليبية ثم اتجاهها صوب المشرق الإسلامى على وجه الخصوص.

---

(١) ماهية الحروب الصليبية ص ١٢.

ثانياً: دوافع وأسباب الحركة الصليبية



١- تبدل أحوال الإمبراطورية البيزنطية وضعفها أمام الترك:

أصيبت الإمبراطورية البيزنطية بضعف شديد بعدما كانت فتية قوية، إذ ظلت هذه الإمبراطورية سبعة قرون تقف في ملتقى الطرق المارة إلى أوربا وآسيا تصد الجيوش الآتية من آسيا وغيرها، ولكن أصاب تلك الإمبراطورية اضطراب في شئونها الداخلية حيث انفصلت عن الغرب المسيحى على إثر الانشقاق الذى حدث عام ١٠٥٤م، كل هذا قد أدى إلى ضعف تلك الإمبراطورية ومنعها من أن تؤدى رسالتها التاريخية، وبينما كان البلغار والبشناق والكومان الروس يدقون أبوابها في أوروبا كان الأتراك يقطعون أوصال ولاياتها الآسيوية وقد استولوا على حمص وأنطاكية ١٠٨٥م، وطرسوس ونقية وأخذوا يتطلعون من وراء مضيق البسفور إلى القسطنطينية نفسها، واستطاع الإمبراطور ألكسيوس الأول ١٠٨٥هـ-١١١٨م أن يحتفظ بجزء من آسيا الصغرى بعقد صلح مذل ولم تكن لديه القدرة الحربية آنذاك على صد الغارات التى توالت بعدئذ على أملاكه، ولو أن القسطنطينية سقطت وقتئذ في أيدى الترك لأمكنهم الاستيلاء على شرق أوروبا كله، وقد بعث ألكسيوس برسله إلى أربان الثانى مسعر الحروب الصليبية وإلى مجلس بياسنزا يستحث أوروبا الغربية لتساعده على صد هجمات الترك، وكان من أقواله إن من الحكمة أن يحارب الأتراك في أرض آسيا بدل أن ننتظرهم حتى يقتحموا بجحافلهم بلاد البلقان إلى عواصم أوروبا الغربية.

٢- دعوة البابوات إلى حرب مقدسة ضد المسلمين:

حيث تم إصدار القرار النهائى من أربان الثانى نفسه الذى كان شديد الرغبة لتوجيه الحملات الصليبية نحو المسلمين، وإن كان غيره من البابوات قد طافت بعقولهم هذه الفكرة إذ دعا وقتذاك «جربرت» حينما أصبح البابا سرفستر الثانى

العالم المسيحى لإنقاذ بيت المقدس وبالفعل نزلت حملة مخففة إلى بلاد الشام سنة ١٠٠١م لمنع النزاع المرير القائم بين جريدورى السابع وهنرى الرابع مما دفع البابا أن يقول بأعلى صوته: إن تعريض حياتى للخطر فى سبيل تخليص الأماكن المقدسة لأفضل عندى من حكم العالم كله[1]. كان هذا النزاع لا يزال على أشده حين رأس أربان مجلس بيسانزا عام ١٠٩٥م وأيد البابا فى هذا المجلس استغاثة ألكسيوس ولكنه أشار بتأجيل العمل إلى حين انعقاد جمعية لها صلاحيات أكثر من هذا المجلس وتستطيع أن تمثل العالم المسيحى تمثيلا صحيحا وتبحث فى شن الحرب على المسلمين. وكان هذا البابا يريد أن يوجه أمراء الإقطاع والقراصنة النورمان إلى حرب مقدسة مستغلا فى ذلك حبهم للقتال فيستطيع أن يكون جبهة تصد جيوش المسلمين عن أوربا وبيزنطة، إذ كان حلمه هو إعادة الكنيسة الشرقية إلى حظيرة الحكم البابوى، ويرى بعين القوة عالمًا مسيحيًا عظيمًا متحدًا تحت حكم البابوات الدينى. وأخذ البابا يطوف بشمال إيطاليا وجنوب فرنسا يستطلع رأى الزعماء ويضمن المعونة لما هو مقدم عليه. وقد اجتمع المجلس التاريخى فى مدينة كلير مونت فى مقاطعة أوفرينى وهرع إليها آلاف الناس من كل صقع وناحية، ونصب هؤلاء القادمون خيامهم وعقدوا اجتماعا كبيرا وامتلأت قلوبهم حماسة حين وقف وسطهم على المنصة أربان الفرنسى وألقى عليهم خطبته باللغة الفرنسية وكانت من أقوى الخطب وأعمقها وأشدها أثرا فى تاريخ العصور القديمة، وقد جاء فى هذه الخطبة «يا شعب الفرنجة شعب الله المحبوب المختار لقد جاءت من تخوم فلسطين ومن مدينة القسطنطينية أنباء محزنة تعلن أن جنسًا. . يريد المسلمين- لعينا أبعد ما يكون عن الله قد طغى وبغى فى تلك البلاد بلاد المسيحيين وخربها بما نشره فيها من أعمال السلب والحرائق، ولقد ساقوا الأسرى إلى بلادهم وقتلوا بعضهم الآخر بعد أن عذبوهم أشنع التعذيب وهم يهدمون المذابح فى الكنائس بعد أن يدنسوها برجسهم، ولقد قطعوا أوصال مملكة اليونان وانتزعوا منها أقاليم بلغ من سعتها أن المسافر فيها لا يستطيع اجتيازها فى شهرين متكاملين. . .»[2].

(١) ويل ديورانت. قصة الحضارة. منشورات مكتبة الأسرة المجلد الثامن ص١٤.

(٢) ويل ديورانت. مرجع سابق ص١٥.

وقد اختلفت الآراء فى تفسير طبيعة الحركة الصليبية والدوافع الكامنة وراءها، فقد يرى البعض أنها ذات دوافع مادية تجارية، والبعض يرى أنها وليدة الحماس أو التعصب الدينى أو الهوس الدينى الممزوج بأغراض وتطلعات لتكوين الثروات والمستعمرات، ونظر إليها بعض المؤرخين على أنها حروب دينية عقائدية إذ إن العامل الدينى هو الدافع الأساسى من أجل استعادة قبر المسيح وتحرير الأراضى المقدسة من أيدى المسلمين.

ونستطيع أن نقول إن الحروب الصليبية كانت نتيجة لتفاعل هذه العوامل مجتمعة فقد دفعت إليها دوافع سياسية واقتصادية واجتماعية واتخذت من الدين ستارا لها أو وسيلة لإخفاء أغراضها المذكورة آنفًا.

٣- اختلال ميزان القوة بين الشرق والغرب وميله نحو الأوروبيين :

فالدارس لبواعث وماهية الحركة الصليبية لا يتناولها بهذا الإيجاز وإنما عليه أن يستخلص البواعث والدوافع من خلال علاقة الشرق الإسلامى بالغرب المسيحى إبان القرن الخامس الهجرى، فدراسة هذه العلاقة توضح لنا حقيقة الدوافع الأوروبية وراء تلك الحركة، وهذا ما يمثل عاملا أو سببا مباشرا وهو اختلال ميزان القوى بين الشرق والغرب لصالح الغرب، وقد بدأ هذا الاختلال فى القرن الخامس الهجرى- الحادى عشر الميلادى إذ ضعف حال المسلمين فى الأندلس منذ سقوط طليطلة فى يد ألفونسو السادس ملك قشتالة عام ٤٨٠- ١٠٨٥ الذى يعد بطل الاسترداد لجزيرة الأندلس، وقد ضعفت سيطرة المسلمين على هذه الجزيرة، وامتدت حروب الفرنجة ضد مسلمى الأندلس وجزر البحر المتوسط، وارتبطت تلك الحروب بالأحوال السائدة فى الغرب الأوروبى والتى تبلورت مع موقف قوى الشرق الإسلامى آنذاك؛ منذ ظهور المسلمين على مسرح حوض البحر المتوسط كقوة سياسية وحربية كبيرة غزت أوروبا المسيحية واستولت على أغلب جزر البحر المتوسط وحولته إلى بحيرة إسلامية واجتاحت أسبانيا وصقلية والساحل الجنوبى لفرنسا وسواحل غرب إيطاليا وجزيرتى كورسيكا وسردينيا اللتين أصبحتا مقرا

للأساطيل الإسلامية وأوقعت الرعب فى قلوب الأوروبيين، وتحول ميزان القوى آنذاك لصالح القوى الإسلامية ووقفت أوروبا موقف الدفاع أقول: ومنذ ذلك الوقت تحرك الغرب المسيحى لصد المسلمين، وقد اتسمت تلك الجهود بطابع دينى بل واعتبرت المشاركة فى الحملات أحد مظاهر التقوى وهذا ما اتسمت به حروب شارلمان ضد مسلمى الأندلس وأظهرتها فى طابع صليبى[١]. ومن هذا المنطلق بدأت تظهر الفكرة الصليبية من بداياتها مرتبطة بمبدأ محاربة المسلمين أينما وجدوا وقد صادفت تلك الفكرة تشجيع البابوية فى الغرب الأوروبى فى الربع الأخير من القرن الحادى عشر الميلادى، وظهرت النزعة الصليبية تلك فى أسبانيا قبل دعوة البابا أوربان الثانى للحروب الصليبية بنصف قرن، وقد عرفت هذه النزعة بحرب الاسترداد الأسبانية التى شارك فيها نبلاء أوروبا وبارونات فرنسا المعاصرون آنذاك.

فبعد الفتح الإسلامى لأسبانيا فى القرن الأول الهجرى -الثامن الميلادى قامت بالأندلس دولة إسلامية قوية لها شوكتها وهيبتها أدت إلى تراجع النصرانية الأسبانية نحو الشمال وألجأتها إلى أن تعتصم بهضاب البرانس وأوشتوريش ولكنها لم تضعف ولم يخمد لها أوار، فاستعرت حماستها إلى استرداد أوطانها الجنوبية من قبضة المسلمين ومن أجل هذا الهدف نست أغلب الإمارات المسيحية الشمالية خصوماتها ووحدت قواتها فتجمع من «ليون، قشتالة، نافارا، أراجون، برشلونة» قوة هائلة احتشدت حول كلمة الدين فدارت حروب يمكن أن يطلق عليها بداية حروب صليبية استعرت منذ الخليفة عبد الرحمن الناصر الأموى ٣٠٠-٣٥٠هـ والحاجب المنصور بن أبى عامر٣٦٦-٣٣٩هـ إذ نشطا فى مطاردة القشتاليين والقوى المسيحية الأخرى إلى الجبال الشمالية فى الأراضى المسيحية، وغزوا أقصى وأمنع المعاقل الشمالية ثم انضم إلى مسلمى الأندلس فى حقبة تاريخية لاحقة جموع البربر بقيادة المرابطين والموحدين للمحافظة على أملاك وأراضى الدولة الإسلامية المتداعية فى الأندلس وإنقاذها من خطر الاسترداد[٢]. وقد أثارت تلك

(١) انظر جوزيف نسيم. العرب والروم ج١ ص٥١: ٥٢.

(٢) أحمد مختار العبادى. دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس. طبعة الإسكندرية ص٢٠٩: ٢١٨.

الجموع الإسلامية والحشود الضخمة من دولة المرابطين ومسلمى الأندلس خوف الإمارات المسيحية فى الشمال فظهر تعصبهم الدينى وطلبوا العون من جيرانهم باسم الدين، فعبرت جموع المتطوعين من البلاد الأوروبية جبال البرانس متحمسة لنصرة الصليب وشملت يومئذ البابوية حركة الاسترداد تلك برعايتها وتشجيعها بإعلان الباباوات غفران الخطايا وغفران الذنوب للمشتركين فى تلك الحروب وأصبغت على تلك الحروب الصبغة الدينية، وهكذا كانت كل حرب تشهدها النصرانية ضد الإسلام تعد حربًا صليبية.

ولم تقتصر حركة الاسترداد تلك على شبه جزيرة الأندلس، بل انتقلت إلى جزر البحر المتوسط، فى صقلية وجنوب إيطاليا، بسبب الصراع بين النورمانديين ومسلمى الجزر، وانتزعوا صقلية من أيديهم عام ٤٨٤هـ- ١٠٩١م، فى حين دأبت أساطيل جنوة وبيزة على مهاجمة المسلمين فى كورسيا وسردينا فضلا عن موانئ شمال أفريقيا، بل واحتل النورمانديون المهدية فى الشمال الأفريقى، حيث انتقلت السيادة على الحوض الغربى للبحر المتوسط إلى الجمهوريات الإيطالية البحرية، وهذا الحدث فى حد ذاته يمثل نقطة تحول فى تاريخ الصراع بين الإسلام والمسيحية فى العصور الوسطى، كما أنه وحد بين النورمانديين والإيطاليين، وجنوب فرنسا لمواجهة المسلمين، العدو المشترك، وحملت الحروب الصليبية هذا الصراع من الغرب إلى حوض البحر المتوسط الشرقى وإن استمر النزاع بنفس الشكل بين القوى المتحاربة، ويرى ابن الأثير أن الحروب بين المسلمين والمسيحيين فى الأندلس وصقلية وشمال أفريقيا والشام والهجمات المتوالية على تلك المواقع وعلى مشرق الإسلام إنما هى هجمات لحملات صليبية وإن كان يُطلق عليها «الفرنج»، ويربط بين الحروب الصليبية فى الأندلس وبين الحركة الصليبية على الشام ويتخذ من الأولى مدخلاً للثانية[1].

---

(١) ابن الأثير. الكامل. طبعة لندن ج١٠ ص٢٥٠.

٤- ارتباط حركة الحملات الصليبية بالحج المسيحى:

إلى الأراضى المقدسة وبخاصة مدينة بيت المقدس بفلسطين أو بيت الطهارة على حد قول ياقوت الحموى(١).

فرغم أنه لم يوجد فى الكتاب المقدس نص صريح على الحج للأراضى المقدسة، أو أنه فرض دينى كما فى الإسلام، إلا أن فكرة الحج تلك بدأت منذ عهد الإمبراطورية البيزنطية، وبالتحديد فى عهد الإمبراطور قسطنطين الكبير فى القرن الرابع الميلادى(٢) بعد أن اكتشفت أمه هيلينا صليب الصلبوت فى موضع الجلجثة بالقدس والتى بنيت فوقها كنيسة عرفت بكنيسة القيامة أو الضريح المقدس(٣).

وظهرت فكرة الحج إلى الأراضى المقدسة على أساس أنه مظهر من مظاهر التوبة وغفران الذنوب والسعادة الأبدية. ولكن رحلات الحج كانت قليلة فى مجموعها نتيجة لطول الطريق ومصاعبه وجهل الحجاج بجغرافية تلك المناطق المؤدية إلى فلسطين وبسبب بعض التطورات والأحداث السياسية فى أوروبا، كما أن الحجاج كانوا يفضلون الذهاب إلى آثار القديسين القريبة منهم فى روما، أو مدينة القديس يعقوب «شانت ياقب» فى جليقية بأسبانيا(٤).

وبدخول فلسطين تحت السيادة الإسلامية منذ عهد عمر بن الخطاب بدأ عصر جديد فى حركة الحج المسيحى إلى فلسطين، ونشطت تلك الحركة لقرون عديدة، بسبب تسامح الإسلام والخلفاء المسلمين الذين عملوا على توطيد الأمن ومنع نشوب الصراعات بين مختلف الطوائف المسيحية المتنافرة، كما خصص فى بيت

---

(١) ياقوت الحموى. معجم البلدان ط الأزهر، ج١ ص٢٩٢، ٣٩٤، ج٨ ص١١٠ وما بعدها.

(٢) ستيفن رانسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج١ ص٥.

(٣) ناصر خسرو: سفرنامة. ترجمة دكتور يحيى الخشاب، ط القاهرة ١٩٤٨م، ص٣٧.

(٤) دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس. أحمد مختار العبادى ص٢٤٨ وما بعدها.

المقدس حى كامل لسكنى البطريرك والكهنة، وساعد على ذلك العلاقات الطيبة التى أشارت إليها المصادر والمراجع الأوروبية بين الخليفة العباسى هارون الرشيد «١٧٠هـ-٧٨٦م- ١٩٤هـ- ٨٠٩م»، والإمبراطور شارلمان، حيث أهدى الرشيد لإمبراطور الفرنجة مفاتيح كنيسة القيامة عام ١٩٠هـ، وبذلك جعل لشارلمان حق الإشراف المعنوى على بيت المقدس، وأقره حاميا للمدينة المقدسة وكنيستها كما شيد شارلمان بها مستشفى ومكتبة[١].

٥- تصرفات الدولة الفاطمية نحو المسيحيين:

تعد هذه التصرفات من العوامل التى أثارت الغرب الأوروبى وساعدت على قيام الحركة الصليبية، فعندما قامت الخلافة الفاطمية فى مصر عام «٣٥٨هـ- ٩٦٩م»، ونشطت حركة الحج إلى الأراضى المقدسة نرى الخليفة الفاطمى العزيز بالله «٣٦٠هـ- ٩٧٠م/ ٣٨٦هـ-٩٩٦م» يصاهر بطريرك بيت المقدس ويتسامح مع النصارى واليهود، مما جعل النصارى يتمادون فى إظهار شعائرهم داخل مصر وخارجها فى فلسطين[٢].

ولكن هذا التسامح الرائع لم يستمر فى خلافة الحاكم بأمر الله «٣٨٦هـ- ٩٩٦م/ ٤١١هـ- ١٠٣٠م» إذ اضطهد النصارى، وأمر بهدم كنيسة القيامة، ولدينا نص الأمر بذلك ممثلا فى سجل مرسل إلى واليه بالقدس كتبه أحد الأقباط المصريين، جاء فيه «خرج إليك أمر الإمامة بهدم قمامة فاجعل سماءها أرضًا وطولها عرضًا» ويقول ابن تغرى بردى: إن الذى كتبه كاتب نصرانى يسمى ابن شترين وأنه توفى بعد كتابته بأيام قلائل ندما وحزنا[٣]، وغيرها من الأماكن الدينية بما فيها أديرة النساء وفرض عليهم وعلى اليهود لبس علامات مميزة «الغيار» لإظهار مجد الإسلام، مما حدا بنصارى القدس من العرب أو غيرهم بالرحيل إلى بلاد الروم أو

---

(١) دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس. أحمد مختار العبادى ص٢٤٨ وما بعدها.

(٢) راجع ناصر خسرو سفرنامة ص٢٠، وصلاح الدين نوار فى كتابه العدوان الصليبى على العالم الإسلامى ص٢٧.

(٣) انظر النجوم الزاهرة ص٤٠٩.

الحبشة أو بلاد النوبة. وأدى هذا بالتالى لتوقف حركة الحج المسيحى للأراضى المقدسة، وأثار سخط وغضب المسيحيين عامة، وبخاصة فى أوروبا مما حدا بالبابا «بنوا الثامن» للدعوة لحرب صليبية ضد العرب عام «٤٠٧هـ- ١٠٣٧م».

كما أن تصرفات وسياسة الحاكم بأمر الله جعلت المؤرخين الصليبيين يصبون جام غضبهم عليه دون أن يحاولوا فهم السبب الحقيقى الذى كان يكمن وراء تصرفاته وسياسته إزاء المسيحيين واليهود، كما انساق وراء المؤرخين الصليبيين عدد من المؤرخين المحدثين، ومن ثم اختلفت آراء المؤرخين حول هذا القرار الخطير بهدم كنيسة القيامة مما كان له تأثير على زيادة حدة العداء بين الإسلام والمسيحية، فيرى البعض أن سبب ذلك يرجع للعداء بين الروم والفاطميين والصراع الدائر بينهما، وأن الروم حاولوا استعادة الأراضى المقدسة تحركهم بذلك دوافع صليبية، وقيل إن السبب جاء من قيام نصارى القدس بفتنة المسلمين عن دينهم باتباعهم تقليدا معينا فى صلاتهم بكنيسة القيامة كما قيل إن سبب هدمها هو هدم الإمبراطور البيزنطى لجامع القسطنطينية، فانتقم الحاكم بهدم كنيسة القيامة. وهناك من يرى أنه أراد أن يثبت للعالم الإسلامى أنه ما زال مخلصا للعقيدة الإسلامية، فسُر المسلمون بذلك واحترموه. ويبدو لنا أن الخليفة الحاكم بأمر الله لم يهدم كنيسة القيامة كما يدعون[1].

قال ياقوت فى معجم البلدان: «والنصارى يسمونها كنيسة القيامة لاعتقادهم أن

(١) قال الناصر خسرو فى مذكراته التى كتبها عن رحلته إلى لبنان وفلسطين ومصر والجزيرة العربية فى القرن الخامس الهجرى وسماها سفرنامة «وللنصارى فى بيت المقدس كنيسة يسمونها بيعة القمامة لها عندهم مكانة عظيمة ويحجون إليها كل سنة كثير من بلاد الروم ويزورها ملك الروم متخفيا حتى لا يعرفه الناس، وقد زارها أيام عزيز مصر الحاكم بأمر الله وبلغ ذلك الحاكم فأرسل إليه أحد حراسه بعد أن عرَّفه أن رجلا بهذه الحلية والصورة يجلس فى كنيسة بيت المقدس-وقال له: «اذهب عنده وقل له: إن الحاكم أرسلنى إليك ويقول لا تحسبنى أجهل أمرك ولكن كن آمنا، فلن أقصدك بسوء». وقد أمر الحاكم هذا بالإغارة على الكنيسة فهدمها وخربها وظلت خربة مدة من الزمن وبعد ذلك بعث القيصر إليه رسل وقدم كثيرا من الهدايا والخدمات وطلب الصلح والشفاعة ليؤذن له بإصلاح الكنيسة فقبل الحاكم وأعيد تعميرها. النجوم الزاهرة. جمال الدين أبى المحاسن ج٤ ص١٧٩.

المسيح قامت قيامته فى هذا المكان، والصحيح أن اسمها قمامة لأنها كانت مزبلة أهل البلدة».

ويبدو لنا أن الخليفة الحاكم بأمر الله لم يهدم كنيسة القيامة بقصد الحج المسيحى أو عرقلته، ولكننا نؤيد الرأى القائل بأن سبب هدمها رغبة البيزنطيين فى الاستيلاء على بيت المقدس، فى الوقت الذى أرغم فيه الخليفة الحاكم جالية الروم فى مصر على الخروج منها، وكانت لهم حارة خاصة بهم فى القاهرة كما كانوا يعملون بقصره، بعد تكرار هجماتهم على الشام[1]، ويؤكد ذلك أن الخليفة الحاكم عاد إلى تحسين معاملة المسيحيين وأمر بإعادة الكنائس ومنها كنيسة القيامة وأصدر بذلك سجلا بفتح الكنائس كلها فى مملكته وعمارتها، وأن تعاد إليها الأخشاب والعمد المأخوذة منها والأراضى والبساتين المخصصة لها فى كورة مصر[2]، واستمرت سياسة التسامح هذه فى خلافة «الظاهر لإعزاز دين الله»، الذى سمح بإعادة بناء بقية الكنائس ووافق على طلب الإمبراطور قسطنطين مونوماخوس بإعادة إصلاح بعض الأجزاء المهدمة بكنيسة القيامة، وتقديم تسهيلات للحجاج إلى الأراضى المقدسة.

وزادت حركة الحج نشاطا فى عهد الخليفة المستنصر بالله فى القرن الخامس الهجرى -الحادى عشر الميلادى لتسامح الخليفة المستنصر الفاطمى الذى قدم للحجاج الكثير من الامتيازات والتسهيلات فسمح لهم ببناء أديرة وكنائس بالقدس، كما منح بعض تجار أمالفى امتياز بناء مستشفى كبير[3] لهم بالقدس للعناية بالحجاج القادمين لزيارة الأراضى المقدسة وتقديم العلاج والدواء وتذليل

(١) طالع الدكتور ماجد العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى. طبعة بيروت ص١٣٥.

(٢) صلاح نوار. العدوان الصليبى على العالم الإسلامى ص٢٩، ويذكر ابن تغرى بردى أن الحاكم بأمر الله بعد مدة أمر ببناء ما كان أمر بهدمه من الكنائس» النجوم الزاهرة ص١٨٠.

(٣) يذكر ناصر خسرو فى سفر نامة ص٢١ بناء مستشفى للحجاج القادمين لزيارة الأراضى المقدسة فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى، وتذكر بعض الروايات الأجنبية أن هذا المستشفى هو فى الأصل المستشفى الذى بناه شارلمان فى خلافة هارون الرشيد فى العصر العباسى ثم جدد عام ١٠٤٨على يد تجار أمالفى، وكان يقع جنوب شرق كنيسة الضريح المقدس وخصص فقط للمرضى والموتى. راجع صلاح نوار مرجع سابق ص ٣٠.

العقبات لهم. وهذا المستشفى سوف يكون الأصل أو الأساس الذى قامت عليها جماعة الفرسان الإسبتارية، خلال القرنين الثانى عشر، والثالث عشر الميلاديين، وهذه الجماعة عرفت بكرهها الشديد للإسلام والمسلمين وهى إحدى الجماعات العسكرية الصليبية المتعصبة دينيا، وقد ظهرت مع قيام الحروب الصليبية ولعبت دورا كبيرا فى الحفاظ على المستعمرات الصليبية فى الشرق.

٦- ظهور قوة الأتراك:

وهذا العامل يعد بلا شك من العوامل التى أثارت الغرب الأوروبى ودفعته إلى الحركة الصليبية دفعًا، والأتراك قوة إسلامية جديدة هددت حركة الحج إلى الأراضى المقدسة بل كانت نذيرًا لإسقاط الإمبراطورية البيزنطية نفسها، ولا غرو فى ذلك فإن الدولة العثمانية قد عملت على تجديد قوة الإسلام وإعادة دماء الحياة فى عروقه مرة أخرى، ولم تكن تلك القوة مؤثرة فى العالم الإسلامى فقط بل اصطدمت تلك المملكة الناشئة بالإمبراطورية البيزنطية إبان عهد الإمبراطور رومانوس الرابع البيزنطى ١٠٦٧-١٠٧١م حين حاول هذا الإمبراطور استرداد أرمينيا ومهاجمة مؤخرة الجيش السلجوقى وفهُزم ذلك الإمبراطور فى موقعة ملاذكرد وأنزل به هزيمة ساحقة وأسر الإمبراطور البيزنطى ولأول مرة يسقط إمبراطور بيزنطى أسيرًا فى يد سلطان مسلم، وكانت تلك المعركة نقطة تحول فى مجرى التاريخ البيزنطى، وفقدت مناعتها وقوتها ولم تعد قادرة على حماية العالم المسيحى ضد مسلمى الشرق أو حراسة الباب الشرقى لأوروبا من غزوات المسلمين، وهذا فى حد ذاته يشكل مبررًا كبيرًا من مبررات قيام الحركة الصليبية، ومنذ ذلك الوقت صار الأتراك مصدر رعب للإمبراطور البيزنطى الذى استنجد بالبابا جريجورى السابع والذى دعا إلى قيام حملة كبيرة لاسترداد آسيا الصغرى من أيدى السلاجقة وإعادتها للإمبراطورية البيزنطية ولكن باءت تلك المحاولة بالفشل نتيجة لانشغاله بالنزاع مع النورمان.

وزاد من تأجج حماس الغرب الأوروبى نحو حرب المسلمين قيام الأتراك السلاجقة بانتزاع الشام وفلسطين من أيدى الفاطميين، فساءت بذلك أحوال النصارى فى بيت المقدس وتوقفت الزيارات إليه، وقام القائد السلجوقى آنذاك بالاستيلاء على القدس عام ٤٦٣هـ وقتل الكثير من أهله حتى انتقل حكم فلسطين لأسرة أرتق التركمانية[١].

ويضاف إلى ذلك تلك المعاملة القاسية التى عامل بها السلاجقة الحجاج القادمين من الغرب إذ لم يجدوا روح التسامح التى كانوا يلاقونها من الفاطميين، ومن هنا أخذ الحجاج المسيحيون العائدون لأوطانهم يشوهون الحقيقة ويشنعون على المسلمين ويثيرون حفيظة أهل الغرب بالمعاملات السيئة والاضطهادات التى لاقوها، مما أثار حفيظة أهل الغرب. ومن هذا المنطلق ظهرت المبالغات وتعددت صنوف قسوة الأتراك ووحشيتهم. وتذكر بعض الروايات الغربية من تلك الاضطهادات التى كان يعانيها المسيحيون الحجاج أن حراس المدينة المقدسة من الأتراك كانوا لا يسمحون للحجاج المسيحيين بدخول المدينة إلا بعد دفع قطعة من الذهب كضريبة دخول. ويذكر بعض المؤرخين أيضا أن الصليبيين حينما نزلوا إلى الساحل عبر أقاليم مليئة بالكنائس وجدوا الأيقونات وصور المسيح نفسه وقد شوهها الأتراك وفقأوا عيونها وظلت باقية حتى الآن[٢].

ومما لا شك فيه أن الافتراء على الأتراك واضحا فى تلك الأقوال السابقة ولا يستطيع الباحث أن يجزم باضطهاد الأتراك للمسيحيين الحجاج القادمين من الغرب، كما روت المصادر الغربية وبخاصة الخطبة المنسوبة لأوربان الثانى نفسه التى ألقاها فى مجمع كليرمونت الكنسى فربما التبس عليهم الأمر حيث طولبوا بمعاملة أهل الذمة فيدفعون الجزية وحينئذ يتمتعون بحماية الدولة الإسلامية وحرية العبادة. وكذلك من الصعب تصديق شائعات هؤلاء اللاتين الذين ذكروا أعمالا وحشية قام بها السلاجقة الأتراك ضد الحجاج اللاتين أو منعهم لزيارة بيت المقدس. وإذا أردنا

(١) راجع صلاح الدين نوار. مرجع سابق ص٣٢.

(٢) راجع صلاح الدين نوار. مرجع سابق ص٣٣.

الإنصاف فى هذا الصدد نقول: إذا كان هناك ثمة أموال جبيت من الحجاج فهو فى عصر الخلافة الفاطمية التى وصلت إلى ذروة الضعف مما شجع بعض مدن الساحل الشامى علـى طول طريق الحجاج الممـتد من الشـمال إلى الجنوب أن تسـتقل عن السيادة الفاطمية وتنفرد بنفسـها ومن ثم عمل كل أمير على أن يفرض رسومه على الحجاج العابرين لمدينته.

وإن كان هناك ثمة مدن ساحلية قد قامت بهذا الصنيع فإنها مدن قليلة ولا تكاد تذكـر وهى فى نفس الوقت لا تنسب إلى الأتراك فـهى مدن كـانت تابعـة للدولة الفاطمية المترنحة.

وعلى الرغم من أن الأتراك بريئون من تهمة اضطهـاد الحجاج اللاتين فإن فرنج الغرب اتخذوا منهـا ذريعة كبرى تستوجب حرب مـسلمى الشرق ومما زاد الأمر أن الإمبراطور البيـزنطى أليكسيس كومنين قد أرسل يستغـيث بالبابا أوربان الثانى من خطر الأتراك على مملكته إذ أضحـوا يدقون أبواب عاصمته القسطـنطينية، فلا غرو أن تستغل البابوية هذه الاستغاثات لتحـقيق ما تصبو إليه، فرحل أوربان الثانى إلى فرنسا عام ١٠٩٥م وعقد مـجمعا كبيرا فى كليرمونت جنوب فرنـسا حضره الكثير من رجال الديـن والنبلاء والبارونـات والفرسان وفى هذا المـؤتمر أعلن البابا قـيام الغرب بحملته الصليبية لانتزاع القدس من أيدى العرب والمسلمين بالقوة المسلحة، ولكى يثـير الـناس أعلن غفـران الذنوب للمـشـاركين فى الحـرب المقـدسة ضـد المسلمين. ومما جاء فى تلك الخطبة «يا شعب الفـرنجة شعب الله المحبوب المختار، لقد جاءت من تخـوم فلسطين ومن مدينة القسطنطينية أنباء مـحزنة تعلن أن جنسًا لعينًا أبعد مـا يكون عن الله قد طغى وبغى فى تلك البلاد بلاد المسيحـيين وخربها بما نشره فيها من أعمال السلب والحـرائق، ولقد ساقوا الأسرى إلى بلادهم وقتلوا بعضـهم الآخر بعد أن عذبوهـم أشنع التعذيب وهم يهـدمون المذابح فى الكنائس بعد أن يدنسوها برجـسهم، ولقد قطعوا أوصال مملكة اليونان وانتـزعوا منها أقاليم بلغت من سعتها أن المسافر فيهـا لا يستطيع اجتيازها فى شهرين متكاملين. . .»[١]

---

(١) ويل ديورانت. مرجع سابق ص١٥.

وقد كان لهذه الخطبة أثرها الشديد على المجتمعين وقد ركعوا على أقدامهم وأقسموا اليمين على استرداد الأماكن المقدسة وحمل الجميع شارة الصليب شعارا على صدورهم وأكتافهم(١).

٧- العامل الاقتصادى:

وقد لعب دورًا رئيسًا وخطيرًا فى الحركة الصليبية إذ كان هو الدافع الكامن وراء الحركة الصليبية، ويتضح هذا الدور فى النشاط الذى قامت به مدن إيطاليا التجارية جنوة، بيزا، البندقية وغيرها، وقد كان دور هذه المدن استغلاليا بحتا وفرصة قريبة لتحقيق المكاسب المادية التى سوف تعود من سيطرتهم على طرق التجارة الشرقية. وقد قام تجار هذه المدن بتمويل تلك الحملات بالمال والسلاح والمؤن المطلوبة فى سبيل أنها ستحقق بعد ذاك أغراضها التجارية من امتصاص دماء الشعوب المستعمرة ومن ثم تحقق أغراضها التجارية لإحراز مكاسب تجارية على حساب المسلمين والفرنج(٢).

وفى طيات تلك المكاسب ضاع كل اتجاه دينى كانوا ينادون به لأن أساطيل تلك المدن الإيطالية قد سهل على الفرنج غزو الأراضى المقدسة والاحتفاظ بها وتقديم العون البحرى للدفاع ضد الأساطيل الفاطمية، وفى مقابل ذلك حصلوا على امتيازات اقتصادية وإقليمية ومالية وقضائية مهمة تضمنتها المعاهدات التى عقدت بين الجانبين الإيطالى والفرنجى، وقد كان لمدن إيطاليا التجارية علاقات وطيدة مع دول الشرق الإسلامى قبل الحروب الصليبية فى مصر والشام ونالت من الخلفاء الفاطميين امتيازات تجارية واسعة حققت معها أرباحا طائلة ومما ساعد على توطيد تلك العلاقات التجارية ما عرف به الفاطميون من تسامح دينى مع التجار الفرنج وقد بلغت أساطيل المدن الإيطالية سالفة الذكر شأوا عظيما إبان ذلك العصر إذ يرى بعض المؤرخين أن أساطيل مدن إيطاليا البحرية هم الغزاة الحقيقيون لمدن الساحل الفاطمى وليس أمراء اللاتين(٣).

---

(١) جوزيف نسيم. العرب والروم ص٥٢: ٥٤، ٦١.

(٢) للمزيد انظر جوزيف نسيم. العرب والروم ص٨٧: ٨٩.

(٣) العدوان الصليبى على العالم الإسلامى. مرجع سابق ص٣٨.

ثالثًا: الإعداد للحملة الصليبية الأولى

أ- نجح البابا أوربان الثانى فى إثارة جماهير الغرب -كما قلنا- فاجتمعت أعداد غفيرة من كل صوب وناحية تأتلف من الفلاحين والمعدمين وقطاع الطرق واللصوص والقتلة، وفتحت السجون أبوابها فانطلقت المساجين لتشارك فى تلك الحملة، وقد عبر عنها أغلب المؤرخين بأن أعدوا من الغوغائيين والمعدمين أعدادا قد شاركت فى تلك الحملة لتنال من خيرات الشرق ما تستطيع نيله، وقد قادهم بطرس الناسك بحماسة منقطعة النظير وما أن عبرت البسفور حتى تصدت لهم السلاجقة الأتراك وحصدوهم حصدًا عام «٤٨٩هـ- ١٠٩٦م» ولم ينج منهم سوى بطرس الناسك ومعه شرذمة قليلة.

وإذا كانت حملة الفلاحين والغوغائيين لم يكتب لها النجاح، ففى تلك الأثناء كان هناك إعداد لحملة عامة تتشكل من جيوش الصليبيين النظامية يقودها الأمراء فى جيوش منظمة وقد اختلفت وتباينت اتجاهاتهم وسياساتهم نحو امتلاك الأرض والثروات، وقد تكونت تلك الحملة من أربع مجموعات على النحو التالى:

الجيش الأول: ويتكون من رجالات شمال فرنسا وغرب ألمانيا بقيادة جود فيرى ودوق اللورين الذى يعرف فى الرواية الإسلامية كند فيرى وإخوته بلدوين وستاش.

الجيش الثانى: وكان يتكون من النورمان والفرنسيين بقيادة هيودى فرماندو أصغر أبناء هنرى الأول وشقيق فليب ملك فرنسا كذلك كان يضم روبرت كونت هيور دوق نورماندیا واستيفن كونت بلوا وشارتر وربورت أوف فلاندرز.

الجيش الثالث: يتكون من البرفنيسيين بقيادة ريموند ديسان وكونت تولوز المعروف عند المسلمين باسم صنجيل وكذلك مندوب البابا أدهيمار دى مونتاه أسقف بوى.

الجيش الرابع: وقد اشتمل على النورمانديين الإيطاليين تحت قيادة بوهيمند النورماندى ويسميه العرب ميمون أمير تارنتو وابن أخته المعروف باسم تانكر وتقدر بعض الروايات عدد هذه الجيوش النظامية بما يقرب من ٣٠ ألف مقاتل وقد سارت تلك الجيوش لتلتقى فى مكان التجمع وهو القسطنطينية[(١)].

والمأخوذ على هذه الجيوش أنه لم يكن لها قائد واحد يجمع شملهم ويوحد كلمتهم، فالزعامة قد عهدت إلى عدد من خيرة الأشراف والقواد وأغلبهم من فرنسا وهم:

١- جود فيرى دوق اللورين مع إخوته .

٢- بلدوين.

٣- بوس تيس .

٤- روبرت دوق نورمانديا وابن وليم الفاتح.

٥- ربورت كونت فلندر .

٦- استيفن كونت شارتر.

٧- ريموند كونت تولوز.

٨- هيوأوف فيرناندو.

٩- بوهيمند دوق تارنتو وابن أخيه تانكر[(٢)].

ب- وما أن وصلت هذه الأعداد الضخمة إلى القسطنطينية فى ربيع عام «٤٩٠هـ- ١٠٩٧م» حتى أثارت مخاوف كومنين إمبراطور بيزنطة خوفا على إمبراطوريته من أن تضيع هى الأخرى بطمع هؤلاء الغربيين، ولكن هذا الإمبراطور فضل أن يسايس تلك الحملات على أن يكسبهم بجانبه، فمدهم بالمال

(١) يراجع جوزيف نسيم مرجع سابق ص١٧٨ : ٢٢٠. وانظر حسن إبراهيم حسن. تاريخ الإسلام السياسى ج٤ ص٢٤٦.

(٢) حسن إبراهيم حسن ونفس الصفحة.

والمؤن والذخائر ثم عقد معهم العهود على أن يسلموه البلدان التى افتقدها فى آسيا الصغرى على أيدى الأتراك[1].

ج- ثم عبر الصليبيون البسفور وحاصروا مدينة نيقية واستولوا عليها واضطر ملكها أن يتركها ويرحل إلى مدينة قونية. وقد اتفق الروم مع السلاجقة على أن يدخروها لحسابهم، فغضب الصليبيون لذلك لأن الإمبراطور لم يسمح لهم بسلب المدينة، وقد تسلمها منهم تنفيذا لوعده معهم. وتذكر بعض الروايات أنه أثناء حصار الصليبيين لمدينة نيقية قاموا بإرسال سفارة صليبية من معسكرهم فى تلك المدينة إلى القاهرة عارضين تحالفهم على الوزير الفاطمى الأفضل بن بدر الجمالى والخليفة المستعلى بالله الفاطمى، وذلك بناء على نصيحة أليطسيس كومنين أثناء وجودهم بالقسطنطينية وأرخت هذه السفارة بتاريخ ٢٩ جمادى الآخرة ٤٩٠هـ وكانت تتكون من فارسين وأحد رجال الدين وإن كان الشك يحيط بهذه السفارة كما يرى الدكتور صلاح نوار[2].

ثم اتفق أمراء الصليبيين على الاتجاه إلى أنطاكية وتوغلوا بجحافلهم فى آسيا الصغرى والتقوا بجيش قلج أرسلان التركى فى معركة دورباليوم، وقد انهزم فيها السلاجقة هزيمة شنيعة. ويرى بعض المؤرخين أن هذه الموقعة تعد من المواقع الحاسمة والهامة فى تاريخ الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق الإسلامى إذ فتحت لهم الطريق بعد ذاك إلى بيت المقدس وإلى بقية المدن الداخلية فى بلاد الشام، ثم تقدمت الحملات الصليبية فاستولوا على قونية بعد أن فر الأتراك منها إلى الجبال، ثم استولوا على هرقلية ولم يبق أمامهم إلا أن يشقوا طريقهم عبر جبال طوروس للاستيلاء على أنطاكية، وقد عانى الجيش الصليبى من شدة الحر ووعورة الطرق وهجمات الأتراك المستمرة على جيوش الصليبيين ولكن مساعدات ملك أرمينيا والأرمن المسيحيين سهلت الطريق أمام الفرنج فاستولوا على مدينة قليقية وقيصرية ثم إلى كيليكيا حيث دب الخلاف بين بلدوين البولونى وتنكريد النورماندى على

(١) حسن إبراهيم. تاريخ الإسلام السياسى ج٤ ص٢٤٦.
(٢) العدوان الصليبى على العالم الإسلامى ص٤٤.

ملكية طرسوس فإذا ببلدوين ينفصل بجيشه عنه ويتجه شرقا ليستولى على مدينة الرها[١].

وأسس بها أول إمارة صليبية عام «٤٩١هـ - ١٠٩٨م» ثم زحفت بقية الجيش الصليبى إلى شمال الشام قاصدة أنطاكية، وقد قامت تلك الجيوش بتفزيع للمسلمين فى المناطق القريبة فى طريقهم، وقد قلق الناس أشد القلق وانزعجوا لما سمعوه عنها وما لاقوه منها، وعندما وصل هؤلاء الفرنج إلى مرعش فى منتصف أكتوبر عام ١٠٩٨م الموافق ذى القعدة عام ٤٩١هـ استقبلهم الأرمن بترحاب كبير وزودوهم بالماء والطعام مما مكن الفرنج من مواصلة الزحف حتى وصلت فى يوم ٢٢ ذى القعدة ٤٩١هـ طلائع جيوشهم أمام أسوار مدينة أنطاكية والتى تعد المدخل الشمالى للشام ثم ضربوا الحصار حولها تمهيدا لاقتحامها وإسقاطها، وكان عليها الأمير شعبان وقيل شقبان، وكان على الفرنج صنجيل[٢] وكانت المدينة محصنة تحصينا قويا وأسوارها منيعة[٣].

وحاول الفرنج أن يجدوا ثغرة يدخلون منها فلم يجدوا ثم حاصروها تسعة أشهر قاسوا فيها أشد آلام المرض والجوع حتى دب اليأس فى نفوسهم ثم دخلوها عنوة ومثلوا بأهلها أشنع تمثيل وقتلوا منهم عشرة آلاف وأمروا عليها بوهيمند وبذلك تكونت الإمارة الصليبية الثانية[٤].

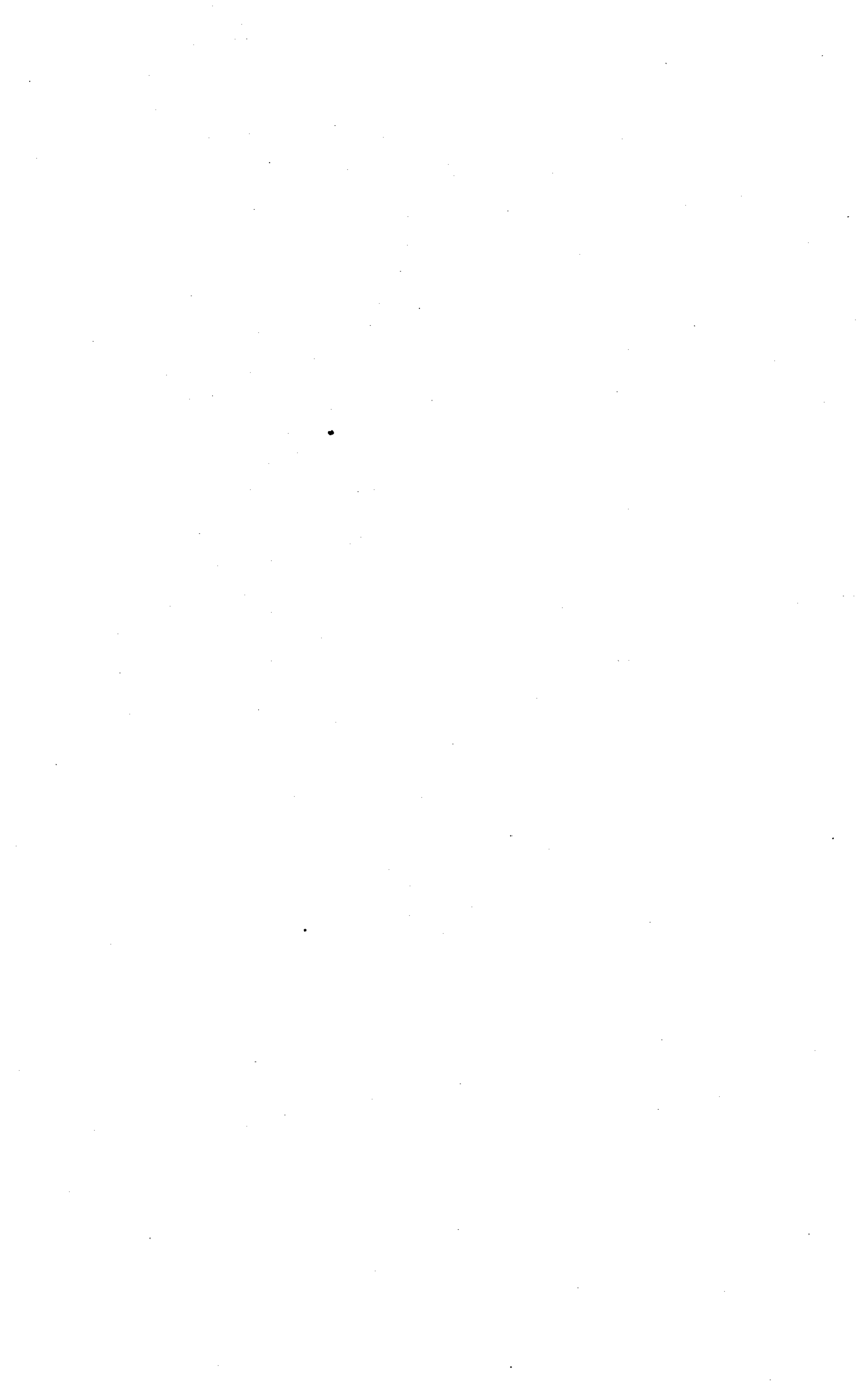
---

(١) تشكل هذه المدينة أهمية قصوى لدى الصليبيين حيث يعدونها مدينة مقدسة لأن بها ما يزيد على ثلاثمائة كنيسة وأن بكنيستها العظمى منديل المسيح عليه السلام الذى مسح به وجهه فطبعت صورته عليه، كما يدعون. وهذا يفسر لنا حرص الصليبيين على استرداد هذه المدينة عندما استردها عماد الدين زنكى وابنه نور الدين. راجع ياقوت الحموى. معجم البلدان ج١ مجلد ١ ص١١٧١، وجوزيف نسيم. العرب والروم ص٢٣٥ وما بعدها، تاريخ الإسلام السياسى ص٢٤٧.

(٢) هو ريموند ديساند جيل قومس تولوز ويعرف عند المسلمين بصنجيل وقد حاصرها مدة.

(٣) لقد أشار المؤرخون والرحالة العرب بقوة تحصيناتها ومناعتها فيذكرون أنه كان لها سور عظيم يحيط بسهلها وجبلها وبها ثلاثمائة وستون برجا، وكل برج ثلاث طبقات كانت مشحونة بالحرس ويطوف على سورها أربعة آلاف فارس فى كل ليلة ويسميها الروم مدينة الله تعظيما لها. راجع ياقوت الحموى. معجم البلدان. المجلد الأول ج١ ص٣٨٢-٣٨٥، والعدوان الصليبى على العالم الإسلامى ص٤٧.

(٤) تاريخ الإسلام السياسى ج٤ ص٢٤٧. والنجوم الزاهرة ج٥ ص١٤٥.



الفصل الثالث:

سقوط بيت المقدس

أولاً: أوضاع العالم العربى عند قدوم الحملة
ثانيًا: الفاطميون وسقوط القدس
ثالثًا: سقوط القدس
رابعًا: نتائج الحملة الصليبية

أولا: أوضاع العالم العربى عند قدوم الحملة الصليبية الأولى

وقبل أن نعرض لاستيلاء الصليبيين على الشام وبيت المقدس يجب أن نلقى نظرة سريعة نحلل من خلالها أوضاع العالم العربى والإسلامى آنذاك. فكيف كانت ظروف الشرق الإسلامى وقت مجئ الحملة؟ وهل انتصرت الحملات الصليبية على المسلمين بقوتها العسكرية أم أن ظروف العالم الإسلامى حينئذ كانت من الضعف والتمزق مما ساعد الصليبيين على الانتصار فى حروبهم.

الحقيقة التى ينبغى أن يدركها القارئ المسلم أن الصليبيين لم ينتصروا بسبب قوتهم إذ كانت جيوش الصليبيين غير منظمة وينقصها الإعداد الجيد والترتيب والإلمام الكافى بحسن القيادة للجيوش وجهل تام بالنواحى الاستراتيجية والتكتيكية للحروب، وإنما نصرهم كان نتيجة للظروف السيئة التى كان يمر بها الشرق الأدنى الإسلامى، فقد كان العالم الإسلامى والعربى منقسمًا على نفسه يعانى من صراع القوى المختلفة التى أوهنته وأدت إلى تصدعه وتمزق وحدته على النحو التالى:

١- تفكك أواصر دولة السلاجقة: كانت الدولة السلجوقية قوية موحدة تحكم قبضتها على الجزيرة والشام إلا أنها منذ عام ٤٨٥هـ عقب موت نظام الملك الطوسى، وملكشاه أخذت الدولة فى التداعى والانهيار ونشوب الحروب الأهلية بين ألب أرسلان وغيره من الملوك، واشتدت الاضطرابات وكثرت الحروب حتى لم يبق للدولة شىء من الاستقرار أو الأمن إذ انقسمت الإمبراطورية بعد توحدها إلى دويلات متناثرة يمكن أن نجمعها فى تلك الدويلات الثلاث سلاجقة العراق بزعامة السلطان بركياروق وسلاجقة آسيا الصغرى بزعامة قلج أرسلان وسلاجقة الشام بزعامة بيت تتش بن ألب

أرسلان، وقد دب الصراع بين زعماء هذه الدويلات أدى إلى انهيارها وضعفها مما جعل السلاجقة عاملا من عوامل ضعف العالم الإسلامى آنذاك.

٢- لم يقتصر الأمر على صراع السلاجقة فيما بينهم لكنه امتد ليشمل الخلافة العباسية والفاطمية بسبب الخلاف المذهبى والسياسى بين الفاطميين الشيعة من جهة والسلاجقة والخلافة العباسية التى هيمن عليها هؤلاء الأتراك باعتناقهم المذهب السنى من جهة أخرى. والمتأمل فى بلاد الشام وفلسطين يجدهما مسرحا للصراع بين الفاطميين والسلاجقة آنذاك، وإزاء قوة السلاجقة فقد الفاطميون وبخاصة فى خلافة المستنصر بالله العديد من السواحل الشامية والتى سيطر عليها السلاجقة، وباتت الخلافة الفاطمية تعانى الضعف السياسى والتمزق، وقد بدا ذلك واضحا قبيل ظهور الحركة الصليبية، وبهذا يمكننا القول إن الصراع بين الفاطميين والسلاجقة وما نتج عنه من نزاع سياسى ومذهبى أدى إلى إضعاف الجبهة الإسلامية وإلى عدم قدرتها على مقاومة الصليبيين، ولا غرو فى ذلك فإن بلاد الشام كانت مرتعًا خصبًا للصراعات بين الفاطميين والسلاجقة، وفشت فيها الفتن والحروب ولم يبق للخلافة العباسية إلا اسمها فقط، وضاع كل نفوذ وهيبة لمنصب الخلافة، وقد يتبادر للإنسان هذا التساؤل: ماذا عسى أن يحدث إذا جمعت الجهود فى المنطقة العربية وتضامن الفاطميون مع السلاجقة فهل كان يمكنهما دفع هذا الخطر الصليبى؟! بلا شك كان فى إمكانهما معا دفع ذلك الخطر وصده بل وإفشال تلك الحملة الصليبية الأولى وردها على أعقابها، كما كان فى مقدورهم إفقاد الحملات الصليبية الباقية الجرأة على المجئ إلى المنطقة العربية الإسلامية.

٣- وكان من عوامل الانقسام وإهدار القوة الإسلامية أيضا اختلاف عناصر السكان فى منطقة الشام حيث كان يوجد تباين واضح فى سكان تلك المنطقة المسماة بمنطقة الشام إذ استحوذ الأتراك على كل شىء وكانت هى الطبقة الراقية التى بيدها الأمر والنهى، أما العرب فقد كانوا الطبقة الثانية ومنها الأمراء الصغار

الذين كانوا تحت عدد من الأتراك فاستقل بعضهم وعاشوا لأنفسهم غير تابعين للترك أو الفاطميين مثل بنى عمار فى طرابلس ٤٧٨هـ وبنى منقذ فى شيذر ٤٧٤هـ ومثل الأراتقة فى القدس وفلسطين وبنى صليحة فى جبله إلى غير ذلك[١].

وقد وصف المستشرق الفيومى أحوال الشرق الإسلامى وقت مجئ الحملة الصليبية الأولى قائلا: «وكان الخلفاء والملوك فى ذلك الوقت ما منهم إلا مشغول بنفسه، مكث على مجالس أنسه يصطبخ فى لهوه ويغتبق، ويجرى فى مضمار لعبه ويستبق، ويرى السلامة غنيمة، وإذا عنَّ له وصف الحرب يوما لم يسل عنها إلا عن طريق الهزيمة، وقد بلغ أمله فى الرفاهية وقنع من ملكه كما يقال بالسكة والخطبة، أموال تنهب وممالك تذهب، ونفوذ قد تجاوزت الحد فى إسرافها وبلاد تأتيها الأعداء فتنقصها من أطرافها لا يبالون بما سلبوا[٢].

٤- عدم فهم المسلمين لطبيعة الحركة الصليبية ولم يتبينوا أغراضها الحقيقية، إذ اعتقد العرب أن الحملات الصليبية مثل الحملات التى كان يشنها البيزنطيون بين الحين والحين، فكانت تأتى جحافل الروم عابرة البسفور وتنقض على بعض مدن الشام ثم سرعان ما تنصرف بعدما تكون قد سلبت وغنمت الكثير والكثير، فقد ظن الفاطميون والسلاجقة أن الحملة الأولى للصليبيين مثل غارات الروم التى تأتى مهاجمة ثم سرعان ما تنسحب ولكنها فى هذه المرة كانت مختلفة اختلافًا تامًا، ولعل الصليبيين قد أدركوا ذلك الشعور لدى العرب فكانوا يطلقون الشائعات قبل قدومهم بأن غرضهم هو استعادة الأراضى البيزنطية التى استحوذ عليها السلاجقة فى آسيا الصغرى، هذا بالإضافة إلى الخلافات والانقسامات الداخلية التى شغلت أقوى دولتين فى الشرق الإسلامى آنذاك وهما الدولة السلجوقية والخلافة الفاطمية، فقد عجزتا عن اتخاذ أى

(١) انظر العدوان الصليبى على العالم الإسلامى ص٥١.

(٢) نثر الجمان نقلا عن العدوان الصليبى على العالم الإسلامى. مرجع سابق ص٥١.

إجراء لمقاومة خطر الفرنج ومن ثم وجد هؤلاء الفرنج الطريق أمامهم مفتوحا لاحتلال معظم بلاد الشام والأراضى المقدسة، وإذا كان السلاجقة قد تقهقروا وعجزوا عن مقاومة الصليبيين بعد انتصارهم فى نيقية ودوريليوم وفضلوا الانسحاب تاركين بلاد الشام مفتوحة أمام الفرنج يواصلون فيها الزحف لتكوين المزيد من الإمارات والمستعمرات أقول: إذا كان الأمر كذلك فإنه لم يبق فى ميدان المقاومة الإسلامية سوى الخلافة الفاطمية إبان عصر الخليفة المستعلى ووزيره الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى الذى قاد الجيوش لاسترداد أملاك الفاطميين فى الشام والتى حاول انتزاعها من السلاجقة، وقد عجز هذا القائد عن استرداد ما ضاع من مصر فى بلاد الشام. وقد كانت القوى السلجوقية فى أوج قوتها وقد نجح الأفضل فيما فشل فيه أبوه حيث استعاد جنوب الشام وانتزع فلسطين بمدنها الساحلية واستطاع أن يمد حدود الفاطميين شمالا وشرقا، وقويت الخلافة الفاطمية فى عصره وظهرت قوتها الاقتصادية والعسكرية.

وقد تحدث الرواة عن موقف الدولة الفاطمية من الحملة الصليبية فقد كان موقفا غريبا إذ اتهموا حكامها بأنهم كاتبوا الفرنج ودعوهم إلى المجئ لبلاد الشام ليملكوهم ويساعدوهم ضد الأتراك السلاجقة. وإزاء هذه القضية الشائكة يتطلب الأمر أن نقف وقفة متأنية نستجلى فيها حقيقة هذا الموقف المهين الذى نسب إلى الفاطميين وكان سببا أساسيا فى سقوط بيت المقدس فى أيدى الصليبيين.

❀❀❀

ثانياً: الفاطميون وسقوط القدس



ذكر المؤرخون عدة مواقف للفاطميين تجاه الحملة الصليبية الأولى أثارت الشك والريبة فيهم، ففى الوقت الذى انشغل فيه السلاجقة والمسلمون بالحرب مع الصليبيين؛ كان الفاطميون فى مصر يرقبون الأحداث وهم فرحون بأعدائهم التقليديين من العباسيين الذين كان يساندهم السلاجقة حيث خربت البلاد ودمرت البيوت وكثر القتل والتشريد، وفى غمرة هذه المحنة رأى الفاطميون أن فى إمكانهم تحقيق مكاسب ثمينة وذلك بالهجوم على بيت المقدس والاستيلاء عليه بحجة أنه كان أحد أملاكهم فى السابق، ولما له من مكانة دينية فى نفوس المسلمين، وقرروا ذلك بزعامة الأفضل بن بدر الجمالى الوزير الفاطمى. وفى سنة ٤٩١هـ قام الأفضل بحصار مدينة بيت المقدس ونصب عليها ما يربو على أربعين منجنيقا إلى أن هدم جانبًا كبيراً من سورها فاضطر حاكمها ابن ارتق أمام الضغط الفاطمى ولعجز السلاجقة بسبب مجئ الجيوش الصليبية وانتزاعها إنطاكية نقول: اضطر إلى مراسلة الأفضل فى الصلح وتسليم المدينة، وتسلمها الأفضل فى الخامس والعشرين من رمضان سنة ٤٩١هـ، وعادت بذلك القدس إلى سلطان الدولة الفاطمية(١).

ومن العجيب أن يحقق هؤلاء الفاطميون تلك المكاسب فى ظل ارتباك وانشغال العباسيين والسلجوقيين بصد حملات الصليبيين بل إن الفاطميين كما تؤكد بعض المراجع قد استغلوا وضع العباسيين السيئ استغلالا خطيرا لكى يتحقق لهم المزيد من المكاسب والانتصارات عليهم، فتحالفوا مع الصليبيين ضد المعسكر الإسلامى العباسى والسلجوقى على أن يقتسموا بلاد الشام معا؛ فيكون شمال الشام للصليبيين ويكون جنوبه للفاطميين، وقد قابل الصليبيون هذا المشروع بكل تشجيع وتأييد(٢).

(١) ابن الأثير الكامل فى التاريخ ج١٠ ص١٤٧، ٢٨٢.

(٢) انظر الدكتور محمد سالم العوفى. العلاقات السياسية بين الدولة الفاطمية والدولة العباسية فى العصر السلجوقى طبعة أولى ١٩٨٢م ص١٥٢.

وقد تبودلت السفارات بين الفاطميين والصليبيين تأكيدا لهذا المشروع، وتشير بعض المصادر اللاتينية أن السفارة الفاطمية التى تمت كانت ردًا على السفارة التى أرسلها الصليبيون من نيقية إلى مصر، وعند وصول السفارة الفاطمية بما تحمله من عروض للقادة الصليبيين تذكر هؤلاء القادة نصيحة الإمبراطور كومنين لهم بأن يحرصوا على محالفة الفاطميين وخطب ودهم نظرا لعدائهم الشديد للأتراك والعباسيين، ولهذا استقبل الفرنج السفراء الفاطميين بالكرم والحفاوة المناسبين. وتذكر بعض المراجع الغربية مدى حرص الصليبيين عند وصول المبعوثين المصريين على إخفاء آثار ومخلفات الكوارث والمجاعات التى كانوا يعانون منها وحرصوا ألا يكتشف المبعوثون الفاطميون أحوال معسكرهم المعوزة وأن يظهروا أمامهم بمظاهر الفخر والعظمة فزينوا خيولهم ولبسوا أفضل ما لديهم من ثياب وأسلحة براقة وقاموا أمامهم بممارسة رياضات الخيل والمبارزة بين الفرسان، وقد فعلوا ذلك على حد قول روبرت ليوضحوا للسفراء الفاطميين أن الناس هذه حالهم وأنه لا يوجد عندهم أدنى خوف من أحد[١].

وقد استقبل الصليبيون السفراء المصريين وسمح لهم بعقد عدة اجتماعات مع القادة والبارونات لعرض الشروط أو المطالب الخاصة لتوقيع اتفاقية حلف فاطمى صليبى مشترك ضد الأتراك السلاجقة -العدو المشترك- وتتلخص فى النقاط الآتية:

١- أن يعترف الأفضل بكل فتوحات الصليبيين الحالية فى شمال الشام بمعنى آخر تقسيم الشام بين الطرفين، فيكون للفرنج شماله وقاعدته إنطاكية، ويكون للفاطميين جنوب الشام وفلسطين وقاعدته بيت المقدس.

٢- أن يحتفظ الفرنج بالأراضى والأقاليم التى استحوذوا عليها.

٣- أن يسمح الأفضل للصليبيين بزيارة الأماكن المقدسة بفلسطين وأن يرحب بزيارة الحجاج المسيحيين إلى القبر المقدس، وأن تكون لهم الحرية الدينية لممارسة شعائرهم الدينية وألا يتعدى عدد الحجاج ثلاثمائة حاج وألا تزيد مدة

(١) انظر العدوان الصليبى على العالم الإسلامى ص٦٠.

إقامته بالمدينة على شهر واحد وألا يدخلوا المدينة بسيوفهم وأسلحتهم أى يكونوا حجاجا مسالمين(١).

وقد شرح لهم السفراء الفاطميون المعاملة الطيبة التى يلاقيها الحجاج المسيحيون منذ سيطرة الفاطميين على الأماكن المقدسة بفلسطين، وعرضت السفارة الفاطمية ضمن عروضها تقديم كل الامتيازات للمسيحيين فى الأراضى المقدسة وذلك بإعادة بناء الكنائس المسيحية وحماية خدامهم تحت سيطرتهم، بل ذهبت المصادر اللاتينية لأبعد من ذلك فتذكر أن الأفضل بن بدر الجمالى توصل على لسان سفرائه للفرنج بأن يواصلوا حصار أنطاكية وأنه يتعهد للفرنج بتقديم العون العسكرى فى إسقاط مدينة أنطاكية وغيرها من مدن شمال الشام، وذلك فى مقابل اعتراف صليبى بسيادة الخليفة الفاطمى داخل حدود إمبراطورية الشام. وعلى ما يبدو أن أغلب المصادر الإفرنجية والمراجع الحديثة قد أجمعت على تلك الشروط التى عرضتها السفارة الفاطمية(٢).

ثم تقول المراجع: وفى حالة رفض الصليبيين هذه الشروط فإن الخليفة الفاطمى ووزيره سوف يثيرون حمية المسلمين فى آسيا الصغرى وأفريقيا ضدهم باعتباره خليفة المسلمين ويدعوهم لمقاتلة اللاتين. وتذكر إحدى الحوليات اللاتينية -كما يقول الدكتور صلاح نوار- أن الأفضل ذهب لأبعد من ذلك بأن دعا لعقد تحالف وصلح مع الفرنج فعرض عليهم أن يرتد عن إسلامه ويعتنق المسيحية ديانته الأولى من أجل توطيد هذا التحالف(٣).

وعلى ما يبدو فإن الفرنج عند سماع هذه الشروط التى طرحها الوزير الأفضل رفضوها لأنهم رأوا أن التحالف مع قوة إسلامية سوف يحرمهم من تحقيق غرضهم فى إسقاط مدينة القدس الفاطمية بعد كل ما عانوه من مصاعب وكوارث فى طريقهم إلى الأراضى المقدسة، ومما لا شك فيه أن قادة الصليبيين كانوا متمسكين

(١) العدوان الصليبى على العالم الإسلامى ص٦٠.

(٢) راجع تلك المراجع فى كتاب صلاح الدين نوار العدوان الصليبى. مرجع سابق ص٦١

(٣) العدوان الصليبى ص٦١.

بالرفض تمسكا شديدا ولا سبيل عندهم لغيره، فقد جاء فى أحد المراجع رأى لقائد من قواد الفرنج على تلك السفارة الفاطمية قائلا لسفراء الأفضل بن بدر الجمالى: «إن الدين الذى ندين به يحثنا على أن نسير فى طريق إعادة توطيد وتوحيد إمبراطورية المسيح فى الأماكن التى ظهر فيها، ونحن لسنا بحاجة لمعونة أو مساعدة أى قوة من قوى العالم لإنجاز أهدافنا لأننا لم نأت إلى آسيا كى نتلقى نصائح من المسلمين.. فما زلنا نذكر الاضطهادات ضد الحجاج الأوروبيين والمسيحيين الذين تحت سيطرة الخليفة الحاكم بأمر الله عندما سيقوا إلى الجلادين، كما أن الكنائس وبخاصة كنيسة القبر المقدس قد هدمت وسويت بالأرض. وبلا أدنى شك فنحن لدينا النية الصادقة لزيارة بيت المقدس ولكننا أخذنا على أنفسنا عهدًا لتخليصها من سيطرة المسلمين[1].

إن يسوع المسيح الذى شرف المدينة المقدسة بآلامه وإرادته سوف يكون معبودا ومخدوما فى كنيسة الضريح المقدس من شعبه، لقد وطَّنا نحن المسيحيين أنفسنا على أن نكون حماة المدينة المقدسة وسادتها فى آن واحد، اذهبوا وقولوا للذى أرسلكم وكتب إلينا أن يختار بين السلم والحرب موضحين أن المسيحيين الناصبين معسكرهم أمام مدينة أنطاكية لا يخافون أو يرهبون الشعوب المصرية ولا أمم آسيا»[2].

ولعلنا من الرد السابق نرى أن ما عرضه الفاطميون من شروط ورد الصليبيين عليها إنما يدل دلالة قاطعة على جهل الفاطميين حكومة وشعبا وخاصة الوزير الأفضل بحقيقة الحركة الصليبية وبأهدافها الخبيثة ومراميها الخفية، فهم لم يتركوا بلادهم وقطعوا تلك المسافات الشاسعة الوعرة وعبروا المضايق والبحار إلا لتحرير الأرض المقدسة بفلسطين، وهذا هو الهدف الأساسى إذا ما تم ذلك فقد ينطلقون لتكوين الإمارات والمستعمرات لاستنزاف خيرات الشرق. وقد هاجم الدكتور سعيد عاشور موقف الأفضل الجمالى من هذه السفارة التى أرسلها إلى المعسكر الصليبى

(١) أذكر هذا الرد كما أورده المؤرخ ميشو Michaud نقلا عن المصدر السابق ص٦٢.

(٢) المصدر السابق.

واعتبر ذلك موقفا مخزيا، وأن الأفضل بهذا التصرف قد ارتكب خطأ سياسيا لأن هذه السفارة أكسبت الصليبيين وضعا سياسيا معترفا به فى بقعة مهمة من العالم الإسلامى إذ جعلتهم إحدى القوى السياسية المتحكمة فى مصائر الشرق الإسلامى كله(١).

إن من الأمور التى ينبغى الإشارة إليها هى نجاح الفرنج دبلوماسيا حيث ظهرت مهارتهم السياسية واضحة ومنذ أن وطئت أقدامهم أرض الشرق فقد أثاروا الشائعات التى تبث شعور الاطمئنان عند السلاجقة فى حلب ودمشق؛ إذ أرسلوا إلى كل منهما يطمئنونهما على مصيرهما ويؤكدون لهما أنهم لا يطمعون إلا فى استرداد البلاد التى كانت تابعة للإمبراطورية البيزنطية أى الرها وأنطاكية واللاذقية، ويعد هذا بلا شك مكرًا وخديعة كى لا يساعدوا صاحب أنطاكية ويضمنوا حيادهم التام أثناء مسيرهم إلى الشام ثم يتمكنون بعد ذلك من مواجهة القوى الإسلامية منفردة والتهام مدينة تلو الأخرى من مدن الشام.

ولعل مشروع التحالف هذا بين الفاطميين والصليبيين هو الذى دفع مؤرخى السنة إلى اتهام الفاطميين بأنهم السبب فى قدوم الصليبيين إلى بلاد الشام(٢). وقد كان هذا التحالف مشينًا فى أعين المسلمين إذ أنهم سخطوا على الفاطميين الذين غضوا الطرف عن أهداف الصليبيين وعن سبب مجيئهم بتلك الجحافل وهو بلا شك السيطرة على بلاد المسلمين والاستحواذ على الأراضى المقدسة لبلاد الشام على وجه الخصوص والعدو الصليبى إزاء هدفه لم يجامل الفاطميين ولم يفرق بين العباسيين أو الفاطميين، فالكل مسلمون والمسلمون بطبيعة الحال فى نظرهم أعداء يجب قتلهم واستباحة دمائهم وأعراضهم ونهب أموالهم وهدم ديارهم إلى غير

---

(١) الحركة الصليبية ج١ ص١٩٩

(٢) يقول ابن الأثير: إن «أصحاب مصر من العلويين لما رأوا قوة الدولة السلجوقية وتمكنها واستيلاءها على بلاد الشام إلى غزة ولم يبق بينها وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم ودخول الإفصيص أتسز إلى مصر وحصرها فخافوا وأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى الشام ليملكوها ويكونوا بينهم وبين الشام» الكامل فى التاريخ ج١٠ ص٢٧٣.

ذلك من استباحات اتفقوا عليها، وهكذا فإن الفاطميين لم يدركوا ابتداء دوافع وأهداف الصليبيين بل إنهم قد حددوا موقفهم من الصليبيين تحديدا خاطئا معتمدين فى ذلك على سوابق تاريخية جانبهم الصواب فى تقديرها، فقد كانت الحملات الصليبية تأتى فى أول الأمر من بيزنطة كالتى تزعمها نقفور وغيره -كما قلنا- وكان أقصى ما وصلت إليه تلك الحملات احتلال مدينة إنطاكية والرها أو تهديد دمشق أو طرابلس ولم يكن فى حسبان هؤلاء الصليبيين محاولة الوصول إلى بيت المقدس، ومن هنا انخدع الفاطميون فى تقدير موقفهم، وكانوا يظنون أن تلك الحملة الصليبية ما هى إلا امتداد للحملات السابقة ستنتهى عند نهاية بيزنطة وما يقترب منها. وعلى ما يبدو أن الصليبيين قد أدركوا هذا التقدير للموقف عند الفاطميين وكذلك عند السلاجقة لذا نراهم يعملون على تأكيد هذا الفهم فى نفوس الفاطميين وكذلك السلاجقة وتعميقه فى أنفسهم، ويوحون إليهم أنهم لن يتجاوزوا فى حملتهم تلك الرها وأنطاكية[١]. فلا غرو إذن أن يستقبلوا السفراء الفاطميين استقبالاً حسنًا لتعميق هذا المفهوم[٢].

وقد أدرك الفاطميون روح الغدر والخيانة عند الصليبيين وأدركوا سوء نواياهم وتأكد لهم طمعهم فى بيت المقدس، وحاولوا أن يقدموا بعض البدائل التى تحول دون الاستيلاء على بيت المقدس، فقدموا مشروع ضمان يسهل زيارة وحج الصليبيين إلى القدس على شرط أن يأتوا جماعات صغيرة تتراوح كل مجموعة بين مائتين وثلاثمائة فرد ولا يحملوا معهم أى نوع من الأسلحة، فرفض الصليبيون هذا العرض وقالوا: إنهم سيقومون بالحج جميعًا فى صفوف مرصوصة ورماح مشرعة[٣] وفى تلك الأثناء والظروف التى كانت تعترى الدولة العباسية والسلاجقة من نزاعات وتمزيق للصف واختراق للفاطميين ووقوفهم بجانب

(١) ابن الأثير الكامل فى التاريخ ج١٠ ص٢٧٥.

(٢) انظر مقال الدكتور سعيد عاشور فى هذا الصدد «شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية» المجلة التاريخية المصرية ١٩٦٩م المجلد ١٦ ص١٩- ٢٢.

(٣) انظر العلاقات السياسية بين الدولة الفاطمية والدولة العباسية. مرجع سابق ص١٥٥.

الصليبيين نقول: استطاع هؤلاء الصليبيون أن يحققوا فى ظل تلك الأوضاع انتصارات كبيرة وسريعة تحت قيادات مشهورة مثل بلدوين، وجودفيرى، بوهيموند، ريموند، تانكرد. وقد تمكنت حملات الصليبيين التى زحفت إلى الشرق من الاستيلاء سنة ٤٩٠هـ على نيقية عاصمة سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى بعد أن هزموا الزعيم السلجوقى قلج أرسلان، وقد أثارتهم تلك الهزيمة وملأت قلوبهم بالحماس فتشجعوا على مواصلة الزحف إلى بلاد الشام واستولوا فى طريقهم على الكثير من المدن والضياع مثل قونية وهرقلة وقيصرية ومرعش وطرسوس وأزنة والمصيصة وغيرها من المدن(١).

وقد تمكن الصليبيون من تأسيس أربع إمارات لهم فى الشام كانت الأولى هى مدينة الرها عام ٤٩١هـ أسسها بلدوين البولونى والثانية أنطاكية والتى أسسها بوهيموند وريموند والتى سقطت فى أيديهم عام ٤٩١هـ، والثالثة بيت المقدس والتى سوف نوضحها فيما بعد، والرابعة طرابلس(٢).

والملاحظ أن مدن الشام كانت تتساقط تحت أقدام الصليبيين وهم فى طريقهم نحو تأسيس الرها وأنطاكية، وكان الفاطميون والسلاجقة إبان تلك الفترة يتناوبون التنازع على المدينة المقدسة متجاهلين خطر الجيش النصرانى الصليبى ولم يدركوا حقيقة الموقف إلا عندما جاءهم خبر حصار الصليبيين للقدس، حينئذ أدركوا مدى وقوعهم فى هذا الخطأ الشنيع، وتقدمت جحافل الصليبيين نحو المدينة المقدسة وضربوا عليها الحصار، وظل الحصار أربعين يوما استبسل فيها أهلها المدافعون عنها استبسالا عظيما لكن دون جدوى فحامية المدينة ضعيفة لا تقوى على الصد أو الرد، وانطلق الصليبيون إلى داخل المدينة يبثون الرعب والخوف فى نفوس المسلمين ويدمرون ويخربون كل ما يصادفهم فرحين بذلك النصر الرخيص، ولم يسلم من شرهم أحد وقد أصابوا الرجال والنساء حتى الشيوخ والأطفال، وانتشر القتل فى

(١) سعيد عاشور. تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ص١١٦-١١٨.

(٢) انظر سعيد عاشور فى المرجع السابق ص١١٦، ١١٨، ١٢٢، ١٢٥، ١٢٨، ١٢٩.

الجميع دون تمييز وأراقوا الدماء تروى الأرض، فكانت مذبحة رهيبة واقتحموا المسجد الأقصى فى صباح اليوم التالى وأجهزوا على كل من احتمى فيه، وتسربلت ساحات المسجد بدماء العباد والزهاد، وتذكر الروايات أن الصليبيين قتلوا نحواً من سبعين ألفًا حتى كان الناس أينما نظروا وقعت أعينهم على أكوام من الرؤوس والأيدى والأقدام المقطوعة فى الطرقات، ونهبوا جميع الأمتعة وخربوا أثاث المسجد الأقصى ومسجد الصخرة، ونهبوا القناديل الذهبية والفضية. وسوف نترك ابن الأثير يصف سقوط بيت المقدس بأيدى الصليبيين سنة ٤٩٢هـ، ونذكر أيضا ردود الفعل التى أثارها ذلك السقوط فى نفوس العباسيين وسائر المسلمين الذين نظروا إلى قداسة تلك المدينة ومكانتها؛ ليس بقدر نظرتهم لها على أنها فى دائرة النفوذ الفاطمى، ومن ثم فإن حمايتها ومسئولية الدفاع عنهم تقع على عاتق الفاطميين وحدهم دون غيرهم. يقول ابن الأثير: «وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفًا، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم، ممن فارقوا الأوطان، وجاوروا بذلك الموضع الشريف وأخذوا من عند الصخرة نيفًا وأربعين قنديلاً من الفضة وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم، وأخذوا تنورًا من الفضة وزنه أربعون رطلا بالشامى، وأخذوا من القناديل الصغار مائة وخمسين قنديلا نقره ومن الذهب نيفًا وعشرين قنديلاً وغنموا ما لا يقع عليه إحصاء، وورد المستنفرون من الشام فى رمضان إلى بغداد بصحبة القاضى أبى سعيد الهروى فأوردوا فى الديوان كلاما أبكى العيون»[1].

وبسقوط بيت المقدس تأسست الإمارة الصليبية الثالثة فى شعبان سنة ٤٩٢هـ. فكيف سقطت تلك المدينة المقدسة؟

❁❁❁

(١) الكامل ج ١٠ ص١٩٢ وما بعدها.

ثالثاً: سقوط القدس

اتجهت جموع الصليبيين فى ٢٥ جمادى الآخرة عام ٤٩٢هـ نحو نهر الكلب شمال بيروت، وبذلك نستطيع القول إن الصليبيين قد دخلوا فى أملاك الفاطميين، وهذا سيؤدى بلا شك إلى حدوث الصدام بين الطرفين، وهذا يعنى من ناحية أخرى أن الفاطميين كان عليهم مسئولية الدفاع عن المدينة وعن الشرق الإسلامى بأكمله ضد الخطر الصليبى الجارف، ومن المعروف تاريخيا أن الوزير الأفضل شاهنشاه قد انتهز فرصة انشغال الترك بحروبهم مع الفرنج وتمكن من بسط سيادة الفاطميين على فلسطين والساحل الشمالى حتى مدينة عسقلان عام ٤٩١هـ. وتشير بعض الروايات إلى أن الوزير الأفضل قد اعتنى بالدفاع عن مدينة القدس حيث زودها بحامية قوية بجانب حاميات أخرى فى بعض المراكز والمدن الساحلية وتعتبر مدينة بيت المقدس من أضخم المعاقل والقلاع التى شيدت فى العصور الوسطى فهى تقع فى موقع ذى منعة ومحاطة بأسوار ضخمة، كما أن شرق المدينة فيه كثير من المنحدرات أكسب سورها من جهة الشرق منعة وقوة ويحاذى الصور الغربى واد أقل عمقا من الواديين الآخرين، وقد التف الفرنج حول المدينة رغم نقص المؤن والطعام وافتقارهم الشديد لآلات الحصار الكافية، ومع هذا لقد كانوا شديدى التحمس لإسقاط المدينة المقدسة وقد سقطت المدينة فى أيدى الصليبيين بعد عدة هجومات متكررة على النحو التالى:

الهجوم الأول: كان يوم الاثنين ٢٩رجب سنة٤٩٢هـ وكان هذا الهجوم قاسيا عنيفا وقد بلغ من قسوته أن انهارت التحصينات الخارجية لأسوار المدينة الشمالية، ولكن هذا الهجوم قد باء بالفشل وذلك راجع إلى معاناتهم من قلة الذخيرة والمياه وحرارة الجو واستبسال الحامية الفاطمية فى الدفاع عن المدينة. وتشير المراجع إلى استخدام رجال الحامية الفاطمية لأحجار المجانيق والزيت والقار المغلى والنار

الإغريقية لإفشال الهجوم الإفرنجى، وعلى ما يبدو أن النار الإغريقية تلك كانت سلاحًا سريًا لم يعرفه الصليبيون إلا فى الشرق الإسلامى عند ذلك الحصار، وقد ترتب على ذلك أن انسحب الفرنج بعد ساعات من القتال العنيف حاملين قتلاهم وبذلك فشل الهجوم الصليبى الأول على المدينة المقدسة[1] .

وقد تبين من ذلك الهجوم الفاشل أن الصليبيين كان ينقصهم المجانيق والأبراج وسلالم التسلق، فقد كانت هذه العدد غير كافية لديهم وقد تغلب الفرنج على مشكلة الخشب اللازمة لهذه العدد حيث دلهم مسيحيو المنطقة على أشجار فى بعض الغابات القريبة، وبذلك تمكنوا من صناعة آلات وأبراج الحصار والمجانيق والكباش. وتذكر بعض المراجع الصليبية أن الفرنج قد أقدموا على هدم بعض المنازل والكنائس القديمة للاستفادة بألواح الأخشاب الموجودة بها، وقد لاقى الصليبيون إبان تلك الفترة من العطش حيث ندرة المياه وحرارة الجو القاسية وبخاصة أن المسلمين فى هذه المنطقة قاموا بردم كل الآبار والعيون حول المدينة وتخريب الصهاريج الموجودة خارجها، ثم جاءت الإمدادات من جنوة حيث جاء الأسطول الجنوى محملا بالمؤن والإمدادات والأسلحة والآلات اللازمة لصناعة الأبراج مما مكنهم من توفير العدد اللازمة للحصار ورفع من معنوياتهم وصاروا أشد تصميما على الهجوم.

الهجوم الثانى: قرر الفرنج القيام بشن هجوم رئيسى فى ٢١ شعبان ٤٩٢هـ مستعملين فى ذلك الأبراج واختاروا الجزء الشرقى من السور الشمالى وهو ما يعرف بباب العمود أو باب الأسباط، وقد اندلع قتال مرير بين الفريقين إذ استبسل الفاطميون فى الدفاع عن المدينة حتى فشل ريموند فى اتخاذ موقع له على السور. كما أن الفاطميين قد نجحوا فى إحراق البرج الصليبى مما اضطر الصليبيين إلى الانسحاب بعد يوم كامل من الصراع وبذلك فشل الهجوم الثانى على المدينة المقدسة[2] .

---

(١) الكامل فى التاريخ ج ١٠ ص٢٨٣، ٢٨٤. وانظر أيضا البداية والنهاية ج ١١ ص ١٦٦ .

(٢) العدوان الصليبى على العالم الإسلامى ص١٠٩ .

الهجوم الثالث: أدرك القادة الفرنج بعد فشل هجومهم الثانى على المدينة المقدسة واحتراق برجى ريموند وتانكرد أنه يجب عليهم أن يسارعوا بالاستيلاء على المدينة بأى وسيلة إذ وصل إلى مسامعهم مجئ جيش فاطمى بقيادة الأفضل الجمالى لإنقاذ المسلمين المحاصرين بها. وفى يوم ٢٣ شعبان سنة ٤٩٢هـ تم أمر جود فيرى بالهجوم الثالث على المدينة المقدسة واشتد الصراع بين الفريقين واستحر القتل، ثم تقدم جودفيرى وأخوه استاش نحو السور الشمالى بالقرب من باب الزهور وهذه الجهة كانت ثغرة أغفلها المسلمون وأهملوا تحصينها وتمكن جودفيرى وأخوه من قيادة البرج الذى صنعه الجنوية وزحفوا به حتى ألصقوه بالسور تحت وابل من السهام النارية وأحجار المجانيق والكباش التى كانت تغطى تقدمهما نحو السور، ثم رموا بالمجانيق رمية رجل واحد فانهزم المسلمون[1]. ولقد كانت الخدعة شديدة إذ جاء الاستيلاء من الجزء الواهن من السور الشمالى للمدينة فلم يكد يتم الاستيلاء على هذا الجزء حتى أتاحت السلالم لعدد كبير من المهاجمين الصعود والاندفاع داخل المدينة وبينما كان جودفيرى يحتل موقعه على السور الشمالى ويحث رجاله على اقتحام المدينة ويرسل جنده لفتح باب الأعمدة كى تنفذ منه القوات الرئيسية للجيش الصليبى وعلى رأسهم تانكرد النورماندى ورجاله وفى أثرهم عساكر اللورين المتعطشون للدماء وعندما تبين للفاطميين انهيار أسباب دفاعهم فروا أمام الفرسان الفرنج واتجهوا مذعورين نحو الحرم الشريف وإلى ساحة المعبد حيث توجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى وقد اتخذوا من المسجد الأقصى ملاذا لهم من سيوف الفرنجة، ولكن القادة الصليبيين سرعان ما باشروا الانتقام حينئذ أصدر جود فيرى أوامره لأمرائه فأرسل بعضهم لفتح باب العمود «بوابة القديس استيفن» ليدخل منه بقية الجيش الأفرنجى ففتحت الأبواب واندفع الجيش الصليبى بأكمله فى اندفاع وتهور، واندفعوا داخل المدينة وهم يتعقبون المسلمين الذين التجأوا إلى الحرم الشريف والمسجد الأقصى معتصمين به[2]، وهم يصيحون

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير ج١٠ ص١٩١، والنجوم الزاهرة لأبى المحاسن ج٥ ص١٤٨ حيث يذكر أن المسلمين أحرقوا البرج الذى كان عند جبل صهيون وقتلوا من به.

(٢) انظر بن الأثير ج١٠ ص١٩١ . والنجوم الزاهرة ج٥ ص١٤٨، ١٤٩ .

«هذه هى إرادة الله» أما عن المسلمين الذين احتشدوا بداخل قبة الصخرة وفى أعلاها فقد سارعوا بالتسليم مقابل دفع فدية كبيرة ولكن تانكرد لم يقنع بذلك فعاث فسادا فى قبة الصخرة وقام بتدمير ونهب ما شاء من كنوزها وتحفها التى لا تقدر بثمن. يذكر بعض الرواة أن الفرنج الذين اقتحموا قبة الصخرة اشترطوا على المسلمين داخلها أنهم إذا تأخروا عن الخروج بعد ثلاثة أيام قتلوهم عن آخرهم فشرعوا بالمبادرة بالخروج ومن شدة ازدحامهم بأبواب المسجد قتل خلق كثير منهم. ويروى أن أحد الفرنج أخذ من عند الصخرة نيفًا وأربعين قنديلا من الفضة وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم، وأخذوا تنورا من فضة وزنه أربعون رطلا بالشامى وأخذوا من القناديل الصغار مائة وخمسين قنديلا وغنموا ما لا يقع عليه الإحصاء[1].

ولكن فرحة الفرنج بالنصر جعلتهم يدخلون المدينة المقدسة ويحدثون بها مذبحة وحشية مروعة وحكموا على كل مسلم وجدوه فى المدينة بالموت، وانطلقوا فى الشوارع والمنازل والمساجد وهم يذبحون ويقتلون كل من صادفهم من الرجال والنساء والأطفال دونما تمييز بين سن أو جنس، واستمرت المذبحة طيلة مساء يوم ٢٣ شعبان ٤٩٢هـ. وفى صباح اليوم التالى اقتحم الفرنج المسجد وأحدثوا داخله مذبحة وحشية لكل اللاجئين من المسلمين إليه ونكسوا بعهدهم لمسلمى المسجد، وبلغ من كثرة قتلى المسلمين كما يصف شاهد عيان من الصليبيين لهذا اليوم الرهيب «أن الدماء سالت أنهارا وأن جنودنا وخيولنا كانت تخوض حتى سيقانهم فى دماء المسلمين». ويذكر المؤرخ فوشيه أوف شارتر فى فخر «أن الفرنج كانوا يخوضون بأقدامهم فى دماء القتلى التى لم يسلم منها حتى النساء والأطفال، وأن المسلمين كانوا يتساقطون بسيوف الفرنج مثلما يتساقط التفاح الناضج. ويتحدث الرواة عن عدد القتلى فى تلك المذابح فبعضها يقول: إنه قتل حوالى عشرة آلاف مسلم بالمعبد، ويقال فى رواية أخرى: إنه بلغ من كثرة القتلى أن أكواما من

(١) ابن الأثير الكامل ج١٠ ص١ ٩٢, وابن خلدون العبر ج٤ ص٦٧ .

الرؤوس والأيدى والأرجل كانت تشاهد فى شوارع المدينة وطرقاتها كما جاء فى وصف تلك المذابح أن المسلمين كانوا يذبحون ذبح النعام فى الشوارع والمنازل وأنهم لم يجدوا مكانًا آمنًا يلوذون به فألقى بعضهم من فوق الأسوار(١).

أما عدد قتلى المسلمين فى مجموعه فيقال إنه سبعون ألفا منهم جماعة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم الذين كانوا مجاورين للمسجد الشريف(٢). ويقول أحد المؤرخين إنه ركب الناس السيف ومكث الفرنجة فى البلد أسبوعًا يقتلون فيه المسلمين؛ وقتلوا بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفا. وذكرت بعض الروايات أنهم لم يتركوا شخصًا على قيد الحياة. ويذكر وليم الصورى أن بيت المقدس أصبح مخاضة واسعة من دماء المسلمين أثارت خوف الغزاة واشمئزازهم وأنه لم يكن من الممكن النظر إلى تلك الأعداد الضخمة من القتلى دون الإحساس بالرعب، وفى كل مكان كانت ترقد بقايا جثث القتلى مقطوعى الرؤوس والأيدى وكانت الأرض مغطاة بدماء القتلى، ويذكر ابن الأثير أن الفرنج بعد أن انتهوا من القتل وزالت عنهم نوبة الانتقام المحمومة ووضعوا سيوفهم الملطخة بالدماء، وعندما خيم عليهم الليل اتجه جود فيرى وزملاؤه إلى كنيسة القبر المقدس بملابسهم الملطخة بالدماء وقد بكوا من شدة الفرح وقضوا ليلتهم فى شكر الله وعبادته والبكاء والاحتفال بانتصارهم. وقد فاحت رائحة القتلى فى المدينة المقدسة إذ كانت جثث القتلى قد تراكمت فى كل مكان ويقال إن الفرنج ما كادوا ينتهون من صلاتهم وبكائهم حتى عاودتهم نوبة سفك الدماء فواصلوا المذبحة واستمروا بقية الأسبوع يقضون على البقية الباقية من سكان المدينة من النساء والأطفال الذين ذبحوهم ذبح الخراف(٣). وقد ذكر مؤرخ صليبى كان شاهد عيان للمذبحة وهو ريموند أوف أجيل -عندما توجه لزيارة ساحة المعبد غداة تلك المذبحة- أنه لم يستطع أن يشق طريقه وسط أشلاء قتلى المسلمين إلا فى صعوبة كبيرة وبين دماء

(١) انظر ابن الأثير الكامل ج١٠ ص١٩١: ١٩٢. وابن خلدون العبر ج٤ ص٦٧، ج٥ ص٢١.
(٢) ابن الأثير الكامل ج١٠ص١٩٢.
(٣) المصدر السابق ج١٠ ص١٩٢.



جثث القتلى التى بلغت ركبتيه وقد أرسل الفرنج بعد انتهائهم من تلك المجزرة الرهيبة رسالة إلى بابا روما يهنئونه فيها بفتح مدينة بيت المقدس جاء فيها «إذا أردت أن تعلم ما جرى لأعدائنا الذين وجدناهم بالمدينة فثق أنه فى إيوان سليمان أو معبده كانت خيولنا تخوض فى بحر من دماء الشرقيين المتدفقة إلى ركبتيها».

أما يهود المدينة الذين فروا إلى المعبد الكبير فى المدينة فقد أبقى عليهم الفرنج وحجزوهم حيث ساقوهم إلى معبدهم وانتقموا منهم وأحرقوه عليهم، وإن كان يرى بعض الرواة أن يهود المدينة المقدسة لم يحرقوا بأكملهم داخل معبد اليهود بالقدس، ولكن بعضهم نجح فى الفرار لبعض المدن مثل يافا وحيفا وعسقلان. ويبقى لدينا أن نشير إلى مسئولية تلك المذبحة التى نتجت عن سوء تصرف المسلمين، فإن سقوط بيت المقدس فى أيدى الفرنج وذبحهم لآلاف المسلمين داخل المدينة كان المسئول الأول عن هذه المذبحة كل من الخلافة العباسية والسلاجقة؛ فكلاهما لم يبديا اهتماما كافيا لصد الصليبيين فى حملتهم الأولى، كما أننا لا يمكن أن نعفى الفاطميين من تبعة سقوط بيت المقدس إذ حاربوا الأتراك فى وقت عصيب وانتزعوا بيت المقدس من بين أيديهم فى وقت الشدة التى أخذت تطل بقرنيها على المنطقة والتى تؤذن بقدوم الصليبيين بجحافلهم الرهيبة، وغير خاف على قارئ التاريخ فى تلك المرحلة أنه كان من الممكن أن تتوحد أو تتحد القوى الإسلامية بدلا من أن تتصارع فيما بينها، وأعنى بتلك القوى قوة الفاطميين والعباسيين والسلاجقة، فلو تآزرت القوى العسكرية لهذه الأطراف الثلاثة لأمكنهم صد الحملة الصليبية الأولى وإفشالها تماما ولاسيما أن قوى العدو كانت غير منضبطة تنقصها القيادة الحكيمة وعدم التواصل والترابط فيما بينها، ولكن مما يؤسف له إن القوى الإسلامية على الرغم من ذلك كانت غير قادرة على تنسيق جهودها بسبب الخلافات السياسية والمذهبية والشخصية التى ساهمت فى سقوط بيت المقدس، وتحقق للفرنج أملهم الذى كان يداعبهم من سنين.

كما كشفت تلك المعارك عن التعصب الأعمى للفرنج فقد ظهر تعصبهم الفاضح حين حولوا قبة الصخرة إلى كنيسة سموها معبد السيد واستعملوا المسجد

لصالحهم وسموه معبد سليمان، وقسموه إلى ثلاثة أقسام: الأول كنيسة والثانى مسكن لفرسان الهيكل والأخير استعملوه مستودعًا للذخائر واستخدموا سراديب المسجد إسطبلا لخيولهم(١).

وأما عمن سلم من مسلمى المدينة من القتل أو من كان فى الأسر منهم فقد استخدموه -كما تقول الرواية الصليبية- لنقل جثث القتلى إلى خارج المدينة ودفنها فى حفر قاموا بحفرها فأجهدوا أشد الجهد بل تمنوا لو كانوا قد قتلوا لاستراحوا من تلك المشقة الرهيبة.

أما عن الخيانة فقد ظهرت خيانة لبعض مسيحيى الشرق إذ وفدت من بيت لحم إلى مقر الفرنج ليستحثوا الصليبيين وعلى رأسهم جود فيرى للإسراع إلى بيت المقدس للاستيلاء عليه ووعدوه بالمعاونة وتقديم المؤن اللازمة والوقوف بجانبه، فأرسل إليهم جود فيرى عددا من الفرسان تقدر بمائة رجل فى الفجر وخرج مسيحيو المدينة واستقبلوهم استقبالا حافلا وفرح بهم أهل المدينة ورفعوا رايتهم وركزوها على كنيسة أم الإله(٢).

كما نرى الموارنة يقومون أيضا بنفس الدور ويظهرون خيانة للمسلمين وهم المعروفون «بالمردة» وعرفوا أيضا باسم «الحراجمة» وهم نصارى من العجم استقدمهم ملوك القسطنطينية للدفاع عن لبنان وقليقلة من غزوات العرب، وقد قدم هؤلاء الموارنة العون للفرنج وأخبروهم بأفضل الطرق وأكثرها اختصارًا لبيت المقدس وزودوهم بالمؤن والمياه إلى غير ذلك مما يحتاجون إليه(٣).

الحملة الصليبية التى تحدثنا عنها فيما سبق هى الحملة الصليبية الأولى والتى تم فيها سقوط بيت المقدس وتم أيضا تكوين أربع إمارات صليبية فى الشام وفلسطين، وإذا كان من الصعب الفصل بين الأحداث التى وقعت فى فترات الحروب الصليبية إلا أننا يمكننا أن نقسم تلك الحملات كالآتى:

---

(١) العدوان الصليبى على العالم الإسلامى ص١٣٠ .

(٢) انظر العدوان الصليبى على العالم الإسلامى ص١٠٢ .

(٣) المرجع السابق ص ٩٦ .

الحملة الأولى:

وأسفرت الحملة الأولى عن احتلال القدس عام ١٠٩٩م وقيام مملكة القدس اللاتينية بالإضافة إلى عدة مناطق حكم صليبية أخرى، كالرها، وإمارة إنطاكية وطرابلس بالشام كما سبق أن أوضحنا.

ولعبت الخلافات بين حكام المسلمين المحليين دوراً كبيراً فى الهزيمة التى تعرضوا لها، كالخلافات بين الفاطميين والسلاجقة الأتراك من جهة وكذلك ضعف الخلافة العباسية ووقوعها تحت سيطرة السلاجقة وظهور الصراع المذهبى بين أهل السنة والشيعة من جهة أخرى، ومن ثم باءت المحاولات لطرد الصليبيين بالفشل كمحاولة الوزير الأفضل الفاطمى الذى وصل عسقلان ولكنه فر بعدها أمام الجحافل الصليبية التى استكملت السيطرة على بعض البلاد الشامية والفلسطينية بعد ذلك.

الحملة الثانية:

بدأت الحملة الثانية عام ١١٤٧م وانتهت عام ١١٤٩م. وكانت قد أعقبت فترة من الهدوء، دعا إليها برنارد دى كليرفو، وكان من قادتها لويس السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث هوهنشتاوفن إمبراطور الجرمان «ألمانيا»، وهى أول حملة يشترك فيها الملوك، تعرضت فيها الجحافل الألمانية لمشكلة كبيرة تمثلت فى الجوع والمرض بعد هزيمة لحقت بها أمام فصائل الخيالة التابعة لسلطان قونية السلجوقى جوار ضورليوم، كما منيت القوات الفرنسية بهزيمة خطيرة بجوار خونة. كما أنهك السلاجقة الصليبيين بغاراتهم المتواصلة. وفى ٢٤ يونيو ١١٤٧م تلاقى لويس السابع وكونراد الثالث ووصى العرش ميليساندا مع أعيان القدس. ومضوا لحصار دمشق الحصينة، لأن فتحها كان يبشر بغنائم وفيرة. وقد دام الحصار خمسة أيام من ٢٣ إلى ٢٧ يوليو، لكنه فشل. وتخلى ملك القدس بودوان وبارون طبرية عن مطلبهما بعد تدهور موقعهم العسكرى بسبب مناورة عسكرية أو لعله برشوة قدمها لهما الوزير الدمشقى معين الدين نور، وقد شهدت تلك الحملة معركة حطين.

وقد وقعت معركة حطين التاريخية والمحورية فى ٤ يوليو ١١٨٧م. حيث انتصر فيها السلطان صلاح الدين الأيوبى سلطان مصر. وقد حرر القدس بعد تلك المعركة فى ٢ أكتوبر ١١٨٧م، الأمر الذى دفع بالبابا غريغوريوس الثامن إلى الدعوة إلى حملة صليبية جديدة.

الحملة الثالثة:

دعا إليها البابا غريغوريوس الثامن، عام ١١٨٧م ردا على استرداد صلاح الدين للقدس وعودتها للمسلمين. وقاد الجيوش الصليبية ملك فرنسا فيليب أوغست الثانى، وملك انجلترا ريتشارد الأول الذى كان يلقب بريتشارد قلب الأسد، وملك الجرمان «ألمانيا» فريدريك الأول برباروساء الذى غرق فى عام ١١٩٠م فى نهر اللامس، فتشردت صفوف قواته. أما الفرنسيون والإنجليز، فلم ينتهوا من الاستعداد للحملة حتى ١١٩٠م، وفى الطريق عمل ريتشارد الأول على توسيع نفوذه فى صقلية مما وتر العلاقات مع الملك الفرنسى وأضعف التحالف بينهما.

قام الصليبيون بحصار عكا التى استسلمت فى١٢ يونيو ١١٩١م وغادر فيليب عائدا إلى فرنسا، وجرت مذبحة بأمر ريتشارد وتحت قيادته فى عكا. بعدها تمت محاولاته لاحتلال مدن أخرى، لكنها باءت كلها بالفشل، وفى عام ١١٩٢م عقد الصلح مع صلاح الدين، واحتفظ الصليبيون بشريط ساحلى يمتد من صور إلى يافا، وسمح صلاح الدين للحجاج والتجار بزيارة مدينة القدس والأماكن المقدسة.

الحملة الرابعة:

دعا إليها البابا إينوقنتيوس الثالث فى ١٢٠٢م. وكانت خطة الصليبيين الأولية تتلخص فى دفع القوات إلى مصر لضرب القوة الإسلامية الكبرى فى المنطقة، ثم شن الحرب منها باتجاه القدس. لكن البندقيين الذين تولوا أمر توجيه وتوفير وسائل النقل والغذاء للحملة مقابل ٨٥ ألف مارك ذهبى، أثّروا فى مسار الحملة ووجهوها إلى القسطنطينية عمدا، لأن الصليبيين لم يوفروا المبلغ المتفق عليه. وأسفرت

الحملة عن تخريب وتدمير القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ومركز الثقافة الإغريقية العريقة، ولم تتخذ البابوية إجراءات فعلية تجاه هذا الحدث، وكانت تلك الحملة تمثل انحطاط الحملات الصليبية التى أصبحت فيما بعد بحاجة إلى تبرير مقنع، بعدما كانت أمرًا إلهيًا باسم الكنيسة.

الحملة الخامسة:

سعى البابا إينوشنتيوس الثالث إلى بدء حملة صليبية جديدة عام ١٢١٣م. فبدأ بحملة وعظ دامت حتى انعقاد المجمع اللاتينى الرابع عام ١٢١٥م الذى اتخذ سلسلة من الإجراءات التى تتعلق بتنظيم الحملات الصليبية. تحركت قوات مجرية وأخرى من جنوب ألمانية بقيادة أندارش الثانى وقوات نمساوية ووصلت إلى عكا. وتوقفت هناك حتى انضمت إليها قوات ألمانية وهولندية. فتوجهوا إلى مدينة دمياط فى شمال شرق الدلتا بمصر على النيل، واستولوا عليها عام ١٢١٩م. وتحت إلحاح نائب البابا أونوريوس الثالث والقاصد الرسولى بيلاجيوس استكمل الهجوم نحو المنصورة. وفى ذلك الوقت بالذات بدأ فيضان النيل، وفتح المصريون السد على النهر، وقطع المسلمون طريق التراجع على الصليبيين. وحاصرت قوات المسلمين الصليبيين بأعداد كبيرة، وغرق المئات بمياه الفيضان. وأسر الملك لويس التاسع بدار ابن لقمان بالمنصورة فطلب الصليبيون الصلح وإطلاق سراح الملك لويس. وقبلت الملكة شجر الدر زوجة السلطان الكامل الأيوبى الصلح إدراكا منها بخطر المغول فى المشرق. وكان الكامل قد مات ليلة معركة المنصورة ووقع الصلح فى ٣٠ أغسطس ١٢٢١م لمدة ٨ سنوات، وكان على الصليبيين مغادرة دمياط، ونفذوا ذلك فى أوائل سبتمبر من نفس العام ومنيت الحملة الصليبية الخامسة بالفشل الذريع.

الحملة السادسة:

قادها الإمبراطور فريدريك الثانى هوهنشتاوفن الألمانى، ولم تحظ هذه الحملة بمباركة البابوية بل حرم الإمبراطور من الكنيسة لتأخره فى تنفيذ نذره بأخذ

الصليب. تفاوض فيـها فريدريك مع السلطان الكامل مما أسفـر فى فبراير ١٢٢٩م عن صلح لمدة ١٠ سنوات تنازل بمقابله السلطان عن القدس باستثناء منطقة الحرم، وبيت لحم والناصرة وقسم من دائرة صيدا وطـورون «تبنين حاليا»، وكانت الحملة الأولى التى لا تبارك انطلاقها البابوية.

الحملة السابعة:

كان الهـزيمة التى لحقت بفـصائل الصليـبيين عـام ١٢٤٤م وخسارتهم التـامة للقدس أدت إلى ترتيـب الحملة الصليبيـة السابعـة، فقادها الملـك الفرنسى لويس التاسـع وتوجه بهـا إلى مصر واسـتمـرت الحملة بين عـامى ١٢٤٨م و١٢٥٤م، فسـيطروا فى البدء على دميـاط ثم المنصورة، ولكن المسلمين بقـيادة الملك المعظم طوران شـاه نجحـوا فى تدمـير قـواتهم وفى حـصـر بقاياها فـى المنصورة حـتى استسلموا، ووقع لويس فى الأسر حـتى تم فديه عام ١٢٥٠م فعاد إلى عكا وبقى فيها ٤ سنوات قبل العودة إلى فرنسا بخفى حنين.

• الحملة الثامنة:

انطلق فى هذه الحملة لويس التاسع ملك فرنـسا فى عام ١٢٧٠م بعد حوالى ٣ سنوات من التأخير، وقد قام بها عـدد قليل من البارونات والفرسان الفرنسيين، إذ إن فشل الحملات الواضح وانحطاط سـمعتها صدهم عنها، حـتى إن مؤرخ سيرة حياة لويس التاسـع الذى رافقه فى حملته السابقة رفض الانـضمام إليه هذه المرة، ويروى هذا المؤرخ أن نبأ الحـملة الجديدة كان مفـاجئًا للغاية بالنـسبة له شخـصيًا وبالنسبـة للأشخاص الآخـرين المقربين من الملك، وأنه أذهل البـارونات، وكانت المعارضة مجمعًا عليها تقريبا، واضطر الملك إلى شراء حماسة الأسياد بالمال، ونذر مع الملك النذر الصليبى أبناءه الثـلاثة وبعض تابعى الملك الآخرين، واتفق على أن توجه الحملة نحو تونس.

بدأت المفاوضات مع المستنصر أمير تونس ولما نزل الصليبيون فى تونس وصلت المفـاوضات إلى طريق مـسـدود، وعندها انضم شـارل الأول كونت أنجـو، الأخ

الأصغر للويس وملك مملكة نابولى. واستولوا على قلـعة قرطاجا القديمة، ولكن وباء دب فى صفوف الفرسان، وتوفى على إثره المـلك وأفراد العائلة المالكة المرافقة باستثناء فيليب الابن البكر للملك الذى شفى، وفى نفس يوم وفاة الملك وهو ٢٥ أغسطس ١٢٧٠م وصل أخـوه شارل الأول، وخاضت قـواته برفقـة قوات لويس بقيادة خلفه فـيليب بضع معارك ناجحة ضد قوات أميـر تونس، وفى أول نوفمبر ١٢٧٠م وقعت معـاهدة صلح مع المستنصر ألزمـته بدفع جزية مضاعـفة إلى ملك الصقليتين، كمـا شملت حقوقًا تجارية متبادلة، وبـعد ١٧ يومًا من التوقيع، ركب الصليبيون السفن وغادروا تونس.



رابعاً: نتائج الحملة الصليبية

كان للحملة الصليبية الأولى وما تبعها من حملات أثر كبير فى الأطراف المحاربة من المسلمين والصليبيين، ولم تقتصر الآثار الناتجة على الآثار العسكرية بآلامها من جروح وقتل وسفك دماء إلى غير ذلك من آثار أليمة إلا أنه توجد بجانب ذلك آثار أخرى وعلامات من نوع آخر ظهرت مع الاحتكاك بين المسلمين والمسيحيين إبان فترات السلم أو الحرب نذكر منها:

١- النتائج الاقتصادية:

مما لا شك فيه أن فترة الحروب الصليبية قد شهدت حركة اقتصادية بين المسلمين والإفرنج على الصعيد الداخلى لبلاد الشام ومصر وصعيد العلاقات الخارجية بين بلاد الشام والغرب الأوروبى، وهذا أمر لا شك فيه لأن الحروب الصليبية فى أهدافها وفى حقيقتها حروب اقتصادية، ومن مظاهر العلاقات الاقتصادية تطور الزراعة فى بلاد الشام فقد دعت إليها حاجة السكان وكذلك الإفرنج الطارئين إلى المنطقة إذ كانوا فى حاجة إلى المواد الغذائية ومن ثم استمرت الزراعة وازدهرت إبان تلك الحقبة حيث تأثرت المنطقة بأنماط زراعية جديدة أخذت عن الغرب الأوروبى، كما استفاد الإفرنج من أساليب الزراعة الشامية. ولم يقتصر نقل هذه المؤثرات إلى الإمارات الصليبية الأربع فى بلاد الشام بل نقلت بعض أنواع من الزراعة إلى البلدان الأوروبية نفسها ولم يكن لهم بها سابق عهد كما نقلوا بعض المحاصيل الزراعية مثل السمسم والخروب وقصب السكر والليمون والأرز والقطن وبصل عسقلان وفواكه وثمار، وكانت هناك زراعات أخرى عربية تمتع بها الإفرنج مثل التين والزيتون والقمح والشعير والذرة والعدس والفول والرمان واللوز والبطيخ والمشمش، وقد نقل أغلب هذا إلى أوروبا. ويذكر بعض الرواة أن فواكه



فلسطين النادرة مثل الليمون الحلو والرمان كانت تشاهد فى بعض الأحوال على موائد الأثرياء فى إيطاليا[١].

ويصف ابن حوقل الزراعة والبساتين فى مختلف بلاد الشام وذلك قبل الحروب الصليبية «. . . وعن القدس قال: عليها شجيرات وهى من أخصب بلاد فلسطين على مر الأوقات. وعن بيت لحم وجبالها قال: وأكثر جبال فلسطين زيتون وتين وجميز إلى آخر الفواكه» وأخذ يعدد ابن حوقل المزروعات فى فلسطين كلها والأردن واصفا مياهها العذبة كما وصف مزارع وأشجار إنطاكية.[٢] ويشير ابن جبير الرحالة الأندلسى إلى تلك العلاقات الاقتصادية بين بلاد الشام وبين الإفرنج وكيف كان الطرفان يشتركان معا فى الأعمال الزراعية واقتسام المحصول يقول: «إن العلاقات الاقتصادية بين أهل البلاد وبين الإفرنج كانت علاقات مقبولة من الطرفين». وعن مدينة بانياس يقول: «ولها محرث واسع فى بطحاء متصلة يشرف عليها حصن للإفرنج يسمى هونين. . . . وعمالة تلك البطحاء بين الإفرنج وبين المسلمين، ولهم فى ذلك حد يعرف بحد المقاسمة فهم يشاطرون الغلة على استواء ومواشيهم مختلطة». ويشير ابن جرير إلى تلك العلاقة الاقتصادية فى أعمال الزراعة قائلا: «ورحلنا من تنين وطريقنا كله على ضياع متصلة وعمائر منتظمة سكانها كلها مسلمون وهم من الإفرنج على حالة ترفيه. . . . وذلك لأنهم يؤدون لهم نصف الغلة عند أوان ضمها وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط ولا يعترضونهم فى غير ذلك، ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضا، ومساكنهم بأيديهم وجميع أحوالهم متروكة لهم، وكل ما بأيدى الإفرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل رساتيقها كلها للمسلمين وهى القرى والضياع[٣].

أما عن الصناعة فقد تعرف الإفرنج إلى العديد من المصنوعات العربية ونقلوها إلى بلادهم مثل الصناعات الزجاجية والخزفية والمرايا والحلى والسجاد والمنسوجات

---

(١) جوزيف نسيم. دراسات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ص٦٧: ٧٥ وما بعدها.

(٢، ٣) انظر ابن حوقل. كتاب صورة الأرض ص١٥٨: ١٧٨ بيروت ١٩٧٧.

والأوانى المعدنية والسبحات والأصباغ والعقاقير وصناعة الصابون والسكر. وكانت طرابلس الشام إحدى المدن العامرة بالصناعات وكانت تحوى وقت الهجوم الصليبى نحو أربعة آلاف من مصانع الحرير والصـوف وكذلك مصانع الورق التى كانت من أهم الصناعات آنذاك[1].

ومما لا شك فيه أن الإفرنج قد تعلموا من أهل الشام عملية استخراج السكر من القصب حيث كان يوجد فى عكا معصرة ضخمة للسكر ومعصرتان فى أريحا كما انتشرت مصانع السكر فى معظم مـدن الساحل مثل صور التى تعد من أهم المراكز لصناعة السكر آنذاك. ومن هذه المدن الساحلية قام الإفرنج بتصدير السكر بكميات كبيـرة إلى الغرب الأوروبى ولم يكن تصدير الصليـبيين إلى أوروبا مقـصوراً على السكر وإنما كانـوا يصدرون أيضا الأقـمشة والملابس الحـريرية والتيليـة والمخمل، والحقيقة أن تصدير القماش كان يلى السـكر فى أهميته إذ تتوفر مواده الخام اللازمة كالحـرير الذى يأتى من تربيـة دود القز على أشجـار التوت، وقـد اشتـهرت عكا بمصانع الحـرير الشامى الذى لاقى رواجا كـبيرا فى أوروبا واشـتهرت أيضـا مدينة صور بالصناعات النسيجية المعروفـة باسم صندل كما كان لكتان نابلس شهرة دولية نظرا لجودته وانخفـاض سعره ووفرة كمـياته، كما عرفـت بعض المدن مثل بيروت ودمشق وطرابلس بصناعة دبـغ الجلود، أما عن المراكز التجارية المهـمة التى كانت تستقبل الصناعات العربية فكان أهمـها مدينة «جنوة» وهى من أهم المراكز التجارية فى أوروبا فى العصور الوسطى وذلك نظرا لموقعها المهم مما جعلها حلقة اتصال بين الشرق والغرب. وقـد كانت العلاقات الاقـتصادية نشطة إبان الدولة الفـاطمية ثم ازدادت تطورا ونشـاطا زمن الحـروب الصليـبـية، وهذا راجع لـتأييـد تجـار جنوة للحملات الصليبية وبخاصة الحملة الصليبية الأولى إذ أكسبهم ذلك امتيازات تجارية مما حدا بتـجار جنوة أن يرتادوا كل المناطق العربيـة والغربية على السواء فـاتسعت تجارتهم وضمـت المدن الغربية بأسواقهـا الكبرى وضمنوا أيضا ارتـيادهم للأسواق

(١) انظر محمد مرسى الشيخ الإمارات العربية فى بـلاد الشام فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر ص٤١٠ وما بعدها

العربية الإسلامية، وأصبحت بضائع الشرق تصدر إلى الأسواق الأوروبية كما ازدادت البضائع الأوروبية تصديرًا إلى الأسواق الشرقية وكان من أهم المدن التجارية آنذاك بروفانس وسردينيا وكروسيكا وناربون وشانبانيا وقطلونية وإنجلترا وفرنسا. وكانت الرحلات الجنوية المتجهة إلى الشام ومصر وغيرهما من موانى الشرق الإسلامى كانت تتم عادة مرتين فى العام؛ الرحلة الأولى وتسمى رحلة الربيع الثانية وتعرف برحلة الخريف[1].

كما أنهم هيمنوا على التجارة المشرقية سواء فى مصر أو الشام، فقد كان للتجار الجنويين نشاط دبلوماسى عظيم بجانب النشاط الاقتصادى وقد استطاعوا عقد معاهدات تجارية مع الحكام المسلمين مثل صلاح الدين الأيوبى والسلطان قلاوون وولده الأشرف بعد ذلك، وكان هؤلاء التجار يجلبون إلى المشرق العربى الإسلامى الفراء والجلود والزيوت والمنسوجات، وقد احتكروا بعض التجارات كتجارة المماليك والجوارى والخيول والأسلحة والحديد والنحاس والرصاص والأخشاب والحبوب، ثم نقلوا معهم إلى الغرب سلع بلاد الشام والمشرق ومنها المنسوجات والملح والنطرون والمرجان واللازورد والزمرد والشمع والعسل والسكر والتوابل والصبغة الزرقاء والتمور والأسماك المملحة والفواكه والتين والزبيب والزيتون وأخشاب الأرز والملابس على اختلاف أنواعها والأوانى الزجاجية إلى غير ذلك من مصنوعات أهل الشرق[2].

وقد نشطت التجارة أيما نشاط بين البلاد الأوروبية والإسلامية وانتقلت المؤثرات الصناعية الشرقية إلى مختلف مناطق أوروبا وقد اشتد الطلب فى أوروبا إبان العصور الوسطى على التجارة الشرقية كالتوابل والأصباغ والحرير والخزف والصابون والمصنوعات التى سبق وأشرنا إليها.

وقد ازدهرت العلاقات التجارية وفق المصالح الاقتصادية التى كانت تحكم العلاقات بين تجار المنطقة وتجار الغرب، وقد أقام تجار إيطاليا وغيرهم من

---

(١) دكتور حسان حلاق. العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب. إصدارات الدار الجامعية ص٢١٢.

(٢) المرجع السابق. ص٢١٣.

الأوروبيين علاقات تجارية مع المسلمين أثـرت طبقة من تجار العرب والمسلمين ثراء شديدًا، فـقد ذكر ابن جـبير اثنين منهـما كانا يعـملان على فك أسـرى المسلمين المغاربة وهما نصر بن قيوام وأبو الدر ياقوت[١].

ومن اللافت للنظر آنذاك أن منطقـة بلاد الشام ومـصر أصبـحتـا منطقة التـقاء حضارى وصناعى وتجارى، إذ إن التبادل التجـارى المستمر بين بلاد الشام والممالك الصليبـية وبين البلدان الأوروبية سـاعد على ازدياد النشاط المالى والصـيرفى وأدى إلى استحـداث أساليب مالية جديدة مـأخوذة عن المعاملات المالية المعـمول بها فى بلاد الشام، كمـا استحدثت أنواع من العمـلات المعدنية المتداولة بين الجـانبيين فى المنطقة كـما اتبع نظام الديوان «الجمـارك» فقد كـان كل من المسلمين والصليبـيين يدفعون ضريبة على بضائعهم الداخلة أو الخارجة بمعدل قيراط عن كل سلعة قيمتها دينار واحد، وكان الدينار آنذاك يساوى أربعة وعشرين قيراطًا[٢].

وقد يظـن البعض أن العداء الـقائم بين المسلمـين والإفرنج قد يـؤدى إلى سوء العـلاقات الإفـرنجيـة وهذا خطأ كبـير، فـعلى الرغم من هذا العـداء القائم فـإن العلاقـات التجارية كـانت قائمة، وكـانت القوافل تنتقل بيـن أراضى الطرفين فى سهولة، يقول ابن جبير: «واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكا كذلك، وتجار النصارى أيضا لا يمنع أحد منهم ولا يعتـرض. ثم يضيف قائلا: «وللنصارى على المسلمـين ضريبة يؤدونها فى بـلادهم، وتجار النصارى أيضـا يؤدون فى بلاد المسلمين علـى سلعهم والاتفاق بينهم والاعـتدال فى جـميع الأحوال، وأهل الحـرب مشغـولون بحربهم

(١) قال ابن جبيـر فيهما: وقيض الله لهم -للأسـرى- بدمشق رجلين من مياسر التجار وكـبرائهم وأغنيائهم المنغمسين فى الثراء؛ أحـدهما يعرف بنصر بن قيوام والثانى بأبى الدر ياقوت مـولى العطافى، وتجارتهما كلها بهذا الساحل الإفرنجى، ولا ذكر فيه لسواهما، ولهما الأمناء من المقارضين، فالقوافل صادرة وواردة ببضائعـهما وشأنهما فى الغنى كـبير، وقدرهما عند أمراء المسلمين والإفرنجيين خطير» رحلة ابن جـبير ص٢١٤.

(٢) انظر حسان حلاق. مرجع سابق ص٢١٧.

والناس فى عافية، والدنيا لمن غلب. هذه سيرة أهل هذه البلاد فى حربهم وفى الفتنة الواقعة بين أمراء المسلمين وملوكهم كذلك، ولا تعترض الرعايا ولا التجار فالأمن لا يفارقهم فى جميع الأحوال سلمًا أو حربًا[١]. وقد تحدث ابن جبير أيضًا عن ظاهرة جديرة أن نقف عندها ونتأملها فهو حين ركب البحر من دمشق قاصدًا عكا مع التجار النصارى فى قافلة كبيرة من التجار المسافرين بالسلع إلى عكا فشاهد قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الإفرنج وسبيهم يدخل إلى بلاد المسلمين، وقد تعجب لذلك ابن جبير إذ أنه بالرغم من الحروب القائمة بين المسلمين والصليبيين إلا أن العلاقات التجارية كانت قائمة على السلم والأمن بين الجانبين. كما أشار ابن جبير إلى وضع عجيب فى إحدى قرى عكا بقوله: «ورئيسها الناظر فيها من المسلمين يقدم من الإفرنج على من فيها من عمارها من المسلمين.. فأضاف ذلك الناظر جميع أهل القافلة ضيافة حفيلة وأنالهم ألوانا من الطعام قدمها لهم»[٢].

وأحيانا يسىء الصليبيون للتجار وذلك فى بعض الحالات مثل التجار المغاربة الذين وقفوا بجانب نور الدين أثناء حصاره لأحد حصون الإفرنج فجازاهم الإفرنج بضريبة المكسية، فكل مغربى يزن على رأسه الدينار وهو مقدار الضريبة فى اختلافه على بلادهم. وقال الإفرنج فى ذلك: إن هؤلاء المغاربة كانوا يختلفون على بلادنا ونسالمهم ولا نرزأهم، فلما تعرضوا لحربنا وألبوا مع إخوانهم المسلمين علينا وجب أن نضع هذه الضريبة عليهم وهذا أمر كان يسعد به المغاربة نكاية فى أعدائهم[٣].

ويصف ابن جبير كثرة الخانات والفنادق الخاصة التى أعدت للتجار المسلمين والإفرنج على السواء وكان لكل طرف خاناته الخاصة وفنادقه الخاصة، كما كان لكل طائفة تجارية قنصل يرعى مصالحها وكان يعرف فى بلاد الشام باسم شهبندر التجار، كما كانت توجد محاكم خاصة تفصل فى القضايا التى تنشب بين التجار الأجانب والتجار المسلمين أو بين التجار الأجانب وعمالهم من السكان المحليين.

---

(١) رحلة بن جبير ص٢٠١.

(٢) المصدر السابق ص٢١١.

(٣) المصدر السابق ص٢١٠.

ويشير ابن جبير إلى بعض الخلافات بين الجانبين بسبب سوء معاملة التجار الإيطاليين والإفرنج للعمال الموارنة والسريان واليعاقبة والبيزنطيين الروم والأقباط، لأن هذه الطبقات كانت تقوم بخدمات هؤلاء التجار ويؤدون الأعمال التى يتعالى الصليبيون عن أدائها، ويشير ابن جبير إلى طبقة الأرمن التى تميزت عن سائر طبقات الخدمة حيث نالوا الامتيازات من الصليبيين وجرت بينهم زيجات مشتركة، كما تولى بعضهم مناصب هامة فى الممالك الصليبية ولعلنا لا ننسى موقف الأرمن من مجئ الحملة الصليبية إذ كانوا يقدمون لهم الطعام والشراب ويدلوهم على الثغرات الضعيفة التى يمكنهم الهجوم منها، فقربهم الصليبيون وخصوهم ببعض المناصب[(١)]. ولضبط حركة التجارة وتوفير الأمن اللازم لها ظهرت محكمتان تفصل فى المنازعات التى تنشب بين التجار المسلمين والإفرنج: الأولى محكمة التجارة وتعرف باسم محكمة الفندق، والأخرى محكمة الملاحة أو محكمة السلسلة، وكانت المحكمتان مختلطتين مؤلفتين من أربعة سوريين واثنين من الإفرنج. وقد سمح الصليبيون للتجار المسلمين فى بلاد الشام أن يتعاملوا بالموازين والمكاييل المستعملة فى البلاد من قبل كما أنهم أبقوا على وظيفة المحتسب الإسلامية لأهميتها فى ضبط حركة التجارة اليومية، إذ يقوم المحتسب بمراقبة الأسواق ومنع الغش ومراقبة الموازين والمكاييل ومراقبة الباعة وأصحاب المهن، وكان هو المسئول العملى فى الإدارة المحلية الإسلامية. وكانت المعاملات بالنقود المتداولة فى الإمارات الصليبية وكانت العملة السائدة آنذاك هى الدينار الإسلامى وقد اشتهر منها الدينار الصورى الذى قام بسكه البنادقة فى مدينة صور، وانتشرت دور السكة فى عكا وطرابلس وأنطاكية. وكان الفرنج يقومون بسك النقود ولاسيما الدينار الإسلامى تقليدا للدينار الفاطمى، وقد كان للدينار الإسلامى قوته السياسية بالإضافة إلى قوته التجارية وكان منقوشا بالأحرف العربية مع الشعار النصرانى، ومن ثم حرص الإفرنج على تغيير العبارات والآيات القرآنية الواردة فيه وقد قام البابا أونست الرابع بإلغاء استخدام هذا الدينار ولكن تدخل لويس التاسع وتوصل

(١) العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب ص٢٢١.

إلى حل وسط وهو الإبقاء على هذا الدينار وقيمته الشرائية إلى جانب تغيير الآية القرآنية بعبارة مسيحية تكتب بالعربية حتى يقبل المسلمون على التعامل به، ولقد أصبح الإيطاليون من أصحاب أكبر البيوتات والمصارف المالية فى طرابلس وعكا، وقد ساعدهم على ذلك الصفقات التجارية بين أوروبا والشرق وإلى جانب الإيطاليين ظهرت فئات من التجار اليهود ساعدوا على تطور حركة التبادل التجارى وأوجدوا نظام الرهونات والشيكات والمعاملات التجارية المتنوعة وأنظمة من الأوراق المالية معترفًا بها فى بلاد الشام وأوروبا، وهكذا ازدهر النظام الاقتصادى إبان الحروب الصليبية كما وضحنا سابقا وإن كانت هناك بعض الحالات التى لم تتقدم اقتصاديًا فإنها حالات قليلة وفى أقاص بعيدة عن المدن وربما يرجع ذلك إلى قربها من الإمارات الصليبية فيحدث هجوم متكرر وإغارات كثيرة تتلف فيها المحاصيل أو تنفق فيها المواشى إلى غير ذلك.

٢- النتائج الثقافية والحضارية:

لقد امتدت الحروب الصليبية ما يقرب من قرنين وهى مدة كافية أن تتأثر الأطراف المحاربة بمؤثرات ثقافية، فقد تعلم كل منهما لغة الآخر، إذ تشير الروايات أن بعض الإفرنج تعلم اللغة العربية وأتقنها ثم استخدموها فى علاقاتهم مع بعض الممالك الإسلامية المحيطة بهم كما أن بعض المسلمين تعلموا اللغات الإفرنجية ومنها الفرنسية والألمانية والإيطالية فمثلا: الأصفهانى فى كتابه «فى الفتح القدسى» يستخدم بعض العبارات الأجنبية مثل «تركبولى، وسرجندى، وباورنى واسبتارى وفرارى. . . .» كما استخدم فى صفحات أخرى عبارة براكيس وهى مأخوذة من الكلمة الإيطالية barcoso ويعنى بها السفينة الحربية[١].

كما أن أسامة بن منقذ فى كتابه الاعتبار يذكر أن الإفرنج كانوا يستخدمونها ومنها كلمة سرجند فى قوله: «فحرد دنيكرى قال: أنتم فرسانى وكل واحد منكم له ديوان مثل ديوان مائة مسلم وهؤلاء «سرجند» ما تقدرون تقلعونهم من

(١) انظر العلاقات الحضارية ص٤٠٣- ٤٦٠.

موضعهم» ثم استخدمها ثانية عندما قال عن أحدهم: «فوقف وكان سرجنديا» ولما تحدث عن صاحب طرابلس وعن جنده استخدم أسامة كلمة تركبول "turcopole" وهم جند فى خدمة الإفرنج، آباؤهم من العرب أو الأتراك وأمهاتهم من اليونان أو بالعكس فقال: «إن صاحب طرابلس خرج فى ثلاثمائة فارس ومائتى تركبولى وهم رماة الإفرنج».

كما استعمل أسامة كلمة البرنس prince عندما تحدث عن «صاحب البيت المقدس بغدوين البرونس» واستعمل كلمة المدام والدام dame . madame فى قوله: «بحق دينك اعمل للداما... قل للداما أن تجئ...» كما استعمل كلمة الفيقونت viscount عندما تحدث عن محاكمات الإفرنج بقوله: «فجاء البسكند وهو شحنة البلد» بالإضافة إلى ذلك فقد استخدم أسامة بن منقذ فى كتابه عبارة برجوازى bourgeoisie فعندما حاولت إحدى النساء اتهام أسامة بقتل أخيها فما كان من أحد الإفرنج إلا أن دافع عن أسامة وقال للمرأة: «هذا رجل برجاسى لا يقاتل ولا يحضر القتال»، كما أن أسامة استخدم عدة تعابير يونانية مثل «سقلاطون» وتعنى الثياب الكتانية الموشاة «قنطارية» وتعنى الرمح، وكلمة زربول أو زربولة وتعنى الحذاء[1].

وانظر إلى رسالة الملك الظاهر بيبرس إلى بوهيمند الثالث أمير أنطاكية «٦٥٨-٦٧٦هـ» فقد استخدم كاتبه تعابير أجنبية لاتينية فى تلك الرسالة، ومن التعابير التى استخدمها «كنداستيل» وهو لفظ لاتينى ومعناه حاكم القلعة فى قوله: «وفى حال النزول خرجت عساكرك للمبادرة فكسروا، وتناصروا فما نصروا وأسر من بينهم كنداستيل». كما استخدم لفظ المرشان وهو لفظ لاتينى أيضا ويعنى الحفلات وكذلك اللفظ اللاتينى القستلان ويعنى حارس القصر وذلك فى قوله: «ففى بعض ساعة مرّ شأن المرشان وداخل الرهب الرهبان ولأن للبلاء القسطلان وجاءهم الموت من كل مكان»[2].

(١) انظر كتاب أسامة بن منقذ. كتاب الاعتبار ص٥١، ٦٧، ٧٥، ١١٩، ١٣٩، ١٤١ نقلا عن حسان حلاق ص٢٢٨.

(٢) المرجع السابق ص٢٢٨.

وكما تأثر أهل الشام باللغات الأجنبية التى استخدمها الصليبيون -على نحو ما وضحنا- فقد تأثر الفرنج هم أيضا باللغة العربية بل كان أشد وأشمل وأكثر اتساعا وذلك راجع إلى ارتباطهم بالمصالح التجارية والمصالح السياسية الذى دفعهم إلى تعلم اللغة العربية واستخدامها. وقد أشار بن جبير إلى معرفة الفرنج باللغة العربية واستخدامها ومثال ذلك عندما تحدث عن موظفى الديوان «الجمرك» فى عكا.

وكان بعض الملوك والأمراء الإفرنج يتقنون اللغة العربية مثل الأمير همفرى الرابع وكذلك بلدوين الإبلينى ونقولا العكاوى وكان هؤلاء عادة يقومون بالمفاوضات أو وسطاء ومترجمين بين المسلمين والصليبيين فى الهدن التى تبرم بينهما، وكان بعضهم كالملك بلدوين الثالث والملك إملريك الأول عاشقين للأدب العربى واللغة العربية والعلوم الإسلامية.

وقد كان للحروب الصليبية بين المسلمين والإفرنج أثر كبير فى إيجاد نخبة من المؤرخين الذين عاصروا تلك الحروب والذين كتبوا عنها من كل الزوايا السياسية أو الحربية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو العلمية، وكان لكل منهم وجهة نظر جديرة بالاحترام والدراسة، فمن المؤرخين الإفرنج فوشيه دو شارتر والمؤرخ غليوم «وليم الصورى» الذى ألف تاريخ ما وراء البحار وهو ٣٣ مجلدا تناول فيه الأحداث إلى ١١٨٣م، ويعد هذا الكتاب أهم مراجع التأريخ للحروب الصليبية. وقد ألف غليوم الصورى كتابًا عن تاريخ الأمراء المسلمين منذ ظهور محمد ﷺ سمّاه «الأمراء المسلمون منذ ظهور النبى» وكذلك من المؤرخين الإفرنج المعاصرين للحروب الصليبية غليوم الطرابلسى الذى كتب فى تاريخ تلك الحروب وترك كتابا وقد ظهر مؤرخون كثر من الإنجليز والفرنسيين كما ظهرت قصائد حول الحروب الصليبية بعنوان «تاريخ الحروب المقدسة» وتقريرات ومذكرات للجند ويوميات إلى غير ذلك من أعمال شاهدة ومعاصرة للحروب الصليبية[1].

(١) للاستزادة يرجع إلى كتاب حسان حلاق. العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب ص٢٣١.

ولم يقتصر التـأريخ للحروب الصليبية على المؤرخين الإفـرنج إنما ظهرت نخبة عظيمـة من المؤرخين المسلـمين أرخوا لتلك الحـرب أمثـال أسامة بن مـنقذ، ابن جبيـر، ابن الأثير، ابن شداد، ابن واصل، ابن الفرات، ابن العمـيد القبطى، ابن عساكر، أبو شامـة القلقشندى، والمقريزى وغيرهم كثيرون، وقـد ظهرت موسوعة علمية لمؤرخى الحروب الصليبية تحت عنوان «مجـموعة مؤرخى الحروب الصليبية» وتنقسم الموسوعة إلى مجموعتين الأولى مـكونة من خمسة مجلدات تضم ما كتبه المؤرخون الشرقيون، والمجموعة الثانية وهى مكونة من خمسة مجلدات أيضا تضم ما كتبه المؤرخون الغربيون، وقد كتب عن ذلك بتوسع الدكتور جمال الدين الشيال فى كتابه التاريخ الإسلامى وأثره فى الفكر التاريخى الأوروبى، ومن المواد العلمية التى تأثر بها الإفرنج ونقلوها إلى بلادهم فى وقت كانت بلادهم تغرق فى ظلمات الجـهل إذ أدخلوا هذه العـلوم وكـانت هى الجـسـور الأولى للنهـضـة الأوروبيـة المعاصرة، ومن هذه العلوم «العلوم الرياضية، التى انتشرت فى المشرق الإسلامى، وقد تأثرت بها أوروبا بجانب العلوم التى تأثرت بها من أسبانيا، كما تأثر الإفرنج بالمؤثرات الأدبيـة من قصائد جـديدة عالجت الحـروب الصليبـية وكالروايـة كالتى اشتهرت بها قصيدة أديرواز التى تروى تاريخ الحملة الصليـبية الثالثة، ومثل قصيدة أنطاكية وإلى غير ذلك من مواد ساهمت فى تكوين الفكر الصليبى بطريقة جديدة.

ويذكر المؤرخـون أن تلك الفترة قـد شهدت مـدارس مختلـطة ضمت أبناء من المسلمين والصليـبيين ومن المولدين أيـضا، وقد نتج عن هذا التـعليم المختلط أنهم نشطوا فى نقل التراثين الشرقى والغربى وتأثر كل منهـما بالآخر بالإضافة إلى تأثر كل منهما بأساليـب الحياة السائدة آنذاك سواء فى المجال الاجتـماعى والسياسى أو فى مجالات الحياة العـملية، كما شهدت فترة الحروب الصـليبية تنوعًا فى المدارس سواء فى البلدان العـربية الإسلامـية أو لدى الإفرنج منهـا مدارس لتدريس الفـقه الإسـلامى، ومدارس خـاصة للـطب، وكان الطب يدرس بجـانب مـواد علميـة أخـرى. ومن أمثـال هذه المدارس: المدرسة النوريـة التى أنشاها الملك العـادل نور الدين مـحـمود زنكى، ومن المدارس الـشامـيـة التى نشأت فـى دمشق مـدارس

الصادرية، النورية الكبرى، العزيزية، القليجية، الأمينية العادلية، الشامية إلى غير ذلك من مدارس عديدة ذات قيمة كبرى وسمعة عظيمة.

كما كثرت مدارس الطب ووُقف عليها ضياع كثيرة وكان من دارسيها عبد الرحيم الدخوار الذى صنف كتبا عدة فى الصناعة الطبية، كما أشار ابن جبير إلى مدارس عدة فى حلب وحماة وحمص والقدس، وقد زار بن جبير بعض هذه المدارس وتحدث عنها فقال فى وصف مدارس حلب: «مدرسة للحنفية تناسب الجامع حسنًا، وهذه المدرسة من أحفل ما شاهدناه من المدارس بناء وغرابة صنعة... وللبلدة سوى هذه المدرسة نحو أربع أو خمس ولها مارستان...»[1].

فلا غرو إذن بعد ذاك أن تشهد المنطقة فى عصر الحروب الصليبية ولاسيما فى فترة السلام وجود كثير من العلماء ليس فى مجال الفقه والحديث والتاريخ والجغرافيا فحسب وإنما أيضا فى مجالات الرياضيات والفلك والكيمياء وبقية العلوم.

وقد تأثر الفرنجة بالطب العربى وهذا راجع إلى تطور الطب المشرقى فقد رأى هؤلاء الإفرنج طبًا متطورًا فى الشام بينما كان هؤلاء الفرنج يرزحون فى بلادهم تحت قيود العادات والمعالجات الخرافية التى تنم عن جهل كبير. وقد أكد أسامة بن منقذ المؤرخ لهذه الفترة فى كتابه «ملامح وشواهد من الطب العربى والطب الإفرنجى» وما قاله عن الطب الإفرنجى: «ومن عجيب طبهم أن صاحب المليطره كتب إلى عمه يطلب منه إنفاذ طبيب يداوى مرضى من أصحابه فأرسل إليه طبيبًا نصرانيا يقال له ثابت، فما غاب عشرة أيام حتى عاد فقلنا له: «ما أسرع ما دوايت المرضى قال: أحضروا عندى فارسا قد طلع فى رجله دمله وامرأة قد لحقها نشاف، فعملت للفارس لبيخه ففتحت الدملة وصلحت. وحميت المرأة ورطبت مزاجها. فجاءهم طبيب إفرنجى فقال له: هذا ما يعرف شيئًا يداويهم، وقال للفارس: أيما أحب إليك تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين؟ قال: أعيش برجل واحدة.

(١) دكتور حسان حلاق ٢٣٥.

قال: أحضروا لى فارسًا قويًا وفأسًا قاطعًا، فحضر الفارس والفأس وأنا حاضر فحط ساقه على قرمة خشب وقال للفارس: اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة «اقطعها» فضربه وأنا أراه ضربة واحدة فانقطعت، فضربه ضربه ثانية فسال مخ الساق ومات من ساعته. وأبصر المرأة فقال: هذه المرأة فى رأسها شيطان قد عشقها احلقوا شعرها فحلقوه وعادت تأكل من مأكلهم الثوم والخردل فزاد بها النشاف فقال: الشيطان دخل فى رأسها فأخذ الموسى وشق رأسها صليبا وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح فماتت فى وقتها. فقلت لهم: بقى لكم إلىّ حاجة؟ قالوا: لا. فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه[1].

ويشير أسامة بن منقذ إلى تأخر الطب الإفرنجى فى أول الأمر ولكنهم بعد مدة تعلموا من الطب الإسلامى ما يدل على تقدمهم فى الطب وحكى حكاية عن ملك من ملوكهم يقال له: برناد رمحه حصان فى ساقه فعملت عليه رجله وفتحت فى أربعة عشر موضعًا والجراح كلما كتم موضعًا فُتح موضع آخر، وجاء طبيب أفرنجى فأزال عنه تلك المراهم التى وضعها أطباء آخرون وجعل يغسلها بالخل الحادق فكتمت تلك الجراح وبرأ وقام مثل الشيطان معافى[2]. وهكذا نلاحظ من خلال ما أورده أسامة بن منقذ أن العلاقات العلمية والطبية كانت قائمة فى بلاد الشام بين الإفرنج والعرب المسلمين، وأن المؤثرات المتبادلة بين الطرفين قد ظهرت من خلال حاجات السكان إلى أطباء من العرب أو الإفرنج. والطب الإفرنجى بصورة عامة لم يكن طبًا متطورًا أو ناجحًا إلا أن الكثيرين من الأطباء الإفرنج قد تأثروا بالطب العربى وبالوصفات والكتب الطبية العربية التى درسوها ومنها على سبيل المثال كتاب المالكى لعلى بن عباس الذى ترجمه استيفن البزوى فى أنطاكية سنة ١١٢٧م إلى اللغة اللاتينية، وكتاب آخر هو سر الأسرار الباحث فى طب العيون والمنسوب لأرسطو حيث ترجم من العربية إلى اللاتينية فى أنطاكية سنة ١٢٤٧م وقد تحدث ابن جبير الرحالة آنذاك عن مدارس دمشق وبيمارستاناتها،

(١) كتاب الأخبار. أسامة بن منقذ ص١٣٧ : ١٣٨.

(٢) المصدر السابق ص١٣٤.

وقد بين مظاهر تقدم الطب العربى وتحدث عن أحد هذه البيمارستانات وكيفية معالجة المرضى فيه ومعاينة الأطباء ومداواتهم، كما كان هناك بيمارستانات خاصة بالمجانين وقد أشار إلى نظام العمل فى البيمارستانات الدمشقية حيث توجد قوائم تحتوى على أسماء المرضى وعلى النفقات التى يحتاجون إليها فى الأدوية والأغذية وغير ذلك، والأطباء فى كل يوم يتفقدون المرضى ويأمرون بإعداد ما يصلح لهم من الأدوية والأغذية[١] حسب ما يليق لكل إنسان، وللمجانين المعتقلين أيضا ضرب من العلاج وهم فى سلاسل موثقون، ويذكر أن كل مجنون يخص به خادمان يخدمانه فينزعان عنه ثيابه كل صباح ويحميانه بالماء البارد ثم يلبسونه ثيابًا نظيفة ويحملانه على أداء الصلاة ويسمعانه قراءة القرآن يقرؤه قارئ حسن الصوت ثم يفسحانه فى الهواء الطلق ويسمع أخيرًا الأصوات الجميلة والنغمات الموسيقية الطيبة[٢].

٣- النتائج العسكرية والحربية:

مما لا شك فيه أن فترة الصراع الحربى التى خاضها المسلمون والصليبيون قد أدت بالضرورة إلى علاقات ومؤثرات حربية ظهرت واضحة لدى الطرفين إذ تأثر كل منهما بالآخر فى مجال العمارة الحربية وأنظمة الدفاع الثابتة وكذلك أنظمة التسليح وإلى غير ذلك من مؤثرات.

وكانت بلاد الشام قبل مجئ الحملات الصليبية تغص بالمنشآت المعمارية والحصون والقلاع والمساجد والحمامات والخانات إلى غير ذلك من منشآت متطورة قبل مجئ الإفرنج إلى تلك البلاد، ويشهد بذلك المقدسى فى كتابه «أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم»، فقد تحدث عن العمارة فى عكا وصور وغيرهما مما يدل على تفوق فنون العمارة المدنية والحربية وكذلك ابن حوقل فى كتابه «صورة الأرض» وقد أشار إلى ذلك أيضا ابن جبير المعاصر للحروب الصليبية ومما قاله عن بلاد الشام على سبيل المثال: «فقد وصل مدينة حمص قائلا: وأسوار هذه المدينة

(١) الرحلة ص١٩٨.

(٢) انظر الدكتور حسان حلاق. مرجع سابق ص٢٣٩.

في غاية العتاقة والوثاقة، مرصوص بناؤها بالحجارة الصم السود، وأبوابها أبواب حديدية سامية الأشراف هائلة المنظر.. تكتنفها الأبواب المشيدة الحصينة»[١] ثم يتحدث عن عمائر دمشق ومدارسها ومارستاناتها وهذه المارستانات مفخرة عظيم من مفاخر الإسلام... وأما الرباطات التي يسمونها الخوانق فكثيرة وهي قصور مزخرفة يطرد في جميعها الماء على أحسن منظر يبصر.. وأسواق هذه البلدة من أحفل أسواق البلاد ولاسيما قيساريتها وهي مرتفعات كأنها الفناديق[٢]. ولما جاء الصليبيون إلى بلاد الشام ومكثوا بها ما يقارب من مائتي عام كان من الطبيعي أن يتأثروا بالعمارة الإسلامية سواء المدنية أو الحربية، فقد ارتاحوا لبيوت وقصور الأمراء من الطراز العربي الإسلامي الذي جاء منسجمًا مع ظروف البلاد ومناخها وطبيعتها فنراهم يقيمون دورًا وقصورًا على النمط العربي فيوجد الفناء والإيوان الفسيح وتحيط بها الغرف والقاعات وتتوسطها النافورة، كما تأثروا بالزخرفة المنزلية فنقشوا الجدران والسقوف وزينوها بالرخام والفسيفساء وموهوها بالذهب هذا بالإضافة إلى ظهور أشكال التوريقات والتكوينات الهندسية التي تعرف بالأرابيسك وافترشوا تلك الأبنية بالأثاث العربي من سجاد وأوان نحاسية وزجاجية وخزفية، هذا من ناحية العمارة المدنية.

أما العمارة الحربية فقد تأثر الصليبيون بالعمارة الإسلامية من قلاع وأسوار ومدن للحراسة، وهذا أمر طبيعي دفعهم إليه الدفاع عن أنفسهم فقاموا بإصلاح بعض العمائر مثل أسوار بيت المقدس التي سبق أن شيدها الفاطميون وكذلك برج داود الذي أدخلوا عليه بعض التعديلات، ومن القلاع التي أقاموها قلعة ريموند كونت تولوز عند جبل الحاج سنة ١١٠٤م والتي اتخذها مقرا لقيادته في طرابلس الإسلامية ثم قلاع طبرية وتبنين. وفي عهد بلدوين الثاني أقيمت الحصون الضخمة والقلاع مثل قلاع موآب وهنين وصهيون ويهودا والصافية. كما تأثر الصليبيون بالعمارة الحربية الإسلامية التي تأثر بها المسلمون من العمارة البيزنطية، وقد

(١) الرحلة ص١٨٢، ٢٠٢.

(٢) المرجع السابق.

تطورت تلك العمارة العربية البيزنطية عبر مراحل عديدة، ومن هنا ظهرت عمارة فائقة فى شكلها وجديتها، فأخذ منها الصليبيون عند استقرارهم فى الشرق وأضافوا إليها بعض الملامح المعمارية الخاصة بهم وقد اقتبست العمارة الصليبية الكثير من العمارة الحربية العربية التى تميزت بعقودها الدائرية التى تختلف عن العقود الرومانية النصف دائرية، ومن العقود الإسلامية التى اقتبسوها العقد المنفرد والعقد المدبب والعقد المطول والمنفرج والمنبعج، والخطوط الهندسية الإسلامية واقتبسوا أيضا الدلايات والمقرنسات والصنج المعشقة والمكعبات والمضلعات والنقوش على الجص بواسطة الحفر أو الصب والنحت والزخرفة على الأحجار.

هذا كما أن المؤثرات المعمارية الإسلامية انعكست على الحصون والقلاع والمبانى الصليبية التى أقيمت فى الشام ثم انتقلت إلى الغرب الأوروبى، ويشير الدكتور أحمد مختار العبادى إلى بعض من هذه الاقتباسات، ومنها الشرفات البارزة أو السقاطات، وكانت هذه الشرفات قد استعملت فى قصر الحيرة الشرقى فى بلاد الشام سنة ١١٠هـ ثم ظهرت فى مصر ثم كثر استعمالها فى الحصون الشامية فى العصر الأيوبى، ومنها انتقلت إلى أوروبا عن طريق الصليبيين الذين عاشوا فى الشام وتأثروا بالعمارة الإسلامية، وقد ظهر مدى تأثر الغرب بذلك فى فرنسا فى قصر جايار وفى إنجلترا، وما لبثت هذه الأنواع من الشرفات أن انتشرت بكثرة فى أوروبا وكانت هذه الشرفات أو السقاطات فى أول الأمر شرفة صغيرة من الحجارة أو الخشب تبرز عن الجدار ولها فتحات من أسفل، وتقام عادة فوق أسوار الحصن وفى أعلى مداخله، ويقوم الجنود بإلقاء المقذوفات أو السوائل الكيميائية أو الزيتية الحارة على المهاجمين من خلال هذه الفتحات.

ومن أمثلة التأثر أيضا المداخل ذات المرافق المتعددة الذى تكثر فيه المنحنيات والمنعطفات والهدف منها هو إحكام إمكانيات الدفاع وذلك بالتحكم فى العدو المهاجم من باب الحصن عبر هذه الممرات الضيقة الطويلة، وقد ظهر هذا النوع من المرافق فى فن العمارة الحربية عند الصليبيين إذ طبقوه على القلاع التى أقاموها فى

بلاد الشام مثل حصن الأكراد الواقع شمال شرق طرابلس، ومن أمثلة تأثر الصليبيين بالعمارة الصليبية تأثرهم بالمقرنصات، وهذه المقرنصات عبارة عن طبقات مصفوفة بدقة فنية تلزم عند بناء القباب والمآذن، وقد تأثر بها الصليبيون فى بناء قلاعهم وحصونهم وكنائسهم.

والمتراس أحد الأنظمة فى العمارة الحربية التى تأثر بها الصليبيون أيضا وهو عبارة عن إطار من الحديد مدبب الأطراف من أسفله وهو ينزلق عموديا على جانبى باب الحصن كالشبكة، ويسدل بواسطة سلاسل حديدية أو حبال متينة عند محاولة العدو اقتحام القلعة.

كما تأثر الصليبيون بما يسمى بالبربقان وهذه كلمة تطلق على البرج الكبير الذى يبنى على مسافة من باب الحصن أو قنطرته المقامة فوق الخندق الملئ بالماء والمحيط بالحصن، وقد تأثر الصليبيون بهذا النظام فطبقوه على قلاعهم فى بلاد الشام ثم انتقل بعد ذلك إلى أوروبا[(١)].

٤- النتائج الاجتماعية:

عاشت المجتمعات فى بلاد الشام إبان العصور الصليبية ١٠٩٨-١٢٩١م مجتمعات مختلطة من عدة أجناس وقوميات وأديان ولغات؛ إذ ضم الفرنسيين والإنجليزيين والإيطاليين والألمانيين إلى جانب المجتمعات العربية والتركية والأرمنية مع وجود الديانات الثلاثة الإسلامية والنصرانية واليهودية، وعلى الرغم من هذا التباين والتفاوت بين هذه الأنظمة الاجتماعية فإنها تبدو حينًا منسجمة متأثرة بعضها بالبعض وخاصة وقت السلم، وقد بدا الانسجام واضحًا وقد عبر عن ذلك أحد المؤرخين عن امتزاج مجتمعاتهم الغربية بالمجتمع الشرقى: «واحسرتاه نحن قد تحولنا إلى شرقيين، فمن كان منا إيطاليا أو فرنسيا فى الأمس قد أصبح اليوم فى وطنه الجديد جليليا أو فلسطينيا، وكذلك قد غدا ابن مدينة ريمس أو شارترز صوريا أو أنطاكيا فقد نسى كل منا وطنه الأول ولم يعد أحد يتكلم عنه»[(٢)].

---

(١) انظر أحمد مختار العبادى- العلاقات بين الشرق والغرب من ص١٠٩، ١١٠ وما بعدهما.

(٢) دكتور حسان حلاق. مرجع سابق ص١٩١.

وكذلك فـإن المجتمع الشامى أصـبح مجتمـعًا مختلطًا أيضًـا إذ تم التزاوج بين المجتمعـات الصليبية والعربية إذ أقـبل الصليبيون نظرا لقلة عدد النسـاء الإفرنجيات اللاتى صحبن المقـاتلين على الزواج من المسيحيـات من الموارنة والأرمن والسريان وبعض المسلمات الأسـيرات اللائى تنصـرن، كما أقبل المـسلمون على الزواج من الأسيرات الإفرنجيات أو اللائى ولدن من الزواج الصليبى بنساء شرقيات، وقد نشأ عن هذه الزيجات جيل يـسمى بالمولدين غلبت عليهم طبائع وعـادات الشرق منها الغيـرة على زوجاتهم، وهذه العـادة غيـر موجودة عنـد الغربيين، وقـد استـعان الصليبـيون بهؤلاء المولدين من الموارنـة والأرمن والسريان فى تشكيل فرق الخـيالة الخفيفة المعروفة باسم «تركبول»[١].

وقد تـأثر المسلمون بملابس الإفـرنج فأخـذوا عنهم لبس الخاتم عند الخطـبة أو الزواج كما لبس الصليبـيون الملابس الشرقية واسعة الأكـمام زاهية الألوان الموشاة بالحـرائر والتطاريز، وجلسـوا على الزرابى «الوسـائد» وأكلوا الأطعمـة الشـرقيـة واستخدموا البهارات كما استخـدموا الآلات الموسيقية العربية مثل الأرغن والعود، وكان بوغدوين الـرهاوى ملك بيت المقدس قد بدل ثيابه الإفـرنجية بأخرى شـرقية وتناول طعامه متربعًا على الأرض. وقد أشـار الرحالة ابن جبير إلى بعض جوانب الحياة الاجتماعية ووضع النصرانية ومشاركة المسلمين المسيحيين أفراحهم من خلال وصفه لاحتفال زفاف عروس فى مدينة صـور فى فترة حكم الصليبيين وقد احتفل بذلك جميع النصارى رجالا ونساء بطريقة عجيبة أثارت الشرقيين[٢].

ويروى أسامة بن منقذ حادثة تروى عدم غيـرة الصليبيين على نسائهم قد جرت فى نابلس لرجل إفرنجى يبيع الخـمر وجد مع زوجته فى الفراش رجلا غـريبا فقال له: أى شىء أدخلك عند امرأتى؟ قال: كنت تعبـان دخلت أستريح. قال: فكيف دخلت إلى فـراشى؟ قال: وجدت فـراشًا مفـروشًا نمت فـيه. قال: والمـرأة نائمة معك؟ قال: الفراش لها كنت أقدر أمنعها من فراشها؟ وقال: وحق دينى إن عدت

(١) انظر سعيد عاشور. بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ص٢١- ١٥٣.

(٢) انظر ابن جبير الرحلة ص٢١٣.

فعلت كذا تخاصمت أنا وأنت. وقد علق أسامة بن منقذ على ذلك بقوله: فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته. وذكر عدة أمثلة أخرى منها إدخال رجل إفرنجى ابنته الصبية معه إلى حمام الرجال فى مدينة صور بهدف الاستحمام، ومنها أيضا طلب زوج فرنجى من رجل يعمل فى حمام بأن يحلق عانة زوجته فاستلقت على ظهرها وقال: اعمل كما عملت بى، فحلقت ذلك الشعر وزوجها قاعد ينتظرنى -كما يحكى الحمامى- فشكرنى ووهبنى حق خدمتى. ويعلق أسامة بن منقذ على ذلك بقوله: فانظروا إلى هذا الاختلاف العظيم، ما فيهم غيرة ولا نخوة وفيهم الشجاعة العظيمة وما تكون الشجاعة إلا من النخوة والأنفة من سوء الأحدوثة[١].

ويلاحظ أن سوء الأخلاق تلك قد انتقلت إلى أهالى عكا فكانت تلك المدينة فى عهد الصليبيين قد اكتظت ببنات الهوى اللائى يجنين أرباحًا لما يلقينه من حظوة عند الرجال، ويروى «جام جوفترى» هذا الواقع بقوله: نرى الرجال فيها يغتالون نساءهم والزوجات يسمعن رجالهن فى سبيل عشاقهن، فلا غرابة أن تختص عكا ببيع السموم والعقاقير المسممة، ويذكر شهاب الدينى المقدسى فى كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين بأنه وصلت سنة ١١٩٠م فى مركب ثلاثمائة امرأة إفرنجية مستحسنة اجتمعن من الجزر واغتربن لإسعاف الغرباء وقصدن بخروجهن تسبيل أنفسهن للأشقياء وأنهن لا يتقربن بأفضل من هذا القربان، وزعمن أن هذه قربى ما فوقها قربى ولاسيما فيمن اجتمعت فيه غربة وعزبة[٢].

وتورد الروايات مدى تأثر الإفرنج بعادات وتقاليد وعقائد المسلمين فتذكر الروايات أن بعضًا من الصليبيين بدأ يكره أكل لحم الخنزير تأثرا بالمسلمين، كما كان الإفرنج والمسلمون يقومون برحلات صيد مشتركة ويقومون أحيانا ببعض الرياضات وسباقات الخيل واللعب بالرماح، وكانت الهوايات الشائعة صيد الطيور والأسماك والغزلان والضياع والوحوش. وقد أفرد أسامة بن منقذ فصلا خاصا عن تلك الهوايات[١]، وكانت هذه الرحلات قد أدت إلى إقامة صداقات بين الحجاج

(١) انظر كتاب الاعتبار لأسامة ابن منقذ ص١٣٧.

(٢) انظر دكتور حسان حلاق. مرجع سابق ص١٩٦.

المسيحيين والإفرنج وبين القائمين فى البلاد أثرت على كلا الطرفين فى السلم والحرب، فقد روى لما طال القتال بين الطائفتين حول عكا أنس البعض بالبعض بحيث إن الطائفتين كانتا تتحدثان وتتركان القتال، وربما غنى البعض ورقص البعض لطول المعاشرة ثم يرجعون إلى القتال بعد ساعة. وسئموا يومًا وقالوا: كم يتقاتل الكبار وليس للصغار حظ؟ نريد أن يصطرع صبيان. صبى منا وصبى منكم فأخرج صبيان من البلد إلى صبيين من الفرنج فوثب أحد الصبيين المسلمين على أحد الصبيين الكافرين فاحتضنه وضرب به الأرض وأخذه أسيرًا فاشتراه منه بعض الفرنج بدينارين وقالوا: «هو أسيرك حقاً فخذ الدينارين وأطلقه»(٢).

وعن العلاقات الجيدة المشتركة بين المسلمين والإفرنج فى منطقة هونين وبانياس، قال ابن جبير: «وعمالة تلك البطحاء بين الإفرنج وبين المسلمين لهم فى ذلك حد يعرف بحد المقاسمة، فهم يتشاطرون الغلة على استواء، ومواشيهم مختلطة، ولا حيف يجرى بينهم فيها» ولما تحدث ابن جبير عن تبنين قال: «سكانها كلها مسلمون وهم مع الإفرنج على حالة ترفيه، وذلك أنهم يؤدون لهم نصف الغلة عند أوان ضمها، وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط ولا يعترضونهم فى غير ذلك، ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها» كما تحدث ابن جبير عن مشاركة المسلمين للنصارى فى أفراحهم واحتفالاتهم وأشارت الروايات العربية أيضا إلى دخول بعض الإفرنج فى الدين الإسلامى كما دخل بعض المغاربة المسلمين فى بلاد الشام فى الدين المسيحى(٣).

وكما كانت العلاقات الاجتماعية تتسم بالتسامح فى بعض الأحيان كانت

(١) يمكن الرجوع إليها ص١٩١- ١٢٦.

(٢) ذكر ذلك أبو شامة فى كتاب الروضتين لأخبار الدولتين النورية والصلاحية نقلا عن المصدر السابق ص١٩٨.

(٣) نلاحظ من كلام ابن جبير فى سياق حديثه عن العلاقات بين المسلمين والنصارى فى مدينة تبنين مدى التسامح فى المعاملات اليومية والحياتية وإن كان لا يجوز للمسلم أن يدفع لحاكمه الكافر جزية، فقد انعكس الوضع وهذا راجع إلى ضعف المسلمين وانكسار شوكتهم آنذاك -أما عن التسامح فى تبادل العقائد فدخول المسيحى فى الإسلام يعد من أعظم دلائل التسامح وحرية المعتقد من جانب المسلمين إذ دخل فى الإسلام دون إجبار أو ضغط حيث تأثر بمعاملات المسلمين معه ووجد روح التسامح والحرية والمساواة فى الإسلام فبادر بالدخول فيه- أما دخول المغاربة فى النصرانية فهذا يعد ردة وليس فيها تسامح وربما يكون هنا المرتد قد أغرى بالتنصر فتنصر وهو جاهل لا يدرك خطورة تصرفه.

تشوبهـا السلبيـات فى أحيان أخـرى لاسيمـا فى فترة التـوتر والصراع السـياسى والعسكـرى حيث كان يضطـهد المسلمون مـن قبل الإفرنج ويتـعرضـون للمشـقة والأهوال والذلة والمسكنة على حـد قول ابن جـبير، وكـان المسلمون يعـانون من الفرنج ويسمعون منهم السباب والشتائم ضدهم وضد نبيهم نبى الإسلام، ولا يقع هذا إلا من أراذلهم وأسافلهم. ومن أمثلة الفظائع التى كان يعانيها أسرى المسلمين أنهم كانوا يرسفون فى القـيود ويؤمرون بالخدمة الشاقة كـما بلغت القوة مداها مع العبـيد والأسيرات المسلمـات على وجه الخصـوص، فقد كان يُدق فى أسـواقهن خلاخيل الحـديد. وهذا يتناقض مع اكرام الأسير فى ظل الإسـلام حيث يقول الله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨] فتنفطر لهم الأفئـدة ولا يغنى الإشفاق عنهم شـيئًا، ولكن هذه الأوضاع الحـقيقيـة كانت تتبدل فى فترات السلم لأن طبيعة العلاقات الاجتماعية تحتم قيام تعاون بين الجانبين الصليبى والإسلامى رغم العداء بينهما.



الفصل الرابع:

القدس فى التخطيط الصهيونى

أولاً: النوايا الصهيونية تجاه احتلال القدس والحرم الشريف

ثانيًا: عوامل ساعدت اليهود على اغتصاب القدس

ثالثًا: أساطير وخرافات ضللت الشعوب

رابعًا: القدس عربية لحمًا ودمًا وستبقى إسلامية

أولا: النوايا الصهيونية تجاه احتلال القدس والحرم الشريف

١- مؤتمر بازل وموقف السلطان عبد الحميد:

لقد بدأت فكرة إقامة دولة يهودية فى عام ١٨٨٥م حين وضع هرتزل كتابه «دولة اليهود فى فيينا» وهو مشروع عصرى للمسألة اليهودية حيث أعلن هرتزل أن المسألة اليهودية ينبغى أن تكون قضية قومية وليست قضية اجتماعية أو دينية ولكى يوضع حل لها ينبغى أن ينظر إليها على أنها قضية سياسية عالمية بحيث تكون فى حاجة إلى تداولها وإظهارها فى مجلس يمثل الشعوب المتطورة، ومن أقواله: وإذا كنا نحن اليهود ليس شعبا فالعدو رغمًا عنه جعل منا شعبا كما حدث دائما فى التاريخ، إننا نقف فى الضراء وحدنا نكتشف قوتنا فجأة، لدينا بالطبع القوة لبناء دولة ودولة مثالية، ولدينا كل الضروريات اللازمة لذلك، ومن أجل إقامة تلك الدولة، دعا هرتزل إلى إنشاء مؤسستين[1]: الأولى «جمعية اليهود» والثانية «الشركة اليهودية» فكل ما تقرره جمعية اليهود علميًا وسياسيًا، تنفذه الشركة اليهودية عمليًا، فجمعية اليهود هى حركة اليهود النامية، ولها مهام علمية وسياسية وينبغى علينا الحصول على اعتراف أكبر عدد من اليهود ومن الدول المستقلة كسلطة لإقامة دولة، وإن كانت تلك الدولة قد خُططت لها مؤسساتها الرئيسية قبيل إقامتها. فإن هدف جمعية اليهود سالفة الذكر قد حُدد وهو الحصول على السيادة على البلد الذى ستقام فيه دولة اليهود. وبعد ذلك تم إرسال ممثلى الجمعية والشركة ثم الشركات المحلية لدراسة إمكانات البلاد التى تقام فيها دولة اليهود من حيث الإمكانات الطبيعية والاقتصادية ثم يجرى بعد ذلك تخطيط طرق استغلالها واستيطان اليهود فيها، أما دور الشركة اليهودية فيجب أن تقام على غرار شركات الأراضى الكبرى أو شركة يهودية ذات امتياز.

(١) فتحى يكن. القضية الفلسطينية من منظور إسلامى. مؤسسة الرسالة ص٢١.



وقد أفضت الجهود الدائبة على اختيار فلسطين كوطن قومى لليهود وقد سلكوا فى سبيل ذلك كل السبل، ولم يبق أمامهم إلا هدف واحد هو الحصول على امتياز من الحكومة التركية يسمح لهم بالاستيطان بفلسطين، والحق يقال: إن الخليفة العثمانى السلطان عبد الحميد الثانى رفض العروض التى قدمتها اليهود رفضًا تامًا وبكل قوة، وحاول هرتزل أن يغريه بالمال لحل أزمته المالية الحادة التى كانت البلاد تعانيها آنذاك بأن يقدم له خمسين مليون جنيه ذهبًا ولكنه رفض ذلك كله قائلا: «إنى لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من الأرض فهى ليست ملك يمينى بل ملك شعبى لقد ناضل شعبى فى سبيل هذه الأرض ورواها بدمه»[1].

وقد عقد المؤتمر الصهيونى الأول فى مدينة بازل بسويسرا فى ٢٩ أغسطس سنة ١٨٩٧م بحضور ٢٠٤ مندوبين يمثل جزء منهم ١١٧ جمعية صهيونية، وحضر مندوبون من روسيا وأمريكا والدول الإسكندنافية، وبعد إلقاء الخطب والمحاضرات وتقديم التقارير قدم مشروع قرار يحدد أهداف الحركة الصهيونية طالبًا من المؤتمر اعتماده، وبعد نقاش أقر المؤتمر أهداف الصهيونية المعروفة باسم برنامج بازل على النحو التالى:

«تسعى الصهيونية إلى إقامة وطن لليهود فى أرض إسرائيل يعترف به وفقا للقانون العام.

ولتحقيق هذا الهدف يتخذ المؤتمر الإجراءات التالية:

١- تطوير أرض إسرائيل بشكل منظم بواسطة توطينها باليهود المزارعين والحرفيين والمهنيين.

٢- تنظيم اليهود بأسرهم وتجميعهم بواسطة مشاريع مفيدة، محلية وعامة، بحسب قوانين كل بلد.

٣- تقوية الشعور القومى اليهودى والهوية القومية اليهودية.

---

(١) القضية الفلسطينية من منظور إسلامى ص٢٣.

٤- القيام بأعمال تحضيرية للحصول على موافقة الحكومات، حيث ينبغى الحصول عليها لتحقيق هدف الصهيونية.

بعد إقرار برنامج الصهيونية اتجه المؤتمر إلى وضع الأطر التنظيمية للحركة الصهيونية: ألقى الدكتور ماكس بودنهايمر محاضرة، ضمنها اقتراحاته بشأن الأسس التنظيمية للحركة معلنًا أن تشتت اليهود فى كل أنحاء العالم هو الذى يمنعهم من التطور فى قالب قومى. ولهذا ينبغى لهم إقامة منظمة تستطيع التغلب على هذه الموانع شرط أن تكون منظمة عامة شاملة تضم صهيونيى كل البلدان فى إطار واحد، مع برنامج خاص لكل بلد فيه تجمع صهيونى، وهذا الهدف يمكن تحقيقه دون التدخل فى الأوضاع السياسية الداخلية للدول المعنية، لأن الهدف الرئيسى للمنظمة، فى كل بلد، هو نشر مبادئنا بين جماهير الشعب اليهودى وكسب أعضاء جدد... الأمر الذى يمكن من تنفيذ برنامجنا». وأعلن بودنهايمر عن تحفظه على اقتراح قد تقدم به البروفسور هرمان شابيرا، أستاذ الرياضيات فى جامعة هايدلبرغ بألمانيا وعضو المؤتمر يدعو فيه إلى تأسيس صندوق لشراء الأراضى فى فلسطين، ولكن المؤتمر الصهيونى الثانى عاد وتبنى ذلك الاقتراح. وبعد مناقشة اقتراحات بودنهايمر، شكلت لجنة تحضيرية من ١٠ أعضاء ممثلين عن صهيونيى كل من روسيا والنمسا وألمانيا، وممثل عن صهيونيى كل من رومانيا وبلغاريا وأمريكا وبريطانيا.

وفى اليوم الثانى، قدمت اللجنة التحضيرية نتائج مداولاتها بشأن إقامة «منظمة صهيونية عالمية» ومشروع لوائحها التنظيمية، فأقرها المؤتمر على النحو التالى:

أ- المؤتمر الصهيونى هو تنظيم الصهيونيين الرئيسى.

ب- كل صهيونى يريد أن يكون صاحب حق انتخاب للمؤتمر، عليه أن يدفع كل سنة بإرادته لأهداف صهيونية مبلغ شيكل واحد على الأقل «والشيكل اسم لعملة يهودية قديمة «وعندما اعتمده المؤتمر الصهيونى كوحدة لدفع رسوم العضوية فى المنظمة الصهيونية، اعتبره ذا قيمه زهيدة، تساوى فرنك واحد أو شلنين أو نصف دولار أو نصف غولدان أو ٤٠ كوبيك أو مارك واحد، وكان الحاخام يهودا

الكلعى أول من تقدم بهذا الاقتراح فى حينه وقد قررت إسرائيل مؤخرا تغيير اسم الوحدة الأساسية لعملتها من ليرة إلى شيكل».

ج- ينتخب من كل ١٠٠ من دافعى الشيكل مندوبًا واحدًا. ويستطيع كل مندوب أن يمثل عدة مجموعات، شرط ألا يزيد عددهم على عشرة.

د- ينتخب المؤتمر بواسطة بطاقات تصويت أى بالتصويت السرى لجنة تنفيذية صهيونية لتنفيذ القرارات وإدارة شئون المنظمة وتعيين مكان المؤتمر القادم.

هـ- تتخذ اللجنة التنفيذية الكبرى مقرًا لها فى فيينا وتكون مكونة من ١٥ عضوا، واللجنة التنفيذية الكبرى منهم خمسة ينبغى أن يكون مقرهم الدائم فى فيينا. واللجنة التنفيذية المصغرة وهذه كانت عمليا اللجنة التنفيذية الحقيقية والباقون موزعون على التجمعات الصهيونية حسب بلدانها... وينتخب أعضاء اللجنة التنفيذية الموجودون خارج فيينا من قبل المؤتمر، ولكن بعد ترشيح التجمعات الصهيونية فى البلدان المعينة. أما الأعضاء الخمسة الدائمون فيعينون وينتخبون من قبل المؤتمر بأسره.

و- لكل عضو فى اللجنة التنفيذية، غير مقيم فى فيينا الحق بحسب اتفاق مسبق مع اللجنة التنفيذية فى فيينا، فى تعيين ممثل صهيونى له فى اللجنة التنفيذية.

ز- يمثل أعضاء اللجنة التنفيذية اللجنة بأسرها أمام اللجان الإقليمية فى بلدانهم.

ح- للجنة التنفيذية الحق فى تعيين أمين سر، مقره فيينا.

ط- تعين اللجنة التنفيذية لجانا، عند الضرورة، لمهام مختلفة.

ى- تنظم شؤون التنظيم والدعاية الصهيونية، فى كل بلد بحسب الحاجة ووفقا لقوانين ذلك البلد، وينبغى إبلاغ اللجنة التنفيذية بالشكل الذى يتم فيه ذلك.

وهكذا بدأت الهجرة إلى فلسطين بشكل منظم ومدروس بعد أن كانت عفوية ومحدودة خلال الهجرة الأولى عام ١٨٨١م، فقد بلغ عدد المهاجرين عام ١٩١٤م

ما بين ٣٥-٤٠ ألف يهودى كما تم هجرة ثلاثة ملايين يهودى للهجرة من الاتحاد السوفيتى إلى إسرائيل، ليتوافق كل ذلك مع مقررات المؤتمرات الصهيونية التى انعقدت إبان ذلك الوقت[١].

عرفنا سابقا أن السلطان عبد الحميد الثانى قد قابل عروض هرتزل برفض شديد بإقامة وطن فى فلسطين والحصول على امتياز من الحكومة التركية يسمح لليهود بالاستيطان فى فلسطين إلا أن الصهيونية استطاعت بتحالفها مع الاستعمار الغربى أن تدبر المؤامرات لخلع السلطان عبد الحميد الثانى من الحكم سنة ١٩٠٩م، وتم تنصيب السلطان محمد رشاد الخامس سلطانًا للبلاد، وخليفة للمسلمين، ولم يكن له حول ولا قوة فى تسيير أمور البلاد؛ فقد دخلت تركيا الحرب العالمية الأولى مع ألمانيا ضد إنجلترا وحلفائها بتدبير من جمعية الاتحاد والترقى الماسونية، وانتهت الحرب بهزيمة ألمانيا وتركيا، ووقعت بلاد العرب والمسلمين فى قبضة المستعمرين، وقسمت معظم بلاد العرب بين البريطانيين والفرنسيين وذلك عام ١٩١٦م فيما عرف باتفاق «سايكس- بيكو».

وبموجب هذا الاتفاق وضعت فلسطين تحت الانتداب البريطانى، ودخلت الجيوش البريطانية فلسطين فى ١٨-٢-١٩١٧، ودخل اللورد «اللنبى» قائد الجيش البريطانى مدينة القدس وقال قولته المشهورة: «الآن انتهت الحروب الصليبية» وبهذه العبارة كشفت بريطانيا عن نواياها الحقيقية تجاه فلسطين.

وقد فر من بقى من الضباط الأتراك من حامية القدس منهين الحكم العثمانى لهذه المدينة «القدس» والذى استمر أربعمائة عام «١٥١٧-١٩١٧م».

وقد بدأت المأساة الحقيقية لفلسطين فى «٢ نوفمبر -تشرين الثانى- ١٩١٧م» عندما أعطى وزير خارجية بريطانيا آنذاك -اللورد بلفور- وعده المشهور لليهود بإنشاء وطنهم القومى فى فلسطين، وسرعان ما نفذ هذا الوعد بمباركة الدول الكبرى آنذاك؛ وأخذت الهجرات اليهودية تتوالى على فلسطين تحت الحماية

(١) القضية الفلسطينية. فتحى يكن. ص٢١ وما بعدها .

البريطانية، وبدأوا يستوطنون القدس، ويقيمون فيها دورًا ومؤسسات وجمعيات ومنظمات إرهابية، واحتلوا جزءًا من القدس، وشرعوا فى بناء الجامعة العبرية، وسارعت بريطانيا فى إكمال المخطط الصهيونى بتعيين السير صموئيل «اليهودى» مندوبًا ساميًا لبريطانيا على فلسطين، وكان همه تهويد البلاد؛ فقد قام بتهويد أجهزة الحكم كهيئة الحكومة، ودائرة الخزينة، ودائرة الشرطة وغيرها، وكان يقول: «إنى ذاهب إلى فلسطين لاتخاذ مشروعات، وتنفيذ أوامر حكومتى لإنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين».

٢- مقاومة شعب فلسطين للهجرة اليهودية فى مراحلها الأولى:

لما أحس الفلسطينيون بالكارثة عبروا عن رفضهم للهجرة اليهودية بشتى الوسائل؛ بثورات فى القدس وغيرها، وهاجموا العصابات الصهيونية، وجحافل المستوطنين. وكان من أشد ثوراتهم ثورة البراق عام ١٩٢٩م التى استمرت ١٥يومًا قتل وجرح فيها ٤٧٢ يهوديًا، وكان ضحايا المسلمين ٣٣٨ بين قتيل وجريح؛ ولكن بريطانيا أخمدت هذه الثورة وما تلاها من الثورات بكل ما أوتيت من قوة.

واستنجد العرب فى القدس بإخوانهم المسلمين فعقدوا فى أرض الإسراء والمعراج المؤتمر الإسلامى عام ١٩٣١م وحضره أكثر من اثنين وعشرين شخصًا يمثلون بلادهم، وأسهم فيه كبار الزعماء والمفكرين المسلمين، وأصدر قرارات بمقاطعة البضائع الصهيونية، ونادى بوقف الهجرة اليهودية، وإنشاء جامعة إسلامية فى القدس تنافس الجامعة العبرية.

وخرج وفد فلسطينى يجوب العالم الإسلامى يجمع التبرعات لدعم صمود أهل فلسطين؛ لكن بريطانيا التى كانت مستعمرة معظم بلدان العالم الإسلامى حاربت هذا المشروع وأجهضته.

واندلعت الثورة الكبرى عام ١٩٣٦م وقامت العمليات الجهادية ضد اليهود، وأخذت بريطانيا على عاتقها إخماد الثورة؛ ولكنها عجزت عن ذلك طيلة ثلاث سنوات، وأخمدت الثورة بالقهر ١٩٣٩م، وأصدرت أحكامًا جائرة ضد كل من

يساعد المجاهدين، أو يحمل رصاصة، أو سكينًا، وهدمت الدور، ونفذت حكم الإعدام بحق ١٤٨ مسلمًا فى سجن عكا، واستمر تهويد مدينة القدس يزداد يومًا بعد يوم، وبلغ نشاط العصابات اليهودية أوجه قبل عام ١٩٤٨م؛ فقاموا بنسف الفنادق العربية، والمساجد، والأسواق، وتفجير السيارات، والتجمعات العامة، وقد سقط مئات الأبرياء بقصد إرغام السكان على إخلاء المدينة المقدسة، واستمرت الحال على هذا النحو حتى عام ١٩٤٨م، إذ بلغ عدد المهاجرين اليهود فى القدس وحدها أكثر من مائة ألف نسمة.

سقط القسم الغربى من مدينة القدس فى حرب ١٩٤٨م وضم إلى ما يعرف بدولة إسرائيل، وبقى القسم الشرقى والضفة الغربية فى أيدى المسلمين، وقد ضمته الأمم المتحدة إلى الأردن التى أشرفت على إدارة الضفة الغربية، والقدس العربية بما فيها المسجد الأقصى وظل فى أيديهم تسعة عشر عامًا.

وفى أعقاب حرب ١٩٦٧م استولى اليهود على ما تبقى من مدينة القدس وقتلوا ما يزيد على مائتى مقدسى من غير المحاربين من رجال ونساء وأطفال، وتم استيلاؤهم على المقدسات والعقارات الإسلامية التابعة للوقف الإسلامى، ودنسوا المسجد الأقصى، وبدأ التخطيط الإجرامى لنسف المسجد لأنه صار فى قبضتهم ومن ثم يشرعون فى إقامة الهيكل على انقاضه، كما استولوا على مكان البراق، وهدموا المساجد والأوقاف الغربية فيه، وأزالوا حيين من الأحياء المجاورة للمسجد الأقصى وهما حى المغاربة وحى مشرف لصنع ساحة مقابل حائط المبكى -البراق- للزوار والمصلين اليهود.

كما عملوا على خلخلة التركيبة السكانية للمدينة بتشجيع الهجرة إلى القدس؛ إذ بلغ عدد اليهود عام ١٩٦٧م حوالى ٢٠٠ ألف نسمة. وقاموا بتوسيع القدس على حساب باقى مدن الضفة الغربية؛ حيث جعلوها من ١٣كم^{٢} إلى ١٠٨كم^{٢} وذلك ضمن مشروع القدس الكبرى، وأقر الكنيست اليهودى قرار ضم القدس إلى إسرائيل.



ولقد وافق الكنيست فى اليوم نفسه على قرار الضم وجرى إلحاق القدس العربية بإسرائيل سياسيًا وإداريًا، وينص قانون الكنيست الإسرائيلى الذى وضع لحماية الأماكن المقدسة على ما يأتى:

أ- حماية الأماكن المقدسة من التدنيس وحمايتها مما قد يؤدى إلى تقييد حرية الأفراد من مختلف الديانات فى الوصول إليها والمحافظة على مشاعرهم فى هذا الشأن.

ب- يتعرض كل من يتعدى على حرمة الأماكن المقدسة أو ينال من قدسيتها للحبس مدة سبع سنوات، ويتعرض لمدة خمس سنوات أى شخص يعمل على الحد من حرية الأشخاص فى الأماكن المقدسة(١). وبدأت عملية نقل مكاتب الوزارات والمؤسسات الإسرائيلية الأخرى إلى القدس الشرقية، وقد نص القانون الذى أصدره الكنيست بخصوص القدس الموحدة على ما يلى:

- أن القدس الموحدة كاملة هى عاصمة إسرائيل.

- إن القدس مقر رئيس البلاد والحكومة والمحكمة العليا.

- إن الأماكن المقدسة ستحمى من التدنيس أو من أى أضرار أو أى شىء يمكن أن يؤثر على الوصول الحر إلى كل الديانات وإلى أماكنها المقدسة أو على مشاعرها نحو هذه الأماكن.

- إن الحكومة ستشرف على تطوير القدس ونموها ورفاه سكانها بتخصيص أموال خاصة ببلدية القدس بموافقة اللجنة المالية فى الكنيست، وستحظى القدس بأولويات خاصة فى نشاطات دوائر الحكومة لتطوير القدس فى الحقول الاقتصادية والحقول الأخرى(٢).

---

(١) الموسوعة الفلسطينية ج٣ ص٥٠٨- ٥٨٣.

(٢) المصدر السابق ص٥٥٢.

٣- النوايا الصهيونية تجاه الحرم الشريف ومدينة القدس:

قامت اللجنة الداخلية التابعة للكنيست الإسرائيلى بزيارة ساحة الحرم لتضع الحجر الأساسى الذى يشهد ولأول مرة -كما أرادوا- وجودًا لليهود فى الحرم القدسى الشريف، وقد قام أحد الأعضاء بالصلاة داخل الحرم رغم أنهم فى زيارة رسمية إجبارية لهذا المكان الطاهر(١).

ومما يثبت سوء النوايا الإسرائيلية بشأن الحرم الشريف ما قام به الحاخام الأكبر للجيش الإسرائيلى عام ١٩٦٧م مع عدد من أتباعه للصلاة فى الحرم الشريف الذى يقدسه المسلمون، وقد أثار هذا العمل الاستفزازى مشاعر المسلمين وغير المسلمين، وفى عام ١٩٧٦م حوكم ثمانية يهود من جملة ٤٠ يهوديًا بتهمة الصلاة وترديد الترانيم الإسرائيلية داخل الحرم الشريف، لكن مما يؤسف له أنه صدر من محكمة القدس حكم يؤكد حق اليهود فى الصلاة فى الحرم الشريف وبراءة المتهمين، فأدى هذا إلى اشتعال المظاهرات والاضطرابات فى القدس والضفة الغربية. وقد ذكر الشيخ سعد الدين العلمى مفتى القدس أنه قد تعرض إلى التهديدات والإنذارات وأنهم خيروه بين اثنين بعدما احتاروا فى أمره: إما أن يقبل منهم مليون دولار أردنى سرًا مقابل السماح لهم بدخول ساحات الأقصى والصلاة فيه، أو اغتياله وقتله. وقد عقد الشيخ العلمى على أثر ذلك مؤتمرًا شعبيًا فى الأرض المحتلة قال فيه: «ليكن معلوما لإسرائيل والدنيا كلها أن ملء الأرض ذهبًا لا تساوى عند المسلم ذرة من تراب المسجد الأقصى الشريف»(٢).

وصرح ديفيد بن جوريون بأن شعبه «الذى يقف على أعتاب المعبد الثالث لا يمكن أن يتحمل الصبر الذى كان عليه أجداده» كما صرح وزير الأديان الإسرائيلى عام ١٩٦٧م أمام أحد المؤتمرات فى مدينة القدس بأن «سلطات الاحتلال تعتبر

(١) القدس فى الصراع العربى الإسرائيلى. الدكتور غازى إسماعيل ربابعه. دار الفرقان ص٤٠.

(٢) انظر الشيخ سعد الدين العلمى. المسجد الأقصى فى خطر. مجلة منار الإسلام. العدد السابع ١٩٨٧م ص١١: ١٣.

المسجد الأقصى وقبة الصخرة جزءًا من مملكتها، ذلك على أساس حق الامتلاك السابق أو حق الاحتلال الحالى» ثم أضاف «ينطبق ذلك على المسجد الإبراهيمى المقدس فى مدينة الخليل ويعتبر الكهف محرابًا يهوديًا حيث قام اليهود بشرائه بنفس الطريقة التى تم بها شراء الصخرة المقدسة فى عصر النبى داود من اليبوسيين ولليهود فى الكهف والصخرة حقوق احتلال وامتلاك»(١).

وقد ذهب موشى ديان وزير دفاع العدو إبان عام ١٩٦٧م إلى الجعبرى رئيس البلدية وطلب منه تصريحا لليهود بزيارة الحرم الإبراهيمى وقال له الجعبرى: إن مساجدنا مفتوحة الأبواب فى كل العالم أمام أى زائر مهما كان دينه أو لونه أو جنسيته، ولكن موشى ديان أصر على أخذ هذا التصريح خطيّاً وأعطاه الشيخ الجعبرى هذا التصريح الكتابى. ولك أيها القارئ أن تتأمل لماذا الإصرار على التصريح الكتابى رغم أن لديهم القوة التى تمكنهم من اقتحام الحرم الإبراهيمى!! إن هذا التصرف يعطيهم الحق فى هذا الحرم كما يتصورون ومن ثم يتصرفون كما يشاءون، ففى الأسبوع الأول جعلوا يدخلون المسجد كزوار بعد خلع نعالهم وفى الأسبوع الثانى راحوا يدخلون بالنعال ثم جاء الجيش الإسرائيلى واحتل الحرم الإبراهيمى وأدخلوا إلى المسجد بالقوة أدوات عبادتهم من كراسى وطاولات فجعلوه أقرب إلى الكنيس منه إلى الجامع، وها هم اليوم يفعلون بالمسجد الأقصى كما فعلوا بالحرم الإبراهيمى(٢).

وفى عام ١٩٨٠م أقر القانون الأساسى للقدس، وتم إعلانها عاصمة لدولتهم، وفى عام ١٩٨٢م بلغ عدد اليهود فيها ما يقارب ٤٠٠,٠٠٠ نسمة وبدأوا بمحاصرة من بقى من العرب هناك وذلك بمصادرة دورهم، وتشجيعهم على الهجرة خارج فلسطين، وظهرت المنظمات المتطرفة التى تسعى إلى هدم المسجد الأقصى؛ لإقامة هيكل سليمان -كما يزعمون- وحفروا الأنفاق حول الأقصى ليتداعى للسقوط.

---

(١) القدس فى الصراع العربى ص٤٥، مرجع سابق.

(٢) انظر المقال السابق للشيخ سعد الدين العلمى.

ولم يستكن المسلمون هناك لخططهم، وحاولوا بكل ما أوتوا من قوة لإحباطها أو على الأقل تعطيلها، وأصبح الأقصى يعج بالآلاف المؤلفة من المصلين فى كل جمعة من أهل القدس والمدن القريبة منه والبعيدة؛ لعرقلة الخطط اليهودية الرامية إلى مصادرته ثم هدمه وبناء الهيكل مكانه.

وما الانتفاضة الأخيرة التى سميت بانتفاضة الأقصى إلا صرخة مدوية ملأت الآفاق تحذر المسلمين فى العالم كله من هذا المشروع الذى بدأ من سنين، ولم تكن زيارة مجرم الحرب شارون وزير الدفاع السابق ومنفذ مجازر صبرا وشاتيلا إلا جس نبض لمكانة الأقصى عند المسلمين.

وما زالت الحجارة تنطلق كل يوم فى القدس وغيرها على جيش الاحتلال معلنة أن أولى القبلتين وكل بلاد فلسطين تنتظر من يفك القيد عنها!!

ومن الملاحظ أن الصهيونية العالمية لم تكتف باقتطاع فلسطين وجعلها وطنا قوميا لليهود إلا أن تلك الدولة الصهيونية سعت سعيًا حثيثًا لتدبير المكائد ضد الإسلام والمسلمين، فهى تقوم بدور ذاتى ومباشر فى التآمر فضلا عن دورها الخفى فى تحريك القوى العالمية الأخرى ضد الأمة الإسلامية، وهذا أمر لا مراء فيه فإن الغرب الاستعمارى قد بارك تلك الدولة وزرعها فى قلب الأمة الإسلامية خير أمم الأرض لتكون يده الطولى التى يلهب بها ظهور المسلمين فى أى مكان ولينفذ بها مآربه ويفرض بها مشاريعه الإستيطانية والاستثمارية القائمة على النصب والاحتلال والاقتطاع بالقوة. ومما يؤسف له أن الأنظمة العربية فى تلك الفترة قد لعبت دورًا مهينًا فى تمهيد الطريق بشكل أو بآخر لقيام دولة إسرائيل، وكما يقول الأستاذ فتحى يكن: «فالأنظمة التى لم يعد يربطها شىء بالإسلام، والحكام المغسولة أدمغتهم فى مغاسل الحضارة الغربية، والذين خانوا الله من قبل هانت عليهم خيانة فلسطين فكانت هزيمة ١٣٦٧ - ١٩٤٨»[١].

---

(١) القضية الفلسطينية. مرجع سابق ص٢٨.



ومع تلك الاستكانة التى بدت علـى وجوه حكام المنطقة وقد تبلدت أجـسادهم وهانت فلم تعد توقظهم الجـروح ولا حتى الحرائق، أقول: مع شـيوع تلك الروح الانهزامية وتردى المجتـمعات العربية الإسلامية، وانحراف الكثـيرين عن عقيدتهم الإسلامية الغـراء كانت بعض البلدان العربية التى حطم نفوسـها اليأس وتزاحمت فيها أشباح الفقر، أقول: كانت فرصة لتحقيق إسرائيل حلمها الأكبر الذى لم تكن تتوقعه فى يوم ما ألا وهو توقيع اتفاقية «كامب ديفيد» والتى كان من أخطر نتائجها إنهاء حالة الحرب بين العدو الصهيونى وأكبر دولة عربية فى المنطقة. وما تبع ذلك من فرص السلام مع إسـرائيل ورفع شعارات لا تجدى بشىء مـثل «الأرض مقابل السلام» أو «خريـطة الطريق» التى أضاعت ما بقى من الأرض، ولم تتضـح معالم الطريق بعد. فـقد ضاعت الأرض ولم يأت السلام بل ابتليت المنطقـة بالتطبيع مع ذلك العدو اليـهودى الذى بات خطره فى هيمنة الصـهاينة على مقـدرات أمتنا فى قراراتها الـسياسية والاقـتصادية والتعليـمية وسلوك فاضح وشـذوذ جنسى وعرى وعبدة الـشيطان إلى غير ذلك، والغـريب مسارعة كـثير من الحكام العرب لـتبادل التوثيق الدبلوماسى وفـتح بلادهم للتبادل التجارى والسـياسى والإعلامى، وهكذا نالت إسرائيـل وسوف تنال كل ما تريد مـن هؤلاء الحكام حتى تصل إلى حلمـها الأكبر من النيل إلى الفرات دون أن تتنازل عن شىء.

ومن المؤكد كما عرفنا سابقا أن جـميع الأحزاب الإسرائيلية قد اتفقت على رأى واحد أن القـدس عاصـمة إسرائيل اليـهودية إذ يلمح من كـلام أعضاء الـكنيست والمسئوليـن أنهم سوف يتخذونها عـاصمة أبدية، وقد قـامت إسرائيل فى المدة من ١٩٤٨ : ١٩٧٧م بعـدد من الإجراءات لتكريس وتكـثيف الوجـود اليهـودى داخل المدينة، واتجـهت إلى تـوحـيـد شطرى المديـنة تحت الإدارة الإسـرائيليـة فى ٢٧/٦/١٩٦٧م وأمروا بإخلاء الأحياء والسكان العـرب من مساكنهم، وبعد حرب ١٩٦٧م بدأت الجرافات الإسرائيلية فى العمل داخل المدينة القديمة وفى نهاية الشهر حزيران نتج عن ذلك تشـريد أربعة آلاف عربى كما عـملت على إنشاء سلسلة من المستعمرات والأحياء السكنيـة داخل المدينة وفى محيطها الخارجى للإخلال بالتوازن

النسبى بين عدد اليـهود وعدد العرب من جهة، وللحيلولـة دون التواصل الجغرافى بين العرب فـى القدس والعرب فى المناطق المجـاورة من جهـة أخرى، كمـا جرى الاهتمـام بالاستيطان فى منطقتى بيت لحـم والخليل باعتبارهمـا من المناطق الأمنية لمدينة القـدس. وقد انتهى هـذا كله إلى توسيع حـدود بلدية القدس حـتى صارت القدس الموسعة -كما يصطلح على ذلك الإسرائيليون والتى تمتد من مشارف رام الله شمالا إلى مشارف بيت لحم وبيت جباليا جـنوبا وهذه المجموعة الشاسعة تشكل ما لا يقل عن ثلث الضفة الغربية «تسعة وخمسين مدينة وقرية»- تستوعب بذلك عدد المستوطنين اليهود فى القدس وهم حوالى ربع مليون مستعمر.

ثم جـاءت الأحداث من ١٩٧٧ : ١٩٨٤ لتـؤكد قـرار حزب الليكود القـاضى باعتبار القدس عاصمة إسرائيل الأبدية، وقد تم فى هذا الصدد ثلاث خطط:

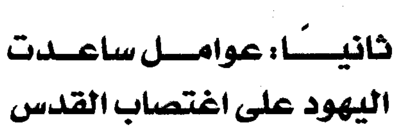
الخطة الأولى: «لإيريئيل شارون» وزير الزراعة آنذاك وسـميت بالمحور المضاعف أو العـمود الفـقـرى، وهى مكونة من خطين مـتـوازيين هما الشـريط السـاحلى والشريط الشـرقى المقابل له لتحقـيق الاستيطان فى أكـبر مساحـة ممكنة مع إيجاد شبكة من الخطوط الطولية والعرضية تربط بينها.

الخطة الثـانية: الاستـيطانية «لعزرا وايزمن» والتى تسـتهدف تجـميع المستعـمرات الصغيرة والمبعثرة فى شبه مراكز مدنية ضخمة

الخطة الثـالثة: هى خطة «متـياهو درومس» وهى التى استـهدفت إقامـة ما بين ١٢ : ١٥ مستعـمرة سنويًا مع استيعاب ما بين ١٢٠ : ١٥٠ ألف مـستوطن خلال خمس سنوات، والـشكل الأمثل للاستـيطان فى تصوره هو الاسـتيطان الجـماعى المختلط فى الضفة الغربية بعد تقسيمها إلى ٢٢ منطقة[١].

❁❁❁

(١) انظر وليد الجعفرى. المستعمرات الاستيطانية فى الأراضى المحتلة. بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ١٩٨١. ص٢٥١، ٢٥٧ نقلا عن القدس فى الصراع العربى الإسرائيلى ص٥١.



ثانيـــا: عوامـــل ساعـدت اليهود على اغتصاب القدس



١ - البعد العقائدى والهيكل المزعوم:

تحتل فلسطين فى المعـتقد الإسلامى مكانة عظيمـة، فأرض فلسطين كلها أرض مباركة، وقد ورد فى القرآن الكريم أنها أرض مـقدسة حينما قال تعالى: ﴿**يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ**﴾ [المائدة: ٢١]، والمراد بالأرض المقـدسة هنا هى أرض فلسطين حـيث أشار إليـها موسى عليـه السلام وهو يحث قومـه على الدخول إلى فلسطين فرارًا من فـرعون وبطشه، فهـذا النص يشير إلى أن أرض فلسطين كلها أرض مـباركة، وهى أرض ثابتة فى بعـدها التاريخى حيث أشار القـرآن أيضا لهذه البركة قـبل أن يدخلها بنو إسرائيل بل قـبل أن ينزل بها أبو الأنبـياء الخليل نفـسه، يقـول تعالى: ﴿**وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ**﴾ [الأنبيـاء: ٧١] والذى نجاه الله هنا هو إبراهيم، ومن هنا ثبت أن لأرض فلسطين كلها الخير والبركة عبر تواصل التاريخ.

وتعود قدسية هذه المدينة إلى ما ورد بشأنها فى الكتب السماوية وما شهدته أرضها من أحداث لأنبيـاء الله الكرام، كان نبينا محمـد ﷺ هو الشخصية المحورية لقـدسية تلك المدينة حـيث كان مـسراه إلى بـيت المقدس كـما أبانت الآية الأولى فى سـورة الإسراء ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ**﴾ [الإسراء: ١] ومن هنا صار بيت المقدس والمسجد الأقصى فى عقيدتنا الإسلامية له مكانته الشريفة الراسخة فى قلوب المسلمين، مما جعل تلك الأرض تمثل أمانة فى أعناق المسلمين جـميعًا على ظهر الأرض، فعليهم اليـوم بذل أقصى الجهد المادى والحربى والمعنوى لاسترداد هذا الجزء المقـدس من أيدى غاصبيه. ولكى تتضح مكانة المسجد الأقصى فى عقيدة المسلمين ينبغى أن نقف على المفاهيم التالية:

أ- لفظة «مسجد» التى وردت فى الآية الأولى فى سورة الإسراء تدل على البعد الجغرافى حيث إن فلسطين ليست بقعة طاهرة فى الأرض فى نظر الإسلام فقط، إنما هى مسجد وقد ورد فى الصحيحين عن حديث أبى ذر الغفارى قال: قلت: يا رسول الله أى مسجد وضع فى الأرض أول؟ قال: **المسجد الحرام**. قلت: ثم أى؟ قال: **المسجد الأقصى**. قلت: كم كان بينهما؟ قال: **أربعون سنة**. قال ابن خلدون فى مقدمته: وبيت المقدس بناه داود وسليمان عليهما السلام، أمرهما الله ببناء مسجده ونصب هياكله ودفن كثير من الأنبياء من ولد إسحاق عليهم السلام حواليه، وأراد داود عليه السلام بناء مسجده على الصخرة مكانها فلم يتم له ذلك وعهد به إلى ابنه سليمان فبناه لأربع سنين من ملكه ولخمسمائة سنة من وفاة موسى عليه السلام، فلما جاء طيطس من ملوك الروم وغلبهم أى غلب بنى إسرائيل وملك أمرهم خرب بيت المقدس ومسجدها وأمر أن يُزرع مكانه[1].

والحقيقة التى ينبغى إدراكها من دراسة تاريخ المسجد الأقصى أنه بقعة أرض مقدسة استمدت قدسيتها من تواجد الأنبياء فيها وتجمعهم على أرضها الشريفة منذ آدم عليه السلام حتى نبينا محمد ﷺ، كما ينبغى أن يدرك القارئ المسلم أيضا أن مساحة بيت المقدس ليلة إسراء النبى محمد لم تكن معروفة ولم يكن أقيم بها أبنية تذكر فلم يكن هناك آنذاك مسجد قبة الصخرة ولا أبنية أخرى فى ساحة المسجد الأقصى، إنما كل هذا قد بناه المسلمون فيما بعد، وكان أول مسجد بنى فى هذا المكان المسجد العمرى الذى بنى بمناسبة زيارة عمر إلى القدس عام ١٦هـ عندما جاء ليعطى نصارى بيت المقدس عهد أمان، فاستشار عمر كعب الأحبار: أين يقع المسجد؟ فقال له: اجعله وراء الصخرة. قال عمر: ضاهيت اليهود يا كعب بل نجعله صدر المسجد، ثم بنى عبد الملك بن مروان المسجدين المعروفين بالمسجد الأقصى ومسجد الصخرة.

ب- مكانة الصخرة المقدسة فى العقيدة الإسلامية: ومن الثابت تاريخيا أن أبا الأنبياء إبراهيم قد اتخذ من تلك البقعة المقدسة مسجدًا وأن النبى يعقوب كان يتلقى

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص٢٤٦ : ٢٤٩ .

الوحى عندها ثم نصب عليها النبى يوشع القبة التى كان قد صنعها النبى موسى لبنى إسرائيل فى تيه سيناء واصطحبوها معهم إلى بيت المقدس، وأن تلك القبة ظلت فوق الصخرة يتخذها بنو إسرائيل قبلة لهم حتى بادت، فصلوا إلى محلتها وظلت الصخرة قبلة الأنبياء جميعهم حتى السنين الأولى من بعثة محمد ﷺ.

وبعد صلاة النبى محمد ﷺ بالأنبياء فى بيت المقدس ليلة الإسراء صعد به جبريل من أعلى صخرة بيت المقدس -وكانت حينئذ تعرف بصخرة يعقوب- ومنها بدأت رحلة المعراج، وحينما نزل عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- القدس -كما قلنا سابقا- لتسلم مفاتيح المدينة سأل عن الصخرة فأرى مكانها وقد علاها الزبل والتراب فكشف عنها، وبعد أن طهرها من الأخباث وضع مسجدا أمامها، وفى اختياره لمكان هذا المسجد لم يأخذ بما أشار به كعب الأحبار كما قلنا سابقا.

ج- حقيقة حائط البراق: يبدو أن هذا الحائط -كما كان سائدا- جزء من الحائط الخارجى للهيكل الذى رسمه هيردوس سنة ١١ ق.م ودمره تيطس عام ٧٠ م وهو عبارة عن حائط كبير مبنى من حجارة ضخمة يبلغ طول بعضها ١٦ قدمًا ويبلغ طول الحائط نفسه١٥٦ قدمًا[١].

ويعتقد المؤرخون القدامى أنه المكان الذى ربط فيه براق النبى ﷺ ليلة الإسراء والمعراج، وهذا سبب تسميته حائط البراق ولا يزال حتى اليوم جزءًا من الحرم القدسى وعلى الخصوص جزءًا من جداره الغربى[٢].

بينما يروى الإمام البيهقى أن رسول الله ﷺ قال: «**ثم انطلق به جبريل حتى دخلنا مدينة بيت المقدس من بابها اليمانى فأتى قبلة المسجد الأقصى فأتى بها دابته ودخلنا المسجد من باب فيه تميل الشمس والقمر**»[٣].

(١) قضية القدس دراسة فى أبعادها التاريخية والدينية والسياسية والقانونية. دكتور عبد التواب مصطفى. إصدارات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. جمهورية مصر العربية. العدد ١٣٩ ص٤٨، ٤٩ .

(٢) يقول الدكتور عبد التواب مصطفى: فى باب حديث الإسراء والمعراج فى صحيح البخارى ذكر لربط البراق. المرجع السابق ص٤٩

(٣) المصدر السابق ونفس الصفحة.

وقد كـان هذا الحائط جـزءًا من الرأى السائد الـذى يقول إنه جزء مـن الحائط الخارجى للهيكل فلا يزيد على كون الحائط أثرًا يراه اليـهود مقدسًا لديهم، ويذكر أنه لما هدم الهيكل أيام الملك يهوذا سنة ٧٠ م ولم يبق منه سوى حائط كان الرومان يحضرون اليهود الذين تم أسرهم فى رومـا مكبلين فى الأصفاد إلى الحائط ليبكوا على هيكلهم ومن وقتها أطلق عليه حائط المبكى[١].

والهيكل فى تراث اليهود: له أبعاده وصفـاته وبعده الدينى أيضا، ومعنى كلمة هيكل «البيت الـكبير» وأصبـحت تطلق هذه التسـمية على كل مكان كـبير يتـخذ للعبادة. ولما بنى سليمان المسجد الأقصى على هـيئته العظيمة التى بناه عليها أطلق أهل الكتاب على مسجده «هيكل سليمان». ويذكر التاريخ أن سليمان عليه السلام استغرق فى بنائه ثلاثة عشر عاما ليستكمل به معالم المدينة المقدسة «القدس» ويقال إن هذه المدينة كانت موجودة قـبل سليمان، وكان المسجد الأقصى قائمـا فيها قبل مرحلته التى كان عليها فى عهد سليمان. إلا أن المدينة والمسجد قد شهدا عصرهما الزاهر فى زمان سليمـان عليه السلام. والأرض المقدسة تلك كانت مـهادا اكتنفت كل دعوات أنبياء بنى إسرائيل عليهم صلوات الله وسلامه إلا أن يد التحريف التى نالت من كتب هؤلاء الأنبـياء قد بالغت فى الكلام عـن المدينة وعن بيت المقدس. والمتصفح لكتاب التـوراة وخاصة الأسفار الخمسة الأولى منهم يجـد حديثًا متنوعًا مـتلونًا مطـولاً عن الأرض والمعـبـد فى مـجـال الشـرائع والـشـعـائر والأحكام والطقوس. . إلخ.

وإن هيام اليهـود فى هذه الأيام بالأرض والهيكل قد لخصـوه فى المقولة الآتية: «لا قيـمة لإسرائيل بدون القـدس» قالها بن جـوريون، ورددها فى مناسبـات عدة «مناحم بيجين» ولا أكون مبالغا إذا قلت: إن الهيكل ملك على اليهود حياتهم ووجدانهم حتى اتخذوا منه رمزًا منقوشًا على العلم الإسرائـيلى فى شكل النجمة السداسية لداود، هذه النجـمة نراها تتـوسط العلم الإسرائيلـى ونراها مطبوعـة على هام الجند اليهـودى فى

(١) قضية القدس. مرجع سابق ص ٥٢ .

الخوذات والكابات ويحملونها على أكتافهم وينقشونها على دباباتهم وتطير مع طائراتهم وتنطلق مع صواريخهم، ولم يخجل اليهود من اتخاذ هذا الرمز الدينى شعارًا لدولتهم المتقدمة ليذكرهم بأول من بنى دولة باسم إسرائيل وهو داود عليه السلام.

والحقيقة التى نود أن نركز عليها أن الحفريات التى قام بها اليهود لم تعثر على أى أدلة أثرية تساند دعواهم من خلال الحفريات التى قاموا بها سنة ١٩٦٧م حتى الآن تحت الحرم القدسى الشريف من جبل موريا أو فى الجزء الجنوبى الغربى منه تحت المسجد الأقصى تحديدًا[١].

وقد أصدر القضاء البريطانى عام ١٩٣٠م أثناء الانتداب على فلسطين حكمه بعدم صحة ادعاء اليهود بأن الحائط الغربى للمسجد الأقصى هو أحد أسوار هيكل سليمان[٢].

كما أصدر البلاط الملكى البريطانى مرسوما فى ١٩/ ٥/ ١٩٣١م -بعد انتهاء لجنة التحقيق الدولية من نشاطها فى فلسطين -حيث أقروا أن للمسلمين وحدهم تعود ملكية الحائط الغربى والمخول المندوب السامى البريطانى فى فلسطين بإلزام سكانها بتنفيذ أحكام هذا المرسوم[٣].

٢- النفوذ اليهودى فى الأجهزة الإعلامية والمؤسسات الدولية:

لقد سيطر اليهود على الإعلام العالمى سيطرة تامة، فهم يعملون ليل نهار لتحقيق هدفهم المنشود فى إقامة الدولة اليهودية من ناحية، وتحسين صورة اليهود

---

(١) راجع شوقى شعث «أضواء على الأبحاث الأثرية فى فلسطين» بحث مقدم إلى الندوة العالمية الأولى للآثار الفلسطينية بجامعة حلب ١٩/ ٩/ ١٩٨١م، والدكتور رشاد الشمى «الأثريون الإسرائيليون يكشفون زيف الادعاءات الدينية والتاريخية لليهود فى فلسطين» الهلال. القاهرة نوفمبر سنة ٢٠٠٠م ص٨: ١٣.

(٢) انظر قضية القدس. مرجع سابق ٥٧ .

(٣) لقد جاء فى مجلة الفتح أن الحكومة البريطانية قد اعترفت فى الكتاب الأبيض بملكية المسلمين القطعية للبراق الشريف، وأن الوثائق التى أبرزتها السلطات الإسلامية تؤكد أنه ليس فى استطاعة اليهود إبراز أى شىء يؤيد أى ادعاء لهم، وكان الحكم واضحًا بأن أرض البراق أرض إسلامية، وقد أقرت بذلك لجنة البراق الدولية التى تشكلت لهذا الهدف. انظر تاريخ الصحافة الإسلامية. أنور الجندى ج٢ ص٢٠٠، ٢٠٠١.

فى أعين العالم من ناحية أخرى. ولم تأت هذه السيطرة المحكمة على الإعلام من أعمال ارتجالية إنما خطط لها تخطيطًا محكمًا ساعدهم فى ذلك دهاؤهم وثراؤهم الفاحش، وتحكمهم فى بنوك المال وصناعة السلاح فتمكنوا من تغيير صورة اليهودى المزرية عبر العصور والمعروفة بالبخل والمكر والجشع والجبن وسفك الدماء إلى صورة الرجل الذكى، العبقرى، المخترع، العالم. وهذا بلا شك يدل على سيطرتهم على الإعلام وقدرتهم على غسل عقول قادة العالم ورؤسائه وناهيك عن الشعوب الغربية.

وقد استغل اليهود حملاتهم الدعائية فى قضاياهم العديدة ليكسبوا تعاطف الناس معهم مثل قضية المحرقة «الهولوكوست» أو إعلاناتها المتكررة ضد العرب فى الأوساط العالمية.

وإذا كانت حملة هتلر النازية ضد اليهود -إن صحت- ألحقت بهم بعض العنت أو بعض الاضطهاد إلا أنها عادت على اليهود بخدمات كبيرة ما زالوا حتى يومنا هذا يحلبون ألبانها؛ إذ أحسنوا استخدامها ودخلوا من خلالها إلى قلوب الأوروبيين والأمريكيين، وأثروا فى مشاعرهم أكبر تأثير، ومن مظاهر نجاح اليهود فى هذا السبيل:

أ- تعاطف مشاعر الغرب الأوروبى والأمريكان تعاطفًا مطلقًا معهم فى قضيتهم الأساسية وهى احتلال أرض فلسطين دون اعتبار لأصحابها.

ب- الوقوف بجانب اليهود وتأييدهم فى مشروع التوطين فى فلسطين وإقامة المستوطنات وإقامة الجدر والأسوار العازلة.

ج- تمكنوا من تحويل مشاعر الرأى العام العالمى سواء كان الأوروبى أو الأمريكى من الشعور بالذنب إلى التعاطف معهم.

كما كانت تواكب الحملة المتعاطفة مع اليهود حملة أخرى إعلامية للحط من شأن الجنس العربى أمام الرأى العام العالمى، يهدفون من وراء ذلك إقناع الرأى



العام العالمى بأن العربى إرهابى وعدو للحضارة النصرانية، وبذلك تم التقارب بين النصارى واليهود ووقفوا بجانبهم فى صراعهم مع العرب.

وقد اتجهت الحملة اليهودية ضد العرب اتجاهين: الأول يعتمد على تذكير الغرب المسيحى بوقائع الحروب الصليبية وما منى به أجدادهم من هزائم على أيدى العرب وبخاصة هزيمتهم فى موقعة حطين على يد البطل المسلم صلاح الدين الأيوبى، والتى أتت على طردهم نهائيا بعد ذاك من معاقلهم فى فلسطين والشام. وبذلك يثيرون حفيظة أبناء الغرب على مسلمى اليوم، ولا غرو فى ذلك فقد بدأ الغرب الأوروبى اليوم حملة صليبية جديدة أعلنها الرئيس الأمريكى فى أعقاب أحداث الحادى عشر من سبتمبر.

أما الاتجاه الثانى فهو محاولة اليهود فى أجهزة الإعلام العالمية إظهار العرب بمظهر الأمة المتخلفة التى تسعى وراء شهواتها والمترفة بالمال ومتع الحياة ولا هم لهم إلا شرب الخمر والمقامرة فى أندية أوروبا وأمريكا، وبذلك استطاع اليهود أن يجملوا من صورتهم فى الإعلام العالمى وأن يهينوا الشخصية العربية ويسيئوا إليها إساءة بالغة حتى أصبح العالم عندما يسمع كلمة عرب لا يتخيل إلا القتل والإرهاب والجمل والحصان، بينما تحسنت صورة اليهودى فى العالم إذ لم يعد ذلك اليهودى المرابى الجشع الخبيث بل أصبحت صورة اليهودى المتطور، صاحب المخترعات العلمية والمكتشفات الطبية، الشجاع الذى يحارب من أجل قضيته، وبذلك نجح اليهود ونجحت الصهيونية فى السيطرة على إعلام العالم والتأثير فيه تأثيرًا شديدًا.

إذن يحق لنا أن نسأل: كيف استطاعت تلك الفئة القليلة أن تهيمن على الأجهزة الإعلامية والمؤسسات الدولية هذه الهيمنة، ويشتد نفوذها على كل مستوى من مستوياتها الحكومية أو الأهلية؟! ويمكننا أن نجيب عن هذا التساؤل على النحو التالى:

الأسباب التى مكنت اليهود من السيطرة على الإعلام العالمى:

أ- السيطرة على وكالات الأنباء العالمية:

- تمكنت الصهيونية من السيطرة على العديد من وكالات الأنباء العالمية التى تمد الصحافة بكل ما تحتاجه من أخبار وأنباء ومعلومات وتقارير، إذ وضعوا أيديهم

على وكالة رويترز التى أسسها جوليوس رويتر اليهودى، كما هيمن الصهاينة فى الولايات المتحدة الأمريكية على وكالة أنباء أسوشيتدبرس التى شملت معظم الصحف والمجلات الأمريكية الواقعة تحت السيطرة الصهيونية، كما هيمن اليهود الصهاينة على وكالة أنباء اليونايتد برس أنترناشونال، كما هيمن اليهود أيضا على وكالة أنباء فرنسية معروفة بوكالة أنباء هافاس والتى صارت فيما بعد الوكالة الرسمية للدولة الفرنسية.

- سيطرت الصهيونية على الصحافة العالمية والمعروف أن الصحافة هى إحدى وسائل الإعلام وهى مطبوعات إعلامية تتناول الأنشطة المختلفة والتقارير اليومية إلى غير ذلك من أعمال وأنشطة تمد تلك الصحافة وعن طريق رؤساء التحرير للصحف العالمية تسللت أعداد كبيرة من اليهود إلى إدارة المجلات والصحف كإداريين وفنيين وصحافيين، وبذلك يضمنون التأثير على اتجاهات الصحافة لصالح القضايا اليهودية[1].

- وقد هيمنت اليهودية على العديد من الصحف العالمية مثل التايمز التى اشتراها اليهودى الإسترالى روبرت ميردوخ الذى أنقذها من الإفلاس، وأصبحوا يمتلكون صحيفة لا يشاركهم فيها أحد، كما اشترى أيضا ذلك الرجل اليهودى صحيفة الصانداى تايمز وبذلك تمت السيطرة الصهيونية على أغلب الصحافة البريطانية، ويمتلك هذا الرجل أيضا بالإضافة إلى صحيفتى التايمز والصانداى تايمز ثلاث مجلات بريطانية هى: الأولى مجلة الشمس «صن» وهى مجلة إباحية للجنس توزع أكثر من ٣,٧ مليون نسخة أسبوعيا.

والثانية هى مجلة «نيوز أوف زى وورلد» لأنباء العالم وهى إباحية مثيرة للجنس توزع حوالى ٤ مليون نسخة أسبوعيا. والثالثة مجلة مغازين. كما يمتلك هذا الرجل عدة مجلات وصحف أخرى فى استراليا وكندا والولايات المتحدة بالإضافة إلى بريطانيا.

---

(١) حسان حلاق. اليهودية العالمية ص٧٦ .

كما أن اليهود قد سيطروا على العديد من الصحف والمجلات البريطانية الأخرى كالديلى اكسبريس، والنيوز كرونيكل، والديلى ميل، والديلمى هيرالد، والكانشستر غارديان، وجون بول، ويوركشاير بوست، وإيفننج نيوز، والأوبزرفر، وصنداى ريفرى، وصنداى اكسبريس، وصنداى كرونيكل، وصنداى بيبل، وصنداى دسباتش، وذى سكتش، وذى سفير، وذى جرافيك.. إلخ بالإضافة إلى مجلة ويك إند الأسبوعية التى توزع على مستوى عال بسبب مواضيعها الساخرة التهكمية، وهذه المجلة كثيراً ما تقوم بالتشهير بكل ما هو مسلم وعربى، وتجد فى قصص بعض الأثرياء العرب وشيوخ النفط الذين اتبعوا خطوات الشيطان مادة دسمة تدس من خلالها سمومها ضد العرب والإسلام كما تغطى الصور الكاريكتيرية المتهكمة على العرب مساحة كبيرة من الصحيفة.

وتشير إحصائية نشرت عام ١٩٨١م إلى مجموع ما توزعه يوميا خمس عشرة صحيفة ومجلة بريطانية واقعة تحت السيطرة الصهيونية فى بريطانيا وخارجها قد بلغ حوالى ٣٣ مليون نسخة.

وينبغى أن يدرك القارئ أن تلك الصحافة التى ذكرناها لها تأثير قوى على الرأى العام، ويكفى هنا أن نشير إلى صحيفة الصانداى تايمز اللندنية التى يمتلكها اليهودى ميردوخ -كما عرفنا- أن تلك الصحيفة قد نقلت فى أحد أعدادها الصادرة فى منتصف عام ١٩٨١م مقابلة مع الصحفية اليهودية الأمريكية سارة أيهريمان روت ذكرت فيه بافتخار كيف أن لجنتها تمكنت خلال ثمانى وأربعين ساعة فقط من تغيير الرأى العام الأمريكى الغاضب جدا على إسرائيل بسبب قصفها للمفاعل النووى العراقى وجعلته يتقبل وجهة النظر اليهودية بل أقنعته بأن ضرب المفاعل النووى العراقى كان عملاً رائعًا وشجاعًا من أجل السلام فى العالم أجمع[1].

كما هيمنت الصهيونية أيضا على الصحافة الأمريكية فهى تهيمن على ١٧٠٠ شركة لتوزيع الصحافة، ومن الصحف التى تهيمن عليها الصهيونية فى أمريكا:

---

(١) انظر هذه الصحف وتأثيرها فى بريطانيا كتاب فؤاد سيد عبد الرحمن الرفاعى. النفوذ اليهودى فى الأجهزة الإعلامية والمؤسسات الدولية ص١٤: ١٩ .

- صحيفة نيويورك تايمز وهى من أشهر الصحف الأمريكية اليومية حيث اشتراها اليهودى أودلف أوش سنة ١٨٩٦م عندما وقعت فى أزمة مالية.

- صحيفة الواشنطن بوست وتكتسب هذه الصحيفة أهمية خاصة بسبب انتشارها فى أوساط الأجهزة الإعلامية.

- الديلنيوز ونيويورك بوست وستار ليدجر وصن تايم ومجلة باريتى الفنية التى تدعو دائمًا إلى جمع الأموال لدعم الحملات الانتخابية للمرشحين المتعاطفين مع الكيان الصهيونى.

- مجلة نيوزويك، مجلة تايد التى يملكها جون مائيير، ويعطى اليهود أهمية خاصة للسيطرة على الصحافة التى تهتم بشئون المال والأعمال فهم يسيطرون سيطرة تامة على مجلة بيزنس ويك الأمريكية وهى مجلة متخصصة لها تأثير واسع النطاق فى أوساط رجال المال والأعمال والاقتصاد فى العالم.

- وسيطر اليهود أيضا على أهم صحف شيكاغو اليومية وهى صحيفة شيكاغو صن تايمز، وتركز هذه الصحيفة بشكل خاص على التحريض المستمر ضد الإسلام، ومثال ذلك مقالها الافتتاحى بتاريخ ٢٢/ ٢/ ١٩٧٩م تحت عنوان «لا تفاهم مع الإسلام إلا بلغة الحديد والنار» ومن عبارات هذا المقال «إن الشيوعية أفضل من الإسلام لأنها فى الأصل فكرة غربية يمكن الالتقاء والتفاهم معها أما الإسلام فلا التقاء ولا تفاهم معه إلا بلغة الحديد والنار».

- كما تخضع صحيفة أريزونه نيوز للسيطرة اليهودية سيطرة تامة، وفى مقال فى أحد أعدادها الصادرة فى نيسان عام ١٩٨٢م نشرت هذه الصحيفة مقابلة مع الكاتب اليهودى ليون يوريس قال فيها: «إن الإسلام هو دين الشرق وأن المسلمين فى حرب دائمة ضد العالم كله لأنهم يريدون إخضاعه واستعماله».

وقد نجحت الصهيونية فى التسلل إلى عدد من المجلات العلمية المتخصصة واستغلتها لصالحها، ومن هذه المجلات مجلة ناشيونال ديوغرافيك الأمريكية التى تتمتع بشهرة خاصة فى مجال الجغرافيا.

ب- سيطرة اليهود على صناعة السينما والتليفزيون والمسرح والإعلان التجارى:

سيطر اليهود سيطرة شبه تامة على شركات الإنتاج السينمائى مثل شركة فوكس التى يمتلكها اليهودى وليم فوكس، وشركة غولدين التى يمتلكها اليهودى صاموئيل غولدين، وشركة ميترو التى يمتلكها اليهودى لويش ماير وشركة إخوان وارنر التى يمتلكها اليهودى هارنى وارنر، وشركة براموليت التى يمتلكها اليهودى هوود كونسن.

جميع هذه الشركات اليهودية يباع إنتاجها فى العالم الإسلامى ويتمثل فى أفلام الجريمة وفنونها واللصوصية وأساليبها، والعنصرية اليهودية واضحة فيها ومع ذلك فهى تعرض منذ سنين طويلة فى بلادنا العربية والإسلامية. وتشير بعض الإحصائيات إلى أن أكثر من تسعين فى المائة من مجموع العاملين فى الحقل السينمائى الأمريكى إنتاجا وإخراجا وتمثيلا وتصويرا هم من اليهود، ولعل من أبلغ ما قيل فى وصف السيطرة الصهيونية على صناعة السينما الأمريكية ما ورد فى مقال نشرته صحيفة الأخبار المسيحية الحرة عام ١٩٣٨م قالت فيه: ولقد أصبحت هوليود بسببهم «سدوم[1] العصر الحديث» حيث تنحر الفضيلة وتنشر الرذيلة وتسترخص الأعراض وتنهب الأموال دون رادع أو وازع.. هم يرغمون كل من يعمل لديهم على تعميم ونشر مخططهم الإجرامى تحت ستائر خادعة كاذبة، وبهذه الأساليب القذرة أفسدوا الأخلاق وقضوا على مشاعر الرجولة والإحساس. واختتمت الصحيفة كلامها بالقول: أوقفوا هذه الصناعة المجرمة لأنها أضحت أعظم سلاح يملكه اليهود لنشر دعاياتهم المضللة الفاسدة، واستغل السينمائيون اليهود فى أمريكا قضية اضطهاد النازية لليهود أبشع استغلال فأنتجوا عشرات الأفلام عنها وبالغوا فى دعوى الظلم الذى ألحقته بهم لاستدرار العطف عليهم وإشغال الرأى العام العالمى وبخاصة الأمريكى بقضيتهم وإقناعه بعدالتها. وقد هيمن اليهود من الممثلين الرجال أو النساء على ميادين الأفلام بأنواعها العاطفية

---

(١) مدينة من مدن قوم لوط عليه السلام وتقع فى الأردن بجوار البحر الميت الآن، ولقد كان فى هذه المدينة قاض مشهور بالجشع والجور، ضرب العرب به المثل فقالوا: أجور من قاضى سدوم. وسبب جوره أنه كان يأخذ من كل من يفعل الفاحشة أربعة دراهم.

والمغامرات والحربية والتاريخيـة. ويندر أن يخلو فيلم من اسم يهودى أو أكثر ممثلا أو مخرجا أو منتجا أو فنيا، ولا داعى لسرد أسمائهم فهم معروفون بأسمائهم، ولكن ينبغى أن نلفت النظر إلى موضوعات الأفلام التى يتخذونها، ففى بريطانيا على سبيل المثال يملك اللورد اليهودى لوفنت ٢٨٠ دارا للسينما ويقوم بنفسه بمشاهدة أى فيلم قبل عرضه، وقد منع عرض فيلم عن هتلر من تمثيل إليك لينيس المؤيد للصهيونية بحجة أن الفيلم لم يكن عنيفًا ضد الهتلرية بالشكل الذى يرضيه.

ويعتبر فيلم «الهدية» من أقذر الأفلام إساءة للمسلمين العرب وهو من إنتاج اليهودى البريطانى روبرت غولد سميث ويروى، الفيلم قصة عدد من أمراء العرب الذين يصطحبون عشرات من حريمهم المحببات إلى باريس حيث ينطلق الأمراء فى بعثرة أموالهم لاصطياد العاهرات، ومنهن بطلة الفيلم اليهودية، وفى نفس الوقت يغلقون أبواب غرف الجناح الضخم فى الفنادق على نسائهم الحريم ولا يسمحون لهن بالخروج من غرفهم، وحين يطرق خادم عجوز باب جناح الحريم يغلقن الباب ويهجمن على الرجل العجوز ويجبرنه على تعاطى الفاحشة معهن. وفيلم «أمريكا أمريكا» الذى يظهر العرب بمظهر المجرمين الذين يقتلون المصلين داخل الكنائس ثم يذهبون لاحتساء الخمر فى الحانات، كما أنهم وراء أفلام الدعارة التى توزع فى قصور الأغنياء لهدم الأسر الأرستقراطية ونشر الانحلال بين جميع الناس فى العالم.

كما هيمن اليهود على شبكات التليفزيون العالمية إذ سيطروا على شبكات التليفزيون الأمريكية سيطرة تامة، فقد انتشر فى الولايات المتحدة ما بين ٧٠٠ إلى ١١٠٠ شركة بث تعتبر الشركات الثلاثة المسماة abc- cds -nds أشهرشبكات البث التليفزيونى وجميعها تحت نفوذ الصهيونية.

٣- الروح العدوانية عند اليهود ودوافعها تجاه العرب:

وقف العديد من علماء النفس والاجتماع لتفسير الروح العدوانية التى تتسم بها الشخصية اليهودية، ولماذا يتجهون بها نحو العرب على وجه الخصوص، وقد

أرجعوها إلى عدة عوامل قد تكون أغلبها عوامل خارجية تتمثل فى محاولتهم درء الأخطار التى تتهدد الوجود الإسرائيلى والذى أطلق عليه اليهود بحر العداء العربى والذى يتشكل من حروب وهجمات فتاكة من الفدائيين الفلسطينيين وغيرهم عبر الحدود المتاخمة لإسرائيل، أو طائرات على سفاراتها فى الخارج. وإذا كان لهذه العوامل تأثيرها لما تقوم به تلك الشخصية اليهودية تجاه أصحاب الأرض وتجاه المنطقة المحيطة بها إلا أن هناك سببا وراء الاستجابة العدوانية للشخصية اليهودية وهذا راجع إلى التكوين السيكولوجى التاريخى والإيديولوجى للشخصية الإسرائيلية على امتداد مراحل تكوين هذه الشخصية منذ المرحلة الانعزالية المعروفة «بالجيتو اليهودى» ثم مرحلة الانعزالية الصهيونية ثم مرحلة الانعزالية اليهودية الإسرائيلية، وهذه المراحل بطبيعة الحال خلقت وعملت على تثبيت ظاهرة الروح العدوانية فى الشخصية اليهودية الإسرائيلية كرد فعل لكل هذه المراحل أيديولوجيًا ونفسيًا وتاريخيًا[١].

وقد قام بعض الباحثين بدراسة مستفيضة حول الآثار المترتبة على الانتقامات الإسرائيلية، وقد ركز على جانب كبير فى دراسته على الانتقامات الإسرائيلية فى الفترة من عام ١٩٥٨م حتى قبيل عام ١٩٦٧م معتمدا فى دراسته على الإحصائيات وردود الفعل على الجانب العربى والإسرائيلى، وقد انتهى فى دراسته إلى أن الانتقام الإسرائيلى هو سلوك قومى إسرائيلى، وإن إسرائيل تعتبر الانتقام صورة شرعية من صور السلوك القومى[٢].

وقد أشار الباحث الأمريكى بليخمان إلى تفسير رائع حول التصريحات الإسرائيلية المصاحبة لأغلب الاعتداءات فوجدها تتضمن وصفا واحدا وقولا متفقا عليه وهو أن هذه الانتقامات التى يقوم بها جيش الدفاع الإسرائيلى إنما هى واجب وأنه كان مجبرا على أن يفعل هذا، وليس أمامه ثمة اختيار إذ لا توجد بدائل أخرى[٣].

(١) الدكتور رشاد عبد الله الشامى. الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية. سلسلة عالم المعرفة ص١٦٤

(٢) انظر حفنى قدرى. الإسرائيليون من هم؟ دراسات نفسية. طبعة القاهرة ١٩٨٤م ص٤٣٨ .

(٣) المرجع السابق ص٤٤٢.

وإذا كان ذلك الباحث قد نجح فى تحديد سيكولوجية المجتمع الإسرائيلى المعتمد على العوامل الخارجية أو المثيرات الخارجية إلا أنه لابد للباحث أن ينحى منحى أعمق من هذا فلابد من تقصى تلك العوامل والمثيرات وتتبع جذورها الضاربة فى التكوين السيكولوجى المتأثرة بفترات التاريخ المتعاقبة، وعقيدة اليهود وفق الكتب المنزلة، إذ كانت الروح العدوانية هى النمط المثالى الذى يمكننا أن نصف به الإطار السلوكى للشخصية الإسرائيلية تجاه العرب قاطبة والفلسطينيين بصفة خاصة، فإنه يمكننا أن نحدد الدوافع العدوانية تجاه العرب وتحليلها وفقا لعاملين اثنين هما:

أ- الدين اليهودى وما ينطوى عليه من روح عدوانية:

إن كتاب العهد القديم زاخر بفكرة الصراع بين الخير والشر، ونرى ذلك واضحًا فى سفر التكوين، وقد فرض الرب علاقة تصارع بين القوى المختلفة لفرض الإرادة التى هى جوهر العلاقات بين البشر مع تنوع الأسباب التى تؤدى إلى هذا الصراع، والمتأمل للعهد القديم يجده زاخراً بالإشارات إلى أشكال الصراع المختلفة، فذكر الحرب التى دارت بين إبراهيم الخليل، وملك الأردن الذى حاول بسط سلطانه فى تلك البلاد، ثم نرى التوراة تتحدث بصفة أساسية عن حروب إسرائيل وربط إسرائيل وتطبع العقيدة العسكرية برباط الصراع فيصبح هذا الربط من رب الجنود الذى يمهد لبنى إسرائيل السبيل لتحقيق مآربهم فى الغزو والاحتلال وطرد الشعوب.

ويكلم الرب موسى وهو الذى يأمر موسى بأن يخلص بنى إسرائيل من فرعون مصر وأن يعبر بهم البحر بالمعجزة التى شق الله بها البحر وخرجوا مسلحين من أرض مصر وأن الرب هو الذى كان يوحى إلى موسى بخطط الحرب والخديعة ويأمره بالتجسسُ وجمع المعلومات قبل الهجوم على أرض كنعان «ثم كلم الرب موسى قائلا: أرسل رجالا ليتجسسوا على أرض كنعان التى أنا معطيها لبنى إسرائيل»[1].

انظر إلى تلك الأخلاقيات التى يحث عليها الرب موسى إذ يأمرهم بقتل الذكور من الأطفال، وكل امرأة تزوجت تقتل هى وزوجها. أما بقية الأطفال والنساء فهم

---

(١) سفر العدد ١٣ : ١ .

سبايا للتسخير يقول الرب لموسى: «وحين تقرب مدينة لكى تحاربها استدعها للصلح فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك كل الشعب الموجود فيها يكون للتسخير ويستعبد لك، وإن لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك، إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة غنيمة فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاها الرب إلهك، هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة عنك جدا التى ليست من مدن هذه الأمم هنا وأما مدن هذه الشعوب التى يعطيك الرب إلهك نصيبا فلا تستبق منها نسمة ما»[١].

وهكذا فإن المتصفح فى العهد القديم وخاصة سفر التثنية يجد فيه قوانين الحرب التى تحدد أسلوب الاستيلاء على المدن وأسلوب التعامل مع أهل البلاد[٢]، وهكذا فإن تلك القوانين التى يتسلمها القادة الإسرائيليون كمصدر وحى هى فى نفس الوقت قانون حربى يعد أساسًا لكل جريمة يرتكبونها فى حق الشعوب الأخرى، فإن تلك الجرائم تصبح فى نظرهم شرعية وجائزة من أجل تحقيق وعد الرب والذى أرسى التقاليد العسكرية لبنى إسرائيل هو يشوع بن نون الذى وضع التقاليد العسكرية والتى صارت فيما بعد كالطقوس التى تنفذها القادة من بعده وكأنها قرابين يتقربون بها لإرضاء الرب. وهكذا فتلك الجروح العربية والأجساد الممزقة واللحوم المتناثرة من الأجساد العربية كلها كانت طمعا فى إرضاء الرب، ويروى أن يشوع بن نون هو أول من نفذ وصية موسى بحمل تابوت العهد أمام الجنود وقال: يشوع للكهنة: «احملوا تابوت العهد واعبروا أمام الشعب، فحملوا تابوت العهد وساروا أمام الشعب» وما زال جيش الدفاع الإسرائيلى يحافظ على هذه التقاليد حتى الآن فكل وحدة من وحداته تحمل تابوتا توضع فيه التوراة وقد نقشت عليه: «انهض بالله ودع أعداءك يتشتتوا واجعل الذين يكرهونك يهربوا أمامك»[٣]. ولقد

---

(١) سفر التثنية ٣٠ من ١٠: ١٦.

(٢) انظر الإصحاحين العشرين والحادى والعشرين الفقرات ١٠: ١٤، والإصحاح الثالث والعشرين الفقرات ١٠: ١٦، والإصحاح الرابع والعشرين الفقرة الخامسة.

(٣) الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية ص١٧١.

تركت هذه الوصايا أثرا كبيرا فى نفوس القـادة الإسرائيليين اليوم إذ كانوا حريصين على تنفيـذ تلك التعاليم الدموية ويتـضح ذلك فيما فعلوه فى ديـر ياسين ومذابح صبرا وشاتيلا إلى غـير ذلك من تلك المذابح التى انخلعت لها القلوب وغليت لها الأكباد، وقد أعلن الحـاخام العسكرى الإسرائيلى موشيـه جون أن الحروب الثلاث التى دارت بين إسرائيل والعـرب خلال السنوات ١٩٤٨م، ١٩٥٦م، ١٩٦٧م هى فى منزلة الحرب المقدسة فأولها تحرير أرض إسرائيل والثانية لاستمرار دولة إسرائيل أما الثالثة فقد كانت لتحقيق نبوءات رسل إسرائيل(١).

ب- ظهور الروح العدوانية فى فكر وسلوك الصهاينة:

لقد اتسم الفكر والسلوك اليـهودى بالتعصب الدينى والعنصـرى وقد ظهر هذا واضحا بسلوك عدوانى لا مثـيل له إذ نظر هؤلاء اليهود إلى أرض فلسطين منذ أن اغتصـبوها فى عام ١٩٤٨م على أنها الأرض التاريخـية حيث جاءوا إليهـا رافعين شعار «أرض بلا شعب لشعب بـلا أرض» متناسين أهل فلسطين من العرب الذين عمـروا أرضهم مـا يزيد على ثلاثة عشـر قرنا، وعندمـا لجأ السكان الـعرب إلى مقاومة سياستهم العدوانيـة ولجأوا إلى الدفاع عن أراضيهم وممتلكاتهم إزاء الهجمة الشرسة التى قام بها اليهـود للاستيلاء على الأرض أو الشراء المنظم الذى قامت به المنظمة الصهيونية نجم عن ذلك توتر شديد أدى إلى حروب فى المنطقة. يقول أحد المفكرين الصـهاينة عـام ١٨٩١م: «نحن فى الخارج نظن أن أرض فلسطيـن اليوم صحراء تقريبا وبرية غير مـزروعة، وأن أى شخص يستطيع أن يشترى من الأرض حسب رغبته ومناه. . . . نحن فى الخارج نظن أن العرب متوحشون وعلى مستوى الحـيوانات ولا يعـرفون مـا يدور حـولهم، ولكن ذلك خـاطئ تماما، إن العـرب وخـاصـة أهل المدن يرون نشـاطاتنا فى بلـدهم وأهدافنا ولكنهم يصـمـتـون ولا يتحركون. إن مـلاحظة بيع الأرض لليهود أو اختلاسهـا عن طريق البيع أو الشراء التى بدأت بأسلوب ملتو فى أول الأمر ولم يفطن إليه أغلب سكان فلسطين إلا أن هذه الملاحظة قد بدأ يعيها الشعب الفلسطينى وبدأوا يتفطنون لحركة اليهود».

(١) انظر الدكتور حسن ظاظا والسيد عاشور فى كتابهما شريعة الحرب عند اليهود ص١٢٨ .

كما نرى يهوديا آخر يسجل ذلك قائلا: «إن كثيرين من أهل فلسطين الذين أخذ وعيهم القومى فى النمو منذ الثورة التركية ينظرون شذرا وهذا طبيعى تماما إلى بيع الأراضى للغرباء ويعملون جهدهم لوقف هذا الإثم[١] عندما بعث بعض وجهاء القدس عريضة إلى القسطنطينية يطالبون فيها بمنع اليهود من دخول فلسطين وشراء الأراضى فيها، فاستجابت الحكومة العثمانية لذلك وأصدرت قوانين تمنع الهجرة اليهودية وشراء الأراضى، ولكن احتجاجات الدول الأوروبية حدت من تلك القوانين. ولقد عرف العالم كله بالطبيعة الأخلاقية للصهيونية السياسية إذ تحاول ابتزاز أرض المواطنين الفلسطينيين إذ إن فى كل مكان يتم فيه شراء اليهودى أرضا ويتم فيه توطين بعض الأفراد يتحتم فى مقابل ذلك تجريد الزراع الحاليين من ممتلكاتهم، وهذا عمل يتم ضد إرادة العرب، بل كما يرى هرتزل أن يفقد بعض الأشخاص أرواحهم من أجل توطين اليهودى. وقد لاحظ ديان هذا الأمر وتبصره جيدا فى محاولة لإيجاد البدائل من وجهة نظره فأدرك تماما أن الصهيونية تواجه اختيارين: إما الأخذ بآراء ورغبات العرب ووضع نهاية للصهيونية وإما بمواصلة تنفيذ عمليات الهجرة وشراء الأراضى والاستيطان مع حرمان عرب فلسطين من حق تقرير مستقبل البلاد[٢].

لقد كتب أحد المفكرين الصهاينة يتحدث عن سوء معاملة اليهود للعرب سكان فلسطين: «ماذا يفعل إخواننا المهاجرون اليهود فى فلسطين؟ لقد كانوا عبيدا فى بلاد الدياسكورا وفجأة وجدوا أنفسهم وسط حرية لا رادع لها، وقد ولد التحول المفاجئ فى نفوسهم ميلاً إلى الاستبداد كما تكون الحال عندما يصبح العبد سيداً إنهم يعاملون العرب بروح العداء والشراسة ويهينون حقوقهم بصورة معوجة وغير معقولة ثم يوجهون لهم الإهانات دون أى مبرر كاف، ويتفاخرون بتلك الأفعال فوق كل ذلك وليس هناك بيننا من يقف فى وجه هذا الاتجاه الخسيس والخطير فى آن واحد»[٣].

(١) كان أول احتجاج فلسطينى رسمى ضد سلوك اليهود الصهاينة فى شراء الأراضى الفلسطينية فى يوم ٢٤ يونيو عام ١٨٩١م

(٢) الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية مرجع سابق ص١٨١ .

(٣) المرجع السابق ص١٨١ .

ثم يأتى مفكر صهيونى آخر وهو ميخا يوسف بيرد ياتشفيسكى ١٨٦٥-١٩٢١م يرى أن الأيام العظيمة فى كنعان هى أيام محتلى كنعان «ففى هذه الأيام تمت غرائز الاحتلال والوجود، ولو كان ذلك عن طريق إبانة الغيب»(١).

وقد لجأ قادة اليهود إلى القوة يرون فيها مطالبهم ويجسدون فيها أهدافهم، فهذا مناحم بيجين يؤكد على أهمية العنف فى التاريخ إذ يقول: إن قوة التقدم فى تاريخ العالم (ليست للأم بل للسيف)(٢) لينسج له فلسفة على منوال ديكارت ويرفع شعاره «نحن نحارب فنحن إذن نكون» ويستمر بيجن فى وصف فلسفته تلك قائلا: عندما قال ديكارت: «أنا أفكر إذن أنا موجود» قال فكرة عميقة جدا غير أن هناك أحيانا فى تاريخ الشعوب لا يكفى التفكير لإثبات وجودها فقد يفكر شعب ثم يتحول أبناؤه بأفكارهم بالرغم منها إلى قطيع من العبيد... هناك أحيانا يصرخ فيها كل ما فيك قائلا: إن عِزتك ككائن حى رهن بمقاومتك للشر... نحن نحارب فنحن إذن نكون(٣) من المنطلق السابق يتضح أن العنف هو الأداة الأهم التى يتوسل بها الصهاينة لإعادة صياغة شخصية اليهود، فاليهودى من خلال هذا المنطلق يحتاج إلى ممارسة العنف لتحرير نفسه من نفسه ومن ذاته الطفيلية الهامشية ولا غرو فى ذلك على حد تصورهم فإن اليهودى حينما يمارس العنف والقتل يتخلص من مخاوفه ويصبح جديرا بالحياة.

كما أن مفهوم العنف عند مناحم بيجن يكتسب بعداً آخر ويصبح غاية فى حد ذاته بل وسيلة بعث حضارى وغاية فى ذاتها، فابن جوريون كان هو المسئول عن إنشاء القوة العسكرية الصهيونية وكان المنادى دائما بفكرة اقتحام الحراسة وأسس من أجل ذلك جماعة هوشومير الحارس التى جعل شعارها «بالدم والنار سقطت يهودا، وبالدم والنار ستقوم يهودا» وهذا الشعار مبنى على تصوير جديد للشخصية

(١) الشخصية اليهودية الإسرائيلية ص١٨٣

(٢) يبدو أن فى الجملة خطأ لغوى، فقد وردت كلمة للأم فى الكتاب وعلى ما أرى يكون تصحيحها (ليست للأمم بفكرها بل للسيف) -فيكون هذا هو المعنى المتسق مع العبارة كلها. انظر كتاب الشخصية اليهودية ص ١٨٤ .

(٣) المرجع السابق ص١٨٤

اليهودية على أنها شخصية محاربة منذ قديم الأزل، فموسى أعظم أنبياء بنى إسرائيل هو أول قائد عسكرى فى تاريخ اليهود، ومن هنا يكون الربط واضحا بين موسى النبى وموشى ديان مسألة منطقية بل حتمية. ولا غرو فى أن يركز بن جوريون على الجيش فهو الذى يساعد الشعب على الاستيطان على ضفاف نهر الأردن ومحققا لكلمات أنبياء العهد القديم وكتاباته، وهكذا فإن استخدام العنف لا نهاية لمبرراته فى الفكر الصهيونى، وحينما بدأت الصهيونية فى التطبيق جعلت من اللحم العربى ومن الدم العربى معامل تجارب لتخريج خبراء القتل وأصبح اليهودى التائه العبرانى متعطشا دوما للدماء قربانا للرب ولتحقيق رغبة مكبوتة فى الانتقام كرد فعل للظلم الذى حاق باليهود فى العالم عبر التاريخ، وأعتقد أن سلوك اليهود المتسم بالعنف -كما عرفنا- إنما هو سلوك يتسم أيضا بجانب العنف بالنصب والاحتيال وإثارة الشائعات وإرهاب الأهالى من استخدام القوة ضدهم، ولعل هذا واضحا من خلال التقرير الذى قدمه إيجال ألون وزير الخارجية الإسرائيلى السابق فى كتاب البالماخ سرايا الصاعقة عن مساهمته فى تكتيكات الإرهاب التى أرهب بها أهالى فلسطين حيث يقول: جمعت جميع العمد اليهود الذين لهم صلة بالعرب فى مختلف القرى وطلبت منهم أن يهمسوا فى أذن بعض العرب بأن قوة عسكرية يهودية كبيرة وصلت إلى منطقة الجليل وأنها ستحرق كل قرى منطقة الحولة وينبغى عليهم «العمد» أن يقترحوا على هؤلاء العرب بصفتهم أصدقاء لهم الهرب حيث إنه ما زال هناك وقت لتنفيذ ذلك. ثم يقول ألون: وانتشرت الشائعات فى جميع مناطق الحولة بأن الوقت قد حان للفرار وبلغ عدد الهاربين آلافًا لا تحصى وبذلك حقق التكتيك هدفه تماما ونظفت المناطق الوسطى. والتنظيف هنا فى عرف هؤلاء المستعمرين اليهود أنه يريد الأرض وحدها بعد تجريدها من السكان. هذا مثال للشائعات ناهيك عن التى كانت تشنها الصهيونية اليهودية على القرى العربية.

ومن تلك القرى التى تعد نموذجا لعدد من الغارات الصهيونية الإرهابية «دير ياسين» حيث أقاموا فيها مذبحة لم تشهد البشرية لها نظيرا، وقد تعرضت هذه

القرية إلى عدد من الغـارات الإرهابية التى حققت أهدافهـا فى تفريغ فلسطين من أهلهـا حـيث تابعـوا غـاراتـهم على الكرمل فى ١٨/ ٤/ ١٩٤٨م والقـبـو فى ١/ ٥/ ١٩٤٨م وبيت دارس فى ٣/ ٥/ ١٩٤٨م وسعـسع فى ١٤/ ٢/ ١٩٤٨م وبيت الخـورى فـى ٥/ ٥/ ١٩٤٨م والزيتـون فى ٦/ ٥/ ١٩٤٨م ووادى عـرابـة فى ٣١/ ٥/ ١٩٥٠م واللد فى ١٩٥٨م وغـور الصـافى فى ٢٥/ ٩/ ١٩٥١م وقـبيـة ١٤/ ١٠/ ١٩٥٣م وقليـبقليـة فى ١٠/ ١٠/ ١٩٥٦م وكـفـر قـاسم فى ٢٩/ ١٠/ ١٩٥٦م[1].

هذا جانب فقط من جوانب أخرى تشهد بغدر هؤلاء الصهاينة وسواد خطيئتهم حيث تمكنوا من تفريغ فلسطين من أصحابها العرب ومن أسمائها العربية على نحو ما سبق.

❁❁❁

(١) للاستزادة والتوسع يرجع إلى الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية. مرجع سابق.

ثالثاً: أساطير وخرافات ضللت الشعوب



١- أسطورة أرض بلا شعب لشعب بلا أرض:

أ- وضع القدس فى المحافل الدولية:

لقد قامت الأيديولوجية الصهيونية على أسطورة خرافية والغريب أن اليهود قد بنوا عليها مطامعهم فى أرض فلسطين، وهذه الأسطورة قد جاءت فى سفر التكوين ١٥/١٨-٢١ «فى ذلك اليوم بتّ الرب مع إبرام عهدا قائلا: لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات». ومن هذا السفر وبدون وعى أو تعمق أعلن الصهاينة أن أرض فلسطين قد أعطيت لهم من الرب دون تأمل وتدبر، وبدون تساؤل عن ماهية هذا العهد ولمن صدر. ولقد تغافل اليهود عن الشروط المصاحبة لذلك العهد وقد وضعوا دولتهم إسرائيل بفهمهم الخاطئ للوعد فوق كل قانون دولى وفوق كل عرف إنسانى. فمن المعروف بعد أن تم تقسيم فلسطين وأصبح لليهود دولة لم تقبلها المنظمة الدولية إلا بشروط ثلاثة:

١- عدم المساس بوضع مدينة القدس.

٢- السماح للعرب الفلسطينيين بالعودة إلى ديارهم.

٣- احترام الحدود التى وضعها قرار التقسيم

وقابلت إسرائيل قرار الأمم المتحدة بكل إعراض، يقول بن جوريون: «ترى دولة إسرائيل أن قرار الأمم المتحدة الصادر فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧م يعتبر باطلا وكأنه لم يكن، ومع أن إسرائيل ترفض هذا التقسيم إلا أنه كان فى صالحها حيث جاء بضغوط من الولايات المتحدة، فاليهود آنذاك لم يكونوا يمثلون سوى ٣٢٪

من السكان ولا يملكون سوى ٦,٥٪ من الأرض ومع هذا فقد حصلوا على ٥٦٪ من الأراضى ذات التربة الخصبة[١].

والعجيب أنه كلما احتج العرب على هذا الظلم الصارخ وأعلنوا رفضهم لهذا القرار تمادى الإسرائيليون فى استغلال ذلك للاستيلاء على أراض جديدة فى يافا وعكا إذ سيطر الصهاينة عام ١٩٤٩م على ٨٠٪ من البلاد وتم طرد ٧٧٠ ألف فلسطينى، والدليل على ذلك هو ما حدث فى مذبحة دير ياسين فى أبريل سنة ١٩٤٨م بطريقة أبشع من طريقة النازى فى أورادور إذ تم قتل أهالى هذه القرية البالغ عددهم ٢٥٤نسمة لا فرق بين الرجال والنساء والأطفال والشيوخ على أيدى قوات الأراجون التى كان يرأسها مناحم بيجين، ويقول هذا السفاح: «إنه بدون الانتصار فى دير ياسين ما قامت دولة إسرائيل وقد قامت الهاجانه بهجمات عنيفة على جبهات أخرى وكان العرب الذين أصابهم الهلع يهربون وهم يصيحون «دير ياسين». وقد اعتبر كل فلسطينى غادر منزله قبل أول أغسطس ١٩٤٨م غائبا وبهذه الطريقة صودر ثلثا الأراضى المملوكة للعرب وقد حدد قانون حيازة العقارات التعويض حسب قيمة الأراضى عام ١٩٥٠م مع أن الجنيه الإسرائيلى كان قد فقد قيمته بمعدل خمس مرات، وقد أعلن اللورد موين الوزير المفوض البريطانى فى القاهرة أمام مجلس اللوردات فى ٩ يونيه ١٩٤٢م أن اليهود ليسوا أحفاد العبرانيين القدماء وأنهم لا يملكون المطالبة الشرعية بالأراضى المقدسة ولكن هذا اللورد قد اغتيل فى ٩ نوفمبر ١٩٤٤م فى القاهرة على يد اثنين من أفراد جماعة شتيرن التابعة لإسحاق شامير.

ثم ظهر التمييز العنصرى فى كل اتجاهات الحياة وفيما يخص سياسة الإسكان، فقد ذكر إسرائيل شاحاك الأستاذ بالجامعة العبرية فى كتابه «عنصرية دولة إسرائيل» ص٥٧ أنه توجد فى إسرائيل مدن بأكملها «كارمل ونذارت وإيليت وهتزور وأراد وميتزفين رامن» وغيرها يحرم القانون أن يقطنها غير اليهود، وهكذا يتضح الظلم

(١) وما تم ذلك إلا عن طريق ممارسة ضغوط مباشرة أو غير مباشرة لضمان الأغلبية اليهودية المهاجرة فيما بعد واللازمة عند التصويت.

السافر للنظام الصهيوني الذى تمكن من خلق أغلبية يهودية فى بلد سكانه أهل فلسطين وهم السكان الأصليون.

ولتحقيق تلك السياسة الاستيطانية أقاموا برنامجهم بإنشاء مستعمرات إسكان ينجم عنها طرد الفلسطينيين ودفع عجلة الهجرة اليهودية إلى المزيد، وقد كان طرد الفلسطينيين والاستيلاء على أراضيهم عملية منظمة؛ فالصهاينة أيام وعد بلفور سنة ١٩١٧م كانوا لا يملكون سوى ٢,٥٪ من الأراضى، وعند صدور قرار تقسيم فلسطين ارتفع إلى ٦,٥٪ وفى عام ١٩٨٢م أصبحوا يملكون ٩٣٪، وفى عام ١٩٠٥م وصل من بروسيا موجة من المهاجرين فروا إلى فلسطين وقد أدى هذا إلى الاستيلاء على المزيد من الأراضى.

ولم تكتف إسرائيل بذلك فقد استخدمت قوانين الطوارئ التى استخدمها الإنجليز فى عام ١٩٤٥م ضد اليهود والعرب معا، ومن المؤسف له أن اليهود لم يطبق عليهم هذا القانون، وإنما طبق على العرب فقط. وكتب شيمون بيريز فى صحيفة دافار بتاريخ ٢٥ يناير ١٩٧٠م «إن استخدام القانون ١٢٥ -وهو قانون الطوارئ الذى تقوم عليه العقوبة العسكرية- هو استمرار مباشر للنضال من أجل التأصيل اليهودى والهجرة اليهودية، وبهذا تمكنت الصهيونية من تفريغ أرض فلسطين من سكانها العرب بالطرد والترويع والمذابح كما حدث فى دير ياسين وكفر قاسم. وقد أورد إسرائيل شاحاك عام ١٩٧٥م قائمة بأسماء ٣٨٥ قرية عربية دمرت بالبلدوزر وقال: وليتسنى الإقناع بأن فلسطين قبل إسرائيل لم تكن سوى صحراء دكت مئات القرى وسويت بالأرض بيوتها وأسوارها وقرافاتها وقبورها[١].

وابتداء من عام ١٨٨٢م بدأت الهجرات الكبرى عقب عمليات ذبح اليهود فى روسيا القيصرية، فمنذ هذا التاريخ وحتى عام ١٩١٧م وصل ٥٠ ألف يهودى إلى فلسطين، ثم جاء المهاجرون البولنديون ويهود المغرب هربا من الاضطهاد ولكن

---

(١) انظر إسرائيل شاحاك. عنصرية دولة إسرائيل ص١٥٢ وما بعدها، وانظر كذلك رجاء جارودى فى الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية. ص١٥٢ دار الغد العربى.

أهم مجموعة ضخمة كانت المجموعة القادمة من ألمانيا بسبب معاداة هتلر للسامية إذ وصل نحو ٤٠٠ ألف يهودى إلى فلسطين قبل عام ١٩٤٥م، وفى عام ١٩٤٧م كان على أرض فلسطين ٦٠٠ألف يهودى من مجموع السكان البالغ عددهم مليونًا وربع مليون نسمة، وكان التعداد البيريطانى الذى أجرى فى ٣١ ديسمبر ١٩٢٢م قد أحصى ٧٥٧ ألف نسمة فى فلسطين منهم ٦٦٣٠٠ من العرب و٥٩٠ ألفًا من العرب المسلمين و٧٣ ألفًا من العرب المسيحيين و٨٣ ألف يهودى أى ٨٨٪ من العرب و١١٪ من اليهود[١].

وقد يظن البعض أن مشكلة الاستيطان هذه التى بالغت فيها إسرائيل أنه قد يكسبها الاستقلال الذاتى فمهما أوتيت تلك المستعمرات من وسائل حماية وتسليح للمستوطنين فإن هذا يجعل من المستحيل توفير الأمن لها طالما استمر هذا المحتل فى ظلم الفلسطينيين بالاستيلاء على أراضيهم فإن تلك المستوطنات التى تقيمها إسرائيل فى الأراضى المحتلة ما هى إلا انتهاك فاضح للقوانين الدولية وخاصة اتفاقية جنيف الصادرة فى ١٢ أغسطس ١٩٤٩م، وهذا الكم الهائل من انتهاكات القانون الدولى من مصادرة أراض وطرد وقتل لأصحاب الأرض الأصليين أنه لأمر يؤلم قلوب الأحرار فى كل مكان، ولكن ماذا نفعل وإسرائيل تعتبر نفسها فوق القانون وأنها قامت على أكذوبة حاولت تحقيقها بالقوة والإرهاب وهى أرض بلا شعب لشعب بلا أرض، كما أن الفائدة فى هذ المجال ينبغى أن ترجع بهذه الأسطورة إلى الوراء حيث يدعى اليهود أن هذا وعد الرب لإبراهيم الخليل وهو جدهم الأول فهم أصحاب الأرض وهم الموعودون.

ب- أسطورة الأرض الموعودة.. المفهوم وشرط التحقيق:

ولقد بدأت قصة هذا الشعب بخروج إبراهيم من وطنه الأصلى بمدينة أور الكلدانيين «قرب مدينة البصرة جنوب العراق» ليستقر فى بلد أجنبى وكان الله هو سبب خروج إبراهيم كما يحكى لنا سفر التكوين، وقال الرب لإبرام: اذهب من

(١) انظر رجاء جارودى ص١٥٢- ١٥٣. مرجع سابق.

أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التى أريك فأجعلك أمة عظيمة. وأباركك. وأعظم اسمك وتكون بركة. وأبارك مباركيك، ولاعنك ألعنه وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض[١].

وبعد دخول إبرام إلى الأرض أصبح الوعد بالأرض محددا «من نهر مصر إلى الفرات» والجدير بالذكر أن هذا الوعد لم يكن مفردا وحيدا، بل كان ضمن عهد متكامل بين الله وإبراهيم «وقال الله لإبراهيم: وأما أنت فتحفظ عهدى. أنت ونسلك من بعدك فى أجيالهم. هذا هو عهدى الذى تحفظونه بينى وبينكم وبين نسلك من بعدك، يختن منكم كل ذكر، فتختتنون فى لحم غرالتكم، فيكون علامة عهد بينى وبينكم» وأيضا «أنا الله القدير سر أمامى وكن كاملا أجعلك أبا لجمهور من الأمم وأثمرك وأكثرك... لأكون إلها لك ولنسلك»[٢]. وهكذا نرى أن الوعد لم يكن بالأرض فقط بل كان العهد يتكون من أربعة بنود:

١- سوف أعطيك «الأرض».

٢- سوف أكثرك «النسل».

٣- سأجعل عهداً أبدياً لأكون إلها لك ولنسلك «الإله».

٤- أبارك مباركيك ولاعنك ألعنه «البركة واللعنة».

- **مفهوم إبراهيم لتملك الأرض:** بدأ إبراهيم حياته فى أرض فلسطين متحركا بخيمته على التلال المحيطة ما بين شكيم وبيت أيل وحبرون... وبعد فترة زمنية قصيرة ترك إبراهيم الأرض بسبب الجوع ونزل إلى مصر، ولكن لم يلبث أن عاد إبراهيم إلى فلسطين. والسؤال الملح هنا: لماذا لم يدبر الله لإبراهيم فى أرض فلسطين تحقيقا لوعده له بالأرض بدلا من تركه لإبراهيم ينزل إلى مصر؟

والنقطة الجديرة بالملاحظة هنا أن إبراهيم لم يمتلك أى قطعة من الأرض التى وعده الله بها حتى ماتت سارة زوجته، ومن الغريب أن يخصص الكتاب المقدس

---

(١) سفر التكوين ١٢: ١-٣.

(٢) سفر التكوين ١٧: ١-٨.

قسما كاملا «إصحاح» من سفر التكوين ليحكى فيه عن مفاوضات إبراهيم بغرض امتلاك قبر لزوجته فى مغارة المكفيلة حيث دفنها.. وهذا يعطينا انطباعًا واضحًا بأن إبراهيم عندما أخذ الوعد من الله بالأرض لم يفهمه على أنه تصريح من الله بسرقة الأرض من مالكها واعتبار الأرض حقاً له، بل إن إبراهيم لم يكن متحمسًا أن يأخذ المغارة كهدية، فقد أصر على شراء الأرض وأصر على دفع الثمن كاملا وتوقيع عقد قانونى متكامل الأركان أمام شهود، وجزء من إصحاح ٢٣ لسفر التكوين يبدو كله مأخوذًا من العقد مباشرة ونصه كالتالى: «فوجب حقل عقرون الذى فى المكفيلة التى أمام ممرا، الحقل والمغارة التى فيه وجميع الشجر الذى فى الحقل الذى فى جميع حدوده حواليه لإبراهيم ملكا لدى عيون بنى حث بين جميع الداخلين باب مدينته»[1].

ثم جاء إسحاق ليرث هذه الأرض عن أبيه، أما إسماعيل فقد رفضت سارة أن تجعله يرث «فقبح الكلام جدا فى عينى إبراهيم لسبب ابنه لكن الله قال له: «لا يقبح فى عينك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك وابن الجارية سأجعله أمة لأنه نسلك»[2].

ثم جاء يعقوب ليرث من إسحاق، وفى يعقوب تكونت القبيلة من اثنى عشر ابنا وأحفاد كثيرين والذين تركوا الأرض ليعيشوا فى مصر مع يوسف الذى أخذ مركزا متميزا فى بلاط فرعون كالرجل الثانى فى المملكة، وهكذا بدا وكأنهم تركوا الأرض إلى الأبد لكنهم عادوا ثانية من مصر بالخروج مع موسى ليتحرروا من عبودية المصريين الذين أذلوهم لمدة أربعمائة عام بعد وفاة يوسف وفرعون يوسف، وقد اكتمل دخول الشعب إلى الأرض ثانية على يد يوشع خليفة موسى فى القيادة وهكذا تحقق بندان من العهد: الأرض والنسل.

- مفهوم العهد وشرط التحقيق:

إذا تأملنا عهد الله لإبراهيم نجد أن الله وعد بأن يجعل إسرائيل أمة عظيمة ويعطيها الأرض ووعد أن يكون هو إلهها بشرط أن تتبارك فيها أو بواسطتها جميع

(١) سفر التكوين ٢٣: ١٧ - ٢٠.

(٢) سفر التكوين ٢١: ١٣٩.

الأمم، وكانت الفكرة بأن شعب إسرائيل قد جعل لتحقيق مقاصد الله ولذلك فإن العهد هنا مسئولية وليس مجرد امتياز، وقد أوضح الله أكثر من مرة أن شعب إسرائيل ليس أفضل شعوب العالم لكى يعطيهم العهد فيقول سفر التثنية: «لا لأنكم أكثر من جميع الشعوب التصق الرب بكم واختاركم لأنكم أقل من سائر الشعوب.. وحفظه القسم الذى أقسم لآبائكم. وجاء أيضا: «لا تقل فى قلبك لأجل أدخلنى الرب لأمتلك هذه الأرض... ولكن... ولكى يفى بالكلام الذى أقسم الرب عليه لآبائك إبراهيم وإسحاق ويعقوب»(١) وهدف العهد هنا تتبارك فيك جميع الأمم، والبركة المقصودة هنا هى وصول رؤية الله وأهدافه ووصاياه إلى كل الأمم من خلال شعب إسرائيل أى أن تكون إسرائيل خادمًا للأمم إذ هو ينقل إرادة الله إليهم، لذلك أوصى الله شعب إسرائيل بمحبة الغريب وحسن معاملته والمحافظة على حقوقه أو التمييز العنصرى الذى كان حينئذ بين الشعوب الأخرى «تكون شريعة واحدة لمولد الأرض وللنزيل بينكم(٢)» ولقد طرد الله الشعوب من أمام إسرائيل وملكها الأرض لا لكى يعطى امتيازا لإسرائيل ولكن لأنه أراد معاقبة هذه الشعوب لأنهم لم يطيعوه وفعلوا الشر أمامه «بكل هذا لا تتنجسوا لأنه بكل هذه قد تنجس الشعوب الذين أنا طاردهم من أمامكم فاجتزئ منها فتقذف الأرض سكانها(٣)» ويعلن الله بوضوح أنه فى حالة عدم طاعة إسرائيل وخضوعها سوف يعاقبها كما عاقب الأمم من قبل فلا تقذفكم الأرض بتنجيسكم إياها كما قذفت الشعوب التى قبلكم(٤).

ومن هنا نرى أن الخط الذى يصل بين عطية الله ودينونته هو طاعة بنود العهد فبينما يطالبهم الله بتحطيم أصنام الكنعانيين يأمرهم بطاعة ناموس موسى، وقبل دخول الشعب إلى الأرض وضع الله أمامهم تلك البنود الأربعة سالفة الذكر. فهل تحققت على مراد الله أم عصوا الله ولم يحقق بنو إسرائيل منها شيئًا؟ إن الإنسان يمكنه أن يستخلص مما سبق:

(١) سفر التثنية ٧: ٧-٩.
(٢) سفر الخروج ١٢: ٤٩.
(٣) سفر اللاوين من ١٨: ٢٤.
(٤) سفر اللاوين ١٨: ٢٨.

- هبة الأرض لا تنفصل عن العهد فكلاهما يكمل بعضه بعضا .

- أهمية الطاعة.

- الدينونية لرفض العهد.

ج- غدر اليهود وعقاب الله لهم:

وهكذا دخل شعب إسرائيل الأرض على أساس البنود الأربعة سالفة الذكر، ولكن ماذا حدث؟ يقول كوستي منديلي: «إن مأساة إسرائيل التاريخية كانت فى الصراع الممزق الذى عاشه بين وعيه لذاته كشعب لله مقدس وبين جنوحه إلى مجاراة سائر الأمم المحيطة من جهة أخرى، ولقد استمر شعب إسرائيل يتأرجح باستمرار بين خيار وخيار، وهذا ما قاده إلى الاستسلام لشياطين العنف كسائر الأمم مبتعدا عن خطة الله وعهده أنه يفقد أهم ملامح شخصيته لذلك أوحى لنفسه بأن يخدم الله بهذا الأسلوب وهو ما يسمى بالكذب الجماعى والذى طرفاه دائما طرف ثالث كذاب يتملكان الشعب ويشجعانه على الانحراف والفساد[1].

ومن مظاهر انحرافهم عن الشروط التى فرضها الرب عليهم وتم عقابه لهم على التفريط فيها:

- ترك عبادة الله «عقيدة التوحيد» إلى عبادة الأصنام:

ولقد وقع هذا الحدث فى صحراء سيناء عقب خروج الشعب من مصر حيث صعد موسى إلى الجبل لتلقى الألواح[2] حيث يقول الله سبحانه وتعالى ﴿**وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ**﴾ [الأعراف: ١٤٥]، وفى أثناء غيابه طلب الشعب أن يصنع لهم عجلا ذهبيا لكى يعبدوه قائلين: اصنع لنا آلهة تسير أمامنا والمعنى هنا أننا نريد إلها يتماشى مع أهوائنا ومطالبنا ومع باقى الشعوب الذين من حولنا لكى نحارب به بدلا من ذلك الإله الأخلاقى الذى يدعو إلى الحب والسلام والعدل .

---

(١) كوستى مانديلى. إسرائيل بين الدعوة والرفض. بيروت لبنان. منشورات النور١٩٨٥.

(٢) هذه الألواح هى المتضمنة التوراة، وهى تتضمن خمسة أسفار أو كتب على النحو التالى: أ- سفر التكوين. ب- سفر الخروج. جـ- اللاويين. د- سفر العدد. هـ- سفر التثنية. انظر: الفكر الدينى اليهودى. أطواره ومذاهبة. الدكتور حسن ظاظا (١٤، ١٥) دار القلم. دمشق.

- استخدام العنف فى تملك الأرض:

وما كان غزو إسرائيل لشعب فلسطين كأى غزو لشعب من شعوب العالم القديم بل غزو تمارس فيه كل صنوف الوحشية والقتل والجرائم، يرتكبون هذه الأعمال لأجل إلههم فى إطار وعد الله لهم فترة الغزو هذه والتى امتدت من ١٥٠ إلى ٢٠٠ سنة صار فيها الشعب الإسرائيلى كأمة من الأمم، أمة محاربة طامعة ظالمة. وهكذا بدلا من أن يرتفع ويسمو بممارسة أخلاقيات الله العلى أنزلوا الله وجعلوه يتخلق بأخلاقهم؛ فيقتل ويخرب ويدمر ويبرر عنف شعبه ويضفى صفة القدسية على مشاريعه التوسعية وإذا بيهوه وقد حولوه إلى بعل «صنم» دموى ومنتقم.

- رفضهم حكم الله:

كان المسمار قبل الأخير فى نعش إسرائيل هو رفضهم لحكم الله ومطالبتهم لملك أرضى قائلين: «اقسم علينا ملكا مثل سائر الأمم»(١).

وعندما مسح داود(٢) ملكا رسخ مملكة إسرائيل فى الأرض التى تم غزوها وثبت أركانها ودعائمها، وعندما أراد أن يكمل مشروعه السياسى العسكرى ببناء هيكل لله كان رفض الله قاطعا بأنه لن يوقع بإمضائه على كل جرائم داود الملك، ورفض أن يتقبل منه مثل هذه الهدية كإكرام لله. وقد كانت صدمة مريرة لداود الذى لا يشك لحظة فى إيمانه أو نبوءته أو إخلاصه الشديد لله لأنه إذ أراد أن يقيم حكما عسكريا سياسيا على أشلاء الشعوب الأخرى كان رفض الله الحاسم لهذا التصرف لداود كشخص، وقد ضمن داود هذا الحدث فى وصيته لابنه ووليفه فى المملكة سليمان «وقال داود لسليمان: يا ابنى قد كان فى قلبى أن أبنى بيتًا لاسم الرب لهى فكان إلىَّ كلام الرب قائلا: قد سفكت دما كثيرا وعملت حروبا عظيمة فلا تبنى بيتًا لاسمى لأنك سفكت دماء كثيرة على الأرض أمامى(٣).

---

(١) سفر إسرائيل ٨: ٥.

(٢) المسيّا أو المسيح بالعربية وتعنى شخص ممسوح من الله أو معين منه لإنقاذ شعبه وتخليصه من أعدائه. وقد انتظر شعب اسرائيل المسيّا الذى يملأ الدنيا عدلاً ويهزم أعداءه بحد السيف. الإختراق الصهيونى للمسيحية. القس إكرام لمعى ص ١٦ ويشير القس إكرام فى كلامه السابق إلى أن الله لم يتقبل من داود هديته وهى الهيكل لأنه قتل وسفك الدماء الكثيرة على الأرض. المصدر السابق ص ١٦٣-١٦٥ ونظرة هذا القس غير محترمة لنبى الله داود كما جاء فى القرآن الكريم حيث أكرمه الله بالرياح والجبال التى كانت تسبح معه، وألان الله له الحديد ليصنع دروعًا سابغات إلى غير ذلك من كرامات لذلك النبى صلوات الله عليه.

(٣) سفر أخبار الأيام الأول ٣٢: ٧، ٨.



- استخدام العنف داخل المملكة:

ولقد كانت النتيجة الطبيعية لانسياق إسرائيل للسطوة والعدوان ازدياد هجوم وعدوان جيرانه عليه، مما تبع بالتالى أن يزداد هو عنفا وتسلطا، وكان طبيعيا أن يمتد هذا العنف إلى الداخل، فالملك العنيف بالخارج والذى له قدرة على سحق أعدائه، كان عليه أن يتوجه وبنفس الأسلوب إلى الداخل مع قادة مملكته، فانتشر القهر والظلم، وكان للقانون سيادته على الضعيف والفقير فقط، وعندما وصل شعب إسرائيل إلى هذه الدرجة من العنف كان يحفر قبره بيده، لأن العنف يؤدى حتما إلى الموت.

وعلى الرغم من تسلط الملوك وظلمهم كان هنالك الأنبياء الذين يقرعون أجراس الخطر قبل الانهيار الشامل للمملكة، ونسمع هذه الكلمات: «لأنك جعلت ثقتك بعرباتك، وبكثرة محاربيك فستقوم الجلبة فى مدنك وستخرب جميع حصونك»[(١)].

«اسمعوا هذا يا رؤساء بيت يعقوب وقضاة بيت إسرائيل الذين يكرهون الحق ويعوجون كل مستقيم، الذين يبنون صهيون بالدماء وأورشليم بالظلم، رؤساؤها يقضون بالرشوة وكهنتها يعلمون بالأجرة وأنبياؤها يعرفون بالفضة وهم يتوكلون على الرب قائلين: أليس الرب فى وسطنا لا يأتى علينا شر، لذلك بسببكم تفلح صهيون كحقل وتصير أورشليم خربا وجبل البيت شوامخ وعر»[(٢)].

«ويل للبانى مدينة بالدماء وللمؤسس قرية بالإثم»[(٣)] «وحل على روح الرب وقال لى قل. هكذا قال الرب. هكذا قلتم يا بيت إسرائيل وما يخطر ببالكم قد علمته. قد كثرتم قتلاكم فى هذه المدينة وملأتم أزقتها بالقتلى. قد فزعتم من السيف فالسيف أجلبه عليكم يقول السيد الرب. فتعلمون أنى أنا الرب الذى لم تسلكوا فى فرائضه ولم تعملوا بأحكامه بل عملتم حسب أحكام الأمم الذين حولكم»[(٤)].

قد حرثتم النفاق. حصدتم الإثم. أكلتم ثمر الكذب. لأنك وثقت بطريقك بكثرة أبطالك. يقوم ضجيج فى شعوبك وتخرب جميع حصونك كأخراب شلمان بيت أربئيل فى يوم الحرب. الأم مع الأولاد حطمت[(٥)].

---

(١) سفر يوشع ١: ١٢، ١٤.
(٢) سفر ميخا ٣: ٩-١٢.
(٣) حبقوق ٢: ١٢.
(٤) سفر حزقيال ١١: ٥، ٦، ٨، ١٢.
(٥) سفر يوشع ١٠: ١٣، ١٤.

- النفى من الأرض:

إذا كانت الأرض هبة من الله ومشروطة بطاعة الواهب فالنتيجة الطبيعية هى أنه فى حالة من العصيان ينفون من الأرض «إذ ولدتم أولادًا وأولاد أولاد وأطلتم الزمان فى الأرض وفسدتم وصنعتم تمثالاً منحوتًا صورة شىء ما وفعلتم الشر فى عينى الرب إلهكم لإغاظته، أشهد عليكم اليوم السماء والأرض أنكم تبيدون سريعا عن الأرض التى أنتم عابرون الأردن إليها لتمتلكوها. لا تطيلون الأيام عليها بل تهلكون لا محالة. ويبددكم الرب فى الشعوب فتبقون عددا قليلا بين الأمم التى يسوقكم الرب إليها»(١).

ولقد تحقق التحذير عام ٧٢١ ق.م على المملكة الشمالية وصعد ملك أشور على كل الأرض وصعد إلى السامرة وحاصرها ثلاث سنين. فى السنة التاسعة ليوشع أخذ ملك أشور السامرة وسبى إسرائيل أشور وأسكنهم فى صلح خابور ونهر جوزان وفى مدن مادى، وكان بنو إسرائيل أخطأوا إلى الرب إلههم الذى أصعدهم من أرض مصر من تحت يد فرعون ملك مصر واتقوا آلهة أخرى وسلكوا حسب فرائض الأمم الذين طردهم الرب من أمام بنى إسرائيل وملوك إسرائيل الذين أقاموهم فغضب الأب جدا على إسرائيل ونحاهم من أمامه ولم يبق إلا سبط يهوذا وحده(٢).

ثم على المملكة الجنوبية يهوذا «فقال الرب على تركهم شريعتى التى جعلتها أمامهم ولم يسمعوا لصوتى ولم يسلكوا بها بل سلكوا وراء عماد قلوبهم التى علمهم إياها آباؤهم. لذلك هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل: ها أنا ذا أطعم هذا الشعب أفسنتينا وأسقيهم ماء العلقم وأبددهم فى أمم لم يعرفوها هم ولا آباؤهم وأطلق وراءهم السيف حتى أفنيهم(٣).

---

(١) سفر التثنية ٤: ٢٥، ٢٦، ٢٧.

(٢) سفر الملوك الثانى ١٧: ٥-٨-١٨.

(٣) أرميا ٩: ١٣، ١٦.

ودينونة الله للشعب هنا بالقول: «بيتى وميراثى تتضمنه أيضا دينونة على الأرض وليس على إسرائيل فقط»، والجدير بالملاحظة هنا أن الله يستخدم نفس الملاحظات على الشعوب الأخرى «قد تركت بيتى، رفضت ميراثى، رفعت حبيبة نفسى ليد أعدائها، صار لى ميراثى كأسد فى الوعر نطق عاليًا بصوته من أجل ذلك أبغضه. جارحة ضبع ميراث للجوارح حواليه عليه هلم اجمعه، كل حيوان العقل إيتوا بها للأكل، رعاة كثيرون أفسدوا كرمى، داسوا مصيبى جعلوا نصيبى المشتهى برية خربة، جعلوه خرابا يا نوح عليا وهو خرب خربت كل الأرض لأنه لا أحد يضع فى قلبه»(١).

٢- دولة إسرائيل والمجئ الثانى للمسيح:

لقد كان لأورشليم(٢) دائما أهمية خاصة عند الأنبياء خاصة عندما يتحدثون عن مستقبل إسرائيل، أما عندما تحدث عنها المسيح فقد تحدث عنها كما كان سوف سيخرب ويهدم وذلك بسبب مقاومتها لرسالته واضطهاده وقتله، فلقد تحدث السيد المسيح عن خراب أورشليم بالقول: يا أورشليم يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين، إليها كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم ترد، هو ذا بيتكم يترك لكم خرابا(٣)، «وفى ما هو خارج من الهيكل قال له واحد من تلاميذه: يا معلم انظر ما هذه الحجارة وهذه الأبنية. فأجاب يسوع وقال له: أتنظر هذه الأبنية العظيمة لا يترك حجر على حجر لا ينقض»(٤).

وهذه الكلمات مأخوذة بالنص عن حديث أشعياء عن خراب بابل «هو ذا يوم الرب قادم قاسيًا بسخط وحمو غضب ليجعل الأرض خرابا ويدين منها خطاطتها فإن نجوم السموات وجبابرتها لا تبرز نورها، تظلم الشمس عند طلوعها والقمر لا يلمع بضوئه»(٥).

---

(١) سفر أرميا١٢: ٧-١١، وانظر أيضا الاختراق الصهيونى للمسيحية ص١٦٧.

(٢) كوستى منديلى. إسرائيل بين الدعوة والرفض. بيروت منشورات النور ١٩٨٥.

(٣) متى ٢٣: ٣٧. (٤) انجيل مرقس ١٣: ١، ٢.

(٥) سفر أشعياء ١٣: ٩، ١٠.

وهنا نلحظ أن السيد المسيح قد ربط فى ذهنه بين بابل الوثنية وأورشليم فى سر خرابها، ولقد أراد المسيح بهذا الربط أن يعلن لسامعيه من اليهود أن الله سوف يعاقب المدينة المقدسة أورشليم بنفس الطريقة التى عاقب بها المدينة الوثنية بابل أى أن المدينتين تساويتا فى نظر الله، ذلك لأن طريق العودة إلى الله لم يعد يمر حتما من أورشليم، بل صار هنالك طريق عالمى جديد غير مرتبط بجنس أو عنصر للعودة إلى الله.

فى حرب ١٩٦٧م اجتاحت القوات الإسرائيلية أورشليم وهنا ارتفعت أصوات بعض مفسرى الكتاب المقدس بالقول إن ما تنبأ به المسيح عن خراب أورشليم قد وقع عندما قال: «ويقعون بفم السيف ويسبون إلى جميع الأمم وتكون أورشليم مدوسة من الأمم حتى تكمل أزمنة الأمم»[١]، وفى ترجمة أخرى «حيث ينتهى وقت الأمم» وقال هؤلاء المفسرون: إنه لاجتياح اليهود لأورشليم انتهى وقت الأمم وعادت أورشليم إلى اليهود وهذه إحدى علامات المجئ الثانى للمسيح. ومشكلة هؤلاء المفسرين أنهم يأتون بأفكار من الصعب جدا أن تجدها فى النص أو فى خلفيته وهم من أصحاب التفسير النفسى والاجتماعى للكلمة المقدسة، وأصحاب هذه النظرية يأتون بأفكار جاهزة ومعدة سلفا يعكسونها على الكلام المقدس ليخرجوا بتأييد من الوحى لنظرياتهم. وعلى أية حال فإن أورشليم بالنسبة للسيد المسيح لم تكن سوى المدينة التى أعلن فيها رسالته وحوكم فيها وحُكم عليه بالموت، ولأن المدينة لم تقبل رسالة المسيح ولم تتجاوب مع فكر الله وفشلت فى فهمه، لذلك أراد الله لها خرابا، وفى هذا لم يخرج الله عن خطه الواضح على طول الطريق، فكل مدينة أرسل الله لها أنبياء ورسلاً ورفضتهم كان عقابها ببساطة هو الخراب وهكذا نرى أن عهد الله مع شعب معين سواء من وعد بأرض معينة أو تأسيس دولة لم يعد له مكان فهو ضرب من العنصرية لم يقبله سوى من لا يدرك عمق فكر الله واتساعه.

---

(١) إنجيل لوقا ٢١: ٢٤.

وقد تحقق عهد الله مع إبراهيم كما جاء فى سفر الرؤية آخر أسفار العهد الجديد من الكتاب المقدس على النحو التالى:

أ- الوعد بالأرض: لم يعد وعدا بأرض فلسطين لليهود فقط بل أصبح الوعد للأرض كلها لشعب الله الذين يقبلونه من كل أمة، وفى نهاية الأيام ستكون أرضًا جديدة وسماء جديدة لكل المؤمنين «ثم رأيت سماء جديدة وأرضا جديدة لأن السماء الأولى والأرض الأولى مضتا والبحر لا يوجد فيما بعد»(1).

ب- الوعد بعلاقة خاصة بين الله وشعبه وهم المؤمنون جميعا، تحققت الآن بإعلان الله ذاته لكل البشر وحياته معهم وسوف يكونون هم شعبه «وسمعت صوتا عظيما من السماء قائلا: هو ذا مسكن الله مع الناس وهو سيسكن معهم وهم يكونون له شعبًا والله نفسه يكون معهم إلهًا لهم(2).

ج- الوعد ببركة كل شعوب الأرض ولم تخص اليهود فقط كما يدعون: سوف تتحقق فى النهاية فى الجمهور العظيم الذى لا يستطيع أحد أن يعده من كل أمة وشعب وقبيلة، والقبائل والشعوب والألسنة واقفون أمام العرش وأمام الخروف متسربلين بثياب بيض وفى أيديهم سعف النخيل(3).

د- أما القول بأن عودة شعب اليهود إلى فلسطين وتأسيس دولة إسرائيل إنما هو تمهيد للمجئ الثانى للمسيح حرفيًا لمدة ١٠٠٠ عام فهذا ما سنوضحه فى الدراسة التالية:

دولة إسرائيل والمجئ الثانى للمسيح: تعتبر عقيدة المجئ الثانى من العقائد المتميزة فى المسيحية إذ تعتبر أحد الأركان الأساسية للإيمان المسيحى، فيؤمن المسيحيون بأن ملكوت الله يوجد الآن فى العالم من خلال شعبه الذى يؤمن به ويجعله ملكا على

(1) سفر الرؤية ٢١: ١.

(2) سفر الرؤية١٢: ٣.

(3) سفر الرؤية ٧: ٩. العبارة تظهر مدى طاعة الناس لله تعالى وفرحتهم الشديدة برضوان الرب عنهم وهم فى ملابسهم البيضاء وبأيديهم سعف النخيل. أما ذكر كلمة الخروف. فربما تكون إشارة إلى إسحق النبى فإنهم يعتبرونه الذبيح وليس إسماعيل عليهما السلام. لقد اعتمدنا فى الحديث عن هذا الجزء على رؤية العهد القديم كتاب اليهود المقدس حتى يكون الكلام دليلا أكيدا على تحريفهم للتوراة. أما الرؤية الإسلامية التى جاءت فى القرآن الكريم فهى الأصدق والأوثق وليس هذا بخافٍ على أحد.

حياته، وسوف يعلن ملك الله للعالم بقوة فى اليوم الآخر بالمجئ الثانى للمسيح، ونحن الآن نعيش زمن ما بين مجيئين للمسيح، فالمجئ الأول والذى وقع من ألفى عام، ويتوقع المجئ الثانى الذى لا يعرف أحد موعده. ويعتبر المجئ الثانى من أهم موضوعات الإنجيل، فلا يخلو سفر من أسفاره من الحديث عن المجئ الثانى للمسيح وكل مسيحيى العالم تقريبا يؤمنون بهذه العقيدة إلا أن الاختلاف يقع فى كيفية وتفاصيل هذا المجئ، كانت هى الثغرة التى نفذت منها الصهيونية لتقنع بعض المسيحيين بأنها كدولة علمانية عسكرية إحدى علامات المجئ الثانى وخاصة أن التاريخ اليهودى هو الخلفية الأصلية للمسيحية والإسلام كما يزعمون[1]. ولذلك كان انسلاخ المسيحية من اليهودية من الأمور الصعبة والتى حملت معها بعض الشوائب أهمها:

توقع مجئ المسيا[2] العسكرى الذى يحارب ويحكم العالم حكما ماديا وبهذا تعتبر المسيحية من وجهة نظرهم كإحدى الطوائف اليهودية وإن لم يعلنوا هذا بوضوح، فهم يؤمنون بأن المسيح فى مجيئه الأول كان لأجل الأمم فقط لذلك فرسالته تعتبر فرعا من اليهودية الأصلية، وفى مجيئه الثانى سيأتى لأجل اليهود بنفس عقيدتهم القديمة من مسيا القوة والعنف وبهذا تعود المسيحية إلى الشجرة الأم اليهودية ويثبت عدم زيف عقيدتهم مع التأكيد على وهم مسيا السلام، فعقيدة المسيا القومى ما زالت قائمة لديهم رغم نفى المسيح القاطع لهم، وطبقا لذلك فالمسيحية ليست إلا مرحلة وسطى تنتهى بانتهاء مهمتها، فعودة المسيح سوف تكون بصورة قوية تراجيديا إذ يأتى هذه المرة ليقف مع إسرائيل فى مواجهة كل من قوى الشر فى العالم ويهزمها فى موقعة دموية قاسية يقتل فيها ثلثى العالم وبعد

(١) فهم يدعون أن القرآن من عند محمد ﷺ وأنه أخذه عن العهد القديم والعهد الجديد. من تراتيل الزبور والمسيحيين فى الصلاة.

(٢) المسيّا أو المسيح بالعربية. تعنى شخص ممسوح من الله بالبركة والتأييد، وهو مختار لإنقاذ شعبه وتخليصه من أعدائه. وعندما جاء المسيح اعتقد البعض منهم أنه المسيّا، ولكن لعدم ميله إلى العنف وإعلان أن ملكوته روحى رفضوه وحاكموه وحكموا عليه بالصلب. أما الذين استمروا فى إيمانهم به دُعوا مسيحيين. واستمر الباقى من اليهود ينتظرون المسيّا حتى اليوم. الإختراق الصهيونى للمسيحية ص١٦.

الانتصار على هذه القوى الشريرة يقوم المسيح بحكم العالم وكأنه صعب على هؤلاء مجئ المسيح الأول بكل هذا الضعف فلابد أن يأتى مرة ثانية بقوة وليس بقوة فقط بل بقوة وعنف كما كانوا يتوقعونه فى مجيئه الأول وخيب رجاءهم.

لذلك سيأتى ويحكم لمدة ألف عام على الأرض، وبناء على هذا الفكر ظهر فى تاريخ الفكر المسيحى اللاهوتى عدة نظريات لهذا المجئ سوف نناقش أهمها وأكثرها شهرة:

نظريات الملك الألفى: جاءت هذه النظريات جميعًا نتيجة لما كتب فى سفر الرؤية «من آخر أسفار الكتاب المقدس» عن ملك المسيح لمدة ألف عام وفيه يحكى يوحنا الرسول رؤيا كان قد رآها فى مستقبل العالم ونص هذا الجزء كما يلى: «ورأيت ملاكا نازلا من السماء معه مفتاح الهاوية وسلسلة عظيمة على يده فقبض على التنين الحية القديمة الذى هو إبليس والشيطان وقيده ألف سنة وطرحه فى الهاوية وأغلق وختم عليه لكى لا يضل الأمم فيما بعد حتى تتم الألف سنة، وبعد ذلك لابد أن يحل زمانا يسيرا. ورأيت عروشا فجلسوا عليها وأعطوا حكما ورأيت نفوس الذين قتلوا من أجل شهادة يسوع ومن أجل كلمة الله الذين لم يسجدوا للوحى ولا لصورته ولم يقبلوا السمة على جباههم وعلى أيديهم وعاشوا وملكوا مع المسيح ألف سنة. وأما بقية الأموات فلم تعش حتى تتم الألف سنة. هذه القيامة الأولى مبارك ومقدس من له نصيب فى القيامة الأولى هؤلاء ليس الموت الثانى سلطانًا عليهم بل سيكونون كهنة لله وللمسيح وسيملكون معه ألف سنة. ثم متى تمت الألف سنة يحل الشيطان من سجنه ويخرج ليضل الأمم الذين فى أربع زوايا الأرض يأجوج ومأجوج يجمعهم للحرب الذين عددهم مثل رمل البحر فصعدوا على عرض الأرض وأحاطوا بمعسكر القديسين وبالمدينة المحبوبة فنزلت نار من عند الله من السماء وأكلتهم وإبليس الذى كان يضلهم طرح فى بحيرة النار والكبريت حيث الوحش والنبى الكذاب وسيعذبون نهارا وليلا[1].

(١) سفر الرؤية ٢٠: ١-١٠

٣- السامية(*) والتعصب العنصرى:

تعد السامية أو اللاسامية ابتداعا جديدا تسعى الصهيونية اليوم إلى تكريسه فى إطار مشروعها التوسعى العالمى، وكانت تظهر هذه الكلمة أو تلك بين الحين والآخر وإن كان بينهما اختلاف، فالعنصرية والتعصب العنصرى هى تهمة تلقيها الصهيونية على كل من يعارض خططها وامتداداتها السرطانية الاستعمارية فى المنطقة العربية، ومناطق نفوذها فى الغرب الأوروبى. ورغم ما تسعى إسرائيل إلى تحقيقه عن طريق هذه الكلمة إلا أن لفظة اللاسامية تبقى كلمة دخيلة على حياتنا السياسية اليوم، وأول من تحدث عنها عالم اللاهوت الألمانى النمساوى شلوتربر ومع هذا فإن فى هذا المصطلح كثيرًا من التجاوز لأن الكثيرين من الصهاينة العالميين لم يكونوا يهودًا، وبالتالى فهم حتى بالاعتبار اليهودى الكاذب للكلمة ليسوا ساميين، ثم إن الكثير من اليهود ليسوا يهودًا أصلاً، مثل يهود الخزر ويهود الفلاشا إلى غير ذلك فهل يعد أولئك ساميين.

وإذا كان اليهود قد استغلوا الهولوكوست(١) ينتفعون من ورائه ويستدرون به عطف الأمم الغربية فإن السامية هى الأخرى أصبحت تجارة صهيونية تبنى على

(*) السامية واللاسامية: مصطلحان ظهرا فى منتصف القرن العشرين إبان الحرب العالمية الثانية. وقبل هذا التاريخ لم يكن هناك ما يعرف فى القاموس السياسى بهذين المصطلحين، وكان هذان المصطلحان ينحصر استعمالهما فى نطاق اللغويات والكتابات الآثرية إذ أعتبرت اللغات السامية من أقدم اللغات فى العالم ومنها العربية والعبرية والأمهرية وغير ذلك من لغات. أما الساميون هم مجموعة من الشعوب سكنت بلاد الرافدين والشام والجزيرة العربية وشمال أفريقيا والحبشة وهم جميعًا ينتسبون إلى سام بن نوح «عليه السلام» ومن هنا جاءت التسمية. بعد الحرب العالمية الثانية تحولت السامية من لغة وعرقية إلى عقيدة وأيديولوجية سياسية تبنتها الحركة الصهيونية بعد الهولوكوست وغرف الغاز أو المحرقة والتى تزعم هذه الحركة أن الزعيم النازى أدولف هتلر قد أقامها لليهود فى ألمانيا وذهب ضحيتها عدد كبير منهم حسب زعمهم، وبعد انتصار الحلفاء فى الحرب، ونتيجة لتراكمات تاريخية طويلة تحولت السامية إلى «لاسامية» أى استخدم اليهود مصطلح «اللاسامية» باعتبارها تهمة تمس كل من يعارض أو يشكك فى حجم المحرقة وتطور الأمر إلى إطلاق «اللاسامية» على كل من لا يتوافق مع التيار الصهيونى العالمى والدولة الإسرائيلية.

(١) هو مصطلح تم استخدامه لوصف الحملات الحكومية المنظمة من قبل حكومة ألمانيا النازية وبعض حلفائها بغرض الاضطهاد والتصفية العرقية لليهود فى أوروبا أثناء الحرب العالمية الثانية، وسوف نفصل الكلام عنه فيما بعد.

معطيـات عنصرية حاربتهـا الأديان والاتفاقيات الـدولية، مما يجعل التبنى اليـهودى للكلمة يدخل فى إطار المعتـقدات التلمودية القائمة على عقـدة الأفضلية «شعب الله المختار». تلك الأسطورة التى حـاول اليهود أن يميزوا بها أنفسـهم عن باقى شعوب الأرض وقد زعموا أن الله لهم وحدهم دون غيرهم ولم يقبلوا مشاركة أحد لهم فى هذا الاحتكار. ويقول المفكر المسلم جارودى: ولن تراهم قط مـبشرين بدين يدعون الناس إلى الدخول فيـه خلافا لأصحاب الأديـان أجمعين، إنهم كأصـحاب الميراث الذين لا يقبلون شريكا فـيه أو كأصحاب الشركة التى ينفـردون بها لا يوزعون على أحد سهمـا من أرباحها[1]. إن لفظة السامـية تلك ما هى إلا أسطورة من أسـاطير اليهود العديدة التى بنوا عليهـا دولتهم وهى لفظة عنصرية باطلة وما بنى على باطل فهـو باطل. لكن الحـاخامـات اليهـود بدأوا يأخذون أبعـادهم من نصوص الـتوراة والتلمود، مما أضفى على لفظة السامية أبعادا جديدة تجلت على يد العديد من اليهود العنصريين أمثـال «لودفيغ فون غومبلونيز» والذى أقرّ فى كـتابه «العنصرية والدولة» الصادر عام ١٨٧٥ بوجـود فوارق عرقية طبـيعية فى المجـتمعات البشـرية. كما أن الدعوة اليهودية إلى فكرة التـفوق العنصرى لاقت استحسانًا مقـبولاً لدى الفيلسوف الألمانى «نيتشة» الذى قيم اليهود تقييمًا عاليًا فى أبحاثه عن الإنسان الخارق.

وقبل الـقرن الثامـن عشر الميـلادى لم تذكر المـصادر التاريـخية العـالمية كلـمة الساميين، فاللـغات اليونانية واللاتينية والفارسية والهندية والصـينية لا تذكر كلمة سام وحام أو يافث فى جـميع فروع آدابها. هذا يعنى أن العرب واليـهود ينضوون تحت اسم واحد وهو «السامية» غير أن الذى حـدث أن اليهود أرادوا الاستئثار بهذه الاسم فتسـموا «بالساميين» وعـدوا العرب والمسلمين أعداء للسامـية أى أن الكلمة أخذت معنى جديدًا عند اليهود هو غير المعنى الذى أشار إليه شلوتزر.

إن اليهـود لا يحاربون اللاسـامية بل هم يـعملون على معـاداة السامـية -وهم العرب الساميـون- ولعل فهم هذه الإشكالية هو الذى يوفر الكثيـر لفهم منطلقات

---

(١) جارودى والحضارة الإسلامية. الطبعة الثانية. أمينة الصاوى والدكتور عبد العزيز شرف ص١٢٠.

مآرب عـدونا. فهناك من أقطاب الحركـة الصهيـونية من ليس سامـيًا أى من ليس يهوديًا. «فـريتشارد مـايزتز هاجن» وهو أحد الضبـاط السياسيـين للجنرال اللينبى يعتـرف بأن صهـيونيتـه تقوم على غـريزته اللاسامـية التى حورتهـا وأثرت فيـها الاتصالات الشخصية. وكان يقول أيضًـا: «إننى مشرب بعواطف لاسامية، وأتمنى لو تنفصل الصـهيونية عـن القومية اليـهودية ولكنها لا تسـتطيع ذلك، إننى أفضل قبولها على حـالها على أن أرفضها لأسباب غـير جوهرية». وقال: «إن آرائى عن الصهـيونية هى آراء صـهيونى مـتحمس والأسـباب التى أثارت فى نفسى إعـجابًا بالصهيونية كـثيرة ومتنوعة، ولكنها متأثرة بشكل رئيس بـوضع اليهود غير المرضى فى العالم، والميل العـاطفى الكبير لإعـادة إيجاد جنس بعد تشـرد دام ألفى عام، والقناعة بـأن الأدمغة والأمـوال اليهودية إذا مـا ساندتهـا فكرة قوية كالصـهيـونية تستطيع أن تقدم الحافـز نحو التنمية الصناعية التى تحتـاج إليها فلسطين بشكل ملح بعد أن بقيت أرضًا براحًا منذ بداية العالم.

وبدلاً أيضًا من أن يهاجم هرتزل «اللاسـامية» ويشجبها أعـلن أن «اللاساميين» سيكونون أكثر الأصدقاء الموثوقين، وستكون الدول اللاسامية حليفة لنا.

كمـا أن الباحث الصهيـونى جاكوب كلاتزكن يبـدى احتفاء كـبيرًا باللاسامـية باعتبارها حليفًا للإسرائيليـين، وحين يتطرق رجاء جارودى فى كتابه «إسرائيل بين الهوية والصهيونية» لقضية الصهيونيـة الدينية والسياسية ويبرز أفكار كاتب صهيونى متعصب مثل «مارتن بوبر» يقول عنه: إنه يـكشف عن الجذر العميق لهذا التحوير فى الصهيـونية السياسـية الناشئة ليس عن الديانـة اليهودية بل عن النزعة القـومية الأوروبية للقـرن التاسع عـشر، فالصـهيونيـة بهذا المعنى تدخل فى إطار الفلسـفة الأوروبية العنصرية الاستـعمارية غير أن الذى حدث أن الصهـاينة استطاعوا إيجاد امتزاج بين الأدبيات اليهودية القائمـة على العودة وفكرة الميعاد والشعب المختار من جـهة، وبين النزعـة الاستـعـمارية من جـهة ثانيـة، وبذلك تحـولت فلسطين من مستـعمرة إسرائيلية تمامًا كـما كانت دول عربية أخـرى كثيرة مستـعمرة من طرف بريطانيا وفرنسا وأسبانيا إلى حق شرعى دينى.

إن حركة اليهود ونقمتهم واستنكاراتهم ليست موجهة ضد اللاساميين «غير اليهود»، إذ لو كان الأمر كذلك كان الساميون محل رضا منهم، غير أن الصورة ليست بهذا اللون، والبركان اليهودى لا يتفجر سوى على من يوصف بمعاداة السامية حتى وإن كان ساميًا. إن بلفور هو أحد الصهاينة اللاساميين وقد أعطى مثالاً بارزًا جعل الإسرائيليين يطمئنون إلى أن اللاسامية ليست بالضرورة معاداة للسامية.. ولم تكن لاسامية بلفور أبدًا مدعاة للدخول فى دائرة الغضب الإسرائيلى إلا بعد عام ١٩٠٥م عندما أصبح من أولويات بلفور إقرار قانون يحد هجرة اليهود من أوروبا الشرقية. عندها تعرض بلفور لهجوم فى المؤتمر الصهيونى السابع بسبب اللاسامية المكشوفة فى سياسته المعادية للهجرة اليهودية. واتهمه المندوب الإنجليزى للمؤتمر م.شايرد «باللاسامية» الصريحة ضد الشعب اليهودى. إن بلفور كان طوال سنوات لا ساميًا يعمل لتحقيق الحلم اليهودى «وطن إسرائيل» وكانت لا سامية صادقة غير أنها تحولت فجأة بعد موقف لم يعجب اليهود إلى سامية معادية ومضادة للإسرائيليين.

إلا أن ردود الأفعال ضد التفكير العنصرى التوراتى التلمودى هذا قد تجلى واضحًا عند الفيلسوف «أويغين دوينغ»، فقد حاول هذا الرجل أن يشرح فكرة اللاسامية العنصرية فلسفيًا وفيزيولوجيًا وحضاريًا فى كتابه الصادر عام ١٨٨١م بعنوان «المسألة اليهودية مشكلة عرقية وأخلاقية وحضارية» فهو يرى أن اليهودى هو من أحط المخلوقات فى الكون. وهو غير مبدع وسارق ويحصد جهد الشعوب الأخرى، ويعتدى على منجزاتهم الحضارية ويتنكر لكل ما قدم له من أفضال. ويقترح عزل اليهود عن المجتمع وعدم مساواتهم بمواطنى الدول التى يعيشون فى كنفها. فهذا الرأى لليهود أدى إلى وصف دوينغ بأنه عدو السامية وسمى المفكرين الذين ساروا على خطاه أمثال المفكر الألمانى «هوستون ستيوارت شامبران» بأنهم أعداء للسامية. هذا وقد أصبح تعبير معاداة السامية مجرد صناعة. وهذا يذكرنا بكتاب «صناعة الهولوكوست» لنورمان فنكلشتاين، والذى اتهم فيه اليهود باستعمال الهولوكوست لتبرير السياسة الإجرامية التى تتبناها إسرائيل فى ابتزاز



الأموال من أوروبا باسم عائلات الضحايا. وقد اتهم فنكلشتاين رغم أنه يهودى ووالده ممن نجوا من جيتو وارسو «عاصمة بولندا» باللاموضوعية والجشع. وهنا يجدر القول إن كلمة «الهولوكوست» تعد ركيزة من ركائز الفكر الصهيونى وكان همُّ الزعماء الصهاينة ينصب حول إيجاد كيفية لترحيل يهود الشتات إلى فلسطين. ويقول «إسرائيل شاحاك» فى كتابه «الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهود»: ينبغى الإقرار فى البداية أن التلمود والأدب التلمودى يحتوى على مقاطع معادية جدًا ووصايا موجهة أساسًا ضد المسيحية. إضافة إلى الاتهامات الجنسية البذيئة ضد يسوع، ينص التلمود أن عقوبة يسوع فى الجحيم هى إغراقه فى غائط يغلى - وهى عبارة تسئ إلى المسيحيين المؤمنين- كما أُمر بإحراق أى نسخة من الإنجيل علانية إذا وقعت فى أيدى اليهود، وبناء على ذلك فقد أحرقت مئات النسخ من الإنجيل علانية فى حفل رهيب فى القدس تحت رعاية «يادلعاخيم» وهى منظمة دينية يهودية تتلقى المعونات المالية من وزارة الشؤون الدينية الإسرائيلية.

ويرى الدكتور عبد الوهاب المسيرى أن انبثاق فكرة معاداة السامية قد نبعت من أن اليهودى ليس له وجود فردى مستقل عن أمته، وأن اليهود كأمة تعد عنصرًا غريبًا ليس له جذور محسوسة وليس له ولاء محدد. ومن هنا فإنهم يمثلون خطرًا حضاريًا واقتصاديًا على الجماعات الإنسانية التى يعيشون فيها، كما أن معاداة السامية تعد ظاهرة اجتماعية مؤقتة فى طريقها إلى الزوال كنتيجة طبيعية لسيادة العقل وانتشار الإخاء والمساواة. وأنصار هذه الظاهرة يرون أن اليهودى لا يختلف فى جوهره عن أى إنسان وبهذا يمكن اندماجه فى الجماعة الإنسانية، وهذا أمر مرغوب فيه لا شك فى ذلك. فهل يقبل اليهود هذا التصور؟! إن هذا التصور يتعارض تماما مع تصور الصهاينة لليهود وهو موقف بطبيعة الحال معاد للسامية لأن الصهيونية ترى اليهود أمة واحدة رغم تشتتهم آلاف السنين فى كل أنحاء الأرض وأنه لا توجد أى فروق جوهرية بين اليهودى الأمريكى واليهودى الحبشى، فالفكر الصهيونى يلغى فردية اليهودى ويجرده من إنسانيته المحسوسة ويقسم العالم إلى

دائرتين الدائرة اليهودية المغلقة والجويم بقية الأمم. وهذا هو جوهر معاداة السامية[١].

فاليهودى شخصية فريدة لا يمكن فهمها ولا يمكن استيعابها، ولهذا كان من الصعب اندماجها مع بقية الأمم. بل يرى كلاتزكين أن الاندماج اليهودى جريمة وخطيئة وعار يحط من كرامة اليهود الإنسانية الفردية[٢].

فاليهودى لا يمكن أن يفر من أسطورته التى تميزه وتميز انتماءه للشعب المختار المضطهد، وإذا اندمجوا اليوم فإنهم يختبئون وراء مواقعهم الجغرافية أو آرائهم الفلسفية، وقد يتخفى اليهودى ويطوف العالم متخفيا ولكنه لا يندمج فإنه من المستحيل أن يكون ذلك الاندماج؛ فالجويم يقفون لهم بالمرصاد رعاعهم المتوحشون يقفون كالذئاب التى تبحث عن فريستها. ويقول سمولنسكين[٣]: والشعب اليهودى ضحية عنف الجويم يعيش كقطيع أو كجماعة من العبيد هدف كل سوط قطيع يرفض الناس أن يدخلوه حتى إلى الإسطبل، وسبب هذه الظاهرة أن معاداة السامية لها وجود قديم أزلى، فيهودية اليهود مثل ختم قايين على جباههم إنها العلامة الأبدية التى كان ينفر منها غير اليهود والتى كانت سبب تعاسة لليهود أنفسهم والتى كانت تميزهم عن بقية شعوب الأرض[٤].

ونخلص من هذا إلى أن اليهودية لم تنفصل عبر التاريخ عن معاداة السامية، وقد وصف ويزمان معاداة السامية بأنها مثل البكتيريا التى قد تكون ساكنة أحيانا ولكن حينما تسنح لها الفرصة فإنها تعود للحياة، وهذه رؤية منحطة للنفس البشرية بلا شك تفترض أن كل الجويم مصابون بهذا النوع من البكتريا الأخلاقية.

---

(١) نهاية التاريخ. دراسة فى بنية الفكر الصهيونى ص٩٨.

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة. (٣) المرجع السابق ص٩٩.

(٤) وقد كانت اليهود إبان العصور القديمة يتخذون إشارات أو علامات كلبس العمامة الصفراء مثلا حتى يميزوا عن بقية أفراد الشعب. ويذكر أن اليهود فى ألمانيا إبان الحرب العالمية الثانية قد أجبروا على اتخاذ شارات معينة على النحو التالى. شارتان من اللون الأصفر لليهود، وشارة من اللون الاصفر على شارة من اللون الأسود للسجناء من العرق الآرى الذين كانت لديهم صفة قرابة مع الأعراق أو الجماعات غير المرغوب فيها.

وإذا كانت معاداة السامية ظاهرة لها قدرة على الثبات وباقية ولا تتغير طبيعتها بمرور الزمن، فإن الصهاينة لا يميزون بين معاداة السامية الدينية التى وجدت فى بعض أنحاء أوروبا فى العصور الوسطى ومعاداة السامية العنصرية التى تستند على العنصرية الحديثة بل إنها تذهب أبعد من ذلك فتصف معاداة العرب للغزو الصهيونى بأنها معاداة للسامية وكذلك مكافحة الحكومة السوفيتية للاتجاهات البرجوازية الصهيونية بين صفوف اليهود السوفيت، وتبقى نفس النظرة ونفس الرؤية القديمة المطلقة: الحمل اليهودى بين ذئاب الجويم. وتقسم الصهيونية عالم الجويم «دول العالم غير اليهودى إلى ثلاثة أنواع»:

أ- دول الاضطهاد والضيق ويقصد بها الاتحاد السوفيتي والدول العربية بطبيعة الحال ولا حل للمشكلة اليهودية فى هذه البلدان إلا عن طريق الهجرة الفردية.

ب- دول مثل دول أمريكا اللاتينية تقف على عتبة تغيرات اجتماعية ستؤدى فى نهاية الأمر إلى خلق ظروف غير مواتية لليهود وحل المشكلة يكون بإقناع اليهود بالهجرة.

ج- دول العالم الحر التى لا يمكن إقناع كل اليهود بالهجرة منها، وهذا وضع يقبله بعض الصهاينة صاغرين وإن كان بعضهم مثل بن جوريون يكافح ضده بكل صلابة.

وحل مشكلة اليهود فى هذه البلاد يكون عن طريق استمرار الكيان اليهودى فيها ولا نجد بعض الصهاينة الذين يساوون بين هذه الدول الحرة ودول القسم الثانى، بمعنى أنهم يرون أن دول القسم الأول تتهددها هى الأخرى الفاشية ومعاداة السامية بل إن الصهيونيين الاشتراكيين يرون أن الذئاب الإمبريالية تعد أفران الغاز ومعسكرات الاعتقال للحملات اليهودية الأمريكية[١].

إن مخاوف الصهيونية بخصوص اليهود السوفيت أو اليهود الأمريكان ما هى إلا تصفية واندماج وكلاهما متعادلان إذ أنهما سيؤديان فى نهاية الأمر إلى نفس الشيء؛ اختفاء الكيان اليهودى الفريد. وقد عبر عن ذلك الزعيم العمالى

(١) نهاية التاريخ. مرجع سابق ١٠١.

الصهيونى بيل كاتز نيلسون ١٨٨٧-١٩٤٤م فى مقال له تحت عنوان «الثورة والتقاليد» يقول: «مادامت إسرائيل مشتتة وتعيش فريسة للاضطهاد والحقد والاحتقار وتغيير الدين قسرا.. وما دام بعضنا يمارس الانعتاق الذى يصلون إليه عن طريق اندماجهم كما فى فرنسا الرأسمالية وروسيا الشيوعية فإنى لن أنسى ولا أستطيع أن أنسى يوما مصيرنا المخيف يوم دمارنا. والدمار هنا يشير إلى افتراس اليهود على أيدى الجويم وإلى اندماجهم بالطرق الليبرالية الفرنسية أو العفوية.

من هذا المنطلق ومن هذا التصور أيضا الذى فهمناه عن السامية تلجأ الدولة الإسرائيلية بين الحين والحين إلى الإرهاب الفكرى للشعوب، إن عجز حكامها عن منطق الإقناع والحكمة فتتهم كل من يعاديها فى أفكارها أو نشاطها بمعاداته للسامية حينئذ يحاكم ويطرد من الجنة إلى الشقاء الدائم وتطارده الأحكام والقوانين الأمريكية التى باتت تدافع عن السامية والصهيونية، واعترفت بها كإحدى الجماعات العالمية المؤثرة فى الكيان الدولى وحرمت القوانين الأمريكية معاداتها أو معاداة السامية، من العجيب أنه قد قامت فى هذه الأيام جمعية تطلق على نفسها اسم «المسيحيون من أجل إسرائيل» ومقرها ألمانيا بنشر إعلان بارز وكبير وقد احتل صفحة كاملة فى صحيفة دى فيلت مؤخرا جاء فيه «المعاداة للسامية. والمعاداة لإسرائيل. والمعاداة لليهودية تتزايد فى معظم أنحاء العالم متخذة وسائل وأساليب متنوعة مفزعة فى الشرق الأوسط وفى أوروبا وفى ألمانيا. وتتعدد صور كره اليهود الأبدى مما ينذر بحدوث نتائج مأساوية لأنهم يهددون وجود كل يهود الشعب اليهودى ودولة إسرائيل وطن اليهود. ويحطمون فى الوقت نفسه كل القيم الإنسانية ويهددون السلام العالمى كما يعرض المسيحيين للخطر».

وقد تنبهت جمعية الصحفيين العرب فى ألمانيا إلى ما ورد فى هذا الإعلان الغريب من نوعه وقامت بترجمته وتوزيعه على مراسلى الصحف العربية ووكالات الأنباء موضحة إفلاس ما يسمى بالدولة العبرية سياسيًا وإعلاميا بعد أن تعرضت

لانتقادات غربية حادة أدت الى اهتزاز صورتها أمام الإعلام الغربى، ابتداء من البدء بمحاكمة مجرم الحرب شارون فى بروكسيل ومرورا بالإعداد لمحاكمة كارمى جيلون سفير إسرائيل الجديد فى الدنمرك بتهمة التعذيب، والإصرار على سياسة الاغتيالات بحق النشطاء الفلسطينيين -التى تتعارض مع اتفاقيات حقوق الإنسان- والاستمرار فى سياسة الاستيطان. . بالإضافة الى استفزاز المسلمين فى المسجد الأقصى واستخدام كل أنواع الأسلحة ووسائل الدمار والقتل فى مواجهة الجماهير الفلسطينية التى لا تملك سوى الإيمان بقضيتها، والحجارة.

وقد كان لجمعية الصحفيين العرب فى ألمانيا نشاط عظيم فى الأوساط الدولية أظهرت إسرائيل كدولة إرهابية فى المنطقة وهى مسعرة الحروب والكراهية وأن جميع زعماء المؤسسة العسكرية فى إسرائيل لم يكونوا أبدا رجال سلام، وقد يقول البعض: إن هاتين جمعيتين متعاديتين كل منهما تريد أن تثبت ذاتها ولكن ماذا نقول عن استطلاع الرأى الذى أجرته المفوضية الأوروبية فى بروكسيل فى بلدان الاتحاد الأوروبى وظهرت نتائجه فى نوفمبر ٢٠٠٣ حيث أكد فيه ما يقرب من ٦٠٪ من الأوروبيين بأنهم يشعرون أن «إسرائيل تشكل مصدر التهديد الأول للسلام العالمى». وقد أثارت نتائج هذا الاستطلاع غضب المنظمات اليهودية والصهيونية واعتبرته حكومة إسرائيل دليلاً على التمييز ضد إسرائيل داخل أوروبا. واعتبر «ناتان شارانسكى» وزير شئون الشتات فى حكومة إسرائيل: «أن الاستطلاع يظهر أن ما وراء الانتقاد السياسى لإسرائيل ليس إلا معاداة خالصة للسامية». لكن رئيس المفوضية الأوروبية رومانو برودى لاحظ أن ازدياد الهجمات ضد اليهود فى البلدان الأوروبية فى السنوات الأخيرة، إنما يعود إلى شعور البعض بالإحباط من الممارسات الوحشية لحكومة إسرائيل ضد الفلسطينيين ومحاولاتها المستمرة للقضاء على أى آمال لإحياء عملية السلام فى الشرق الأوسط. وفى إطار الحملة الإسرائيلية لإثارة فوبيا الخوف من «العداء للسامية» من جديد وخاصة فى أوروبا والغرب، تم تنظيم مؤتمر فى برلين فى نهاية أبريل ٢٠٠٤ حضره عدد من وزراء الخارجية تقريبا فى دول منظمة التعاون والأمن الأوروبى لبحث سبل مكافحة

«معاداة اللاسـامية»[1] فى القارة الأوروبية، ويأتى المؤتمـر الذى نظمه كوفى عنان ليعطى بعـداً عالميا باسم الأمم المتحـدة لهذه الحملة الصـهيونية الرامـية إلى إرهاب العالم وابتـزازه ودفعه إلى عدم توجـيه أى انتقـادات لإسرائيل وسياسـات حكومة شارون الدموية والوحـشية والمنتهكة للشرائع الدولية ولحـقوق الشعب الفلسطينى، واعتبار أن أى نقد موجه لسيـاسات حكومة إسرائيل إنما هو «عداء للسامية»، وهذا خلط متعمـد ومفضوح للأوراق. إن ما يثير العـجب أن هذا المؤتمر الذى دعا إليه كوفى عنان إنما يأتى بمثـابة مكافأة لحكومة شارون وإسرائيل فـى حملتها السيـاسية والإعلامـية الرامـية إلى تضليل العـالم عن حقائق الجـرائم البشـعة التى ترتكبـها إسرائيل ضـد الشعب الفلسطينـى وخاصة منذ اندلاع انتـفاضة الأقـصى، وبلغت ذروتها فى حـملة تدمـير وإزالة منازل الفلسطينيـين فى رفح مؤخراً، والـتى أدانها مجلس الأمن بـقرار خجلت أمـريكا لأول مرة فى عهـد إدارة بوش من استـخدام «الفيتو» ضده.

إن هذا الكيـان «إسـرائيل» هو أكـثـر الكيـانات التى أفـقـدت الأمم المتـحـدة مصداقيتـها. فإسرائيل هى أكثر دول العالم انتهاكاً لقـرارات الأمم المتحدة، ورفضاً للانصياع إلى قـراراتها، وإصراراً على ارتكاب كل المخالفات التى تناقض شـرعية الأمم المتـحـدة والقـانون الدولى. والخطورة فى مـؤتمر كـوفى عنان عن «العـداء للسامـية» أن عنان «سواء عن علم بذلك، وتلك جريمـة، أو عن جهل وهذا خطأ لا يغتفر» قد ورط الأمم المتحدة فى الفخ الذى نصـبته لها حكومة شارون والوكالة اليهـودية العالمية من خـلال الترويج لفكرة بروز موجـة جديدة عالميـة من «العداء للساميـة واليهود» فى أوروبا، وذلك بهدف دفع يهود أوروبا للهـجرة إلى إسرائيل وخاصـة يهود فـرنسا البالـغ عددهم ٦٠٠ ألف يهودى، وذلك فى إطـار مخطط شارون لجلـب عدة ملايين من يـهود الشتـات فى أوروبا وأمريكا خـلال السنوات العشر القادمة وتوطينهم فى إسرائيل، وذلك بهدف مـواجهة «الزيادة الديموغرافية» المتوقـعة فى تعداد السكان الفلسطينيـين خلال العشـرين عاماً القادمـة، بحيث لا يتغلب تعداد السكان الفلسطينيين على يهود إسرائيل.

(١) انظر هامش ص٣٠٥.



إن منطلق تلك الأيديولوجية «السامية» كما صاغه هرتزل وحلفاؤه من بعده أن الشعوب التي يعيش اليهود بين ظهرانيها هي شعوب لاسامية وأن اليهود هم شعب واحد. . . جعلهم أعداؤهم ساميين بدون موافقتهم وهذا أمر يتكرر في التاريخ[1].

وقد قال هرتزل تلك المقولة متجاهلا العوامل الاقتصادية- الاجتماعية التي أدت إلى ظهور اللاسامية، ويؤكدون أن اللاسامية أبدية قائمة بين كل الشعوب قاطبة، وهي لطابعها العدائي أنشأت الشعب اليهودي ووحدته، بدون إرادته أو موافقته. وهذا يعني أن الصهيونية قبلت مقولة اللاسامية وأصبحت وجهها الآخر.

وفي هذا الصدد كتب بن هلبرن صاحب كتاب «فكرة الدولة اليهودية»: «نمت اللاسامية السياسية إذن بوصفها حركة مضادة للثورة معادية للوضع القائم لا بالنسبة لوضع اليهود فحسب، بل بالنسبة إلى البناء الديمقراطي والمواقف الليبرالية التي اتخذتها المجتمعات المعاصرة عامة»[2].

وأضاف أن جمهرة اليهود رفضت مقولة اللاسامية واعتبرت نفسها جزءًا من القوميات التي اقترنت حياتها بحياة طوائفها اليهودية: «فقد أنكر اليهود الساعون نحو الانعتاق أن يكونوا قومية منفصلة»[3] وعلى هذا الضوء يظهر أن الصهيونية فرضت الأيديولوجية اللاسامية حول «القومية اليهودية المنفصلة» على الطوائف اليهودية، على الرغم من مقاومتها ذلك.

وفي الواقع وجدت الصهيونية صعوبة كبيرة في الانتشار بين الطوائف اليهودية في أوروبا الغربية حيث ظهرت المنظمة الصهيونية في البداية. ومن الدلائل على ذلك أن الطائفة اليهودية في ميونخ من أعمال ألمانيا رفضت بشدة عقد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينتها، مما دفع القائمين عليه لعقده في بال السويسرية.

---

(١) هرتزل. «الدولة اليهودية». إصدار المركز الصهيوني الأمريكي. عام ١٩٤٦م ص٩٢.

(٢) فكرة الدولة اليهودية لهلبرن ص ١٠.

(٣) نفس المرجع ص ١٢.

وقررت التقارب بين اللاسامية والصهيونية، أيديولوجيًا، على الرغم من التناقض الظاهر بينهما، قرره إلى حد كبير موقف المنظمة الصهيونية من اللاسامية، فالقيادة الصهيونية لم تجد فى اللاسامية عدوًا خطيرًا بل عاملاً مساعدًا على تحقيق برامجها، انطلاقًا من مقولة هرتزل أن أعداء اليهود هم الذين جعلوهم شعبًا واحدًا.

وهكذا، فعلى الرغم من التناقض بين اللاسامية التى تصف اليهود بكل المثالب التى اكتشفتها العقليات المتعصبة، والصهيونية التى تضفى على اليهود كل نعوت الكمال الإنسانى، فقد كان التقارب ملازمًا لهما على صعيد العمل، إذ كانت الصهيونية ترى فى اللاسامية محركها التاريخى وتحتاج إلى نشاطها لتحقيق أهدافها. واتخذ هذا التقارب لا شكل سكوت على اللاسامية فحسب بل إطار تعاون وثيق بين اللاساميين والصهيونيين. وهذا ما أظهرته حقائق التعاون بين القادة الصهيونيين مع النازيين قبل الحرب العالمية الثانية.

وقبل وقت غير بعيد نشرت بعض مجلات هذه البلاد فضيحة المنظمة الصهيونية فى العراق التى ألقت القنابل على الكنس وتجمعات اليهود بقصد اجتثاث جماهير الطائفة اليهودية من تربتها الطبيعية، التى نمت فيها عبر قرون، وتهجيرها إلى إسرائيل.

واعتمادًا على المقولتين: أبدية اللاسامية وفضل عملية الانعتاق والاندماج، أولاً، ووجود الشعب اليهودى بفضل أعدائه، ثانيًا، استنتجت الصهيونية أن المشكلة اليهودية لا حل لها بغير تجميع «شتات» اليهود فى مركز واحد يقيمون فيه دولتهم وتنتهى مشكلتهم التى «امتدت حوالى ألفى سنة» منذ أن «شتتهم الرومان»!!.

ولم يترك الصهيونيون أيديولوجيتهم بهذه البساطة بل تعمقوا فى بحث ملامحها وألبسوها حللاً «علمية»، ومن هذا القبيل ما كتبه ليو بنسكر فى كتابه «التحرر الذاتى». فقد اعتمد فى بنائه الأيديولوجى على أن اليهود هم قوم شبح لا وطن لهم، وبما أن الإنسانية تكره الأشباح، لذلك تنزل بهم الشعوب الاضطهاد

والتعذيب، والحل إذن يكمن فى تحويلهم من قوم شبح إلى قوم طبيعى، وهذا يتم إذا ما أقاموا وطنًا لهم فى مكان ما، فعندئذ يتوقف اضطهادهم حتى لو بقيت بعض طوائفهم فى أقطار مختلفة، فهم عندئذ يكونون جالية كسائر الجاليات التى تعيش بين قوميات أخرى. ولعلك تلحظ معى على الرغم من هذا التحليل العلمى إلا أنه قائم على تغافل الحق التاريخى والقانونى للشعب الفلسطينى بل ينكر حق الحياة لهم.

٤- من السامية إلى الهولوكوست[*] «أسطورة الستة ملايين»:

إن المطاردة النازية لليهود هى أسطورة كاذبة بلا شك أذاعها اليهود باسم «مأساة الهولوكوست» أى المحرقة واستغلوها لإثارة العطف عليهم وفى تعميق الشعور بالذنب لدى الألمان والعالم وفى استجلاب المال من التعويضات والتبرعات والمنح والأعطيات من شتى أرجاء الدنيا... ولعله من اللافت للنظر أن بعض المؤرخين قد تابعوا هذه القضية بكل صدق وتوصلوا فى النهاية إلى أنها خرافة أسطورية وتحدوا اليهود أن يقدموا أدلة مقنعة تثبت ذلك. وقد أعلنت جمعية دراسة التاريخ فى لوس أنجلوس عن تقديمها مبلغ خمسين ألف دولار لأى شخص يستطيع أن يثبت بالدليل القاطع أن اليهود قتلوا بأفران الغاز!! ولا زال وايلس كارتو يطالب بالإثبات ولكن اليهود عجزوا عن ذلك فلجأوا إلى الضغط والاتهام بمعاداة السامية[١].

ويرى بعض المؤرخين أن اليهود قد لاقوا عنتا كثيرا إبان الحرب العالمية هم وغيرهم دون مراعاة لأجناسهم فقد استعملوهم كحيوانات اختبار لتطوير الفاعليات والقدرات التى يمكن بواسطتها قتل أكبر عدد ممكن من العدو ونورد فى هذا المجال مثالا على ذلك إذ صف المعتقلون وراء بعضهم البعض ثم تم إطلاق طلقة واحدة لقتل أكثر من شخص فى آن واحد، وحينما فشلت تجربة

(*) الهولوكوست وهو ما يعرف بالمحرقة التى يدعى اليهود أن النازية قد أحرقتهم فيها إبان الحرب العالمية ويدعى اليهود أن النازية أحرقت ستة ملايين يهودى. وانقسم المؤرخون المعاصرون إزاء هذه القضية ما بين مؤيد ومعارض. انظر التعريفات الأخرى فى هذا الفصل

(١) انظر مجلة الفيصل الثقافية. العدد ١٢٠ فبراير ١٩٨٧م.

لجأوا إلى تجـربة إلقاء قنبلة لتكون تجـربة لقتل أكبـر حشد مـن المعتقلين، كـما أجريت تجارب أخرى لتغيير لون العـين فى الأطفال بحقن مواد فى قزحية العين ومحاولة إيجـاد لقاح لمرض الملاريا بعد حقن الشخص السليم بجـرعة من لعاب الذبابة الناقلة للمـرض، كما كان هناك تعـذيب آخر بفكرة المعتـقلات الجماعـية ذات التكثيف الشديد حيث بدأ النازيون بتشكيل العـديد من معسكرات الاعتقال التى كانت تحتوى على كمية كبيرة من البشر فى رقعة صغيرة من الأرض سميت بمعسكرات التركيز أو التكثيف، وكانت تضم هذه المعسكرات اليهود والشيوعيين والبـولنديين والغجـر وأسرى الحـرب إلى غيـر ذلك من طوائف كانت بجـانب اليهود. كما كان هناك نوع آخر من القتل وهو القتل الجماعى بوسائل متعددة ثم حرق الجثث بعد ذلك.

كما أنشـأ النازيون ما يسمى بالكيتو وهى منطقـة سكنية كبيرة تم إجبـار اليهود على العيش فيها وكانت مداخل ومخارج المنطقة تحت سيطرة النازيين ومن أشهرها كـيتـو وارسو -الذى كـان يقطنه ٣٨٠ ألف يهـودى- غرفـة واحـدة لكل تسعـة أشخاص، ثم أصدر هنريك هيملر أمرا بنقل اليهود من هذه المناطق إلى معسكرات القتل، وكـان السجناء فى هذه المعتـقلات يرتدون شارة على شكل مـثلث مقلوب بألوان مخـتلفة لتـميزهم من ناحـية العرق وسـبب اعتقـالهم، وكانت الشـعارات مصنوعة من القماش ومثبتة على ملابس المعتقلين.

ومن الأمثلة على تلك الإشارات:

* الشارة السوداء: للمتشردين ومجـاميع ممن سُموا بالأميين وهم أجناس غير يهودية الذين يرجع أصولهم إلى «الهند» و«باكستان» وكل ما هو سيء السمعة و«الغجر» والنساء اللاتى تم اعتقالهن لأسباب أخلاقية أو لأسباب الشذوذ الجنسى.
* الشارة الخضراء: للمجرمين.
* الشارة الوردية: لمن وصفوا بالشاذين جنسيًا من الذكور.
* الشارة البنفسجية: لجماعة «شهود يهوه».

* الشارة الحمراء: للسجناء السياسيين و«شيوعية-الشيوعيين».

* شارتان من اللون الأصفر: «يهود/ لليهود».

* شارة من اللون الأصفر على شارة من اللون الأسود: للسجناء من العرق «الآرى» الذين كانت لديهم صفة قرابة الدم مع الأعراق أو الجماعات غير المرغوب فيها(١).

اختلفت الروايات بالنسبة لتعذيب وقتل اليهود وغيرهم: فمنها روايات أقرت ذلك التعذيب ومنها من عارضه وشكك فيه. ومن الروايات التى أقرت بالتعذيب ما سنشير إليه فى هذه الصفحات. ونبدأها بالحديث عن المحرقة.

أما عن المحرقة التى ذاع صيتها على ألسن اليهود وأخذت تتردد فى وسائل الإعلام الغربية فيبدو أنها كانت فى كل معسكر من معسكرات الاعتقال أو التعذيب لا لحرق اليهود بصفة خاصة وإنما لحرق جثث الموتى سواء من اليهود أو من غيرهم، فقد كان هناك ستة معسكرات فى بولندا:

* «معسكر أوشوتز II» حيث كان يختلف عن «معسكر أوشوتز I» و«معسكر أوشوتز III» وهذان المعسكران الأخيران معسكرات تكثيف وأعمال شاقة. بينما كان «معسكر أوشوتز II» من أكبر معسكرات الإبادة، وكان يقع فى منطقة «برزيزنكا» «Brzezinka » على بعد ٣ كم من مدينة «أوشوتز»، وتم بناؤه عام ١٩٤١ ضمن خطة «حل أخير-الحل النهائى»، كان طول المعسكر ٢,٥ كم وعرضه ٢ كم. كان فى المعسكر ٤ محارق وماسمى «مستودعات الغاز» gas chambers، وكان كل مستودع يتسع لحوالى ٢٥٠٠ شخص، كان السجناء يصلون إلى المعسكر عن طريق القطار، وكانت هناك سكك حديد مؤدية إلى داخل المعسكر، وبعد وصولهم كانت هناك عملية فرز وغربلة أولية لفصل البعض منهم لغرض إجراء التجارب عليهم من قبل الطبيب النازى جوزيف مينجل١٩١١ -١٩٧٩، وكان هناك قسم للنساء فى المعسكر. ولتقليل مخاوف

(١) http://www.jewishvirtuallibrary.org/jsource/Holocaust
وراجع أيضا [markings.html

السجناء، كان النازيون يقولون لهم إنهم ذاهبون إلى الاستحمام، وحسب بعض المصادر المثيرة للجدل تروى أن النازيين قد ربطوا أنابيب الاستحمام بمصادر قنانى الغاز من نوع «زيلكون ب» [Zyklon B]وهى عبارة عن الـ«سيانيد» المستعمل كمبيد للحشرات والآفات الزراعية، وبعد موت السجناء بهذه الطريقة أو طرق مشابهة كان استعمال الغاز فيها وسيلة رئيسية كانت الجثث تساق إلى المحارق لحرقها فى نفس المبنى، وهناك أرقام مثيرة للجدل منها أنه فى هذا المعسكر وحده تم إبادة ٣٠٠ ألف يهودى من «بولندا» و٦٩ ألف يهودى من «فرنسا» و٦٠ ألف يهودى من «هولندا» و٥٥ ألف يهودى من «اليونان» و٤٦ ألف يهودى من «مورافيا» و٢٥ ألف يهودى من «بلجيكا»، ووصل العدد الإجمالى للأشخاص الذين تم إبادتهم فى هذا المعسكر إلى مليون ونصف من الضحايا(١).

* المعسكر الثانى وهو «معسكر بلزاك»: وتم إبادة ٥٠٨,٤٣٤ يهودى فى هذا المعسكر الذى يعتبر أول وأقدم معسكرات الإبادة، وكان يقع على بعد نصف ميل من بلدة «بلزاك» الواقعة فى منطقة «لوبلن» [Lublin]فى «بولندا».

* المعسكر الثالث «معسكر جيلمنو»: كان على بعد ٧٠ كم من «لودز» ثانى أكبر مدينة فى «بولندا»، وتم إبادة ١٥٢ألف سجين فى هذا المعسكر.

* المعسكر الرابع وهو «معسكر ماجدانيك»: وهناك تضارب على العدد الإجمالى للأشخاص الذين تمت إبادتهم فى هذا المعسكر حيث قدرت المصادر السوفيتية التى دخلت المعسكر أول مرة أعداد الضحايا بحوالى ٤٠٠ ألف ولكن فيما بعد وفى عام ١٩٦١ تم تقدير العدد بحوالى ٥٠ ألفًا وتشير آخر التقديرات أن الأعداد كانت حوالى ٧٨ ألفًا.

* المعسكر الخامس «معسكر سوبيبور»: لقى معظم «الغجر» حتفهم فى هذا المعسكر، وبلغ العدد الإجمالى للضحايا فى هذا المعسكر ٢٥٠ ألفًا منهم ١٥٠ ألف يهودى من «بولندا» و ٣١ ألفًا من «تشيكوسلوفاكيا».

(1)[http://www.ushmm.org/research/doctors/indiptx.htm]

* المعسكر السادس «معسكر تريبلنكا»: استمر هذا المعسكر من يوليو١٩٤٢ إلى أكتوبر ١٩٤٣م وتم إبادة ٨٠٠ ألف شخص فى هذا المعسكر، مما يجعله بالمرتبة الثانية بعد «معسكر أوشوتز»(١).

يتضح مما سبق سرده مدى المبالغات الشديدة حول تعذيب اليهود وقسوة المعتقلات وعدد القتلى وهذا أمر لا شك فيه من صنع وإخراج الصهيونية العالمية لتستثير شعور الغرب بالذنب تجاه اليهود ويكون هذا سببا فى تدفق المعونات المالية والحربية وغيرها لإقامة دولة إسرائيل .

الهولوكوست بين الإنكار والإثبات:

ويرى معظم المؤرخين أن الهولوكوست من أكثر حوادث العصر الحديث توثيقا بالصور والأفلام والوثائق، وأنه من غير المنطقى إنكار حادثة بهذه الضخامة، وأن ما انتشر من شكوك فى مصداقية الحدث التاريخى قد يرجع إلى المتورطين فى الحملات من ميليشيات الـ«إس إس» «النازية» التى غادر معظمهم «ألمانيا» بعد انتهاء «الحرب العالمية الثانية» وقاموا حسب وصفهم ببث الدعايات والإشاعات التى كانت النواة الأولى لفكرة التشكيك فى الحقيقة التاريخية للهولوكوست.

وأول كتاب نشر حول إنكار حدوث الهولوكوست كان تحت اسم «الحكم المطلق» Imperiumفى عام ١٩٦٢م للمحامى الأمريكى فرانسز باركر يوكى الذى كان من المحامين الذين أوكل إليهم فى عام ١٩٤٦م مهمة إعادة النظر فى محاكم نورمبرج، وأظهر أثناء عمله امتعاضا كبيرا مما وصفه بانعدام النزاهة فى جلسات المحاكمات، ونتيجة لانتقاداته المستمرة تم طرده من منصبه بعد عدة أشهر فى نوفمبر ١٩٤٦م. وفى عام ١٩٥٣م قابل يوكى الرئيس المصرى السابق «جمال عبد الناصر» وعمل لفترة فى وزارة الإعلام المصرية وكانت كتاباته معادية لدولة «إسرائيل»(٢).

(1) [http://www.auschwitz-muzeum.oswiecim.pl/html/eng/start/index.php].

(2) http://www.pbs.org/wgbh/pages/frontline/shtetl/treblinka.

بعد كتاب يوكى قام «هارى أيلمر بارنيس» وهو أحد المؤرخين المشهورين والذى كان أكاديميا مشهورا فى «جامعة كولومبيا» فى «نيويورك» باتباع نهج يوكى فى التشكيك بالحقيقة التاريخية للهولوكوست(١).

وتلاه المؤرخان «جيمس مارتن» و«ويلس كارتو» وكلاهما من «الولايات المتحدة»، وفى ٢٦ مارس ٢٠٠٣م صدرت مذكرة اعتقال بحق كارتو من السلطات القضائية فى «سويسرا»(٢).

وفى الستينيات أيضا وفى «فرنسا» قام المؤرخ الفرنسى «بول راسنير» بنشر كتابه «دراما اليهود الأوروبيين» The Drama of the European Jews، ومما زاد الأمر إثارة هذه المرة أن راسنير نفسه كان مسجونا فى المعتقلات الألمانية أثناء «الحرب العالمية الثانية» ولكنه أنكر عمليات الهولوكوست.

فى السبعينيات نشر «آرثر بوتز» أحد أساتذة «الهندسة الكهربائية» و«علوم الحاسوب» فى «جامعة نورث ويسترن» الأمريكية فى ولاية «إلينوى» كتابا باسم «أكذوبة القرن العشرين» وفيه أنكر الهولوكوست وقال: إن مزاعم الهولوكوست كان الغرض منها إنشاء دولة «إسرائيل»(٣)، وفى عام «١٩٧٦م» نشر المؤرخ البريطانى «ديفد أرفنك» الذى حكمت عليه محكمة «نمساوية» مؤخرا وبالتحديد فى«٢٠ فبراير٢٠٠٦م» بالسجن لمدة ثلاث سنوات بسبب إنكاره للهولوكوست فى كتابه «حرب هتلر». وفى ١٩٧٤م قام الصحفى «الكندى» من أصل بريطانى «ريتشارد فيرال» بنشر كتابه «أحقاً مات ٦ ملايين؟» Did Six Million Really Die وتم استبعاده من «كندا» بقرار من المحكمة الكندية العليا عام ١٩٩٢م(٤).

وهناك العديد من الكتب والمنشورات التى أفاضت فى الحديث حول التشكيك فى الهولوكوست.

---

(1) http://www.geocities.com/integral_tradition/world.html.

(2) http://www.jewishvirtuallibrary.org/jsource/Holocaust/denialbrief.html].

(3) http://homepage.mac.com/lsf/others/swiss_arrest_warrant.html].

(4) [http://pubweb.northwestern.edu/~abutz/].

ويمكننا أن نوجز أهم آراء أصحاب تلك الكتب وهم المشككون فى الهولوكوست فى النقاط التالية:

أ- إبادة ٦ ملايين يهودى هو رقم مبالغ به كثيرا إذ إنه استنادا على إحصاءات «أوروبا» قبل «الحرب العالمية الثانية» كان العدد الإجمالى لليهود فى «أوروبا» ٦ ملايين ونصف المليون وهذا يعنى أنه فى الهولوكوست تم تقريبا القضاء على «اليهود» فى «أوروبا» عن بكرة أبيهم، وهذا ينافى أرقامًا أخرى من دوائر الهجرة الأوروبية التى تشير إلى أنه بين «١٩٣٣م» و«١٩٤٥م» هاجر مليون ونصف مليون يهودى إلى «بريطانيا»، «السويد»، «أسبانيا»، «استراليا»، «الصين»، «الهند»، «فلسطين» و«الولايات المتحدة». بحلول عام ١٩٣٩م واستنادا إلى إحصاءات الحكومة الألمانية فقد هاجر ٤٠٠ ألف يهودى من ألمانيا التى كانت تحتوى على ٦٠٠ ألف يهودى، وهاجر أيضا ٤٨٠ ألف يهودى من النمسا وتشيكوسلوفاكيا. وهاجر هذا العدد الكبير ضمن خطة لتوطين اليهود فى «مدغشقر» ولكنهم توجهوا إلى دول أخرى ولم يتم مصادرة أملاكهم وإلا لما كان «اليهود» اليوم من أغنى أغنياء العالم، وهناك أرقام أخرى تشير إلى أن أكثر من ٢ مليون يهودى هاجروا إلى «الاتحاد السوفيتى». كل هذه الأرقام تعنى بالنهاية أنه كان هناك على الأغلب أقل من ٢ مليون يهودى يعيشون فى دول «أوروبا» التى كانت تحت الهيمنة «النازية»، ويصر العديد من الكتاب أن السجناء «اليهود» فى المعتقلات النازية لم يزد عددهم عن ٢٠ ألفًا. ويورد هؤلاء المؤرخون أن العدد الإجمالى لليهود فى العالم فى سنة «١٩٣٨» كانت ١٦ مليونًا ونصف المليون، وكان العدد الإجمالى لليهود فى العالم بعد ١٠ سنوات أى فى عام «١٩٤٨» كان ١٨ مليونًا ونصف المليون، وإذا تم القبول جدلا بأن ٦ ملايين يهودى قد تمت إبادتهم أثناء «الحرب العالمية الثانية» فإن العشرة ملايين المتبقين يستحيل أن يتكاثروا بهذه النسبة الضخمة التى تنافى قوانين الإحصاء والنمو البشرى ليصبح ١٠ ملايين يهودى ١٨ مليونا بعد عشر سنوات![1].

---

(1) [http://www.lexum.umontreal.ca/csc-scc/en/pub/1992/vol2/html1992scr2_0731.html.

ب- عدم وجود وثيقة رسمية واحدة تذكر تفاصيل عمليات الهولوكوست، وأن ما تم ذكره فى الاجتماع الداخلى فى منطقة «وانسى» Wannseeجنوب غرب «برلين» فى «٢٠ ينايـر١٩٤٢م» وعلى لسان «هينريك هيملر» كان مفاده أن السياسة الحكومية قامت بتشجيع هجرة «اليهود» إلى «مدغشقر» ليتخذوه وطنا تعتبر غير عملية فى الوقت الحاضر بسبب ظروف «الحرب العالمية الثانية» وأن «ألمانيا» تحتاج إلى الأيدى العاملة لتسيير عجلة الحرب. وأنه واستنادا إلى المؤرخ الفرنسى «بول راسنير» [Paul Rassinier] الذى كان نفسه يعمل فى أحد المعسكرات التى وصفها بالمعسكرات الإنتاجية لدعم الحرب، حيث ذكر فى كتابه «دراما اليهود الأوروبيين» The Drama of the Europeanأن ما يسمى وثيقة «حل أخير|الحل النهائى» هى فى الحقيقة خطة لتأجيل عملية استيطان «اليهود» فى «مدغشقر» كما كان مقررًا وأنه تم تأجيله حتى انتهاء الحرب لحاجة ألمانيا للأيدى العاملة والانتظار إلى أن يتم فتح قنوات دبلوماسية مع الدول الأخرى لحين إيجاد وطن مناسب ليهود «أوروبا»[1].

ج- التضخيم الإعلامى لمعسكرات الاعتقال المكثف ومعسكرات الموت لا أساس له من الصحة وهذه المعسكرات كانت وحدات إنتاجية ضخمة لدعم آلية الحرب، وأن أكبر المعتقلات التى أثير حولها جدل كبير وهو «معسكر أوشوتز» قد تمت السيطرة عليها لأول مرة من قبل القوات السوفيتية التى لم تسمح لأى جهة محايدة من دخولها لمدة ١٠ سنين حيث يعتقد أن «الاتحاد السوفيتى» قام بتغيير ملامح المعسكر خلال هذه السنوات العشر، وأنه لم يكن يوجد على الإطلاق ما تم تسميته بمستودعات الغاز التى كان اليهود يوضعون فيها بالآلاف لغرض تسميمهم وإنما كانت هناك غرف صغيرة لغرض تصنيع مبيدات الحشرات والآفات الزراعية، وكان هناك بالفعل عدد من المحارق فى تلك المعسكرات ولكنها كانت لغرض حرق جثث الموتى الذين قضوا نحبهم من داء «التيفود» فى السنوات الأخيرة من الحرب نتيجة نقص الخدمات الطبية بسبب انهيار البنى التحتية الألمانية فى سنوات الحرب

(1) [http://www.ihr.org/books/harwood/dsmrd01.html].

الأخيرة، وعليه فإنه من غير المعقول أن تصرف «ألمانيا» كل هذا الوقود والطاقة التى كانت بأمس الحاجة إليها فى الحرب لغرض إحراق ملايين الجثث(١).

د- هناك كثير من الصور التى عرضت على العالم وفى «محاكم نورمبرج» هى فى الحقيقة صور مأخوذة من الأرشيف الألمانى نفسه حيث إن الألمان حاولوا أن يظهروا مدى تفشى المجاعة ومرض «التيفود» فى «ألمانيا» وخاصة فى سنوات الحرب الأخيرة، وأن أهم الصور الذى قدمت فى «محاكم نورمبرج» على أنها إبادة جماعية لليهود هى فى الواقع صور من القصف المثير للجدل الذى قامت به الطائرات الحربية لدول الحلفاء لمدينة «دريسدن» الألمانية بين «١٣ فبراير» و«١٥ فبراير ١٩٤٥م» الذى يعتبر حتى هذا اليوم من أكثر حوادث «الحرب العالمية الثانية» إثارة للجدل حيث القى حوالى ٩ آلاف طن من القنابل على تلك المدينة وتم تدمير ٢٤,٨٦٦ منزلا من أصل ٢٨,٤١٠ منزلا وتم تدمير ٧٢ مدرسة و ٢٢ مستشفى و ١٨ «كنيسة» و ٥ مسارح و ٥٠ مصرفا و ٦١ فندقا و ٣١ مركزا تجاريا، ويعتقد أن ٢٥ ألفًا إلى ٣٥ ألف مدنى لقوا حتفهم فى ذلك القصف. وهناك اعتقاد بحياكة المؤامرات حول التضخيم الإعلامى لحوادث الهولوكوست شارك بها «الاتحاد السوفيتى» من طرف حيث بث هذه الإشاعات لبسط هيمنته على «أوروبا» باعتباره البديل الأفضل لألمانيا ولكى يصرف النظر عن سوء معاملته للسجناء فى «معتقلات اليولاى» Gulag السوفيتية السيئة الصيت، وشارك فى هذه المؤامرة من الناحية الأخرى الدول الغربية المنتصرة فى «الحرب العالمية الثانية» والذين لم يتقبلوا الفكرة الألمانية باتخاذ «مدغشقر» وطنا لليهود وإنما فضلوا فكرة إقامة دولة «إسرائيل» فى «فلسطين» كوطن ليهود العالم.

تعتبر ظاهرة إنكار الحقيقة التاريخية للهولوكوست جديدة على العالم العربى والإسلامى إذا ما قورنت بالتيار الغربى، حيث بدأت مؤخرا دول فى «الشرق الأوسط» مثل «سوريا» و«إيران» و«فلسطين» وخاصة «حركة حماس» بنشر تلك الأفكار(٢).

---

(1) ، (2) [http://www.ihr.org/books/harwood/dsmrd01.html].

ولكى ندرك حقيقة تلك الأسطورة التى أشاعها اليهود فى الأوساط الدولية وكيف استغلوا قضية الهولوكوست لصالحهم ينبغى أن نقف عند المصطلحات التى سادت آنذاك فى قضية الهولوكوست فإنها قد تساعد على توضيح الفكرة والموقف لنقترب من الحقيقة المرجوة، وقد ربط رجاء جارودى بين هذه المصطلحات وأوضاع اليهود إبان تلك الحقبة ربطا محكما يعطى تصورا جيدا يقترب من الحقيقة اقترابا وشيكا على النحو التالى:

أولاً: الإبادة الجماعية: هو لفظ يراد به إبادة جنس ما يتعرض للإبادة بأكمله فهل كان اليهود متواجدين جميعًا فى أماكن واحدة إبان أحداث الهولوكوست كما يدعى القادة الإسرائيليون وكما يقول بذلك الهتلريون. ويحدد فلاروس أحد أصحاب القواميس عبارة الإبادة الجماعية بأنها الإبادة المنظمة لمجموعة عرقية للقضاء على أفرادها. وهذا التعريف لا ينطبق انطباقًا حرفيًا إلا فى حالة غزو يشوع لأرض كنعان حيث جاء فى سفر العدد عند فتح كل مدينة «لم يبق بها شريد «أى إنسان حى»[(1)]، وعلى ذلك فقد استخدمت تلك العبارة فى العصر الحديث بطريقة خاطئة لأن الأمر لا يتعلق بإفناء شعب بأكمله والقضاء عليه كما هو الحال بالنسبة للإبادات المقدسة التى تمت على أيدى العمالقة والكنعانيين وغيرهم من الشعوب الأخرى التى تحدث عنها سفر يشوع لأنها حدثت فى عجلون وحبرون ولم يبق منها باقية[(٢)]، وأما الرجال فضربوهم جميعًا بحد السيف حتى أفنوهم ولم يبقوا نسمة[(٣)]. وإذا طبقنا ذلك على اليهود فى ألمانيا فإنهم كانوا أحد الأهداف المفضلة لهتلر بسبب نظريته التى تقوم على تفوق الجنس الآرى وخلطه المتعمد بين اليهود والشيوعية التى كانت عدوه الرئيسى وهو ما تشهد عليه عمليات إعدام آلاف الشيوعيين الألمان، ومثل عناده وتصلبه ضد السجناء السلاف أثناء الحرب وأطلق على هذا الخلط عبارة اليهودية البلشفية.

(1) [http://www.jewishvirtuallibrary.org/jsource/anti-semitism/syrdenial.html].

(٢) سفر العدد، ٢١-٣٥.

(٣) يشوع من ١٠: ٣٧.

وتوخى هتلر منذ أنشأ حزبه «النازى» استئصال الشيوعية بل وطرد جميع اليهود من ألمانيا أولا ومن كل أوروبا بعد أن يسيطر عليها. وحدث هذا بطريقة عنيفة بعيدة كل البعد عن الإنسانية حيث تم أولا بالتهجير ثم بالنفى، وأثناء الحرب تم ذلك بالحبس فى معسكرات الاعتقال.فى ألمانيا أولا ثم الإبعاد بعد ذلك إلى مدغشقر ثم إلى أراضى الشرق التى احتلها هتلر إبان الحرب العالمية، وخاصة فى بولندا حيث هلك السلاف واليهود والغجر بالأشغال الشاقة فى خدمة الإنتاج الحربى، ومنهم من هلك بالأوبئة الفظيعة مثل التيفود التى تدل كثرة المحارق على ضخامتها. فماذا كانت النهاية للتعنت الهتلرى ضد هؤلاء الضحايا السياسيين أو العنصريين؟ تذكر المراجع أن الحرب العالمية الثانية قد خلفت خمسين مليونًا من الموتى منهم ١٧ مليونا من السوفيت وتسعة ملايين من الألمان أما بولندا والبلدان الأخرى المحتلة فى أوروبا وكذلك أفريقيا وآسيا فقد دفعوا ثمنًا باهظًا بموت أعداد كبيرة منهم، وعلى هذا فإن الهيمنة الهتلرية لم تكن -كما رددته الشائعات أو الدعايات- حكرًا على اليهود وحدهم أو أنهم كانوا الضحايا الرئيسيين فقد كانت كارثة بشرية لا مثيل لها للأسف الشديد لأن هتلر طبق على البيض ما طبقه الاستعماريون الأوروبيون منذ خمسة قرون على الملونين ابتداء من هنود أمريكا الذين استأصل منهم ٦٠ مليونًا من ٨٠ مليونًا وبالأشغال الشاقة كذلك والأوبئة وحتى الأفارقة الذين نقل منهم من ١٠ : ٢٠ مليونًا إلى الأمريكتين بعد أن مات منهم ١٠٠ : ٢٠٠ مليون خلال فترة الرق واصطياد العبيد السود.

وهكذا فإن اليهود ليسوا وحدهم الذين أبيدوا أو هلكوا وإنما معهم الكثيرون من الأجناس الأخرى، كما أن الشعب اليهودى لم يفن بأكمله لذا لم تنطبق عليه الإبادة الجماعية كما يزعمون.

ثانيا: الهولوكوست: وهى كلمة مشتقة من كلمة يونانية تعنى الحرق الكامل للقرابين المقدمة لخالق الكون، وفى القرن التاسع عشر تم استعمال الكلمة لوصف الكوارث أو المآسى العظيمة.

إن أول استعمال لكلمة هولوكوست فى وصف طريقة معاملة هتلر لليهود كانت فى عام ١٩٤٢م ولكن الكلمة لم تلق انتشارا واسعا حتى الخمسينيات، وفى السبعينيات أصبحت كلمة هولوكوست تستعمل بصفة خصوصية لوصف حملات الإبادة الجماعية التى تعرض لها اليهود بالتحديد على يد السلطات الألمانية أثناء هيمنة الحزب النازى بقيادة أودلف هتلر، واليهود أنفسهم كانوا يستعملون كلمة شواه فى الأربعينيات بدلا من هولوكوست وهى كلمة مذكورة فى التوراة بمعنى الكارثة.

ويقول جارودى عن الهولوكوست: هى عبارة توحى باستغلال الجريمة التى ارتكبت ضد اليهود والتشهير بها على أنه حدث لا مثيل له ولا يمكن مقارنته بقتل الضحايا الآخرين للنازية أو بأى جريمة أخرى من جرائم التاريخ؛ لأن موت هؤلاء اليهود الذين كانوا من ضحايا النازية قد أخذ طابعًا مقدسًا، فلا غرابة أن يعرف بعض الكتاب الهولوكوست بأنه قربان لدى اليهود تحرق فيه الضحية بالنار تمامًا. ومن هذا الفهم أصبح موت اليهود لا يعادله أى موت آخر نظرا لطابعه القربانى الذى أدمجهم ضمن المشروع الإلهى على طريقة صلب المسيح فى اللاهوت المسيحى، الأمر الذى أتاح لأحد الحاخامات أن يقول: إن إنشاء دولة إسرائيل هو رد الرب على الهولوكوست»[(١)].

ثالثا: الحل النهائى: هذا المصطلح تم استعماله أول مرة من قبل أودلف إيخمان والذى أشرف على عمليات الهولوكوست وتم محاكمته وإعدامه من قبل محكمة إسرائيل فى يوليو ١٩٦٢م فى سجن الرملة، وقد تمت مناقشة خطة الحل النهائى فى مؤتمر داخلى للحزب النازى فى منطقة «وانسى» جنوب غرب برلين فى ٢٠ يناير عام ١٩٤٢م والذى نوقشت فيه آلية إبادة ٦٤٪ من يهود أوروبا، وحضر ذلك الاجتماع هنيرك هيملر والذى كان من رجال أودلف هتلر وأكثرهم شراسة. ونص مختصر محضر الاجتماع على أن الأسلوب السابق فى تشجيع اليهود على الهجرة من ألمانيا قد تم تغييره إلى الاستبعاد القسرى[(٢)]. وبعد فترة قصيرة من صعود النازية

(١) رجاء جارودى. الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية ص١٤١.

(٢) المصدر السابق ص١٤٤.

الحكم فى ألمانيا قام الحزب بإعلان مقاطعة كاملة ليوم واحد للأعمال والمنتجات التجارية التى يملكها اليهود فى ألمانيا، وتلا ذلك قرارات من قبل سلطات الرايخ الثالث فى ٧ أبريل سنة ١٩٣٣م لطرد اليهود من الدوائر والمؤسسات الحكومية، وفى عام ١٩٣٥م صدر قرار يمنع اليهودى من الزواج من غير اليهودية وبالعكس، وتم سحب الجنسية الألمانية من اليهود وسحب منهم أيضا حق التصويت فى الانتخابات ثم صدر قانون يمنع تلاميذ اليهود من دخول المدارس الألمانية العامة.

وعملية الهولوكوست وبنود «الحل الأخير» بررتها الفلسفة النازية بكونها طريقة للتخلص ممن اعتبرتهم تحت البشر، وأن الأمة الألمانية لكونها عرقًا نقيًا لها الحق فى حكم العالم وأن العرق الآرى يفوق فى جودته الأعراق الأوروبية الخليطة مثل الغجر وبولندا واليهود والسلافيين والأفريقيين والألطيين. . . والمعارضين لفلسفة النازية وشهود يهوه كل أولئك كانوا حسب الفكرة النازية من طبقة تحت البشر وقد تمت بالإضافة لليهود إبادة ١٠٠ ألف شيوعى و١٥ ألفًا تقريبا ممن اعتبروا شاذين جنسيا وألف ومائتين تقريبا من شهود يهوه وتمت إجراءات جراحية وطبية لمنع ٤٠٠ ألف معاق عقليا من الإنجاب، واستعملت أساليب القتل الرحيم لإنهاء حياة ٢٠٠ ألف تقريبا من المصابين بعاهات لا أمل فى الشفاء منها.

والفيلسوف المسلم جارودى قد ربط بين مصطلح الهولوكوست والإبادة النهائية «والحل النهائى» للمشكلة النهائية، ومع هذا فلم يتسن تقديم أى نص يثبت أن الحل النهائى للمشكلة النهائية كان بالنسبة للنازيين هو الإبادة وقد اختلفت التهم الموجهة للأجناس التى قتلت، وبالنسبة لليهود؛ فإن هتلر كان يوجه إليهم اتهامات متناقضة أولا بأنهم من أنشط الحركيين فى الثورة البلشفية وأنهم فى الوقت ذاته من أشد الرأسماليين استغلالا للشعب الألمانى. أما فيما يتعلق بمجموع اليهود الألمان ثم الأوروبيين فإن إحدى الأفكار البشعة للنازيين كانت تتمثل فى تفريغ ألمانيا ثم أوروبا منهم وقد أنجز هتلر ذلك على خطوات منها:

- تنظيم تهجيرهم فى ظروف تسمح لهم بسلب أموال الأغنياء منهم.

- الإبعاد بلا شرط إنجازًا للمخطط الرامى إلى إرسالهم جميعًا إلى جيتو عالمى وهو جزيرة مدغشقر، وقد جرى التخلى عن هذا المشروع لضخامة العملية وصعوبتها.
- إبعادهم إلى بولندا وشرق أوروبا وهذا الذى أمكن التوصل إليه بفضل الحل النهائى وهو تفريغ أوروبا من يهودها لنقلهم بشكل مكثف إلى معسكرات خارجية وهى التى ذاقوا فيها أشد أنواع المعاناة والتجويع والسير الإجبارى المميت للضعفاء والأشغال الشاقة لخدمة المجهود الحربى الألمانى وأخيرا الأوبئة وانتشار التيفود التى اجتاحت المعتقلين المنهكين.

ويقول جارودى أيضا: لا داعى بعد هذا كله للجوء أو المبالغة فى الأرقام بصورة مفرطة واستبدال اللوحة الفنية بمعسكر بيركينا أو شفيتز لتخفيض عدد الموتى من أربعة ملايين إلى مليون، وكذلك تغيير لوحة غرفة الغاز فى داخو لتوضيح أنها لم تعمل أبدا أو تغيير لوحة استاد الشتات فى باريس والإشارة إلى أن عدد اليهود الذين اعتقلوا فيه كانوا ٨١٦٠ وليس ٣٠ ألفًا كما جاء فى اللوحة الأصلية التى تم سحبها[١].

ويخلص رجاء جارودى مما سبق إلى أن تلك الأرقام مضطربة ومبالغ فيها وأن قتل إنسان برئ واحد سواء أكان يهوديًا أو لم يكن هو جريمة ضد الإنسانية. وملاك الأمر هنا إذا كان عدد الضحايا لا أهمية له من هذه الناحية فلماذا إذن يتمسك اليهود منذ ما يزيد على نصف قرن برقم الستة ملايين فى الوقت الذى لا نعتبر فيه أن عدد الضحايا غير اليهود فى كاتن ودرسدن وهيروشيما ونجازاكى أرقام لا يجوز الاقتراب منها على العكس من ذلك الرقم الذهبى الستة ملايين الذى يحظى بالتقدير على الرغم مما طرأ عليه من تخفيض والمتأمل فى أعداد الضحايا التى يدعى اليهود أنهم ستة ملايين يجد الوثائق تختلف فى ذلك اختلافًا واضحًا على النحو التالى:

- تسعة ملايين وفقا لفيلم المخرج الفرنسى آلام رينيه «الليل والضباب».

---

(١) فى ١ أبريل سنة ١٩٣٣م.

- ٨ ملايين وفقًا لـوثائق خدمة الحرب ومعسكرات الاعتـقال الذى أصدره المكتب الفرنسى للنشر عام ١٩٤٥م صفحة٧.

- أربعة ملايين طبـقًا للتقرير السوفـيتى الذى جعلت منه محكمـة نور مبرج دليل إثبـات شرعى وفـقا للمـادة ٢١ من النظام الأسـاسى الذى تنص على أن تكون للوثائق والتقارير الرسمية قوة دليل الإثبات الشرعى.

- مليونان حسب ما جاء فى كتاب المؤرخ اليـهودى ليون بوليا كوف «ترانيم الحقد» سنة ١٩٧٤م ص٤٩٨.

ويستنبط جارودى بعد عدة أبحاث تاريخية قـام بها علماء من جنسيات مختلفة أن عدد ضـحايا المعسكرات التى وضع فـيها كل الأجناس غـير المرغوب فـيهم ثم عمل تقـييما لعـدد الموتى فى المعسكرات الأخرى واتضح أن عـدد الذين قتلوا من اليهود قد اختلف حول تقدير أعدادهم اختـلافًا شديدًا وليس كما تدعى الصهيونية بأنه ستة ملايين يهودى، فهذا العدد فيه مغالطات كبيرة.

وكذلك كانت نفس هذه المغالطات المريبة بشأن أسـاليب قتل اليهود فإن أقوالهم حول تلك الأساليب قد تثير الشك والريب أيضا. وعلى سبيل المثال نيويورك تايمز الصادرة فى ٣ يونيو ١٩٤٢م تتـحدث عن مبنى للإعدام كان يعدم فـيها بالرصاص ألف يهودى يوميا.

وفى ديسمبر ١٩٤٥م أدخل ستيفان زند اليهود فى حوض سباحة ضخم يمر فيه تيار كهربائى ذو ضغط عال لصعقهم.

وثيقة نورمبـرج رقم ٣٣١١ المؤرخة فى ١٤ ديسمبر ١٩٤٥م تشـير إلى ضحايا ماتوا بالأبخرة داخل غرف البخار المحرق.

وبعد شهرين ونصـف استبدلت نفس هذه المحكمة غرف البـخار المحرق بغرف الغـاز ولكن الصيغتان الـشائعتـان فى الصحـافة والكتـب المدرسية هـو الإعدام «بالزيكلون ب» والشاحنات المجـهزة بمخارج غاز محـركات الديزل، والأمر الذى

يؤسف له أن محكمة نورمبرج أو أى محكمــة أخرى لم تأمر بإجراء أى معاينة من أجل التحديد النهائى لسلاح الجريمة.

أما معسكر داخو فإن الفيلم الذى عــرض فى نورمبرج أثناء المحاكمة بخصوص فظاعات النازى أوضح وجود غرفة غاز واحدة فـقط هى غرفة معسكر داخو، وقد نظمت الزيارات للسواح والطلبة، وتوجد اليوم لوحة تذكارية على هذه الغرفة جاء فيهــا أن أحدا لم يلق فيها حــتفه بالغاز لأنها لم تســتكمل أبدا، ومما يؤكد هذا أنه صدر اعتراف فى ١٩٦٠م عن أحد أعضاء معهد التاريخ المعاصر فى ميونيخ اعترف فيــه بأنه لم يحدث أن قتل اليــهود أو المعتــقلون الآخرون بالغــاز فى داخو بريجن بيلسن أو بوشــونفارد، ولم يبــدأ القضاء علــى اليهود بالغــاز إلا فى سنة ١٩٤١، ١٩٤٢م وعلى وجــه الخصــوص فى الأراضى البولنــدية، كذلك تنوعت أســاليب القتل حسب الظروف من عملية القــصف الجوى إلى الأشغال الشاقة والنقل الدائم فى ظروف لا إنسانية خلفت آلاف الجثث فى الطريق وســوء التغذية والأوبئة. فهل بعد ذلك تحتاج هــذه المأساة التى يسمونها الهولوكــوست إلى تضخيم للدلالة على قتل اليــهود على أيدى النازى، وهل الحاجــة تدعو والأمر كــذلك إلى الإبقاء بأى ثمن على هالة القداسة للهولوكوست والتلويح بشبح غرف الغاز، كما يوجد خلط أيضا بين مــحارق الموتى وغرف الغاز حــيث يوجد عدد كبيــر من هذه المحارق فى المعسكرات الهتلرية كما يوجد منها أيضا عدد كبير فى المدن الكبرى كباريس ولندن والعواصم الأوروبيــة الأخرى وذلك لحرق الموتى حــتى لا ينتشر الطاعــون وحرق الموتى فيها لا يعنى بالطبع الرغبة فى إبــادة السكان، ومن هنا نرى الصهيونية تجمع بين إضافة غرف الغاز إلى المحارق لإقامة الذرائع والتدليل على الإبادة بالنار، ومع ذلك فإنه لم يتوفر ما يثبت ذلك ولـم تسمح مـعاينة سلاح الجريمة فى العثور على أى دليل، وهكذا تبين أن عقيدة الهولوكوست التى يروج لها اليهود ويغرسونها فى وجدان الأطفال ما هى إلا أسطورة كأسطورة الوعد الإلهى الواردة فى التوراة، فإن الإبادة الجماعية هى عنصر من عناصر التبرير الأيديولوجى لإنشاء دولة إسرائيل.



رابعًا: القدس عربية إسلامية لحمًا ودمًا

١ - العمارة الإسلامية وقبة الصخرة تؤكدان عروبة القدس:

عرفنا أن اسم القدس «مدينة السلام أو أورشليم» وهذه التسمية تعود إلى اليبوسيين الكنعانيين أجداد العرب الذين أنشأوا هذه المدينة، وقد تأكد ذلك من خلال رسائل تل العمارنة التى أرسلت إلى مصر فى عهد اخناتون ثم أعاد الحشمونيون استعمال هذا الاسم ولما كانت هذه المدينة ذات أهمية قصوى عند العرب أطلقوا عليها اسم بيت المقدس أو القدس بعدما كان اسمها الرومانى «إيلياء»، وبعد الاستيطان اليهودى فى بداية القرن العشرين ابتدأوا بالبحث عن المعالم التوراتية بالقدس وما زالت البعثات الأثرية والتى اقتصر أعضاؤها على الإسرائيليين جادة فى البحث والتنقيب دون إحراز أى اكتشاف يؤكد التاريخ اليهودى فى القدس[١].

ولقد قام «مزار» بالتنقيب فى منطقة المدرج الكبير وفى المنطقة الجنوبية من الحرم كما تابع «أفيغاد» التنقيب فى الحى اليهودى القديم، وفى القلعة تابع «بروسحى» الحفر فى بساتين الأرمن وفى سفوح الأسوار الخارجية، وتتركز أعمال يادين وشيولوح وبركاى فى الحفر فى منطقة المقابر بحثا عن مؤشر تاريخى يهودى، وقد أعلنوا جميعًا نتائج حفرياتهم فى دورية المصنفات لعام ١٩٩٤م وكان أبعد ما توصلوا إليه خلال العصر الرومانى دون أية دلالة على الوجود الإسرائيلى عبر تاريخ القدس، ولم يتضح لهؤلاء أى مؤشر على وجود مدينة داود ذات الأسوار أو على أثر لهيكل سليمان الذى وصفته التوراة بمبالغة شديدة.

ويعترف الأثرى الإسرائيلى بروسحى بذلك بل هو ينفى الادعاءات التى تتحدث عن قوس اكتشفه روبنسن يعود إلى عهد هيرودوس ويعترف أن القدس ورام الله

(١) الأساطير المؤسسة للسياسة الإسلامية. مرجع سابق. ص١٤٧.

وبيت لحم كانت تحت سلطة عالية فى عهد اخناتون قبل ظهور موسى ١٥٣٠ ق.م تقريبا. ولقد كانت نتائج الحفريات التى قامت بها العالمة البريطانية كينيون منذ عام ١٩٦٠م فى جنوب الحرم وفى بساتين الأرمن وقرب بوابة دمشق وفى منطقة المرستان مخيبة لجميع الآمال الصهيونية، بل لقد كشفت عن خطأ التأويلات التوراتية للمكتشفات الأثرية السابقة.

وعندما كانت كينيون تبحث عن الهيكل فى جنوب الحرم الشريف عثرت فقط على آثار ثلاثة قصور ومسجد، أعلن الإسرائيليان «مزار وابن دوف» أنها تعود إلى عصر مروان بن عبد الملك واستمرت قائمة خلال العهود العباسية والفاطمية ثم أصيبت بزلزال عام ١٠٣٤م. وتعترف الإسرائيلية مريام روزن أن ما نراه من آثار معمارية ضمن أسوار القدس القديمة يعود إلى العهود الإسلامية ويمثل جميع العهود التى تعاقبت على القدس بعد الإسلام، لم تكن مدينة القدس قبل الفتح الإسلامى سنة ١٦هـ- ٦٣٧م إلا مدينة صغيرة تعرضت لاجتياح الفرس ومنذ أن زار الخليفة عمر بن الخطاب هذه المدينة سنة ١٦هـ ليستلم المدينة معلنا عهدا جديدا وأمانا قطعه لحماية أهل الذمة والحفاظ على منشآتهم الدينية ابتدأ الإعمار الإسلامى وكان بدائيًا مؤقتًا؛ إذ أمر الخليفة عمر أن يبنى مسجد فى مكان صلاته. ويتحدث الرحالة «أركولف» ٦٧٠م عن مسجد بسيط كان فى جهة الجدار الشرقى رباعى المخطط وكان يتسع لثلاثة آلاف رجل دفعة واحدة، وكان يطلق عليه اسم مسجد عمر، كما أمر الخليفة عمر بإنشاء مظلة من الخشب على الصخرة المشرفة فى قمة جبل موريا، واستمرت حتى عهد عبد الملك بن مروان، وقد أراد عمر بن الخطاب أن يقوم بزيارة منطقة الإسراء فى المسجد الأقصى، كما ورد فى الآية الكريمة ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الإسراء: ١][1] على أن المسجد الأقصى المذكور فى الآية الكريمة هنا لا يعنى المسجد الذى أنشاه عبد الملك بن مروان لاحقًا لأنه يعنى المكان المقدس الذى يسجد فيه لله تعالى فى مكان يبعد عن

---

(١) من مقال الأستاذ حسنين محمد ربيع. عميد كلية الآداب الأسبق.

المسجد الحرام فى مكة المكرمة. المكان الذى يسمى الحرم الشريف وهى أرض واسعة تحيط بها الأسوار بطول يصل إلى ٤٩٢ مترًا من الغرب، وإلى ٤٦٢ مترًا من الشرق، وعرضه فى الشمال ٣١٠ أمتار، وفى الجنوب ٢٨١ مترًا وله عدد من المداخل الرمزية مؤلفة من أقواس وأعمدة أطلق عليها اسم الميازين، فى هذه الساحة منشآت إسلامية تعود إلى مختلف العهود الإسلامية هى مدارس ومساجد وقباب وأهمها قبة الصخرة والمسجد الأقصى، وكان العرب الذين يزورون القدس يتبركون بهذا الحرم ويطلقون عليه المسجد الأقصى.

وعندما كان معاوية بن أبى سفيان واليًا على القدس والشام فى عهد عمر رمم الأسوار واعتنى بالبساتين والأشجار وبنى فى عكا دارًا لصناعة المراكب والسفن، وفى مدينة القدس نودى خليفة على المسلمين وكان هو مؤسس الدولة الأموية واختار قبل دمشق القدس عاصمة لمكانتها عند العرب.

وفى عهد عبد الملك بن مروان أمر بإنشاء قبة الصخرة سنة ٧٢هـ- ٦٩١م وابتدأ بإنشاء المسجد الأقصى الذى أتمه فيما بعد ابنه الوليد سنة ٩٧هـ- ٧١٥م، ولقد أنفق عبد الملك مالاً وفيرًا فى القدس لإنشاء هذين الصرحين للدلالة على قوة الإسلام وانتصاره، وأمر بتعبيد الطرق بين الشام والقدس لتسهيل سبل الزيارة الدينية المقدسة للحرم القدسى، وقد تم إنشاء عدة قصور أموية فى المرحلة وقصر المفجر فى أريحا وأنشأوا أيضا دورًا للصناعة.

فى عهد الاحتلال الصليبى كانت القدس الهدف الأكثر أهمية سنة ٤٩٢هـ- ١٠٩٩م وكان أول ما سعى إليه هؤلاء الغزاة أن جعلوا قبة الصخرة كنيسة رفعوا عليها الصليب وهدموا أطراف الأقصى وجعلوه مقرا لفرسان الإسبتارية، ويعود الفضل العظيم للبطل صلاح الدين الأيوبى الذى حرر القدس سنة ٥٨٣هـ- ١١٨٧م وسجل هذا التاريخ على محراب المسجد الأقصى الذى قام بتجديده، وما زالت الكتابة قائمة حتى اليوم فى المسجد بعد تحريره ثم قام بإعادة ترميم مسجد قبة الصخرة وسجل ذلك فى محيط القبة من الداخل. فلقد كان الأيوبيون أبطالا

فى التحرير وكانوا قدوة فى الإعمار والإنشاء، ففى مدينة القدس وحدها قام صلاح الدين بإعادة بناء سور القدس ٥٨٧هـ- ١١٩١م وتابع أولاده ذلك، كما قام بحفر الخندق حول الأسوار، وأنشأ الملك العادل أخو صلاح الدين الجامع العمرى سنة ٥٨٩هـ- ١١٩٣م وبنى سقاية لحفظ الماء وتموين القدس، وأنشأ ابنه الأفضل المدرسة الأفضلية والمسجد، وأنشأ قبة المعراج سنة ٥٩٨هـ- ١٢٠١م وقبة سليمان والزاوية الجراحية والمدرسة الناصرية وزاوية الدركاه وزاوية الهنود.

وتابع المماليك أعمال البناء وأصبحت القدس أكثر ازدهارا فى عهدهم، وخلال حكم الملك الناصر محمد بن قلاوون المملوكى -الذى امتد ثلاثة وأربعين عاما- حفلت القدس بالعمائر المملوكية التى كانت نموذجًا رائعًا لتطور العمارة الإسلامية. ولقد قام الملك بإنشاء أروقة المسجد الأقصى التى تمتد من باب الحرم حتى باب الغوانمة، وعمر السور القبلى عند محراب داود وقام بترميم صدر المسجد الأقصى إلى حائط المسجد الجنوبى، وجدد تذهيب قبة المسجد الأقصى، وقبة الصخرة سنة ٧٢٠هـ- ١٣٢٠م، وعمّر الميازين مقابل باب حطة ومقابل باب شرف الأنبياء، وجدد عمارة باب القطانين، وعمَّر قناة السبيل عند بركة السلطان، وهى القناة الداخلة للقدس من عين الغروب، وأنشأ جامع القلعة ٧١٠هـ- ١٣١٠م ويتكون من حرم ذى محراب جميل.

وفى عهد السلطان الأشرف قايتباى تم إنشاء الأشرفية وسبيل قايتباى فى الحرم الشريف، والمدرسة المزهرية، وأنشأ السلطان برقوق المدرسة الجهاركية وبركة السلطان وخان السلطان ودار السبت.

وكان عهد المماليك طويلاً استمر ما يقرب من ثلاثة قرون تركوا فى القدس آثارًا كبيرة، وتلا هذا العهد مباشرة العهد العثمانى منذ عام ٩٢٣هـ- ١٥١٧م، الذى ابتدأ بأعمال الترميم التى قام بها السلطان سليمان القانونى فى سور القدس وأقام برج اللقلق وبرج الكبريت، وأبراجًا أخرى، كما جدد أبواب القدس، مثل باب العامود، وباب دمشق، وباب الساهرة ٩٤٦هـ- ١٥٣٧م، وباب ستى مريم وباب



الخليل وباب النبى داود ٩٤٠هـ - ١٥٤٠م، وباب المغاربة وباب الخليل ٩٤٧هـ - ١٥٣٨م.

وأنشأ عددًا من الأسبلة فى الطرق المؤدية للحرم القدسى، منها سبيل بركة السلطان وسبيل باب العتم وسبيل سليمان وسبيل باب الناظر وسبيل باب الأسباط.

وكان سليمان القانونى قد اهتم بتوسُعة مهمة فى الحرم المكى فى مكة المكرمة، كذلك قام فى القدس باستبدال الزخارف الفسيفسائية التالفة فى واجهة قبة الصخرة وأمر بتغطيتها بألواح القيشانى التى ما زالت قائمة تحمل اسمه وتاريخ الترميم.

إن المبانى الإسلامية التى أنشئت خلال العهود المختلفة تؤكد الشخصية الإسلامية التى تتمتع بها القدس القديمة التى ما زالت محافظة على طابعها التقليدى، رغم انتهاكات اليهود وتغييراتهم الواسعة.

قبة الصخرة آية من آيات الفن الإسلامى

إن أهم ما يميز مدينة القدس ويؤكد طابعها الإسلامى المقدس هو الحرم الشريف الذى تقوم فيه روائع العمارة الإسلامية وبخاصة قبة الصخرة، والحرم هو أولى القبلتين وثالث الحرمين، فهى صرح لحماية الصخرة المقدسة وعليها همّ إبراهيم الخليل بالتضحية بابنه، كما أن الرسول عرج منها إلى السماء، والحرم الشريف وهذه الصخرة كان قبلة المسلمين فى صلاتهم الأولى، ثم نزلت الآية الكريمة ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٥٠] ولا بد من الوقوف طويلاً أمام قبة الصخرة، هذه الآية الرائعة التى قال عنها المؤرخ بوركهارت: «إن إشادة بناء بهذا المستوى من الكمال والإتقان الفنى، يعتبر عملاً خارقًا فى دولة الإسلام التى لم يكن قد مضى على ظهورها قرن واحد».

ولقد توسعت كتب تاريخ العمارة الإسلامية بوصف تفاصيل هذه القبة، وأهم ما يثير الاهتمام هو المخطط الثمانى الذى قامت عليه، والسؤال ما هو مصدر

استلهام هذا المخطط، ولماذا قام بشكل متفرد على مخطط ثمانى مخالفًا لشروط المسجد التى وضعها الرسول عند بنائه المسجد الأول فى المدينة المنورة.

تتجه أبحاث المؤرخين إلى مقارنة بناء قبة الصخرة المثمن بأبنية مماثلة كانت قائمة قبل هذه القبة. ولقد اهتم «كريزويل» بمقارنة هذا المخطط القائم على قبة قطرها ٢٠,٤٠م مع مخطط كنيسة القيامة فى القدس التى تقوم فوقها قبة قطرها ٢٠,٤٤م.

ويتوسع «إيكوشار» فى تحديد العلاقة بين قبة الصخرة وقبة كنيسة القديسة هيلانة فى رافينا -إيطاليا، كما يقارنها مع كاتدرائية بصرى ٥١٢م، وكنيسة القديس سمعان العمودى- سوريا.

وليس من شك أن العمارة الثمانية كانت موجودة، ولكن ما يهمنا هو معرفة السبب الذى دعا المعماريين «رجاء بن حيوة» الكندى و«يزيد بن سلام»، إلى اختيار هذا الشكل الثمانى لبناء آبدة تكريمية تحتضن الصخرة المقدسة.

إن أهمية هذه القبة وقد أصبحت رمزًا إسلاميًا بعد الكعبة تبدو فى احتوائها على معان قدسية رسخت أسس الفكر المعمارى الإسلامى، وكانت أصلاً يقتدى فى العمارة اللاحقة.

تتألف قبة الصخرة من بناء ثمانية أضلاع تعلوه قبة خشبية مصفحة قطرها ٢٠,٤٠م، ذات رقبة عالية تنفتح فيها ١٦ نافذة، ويعلو القبة جامور نحاسى ارتفاعه ٤,١٠م، وارتفاع القبة عن الأرض ٣٠- ٣٥م.

ترتكز القبة على ستة عشر حاملاً هى اثنا عشر عمودًا وأربع عضادات متناوبة. وتشكل هذه الحوامل المشوقة دائرة هى مرتسم القبة، ويحيط بهذه الدائرة مثمن طول ضلعه ٢٠,٦٠م، وهو مؤلف من جدران ارتفاعها ٩,٥م تعلوها تصوينة، وبين المثمن والدائرة يقوم مثمن من الحوامل مؤلفة من أقواس تحملها ٨ دعائم تربطها ببعضها أقواس محمولة على ستة عشر عمودًا. وتنفتح فى أربعة من

الجدران الخارجية أربعة أبواب تقابل الجهات الأربع، وإذا امتدت هذه الجدران الأربعة فإنها تشكل مربعًا يتقابل مع مربع آخر من الجهات الأربع الأخرى.

وهكذا، فإن القبة تقسم إلى ١٦ مجازًا من الأعمدة الحاملة، يحيطه مثمن من الأعمدة والأقواس الداخلية، يقابلها مثمن الجدران الخارجية المؤلفة من مربعين، مربع يشكل امتداد الواجهات ذات الأبواب ومربع يشكل امتداد الواجهات ذات النوافذ.

وإذا أعدنا رسم مخطط قبة الصخرة، كما أثبته العالم «ماوس»، فإننا نرسم دائرة كبيرة قطرها ٤٣م تقريبًا ومركزها (م) وضمنها نرسم مربعين متقابلين يشكلان نجمة ثمانية ونقاط التقائهما هى مراكز دعائم الرواق الأوسط المؤلف من ثمانية أقواس محمولة على أعمدة، تشكل مسقطًا ثمانيًا، وبالتقاء مراكز الدعائم مع مقابلها نحصل على مربع رؤوس زواياه الأربع هى مراكز عضادات القبة الأربع، وبين كل عضادتين ثلاثة أعمدة مؤلفة مسقطًا ست عشريًا يحتضن دائرة هى مرتسم القبة.

إن الشكل المربع هو جزء من الدائرة بل هو قادر إذا ما تحرك دائريًا حول محوره أن يشكل الدائرة، ويتجلى هذا التحرك فى مضاعفة المربعات، المربعان المتقابلان يشكلان نجمة ثمانية، والمربعات الأربعة المتقابلة تشكل نجمة ست عشرية، وهكذا نصل عن طريق تقابل عدد كثيف من المربعات إلى الدائرة.

ولقد اهتم «بابادوبولو» بهذه الظاهرة واعتمدها لتفسير المنظور اللولبى فى رسم المنمنمات، وفى العمارة الإسلامية والزخرفية تأكيد على إبراز هذا الانتقال من المربع إلى الدائرة أو من المكعب إلى الكرة.

ففى المساجد يتحول الشكل الرباعى فى مركز الحرم إلى شكل دائرى يحمل القبة، عبر عنق مثمن، وفى المآذن، ولنأخذ مئذنة الغوانمة فى القدس مثالاً، نراها تتألف من صومعة رباعية متوجة بشرفة مربعة أيضًا، تعلوها منارة مثمنة تغطى

وجوهها الثمانية محاريب، وتعلو هذه المنارة قبة ذات عنق أسطوانى مرتفع، والأمر نفسه مع مئذنة الفخرية.

ويتجلى هذا التحول أيضًا فى المحاريب والإيوانات التى يعلوها نصف قبة تتشكل من نصف الشكل الثمانى أو نصف الشكل السداسى كما أثبت ذلك إيكوشار.

وقد يبدو هذا التحول إنشائيًا لا بد منه، ولكنه فى الفكر المعمارى الإسلامى له دلالة دينية. إن الانتقال من المربع إلى مضاعفاته وصولاً إلى الكرة المتمثلة بالقبة أو أنصاف القبة، أو الدائرة، يرمز إلى انتقال كونى توحيدى. فالمربع يمثل الأرض بجهاتها الأربع، والمثمن يمثل الكون أى الأرض، وقد التحمت بعناصر الطبيعة الأربعة الماء والنار والتراب والهواء، والدائرة أو الكرة تمثل القوة الإلهية، ولذلك فإن القبة أصبحت رمزًا ماديًا إسلاميًا نراه ماثلاً فى جميع المبانى الإسلامية.

صحيح أن القبة تقليد معمارى قديم وهى طريقة إنشائية ناجحة لتغطية المبانى، بيد أنها فى العمارة الإسلامية أصبحت رمزًا للملكوت الواحد الأحد. إليها يتجه الابتهال والدعاء، ومنها تشع الرعاية والحماية.

ومع أنها لا تقوم فى العمارة الإسلامية بوظيفة إنشائية لازمة دائمًا، فإنها تبدو كموئل للابتهال ماثلة فوق المساجد وفى نهايات المآذن، بشكل مغزلى أو مقبب، أو تبدو نصف قبة من طاسات المحاريب والإيوانات، أو تبدو فى القباب التكريمية والأضرحة كمظلة حماية ترمز إلى العناية الإلهية.

وفى بيوت الصلاة أو فى المآذن يتم الانتقال تصاعديًا تعبيرًا عن الابتهال، ولكن فى الأضرحة وقباب التكريم فإن الانتقال يتم من القبة إلى القاعدة تعبيرًا عن الرعاية والحماية والتكريم، كما هى قبة الصخرة.

وهذا يعنى أن هدف بناء قبة الصخرة لم يكن لمضاهاة كنيسة القيامة كما يقول المقدسى ص١٩، ولم يكن لمجرد تقليدها كما يدعى كريزويل، بل كان هدفًا رمزيًا لتحديد علاقة رعاية وحماية لهما مدلولهما فى الإسلام.

وابتدأت التجربة لتحقيق هذا الهدف بتصميم قبة السلسلة لتكون نموذجًا أوليًا لقبة الصخرة، وأرادها المعماريان المصممان أن تعبر فى مقاسها وتشكيلاتها عن رموز وحدانية، وهنا نتذكر أسباب تسمية القبة النموذج بالسلسلة، هذه التسمية التى أطلقها العامة على القبة تعبيرًا عن علاقتها بالسدة السماوية، فالمعتقد الشائع أن ثمة سلسلة معلقة فى السماء يرقى عليها إلى السدة العليا، المؤمن الصالح دون غيره. هكذا يحمل شكل القبة معنى دينيًا محددًا. ثم تأكدت هذه التشكيلات والمقاييس والنسب فى قبة الصخرة لتعبر عن هوية البناء باعتباره مظلة للصخرة المقدسة وآبدة رمزية للإيمان والارتباط بالخالق وطلبًا لرحمته وعنايته، إذ أن القبة التى تعبر عن الكون والسدة السماوية تغطى حادبةً حاميةً موضع التكريم والتمجيد، وينتقل هذا الرمز الدائرى إلى شكل مثمن ومنه إلى شكل مربع.

وقد تقف ضمن حدود التشكيل المثمن كما هو الأمر فى قبة الصخرة، ولكن يبقى التحول من الأعلى إلى الأسفل موافقًا لاتجاه العناية الإلهية من السماء إلى الأرض، وبصورة عامة فإن القبة تستقطب الإيمان والدعاء، وتشع الرعاية والحماية.

وقد نرمز إلى القبة بطاسة المحراب أو يرمز إليها بالعقد «مرتسم مقطع القبة» والقبوات والأقواس، وتبقى فى جميع الأشكال رمزًا لتلك العلاقة التى تربط الإنسان على الأرض بخالق الكون فى ملكوته.

وخلاصة ما سبق:

إن هذا الرمز المعمارى الذى نراه فى جميع الأبنية الإسلامية على امتداد الأرض التى آمن فيها الناس بالدين الإسلامى، نراه واضحًا فى المنشآت الإسلامية فى مدينة القدس على اختلاف وظائفها، سواء أكانت سبيلاً أو كانت مدفنًا أو كانت قبة مسجد أو قبة تكريمية أو قوسًا أو عقدًا، مما يضفى الطابع الإسلامى على مدينة القدس كلها ويؤكد أصالة العمارة الإسلامية فيها.

وتبقى قبة الصخـرة منطلق الأصالة المعمارية الإسلامية، فالنجـمة الثمانية التى تعـبر عن مفـهوم الكون وخـالق الكون فى الفكر الإسـلامى، والتى تتـألف من مربعـين متقابـلين بمركز واحد. مربع يـمثل الجهات الأربع كـما هو مربع الكعـبة المشرفة ومربع آخـر يمثل عناصر الطبيعة الأربعـة الماء والهواء والنار والتراب، هذه النجمـة هى شكل مخطط بناء قـبة الصـخرة التى هى قـبلة المسلمين الأولى فـما أحراها من قبلة، وما أجمل قبة صخرتها من بناء.

إن عددًا من القـباب التى أنشـئت فى منطقة الحـرم الشريف، كـانت تذكارية، ولذلك فـإن الرمز الوحـيد الذى تتـضمنه هو القـبة ذاتهـا، وهو الرمز السـماوى المعروف والمعـبر عن العناية الإلهـية، وتحمل هذه القـباب أقواس على أعـمدة من واجهاتها الست كما هو قبة السلسلة، أو الواجهات الأربع كما فى قبة يوسف التى أنشأها صـلاح الدين يوسف الأيوبى، أو فى قبة يوسف آغـا والقبة النحوية وقـبة موسى، أما قـبة النبى ٩٤٥هـ- ١٥٣٨م، وقبة سليـمان وقبة الأرواح فـإنها تقوم على ثمانية، وجودة الزخارف الإسلامية دليل عروبة مدينة القدس.

وإذا انتقلنا إلى الزخارف الهندسـية التى تبدو محفورة على واجـهات المبانى أو على أبوابهـا، نراها ترجع إلى المنطق نفسـه، كأنهـا مرتسم التـحولات المعـمارية اللولبية على سطح ذى بعدين.

ويجب التـمـيـيـز فى الرقش العـربى بين الرقش النـباتى والـرقش الهندسى، فالزخـارف الفسـيفسـائية نبـاتية المنشـأ، وعندما درس «فان بـرشيم»، و«دولوره» زخارف فـسيفسـاء قبة الصخـرة النباتية، كـان لا بد من ربطها بتقاليـد الزخارف السابقة للإسلام، لاسـتمرارية التقاليد المعمـارية والفنية فى المراحل الأولى لتشكل الفن الإسلامى، ولكن دراسة الزخارف الهندسية تبـقى مستمدة من الفكر الجمالى الإسلامى.

إن انطلاق الزخـرفة الإسلامـية من الشكل المـربع ومضاعـفاته المثـمن والست عشرين نراه فى تشكيل الزخـرفة المسطحة على الأرضيات أو الجـدران أو السقوف

الخشبية، أو نراه فى الزخرفة المجسمة فى طاسات المحاريب وفى المقرنصات، ويرتبط هذا التحول إلى حد بعيد بالأسس الإسلامية التوحيدية التى عبر عنها معماريًا مصممو قبة الصخرة.

فلقد كانت النجمة الثمانية فى الزخرفة والمخطط الثمانى فى العمارة التى التزمه معماريو قبة الصخرة علامة إسلامية مميزة، ولا ينفى أن المسدس والنجمة السداسية أو المخمس والنجمة الخماسية هى من التقاليد الفنية الإسلامية أيضًا لها تأويلها ومعناها، فالنجمة السداسية مؤلفة من مثلثين، واحد يمثل الأرض ورأسه إلى أعلى تعبيرًا عن الإيمان، وآخر يمثل السماء ورأسه إلى أسفل تعبيرًا عن عناية الله، والنجمة الخماسية هى إدماج للمثلين.

لقد كان الفكر الوحدانى الإسلامى المحور الذى نشأ عليه الفن الإسلامى والعمارة الإسلامية، وكانت تجارب المنشئين الأوائل فى القدس من معماريين ومزخرفين وخطاطين، محاولات تأسيسية لفن جديد، تتضح منطلقاته النظرية بتحاشى التشبيه لعدم مضاهاة الله فى مقدرته على الخلق، أو فيما يتعلق بالتعبير عن المطلق عوضًا عن المشخص من خلال الشكل الهندسى المجرد، ففى ذلك يتحقق الانتماء إلى العقيدة التوحيدية من خلال الفن.

وإذا كانت ولادة الرقش العربى قد بدأت من هذه المنطلقات، فإن ولادة الخط العربى كعمل إبداعى، تولدت من تجويد كتابة القرآن تعبيرًا عن التكريم والتعظيم، ويجب أن نذكر هنا أن أقدم شكل من أشكال الخط العربى البديع نراه على جدران قبة الصخرة، فثمة شريط طوله ٢٤٠ مترًا، يقع فى القسم العلوى من المثمن الداخلى بقبة الصخرة يتضمن كتابة منفذة بفصوص الفسيفساء المذهبة على خلفية زرقاء، هى آيات قرآنية من سورة النساء وسورة آل عمران، وثمة كتابة أخرى تتضمن تاريخ بناء قبة الصخرة.

إن هذا الخط المسمى بالجليل الشامى المأخوذ من الخط النبطى المتأخر، قد تكيف مع الفسيفساء أو الألواح النحاسية فى تشكيل المدات والمنحنيات، وبصورة عامة

فإن هذا الخط المركب من الخط اليابس والخط اللين، يعتبر أساسًا لأنواع الخطوط التي جاءت بعده الخط الكوفي وخط الثلث ومشتقاته.

لقد ازدهى مسجد قبة الصخرة بالزخارف النباتية الكثيفة المشكلة بالفسيفساء داخل القبة، أو الزخارف الهندسية المرسومة على ألواح القيشاني في واجهات القبة، ولا بد أن نشير هنا إلى أصالة هذه الزخارف.

في عام ٩٥٠هـ- ١٥٤٣م أمر السلطان سليمان القانوني بترميم زخارف قبة الصخرة الخارجية، وكانت من الفسيفساء المشابهة لفسيفساء الداخل الذي ما زال قائمًا، ولكن المرمم وجد أنه من الأفضل استبدال الفسيفساء بألواح الخزف، التي نراها اليوم، نظرًا للنقص الكبير في الغلاف الفسيفسائي، ولقد كان الاعتقاد أن هذه الألواح صنعت في أزنيك - تركيا، ولكن الدراسات الأخيرة أبانت أن هذه الألواح صنعت في القدس، يقول لين: (إن أزنيك لم تكن ناشطة في صناعة الخزف ولم يكن لها دراية بصنعة ما يسمى بالحبل الجاف، ولذلك فإن هذه الألواح قد صنعت عام ٩٥٩هـ- ١٥٥٢م محليًا دون شك، وليس لها نظير).

وهكذا فإن العمارة الدينية من مساجد وعلى رأسها مسجد الصخرة عمارة إسلامية صممها مهندسون مسلمون وصنعتها أيد مسلمة عرفت بالدقة والمهارة، وأن هذه العمارة لدليل قوي على أن مدينة القدس مدينة عربية إسلامية على مدى العصور، وأن الفنان المسلم كان يستوحي عقيدته ذات الطابع الوحدوي كما كان يستقي من الرموز الإسلامية مادة خصبة للتشييد والزخرفة، فهل يوجد مثل هذا الفن على أي مبنى يهودي في القدس.

٢- فشل الأثريين اليهود في العثور على بقايا الملك سليمان:

لجأت إسرائيل هذه الأيام إلى الحفريات في مدينة القدس من جهة وفي فلسطين بصفة عامة من ناحية أخرى لتأتي بدليل يؤكد أحقيتها في تهويد القدس، من هنا أصبح من الضروري للأثريين العرب تأكيد عروبة القدس والحق التاريخي للعرب

والمسلمين فيها، وتأتى أهمية هذه المدينة من أنها رمز للصراع العربى الإسرائيلى لأجيال فى تاريخ المنطقة.

ويؤكد المؤرخون وخبراء الآثار أن «إسرائيل» ليست لها آثار فى الأرض المحتلة كما تزعم، وأن هذه الآثار عربية إسلامية بحكم التاريخ والموقع وهو ما تؤكده أيضًا المصادر التاريخية والوثائق الأثرية القديمة.

ولعل للسكة دليلها القوى فى هذا المجال فإن أهم ما يثبت عروبة القدس وتاريخها الإسلامى هى النقود، ولذلك يؤكد الدكتور رأفت النبراوى عميد كلية الآثار بجامعة القاهرة أن النقود التى تم صكها خلال العصور الإسلامية تثبت وتبرهن على عروبة القدس باعتبارها من الوثائق الرسمية وأن هذه النقود سواء كانت من العملات الذهبية أو الفضية أو النحاسية أو البرونزية فهى وثائق رسمية لا يمكن الطعن فى قيمتها التاريخية أو فيما يرد عليها من كتابات وزخارف آدمية أو حيوانية أو هندسية أو نباتية، وهذه النقوش كان يسجل عليها اسم إيليا وهو الاسم الذى أطلقه الإمبراطور الرومانى «مادريان» على مدينة القدس بعد حرقها وهدم بقايا هيكل سليمان، وكان ذلك سنة ١٣٠٠ق م ويقول: إن القدس كان يطلق عليها هذا الاسم حتى ضمها الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه سنة ١٧ هجرية، وكانت من أقدم النقود التى وصلتنا والتى ضربت بإيليا فلسطين تلك التى تحمل صورة الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان فى العام ٦٥- ٨٦ هجرية وصكت فى عهده وتحمل حرف الميم كما حملت بعض الكتابات العربية، وكان أشهرها العبارة الكريمة «محمد رسول الله» «بسم الله» «لا إله إلا الله وحده»(١).

أما الحفائر فهى الأخرى دليل على كذب اليهود وافتراءاتهم على التاريخ سواء الحفائر العربية أم الصهيونية. أما عن الحفائر الغربية والصهيونية فى الأرض المحتلة فقد اتخذت اتجاهين: الأول حفائر فى جميع أنحاء فلسطين والمناطق الأثرية بها

---

(١) الدكتور رأفت النبراوى. عميد كلية الآثار بجامعة القاهرة. وانظر المقال الذى كتبه محمد الصادق فى صحيفة البيان الإماراتية يوم ٥/٣/٢٠٠٣م

وبدأ فى العام ١٨٩١م حتى عام ١٩٥٢م، وجاءت خلال هذه الفترة حوالى ٤٢ بعثة أجنبية وكانت الحفائر خلال هذه الفترة لخدمة غرض سياسى حيث انتشرت فى أكثر من ٢٥ موقعًا، والاتجاه الثانى كان حول مدينة القدس بحثًا عن آثار غير عربية ولكن الجهود باءت بالفشل.

ويقول إنه فى الوقت الذى كانت فيه هذه البعثات للتنقيب عن الآثار فى أنحاء فلسطين كان آخرون يقومون بالحفائر حول المسجد الأقصى، وزادت هذه الحفائر بعد زرع «إسرائيل» فى فلسطين فى عام ١٩٤٨م وتصاعدت بعد ١٩٦٧م حينما احتل الإسرائيليون القدس الشرقية، فجندوا لذلك كل بعثات الحفر اليهودية والبعثات التى تساند باستمرار الفكر الصهيونى طمعًا فى إثبات آثار لهم.

ويؤكد الدكتور رمضان عبده أستاذ الآثار فى جامعة القاهرة أن هؤلاء يركزون حفرياتهم فى القسم الشمالى من الهضبة الشرقية فى القدس أى فى الجزء الذى يقع شمال حصن صهيون لبناء الهيكل المزعوم، وفيه يعرف هذا الاسم بجبل المرايا، وأن سيدنا سليمان عليه السلام قام باختيار هذا الموقع لبناء الهيكل عليه كما يزعم اليهود.

ويقول علماء عديدون للدراسات الشرقية فى أوروبا إنهم قاموا بالبحث عن صحة ما ورد فى التوراة من أسماء مدن فلسطينية فى محاولة للعثور على أى شىء يدل على دورهم فى تاريخ فلسطين أو بحثًا عن آثار عبرانية فى فلسطين، وقد انتهت المحاولات كلها بالفشل الذريع.

ويقول الباحث الأثرى الدكتور خالد عزب: إن مدينة القدس القديمة تبلغ مساحتها ضمن الأسوار كيلو مترًا واحدًا ويشغل الحرم الأقصى الشريف ما يقارب ٣٠٠-٥٠٠ متر من الناحية الجنوبية، وهذه المساحة هى البؤرة الرئيسية للمدينة، ويحيط بالمدينة سور حجرى مرتفع يشمل خمسة أبواب مفتوحة هى باب الزاهرة وباب الأسباط وباب العامد والباب الجديد وباب الخليل وباب النبى داود عليه

السلام، وأربعة أبواب مغلقة هى الباب المغرب والباب المزدوج والباب الثلاثى والباب الذهبى.

ويصف المدينة بأن بعضها مغطى ببائكات معقودة والبعض الآخر مفتوح ومبنى به مساكن ومدارس وزوايا وسبل للسقاية على جانبى الطريق، ومثل هذه النوعية من الطرق -كما يقول- توفر الظلال المريحة للمشاة، وتخفف من حرارة الجو وتمنع سقوط أشعة الشمس مباشرة على المارة وخصوصًا فى الصيف[1].

وقد اختلف رجال الآثار حول الزمان والمكان اللذين عاش فيهما الملك سليمان «ابن داود»، فبينما تقول القصة التوراتية إنه عاش فى بداية القرن العاشر قبل الميلاد، تبين أن الاستحكامات والبنايات التى نسبت إليه ترجع إلى تاريخ آخر. وقد حاول بعض الباحثين الذين اجتمعوا فى المتحف البريطانى بلندن فى ٢٩ حزيران «يونيو» ٢٠٠٢م، للتعرف على طرق قوافل البخور فى جزيرة العرب، وتحديد عصر ملكة سبأ ليتفق مع عصر سليمان منذ ثلاثة آلاف سنة، بينما نفى آخرون وجود سليمان فى تلك الفترة.

وإذا رجعنا إلى القرآن الكريم نجده لم يذكر شيئًا عن الزمان الذى عاش فيه الملك سليمان، الذى وردت قصته فى سور «الأنبياء» و«النمل» و«سبأ» و«ص»، ولا عن حجم مملكته أو مكانها، لكن الروايات التوراتية تذهب إلى أن سليمان عاش خلال النصف الأول من القرن العاشر قبل الميلاد. وبحسب ما جاء فى سفر الملوك الأول التوراتى، فإن سليمان كان «متسلطًا على جميع الممالك من النهر «الفرات» إلى أرض فلسطين وإلى تخوم مصر، حيث كانوا يقدّمون الهدايا ويخدمون سليمان كل أيام حياته».

وخلال الملتقى المنعقد فى المتحف البريطانى سالف الذكر، فاجأ «جوناثان طاب»، رئيس قسم آثار الشرق الأدنى فى المتحف، المؤتمرين بقوله: «لما كان العرف قد جرى

---

(١) القدس العربى ٢٧/ ١٢/ ١٩٩٧م، وانظر أيضا صحيفة البيان الإماراتية. مقال محمد الصادق فى ٥/ ٣/ ٢٠٠٣م

على اعتبار حكم سليمان فى القرن العاشر قبل الميلاد، فقد جرى تحديد تاريخ ملكة سبأ فى نفس ذلك الوقت. والآن يحاول الباحثون الذين يقبلون بتحديد وقت معين لحكم سليمان، البحث عن حكم «مملكة سبأ» التوراتية، والعثور على مملكة مناسبة فى اليمن تصلح «لهذا الغرض» فى القرن العاشر. . إلا أن آثار بلاد الشام خلال السنوات العشرين الماضية تقريبا، لم تتوقف عند الشك فى تاريخية سليمان نفسه كحاكم مهم فى بداية تاريخ «إسرائيل»، بل إنها تتعارض مع حقيقة وجود مملكة «إسرائيل ١» المتحدة نفسها، بالشكل الذى قدم فى الرواية التوراتية».

وتابع «طاب» تأسيس قسم آثار الشرق وأكد أن البقايا الأثرية التى تنسب عادة إلى سليمان، عبارة عن «مجموعة من البنايات الأثرية، بنايات عامة أو قصور فى مجدّو، أبرزها أربع بوابات ضخمة مدعمة تتبعها أسوار محصنة للمدينة، عثر عليها فى مجدّو وحازورة وجيزر، ولمجرد أن هذه الآثار حدّد لها تاريخ فى القرن العاشر، اعتبرت كما لو كانت شاهداً على برنامج سليمان الواسع فى البناء. . وعندما تمت أعمال الكشف فى تل جرزيل الذى قامت به جامعة تل أبيب والمدرسة البريطانية لعلم الآثار فى القدس فى تسعينيات القرن العشرين، أخرج هذا الموقع الذى شيدته عائلة «عمرى» خلال القرن التاسع عشر. . فخاراً مماثلاً للفخار الذى عثر عليه فى المستويات السليمانية فى مجدّو وحازورة. . مما أدى فى السنوات الأخيرة، إلى إعادة فحص ما يسمى بالمعمار السليمانى»[1].

أما عن مملكة داود وسليمان –حسب الرواية التوراتية– فإن داود بن يسى من قبيلة يهودا، كان يرعى الأغنام ويحسن العزف على العود، وجاء ليعيش عند شاؤول، وهو الذى خلفه فى قيادة قبائل بنى «إسرائيل». وتتضمن الرواية التوراتية معلومات متناقضة عن هذا الملك. فنحن نجد داود ومعه جيش مكون من ٦٠٠ رجل يحاربون فى صراع داخلى بين القبائل الإسرائيلية أو مع الفلسطينيين، وفجأة نجد تفاصيل معارك كبيرة تخوضها جيوش منظمة فى مواقع محصنة عديدة من أرض الهلال الخصيب.

(١) انظر أحمد عثمان. الشرق الأوسط. العدد ٨٦٣٦ - ٢١ / ٧ / ٢٠٠٢م.

لم يكن صدق الرواية التاريخية فى هذه الحروب شيئًا مهمًا، إذ كان هدف الرواة الأساسى من ادعاء هذه الانتصارات الجبارة هو حثّ «بنى إسرائيل» على ترك عبادة الأصنام والعودة إلى ديانة موسى، لكى ينصرهم ربهم على أعدائهم. وقد تعددت الروايات فى هذا الأمر. ثم مات داود تاركًا لخليفته سليمان إمبراطورية تمتد حدودها ما بين النيل والفرات، دون أن يعرف أحد من أين جاءت هذه الإمبراطورية؟.

وحتى هذه اللحظة، لم يتمكن الأثريون من العثور على أى دليل يشير، صراحة أو كناية، إلى مملكة داود وسليمان فى فلسطين. وبينما تقول رواية سفر صموئيل الثانى، وسفر الملوك الأول، إن الملك داود أقام إمبراطورية تمتد بين النيل والفرات، أورثها لسليمان بعد موته، فإن رجال الآثار لم يتمكنوا من العثور على ذكر واحد لأى من الملكين الإسرائيليين، رغم وجود ٣٠٠ موقع بأرض فلسطين تجرى فيها البعثات الأثرية أعمال الحفر، سواء فى «إسرائيل» أو الضفة والقطاع. وأدى عدم ظهور أدلة أثرية تتفق مع قصص التوراة، إلى الاعتقاد بأنها روايات أسطورية لا تعبّر عن الأحداث التاريخية. إذ يقول «توماس تومسون» أستاذ دراسات العهد القديم بجامعة كوبنهاجن الدنماركية: إن الاعتقاد الذى كان سائدًا حتى القرن التاسع عشر ذهب إلى اعتبار أن القصص التوراتية تمثل أحداثًا تاريخية حقيقية، ثم تغير هذا الموقف تمامًا الآن، بعدما أظهرت نتائج الاكتشافات الأثرية عدم وجود أى أدلة تؤيد ما جاء فى هذه القصص من أحداث وتواريخ «فليس هناك دليل من الآثار على وجود مملكة إسرائيلية متحدة أيام شاؤول وداود وسليمان، كما لم ترد أية إشارة لهؤلاء الملوك فى المصادر التاريخية». ويعتقد «تومسون» أن «قصص التوراة تضمنت أحداثًا تاريخية قديمة لشعوب وممالك أخرى فى الشرق الأوسط، جرى اقتباسها لتكون جزءًا من تاريخ مملكة بنى «إسرائيل»»، بل إنه يذهب إلى أن دولة يهودا التوراتية لم تظهر إلا منذ القرن الخامس قبل الميلاد، فى زمن الحكم الفارسى، ولم يكن لهذه الدولة أية علاقة بدولة «إسرائيل»

التى قامت حول السامرة قبل ذلك بأربعة قرون ودمّرها الآشوريون عام ٧٢٢ ق.م ونقلوا سكانها إلى مناطق أخرى، وأحلوا أقوامًا عربية مكانهم[١].

وأيضًا تقول قصة العهد القديم: إن داود بعدما صار ملكًا على قبائل «يهودا وإسرائيل»، استولى على مدينة القدس عندما «ذهب الملك ورجاله إلى أورشليم وأهلها إلى اليبوسيين سكان الأرض.. وأخذ داود حصن صهيون، وهى مدينة داود.. وأقام داود فى الحصن وسماه مدينة داود». ولم نحصل على تفاصيل هذه القصة المنسوبة إلى داود فى أى مصدر تاريخى، ولم ترد الإشارة إلى داود نفسه فى المصادر المصرية أو البابلية، فكان من الطبيعى أن يحاول الأثريون فى العصر الحديث العثور على الأدلة للتأكد من صحة هذا الجزء من القصة تاريخيًا، كما وردت عنه فى سفر صموئيل الثانى من كتب العهد القديم. ومع أن عمليات البحث عن البقايا الأثرية القديمة فى القدس ازدادت بشكل ملحوظ منذ وقوع هذه المدينة فى أيدى السلطات الصهيونية فى حزيران «يونيو» ١٩٦٧م، تبين أن لا وجود لمدينة ولا أسوار فى الفترة التى تقول الرواية التوراتية بأن القدس كانت فيها عاصمة لداود وسليمان.

وقد كانت بعض المصادر التاريخية التى جاء بها ذكر أورشليم قد أوحت من قبل بوجود مدينة القدس المحصنة، على الأقل منذ القرن الرابع عشر السابق للميلاد. فهناك ستة خطابات من بين رسائل العمارنة التى وجدت فى مصر قبل نهاية القرن الماضى، كتبها «عبدى خيبة» إلى الملوك المصريين والذى وصف نفسه بأنه كان «حاكم متاتى» أرض «أورشليم». واستنادًا إلى هذه الرسائل قال المؤرخون بوجود مدينة كبيرة فى منطقة القدس خلال حكم الملك إخناتون وأمنحتب الثالث، فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد. وجاءت نتائج الكشف الأثرى الأخير متعارضة تمامًا مع هذا الاعتقاد، ولم يعثر على بقايا أية مدينة قديمة فى موقع القدس ترجع إلى تلك الفترة الزمنية. ويبدو أيضا أن أورشليم هذه لم تكن مدينة سكنية، وإنما

(١) انظر المقال السابق.



كانت مزرعة أقيمت عندها نقطة للحراسة العسكرية لتأمين الطريق المؤدى إلى بيت شان «بيسان» فى الشمال. وبحسب ما ذهب إليه العالم الدنماركى «تومسون»، فإن عدد سكان منطقة أورشليم فى عصر داود كان أقل من خمسة آلاف نسمة، مما يصعب معه القول إنها كانت عاصمة لإمبراطورية كبيرة، وهو يرى أن علاقة اليهود بالقدس لم تبدأ إلا منذ القرن الرابع قبل الميلاد فقط[١].

٣- من يملك الحق فى إرث إبراهيم الخليل؟

لقد استغلت الصهيونية التوراة لخدمة أغراضها فى التوسع المستمر لاغتصاب الأرض والقتل والإرهاب فاستخدموا الدين للمتاجرة بالدين فهذا بن جوريون عام ١٩٣٧م يقدم تصويرا لمؤتمر المجلس الصهيونى العالمى فى زيورخ الذى رسم حدود إسرائيل كما نصت عليها التوراة والتى تقضى بأن تضم أرض إسرائيل مناطق فى جنوب لبنان حتى نهر الليطانى وجنوب سوريا وشرق الأردن وفلسطين وسيناء، بل فى عام ١٩٥٦م يعلن بن جوريون فى الكنيست أن سيناء جزء من مملكة سليمان، وبعد أحداث ١٩٦٧م يعلن أن حدَّىْ أرض الميعاد هما نهر الفرات ونهر النيل وهكذا زيفت الصهيونية التوراة بهدف إضفاء الشرعية على أى عدوان قد أعدوه سلفا أو لتبرير أى إلحاق أو ضم لأراضى غيرها، ومما يؤكد ذلك أن المذابح التى قامت بها إسرائيل فى لبنان ومجازر صبرا وشاتيلا ومذابح دير ياسين من قبل قد أضفت على إسرائيل القداسة ولكنها قداسة مزورة.

وقد استخدم اليهود فكرة الشعب المختار وأسطورة أرض الميعاد استخدامًا شاذًا لتبرير اغتصاب الحقوق الإنسانية، وهذه بلا شك خرافة تاريخية استند إليها اليهود فى فلسطين، وقد أوضحنا سابقا أن هذا الوعد من الرب لإبراهيم عليه السلام وزوجته إنما هو وعد مشروط بشروط أرادها الرب وفرضها على بنى إسرائيل إذا ما تخلّوا عنها ضاعت أحقيتهم فى تلك الأرض، كما بينا أيضا أن هذا الوعد كان من الله لذرية إبراهيم «إسحاق وإسماعيل» جميعها فكما أن للإسرائيليين وعدًا بالأرض كان لذرية إسماعيل هذا الوعد كما قال الرب.

---

(١) انظر المقال السابق لاحمد عثمان فى جريدة الشرق الأوسط.

وقد أكدنا بمنهجية علمية أن القدس عربية دمًا ولحمًا، وأن الفلسطينيين العرب هم سلالة أقدم شعب سكن أرض كنعان وأن الحضارة العربية فى فلسطين نشأت قبل ظهور العبرانيين. والمتأمل فى إعلان قيام دولة إسرائيل فى ١٤ مايو سنة ١٩٤٨م قد أكد أنه بموجب الحق الطبيعى والتاريخى للشعب اليهودى أنه قد أنشئت هذه الدولة فى فلسطين، وقد دأب القادة الإسرائيليون عند الحديث عن الحقوق التاريخية أن يربطوها دائما عبر الدعاية الصهيونية بمفهوم الوعد بالأرض الذى يعطى للإسرائيليين حقًا إلهيًا صريحًا فى امتلاك فلسطين والسيطرة عليه.

ويرى المفكر الإسلامى رجاء جارودى أنه ليس هناك خارج نصوص التوراة أى إشارة لروايات العهد القديم قبل القرن العاشر قبل الميلاد؛ لا فى مدونات شعوب الشرق الأوسط ولا فى الحفريات الأثرية ما يدل على ذلك الوعد، فلم تعد هناك أية وثيقة تدل من قريب أو من بعيد على غزو اليهود أرض كنعان أو حتى إشارة تدل على نزوحهم إلى مصر وإقامتهم بها.

أما الوعد بأرض فلسطين بحالته الحضارية فلم يظهر إلا فى كتابات المتنفعين والمتاجرين بالدين، وقد استعرض جارودى الوثائق المدونة عبر المراحل التاريخية منذ العصر البرونزى ثم المرحلة الممتدة ما بين ألفين قبل الميلاد إلى ألف وتسعمائة قبل الميلاد، وكذلك مرحلة السيطرة المصيرية منذ منتصف القرن الثالث عشر قبل الميلاد حينما هيمن فراعنة الأسرة الثامنة عشرة على أرض فلسطين والمنطقة الواقعة فى قلب الهلال الخصيب الممتد من النيل للفرات قد عبرت إليها مجموعات بشرية من كل نوع ودين وتمازجت ودخلها بدو ورعاة فى سبيلهم إلى الاستقرار باحثين عن المراعى فى بداية الألف الثانى وليجدوا بين سكانها الأصليين «الكنعانيين» حضارة ومدنية أغرتهم بالبقاء والامتزاج، وهذا يختلف تماما عن الصورة التوراتية التقليدية، فإن العبرانيين لم يشكلوا عنصرًا متميزًا قبل دخول البدو أرض كنعان بل تشكلت تجمعاتهم من وحدات عرقية مختلفة كانت جزءًا من هجرات بدوية واسعة من الآموريين أو الآراميين ومن بين أولئك البدو الرحل من استقر بينما تابع الكنعانيون سيرهم إلى أرض مصر[1].

---

(١) جارودى والحضارة الإسلامية. أمينة الصاوى وعبد العزيز شرف. الطبعة الثانية ص١٣٣ : ١٣٥.



وإذا كانت التوراة قد أغفلت هذا فإن القرآن الكريم قد سجل تلك الأحداث تسجيلاً صادقًا منذ دخولهم إلى مصر وإهداء فرعون مصر جاريته سارة إلى إبراهيم، وهؤلاء البدو الذين عرفوا فيما بعد بالعبرانيين أخذوا عن الكنعانيين لغتهم وكتابتهم ومعتقداتهم حتى حوالى سنة ألف وأربعمائة قبل الميلاد حينما سعوا إلى مراع جديدة فى مصر مقتفين على الأرجح أثر الغزاة الهكسوس وعندما طرد الهكسوس من مصر تأزم موقف الذين جاءوا لحمايتهم... إذ اعتبروا أعوانًا للعدو وتم إخضاعهم لأحوال معيشية ازدادت قسوتها مع الأيام وقد وصفها القرآن بقوله تعالى: ﴿ **وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٢٧]. وقوله تعالى أيضا: ﴿ **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ [القصص: ٤].

وتشير الروايات إلى أن اليهود قد عذبوا على أيدى الصليبيين عام ١٠٩٩م فقد تعرضوا للحرق فى معبدهم بينما كان صلاح الدين الأيوبى رحيمًا بهم فعندما استعاد القدس عام ١١٨٧م أذن لليهود بالعودة للمدينة المقدسة، ومن هنا وحسبما أشارت الروايات فإن عودة اليهود إلى فلسطين لم تكن قائمة إلا على إثر حملات الاضطهاد والملاحقة فى أوروبا ولم تكن عودتهم إليها بدافع من حنين إلى وطن الأجداد.

وقد شهد القرن الخامس عشر الميلادى هجرة بعض يهود أسبانيا بعد سقوط الأندلس وتعنت محاكم التفتيش بينما اتجهت الأكثرية الساحقة منهم إلى فرنسا وهولندا وإيطاليا ومصر وقبرص والبلقان وتركيا، ففى عام ١٨٤٥م لم يكن فى فلسطين سوى ١٢ ألف يهودى من أصل مجموع السكان البالغ ٣٥٠ ألفًا وفى عام ١٨٨٠م وصلوا إلى ٢٥ ألفًا من أصل ٥٠٠ ألف، وقد أتت حملات الاضطهاد فى روسيا عام ١٨٨٢م بموجات متتابعة من يهود هولندا ورومانيا.

ومع ظهور الصهيونية وكتاب تيودور هرتزل حول الدولة اليهودية الذى أصدره عام ١٨٩٦م والذى تحدث فيه عن الحقوق التاريخية للشعب اليهودى اضطرت الصهيونية آنذاك إلى تزييف التاريخ كما زيفت التوراة من قبل، يقول جارودى فى كتابه «كشف أحلام الصهيونية وأضاليلها» إذ يتحدث مستفيضا عن تزييف الصهيونية للتاريخ لتبرير العدوان، وكيف ابتكر اليهود فكرة العنصرية التى استخدمها النازيون ضدهم يقول: «لم يكن العبرانيون هم الشاغلون الأوائل لأرض فلسطين بل كانوا بين كثيرين غيرهم من شعوب الهلال الخصيب ولا يستطيعون بحال من الأحوال المطالبة بوضع استثنائى لهم فى سياق هذا التاريخ الطويل إلا أن الصهيونية كعادتها أخضعت أحداث الماضى بالتلاعب والتحريف حيث لم يكن لتاريخ اليهود فى تلك المنطقة إلا تواريخ عابرة بل نادرة وربما يكون العبرانيون قد أدوا فيها دورًا ومثال ذلك:

أ- احتلال اليهود لأرض كنعان فى عهد يوشع وقد حدث ذلك فى القرن ١٣ ق. م، وقد تحدثت عنها التوراة، وهذا التوغل ما لبث أن حول إلى حرب مقدسة وإلى غزو لاستئصال شأفة الأعداء، والقائمون بهذا التحويل هم لاهوتيو القرن السادس فى إعادتهم لكتابة التاريخ طبقا لأغراض سياسية محددة.

ب- سنوات حكم داود وسليمان ومجموعها ٧٣ سنة.

ج- النفى إلى بابل ثم العودة منه.

د- وأخيرا ثورات عام ٦٣م وعام ١٣٥م ضد الرومان.

أما بقية التاريخ فلا أثر له، ويقول جارودى: وكأن شيئا لم يحدث فوق هذه الأرض منذ الألف الثالث حتى مجئ العبرانيين خلال ألفين من السنين ثم لا شىء أيضا خلال قرابة ألفين آخرين بدءًا من «باروكوشيه» وحتى إنشاء دولة إسرائيل ١٩٤٨م. وهكذا يرى جارودى أن علم الأجناس يؤكد أن الفلسطينيين هم أحق بالأرض من يهود الشتات.

ولعلنا نعود إلى التساؤل الذى عنونا به تلك الوريقات: من يملك الحق فى إرث إبراهيم الخليل؟. عرفنا من الاستعراض السابق لحقيقة اليهود أنه لم يكن لليهود وجود أصلا إذ كانوا خلال جميع مراحل التاريخ أحد مركبات الفئات السكانية التى لم تكن تشكل بمفردها أصولاً عرقية فهل هناك دليل على ذلك؟ إن البدو الرحل أو الرعاة الذين هاجروا متجهين نحو كنعان من أجل الاستقرار كانوا آراميين هاجروا من شمال الفرات ومن شرق الأردن ومن شبه الجزيرة العربية، فهم ساميون بحكم لغاتهم السامية لا بحكم عرقهم أو دمهم، فمثلا العرب والإسرائيليون اليوم يطلق عليهم ساميون، وهذه التسمية راجعة إلى اللغة العبرية والعربية إذ هما معا ينتميان إلى السامية فهم ساميون بانتمائهم إلى لغاتهم وليس بانتمائهم إلى دمائهم، أما العبرانيون الآتون من مصر وقت الخروج فقد كانوا فئة اجتماعية مهمشة وليست عنصراً متميزاً والقبائل التى تسللت إلى أرض كنعان سواء سلمًا أو حربًا فقد تمازجت بالسكان المحليين وتصاهرت زواجًا وامتزجت ثقافة ولغة[١].

وقد كانت مملكة داود وسليمان متعددة الجنسيات حفية بالأجانب ونزعاتهم الدينية، وعندما سمح البابلى أحشيروش لمنفيين من اليهود فى بابل بالعودة بقى معظمهم فى بلاد ما بين النهرين حيث شكلوا جذوراً أسرية فإذا ما أضفنا إلى ذلك طرد الرومان الإسرائيليين المتمردين سنة ٧٠م لاتضح لنا تآكل الجذور اليهودية العبرانية فى تلك المنطقة وهى كنعان.

ويؤكد هذا الرأى جوزيف ريناخ فقد كتب فى جريدة المناقشات فى يوم ٣٠/٣/١٩١٩م قائلا: «إن يهود فلسطين لا يشكلون سوى أقلية لا تذكر واليهود كالنصارى والمسلمين اتجهوا بحماسة وإيمان إلى إدخال الشعوب فى دينهم بل إنهم قبل العهد المسيحى أدخلوا فى ديانة موسى الموحدة بالله ساميين آخرين كالعرب ويونانيين ومصريين ورومانيين بأعداد كبيرة، «ثم نشط التبشير اليهودى فى آسيا وأفريقيا الشمالية وإيطاليا وأسبانيا وبلاد الغال، وكان الرومان والغاليون المحولون

(١) جارودى ص١٣٧ .

إلى اليهودية هم بلا شك الأكثرية فى الجامعات اليهودية المشار إليهم فى الحوليات، وكان من المطرودين من أسبانيا أيضا بعض الأسبان المتحولين إلى اليهودية، وهكذا كما قلنا انتشر اليهود المتدينون باليهودية فى إيطاليا وفرنسا والشرق وأزمير والروس وبولونيا» وأخيرا ينهى ريناخ حديثه عن كثرة اليهود الذين تهودوا باعتناقهم اليهودية قائلا: «لذا فمن يتحدث عن عرق يهودى إما أن يكون جاهلا أو ذا نية خبيثة، ذلك أن اليهود لم يكونوا سوى قبيلة بين العديد من القبائل العربية أو السامية التى استقرت فى غرب آسيا» بل يستخلص جوزيف ريناخ أنه لا يوجد عنصر يهودى ولا أمة يهودية بل مجرد ديانة يهودية والصهيونية بعد ذلك ما هى إلا حماقة وثلاثية الخطر بعد الوطن والشعب[١].

وبذلك فإن عرب فلسطين يجرى فى عروقهم قدر من دم العبرانيين القدامى أى الآراميين شعب إبراهيم عليه السلام أكبر مما يجرى فى عروق أغلبية يهود الخارج، ولم يمنع انغلاقهم الدينى من امتصاص متحولين إلى اليهودية من مختلف الأصول العرقية.

وقد ذكر توماس كرنان فى كتابه «العرب» إصدار بوسطن ١٩٧٥م توضيحا لإزالة الخداع التاريخى الذى تلعب عليه الصهيونية قائلا: «كان الصهاينة أوربيين وليس هناك أبدًا من رابط حيوى أو عضوى بشرى بين أجداد يهود أوروبا وبين القبائل العبرانية القديمة».

إن ما يذيعه الصهاينة عن موضوع الحقوق التاريخية المزعومة يذكرنا هذا بوعد بلفور، فهل وعد بلفور هذا يعد حقًا تاريخيًا. إن من يتأمل مضمون وعد بلفور الذى صدر عام ١٩١٧م والذى جاء فيه إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين، وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية على أن يفهم جليا أنه لم يؤت بعمل من شأنه أن يغير الحقوق المدنية والدينية التى تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن فى فلسطين ولا الحقوق أو الوضع السياسى الذى يتمتع به اليهود فى البلدان الأخرى.

---

(١) جارودى مرجع سابق١٣٨.



أقول: لا شك أن هـذا الوعد قد تنكـر للحقوق الأسـاسيـة لأهل فلسطين إذ فرضوا عليهم شعبًا يتحكم فـيهم ويحكمهم بالحديد والنار، وفى اعتقادى لو سُئل سكان فلسطين فى استبانة على سبيل المثال: فـهل يقبلون أن يعيش معـهم اليهود على أن يكون هؤلاء اليـهود أغلبيـة؟ إذن لرفض الفلسطينيون ذلك وهذا مـا أكده تقرير زوجة كيـنج - كرين التى أرسلها الرئيس الأمريكى ويلسون لتـقصى الحقائق حول أفكار ورغبـات مجمل السكان، فقد أشار التـقرير إلى أن قدامى السكان من مسلمين ومسـيحيين عارضوا نزوحًـا جماعيًا لليهود الذى يتـرتب عنه بسط سيادة يهودية على المنطقـة، فهل هذا الرفض عمل به أم نفـذ وعد بلفور بقـوة عسكرية جبارة؟ وقد وصف هذا الوضع الشاذ «أرثر كوستلر» فى كتابه «الوعد والوفاء» أمة وعدت أخـرى علنًا بأرض أمة ثالثـة ومع هذا الوعد بدأت سلسلة الأكـاذيب التى تحكمت فى مسيرة دولة إسرائيل وقادتها ولم يكف الانتهاك المستمر للإشارة الواردة فى وعد بلفور إلى احترام حقوق الطوائف غير اليهودية[1].

ويكشف جارودى عن البرنامج الصهيونى وهو بطبيـعة الحال برنامج استعمارى صهيونى -كما قال هرتزل- ومن هنا فإن الصهيونية جزء من الإبادة العنصرية لغير اليهـود فيقول: «خـرافة الحنين المتوارث جيـلا بعد جيل إلى العـودة تخفى وراءها الحقيقة الاسـتعمارية للصهيونية فى القرن العـشرين، ثم يكشف جارودى عن عدد من القضـايا التى تبرز أحلام الصـهيونيـة وأضاليلها، وكـيف أن علم الآثار يؤكد تزوير الكهنة تـاريخ يوشع وداود عليـهـما السـلام، ويوضح أيضـا كـيف تبـادل الاستعمار والصهيونية الاستفادة من أسطورة الشعب المختار، ولماذا يركز الصهيونى على فكرة الإبادة وحينما تتـمسك الصهيونية السـياسية بالاستثناء والتـفرقة تعزيزا للفكرة القائلة بأن اليـهود لا يستطيـعون العيش بأمان فى الشـتات ولكن فى دولة منفصلة فـقط، وكأن دعوة الصـهيونيـة إلى دولة لليهود قـد أنقذتهم من النازية.
ويرى جـارودى أن إنقاذ اليـهود من النازية ليـس بفضل الصـهيـونية وإنما بفـضل انتصـارات ستالينجراد والعـلمين ولولا هذه الضربات القـوية التى وجهت للنازية التى صدت هتلر عن الشـرق لباتت فلسطين والدولة الصهيونـية تحت أنياب النازية.

(١) الوعد والوفاء ص٤.

إن السبب الأصيل الذى يراه ذلك الفيلسوف لهذا التزييف التاريخى الذى قام به الصهاينة هو سبب سياسى، فالمقصود من تلك الاستثنائية هو انتزاع الدولة الصهيونية من المجموعة الدولية واعتماد علاقات مع بقية الدول لا تكون طبيعية وقائمة على التفاهم المتبادل والمصالح المشتركة بل علاقات استثنائية يتحكم فيها الشعور بالذنب إلى حد يكفى عنده التلويح بمحرقة الهولوكوست ليصبح كل شىء مسموحًا به للضحية المختلفة عن غيرها، وكذلك أيضا تسديد التعويض عن جرائم الأمس[1].

وقد نجم عن ذلك أن تمسكت الصهيونية بضرورة تميز اليهود وأخذوا يروجون لذلك التميز الذى تسبب فى عزلة تامة لإسرائيل داخل منظمة الأمم المتحدة وقد يبدو للقارئ لأول وهلة أن الأمر غير ذلك، وقد يبدو له أن إسرائيل استطاعت أن تتحكم فى تلك المنظمة وسائر فروعها، ولكن الحقيقة أنه لم يتحقق ذلك إلا بدعم غير مشروط من الولايات المتحدة الأمريكية فلو انتفى ذلك الدعم يوما ما فإن إسرائيل ستصاب بارتباك مالى وعسكرى رهيب سوف يؤدى بها إلى كارثة لا مثيل لها. وعلى ما يبدو أن هذه الحقيقة غير غائبة عن عقول زعماء دولة إسرائيل فهم يحاولون التستر على هذه الحقيقة الرهيبة فيعمد زعماؤهم إلى استخدام كل الوسائل لتصوير أنفسهم وكأنهم كل يوم على حافة الزوال وفى محرقة هولوكوست جديدة، وفى سبيل ذلك فهم بحاجة إلى إذكاء معاداة السامية فى الخارج وإلى التهويل بالتهديد العربى فى الشرق الأوسط فى الوقت الذى اتصلت حلقات ذبائحهم فى صبرا وشاتيلا عام ١٩٨٢م وفى قطاع غزة منذ احتلال إسرائيل عام ١٩٦٧م إلى أن تسلمته السلطة التنفيذية عام ١٩٩٤م ومنذ بداية عام ٢٠٠٨م يواجه هذا القطاع حصار عنيف كبد أهله خسائر فادحة فى الأرواح والأموال والممتلكات حيث حرموه من المياه والكهرباء والأدوية والمعدات الطبية إلى غير ذلك مما يؤدى إلى الموت البطئ.

هذا بالإضافة إلى أن زعماء الكيان الصهيونى عن بكرة أبيهم ومهما اختلفت مناصبهم دائمًا يتذرعون بذرائع توراتية لتبرير كل مطالبة بأرض يكفلها لهم حق

(١) جارودى. الحضارة الإسلامية مرجع سابق ص١٤٢، ١٤٣.

إلهى بامتلاك أرض فلسطين، وكأن إثبات حق نزع الملكية لكل شاغل أرض إنما هو حق إلهى لهم. إن أمر تلك الدولة وذلك الكيان الصهيونى لغريب، فمفهوم الوعد للدولة الصهيونية ووسائل تحقيقها يستقيها اليهود من سفر يوشع التى تأمر باستئصال شأفة الشعوب، وهى سياسة قائمة على الدموية والإرهاب، هذا بالإضافة إلى مسألة الشعب المختار والتى روجت بدعوى السامية والعداء وإثارة العداء مع اللاساميين، كما جاء فى الوعد الإلهى.. كل هذه أساطير تبدو فيها الخرافة حينًا والتزوير التاريخى حينا والتحريف التوراتى حينًا آخر من أجل تحقيق أهدافهم الأيديولوجية.

استلهام القرآن فى التعريف بذرية إبراهيم والوعد الإلهى:

ولندع كل هذا الهراء التوراتى وكل هذه التحريفات ونبقى فى رحاب القرآن الكريم لنستلهم منه هذا الوعد الذى يدعيه الصهاينة ومن خلاله أصابتهم العنصرية والتكبر والترفع عن أجناس العالم.

يروى أن إبراهيم الخليل هو جد اليهود الأول وقد كان إبراهام زعيم عشيرة على ما يبدو فى إقليم أور على مصب نهر الفرات، ومن المعروف أن نسب إبراهيم الخليل ينتهى إلى سام بن نوح وأن إبراهيم الخليل هو أحد إخوة ثلاثة من أبيهم تارح وهم «تاحور وحاران»، قد وردت فى التوراة أن فرعون مصر قد أهدى إلى زوجة إبراهيم سارة جارية مصرية تسمى هاجر ولما كانت سارة عقيما لا تلد تزوج إبراهيم من هاجر فأنجبت له إسماعيل وهو الجد الأعلى للعرب ولمحمد ﷺ وأراد الله أن يرزق إبراهيم من زوجه الأولى سارة بولد سماه إسحاق، ورزق إسحاق بابن سماه يعقوب وهو المعروف بإسرائيل، وقد رزق إسرائيل هذا باثنى عشر ابنا ذكرا هم الأسباط من زوجتيه ليا وراحيل وأمتيهما وهم: رابين -شمعون- لاوى - يهوذا -بساكر-زبولون -«من ليا»، ويوسف -بنيامين «من راحيل» ودان -نفتالى «من بلهة جارية راحيل»، وجاد -أشير «من زلفة جارية ليا» وقد ولدوا جميعا فى العراق إلا بنيامين فإنه ولد فى أرض كنعان «فلسطين»[1].

(١) الاختراق الصهيونى للمسيحية. القس إكرام لمعى. دار الشروق. ص٢٧.

ومن المألــوف فى الروايات أن العرب ينتهى نسبهم كما ينتهى نسب العبرانيين -أى الإسرائيليين- إلى سـام بن نوح، وإلى هذا تنتسب هذه المجموعـة من الشعوب التى أطلق عليها اسم الشعوب السامية، وأن هذه الشـعوب تتكلم لغات متقاربة تنتهى إلى أصل لغوى واحد، وأن نسـبة هذه الشعوب إلى سام بن نـوح يعنى أن هذه الشعوب تنتهى نسبًا إليه، أما إذا نسبناها إلى المكان «الجزيرة العربيـة» فيقال: مجموعة الشعوب السامية كالآشوريين والبابليين والفينيقيين والآراميين والكنعانيين الكلدانيين والعبرانيين والمصريين، وكل هذا من سلالة واحدة يمكن أن نسميها بالسلالة العربية[١].

وقد شـهدت الجزيرة العـربية فى الألف الرابعـة قبل الميلاد هجـرات وغزوات نزحت منهـا إلى الشمـال حيث اسـتوطنت أراضى العـراق وسوريا ومـصر. نزح اليهود إلى العـراق حيث عاشوا فى ظل المملكة الكلدانية، ثم عبـر قسم منهم نهر الفرات بقـيادة إبراهيم الخليل ونزلوا أراضى حلب ثم اضطروا للـنزوح جنوبا حتى وصلوا إلى حدود شبـه جزيرة سيناء، ومن هناك اتجه قسم منهم شـرقا حيث نزلوا على ساحل البحر الميت بقيادة لوط، وبقى قسم منهم فى بئر السبع بقيادة إبراهيم.

والحقـيقة أن هناك آراء مـختلفة حـول قصة إبراهيم ونزوحـه إلى أرض كنعان «فلسطين»، أرجح هذه الآراء ترى أن إبراهيم قـد نزح إليها مـن مدينة أور جنوب غرب بلاد الرافدين على رأس جماعة مهاجرة كبيرة، وكان هذا فى حوالى ٢٠٠٠ ق.م قبل مجئ موسى بألف عام تقـريبًا، وقد أطلق المؤرخون على إبراهيم وذويه والذين هاجروا معه إلى فلسطين اسم العبرانيين، وقد يكون سبب هذه التسمية هى أن بنى إسرائيل الذين يقررون أن أباهم الأكبر إبراهيم كان أول من عبر نهر الفرات إلى أرض كنعـان، وهذا الرأى هو أرجح الآراء بينما رأى البـعض أنهم قد سـموا بالعبرانيين، نسبة إلى العبرية التى هى اسم عشيرة إبراهيم أو ربما أخذوها من كلمة عبرى التى هى بمعنى ساكن البادية.

وأود أن ألفت نظر القـارئ الكريم إلى الفرق بين مـدلول اليهـودية والعبـرية، «فاليهودية» نسبة إلى اليهود وتـعنى الذين يدينون باليهودية كدين، أما كلمة يهودى

(١) انظر الدكتور فوزى النجارى. أرض الميعاد. ص٤٦ وما بعدها.

هى التعبير الذى استعمل فى التوراة وقصد به الأفراد الذين هم من سبط يهوذا أو من رعايا مملكة يهوذا.

أما العبرية فلفظ مشتق من عبرى وقد أطلق أهل كنعان «الفلسطينيون» على إبراهيم ومن معه الذين هاجروا إلى أرضهم كنعان اسم «العبرانيين»، ثم أصبحت هذه الكلمة تطلق على من يدين باليهودية، كما أنها تعنى اللغة التى يتكلمها الإسرائيليون، وهكذا أطلقت على الشعب الذى استوطن أرض كنعان كما ورد فى التوراة.

وعندما أصبحت كلمة اليهودية شائعة فى الأوساط لم تكن هناك دولة عبرية أو إسرائيلية؛ إذ إن الشعب اليهودى كان قد انتشر واختلط أفراده بسائر الشعوب عن طريق الاختلاط، ثم انتقلت الديانة اليهودية إلى العالم الوثنى، وهكذا تسربت اليهودية إلى اليمن واليونان وإيطاليا وفرنسا وبولندا حتى وصلت إلى بقاع كثيرة فى الأراضى المصرية، «أما لفظ العقيدة اليهودية فهى مجموعة التعاليم التى وردت فى التوراة لليهود ليهتدوا بهديها، وأبرز ما فيها كما يروى اليهود أن الله قد قطع العهد لإبراهيم بأن أولاده يأخذون هذه الأرض ويطردون منها أهلها «الفلسطينيين» كما جاء فى الآية ١٨ من الإصحاح الخامس «لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات» وتعتبر هذه الآية الموضوعة بمعرفة اليهود الأساس الدينى لمطالبة اليهود بالأرض، ولأطماع اليهود فى مد دولتهم لتشمل الحدود الوارد ذكرها وتكوين إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات، وبهذه الخرافة أو الوعد المزيف قامت عقيدة اليهود وركزت فى قيام دولة لهم على أرض فلسطين. والعجيب أن يتمسك اليهود بعد خرافة الأرض بخرافة أخرى وهى شعب الله المختار حيث ادعوا أن الله قد اختصهم وفضلهم بأن جعلهم شعب الله المختار وأنهم أبناء الله وأحباؤه وقد ذهبوا مذهبًا كبيرًا فى تغرير العالم المسيحى بمختلف الحيل والوسائل الإعلامية إلى حد أن أوهموه أن المسيح هو من اليهود وهو كل يهودى مضطهد مشرد وأن اليهود فى مجموعهم هم الصورة المكررة لما كان يعانيه ويقاسيه

السيد المسيح، وقد انطلت هـذه الدعاية الخبيثة على كثير من المسـيحيين حتى ذهب بعضهم إلى أن اليهود فضلهم الله على العالمين لأن المسيح كان منهم(١).

إذن فمن أولى أن يـخصهم الله بتلك المزايـا: المسلمون أم اليهـود؟ ومن الذين يستحقون أن يطلـق عليهم الأمة المختارة المصطفاة؟ فهل اليهـود خير أرومة وأعرق أصلا؟ وهل فى انتسابهم إلى إبراهيم حق أم ادعاء باطل؟.

للإجابة عن هذه التـساؤلات إجابة علميـة منطقية نقف عند ذلك العـهد الذى قطعه الله لإبراهيم ونسله كـما يحكى سفـر التكوين وقال الرب لإبرام: اذهب من أرضك ومن عـشيـرتك ومن بيتك إلى الأرض الـتى أريك وأجعلك أمـة عظيمـة وأبارك وأعظم اسمك وتـكون بركة. وأبارك مبـاركيك، ولاعنك ألعنه، وتتـبارك فيك جميع قبائل الأرض(٢).

فهل هذا الوعد كـان مفردا أم كان ضمن عهـد متكامل بين الله وإبراهيم «وقال الله لإبراهيم: وأما أنت فتحفظ عـهدى. أنت ونسلك من بعدك فى أجيالهم، هذا هو عهدى الذى تحفظونه بينـى وبينكم وبين نسلك من بعدك، يختن منكم كل ذكر فتختنون فـى لحم غرلتكم فيكون علامة عهـد بينى وبينكم وأيضا أنا الله القدير»، «سر أمامى وكن كاملا: أجعلك أبا لجمـهور من الأمم وأثمرك وأكثرك لأكون إلهًا لك ولنسلك»(٣).

ومفهوم هذا العهد أن الله وعد بأن يجعل إسرائيل أمة عظيمة ويعطيها الأرض، ووعد أن يكون هو إلهها بشرط أن تتبارك فيها أو بواسطتها جميع الأمم، ومن هنا كان العهد عبـئًا ومسئولية وليس مجرد امتـياز. وقد أوضح الله أن شعب إسرائيل ليس أفضل شعوب العالم لكى يعطيهم العهد(٤)، فهدف العهد هنا أن تتبارك فيه

---

(١) اليهود المغضوب عليهم. محمد عبد العزيز منصور ص٢٥.

(٢) سفر التكوين ١٢ : ١-٣.

(٣) سفر التكوين ١٧ : ١-٨.

(٤) يقول سفـر التثنية: لا لأنكم أكثر من جـميع الشعوب التصق الرب بكم واخـتاركم لأنكم أقل من سائر الشعوب. . . . سفر التثنية ٧: ٧-٩.

جميع الأمم، والبركة المقصودة هنا هى وصول هدى الله ورؤيته ووصاياه إلى كل الأمم من خلال شعب إسرائيل، وبذلك أوصى شعب إسرائيل بمحبة الغريب وحسن معاملته والمحافظة على حقوقه. ويعلن الله بوضوح أنه طرد الشعوب من أمام إسرائيل وملكها الأرض لا لكى يعطى امتيازا لإسرائيل ولكنه أراد معاقبة هذه الشعوب لأنهم لم يطيعوه. ويعلن بوضوح أيضا أنه فى حالة عدم طاعة بنى إسرائيل وخضوعهم فسوف يعاقبهم كما عاقب الأمم من قبل «فلتقذفكم الأرض لتنجيسكم إياها كما قذفت الشعوب التى قبلها»[1].

فهل وفى اليهود بتلك الالتزامات؟ وهل نقلوا رؤية الله إلى الشعوب؟ وهل أطاعوا الله فى ذلك؟ أعتقد أنهم لم ينفذوا شيئا فهم لم يدركوا أن هبة الأرض من الله مرتبطة بالعهد ككل، ولابد من طاعة الله ولابد من التسامح مع الشعوب، ولكنهم خالفوا ذلك فاستخدموا العنف فى تملك الأرض سواء كان قديما أم فى هذه الأيام، فقد مورست كل أصناف الوحشية والقتل وقد برروا ذلك بأنهم يرتكبون هذه الأعمال لإرضاء إلههم ولتحقيق الوعد بالأرض الذى وعد الله به إبراهيم. إنهم رفضوا حكم الله وطالبوا إلههم بملك أرض تجسد آمالهم وأحلامهم وقد استخدموا العنف داخل المملكة أيضا؛ تأمل سفر ميخا وهو يخاطب رؤساءهم «اسمعوا هذا يا رؤساء بيت يعقوب وقضاة بيت إسرائيل الذين يكرهون الحق ويعوجون كل مستقيم الذين يبنون صهيون بالدماء وأورشليم بالظلم، رؤساؤها يقضون بالرشوة وكهنتها يعلمون بالأجرة وأنبياؤها يعرفون بالفضة وهم يتوكلون على الرب قائلين: أليس الرب فى وسطنا لا يأتى علينا شر. لذلك بسببكم تفلح صهيون كحقل وتصير أورشليم خرابا وجبل البيت شوامخ وعر[2].

---

(١) سفر اللاوين ١٨ : ٢٨ وقد وردت الكلمة الأولى فلا تقذفكم وهذه لا النافية وهى لا تتمشى مع المعنى كما جاء فى سفر اللاوين، والاصح أن تكون لام الأمر فربما يكون القس إكرام لمعى لم يتفطن إليه. انظر كتابه الاختراق الصهيونى للمسيحية ص١٦١.

(٢) سفر ميخا ٣: ١٢٩.

ويقول سفر هوشع: قد حرثتم الناق حصدتم الإثم. أكلتم ثمر الكذب لأنك وثقت بطريقك لكثرة أبطالك. يقوم ضجيج فى شعوبك وتخرب جميع حصونك كإخراب شيمان بيت أربئيل فى يوم الحرب. الأم مع الأولاد حطمت»(١).

والدارس للتاريخ القديم يؤكد أن الله سبحانه وتعالى قد جزاهم وعاقبهم عقابا شديدا بعد أن حذرهم، ففى عام ٧٢١ق.م وقعت المملكة اليهودية الشمالية فى يد آشور وحاصر السامرة وسبى بنى إسرائيل وأسكنهم فى صلح وخابور نهر جوزان.

ونعود إلى التساؤل الذى ذكرناه فى بداية الحديث: فهل هم بهذا العهد دون البشر وخير آرومة، وهل حقًا أن إبراهيم هو أبوهم أو جدهم الأول؟ لقد تحقق لنا كذب ذلك الافتراء لأنهم لم ينجزوا موعود الله فالإنجيل يقول لهم: «يا أولاد الأفاعى أراكم تهربون من الغضب الآتى فاصنعوا ثمارا تليق بالتوبة ولا تفكروا أن تقولوا فى أنفسكم لنا إبراهيم أبا لأنى أقول لكم إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادًا لإبراهيم. وانظر إلى هذا الحوار حول بنوة بنى إسرائيل لإبراهيم إذ كانت موضع نقاش بينهم وبين السيد المسيح كما يروى يوحنا فى إنجيله: «قالوا له: أبونا إبراهيم.. قال لهم يسوع: لو كنتم أولاد إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم.. ولكنكم الآن تريدون أن تقتلونى، أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا. فينفى السيد المسيح أنهم أبناء إبراهيم ما داموا لا يعملون أعمال إبراهيم وهذا الأمر يوضحه لنا بولس الرسول فى رسالته إلى أهل رومية قائلا: «لأنا ليس جميع الذين من إسرائيل هم إسرائيليون وإلا لأنهم من نسل إبراهيم هم جميعا أبناء إبراهيم» فالمسيحية هنا تذكر أن هناك نوعين من البنوة لإبراهيم: بنوة جسدية وبنوة روحية، فالبنوة الجسدية لا تفيد شيئا والأفضل هى البنوة التى تحيا بالروح وليس بالجسد. ويرى الأنبا شنودة بطريرك الأقباط فى مصر أن البنوة الروحية هى بنوة الإيمان «الذين هم من الأسماء يتباركون مع إبراهيم المؤمن وهذا يتفق مع قول بولس الرسول: اعلموا إذن أن الذين هم من الأديان أولئك هم أبناء إبراهيم(٢).

---

(١) هوشع ١٠: ١٣-١٤، انظر أيضا الاختراق الصهيونى ١٦٤-١٦٦.

(٢) اليهود المغضوب عليهم ص٢٧-٢٩.

ويأتي القرآن الكريم لينفي تلك البنوة عن هؤلاء الفسقة الأشرار فإن إبراهيم وذريته الحقيقية لا تكون الرابطة بينهم إلا الرابطة العقائدية وهي أقوى ما يكون فهي أقوى من رابطة الدم والجسد يقول الله تعالى: ﴿**مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ [آل عمران: ٦٧] فكيف لهذه الفئة أن تنسب نفسها إلى إبراهيم الخليل وأن معتقد هؤلاء اليهود وتكوينهم الديني لم يظهر إلا بعد آلاف السنين، فهل شهد إبراهيم التوراة وهل شهد إبراهيم الخليل الإنجيل، فإن كانوا يدعون أنهم من ذرية إبراهيم إلا أن إبراهيم برئ منهم ومن كذبهم وافتراءاتهم وقتلهم للأنبياء بغير حق، فلماذا إذن يحتجون بإبراهيم، يقول الله تعالى: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ**﴾ [آل عمران: ٦٥].

٤- نحو مصطلح آخر أصيل للصراع العربي الإسرائيلي:

إن قضية الصراع العربي الإسرائيلي تتعدد فيها أطراف كثيرة مما جعلها قضية معقدة وشائكة وقد تمس مستويات عديدة فهي قضية في المقام الأول فلسطينية إسرائيلية ولكن تظهر فيها مستويات أخرى ساهمت في ذلك الصراع، ومن هذه المستويات العرب والصهيونية والشرق والغرب الأوروبي والدين الإسلامي والدين اليهودي، فهذه المستويات تصارعت في هذه القضية وما زالت تتصارع فهل مسماها «الصراع العربي الإسرائيلي» يصلح للتعبير عن جميع المستويات المتصارعة في تلك القضية؟ وبمعنى آخر هل يوجد مفهوم شامل يناسب التعبير عن تلك الأطراف المتصارعة جميعها.

إن المتأمل في الأطراف المتصارعة في تلك القضية يجد فيها مستويين أحدهما متسع والآخر مركز، فالأول يضم الشرق والغرب، وهما طرفان متصارعان كبيران، والمستوى الثاني يضيق ليشمل الطرفين الأساسيين في القضية، وهما الفلسطيني والإسرائيلي، ولكن تدخل أطراف أخرى في الصراع يمكننا طرح العنوان على النحو الآتي:

أ- مفهوم الصراع العربي الإسرائيلي.

ب- مفهوم الصراع العربى اليهودى.

ج- مفهوم الصراع الإسلامى اليهودى.

د- مفهوم الصراع العربى الغربى.

هـ- مفهوم الصراع «العربى الإسلامى» اليهودى.

و- مفهوم الصراع العربى الصهيونى.

وهذه المستويات جميعها لا يخلو من خلل أو قصور فى تسميتها ومفاهيمها[١]. أما المصطلح الأكثر مناسبة والأدق صياغة والمعبر عن واقع الصراع فى المفاهيم السابقة هو مفهوم «الصراع الإسلامى الصهيونى» والسبب فى ذلك أن مدينة القدس مدينة إسلامية منذ ألف وأربعمائة عام وقد تمكنت الحركة الصهيونية العالمية بتحالفها مع الحركة الاستعمارية من اغتصاب هذه المدينة وانتزاعها بالاستيطان والاحتلال والتهويد. والمتأمل فى هذه الممارسات التى استمرت وتواصلت طوال القرن الماضى يجد أن الحركة الصهيونية قد خلقت واقعًا صهيونيًا جديدًا فى المدينة وهو واقع عارض ومخالف للواقع الإسلامى لهذه المدينة، ومن ثم أصبح لزامًا على العالم الإسلامى مواجهة هذه الغزوة الصهيونية، وقد ركزنا على المكون الأول فى المفهوم وهو الجانب الإسلامى فى مفهوم «الصراع الإسلامى الصهيونى» وهذا «الجانب الإسلامى» يحفظ للقدس هويتها الفلسطينية العربية الإسلامية ويعمل على تحريرها شعبًا وأرضًا ومقدسات، وهكذا لا يمكن إسقاط أو تجريد المصطلح من صفة الإسلام، فالجهد الإسلامى يتضمن الجهد العربى، والجهد العربى يتضمن الجهد الفلسطينى وبذلك يظهر الولاء والهوية المميزة باسم الدين الإسلامى والقومية العربية وصفة الوطنية لأرض فلسطين.

إن الصواب فى المصطلح الذى تم اختياره يوضح لنا أن هناك جهودا فلسطينية تعد اللبنة الأولى فى جملة جهود طرف «العالم الإسلامى» باعتبار الفلسطينيين

(١) اعتمدنا فى الحديث عن مفهوم الصراع الإسلامى الصهيونى على كتاب قضية القدس للدكتور عبد التواب مصطفى ص١١٥ : ١٤٠ بتصرف.

طليعة العالـم الإسلامى فى الدفاع عن أرضهم لأنها فى موقع المواجـهة مع الحركة الصهيونيـة العالمية وعليهم شرعا عبء المواجهة بداية ومن ثم أصـبح الجهاد عليهم فرض عـين، وعلى أشـقائهم فى العـالم الإسلامى يكون الجـهاد فـرض كفـاية، وباتساع دائرة المواجهة تنتقل فرضية الجـهاد إلى فرض عين تباعا فتلزم أولا من هم على «مـسافـة القـصر» من الفلسطـينيين ويراد بهم دول الـطوق، ثم بقيـة الدول العربية، فتـتصاعد بذلك جهودها أو التـزاماتها، وتظل تتسع دائرة فرضـية الجهاد فرض عـين على ما بقى من شعوب العـالم الإسلامى، باتساع دائرة خطر الحـركة الصهيونيـة العالمية حتى تشمل يوما كل دول العالم الإسـلامى شعوبا وحكومات، وهذا هو الواقع اليـوم من حـيث إثبـات وصف «إسـلامى» فى مـفهـوم الصـراع الإسلامى الصهيونى.

أما المكون الثانى الصهيونى فى المفهوم «الصراع الإسلامى الصهيونى» الذى وقع عليه الاختـيار فهو يشير إلى التـحدى فى الواقع الصهيونى القـائم اليوم فى مدينة القدس، ويشـير أيضا إلى من هم وراء هذا التحـدى أو من صنعوا هذا الواقع ولا يزالون يعززونه ويبسطون عليه جـناح حمايتهم ورعايتهم حيث أخذت الصـهيونية العالمية على عاتقها ما يلى:

أ- أن تحشـد كافـة جهود وإمكانات وطاقـات اليهـود الصهاينة فى الـعالم كله وتجمعهم عـلى هدف واحد هو إقامة وطن قومى لهم فى فلسطين تكون عـاصمته القدس.

ب- أن يتم تنسيق الجهود الاستعمـارية الغربية مع ما يتوافق من أهداف الحركة الصهيونية لإقامة دولة اليهود.

ج- استقطاب وتوجيه كل جـهود وإمكانيات الجماعات الصهيونية البـروتستانتية فى الغرب لتعزيز الوجود الصهيونى بالقدس.

د- تجنيد منظومة عمل متكاملة تتستر بالأنشطة الاجتـماعية والثقافية وتتمثل فى شبكات المحافل الماسونيـة وأندية الروتارى والليونز والبهائية والقاديـانية لتعمل فى

أرض فلسطين وخارجها لتعزيز الوجود الصهيونى بها وتضعف من مقاومة المؤسسات الإسلامية فى فلسطين وخارجها الساعية لإنهاء هذا الوجود.

هـ- توظيف واستثمار جهود من تهود أو تصهين من شعوب أو جماعات مثل الخزر والدونمة والفلاشا لتدعيم جهود الحركة الصهيونية لاغتصاب فلسطين والقدس على وجه الخصوص.

إذن مما سبق يتبين أن كل إجراء استيطانى أو احتلالى أو تهويدى يتم فى القدس من خلال النوافذ الخمسة سالفة الذكر وبالتالى توصف كل هذه الأنشطة بأنها نشاط صهيونى باعتباره صادرًا عن الحركة الصهيونية العالمية مباشرة أو عن إحدى مؤسساتها أو بتنسيق منها، كما يتضح أيضا أن تعبير إسلامى الذى سبق ذكره يستوعب تعبير «عربى» فهما معا: مفهوم أكبر يستوعب مفهوما أصغر، ففلسطين جزء لا يتجزأ من العرب وليسا طرفين متخالفين وكذلك فإن التعبير بالصهيونى يستوعب ما تسخره أو تستغله الحركة الصهيونية العالمية من جهود استعمارية غربية تجاه فلسطين والقدس.

إن الصراع الإسلامى الصهيونى وهو المفهوم الأصوب -كما قلنا- يشير إلى حالة من تباين العقائد والسياسات والاقتصاديات والإعلام والجوانب العسكرية والقانونية، ويتضح هذا التباين واضحا جليا عندما يترجم كل طرف موقفه إلى إجراءات عملية؛ فالطرف الإسلامى يتبنى موقفًا عقائديًا سياسيًا يتمثل فى تحرير الأرض الفلسطينية واستعادة القدس وحماية المقدسات الإسلامية بها.

بينما الجانب الأخر يتبنى موقفا للحركة الصهيونية متمثلا فى دولة إسرائيل، يقوم على الدعاوى التاريخية والعقائدية والسياسية ثم يبنى عليها حقا مزعوما له فى المدينة أو الدولة الفلسطينية، وتترجم الحركة الصهيونية الإسرائيلية موقفها إلى سلسلة من الإجراءات الميدانية تخلق بها أمرًا واقعًا فى القدس يصعب تفكيكه يسمى بسياسية الأمر الواقع وتسعى فى الوقت نفسه إلى ترويج دعواها دبلوماسيا ودعائيا.

ويمكننا بصفة إجمالية أن نعطى بعض السمات لتلك الحركة الإجرائية التى يتسم بها الجانب الصهيونى فى فلسطين ومنها:

- تحركات دبلوماسية مكثفة تروج للموقف الصهيونى.
- إجراءات واعتداءات ميدانية تحكم قبضة قوات الاحتلال على المدينة.
- التنكر لمقررات الشرعية الدولية بشأن القدس وعدم الالتزام بها.
- خلق تحالفات استراتيجية سياسية عسكرية لكى تقوى بها يوما بعد يوم وتحكم قبضتها على الجانب الآخر.

هذا ما قام به الجانب الصهيونى من ؤجراءات عملية ليثبت وجوده وأحقيته فى القدس، بينما الجانب الآخر وهو موقف المسلمين حتى فى منظمة المؤتمر الإسلامى فيما يخص قضية القدس قام بمجموعة تعريفات إجرائية يمكن وصفها بالسلبية على النحو التالى:

- تحركات دبلوماسية إعلامية هزيلة دفاعا عن موقفها المعلن.
- قرارات شجب وإدانة ومظاهرات هنا وهناك.
- توصيات كلامية إنشائية مفرغة من الحقيقة والواقع وتحركات ميدانية هزيلة.
- اللجوء إلى المحافل الدولية لإصدار قوانين تنهض بقضية القدس وكم من مرة خذلتنا الجمعية العمومية ومجلس الأمن بقوانين منحازة إلى الجانب الصهيونى.
- عدم ظهور الإرادة القوية والحنكة السياسية لدى حكام الدول الأعضاء فى منظمة المؤتمر الإسلامى ووجود كيانات تعمل على تعطيل التضامن الإسلامى حتى مل العالم وسئم من تلك القضية التى لم ينشط لها أصحابها.

إذن مما سبق تتضح لنا أبعاد الخطر الصهيونى الذى لم يكتف بسلب قطعة عزيزة من قلب الوطن العربى بل امتد خطره ليهدد الإقليم بأكمله، ويتسم هذا الخطر بالفظائع التالية:

خطر متمرس حيث تتميز الصهيونية بنضج الخبرة والتجارب المحققة لأهدافها وصياغة الأهداف ووضع الخطط والسيطرة على وسائل الإعلام العالمى والقدرة على إقامة التحالفات مع الأقوياء فى سبيل مصالحهم الخاصة، كما أن الخطر الصهيونى خطر متنام باستمرار فلم تعد أداة للاستعمار أو حليفة فى المنطقة فحسب بل أصبحت مناوئة له، وتجاوزت الأطماع الاستعمارية التقليدية للحركة الاستعمارية الغربية بل تذهب أبعد من ذلك فهى تفكر الآن فى تهويد الحضارة الإنسانية وصهينة العالم، كما أن الخطر الصهيونى له قدرة على اختراق الدوائر السياسية والدينية مهما كانت قوة استحكاماتها، ومن ثم يعمل على السيطرة عليها وابتزازها لصالح أهدافه ومطامعه، وهذا يدعونا ألا نغفل عن سيطرة الصهيونية على الدوائر السياسية والاقتصادية والإعلامية والفنية فى الولايات المتحدة الأمريكية، ويتمثل الخطر الصهيونى أيضا فى أنه خطر تآمرى ذرائعى فحينما يخطط يتظاهر بدعاوى قد تبرز مكانتهم أو يظنون أن لهم رسالة حضارية يحملونها إلى أهل المنطقة من أجل الإصلاح والنهوض بشعوبها كما لا ننسى تذرعهم بدعوى معاداة السامية التى أصبحت سوطا لإلهاب كل من يقف فى وجه أو يتصدى لليهودى بالنقض أو التجريح، ولتعزيز الوجود اليهودى والمؤسسات الصهيونية أقيمت المحافل الماسونية لخدمة أهداف الصهيونية فى شتى بلدان العالم التى تعمل جاهدة على بث الفكر اليهودى من أجل إعادة الحكومة الخفية التى تحكم العالم وتتحكم فيه.



خاتمة البحث



عرفنا من خلال الدراسة السابقة للحروب الصليبية أن الحروب من شأنها أن تحدث أثرًا فى نفسية الشعوب التى اكتوت بنارها وقد يمتد هذا الأثر لأجيال عديدة، وهكذا كان شأن الحروب الصليبية فإن الاصطدام العنيف الأول بين أوروبا المتحدة وبين الإسلام فى تلك الحروب الصليبية ترك أثرًا عالقًا بالنفوس فإن الشر الذى بعثه الصليبيون طوال تلك الحروب التى بلغت فى زمانها إلى القرنين قد فاض وزاد إذ استعمرت القوى الصليبية خلالها بلاد الشام وكونت أربع إمارات صليبية أخذت تمتص خيرات البلاد وتنهب ثرواتها وتعبث بحياة الآمنين على نحو ما بينا فى خطوات الحرب الصليبية الأولى.

ولكنى أود أن أنحى منحى آخر بعيدًا عن السيوف والرماح وقعقعة السلاح، أود أن أتحدث عن الأثر الثقافى أو ما يسمى الشر الثقافى الذى نشأ نتيجة تسميم العقل الغربى فى ذلك الوقت حيث استقرت مفاهيم خاطئة عن الإسلام فى عقول الأوروبيين حتى أصبح احتقار الإسلام والمسلمين جزءا أساسيا فى التفكير الأوروبى.

ومن هذا المنطلق فإن هناك رؤية فكرية قد تهيأت فى ذهن الأوروبى الغربى فى القرن الثانى عشر ثم توسعت لتمتد حتى القرن الثامن عشر وهو ما عرف بعصر الاستعمار الأوروبى، وهذه الرؤية الخاطئة تنطلق من عداء واسع للنبى ﷺ إذ يدعون كذب نبوته وأنه برسالته الإسلامية تلك أوقف تطور الإنسانية تجاه المسيحية وتسبب فى ضرر كثير إزاءها كما يزعمون، ومن هنا فإن شبح الحروب الصليبية مازال ماثلا فوق ربوع أوروبا وتدعمه تلك الأساطير الكاذبة التى استقرت فى اللاوعى الجماعى للغرب والدليل على ذلك:

١- شهادة الدكتورة الألمانية «أنامارى شميل» عميدة الاستشراق الألمانى للعلوم الإسلامية التى أدلت بها عام ١٩٩١م إذ تقول: «لكم يبدو لى أحيانا أن خوف

الأوروبيين من الزحف التركى الإسلامى ما زال عالقا بذاكرتهم التى لم تنس وقوف الترك مرتين أمام أبواب فيينا عامى ١٥٢٩ ، ١٦٨٣م، كأن ذلك الخوف الدفين لم تخب ناره فتراه يصبغ سلوك كثير من الناس إزاء دين الترك الذى هو دين العرب والفرس ومسلمى شبه القارة الهندية. ومما يؤكد بقاء الظلال الأسطورية تلك فى عقول الغرب هو أن أهل فينا قد احتفلوا شهرا كاملا وهو مايو ١٩٨٣م بالذكرى الثلاثمائة لتراجع الترك المسلمين من أمام أبوابها.

٢- شهادة الدكتور مراد هوفمان الدبلوماسى الألمانى وهو ينقل الانطباع السائد خلال حرب الخليج عام ١٩٨١م والتى نبشت ذكريات قد كانت دفينة قائلا: «الحق أن العالمين كليهما: المشرق المسلم والمغرب المسيحى قد وقفا مرارا ويقفان اليوم مرة أخرى أمام كومة من الحطام أثناء حرب الخليج، سرى الخوف إلى نفوس المسلمين الذين يعيشون فى أوروبا وأفريقيا كما تسلل الخوف أيضا إلى نفوس المسيحيين الأوروبيين فى الغرب والشرق الأوسط، فقد بدا الأمر كما لو أننا سنتورط جميعا فى حرب صليبية من جديد أو أننا سنعود إلى عهود الحروب الصليبية الغادرة.

من الحملات العسكرية إلى الحملات الثقافية:

فقد شعر الكثيرون من أصحاب القرارات السياسية والمفكرين الإستراتيجيين أن الحملات العسكرية صارت لا تملك حظًا من النجاح وأنه لابد من التفكير بجدية فى ذلك ويجب إعادة النظر فى الإستراتيجية السابقة وتجديدها نحو إستراتيجية جديدة تتسم بفاعلية أكثر ولا تشتمل على خسائر، وأن يكون لها أثر كبير فى تغيير الواقع المتدهور، بينما ظل آخرون منهم يطالبون بالدعوة إلى استمرارها ودعمها بالمال والسلاح أكثر وأكثر.

لقد أدرك الأوروبيون وساد الاعتقاد بينهم أن الصراع العسكرى مع الإسلام لا يجدى نفعًا ولا يكفى وحده لإسقاطه ودحره، وأنه لابد من التفكير بعمق فى تنظيم برنامج عمل كامل يقوم بدراسة وفهم مضامين الفكر الإسلامى ومعرفة

مواضع القوة والضعف فيه كمرحلة أولى ثم محاولة نقضه وإحداث الشرخ فى جدرانه بهدف اختراقه وتحطيمه من الداخل، وبالتالى ضرب إرادة المقاومة عند هذا الخصم العنيد ثم استئصاله بالمرة.

ذلك لأن قوة المسلمين إنما هى فى الإسلام وعندما يحدث انفصال بين الاثنين حينئذ يمكن كسر قوة المسلمين ودحر جحافلهم المنتشرة حول أوروبا، ومن هنا دخلت المواجهة بين الإسلام والغرب المسيحى مرحلة جديدة مبنية على استراتيجية جديدة تعتمد الأسلوب الثقافى الفكرى سلاحا لها وذلك لضرب الإسلام وإيجاد الخطر الدائم على وجوده، إذ إن مع حلول النصف الثانى من القرن الثالث عشر كان الموقف بين أوروبا والإسلام قد بلغ درجة عالية من التعقيد، وتباين وجهات النظر بين أصحاب القرار السياسى من الغربيين واللاهوتيين وظهور أسباب جديدة للقلق كتزايد غير المسيحيين فى أوروبا عدداً وعدة، ودخول المغول على مسرح التاريخ لما يحملونه من نزعة تخريبية، مما دفع بعض اللاهوتيين إلى البحث فى إمكان استخدام هؤلاء كأداة لضرب الإسلام.. كل ذلك كان عوامل مساعدة على حسم الجدل القائم بين الغربيين لصالح الفريق الثانى الداعى إلى التصدى الفكرى واستخدام أسلوب الاختراق الثقافى كوسيلة للوصول إلى العمق الحضارى للمسلمين، ويعد هذا الأسلوب بديلا عن الحملات العسكرية غير المجدية ولا غرو أن تستعاد آراء رائد هذا الاتجاه وهو الأب «بطرس المبجل ١٠٩٦-١١٥٦م» بعد أن ضاعت صيحاته وسط قعقعة السلاح وصليل السيوف ولم تجد لأفكاره آنذاك آذاناً مصغية عند الغربيين وخاصة أولئك الذين كانوا يرون أن الحل العسكرى هو الأفضل لقضية الإسلام.

غير أن الذى حدث آنذاك أن قائد الحملة الصليبية السابعة والأخيرة «لويس التاسع» إثر عودته إلى فرنسا بعد وقوعه أسيراً فى مدينة المنصورة بمصر قد تمكن من إقناع المعنيين فى أوروبا بعدم جدوى القتال مع المسلمين لأنهم يملكون عقيدة راسخة تدفعهم إلى الجهاد وتحضهم على التضحية بالنفس والمال والولد، ولعل هذا

التصـريح كان سببًا فى تغيير الاتجاه الذى كـان يرى أن الحل المناسب هو الطابع العسكرى عند المواجـهة مع الإسلام، وبدأ الفكر يتـغير من الاتجـاه العسكرى إلى الاتجاه الثقافى أو قل الغزو الثقافى.

من الحروب الصليبية إلى التبشير بالديانة المسيحية:

لقد أفضت جـهود أولى الفكر فى الغرب الأوروبى إلى ترجمـة القرآن الكريم لمعرفة مواضع القوة والضعف عند المسلمين واتجه «بطرس المبجل» سالف الذكر إلى محاولة تنصـير المسلمين ونقلهم إلى الكاثوليكية ولكن خـابت كل آماله، ثم ظهر راهب إنجليـزى آخر يدعى روجـر باكـوم «١٢١٤-١٢٩٢م» وقد طرح مـشروعـه التبشيرى المفصل على البابا بطريقة مباشرة وقد تضمن عرضًا لحالة المسيحية وجملة اقتراحـات لإصلاح الحال لأنه رأى أن أعداد المسـيحيين قليلة فى العـالم أما سائر الأرض فيغص بالكفار الذين لا يجـدون أحدًا يهديهم إلى طريق الحق والسبب فى ذلك أن المسيحية عجزت عن القيام بتبشـير حقيقى. ثم يضيف قائلا: إن المسيحية لن تنتشر وتنتصر بغير التبشير السلمى. ويدعى أن وضع العلاقات مع المسلمين فى أيامه أكبر برهان على ما يقول فإن المسيحية لم تنـتشر وتنتصر بغير التبشير السلمى غير أنها الآن عاجزة عن القيام بمهمة الدعوة والموعظة للأسباب الآتية:

١- لا أحد يعرف لغات الشعوب التى يراد التبشير بينها.

٢- لا أحد يعرف ماهية عقائد الكفار الذين يراد تبشيرهم.

٣- لا أحد يملك الحجج المؤسسة لدعوة الكفار إلى الكاثوليكية.

ومن هنا قـد أطمأنوا إلى مـشروع باكـوم وقد سدوا كل الـثغرات التـى كانت تشينـه، فأكثـروا من مدارس اللغـات ودعوا إلى إنشـاء علم جديد مخـتص بعلم الديانات ثم دراسـة الفلسفـة لإقامة الحـجج المؤسسـة على المعرفـة، عند ذاك بدأ النشاط التـبشـيرى يأخذ صـفة الجدية، وبدأ الاخـتراق للدين الإسـلامى وتحولت الحمـلات الصليبـية من حمـلات عسكرية إلى حـملات ثقـافية ودينيـة فى أغلب الأحيان.

فلا غرو إذن بعد هذا العرض إذا قلنا إن تلك الحملات الصليبية التى شنها الغرب الأوروبى ضد الشرق الإسلامى والشمال الأفريقى كان استجابة لنداء البابوية فى روما وتحت إشرافها وبتوجيه منها، وذلك بهدف الاستيلاء على الأراضى المقدسة الإسلامية والمسيحية من جهة، ومحاولة نشر التبشير وكثلكة العالم الإسلامى من ناحية أخرى، ولكى يكون ذلك الهدف باقيًا حاولوا تأسيس مملكة صليبية ثم عملوا على تعزيزها وتوسيع حدودها من جهة أخرى، والحفاظ عليها من المد الإسلامى الزاحف، ولتكون نقطة ارتكاز ينطلقون منها إلى العالم الإسلامى المعاصر وقتذاك ومن هنا فإن وجود تيار الاستعمار الغربى فى منتصف القرن الثامن عشر كان لتكوين ذلك الهدف الصليبى؛ وإذا كان الاستعمار قد رحل عسكريًا إلا أنه ترك فى فلسطين دولة يهودية هى مرتكزه فى منطقة الشرق الأقصى لاستقبال خططه ومشاريعه الاستعمارية.

ولعل من دراستنا للحملات الصليبية أن يقف القارئ الكريم على الأهداف البعيدة التى تكمن وراءها تلك الحملات والتطور الذى بدأ يطرأ فى استراتيجية الفكر العسكرى الأوروبى الصليبى تجاه العالم الإسلامى اليوم، وتسليط الأضواء على الدور الرائد والقيادى الذى قامت به مصر الإسلامية فى تلك الفترة، وقد كانت مصر آنذاك تمثل ميزان القوى ومركز الثقل لدورها الكبير فى رد العدوان الصليبى على العالم الإسلامى. وإذا كنا اليوم نعرض لموضوع قديم فهو أيضًا يعد موضوعًا جديدًا فى آن واحد فهو قديم لأنه يشمل التوسع الصليبى الغربى الذى اجتاح العالم الإسلامى منذ قرون مضت، وهو موضوع جديد لأن الحاجة إلى الدرس مازالت ماثلة بل أصبحت أكثر إلحاحًا، فإقامة الكيان الصهيونى فى فلسطين فى القرن العشرين تعد مأساة بشرية على أعلى المقاييس، وعدوانهم اليوم على الأراضى العربية والإسلامية وما يعانيه المسلمون فى أفغانستان والعراق اليوم على أيدى الصليبيين الجدد إنما يمثل امتدادًا طبيعيًا للعدوان الصليبى القديم ولا يختلف عنه كثيرًا إلا فى الأسلوب. وقد أثبتت الدراسة أن الحركة الصليبية فى العصور الوسطى والحركة الصهيونية فى فلسطين حركتان متلازمتان فى الأهداف

والمقاصد وهذا يستنزف الآن طاقات الأمة ومواردها البشرية من قتل وسفك للدماء وذبح للأبرياء.

ومما يؤسف له حقّاً أن العالم العربى والإسلامى اليوم لا أدرى إذا كان يدرك تلك الأهداف أم لا، فهو يقف الآن مكتوف الأيدى ولا يحرك ساكنًا إزاء الزحف الصليبى القادم من أوروبا ومن أمريكا؛ غير مدرك لذلك الخطر على الرغم من تمكنهم منا أكثر وأكثر بإقامة القواعد العسكرية فى بلادنا وأساطيلهم البحرية التى لا تفارق سواحلنا ومنافذنا البحرية، وإنشاء الشركات الأجنبية الكبرى التى استنزفت أكبر مواردنا واقتصادياتنا وامتصت قوت الشعوب التى باتت اليوم تعانى من الفقر وقلة الزاد وارتفاع الأسعار.

وقد بينت الدراسة أن الباعث الدينى كان من أهم المثيرات والمنشطات للحملات الصليبية، وإن كانت قد خفت وطأة تلك الحملات العسكرية اليوم إلا أن التعصب الدينى والانحياز للمعتقد المسيحى مازال هو المحرك الآن لأغلب العلاقات بين مسلمى الشرق ومسيحيى الغرب، وقد يظهر ذلك التعصب على ألسنة قوادهم عند تحرج بعض المواقف أو عند ظهور حملات التشويه والتشهير برسولنا الكريم وصحابته وزوجاته التى تظهر على صفحات الصحف.

وإذا كانت المواجهة للحملة الصليبية الأولى على بلاد الشام مواجهة شاملة على أغلب المستويات شارك فيها كثير من القوى الإسلامية كالسلاجقة والفاطميين والأيوبيين إلا أن أغلب المراجع العربية قد اتهمت الفاطميين بالسلبية والتقاعس عن الجهاد والتصدى للقوى الصليبية مستدلين على ذلك بما قام بينهم وبين الصليبيين من اتصالات وتبادل سفارات بهدف تقسيم الشام إلى مناطق نفوذ بين الجانبين على حساب القوى الأخرى، والحقيقة أن موقف الشيعة دائما عند المواجهات الحادة تثار حوله الشكوك، ومن يقرأ التاريخ الشيعى فسوف يتبين له تلك الحقيقة.

❁❁❁

النازلة الثالثة

سقوط الأندلس وإنهاء دولة الإسلام عام ٨٩٧ هـ



تمهيد

على إحـدى التلال المشـرفة على مـدينة غرناطة وفـى اليوم الثـانى من يناير سنة ١٤٩٢م أخذ الملك عبد الله الصغير يبكى على ملكه بعدما سلم مفاتيح قصر الحمراء إلى ملك قشتالة وانزوى بعيدا عن أمه وأخذ يبكى وراء ربوة ظانًا أن أمه لم تلحظه، فـصاحت به أمـه: «أجل فلتـبك كالنســاء ملكا مـضاعـا لم تسـتطع أن تدافع عنه كالرجـال». ويمثل هذا اليوم فـى ذاكرة الأمة المسلمـة ذكرى سقـوط الأندلس، أما المكان الذى بكى فيه ذلك الملك الصغير فما زال يمثل فى ذاكرة الأسبان مزارًا للسياح حتى يومنا هذا وقد أطلق عليه الأسبان «زفرة العربى الأخيرة».

وإنها فى الحـقيـقة ليست زفـرة واحدة ولم تكن هى الزفـرة الأخيرة فـما زال المسلمون تتـتابعهم الزفرة تلو الزفـرة، والحسرة تلو الحـسرة على ضـياع ذلك الملك العربى الإسلامى الذى استمر فى شبه جزيرة الأندلس ما يقارب ثمانية قرون.

وأعتقـد أن السقوط الحقـيقى للأندلس لم يكن فى هذا التاريخ المذكـور وإنما سبق ذلك سـقوطان هزا كـيان المسلمـين فى الأندلس هزًا عنيفًـا، ولكن على ما يـبدو أن المسلمين وملوكهم كانوا غـارقين فى متعهم وشهواتهم فلم يتـعظوا ولم يأخذوا العبرة من التاريـخ ولم يدركوا السنن والقـوانين الكونية التى تحكم حـركات المجتـمع والتى ينبغى أن نتـدبرها ونتأملها لما فيـها من عظة وعبرة بالغـة. فما هما السـقوطان؟ كان السقـوط الأول حينما دب الضـعف والانحلال بزوال الخلافـة الأموية فى الأندلس إذ سقطت أولى المدن الكبرى وهى طليـطلة فى أيدى الأسبان سنة ١٠٥٨م، وفى الوقت الذى تمزقت فـيه وحـدة المسلمـين فى الأندلس كـان النصارى يوحـدون صـفوفـهم ويجمعون طاقاتهم فى حربهم المقدسة لاسترداد الأرض من أيدى المسلمين، ومنذ ذلك التاريخ أخذت المدن الإسلامية الكبرى تتساقط واحدة تلو الأخرى وسقطت قرطبة عام ١٢٣٦م ثم أشبيلية عام ١٢٤٨م ثم مرسية عام ١٢٦٦م.

أما السقوط الثانى فكان سقوط دولة الموحدين إثر هزيمتهم فى موقعة العقاب إذ لم تقم للأندلس بعدها قائمة، فسرعان ما مالت الدولة إلى الضعف والتفكك واندلاع الثورات فى المغرب والأندلس، وانتشرت حركات الاستقلال التى استقل أصحابها ببعض بلدان دولة الموحدين مثل بنى مرين وبنى زيان وبنى حفص مما أدى إلى ضعف الأندلس، ومن ثم نشط ملوك الغرب المسيحى وازدادت رغبتهم فى استرداد مدن شبه الجزيرة الأندلسية وأخذت تتساقط واحدة وراء الأخرى حتى تجمع المسلمون فى ولاية واحدة هى ولاية غرناطة فى جنوب الأندلس والتى كان وقوعها إيذانًا بانتهاء دولة المسلمين فى الأندلس.

وتأتى ذكرى هذا السقوط ويمر على ذاكرتنا مر الكرام فلا نرى له صدى نحسه فى أنفسنا أو ندركه بعقولنا وتجاربنا، ولكن على ما يبدو أن تلك الذكرى التاريخية لم تجد صداها فى النفوس، وذلك لغيبة الوعى الكامل بأهمية التاريخ. فكيف يتأتى لنا فهم أحداثه ووعيها وعيًا صحيحًا ونحن غائبون عن التاريخ أو مغيبون بسبب توجيه الذاكرة العربية بأيد آثمة فينبغى أن نقرأ تاريخ الإسلام فى الأندلس حتى ندرك أسباب سقوط دولة الإسلام فى تلك البلاد وندرك أبعادها ومراميها إدراكًا سليمًا ثم نتفادى تجربة الأندلس الأليمة لأن شبح سقوط الدول ما زال ماثلا أمام أعيننا اليوم نتجرع مراراته بعد سقوط بغداد وأفغانستان.

إن النظرة المنهجية المفيدة لتاريخ المغرب والأندلس باعتبارهما الجناح الغربى للأمة الإسلامية تقتضى منا أن نربط بين حركتى التاريخ فى المشرق والمغرب الإسلاميين باعتبار أن كلا منهما يكمل الآخر ويساعده، فكم من أحداث فى الشرق الإسلامى كان لها صدى فى الغرب الإسلامى والعكس صحيح. ومن الخطأ الشنيع أن يدرس تاريخ أمتنا الإسلامية مجزأ أو مفرقًا، ولو تم ذلك ما استطعنا الوقوف على العلل والأسباب ولغمضت علينا المقاصد والأهداف. لذا ينبغى ربط حركة التاريخ فى المغرب والأندلس بحركة التاريخ فى المشرق الإسلامى ولإدراك أهمية هذا الربط نأخذ مثالاً يدل على ذلك. فهناك بعض الدول التى

قامت فى المغرب والأندلس كدولة الأمويين فى قرطبة بالأندلس ودولة الفاطميين بالشمال الأفريقى ودولة الأدارسة فى مدينة فاس ودولة بنى رستم فى الجزائر. إلى غير ذلك من دول أقيمت فى المغرب والأندلس أصحابها عناصر عربية هربت من المشرق الإسلامى حيث لم تجد ضالتها ولم تستطع التكيف بأفكارهم ومبادئهم مع شعوب المشرق فهجرته إلى المغرب والأندلس لأن شعوب تلك المنطقة كانوا حديثى عهد بالإسلام كما كانوا على الفطرة والسذاجة آنذاك. من هنا نجد أصحاب هذه الحركات الهاربة من المشرق قد عرفوا جيدا كيف يلعبون على وتر العصبية القبلية والذى كان لعبتهم المفضلة فى المشرق. فهربوا بها إلى المغرب والأندلس وأثاروا العصبية بين البتر والبزانس وتحركت لسببها قبائل المغرب الكبرى من زناته وكتامه وصنهاجة وغيرها لمساندة دولة تقام كدولة الفاطميين ودولة المرابطين والموحدين ودولة الأدارسة وغير ذلك من دول أقيمت أو دول انهارت بسبب العصبية القبلية فى المغرب والأندلس.

وهناك مثل آخر هو فتح القسطنطينية على يد محمد الفاتح سنة ١٤٥٣م فقد كان له الوقع الكبير على شعوب أوروبا مما جعل السلطة الدينية البابوية تستنفر الهمم لرد دولة العثمانيين الإسلامية وإيقاف زحفها وفك حصارها الذى أحاط بأجزاء كثيرة من أوروبا، فقامت الحركة الصليبية فى الغرب الأوروبى للوقوف ضد الزحف الإسلامى الذى جاء لهم من الشرق، وبدأ الدوران العكسى وظهر الاصطدام واضحًا حول الحوض الغربى للبحر الأبيض المتوسط وظهيره الأرضى الممتد إلى أبعاد ضاربة حتى حدود الصحراء والسودان الغربى، فكلما تقدم العثمانيون متوغلين فى شرق أوروبا مهيمنين على البلقان ودوله كالبوسنة والهرسك وكوسوفا كان النصارى من الأسبان والقشتاليين وغيرهم فى غرب أوروبا يتقدمون من الغرب الأوروبى نحو الجنوب ليصلوا إلى مدن الشمال الأفريقى ويتم استيلاؤهم على أهم مدنه مثل مليلة وسبتة ووهران وبجاية، فكل هذه المدن تعد خطوطًا أمامية لحماية جنوب غرب أوروبا ومراكز تموين ينفذ منها المدد الإسلامى إلى مسلمى الأندلس، ومن ثم عزم النصارى على قطع الشرايين التى كانت تمد

المسلمين بالجيوش والعدد العسكرية فى الأندلس حتى ينحصر المسلمون فى الداخل ويسهل القضاء عليهم، فلا غرو أن نرى المسلمين يتجمعون قسراً فى ولاية واحدة وهى غرناطة فى انتظار المصير المحتوم الذى اقترب موعده.

ومن هذا المنطلق فإن الكلام عن الغرب الإسلامى لا يمكن فهمه إلا إذا تتبعنا أحداث الشرق الإسلامى، وهذا ما يفسره لنا توغل الحملات الصليبية على المشرق الإسلامى من ناحية وعلى الأندلس وشمال أفريقيا والغرب الإسلامى من ناحية أخرى كل ذلك فى وقت واحد.

إذن فإن العلاقة بين المشرق الإسلامى ومغربه لها أهمية بالغة لفهم أحداث تاريخ تلك الأمة الذى ما زالت تكتنفه الفجوات التى تباعد بين أبناء أمتنا الواحدة، فكيف هذا والعالم كله يتقارب ويتكتل فى كتل سياسية واقتصادية يتلاحم فيها أبناء الكتلة الواحدة ليحققوا هويتهم ويرفعوا من شأن أممهم على نحو ما نراه اليوم من تقارب بلدان الاتحاد الأوروبى. كما أن الاستعمار الحديث لم ينظر تلك النظرة الإقليمية الضيقة فهو يأتى إلى المنطقة ليتحكم فيها كوحدة سياسية متصلة بلدانها، فهم ينظرون إلى العالم العربى والإسلامى من منظور جديد أطلقوا عليه «الشرق الأوسط الجديد» حتى يذوب العالم العربى كجنس فى غيرهم، ويقل الوازع الدينى الإسلامى فى نفوس المسلمين وتصبح المنطقة كلها وقد انتزعت منها الهوية العربية الإسلامية.

وإذا جاز لنا أن نقرأ التاريخ الأندلسى فينبغى أن نقرأه كوحدة تاريخية متماسكة ومتساندة مع تاريخ المشرق الإسلامى حينئذ تذوب الجفوة بين مسلمى المشرق ومسلمى الغرب، ويتم التواصل مع شعوبنا العربية الإسلامية والتى نحن اليوم فى أمس الحاجة لذلك التواصل للوقوف صفًا واحدًا أمام العدو الذى يتربص بنا الدوائر.

لقد جد النصارى أيما جد لاسترداد أرض الأندلس وتوحدوا فى حملات صليبية جمعت بين فرسان وملوك دول غرب أوروبا من أجل استرداد الأرض

يقودهم فى ذلك ألفونسو السادس ملك قشتالة، وقد بدأت حملة الاسترداد على الأندلس من الشمال إلى الجنوب على شكل طرد جماعى لسكان المدن من المسلمين ومصادرة أملاكهم، فكلما سقطت مدينة هجرها المسلمون متجهين نحو الممالك الجنوبية للأندلس والمحاذية لشمال أفريقيا. ولكن الملاحظ من جهة أخرى أن قادة النصارى القائمين بعملية الاسترداد قد غيروا خطتهم للمرة الثانية عندما وصلت جيوشهم إلى مملكة غرناطة وهى المملكة الوحيدة التى استعصت عليهم فترة من الزمن، لذا نراهم يبدؤون الهجوم من الجنوب والسبب فى ذلك أنهم قد وصلتهم الأخبار عن وصول المدّ الإسلامى من الجنوب أى من بر عدوة المغرب وذلك لنجدة المسلمين فى غرناطة وكانت نتيجة هجومهم هذه المرة من الجنوب إلى الشمال أن سقطت مدينة مالقة قبل غرناطة بنحو خمس سنوات.

وكانت محنة المسلمين بعد سقوط غرناطة محنة قاسية حقاً إذ أجبروا على التنصير قسراً ولاقوا فى سبيل ذلك الذل والهوان والتعذيب البشع. ويشير الدكتور مصطفى أحمد حموش فى بحثه القيم بدائرة تخطيط المدن بالعين عما كتبه السفير الأمريكى «إيرفينج» الذى كان يتردد على المخطوطات العربية بأسبانيا ليعرف الحقائق التاريخية من مصادرها الأصلية، فقد راعه ما لحق بالمسلمين من هوان فى مدينة مالقة بعدما استولى عليها الصليبيون، فقد وصف هذا الأمر بقوله: «فبعد أن استتب الأمر للملك القشتالى اقتيد المسلمون إلى حظيرة الحيوانات بجوار القصبة محاطة بأسوار عالية ليقضوا فيها أيامهم فى انتظار بيعهم فى سوق النخاسة أو توزيعهم كعبيد وأيامى، ولعل المشهد الذى وصفه ذلك السفير للمسلمين الواقعين تحت رحمة الأسبان من شيوخ ونساء وفتيات جميلات أغلبهن ينحدر من أسر عربية نبيلة، ولكن النصارى لم يرعوا لذلك حرمة وساقوهم فى شوارع مالقة مثقلين بالسلاسل والأغلال أو يرسفون فى القيود متجهين إلى الزريبة التى أعدت لإيوائهم، وكانت النساء المسلمات تلطمن خدودهن وتضربن صدورهن ويرفعن عيونهن إلى السماء فى حسرة وألم. وبعد قتل الكثير من الرجال المقاومين

أصحاب القوة والجلد من فتيان المدينة أو من الذين جاءوا للجهاد من جهات أخرى أخذ الكثيرون منهم عبيدا يعملون فى خدمة الكنائس أو خدمة الأساطيل فى التجديف والنظافة، كما وزعت الفتيات المسلمات خمسون منهن إلى الملكة شقيقة الملك فرديناند وثلاثون فتاة أخرى هدية إلى ملكة البرتغال وباقى الفتيات وزعن هدايا إلى نساء البلاط وإلى بعض الأسر النبيلة، ولم يذكر الكاتب حالات الاغتصاب الجماعية التى رافقت غزو المدن الأخرى والتى كانت تدفع كثيرا من المسلمات أن ترمى أنفسهن فى الآبار أو ينتحرن.

إن ما حل بالموريسكيين الأندلسيين بعد سقوط غرناطة وحتى طردهم النهائى سنة ١٦٠٩م يعد أشنع وأفظع مأساة إنسانية عرفها التاريخ البشرى، ومع هذا فإن نوعية المعلومات التى كنا نعرفها فيما سبق من ذكر محاولات الاستغاثة أو النجدة كانت معلومات ارتجالية تغلب عليها العاطفة والحماسة وذلك مثل سيرة الرندى وطلب الاستغاثة أو النجدة من بنى مرين أو غيرهم ولكن الحقيقة أن قضية الموريسكيين أعمق من ذلك بكثير، فهى تتعرض لإشكاليات تاريخية ينبغى تغطيتها تاريخيًا كعملية التصفية الجسدية والنفسية التى قام بها نصارى قشتالة والاقتلاع الحضارى لمجتمع إسلامى قائم له قواعده وقوانينه الثابتة وتشريعاته ونظمه المستمدة من جوهر الإسلام والقرآن الكريم، فكيف آل مصير هذا المجتمع إلى الفناء المطلق والقضاء عليه تمامًا فى الأندلس، وذلك نتيجة ما فرضته عليه محاكم التفتيش الأسبانية وسياسته التعصبية التى حاربت أبسط مظاهر التبعية للدين الإسلامى.

ومن هذا المنطلق فإن قضية الموريسكيين تحتاج إلى مزيد من الدراسات البحثية لتسلط الأضواء على بعض الجوانب المهمة فى المجتمع الموريسكى مثل دور الفقهاء فى تلك المحنة، ودور المرأة الموريسكية الباسلة وكيف صانت أسرتها من التشتت والضياع، وتحملت هى فى سبيل ذلك القتل والحرق والدفن حية، وكذلك من الأمور الجديدة بالدراسة تحريم استعمال الألقاب العربية وتعميم الألقاب المسيحية مكانها على كل المسلمين وإجبارهم على عدم ختن أبنائهم وكذلك عمليات

الاستيلاء التى كانت تتم على أملاك الموريسكيين وأموالهم، ومن الجوانب الجديرة بالدراسة أيضا كيف كان يتعلم هؤلاء الموريسكيون وما اللغات التى كانوا يتكلمونها ويعرفونها حيث اتضح أنهم ابتكروا لغة تجمع بين اللغة القشتالية والعربية، وقد ألفوا بها مؤلفات فقهية وأدبية تحتاج من الباحثين التنقيب عنها، وكذلك الحديث عن المهن التى امتهنها هؤلاء البؤساء وحالتهم الاجتماعية، كما يحتاج الأمر إلى أن نكشف عن عملية الاستيلاء على أملاك الأحداث والتى ضمت إلى أملاك الكنيسة الكاثوليكية، وكذلك ينبغى دراسة عمليات الاستيلاب الثقافى والتغريب وطبيعة المجادلة الدينية والفكرية من خلال توفر النصوص الألخيمادانية واللاتينية، وكذلك لا ننسى فى دراستنا عمليات التهجير الجماعى والطرد النهائى والظروف القاسية التى صاحبت ذلك سواء تم ذلك التهجير عن طريق فرنسا أو البندقية أو بالنقل على سفن مسيحية ثم التجائهم أخيرا إلى بعض بلاد المغرب العربى وأراضى الدولة العثمانية التى فتحت أبواب بلدانها لموجات الهجرة.

هذه هى بعض الاهتمامات فى قضية الموريسكيين التى ينبغى أن يحوم حولها البحث التاريخى وإذا كنا قد تغافلنا فيما سبق عن دراسة هذه الجوانب فإن دراستها اليوم تكتسب أهمية كبرى وخاصة أن الجامعات الغربية والأمريكية قد عكفت على دراسة قضايا الموريسكيين دراسة منهجية حيث استنطقوا الوثائق البرتغالية والعربية المبثوثة اليوم فى مكتبات تركيا وفرنسا وإنجلترا وإيطاليا وبلاد الشمال الأفريقى.

وتؤكد أغلب الوثائق والمستندات التى درست أن الأسبان لم يحترموا روح المعاهدة التى وقعوها مع الطرف العربى عند تسليم مدينة غرناطة بل سرعان ما تنكروا لها وبدأوا بإصدار قوانين تقضى باسترداد ليس المدينة ومن فيها فقط بل أيضا باسترداد روحى وحضارى لجميع سكان المملكة وعلى وجه الخصوص العرب المسلمين، وبدأت محاكم التفتيش تصدر القوائم المفصلة لكل المظاهر التى تنبئ عن اتباع الدين المحمدى كما كانوا يقولون، وطلبت من كل المواطنين الأسبان مراقبة هؤلاء الموريسكيين والإخبار لمحاكمة المدنيين، ومن هنا فتحت الباب واسعا

للوشاية والحقد والانتقام مـن هؤلاء المسلمين البؤساء، وأول مظاهر المعاناة فى هذا المجتمع هى معاناة رجال العلم والفقهاء الذين غيـروا أسماءهم إلى أسماء مسيحية وغيرت أسماء النساء بأسماء مسيحيات أيضا فى محاولة ماكرة من محاكم التفتيش بهـدف قتل الانتـماء للضـميـر الإسلامـى، فقـد قررت مـحاكم التـفتـيش قطع الموريسكيين عن جـذورهم الثقافية واعـتبرت الكنيسـة أن الذى لا يدلى بمعلومات عـمن يتبع الدين الإسـلامى يعد عـدو عـقيـدة الكنيسـة وقد أقـرت الكنيسـة أن الموريسكيين يمثلون السم والحشرات الطفيلية والنبتة السيئة فى حقل كنيسة أسبانيا.

وتؤكد الدراسات المنصفة للموريسكيين أنهم كانوا رجالا مهرة وفنيين فى العديد من المهن مثل صناعة الحرير والذهب والفـضة والنقش على اللوح والبناء والفلاحة وزراعة البـرتقال والحوامـض وقصب السكر ومخـتلف الأشجـار المثمرة كـالتوت والحناء. وقد تضررت الحياة الاقتصادية من جراء الأسـاليب التعسفية للموريسكيين حيث تركوا تلك المهن وأصبحت شاغرة مما سبب كسادًا كبيرًا، وقد فرضت عليهم مهن أشق وتحولت أعداد كبيرة منهم إلى عبـيد أو حمالين والنساء عملن غسالات وخـادمـات وهذا أمـر طبـيـعى نتـيـجـة للقـرارات الصـادرة آنذاك لأنه لا حق للموريسكيين فـى امتلاك محلات عمـومية ولا يكونون أصحاب مـزارع وصيادلة وأطباء وجراحين ومضمدين.

وإنه لمن دواعى الفخر والإعجاب تمسك الموريسكيين بدينهم الإسلامى والحرص عليه علـى الرغم من التعمـيد القـسرى لكل المسلمـين، وعلى الرغم من مراقـبة المخـالفـين ومـراقـبـة المواطنين الأسـبـان على الرغم من كـل هذا فـإنه لم يمنع الموريسكيين مـن الوفاء لدينهم ولغاتهم وعـاداتهم، ومن أمثلة هؤلاء «فـرنسسكوا باراد عليـاس» الذى رفض اليمـين بالصليب الذى قدمـه إليه المفـتشون بـعد ست سنوات سجن وتعذيب فلم يغير رأيه فى معتقده وكذلك «خوان الكسمات» قبل أن يحرق أعلن علانية انتماءه إلى الإسلام وأنه سيموت شهيدا، وأعتقد أنه بالفعل قد مات شهيدا عليـه رحمة الله لأنهم كانوا غير مقتنـعين بالدين المسيحى الكاثوليكى

وفضلوا الموت حرقًا على أن يقبلوا دينًا يفرض عليهم بالحديد والنار، وهذا الموريسكى الذى لم يتجاوز عمره التاسعة عشر سنة والذى كان يحضر حفلات الزواج لإتقانه العربية وكان يتفوه لوالدته بكلمات بذيئة كلما تقدمت إلى القداس وقد انتبهت محاكم التفتيش إلى أهمية هذه الظاهرة فسعت بكل الوسائل أن تحدث الشقاق والخلاف فى صلب العائلة نفسها بأن فرقت بين الابن ووالده والأخت وأخيها ووالدتها، وسعت إلى تفكيك عرى العلاقات العائلية ومنع الزواج فيما بينهم وإدخال العناصر الأجنبية لضرب العصبية الدينية والعرقية.

وتتصل بالموريسكيين قضية تاريخية تعد من أهم القضايا فى التاريخ الإسلامى وهى قضية علاقة هؤلاء الموريسكيين بالدولة العثمانية، فهل كان السلاطين العثمانيون بعيدين عن أزمة مسلمى غرناطة وهل أحجموا عن مساعدتهم وإغاثتهم من بطش النصارى الأسبان. إن هذه القضية لابد من تسليط الضوء عليها لأن الوثائق الرسمية تثبت أن السلاطين الأتراك كانت لهم علاقات مع مسلمى أسبانيا لأن الأتراك آنذاك كانوا قوة عسكرية كبرى تتمتع بهيمنتها على البحار وعلى بلدان أوروبا الشرقية التى توجت بالاستيلاء على القسطنطينية، وفى اعتقادى أن العثمانيين قد مدوا يد المساعدة إلى الأندلسيين فقد أرسل الموريسكيون أكثر من رسالة إلى السلطان العثمانى يطلبون فيها الغوث ومد يد العون والمساعدة. والمتتبع لتاريخ هذه القضية سيجد تضامنًا كبيرًا واتصالات تمت بين السلاطين العثمانيين وبين بعض ملوك أوروبا لنقل مسلمى أسبانيا وانتشالهم من الأندلس.

فلا عجب إذا قلنا إنه كان للعثمانيين اليد البيضاء فى تنظيم حملات الهجرات الجماعية للمسلمين ونقلها إلى مختلف أقاليم السلطنة العثمانية، وقد امتدت تلك الهجرات من سقوط غرناطة أو من قبلها بقليل إلى عام ١٦١٤م، وهو تاريخ إعلان إنهاء محاكم التفتيش وزوال أزمة الموريسكيين وانتهاء حركة التنصير القسرى، وقد لعبت الجزائر التى كانت أول عاصمة رسمية للحكم العثمانى فى الشمال الأفريقى دورًا رائعًا فى خدمة مسلمى غرناطة، وكان هذا بفضل القائدين البحريين «عروج» و«خير الدين برباروسا».

إن فضل العـثمانيـين فى هذا المجال لا يجحـد فيرجع إليـهم الفضل فى توزع الجاليات الأندلسـية المهاجرة فى بلدان الشـمال الأفريقى حيث شـهد ذلك الساحل حركة تعميـر واسعة تمثلت فى نشأة مدن جديدة وإحياء مـدن مندثرة وتوسيع كثير من المدن، وبذلك سهل العثمـانيون الإقامة للمهاجرين جمـاعات، ولعل استقرار الجماعات الأندلسية المهاجرة على هذا الشريط الساحلى للبحر المتوسط فى الشمال الأفريقى يعود تفـسيره إلى المجهود الذى بذلتـه السلطة العثمانية فى البـحر، وقد راود هؤلاء الأندلسـيين الذين أقامـوا فى هذا الشريط حلم العـودة إلى ديارهم فى الأندلس التى لا يفرقها عنهم سوى ذلك المضـيق الضيق، فلا عجب أن نسمع عن عائلات أندلسـية كانت تحـتفظ بمفاتيح بيوتها بـالأندلس آملين أن يأتى يوم العودة فيرحلون من الجزائر إلى مقر حلمهم الذى يراودهم.

وإذا كان لنا من عبرة ودرس يمكن أن نعيه من سرد هذا التاريخ فليكن فى تلك الثغرة المرتبطة بالدولة العثمانية، فقـد بدت الدولة العثمانية فى القرن السادس عشر الميلادى قوة عسـكرية لا يستهان بها هابها الشـرق والغرب على السواء ولكن على ما يبدو أن هذه القوة الإسلامية لم يتم استغلالها الاستغلال الأمثل من ناحية، كما حـاول اليهـود والغرب المسـيحى أن يسئ إليهـا من نـاحـية أخـرى، فكان يمكن استخدامها فى إحياء روح الأمة الإسلامـية المتهالكة آنذاك ولكن الهوة العميقة التى كانت تفصل مشرق الإسلام عن مغربه كانت هى السبب فى تلك الثغرة التى مازلنا نعانى منها حتى اليوم وليتصفح القارئ تاريخ الدولة العـثمانية فستدهشه تلك القوة المروعة حقا والتى زحفت من المشرق الإسلامى إلى دول أوروبا الشرقية مارة بدول البلقان ومتـوجة بفتح القسطنطينية والتى بات الغرب الأوروبى يـتوجس خوفًا من تلك القوى الباطشة التى دفعتهم إلى أن يتجـمعوا فى صعيد صليبى واحد للوقوف ضد القوة الإسلامية الفتية الممثلة آنذاك فى قوة الدولة العثمانية.

والحقيقة الأخرى التى يمكن الإشـارة إليها بكل أسف على الرغم من الاعتراف بفضل العـثمـانيين وخدمـاتهم الجليلة تجاه المقـدسات الإسلامـية والوقـوف لصد الصليبيين، أقول إن سـياسة التتريك التى اتبعتها الدولة التـركية هى الأخرى كانت

سببًا رئيسًا وأساسيًا فى التباعد بين الدولة العثمانية من جهة وبين الشعوب الواقعة تحت سيطرتها من جهة أخرى، وخاصة الشعوب العربية والإسلامية. فهذه السياسة تفوح منها روائح التعصب الجنسى والطائفى التى باعدت بين الترك والعرب وملأت القلوب نفورًا وحساسية من سطوة القومية الطورانية، أضف إلى ذلك إلغاءهم للغة العربية ومحاولة وضع اللاتينية مكانها.. كل هذه الأساسيات قد أضعفت هى الأخرى من روح الولاء الذى ينبغى أن يربط شعوب الأمة المسلمة، مما جعل بعض مستشرقى اليهود ينعتون الحكم الإسلامى العثمانى للعالم العربى بنزعة استعمارية، فلا غرو أن تطالعنا العناوين «الاستعمار التركى للعالم العربى»، «مساوئ الاحتلال العثمانى» إلى غير ذلك من عناوين تثير الكراهية والبغضاء بين العرب والعثمانيين فكلهم إخوة فى رابطة العقيدة.

وإذا كانت الدولة العثمانية قد وصلت بجهازها العسكرى إلى منعة عسكرية فقد حققت استراتيجية الردع إزاء الدول التى تسول لها نفسها الاعتداء على حدود الدولة الإسلامية التركية عملا بقوله تعالى: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ**﴾ [الأنفال: ٦٠] وهذا أمر بلا شك يحمد لهذه الدولة الفتية بل هو يعد من أهم المقاصد التى تحرص عليها الدول. ولكن على ما يبدو أن هذا الاهتمام العسكرى الزائد قد أدى إلى أن يتناسى المسئولون الجوانب الأخرى اللازمة لتطور الدولة ودفع عجلتها إلى الأمام فقد أدى الاهتمام العسكرى الذى امتص كل شىء إلى توقف عجلة العلم والمعرفة، فقد ملكت تلك الدولة من أسباب القوة العسكرية والبحرية والبرية خبرات حربية لا مثيل لها فى صناعة الأسلحة وإقامة التحصينات الدفاعية ما جعلها قوة فريدة متميزة ولكن المفارقة العجيبة أنهم أهملوا البحث العلمى فى مختلف ميادينه حتى البحث الدينى، فقد سادت حركات التصوف الشاذة والخرافات والأساطير فى الحياة الدينية عند أغلب مسلمى تركيا آنذاك، وعلى ما يبدو أن العالم الإسلامى كله قد اتسم بهذه السمة، فبدأ هذا العالم يصل إلى درجة من الانحطاط العلمى والحضارى، واكتفى العلماء بالشروح وإضافة الحواشى والتقليد، وفى الوقت الذى انحدر فيه

العالم الإسلامى كان العالم الأوروبى يأخذ بأسباب العلم والمعرفة وقد اتسعت ميادين بحوثه فى شتى الاتجاهات حتى وصلت اليوم إلى درجة رائعة من الحضارة والعلم والتقنية جعلتهم يختالون بها على الأمم، واعتبروا حضارتهم تلك هى الحضارة الأخيرة التى سوف ينتهى عندها التاريخ ولا حضارة بعدها.

والعجيب أن بعض مفكرى الغرب قد وصل به التيه والإعجاب بحضارته الغربية فابتكر فكرة صراع الحضارات. وهذا مصطلح خاطئ فى ذاته لأن الثقافات والحضارات لا تتصارع بل ينتفع بعضها من بعض عن طريق التأثير والتأثر، وما قصد «هنتجنتون» صاحب نظرية صراع الحضارات بهذا المصطلح إلا أن يشين إلى الدين الإسلامى الحنيف وحضارته الغراء ليظهر الدين بمظهر الجمود وعدم الصلاحية للقرن الحادى والعشرين، ومن ثم فهو السبب فى تخلف الحضارة الإسلامية على حد زعمه.

فلا غرو أن نجد دعوة اليوم إلى تهويد حضارة الأندلس الإسلامية التى دامت ثمانية قرون حيث يدعى مستشرقوهم أن الحضارة الأندلسية من من صنع اليهود فقد كان منهم الوزراء والأطباء والعلماء إلى غير ذلك من رجال يهود ساهموا بجانب المسلمين فى صنع الحضارة الأندلسية.

ومن العجيب فى هذا الصدد أيضًا أن أسبانيا التى عملت إبان محاكم التفتيش على استئصال شأفة الإسلام والمسلمين تعود اليوم لتعتبر فترة الحضارة الإسلامية فى أسبانيا هى فترة من التاريخ القومى الأسبانى، فهل لهذا التنازع الأسبانى ما يبرره اليوم؟

وهكذا فإن الدروس والعبر من التاريخ مازال بابها مفتوحا أمام الإنسان المسلم يجدها فى تجاربه وفى نجاحاته وفى انتكاساته التى عانى منها منذ انتكاسة الأندلس.



الفصل الأول:

موجز لتاريخ الأندلس من القوة حتى الضعف

(عصر النشأة والتكوين)

أولاً: عصر الولاة من ٩٢-١٣٨هـ

ثانيًا: عصر الإمارة الأموية ١٣٨-٣١٦هـ

ثالثًا: عصر القوة «فترة الخلافة» ٣١٦-٤٢٢هـ

عصر النشأة والتكوين

إن مأساة الأندلس فى التاريخ الإسلامى تعد من النوازل الكبرى التى مرت بحياة المسلمين كالمآسى التى مرت وما زالت تمر فى تاريخنا وما أشبهها بمأساة المسلمين اليوم فى أفغانستان وأريتريا والفلبين والعراق وفلسطين. وهذه المآسى من السنن الكونية التى ينبغى أن يقف عندها المسلم ليأخذ العظة والعبرة، يقول الله تعالى: ﴿**مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا**﴾ [الأحزاب: ٣٨] ويقول فى آية أخرى: ﴿**سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً**﴾ [الأحزاب: ٦٢] فالسنن الكونية تمر فى حياة الناس وقلما يعتبر معتبر.

إن بلاد الأندلس جنة الله فى أرضه دخلها الإسلام واستقر بها المسلمون ثمانية قرون متوالية، أقاموا فيها حضارة إسلامية فريدة امتد نورها إلى شعوب جنوب غرب أوروبا ومن ثم امتد إلى باقى شعوب القارة الأوروبية.

ومما يؤسف له أن ينتهى تاريخها هذه النهاية المؤلمة إذ طرد المسلمون منها شر طردة، ومن بقى منهم أكره على اعتناق المسيحية ونبذ الإسلام وكانت أية إشارة تدل على احتفاظه بدينه من لغة أو ملبس أو عادات وتقاليد إلى غير ذلك تقذف به لمحاكم التفتيش لتعذيبه ثم قتله.

إن تلك الحياة التى عاشها مسلمو غرناطة تحت نير ملك قشتالة لحياة كلها حزن وأسى وخيبة أمل ورجاء إذ افتقد المسلمون مملكتهم ولم يعد لهم وطن يحميهم وينعمون فيه بالأمن والطمأنينة منذ أن سلم الملك عبد الله الصغير مفاتيح مملكة غرناطة لملك قشتالة. وإنه لصغير حقاً؛ صغير فى همته وإرادته، وتروى المراجع أنه أخذ يبكى على ضياع مملكته وملك آبائه وضياع أمر المسلمين فقالت له أمه:

ابك مثل النساء ملكًا مضاعًا لم تحافظ عليه مثل الرجال.

وكان السقوط هذه المرة هو سقوط لغـرناطة آخر معقل للإسلام إذ غادرها ذلك الملك ذليلاً صغـيراً تاركًا أهلها المسلمـين لرحمة الأسبان الذين لم تعـرف الرحمة يومًا إلى قلوبهم سـبيلاً، وهكذا يسـدل الستار على الإسـلام فى الأندلس بعد أن قضى بها ثمانية قرون فكيف تم ذلك؟

ولكى نتعـرف على ذلك التاريخ ونقف على حقائق تلك الفـترة المؤلمة لابد أن نستعرض فى عجالة تاريخ الأندلس وأن نتتبعـه بمنهجية أفقية بدءًا من مظاهر القوة حتى مظاهر الضعف.



أولا: عصر الولاة من «٩٢-١٣٨هـ»



انطلقت الفتوحات من الجزيرة العربية وامتدت شرقًا وغربًا تدعو الناس إلى دين الله، وقد بلغت الفتوحات مداها إبان عصر الدولة الأموية فى القرن الأول الهجرى فقد واصلت جيوش المسلمين زحفها نحو الشمال الأفريقى حتى وصلت إلى المغرب العربى بقيادة القائد العربى المسلم موسى بن نصير الذى خاض بفرسه مياه البحر قائلا: والله لو أعلم أن وراءك أرضًا لخضتك مجاهدًا فى سبيل الله، وعندما تبين له أرض شبه الجزيرة الإيبرية «أسبانيا» التى كانت تحت حكم ملوك القوط أرسل أليهم أحد قواده وهو طارق بن زياد الذى عبر المضيق المسمى اليوم باسمه فى رجب ٩٢هـ- ٧١١م وانتشر بجنوده من أقصى الجنوب زحفًا إلى الشمال يقاوم عناد القوط، وأراد الله أن يكتب للمسلمين النصر واستقر الأمر لهم فى هذه البلاد وضمت إلى المغرب وأصبح والى المغرب يحكم مصر والأندلس وهذا العصر هو ما يعرف بعصر الولاة.

وكتب التاريخ تورد لنا أسماء أربعة وعشرين واليًا قاموا بالأمر تباعًا بالأندلس خلال تلك الفترة التى لا تبلغ نصف القرن وقد اتسمت تلك الفترة بالاضطراب وعدم الاستقرار، فالحكم الإسلامى كان لا يزال فى طور البدء لتلك البلاد ولم يكن قد أصاب حظا من الاستقرار المطمئن بعد. ولم تكن الحكومة الإسلامية هناك قد وطدت سلطانها على الأقاليم الشمالية التى تلوذ بها جماعات فارة متربصة، كذلك لم تكن الحكومة الإسلامية قد أمنت حدودها فيما وراء البرانس، وبعد ذلك كله لم يكن المسلمون أنفسهم على وفاق فى تلك الفترة من حياتهم، فالعرب قد تفردوا بالسهول الخصبة وجعلوا منهم الولاة وغيرهم من حكام الأقاليم، أما البربر فقد أفردوا بالمناطق الجبلية والأقاليم النائية وحرموا من الولاية ومن رياسات أخرى، وقد جاء العرب بأنفسهم إلى الأندلس بعصبياتهم القديمة بين عدنان



وقحطان، من هنا كانت الحروب الدينية بين المسلمين والأسبان والفرنجة أولا وكان النزاع العنصرى الدموى بين العرب والبربر ثانيًا. ثم كان الصراع القبلى بين العرب أنفسهم آخر الأمر. وقد كان أكثر الداخلين إلى الأندلس فى تلك الفترة من أهل الحرب والحكم فى الجزيرة العربية.

وبدأت حقبة جديدة لتاريخ أسبانيا إذ رحب الأسبان بالمسلمين ليتخلصوا من الظلم والعسف الذى حل بهم من ملوك القوط السابقين، ومن هنا نرى تشبث الأسبان بدخول الجيش المسلم وترحيب أكثرهم بالإسلام لما وجدوا فيه من عدل وإنصاف وحق، ولما وجدوا فى قادته من أسوة حسنة. ولم تمض فترة قصيرة إلا وكان المسلمون يسيطرون على معظم البلاد الأسبانية واخترقوا جبال البرانس إلى جنوب فرنسا ولم يوقفهم إلا هزيمتهم فى معركة بلاط الشهداء مع شارل مارتل ملك الإفرنج. وبهذا توقف الزحف الإسلامى إلى قلب أوروبا بعد هذه الهزيمة المنكرة والتى استشهد فيها القائد المسلم عبد الرحمن الغافقى. وعلى مر السنين دخل الكثير من الأسبان فى الإسلام كما قلنا، وكثر التزاوج بين الفاتحين والأسبان ونشأ عن ذلك ظاهرة التوالد متمثلة فى ذلك الجيل الذى امتزجت دماؤه بدماء الأصول والذى ارتقى الكثير منهم فى مناصب الدولة العالية وصاروا يشكلون ظاهرة للإبداع الفكرى والحضارى عبر العصور أمثال ابن حزم فى الأندلس. كما نشأت تركيبة اجتماعية وعرقية خاصة فى الأندلس كانت سببًا فى نشوء الفتن والاضطرابات والتى يؤججها الفخر بالأنساب ما بين عرب قيسية ويمنية وبين العرب والأسبان وبين الأسبان بقسميهم المسلم والمسيحى، لقد كانت هذه التركيبة الاجتماعية والعرقية هى الوتر الحساس الذى كان يلعب عليه بعض المهاجرين من الشرق أو المطرودين من زعامات لم تجد حظها بين مسلمى الشرق فهاجروا إلى الأندلس وقد تمكنوا من قيام دويلات بها مثل الأباضية والصنهاجيين والفاطميين والأدارسة إلى غير ذلك من جماعات كان لها نصيب وافر فى التاريخ الاجتماعى للأندلس وانتهى بذلك حكم عصر الولاة.

قائمة بأسماء هؤلاء الولاة

	اسم الوالي	بداية الحكم	مدة الحكم
١	عبد العزيز بن موسى بن نصير	ذو الحجة ٩٥هـ	سنة وسبعة أشهر
٢	أيوب اللخمي	رجب ٩٧هـ	ستة أشهر
٣	الحر الثقفي	ذو الحجة ٩٧هـ	سنتان وثمانية أشهر
٤	السمح بن مالك الخولاني	رمضان ١٠٠هـ	سنتان وشهران
٥	عبد الرحمن الغافقي الولاية الأولى	ذو الحجة ١٠٢هـ	شهران
٦	عنبسة الكلبي	صفر ١٠٣هـ	أربع سنوات ونصف
٧	عذرى الفهري	شعبان ١٠٧هـ	شهران
٨	يحيى الكلبي	شوال ١٠٧هـ	سنتان ونصف
٩	حذيفة القيسي	ربيع الأول ١١٠هـ	ستة أشهر
١٠	عثمان الخثعمي	شعبان ١١٠هـ	خمسة أشهر
١١	الهيثم الكلابي	المحرم ١١١هـ	عشرة أشهر
١٢	محمد الأشجعي	ذو الحجة ١١١هـ	شهران
١٣	عبد الرحمن الغافقي الولاية الثانية	صفر ١١٢هـ	سنتان وثمانية أشهر
١٤	عبد الملك الفهري الولاية الأولى	شوال ١١٤هـ	سنتان
١٥	عقبة السلولي	شوال ١١٦هـ	خمس سنوات
١٦	عبد الملك الفهري الولاية الثانية	صفر ١٢٣هـ	سنة وشهر
١٧	بلج بن بشر	المحرم ١٢٤هـ	١١ شهراً
١٨	ثعلبة العاملي	ذو القعدة ١٢٤هـ	عشرة أشهر
١٩	أبو الخطار الكلبي	رجب ١٢٥هـ	ثلاث سنوات
٢٠	ثوابة الجذامي	رجب ١٢٨هـ	ستة أشهر
٢١	عبد الرحمن اللخمي	المحرم ١٢٩هـ	ثلاثة أشهر
٢٢	يوسف الفهري	ربيع الآخر	تسع سنوات وتسعة أشهر

أهم إنجازات عصر الولاة:

١ - وضع حد للعصبية القبلية:

تميز هذا العهد بمحاولة نشر الدعوة الإسلامية وترسيخ قيم الإسلام ودعائمه بالأندلس، وقد تجلى هذا الهدف واضحا أمام أغلب هؤلاء الولاة الذين حرصوا على تسيير الحملات تلو الحملات إلى بلاد المسيحيين جنوب فرنسا وغيرها لنشر الإسلام، ومما يؤسف له أن الكثير من الجهود المادية والمعنوية قد ضاعت فى تلك الفترة المبكرة من عهد الولاة وشغلتها العصبية القبلية والحمية الجاهلية بين العرب أنفسهم ما بين مضرى ويمنى وكلبى وقحطانى إلى غير ذلك من عصبية قبلية لأمة الإسلام، وفى عهد الهيثم الوالى الحادى عشر للأندلس بدأت خصومة القيسية واليمنية والتى كان لها أسوأ الأثر على مصير الإسلام فى الأندلس خاصة. ولكن الأمير عبد الرحمن الداخل فيما بعد استطاع أن يضع لهذه العصبية حدًا وأذابها فى المجتمع الأندلسى إذابة تامة.

٢- قادة جاهدوا من أجل نشر الإسلام:

لقد اتضح للمجتمع الأندلسى الجديد ثبات الإسلام فى نفوس أبنائه الذين دفعهم للجهاد عن بلدهم الحبيب ضد هجمات النصارى الأسبان وحكام فرنسا الذين كانوا يهدفون إلى طرد المسلمين واسترداد الأرض ولكن الأرض ثبتت فى أيدى المسلمين وقلوب المواطنين وتفتحت قلوبهم هداية للدين الجديد الذى عمل قادة المسلمين على انتشاره بين الناس بالقدوة والمثل الأعلى، وكان هذا هو الطريق الأسلم لنشر الإسلام فقد انتشر بالكلمة النيرة والحجة المقنعة لا بقوة السلاح كما يدعى البعض، وإن لم يكن كذلك لسرعان ما خرج أهل الأندلس الجدد من الإسلام ولكن هذا لم يحدث مطلقا.

وشهدت فترة حكم الولاة إرسال الغزوات فيما وراء جبال ألبرت وكان على رأس هذه الحملات «الحر بن مالك» حيث غزا جنوب غالة حتى أرابونه، وظل يغير على أهل هذه النواحى حتى اضطروا إلى طلب الصلح ثم جاء من بعده السمح بن مالك الذى وصل بجيوشه إلى طرسونة وعلى يديه نشطت حركة

الفتوح فيما وراء ألبرتات، وامتد نشاطه حتى روع أهل أقطانية وقد استشهد السمح مع من استشهد فى هذه الواقعة سنة ١٠٢هـ ولم تستطع فلول الجيش الإسلامى العودة إلا بفضل ما أبداه أحد كبار الجند وهو عبد الرحمن أبو عبد الله الغافقى حيث اختاروه رئيسا عليهم وجمع شتات العسكر وتقهقر بهم حتى عاد إلى الأندلس.

ثم تولى بعد ذلك شئون الأندلس عنبسة بن سحيم الذى عجل بالنهوض للغزو فى غالة فغزا غالة وقرقشونة وشدد عليهما حتى نزل المحاصرون على شروطه فنزلوا له عن البلد ونصف الإقليم المحيط به وردوا أسرى المسلمين وتعهدوا بدفع الجزية وأن يشتركوا مع المسلمين فى حرب أعدائهم جنبًا إلى جنب[1].

ثم واصل عنبسة سيره وصعد مع النهر ودخل إقليم بورجونيا واستولى على أوتون ونهبها وأحرقها ولم يقف تيار هذه الحملة إلا قرب بلدة سانس قريبًا من جنوب فرنسا، وقد ذكرت المراجع أن إيبون حاكم سانس تصدى للمسلمين وأوقف تقدمهم.

ولعلك تلاحظ هنا أن هذه الحملة التى قام بها عنبسة لم تكن حملة بالمعنى العسكرى السليم بل هى غارة-بعيدة المدى كما كان يفعل المسلمون الأوائل فى حملاتهم العسكرية، فكانوا لا يتقدمون إلى الأمام إلا بعد أن يقيموا معسكرات أو حاميات يقيم فيها بعض الجند لحراسة هذه الشعوب وضمان عدم ردتهم مرة أخرى، فكان ينبغى لنا أن نتذكر حملة عقبة بن نافع الكبرى حتى يتضح لنا أنه كان ينبغى على عنبسة أن يعمل على استقرار أمره فى ليون وأن يحافظ على ما وقع تحت يديه بإقامة معسكرات دائمة يرابط فيها الجيش للحماية والأمن وللحفاظ على مابيده من مدن قد تم فتحها، فلو فعل ذلك لتمكن من فتح جنوب فرنسا كله بل لوصل إلى شمالها ولاستقرت معه البلاد المفتوحة.

وقد وقع فى نفس الخطأ أيضا عبد الرحمن الغافقى فى معركة بلاط الشهداء فقد كانت الحماسة الدينية والرغبة الجارفة للقتال فى سبيل الله هما الدافعين للجند

(١) انظر فجر الأندلس. الدكتور. حسين مؤنس. طبعة دار الرشاد ص٢١٠.

فى هذه المعركة، وقد هزم المسلمون فيها هزيمة منكرة وعرفت هذه المعركة بمعركة بلاط الشهداء ومعناها «قصر الشهداء» لأن المعركة كانت إلى جوار قصر أو حصن كبير، فقد قام عبد الرحمن الغافقى بغارة كبرى كما فعل سابقه حتى تمت الهزيمة وكانت هزيمة مروعة حقا سنة ١١٤هـ.

وإن كانت هذه المعركة مأساة للمسلمين فإنها أشد بأسًا للنصارى الذين قالوا عن تلك المعركة أنها أنقذت حضارة غرب أوروبا أو المسيحية من الإسلام ووضعت حدا لسيادة الشرق على الغرب، والواقع أن كل هذا الكلام الذى صدر منهم يعد من قبيل المبالغات ولا يقبلها الحكم التاريخى، فلم يكن الفرنجة الذين تصدوا لرد المسلمين فى هذه المعركة حكامًا عادلين، إنما حكموها بالعنف والقسوة والعناد وقد شاء الله أن يحرمهم من نور الإسلام وهديه. ولك أن تتخيل أيها القارئ لو استقرت الجيوش الإسلامية فى تلك البلاد ونشرت الإسلام فيها لتغيرت أحوالها وساد الإسلام غرب أوروبا وجنوبها، ولكان القرآن الكريم يدرس الآن فى جامعة أكسفورد كما قال إدوارد جيبون. ولم يكن انهزام المسلمين فيها إنقاذا للمسيحية كما يدعون، وإذا كان المسلمون لم يتابعوا الزحف إلى تلك البلاد فليس ذلك خوفًا من قوة المسيحيين آنذاك؛ فالمسلمون قوم مجاهدون، الموت أحب إليهم من الحياة، والهزائم لا تعنى فى حسابهم شيئًا؛ فهم لا يعرفون الهزيمة ولم تمنعهم من العودة إلى تلك البلاد والإصرار على الفتح كما هو ظاهر فى تاريخ المسلمين، إنما الذى أوقفهم عن الزحف إلى هذه الجهة هو ما شجر بينهم من خلاف بسبب اللعب على أوتار العصبية القبلية.

٣- ظهور نزعة حضارية يغذيها الإسلام:

وقد يظن البعض بعد هذا العرض من الفتوحات أن العرب قد خلقوا للحرب والجهاد فقط بل هم أيضًا صانعو الحضارات التى يغذيها الإسلام ويرفع من شأنها ويدفعهم إليها دفعا، فما من بلد دخله الإسلام إلا شهد تلك الحضارة فالسمح بن مالك الخولانى هو الوالى الرابع على الأندلس والذى اختاره عمر بن عبد العزيز واليا عليها عام ١٠٠هـ وأمره أن يقيم الحق وأن يتبع العدل وأن يرعى مصالح المسلمين، فنراه ينطلق بعض الشيء نحو التطور الحضارى فينظم البلاد حتى تكون

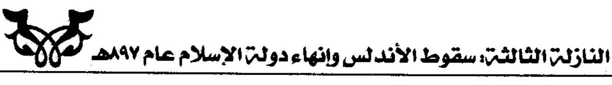
مستقلة عن الشمال الأفريقى خاضعة للخلافة الأموية مباشرة، فقسم الأندلس تقسيمًا إداريًا حيث قسمها إلى كور ومدن وأقاليم، ويقال إن عمر رحمه الله هو الذى أمره ببناء القنطرة بصخر السور وأن يبنى السور باللبن حيث لا يجد له صخرا، ويصف الإدريسى تلك القنطرة التى علت القناطر فخرًا وعظمة فى بنائها وإتقانها وعدد أقواسها سبع عشرة قوسًا بين القوس والقوس خمسون شبرًا، وسعة القوس مثل ذلك خمسون شبرًا وسعة ظهرها المعبور عليه ثلاثون شبرًا ولها ستائر من كل جهة تستر العامة، وارتفاع القنطرة من موضع المشى إلى وجه الماء فى أيام جفاف الماء ثلاثون ذراعا، وكان السيل يصل الماء منها إلى حلوقها وتحت القنطرة يعترض الوادى رصيف سد مصنوع من الأحجار القبطية والعمد الجافية للرخام، وعلى هذا السد ثلاثة بيوت أرحاء فى كل بيت منها أربع مطاحن ولها أهمية حيث تصل جنوب الأندلس بقرطبة والشمال الأفريقى(١).

هذا هو تاريخ المسلمين أينما حلوا.. نهضة وعمران وطواحين وسدود وجسور ومساجد، وإن القلب ليعتصر همّاً حينما نقارن ذلك بما يفعله الغازون من الصليبيين فى العصور الوسطى أو الغازون منهم فى العصر الحديث، فهم يدمرون كل مظهر حضارى أو تراثى للأمم المغلوبة على أمرها والتى وقعت تحت وطأتها.

وعلى الرغم من تلك النهضة العمرانية إذا قيست بفترة الولاة والتى تقدر بستة وأربعين عاما والتى حكم فيها اثنان وعشرون واليًا فإن ذلك ليدل على عدم الاستقرار السياسى للحكام آنذاك فقد كانت وراءه العصبية القبلية والتعصب الطائفى الذى غالبًا ما كان يتسبب فى عزل الولاة بسرعة، فإن أمثال تلك الفترات لن تشهد حضارة أو تميزًا بخلاف بعض فترات الحكم التى طال فيها بعض الولاة وقد أمكنهم ذلك من التنظيم الإدارى وإقامة بعض المنشآت الحضارية والمعمارية كما قلنا سابقا.

❁❁❁

(١) الأندلس. التاريخ المصور. طارق سويدان ص٦٢.



ثانيًا: عصر الإمارة الأموية فى الأندلس



أ- بداية عصر الإمارة «١٣٨-٢٠٦هـ»:

يمتد هذا العصر من عهد عبد الرحمن الداخل والذى يعد استمرارا لدولة بنى أمية حتى إعلان الخلافة فى عهد عبد الرحمن الناصر نحو قرن من الزمان كانت الأندلس فيه مستقلة سياسيًا غير خاضعة للخلافة العباسية إلا أنها ظلت مرتبطة بالمشرق ثقافيًا وأدبيًا وحضاريًا، فقد تمكن عبد الرحمن الداخل من تأليف القبائل اليمنية التى كانت ناقمة على هيمنة القبائل القيسية، وبمساعدة البربر استطاع أن يخضع الأندلس لسيطرته وأن يبايعه أهل الأندلس أميرا عليها. وقد اتخذ من قرطبة عاصمة له وبدأ ببناء وتوسيع مسجدها الشهير، وصارت محط أنظار العلماء ومهد الحضارة؛ استمرت السلالة الأموية فى حكم الأندلس حيث استطاع أمراء الأندلس من الأمويين الحفاظ على الإمارة من كيد الطامعين فيها أو من عبث المتظاهرين عليها، وقد ازدهرت الأندلس فى عصرهم ازدهارًا عظيمًا ملموسًا، وكان لعبد الرحمن الداخل بعض الأوليات فى الحكم صارت سببًا فى استقرار الأندلس حيث قضى أغلب سنى حكمه تقريبًا فى كفاح داخلى وجهاد خارجى، فقلل من شأن الارستقراطية العربية باستخدام غير العرب واصطناع الموالى وقضى على الزعامة القبلية بالتخلص من كل من تحدثه نفسه بالثورة أو التمرد، وحاول أن يؤمن حدود الدولة الإسلامية فى الأندلس ضد مسيحيى الأسبان والفرنج وذلك بقيادة الجيوش وتسيير الحملات إلى هؤلاء المتربصين بالدولة.

ومن هنا نرى أن تلك الفترة من الناحية السياسية كانت فترة علاج لكثير من أدواء الحكم التى عانتها الأندلس من قبل، وقد شهدت هذه الفترة أيضا بعض الحروب وأعمال العنف، ولكنها كانت فى سبيل الاستقرار السياسى الذى خلف تقدمًا وأمنًا.

وكان من أهم ظواهر المجتمع الأندلسى فى تلك الفترة ضعف العصبية القبلية والمنازعات العنصرية حتى ذابت جميعًا فى بوتقة اجتماعية واحدة، ومن ثم نرى اتجاه سكان الأندلس إلى وحدة اجتماعية يصلون إلى ذروتها فى عهد الخليفة الناصر، وكان ذلك بفضل جهود عبد الرحمن الداخل ومن حكم بعده من أبنائه إذ كسر شوكة الارستقراطية العربية وعمل على كسر عصبية القبائل الكريهة وطارد الزعماء المناوئين للحكم أولا باستخدام كثير من الموالى والعرب حتى استقامت له طبقات المجتمع. كما ظهر فى تلك الفترة طبقة اجتماعية جديدة أصبح لها كيانها ومكانتها بين طبقات المجتمع الأندلسى، تلك الطبقة هى طبقة المولدين إذ كثرت تلك الطبقة بمضى الزمن واستمرار الدخول فى الدين الجديد، ولا شك أن وجود مثل هذه الطبقة قد زاد من الأكثرية المسلمة حينئذ وصبغ الحياة الأسبانية بصبغة أكثر إسلامية وعروبة.

وقد شهدت تلك الفترة أيضا « فترة تأسيس الإمارة الأموية هذا التقدم الحضارى الذى خطت نحوه الأندلس مثل أعمال الإنشاء والتعمير والتجميل التى قام بها عبد الرحمن الداخل وأبناؤه من بعده. وهكذا أصبح المجتمع الأندلسى فى تلك الفترة مجتمعًا مستقرًا نسبيًا، فهو يحيى حياة أكثر أمنًا فى ظل حكومة قوية مدعمة أكثر وحدة فى حمى نظام حارب القبلية والعصبية، وفتح الطريق للحياة الأندلسية الحقة، ثم فتح المجتمع الأندلسى إبان تلك الفترة عينيه على بواكير حضارة أراد الأمويون أن يعيدوا بها فى الأندلس حضارة فقدوها فى المشرق.

ب- فترة صراع الإمارة «٢٠٦-٣٠٠هـ»:

حكم هذه الفترة من تاريخ الأندلس أربعة من أمراء بنى أمية الأندلسيين هم عبد الرحمن الأوسط ثم ابنه محمد ثم حفيداه: المنذر وعبد الله بن محمد، وتبدأ هذه الفترة من سنة «٢٠٦-٣٠٠هـ»، «٨٢٢-٩١٢م».

وأهم ما تمتاز به تلك الفترة هو الصراع فى سبيل المحافظة على تلك الإمارة الأموية الناشئة التى تعرضت لعدد من الأحداث يأتى بعضها من الخارج وقد يأتى بعضها الآخر من الداخل، ولم تؤثر تلك الأحداث على الإمارة فى سنيها التى

حكم فيها عبد الرحمن الأوسط، وقد كانت أوقات ازدهار حقيقى ولكن الإمارة شقيت فى سنيها الأخيرة وخاصة أيام آخر الأمراء عبد الله بن محمد حتى أوشكت فى عهده على السقوط، وقد شهدت بعض الثورات المحلية وبعض الفتن الداخلية بين المضرية واليمنية واعتداء بعض الأقاليم المسيحية المعتدية ولكن كانت حكومة قرطبة قوية وجيشها قوياً استطاعت تأمين الحدود وسد الثغور والحد من الفتن الداخلية واستطاعت تلك الجيوش القوية أيضا فى عهد عبد الرحمن الأوسط أن تصد تقدم النورمان(١).

وفى عهد الأمير محمد شهدت البلاد حركة ثورية كلفت الإمارة الأندلسية الكثير من الجهد والرجال والأموال، وظلت شوكة فى جانب الحكومة حتى أوائل الفترة التالية وهى لا تفتأ تقاوم تلك الثورة وثائرها عمر بن حفصون الذى اعتصم بجبل بوبشتر وتجمعت حوله الثوار يقاومون الحكومة الأندلسية.

وقد شهدت البلاد فى عهد الأمير عبد الله ظهور حركتين خطرتين هددتا وحدة الأندلس وحكومتها القرطبية.

الحركة الأولى: وهى الحركة العنصرية التى كانت بين تكتل العرب تحت زعامة إبراهيم بن حجاج وهو من عرب أشبيلية ووقوفهم فى وجه المولدين الذين يتكتلون بدورهم تحت إمرة ثائر منهم للوقوف فى وجه العرب، وقد كانت أشبيلية وغرناطة من أكبر مراكز هذه الحركة.

أما الحركة الثانية: فهى حركة انفصال حاول بها بعض المغامرين الاستقلال ببعض أقاليم الأندلس مستغلا الضعف الذى كانت تعانيه حكومة قرطبة حينئذ(٢).

كما شاهدت السنوات الأولى من هذه الفترة حركات إصلاح وعوامل تقدم فى عهد عبد الرحمن الأوسط دفعت بالأندلس مراحل عظيمة فى طريق الرقى الاجتماعى والحضارى وقد ساعد على ذلك:

---

(١) انظر هجوم النورمان على الأندلس فى البيان المغرب ج٢ ص١٣٠ وما بعدها، وابن خلدون ج٤ ص١٢٩.
(٢) انظر المقتبس لابن حيان ص٩ وما بعدها.

- الهدوء النسبى الذى صاحب إمارة عبد الرحمن الأوسط.
- تحمس الأمير الأموى أيضا للإصلاح وميله إلى النهوض بالأندلس لينافس بها خلافة العباسيين بالمشرق.
- ازدهار اقتصاديات البلاد إذ زاد دخل الأندلس إلى درجة الرخاء[١].

وقد كان من أهم عوامل التقدم فى عهد عبد الرحمن الأوسط قدوم زرياب الموسيقى من المشرق الإسلامى إلى الأندلس، وقد أحدث فى مجتمعها انقلابًا هائلاً بما أدخله من عادات جديدة وبما أشاعه من تقاليد راقية، وقد كان له دور عظيم فى إشاعة الفن والموسيقى والغناء فى الأندلس، فقد أنشأ أول مدرسة لتعليم تلك الفنون وكان يأخذ تلاميذه بمنهجه الدقيق لتعليم الموسيقى والغناء المشرقيين، واستطاع بسرعة أن يجعل للموسيقى الأندلسية طابعها وشخصيتها المميزتين لها، وقد صاحب الغناء والموسيقى انتشار مستحدثات اجتماعية وفنية شاعت فى المجتمع الأندلسى على يدى زرياب منها حب الترف والتأنق والأخذ بمتع الحياة كما ظهر التورط فى اللهو والمجون وقد ساعد على ذلك تحسن الأحوال الاقتصادية وتحرر بعض الأمراء وانتشار الكروم والترخص فى صناعة الأنبذة وشربها مع كثرة شراء الفاتنات المشرقيات أو الأسبانيات ووفرة الغلمان وخاصة من الصقالبة.

وقد تميزت هذه الفترة باتساع ثقافى كان من أسبابه:

- تعلق بعض الأمراء بالعلم والمعرفة ومشاركاتهم فى ميادين الثقافة، فقد كان عبد الرحمن الأوسط محبًا لقراءة كتب الطب والفلسفة كما كان مقربًا للعلماء مؤثرًا للباحثين باعثًا فى طلب الكتب حيث كانت تجلب له من الأمصار، وقد ذكرت بعض المراجع أنه أرسل عباس بن ناصح إلى المشرق ليبحث له عن الكتب النافعة وينقلها إلى قرطبة[٢].

---

(١) انظر هذه الإصلاحات نفح الطيب للمقرى ج١ ص١٦٢، ١٦٣. والبيان المغرب لابن عذارى ج٢ ص١٣٦.
(٢) انظر نفح الطيب للمقرى ج١ ص١٦٢. والمغرب لابن سعيد ص٤٥.

كما كان الأمير عبد الله رغم سوء الأحوال السياسية فى عهده محبا للعلم مشاركا فى الاشتغال به، يؤثر العلماء ويقرب المثقفين، وقد قال ابن حيان عنه: «إنه كان متصرفا فى الفنون متحققا منها، عالما بلسان العرب بصيرا بلغاتها وأيامها حافظا للغريب والأخبار».

- وكان من أسباب الاتساع الثقافى أيضا ما حمله بعض المشارقة إلى الأندلس من مؤلفات علمية وأدبية زيادة على ما حمله الأندلسيون أنفسهم إبان زيارتهم للمشرق، ومن أشهر نقلة المؤلفات المشرقية للأندلس فى تلك الفترة إبراهيم بن أحمد الشيبانى المعروف بأبى اليسر الرياضى حيث التقى بجلة من العلماء أخذوا عنهم العلم والأدب ثم ارتحل إلى المغرب فسكن القيروان ووفد أيضا على الأندلس فى عهد الأمير محمد[1].

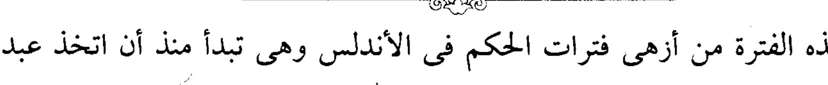
كما كان من الأندلسيين الذين نقلوا الكثير من علم المشرق وأدبه فى تلك الفترة محمد بن عبد السلام بن ثعلبة، وقد دخل البصرة وأخذ عن علمائها ثم اتجه إلى قرطبة، وعن طريق هذا العالم دخل الأندلس كثير من كتب اللغة ودواوين شعر الجاهلية. وكان من نتائج هذا الاتساع الثقافى ظهور كثير من علماء الأندلس فى شتى فروع الثقافة العربية والإسلامية، وكذلك ظهور طلائع الأندلسيين فى العلوم العقلية والفلسفية والطبيعية. كما ظهر فى تلك الفترة أول مؤرخ أندلسى وهو عبد الملك بن حبيب الذى درس فى ألبيرة وقرطبة ثم رحل إلى المشرق وتردد على علمائه ثم عاد بعد ذلك إلى بلاده ولقب بعالم الأندلس[2].

وكان من مظاهر هذا الاتساع الثقافى فى تلك الفترة ظهور أوائل أطباء الأندلس مثل أحمد بن إياس وحمدين بن أبان وكذلك ظهور أوائل الفلكيين والرياضيين، كما ظهر فى تلك الفترة العالم الطيار عباس بن فرناس وهو أول من استنبط صناعة الزجاج من الحجارة بالأندلس، وأول مخترع للآلة المعروفة بالميقات وهى ساعة مائية لمعرفة الأوقات كما يعد الرائد الأول الذى حاول الطيران إذ صنع جناحين وركبهما على جانبيه ثم طار بهما حينًا وكانت تلك التجربة الأولى فى عالم الطيران.

(١) انظر نفح الطيب للمقرى ج٢ ص١١٥.
(٢) الأدب الأندلسى. أحمد هيكل ص١٢٦.

ثالثًا: عصر القوة «فترة الخلافة»

«٣١٦- ٤٢٢هـ»



تعد هذه الفترة من أزهى فترات الحكم فى الأندلس وهى تبدأ منذ أن اتخذ عبد الرحمن الثالث لقب الخليفة الناصر لدين الله سنة «٣١٦هـ- ٩٢٩م» وتنتهى بسقوط آخر أموى فى قرطبة وقيام ابن جهور بالأمر سنة «٤٢٢هـ- ١٠٣١م»[1].

وقد يرى بعض المؤرخين أن فترة الخلافة الحقيقية فى الأندلس تتمثل فى عهد عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم فقط. على أى حال فقد شهدت تلك الفترة قوة النفوذ وهيبة الحكم وكان ذلك بفضل ذلك الرجل العظيم عبد الرحمن الناصر أو الثالث -كما يقولون- إذ حول نظام الحكم فى الأندلس من إمارة إلى خلافة إسلامية استمرت طوال عصره وعصر ابنه الحكم الثانى من بعده والذى نهج نهج أبيه فى تدعيم أسس الخلافة وتقوية دعائمها.

لقد تولى عبد الرحمن الناصر أمر الأندلس بعد موت جده الأمير عبد الله سنة «٣٠٠هـ- ٩١٢م» فى ظروف كانت قاسية إذ كانت البلاد نهبًا للطامحين والطامعين من عرب وبربر وأسبان، وقد عانى الأمير عبد الله من هؤلاء الثائرين عليه حتى أصبح الكثير من أقاليمها مستقلا عن الإمارة حتى أوشكت الإمارة أن تضيع منهم. ولكن الله قد قيض لهذه الإمارة شابًا قويًا هو الأمير عبد الرحمن الناصر إذ تولاها والظروف قاسية وكان آنذاك قد جاوز الاثنين والعشرين عاما والتزم سياسة الحزم والقوة والتضحية، وتغلب على الأخطار التى تحيط به بكل جرأة وشجاعة فأخضع الثائرين لسلطانه وعادت أغلب الأقاليم تحت إمرة هذا الشاب الأموى القوى[2].

---

(١) الأدب الأندلسى. احمد هيكل ص١٨١.

(٢) انظر البيان المغرب لابن عذارى ج٢ ص٣٣٤ وما بعدها. وكتاب العبر لابن خلدون ج٤ ص١٣٧ وما بعدها.

هذا على الصعيد الداخلى فى الأندلس حيث تم له الأمر تمامًا وقضى على كل الثائرين والمناوئين لحكمه.

أما عن علاقات الخليفة عبد الرحمن الناصر الخارجية فقد كان يواجهه خطران كبيران كان لابد أن يتغلب عليهما وهما:

الخطر الأول: وهو خطر المسيحيين الأسبان في الشمال إذ قويت شوكة هؤلاء المسيحيين وتكونت لهم ممالك شمال المملكة تهاجم الدولة الإسلامية، وهى مملكة ليون ومملكة نافارا وهما يمثلان خطورة شديدة على دولة الخلافة الفتية التى يقودها الخليفة عبد الرحمن الناصر.

الخطر الثانى: وقد كان جنوب الأندلس حيث ظهرت الدولة الفاطمية الناشئة ومكنت لنفسها فى الشمال الأفريقى واستطاعت أن تقيم دولة قوية عاصمتها القيروان، وهى دولة تواجه دولة الأمويين فى الأندلس وتعمل على محو آثارها فى الشمال الأفريقى بأكمله، فقامت بطرد العناصر الموالية لعبد الرحمن الناصر، وانتشرت جيوشها تؤمن الحدود الشمالية للدولة وجابت أساطيلها البحر المتوسط شرقه وغربه ثم بدأ يتطلع الفاطميون للسيطرة على بلاد الأندلس.

ولكن هذا الفتى الخليفة الأموى الذى اتسمت سياسته الخارجية بالحكمة والرزانة وحسن المعاملة استطاع أن يتعامل مع هذه القضية بحكمة، فقام أولا بمواجهة المسيحيين ومن انضم إليهم من الأندلسيين الخارجين عن ملكه فجرد لها حملات أخفق فى بعضها ونجح فى بعضها الآخر وحقق انتصارات عظيمة حيث كان يقود المعارك بنفسه فكبر فى عين أعدائه وهابته الأعداء حتى وقعوا معه معاهدات تعهد له بعضهم بدفع الجزية، وأقام علاقات محبة وود مع بعضها الآخر إذ استعان به بعض النصارى على تولى عرش مملكته كما فعل سانشو ملك ليون[1].

ويعد هذا الخطر السابق ذكره من أصعب الأخطار التى واجهتها الخلافة الأندلسية الناشئة، فكان عليه أن يواجه الشيعة الفاطميين الذين طمعوا فى بلاده

(١) انظر الأدب الأندلسى. أحمد هيكل ص١٨٤.

وبكل وسائل المواجهة وعلى كل المستويات: السياسية والحربية والمذهبية والاقتصادية والثقافية، وقد استعد الناصر لهذه المواجهة الشاملة التى ظلت خمسين عاما على وجه التقريب واجه فيها الناصر أربعة من الخلفاء الفاطميين هم الخليفة المهدى والقائم بأمر الله والمنصور ثم المعز لدين الله الفاطمى. وصارت القضية على المستويين الإقليمى والدولى قضية صراع بين أهل السنة والجماعة فى قرطبة بالأندلس وعلى رأسهم الخليفة عبد الرحمن الناصر السنى المالكى المذهب بينما كان على الطرف الآخر فى الشمال الأفريقى بمدينة القيروان الخلافة الشيعية الإسماعيلية التى يدين بها «بنو عبيد» والذين أطلقوا على أنفسهم «الفاطميين» وقد حاولوا تشييع الأندلس حتى يكون تابعا لخلافتهم الشيعية.

ولعل الخطوة التى خطاها عبد الرحمن الناصر فى تحويل الإمارة إلى خلافة كانت هى خطوة المحك التى ساعدت على اشتداد الصراع بين الطرفين، فقد رأى الخليفة الناصر ضعف الخلافة العباسية بالعراق فى أيام المقتدر، وأحس بخطر الشيعة بالقيروان فى الجهة المقابلة له فسارع إلى تحويل الإمارة إلى خلافة وتلقب بالناصر لدين الله وذلك لتكتسب عاصمته هيبة الحكم وقوة النفوذ فى المنطقة[١].

وقد حاول كل من الطرفين نهج سياسة التحالف القبلى واستقطاب بعض العناصر التى تعمل له، فاستقطب الناصر بنى خرز وبنى العافية الذين صارا حليفين له فى الشمال الأفريقى يعملان ضد الفاطميين بينما قام الفاطميون بدعم الثورات ضد الأمويين فى الأندلس مثل ثورة بن حفصون وثورة الداعى أبى الخير، كما اتجه كل من الطرفين لتدعيم سياسته الخارجية ضد الآخر على الصعيد العربى والدولى، فاتجه الفاطميون نحو مصر بوابة المشرق الإسلامى يدعون للقضية الفاطمية ويستميلون الحجازيين ليصلوا لرعاية الحرمين الشريفين، لذلك نرى الأمويين يلاحقون الفاطميين فى هذا المجال باستمالة حكام مصر وتنشيط المقاومة المالكية والطعن فى نسب الفاطميين.

(١) انظر بغية الملتمس فى تاريخ رجال الأندلس للضبى. تحقيق روحية عبد الرحمن السويفى ص٢١.

كما اتجه الطرفان المتصارعان لاستقطاب الروم بجانب كل منهما، وكان لهذا التصرف أثر سيئ على القضية الإسلامية آنذاك حيث توقفت حركة الجهاد البحرى للمسلمين سواء من جانب الأمويين أو الفاطميين كما سقطت جزيرة أقريطش فى أيدى الروم.

وحاول الطرفان دعم سياسته ببناء الجيوش والأساطيل، فكان لكل من الطرفين أسطول ضخم لحراسة الحدود من جهة والسطو على شواطئ الآخر من جهة أخرى دون أن نسمع بتوجه أسطول أحدهما إلى الروم ولو مرة واحدة.

وقد شهد الطرفان إقامة اقتصاد قوى فى المغرب والأندلس حيث كانت العلاقات الاقتصادية المتبادلة بين الشعبين فى الأسواق الكبرى علاقات نشطة ساهمت فى نمو الاقتصاد الأموى والفاطمى كما شهدت ازدهاراً لبعض الأسواق الكبرى فى المنطقة كسوق القيروان وفاس والمرية وغيرها من أسواق.

كما شاهدت هذه الفترة صراع الطرفين على المستوى الرسمى والحكومى للسيطرة على مناطق تسويق الذهب بدءاً من مراكز استخراجه بالسودان الغربى مثل ذهب غانا وذهب يرسنى وسجلماسة، كما حاول كل من الطرفين السيطرة على الطرق الكبرى فى المنطقة كالطرق التجارية البرية فى الصحراء والطرق البحرية والموانى وذلك فى المغرب الأقصى وحول مضيق جبل طارق وموانئ الساحل الأندلسى.

وقد شهدت هذه الفترة أيضا وثبة ثقافية رائعة لدى الطرفين المتصارعين حيث ظهر التأثير والتأثر والاحتكاك المباشر فى شتى العلوم الدينية والكونية والمادية، كما كان هناك نوع من التبادل فى المؤلفات بشتى أنواعها وكذلك تبادل فى الزيارات بين رجالات المذهب السنى والشيعى.

وقد استطاع الفاطميون النجاح فى تسريب التشيع ذلك بعض الشىء إلى الأندلس إذ تشيع بعض الأدباء والفقهاء ولكن كان على نطاق ضيق حيث قاوم الناصر وأهل السنة والجماعة التشيع فى المغرب ثم اشتدوا فى مقاومته فى الأندلس

بكل وسائل المقاومة وذلك بالمقاطعة الفردية والجماعية وبث الوعى فى جماهير أهل السنة وإقامة المناظرات بين فقهاء السنة والشيعة والتى استفاد منها الكثيرون مثل الحديث عن مفهوم الولاية والتوريث وشارب الخمر وتراويح رمضان إلى غير ذلك من القضايا المختلف عليها بين أهل السنة والشيعة[1].

والحقيقة أن تلك الفترة من الصراع كانت من أخصب الفترات التى مرت بالأندلس إذ ساهم ذلك الصراع فى تنشيط الجوانب الثقافية والفكرية والجمالية، وبدأ الأندلس يشعر بشخصيته وهويته وبقوميته فينافس المغرب نداً لند وينافس المشرق حينا آخر، وترى هذه المنافسة الرائعة فى كتب الأدب وقصائد الشعر وكتب المؤرخين التى تتعرض لهذه الفترة من حياة الأندلس، ولا غرو فى ذلك إذ حاول كل خليفة أن يشجع الشعراء الكبار ويستقطب العدد الأكبر من العلماء المتخصصين فى مختلف المجالات العلمية والأدبية ليزين بهم بلاطه ويضفى على عاصمته البهاء والعُظمة والإجلال.

ويبدو أن تلقب الخليفة الناصر بلقب الخلافة هو الذى أشعل الصراع وأثار سخيمة الفاطميين الذين نظروا إلى حكومة الأمويين فى الأندلس على أنها إمارة يسهل التغلب عليها ثم ضمها إلى الدولة الفاطمية الناشئة ولكن خاب ظنهم بتلقب عبد الرحمن الناصر بلقب الخلافة ليصير فى العالم الإسلامى ثلاث خلافات متصارعة على الحكم كل منها تدعى أنها تعمل لصالح الإسلام والمسلمين.

وقد حاول بعض المصلحين التوسط لدى الخليفة المعز لدين الله الفاطمى والخليفة عبد الرحمن الناصر فى محاولة للوفاق وإتمام الصلح بينهما وإحلال الوفاق محل الخصام، وقد سعوا وبذلوا الجهد تلو الجهد ولكن تلك المحاولات وصلت إلى طريق مسدود وباءت بالفشل، وذلك بسبب تمسك كل منهما بأحقية الخلافة وزعامة العالم الإسلامى فكل منهما حرص على كرسى الملك وعلى سرير

(١) انظر هذا الصراع فى كتاب العلاقات بين الأمويين والفاطميين فى الأندلس والشمال الأفريقى لصاحب هذه الأسطر الدكتور فتحى زغروت. دار التوزيع والنشر الإسلامية. القاهرة.

الخلافة وفضل مصلحته الخاصة على مصلحة المسلمين العامة، وهذا يتضح من خلال تصفح بنود الصلح التى وردت فى تلك المحاولة(١).

ثم مات الخليفة الناصر ذلك الرجل العظيم سنة « ٣٥٠هـ- ٩٦١م» وخلفه ابنه الحكم الثانى «المستنصر» الذى سار على نهج أبيه وحافظ على هيبة الخلافة(٢).

وأهم الأعمال التى ظهرت فى عصر الخليفة الحكم والتى كان لها أثرها فى بقاء هيبة الخلافة بعد أبيه محاولة بعض الملوك المسيحيين نقض العهد الذى أبرموه مع الخليفة الناصر ومنهم ملكا ليون ونافارا إذ رفضا تسليم حصون كانا قد تعهدا بتسليمها للخليفة الراحل، وليس هذا فقط بل أغار ملك قشتالة على حدود الدولة الإسلامية فأمر الخليفة الحكم «المستنصر» قواده بتعبئة الجيوش وقادها بنفسه وأذل ملوك النصارى الخارجين على العهد وأدب أمير قشتالة المعتدى مما اضطره إلى الفرار.

وقد علت سمعة قرطبة فى عصره وهابه النصارى وكانوا يلجأون إليه فى كثير من خصوماتهم إذ وفد على الخليفة الحكم أمير أراجون الذى أعاده إلى عرشه انتقاما من ملك ليون ثم أعاد الحرب مرة أخرى مع بعض ملوك المسيحيين حتى اضطرهم إلى الخضوع وقبول ما أراد من شروط السلم التى اشترط فيها هدم الحصون القريبة من حدود المسلمين وأن يتعهد ملوك المسيحيين ألا يساعدوا ثوارًا ضده وألا يتحالفوا أو يعودوا لمحاربة الخليفة.

أما الفاطميون فقد قل خطرهم أيام الخليفة الحكم إذ اتجه جل نشاطهم العسكرى والدعوى نحو فتح مصر حيث تم توجيه الدعاة إليها ثم أسسوا القاهرة سنة ٩٦٩م وانتقل إليها المعز لدين الله ٩٧٢م، فانشغلوا بذلك عن الأندلس وقد ترك المعز نائبًا عنه على أفريقيا والمغرب بينما كان الأدارسة مذبذبين، فمرة يرتمون

---

(١) انظر تلك البنود فى كتاب الدكتور فتحى زغروت «العلاقات بين الأمويين والفاطميين».

(٢) انظر فى ترجمته وأعماله البيان المغرب لابن عذارى ج٢ ص٣٤٨ وما بعدها، وابن خلدون كتاب العبر ج٤ ص١٤٤ وما بعدها .

فى أحضان المعز ومرة أخرى فى أحضان الأمويين فأرسل الخليفة الحكم جيشًا إلى المغرب سنة ٩٧٢م استطاع أن يحرز نصرًا كبيرًا على الأدارسة وعاد إلى قرطبة ومعه بعض أمراء الأدارسة أسرى، فظلت الأندلس حتى ٣٦٦هـ- ٩٧٧م دولة قوية مهابة شاسعة الرقعة موحدة الأقاليم. وقد عاش الأندلسيون طوال فترة الخلافة الأموية منذ عهد الناصر إلى نهاية عهد ابنه الحكم المستنصر فى ظلال من الرفاهية نعم بها الجميع حيث استقرت البلاد أعظم استقرار أدى بالأندلسيين إلى التفرغ للعمل المثمر والإبداع الفنى فى شتى مجالات المعرفة ولم لا؟ وقد قضى الناصر على كل الزعامات المناوئة له فى الداخل والخارج وكذلك الزعامات العربية المناصرة للفتنة العنصرية بين العرب وكذلك البربرية التى كانت تثور دائما بسكان الأندلس وتستقل بأجزائها، لقد انتهى كل ذلك، ومن هنا رأينا اتفاق الجميع على الاندماج فى المجتمع الأندلسى الكبير اندماجًا امتزجت معه عناصره واختفت عنصريته «عربية -أسبانية- بربرية» وبرزت صورة واضحة لأمة واحدة مؤتلفة هى أمة الإسلام التى هى خير أمة، وبذلك شاع الاستقرار واستتب الأمن وانتشرت الطمأنينة ونتج عن ذلك وفرة فى الدخل القومى وارتفاع فى مستوى المعيشة ورخاء للدولة والأفراد جميعًا، وقد ذكر المؤرخون أن إيراد الدولة زاد ازديادًا عظيمًا حتى بلغ ما يجبى للأندلس من الكور والقرى خمسة ملايين وأربعمائة وثمانين ألف دينار، كما بلغ ما يجبى فى الأسواق سبعمائة وخمسة وستين ألف دينار[1]. وقيل أيضا أن الناصر قد خلف فى بيوت المال خمسة آلاف ألف ألف ألف دينار[2].

كما عرفت تلك الفترة نهضة عمرانية عظيمة إذ كان الناصر مولعًا بالبناء، محبًا للتشييد، وقد تم فى عهده أروع ما عرفت الأندلس من قصور ومساجد، وقد وصلت قرطبة فى فترة خلافته إلى ذروة جمالها وأناقتها وعمرانها فازدحمت بالقصور وزينت بالحدائق وجملت بالنافورات الكثيرة وزودت بالحمامات الوثيرة،

(١) انظر نفح الطيب للمقرى ص١٧٧. والبيان المغرب لابن عذارى ج٢ ص٣٤٥.
(٢) نفح الطيب ص١٧٧.

وقد شيد بهـا أكثر من خمسين ألف قصر لرجـال الدولة وأكثر من مائة ألف بيت للعامة من الناس وأن مساجدها بلغت تسعمائة، وحماماتها سبعمائة حمام(١).

هذا فى وقت كانت أوروبـا تعيش فى عصـر الجهل والتخـلف والمرض فهم لا يعرفون الحـمامات ولا يفهمـون معنى النظافة، وكان من أعظم الأعمـال الإنشائية للناصر هى مدينة الزهراء التى بناها شمال قرطبة وجـعل بها قصراً للخلافة وبيوتًا لرجال الحكومة ومساكن للحرس والجند ومسجدا للصلاة والتعليم.

كما كان قصـر الخلافة فى قرطبة غاية فى الجلال والجمـال ودقة فى الفن، فقد جلب الناصر أعـمدة بنائه ورخامـه وتماثيل زينته ومواد زخـرفته من القـسطنطينية وقرطاجنة وشمال أفريقيا. وكان للخليفة فى قصره بالزهراء مجلس يسمى بمجلس الذهب لأن قبـته وحيطانه قـد صفحت بهـذا المعدن النفيس، وقـد جعل فى هذا المجلس حـوض أقـيـمت عليـه تماثيل من الذهب المرصع وهى فى صـور الأسـد والغزال والتمساح والثعبان.. إلخ(٢).

وقد ينشغل الإنسان بتلك النهضة العمـرانية الرائعة والتى قد تنسيه ربه أحيانا أو قد تنسيـه تعاليم دينه فيتهاون فى عـبادته لله أو ينشغل بالعمران عن خـالقه، فهل كان الخليـفة الناصر من أولئك الناس؟ نعرف هذا من خـلال المحاورات التى دارت بين الناصر وابنه الحكم من ناحية وبينه وبين الفقيه منذر بن سعيد من جهة أخرى، وكان هذا الفقيه قـد انتقد الناصر فى إسرافه فى تشيـيد الزهراء حتى شغل بها عن شهود الجمعة ثلاث مرات، وكان مما انتقد به الخليفة منذر بن سعيد، ابتداؤه خطبة حضرها الخليفة بقوله تعالى: ﴿**وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ** (١٢٧) **أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ** (١٢٨) **وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ**﴾ [الشعراء: ١٢٨، ١٢٩] فغـضب الناصر وأقـسم ألا يصلى الجمـعة وراء منذر وكـان قاضى مسجد الزهراء، وشرع يصلى وراء قاضى الجماعـة بمسجد قرطبة. وقد قال الناصر

---

(١) نفح الطيب ج١ ص٢١٣ وما بعدها، والبيان المغرب لابن عذارى ج٢ ص٣٤٥، ٣٤٦.
(٢) انظر نفح الطيب ج١ ص٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٦٥ وما بعدها.

لابنه فى ذلك: «والله لقد تعمدنى منذر بخطبته، وما عنى بها غيرى، وأسرف علىّ وأفرط فى تقريعى وتفزيعى. ولم يحسن السياسة بوعظى فزعزع قلبى وكاد بعصاه يقرعنى». فقال الحكم: «فما الذى يمنعك من عزل منذر عن الصلاة بك والاستبدال بغيره منه إذ كرهته؟» فزجره الناصر وقال: «أمثل منذر بن سعيد فى فضله وخيره وعلمه -لا أم لك- يعزل لإرضاء نفس ناكبة عن الرشد سالكة غير قصد؟ هذا ما لا يكون وإنى لأستحى من الله ألا أجعل بينى وبينه فى صلاة الجمع شفيعًا مثل منذر فى ورعه وصدقه ولكنه أحرجنى فأقسمت، ولوددت أن أجد سبيلا إلى كفارة يمينى بملكى بل يصلى بالناس حياته وحياتنا إن شاء الله تعالى فما أظننا نعاض منه أبدا»[1].

ومن المحاورات الطريفة تلك المحاورة التى دارت بين الناصر ومنذر نفسه، فكان الناصر قد أبدع فى تزيين قبة من الذهب والفضة حتى جعلها تخطف الأبصار، وسأل ذات يوم جلساؤه من الوزراء والحاشية عنها، فأكبروا صنعه وأثنوا عليه ثم دخل عليهم منذر بن سعيد فلما جلس سأله الناصر عن القبة كما سأل غيره فقال له: «يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الشيطان -لعنه الله- يبلغ منك هذا المبلغ، ولا أن تمكنه من نفسك هذا التمكين مع ما أتاك الله من فضله ونعمته وفضلك به على العالمين، حتى ينزلك منازل الكافرين» فانفعل الناصر وقال له: «انظر ما تقول وكيف أنزلتنى منزلته» فقال له منذر: «نعم أليس الله تعالى يقول: ﴿وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٣] فوجم الخليفة وأطرق ثم قال: «جزاك الله يا قاضى عنا وعن نفسك خيرا وعن الدين والمسلمين لأجل ذلك، وكثر من أمثالك فالذى قلت هو الحق»[2].

(١) انظر هذه المحاورات فى نفح الطيب ج١ ص١٧٥، ١٧٦، ٢٦٦، ٣٦٧.

(٢) المصدر السابق ج١ ص٢٦٨ وزاد فى هذا المصدر «أن الناصر قام من مجلسه ذلك وهو يستغفر الله تعالى وأمر بنقض سقف القبة».

كمـا شهدت فتـرة الخلافة وثبة ثقـافية وحضـارية رائعة لا مثيل لهـا، كان من مظاهرها ظهور شخـصية الأندلس العلمية والحـضارية وقوتها واستقـلالها إلى حد كبير، وقـد ساعد على هذه النهضة ما تنعم به الأندلس من وحـدة واستقرار وأمن ورخاء وتحضر ورقى. . كل ذلك من شأنه أن يدفع إلى حياة ثقافية ناهضة ويساعد على قيام مسـتوى علمى رفيع حيث وهب الله لقرطبة فى هذه الفترة خلـيفتين ما ادخرا جهدًا فى إثراء حياة المسلمين بل بذلا الجهد أقصاه لصنع ثقافة إسلامية تسود البلاد وترفرف على أبنائها بالأمن والطمأنينة، وبذلـك صارت قرطبة مركزا للعلوم والآداب وكثـر الإنتاج العلمى وشاعت المعـرفة بألوانها المختـلفة وشجعـوا علماء المشرق فى الرحـيل إلى الأندلس. وجلبوا الكتب القيمـة من شتى أقاليمـه وحثوا على البـحث والتأليف فى كل الفنون، فنرى الناصـر يحسن اسـتقبـال «أبى على القـالى» الذى وفـد من المشـرق وأسند إليـه تأديب ابنه الحكم كـمـا كـان يعلم الأندلسيين فى قرطبة[١]. وقد حمـل القالى إلى الأندلس كثيـرا من علم المشرق وأدبه فنقل مجمـوعة ضخمة من دواوين شـعراء الجاهلية والإسلاميـين مثل امرئ القيس وزهير والأعشـى والنابغة والخنساء وابن أبى ربيعة وجمـيل وكثير والأخطل وجرير والفرزدق هذا بالإضـافة إلى الكثير من كتب الأخبـار واللغة التى ترجمت لإثراء الحياة الثقافية الأندلسية خلال تلك الفترة.

أما الخليفة الحكم بن الخليـفة عبد الرحمن الناصر فقد ظهـر ولعه بالكتب وحبه الشديد للعلم والثقـافة والقرب من العلماء مثل أبيه فى حـبه للعلم والعلماء. فلم يجمع أمير من الكتب مثل الذى جمعه ذلك الرجل؛ فقد اشتهر بمكتبته الغنية التى بلغت أربعمائة ألـف مجلد حيث كان يحرص على جـمع الكتب ويدفع لها أغلى الأثمان من أجل أن يقتنيهـا فى مكتبته، كما فعل مع أبى الفرج الأصـفهانى حين وجه إليه ألف دينار ليرسل إليه نسخة من كتاب الأغانى فبعث إليه بنسخة من كتابه قبل أن يظهر فى بغداد.

---

(١) انظر نفح الطيب ج٢ ص٨٤ ـ ٨٦.

وقد كان الحكم على دراية عظيمة بتأليف الكتب فكان يشجع العلماء على التأليف ويقترح على المؤلفين بعض الموضوعات مثلما اقترح على الخشنى تأليف كتابه «قضاة قرطبة»، كما اقترح على الزبيدى تأليف كتابه «طبقات النحويين»[١].

بل كان يفسح لبعض المؤلفين مكانا فى القصر يخلون فيه للبحث وإنجاز ما عهد به إليهم من مؤلفات كما فعل مع ابن الصفار ليؤلف كتابا فى أشعار خلفاء بنى أمية بالمشرق[٢]. وهكذا نهضت الأندلس نهضة علمية فى فترة الخلافة حيث وفرة العلماء والمؤلفات فى أغلب فروع العلم والمعرفة كما قلنا.

وكان من نتائج النهضة الثقافية ظهور الشخصية العلمية فى الأندلس فمثلا فى الميدان اللغوى نرى أنه قد تأسست أول مدرسة للدراسات اللغوية بالأندلس وذلك بعد قدوم أبى على القالى الذى وفد إلى الأندلس سنة ٣٤٠هـ، والذى ألف كثيرا فى الدراسات اللغوية وأملى على طلبته من الأندلسيين كتابه «الأمالى»، ومن ثم ظهرت بعد ذاك الدراسات اللغوية وبرز عدد من العاملين فيها مثل الزبيدى الذى ألف مختصر كتاب العين، وألف كتاب طبقات النحويين وكتاب الأبنية فى النحو والواضح فى العربية، وممن عرفوا بالدراسات اللغوية أيضا فى تلك الفترة أبو بكر بن القوطية الذى ألف كتاب تصاريف الأفعال وكتاب المقصور والممدود.

وظهر فى الحقل التاريخى كثير من علماء الأندلس فى عصر الخلافة مثل أحمد ابن محمد بن موسى الرازى وكتابه المشهور آنذاك أخبار ملوك الأندلس وغزواتهم ونكباتهم[٣]. ومن مؤرخى هذه الفترة أبو بكر بن القوطية، ومن الكتب المشهورة فى تلك الفترة كتاب أخبار مجموعة لمؤلف مجهول وهو يتناول تاريخ الأندلس من الفتح إلى عهد عبد الرحمن الناصر. ومن المؤرخين أيضا عريب بن سعد الذى كان يعمل فى ذمة الحكم المستنصر ومن أشهر كتبه «صلة تاريخ الطبرى» وكان هذا المؤرخ الأندلسى طبيًا أيضا. ومن كتاب التراجم فى تلك الفترة عبد الملك بن عبد

(١) انظر الأدب الأندلسى. أحمد هيكل ص١٩١.
(٢) المصدر السابق ونفس الصفحة.
(٣) المرجع السابق.

البر القرطبى الذى ألف كتابا عن فقهاء قرطبة وابن الفرضى الذى ألف كتابا فى تاريخ العلماء ورواة العلم فى الأندلس، ومن أشهر المترجمين الذين عرفوا فى تلك الفترة أبو عثمان بن عبد البر الكشكيانى ومحمد بن هشام المروانى.

ومن تتمة الأمر فى هذا المجال الثقافى ما قام به الخليفة الحكم المستنصر من تلك الوثبة الثقافية التى تعد من أفضل أنواع الثقافات التى سمعنا بها فى التاريخ، أقول إنصافا لهذا الخليفة المولع بالكتب والمكتبات أن نعطى للقارئ لمحة عن مكتبته فى قرطبة، تلك المكتبة الأموية التى قامت بدور فى نشر العلم والمعرفة فى جنوب غرب أوروبا[1]. وأخيراً توفى الخليفة الحكم المستنصر الذى تولى الخلافة بعد أبيه الخليفة عبد الرحمن الناصر وبموت الخليفة الثانى تولى الخلافة خلفاء ضعاف صغار السن عين عليهم المنصور بن أبى عامر وصيًا وحاجبًا، وقد استأثر بالسلطة، ثم جاء بعده ابنه المظفر وأخذت الخلافة يتصارع عليها العرب من ناحية والبربر من ناحية أخرى والأمويون أصحاب الخلافة من جهة ثالثة حتى أعلن بن جهور سقوط الخلافة فى قرطبة عام ٤٢١هـ وأضحت البلاد نهبا لدويلات صغيرة مستضعفة يضرب بعضها بعضا ويأكل القوى الضعيف وكان عدوهم أقرب إليهم أحيانا من ذويهم وهو ما يطلق عليهم عصر ملوك الطوائف.

سقوط الخلافة الأموية:

لقد كان هذا السقوط شنيعا وهو السقوط الأول الذى أثر على حركة الإسلام والمسلمين فى الأندلس، وهو الذى أدى إلى تمزق وحدة المسلمين وإلى تفسخ الدولة الإسلامية ولكن قد يجول فى ذهن الإنسان تساؤل عجيب: كيف لتلك الدولة القوية ذات الهيبة والمنعة التى أسسها عبد الرحمن الناصر وجعلها موطنا للخلافة الأموية والتى نافست الخلافتين العباسية والفاطمية. أقول: كيف انهارت تلك الدولة وتداعت هكذا بسرعة؟

(١) لعدم الإطالة والخروج عن موضوع البحث يرجع القارئ لقراءة «مكتبة الأمويين الإسلامية فى قرطبة وتأثيرها الفكرى فى شعوب غرب أوروبا» بحث للدكتور فتحى زغروت فى مجلة البحوث الإسلامية التابعة لهيئة الإفتاء بالمملكة العربية السعودية. العدد ١٧ لسنة ١٤٠٦-١٤٠٧هـ.

نعم لقد حدث ذلك وإن لم تبد علامة من علامات الوهن، فقد تجمعت مثالب كثيرة أدت إلى ذلك السقوط، وإن المتأمل لأسباب السقوط يجدها غالبا ما كانت أسبابا داخلية وإن كنا لا نهمل الأسباب الخارجية فى تصدع الدولة الأموية، ومما لا شك فيه أن تلك الأسباب الداخلية كانت ضاربة بجذورها موغلة فى كيان الدولة ولم تكن وليدة عام أو عامين أو عدة أعوام، وقد كانت القوى الاجتماعية التى استند إليها العامريون غير متماسكة فالأرستقراطية القرطبية كانت منشقة على نفسها مبعثرة الجوانب، ففريق يساند بنى عامر وفريق آخر يظاهر بنى أمية الذين ينظرون بغيظ إلى استئثار العامريين بالسلطة، وكان موقف العامة كما هو الحال بمعزل عن الحكام، وحينما رأوا ذلك تحول موقفهم السلبى إلى موقف إيجابى فابتدأوا يضيقون بالبربر من زناته وصنهاجة الذين استقدمهم العامريون لتجنيدهم فى الجيوش وليغزوا بهم نصارى الشمال، وقد باتت تلك القوة الأخيرة - هى العامة من الناس- تنتظر سنوح فرصة للانقضاض والثورة. إذن كان أول الأسباب هذا التصدع الداخلى فى دولة بنى عامر وهو باختصار شديد أن الكيان السياسى الذى بناه عبد الرحمن الناصر لم يكن قائمًا على أسس رصينة متينة، ولم تكن تلك العناصر متماسكة متراصة رغم قوتها الظاهرة، فإن ذلك المجتمع الأندلسى المكون من أجناس مؤتلفة من أندلسيين أسبان وأندلسيين عرب وبربر وصقالبة.. كل هذه العناصر كانت بلا شك عاملا من عوامل تفكك المجتمع وعدم تماسكه وتاريخ الأندلس شاهد على ذلك.

ومن الأسباب التى ساعدت على تصدع دولة قرطبة وقيام ملوك الطوائف هى تلك النتيجة الطبيعية لتطور المجتمع الأندلسى إذ أن خضوع المدن الأندلسية الكبيرة والحصينة بقرطبة لم يعد ممكنا بعد أن تطورت هذه المدن ونشأت فيها ارستقراطية محلية مستقرة عميقة الجذور ذات شوكة وقدرة.. كل هذا يجعلنا نقول: لم يعد ممكنا خضوع هذه المدن لقرطبة بعدما وصلت إليه من ازدهار وتقدم كما لم يكن لدى قرطبة من قوة تستطيع بها فرض سلطانها على هذه المدن، فكان من الطبيعى أن تستقل هذه المدن الأخيرة وأن تدير شئونها بنفسها وهذا ما لاحظناه فى ظهور

ملوك الطوائف، فما هم إلا امتداد طبيعى لتنامى نفوذ الارستقراطية المحلية واشتداد ارتباطها بمواطنها وشعورها بإمكانية الاكتفاء بنفسها والاستغناء عن أى سلطة مركزية، وهكذا استأثر بنو عباد بالحكم فى أشبيلية، واستأثر بنو الأفطس بالحكم فى بطليوس وهكذا ظهر على شاكلتهما بنو هود فى سرقسطة وبنو ذى النون فى طليطلة وبنو طاهر فى مرسية، وابتدأ نزاع قوى ومرير تغلب فيه القوى على الضعيف واستعان الضعيف بالأجنبى من النصارى على أخيه القوى وظل هذا النزاع حتى وهنت قوى هؤلاء الحكام من الطوائف.

ثم بدا خطر النصارى فى الشمال وتعاظم خطرهم شيئًا فشيئًا حتى أصبح ملوك الطوائف هؤلاء غير قادرين على الثبات أمام الوضع السياسى الجديد ولكى ندرك أن التركيبة الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع الأندلسى كانت سببا فى سقوط دولة الأمويين علينا أن نقف وقفة متأنية للتركيبة العنصرية للمجتمع الأندلسى.

فالعرب والبربر كانا يشكلان الغالبية العظمى لسكان الأندلس أثناء الفتح وبعده إذ كان العرب والبربر هما المصدران الممدان للجيوش الإسلامية فى معارك الفتح الإسلامى لأسبانيا وقد استمرت الهجرة من شمال أفريقيا ومن الشرق العربى إلى شبه الجزيرة الأندلسية دون انقطاع، وإن كان نصيب البربر أكثر بكثير من نصيب العرب. لقد أغرتهم خصوبة البلاد وثراؤها فتركوا بلادهم ليتخذوا من الأندلس مقرا جديدا لهم. والمتتبع لهجرات العرب إبان تلك المحنة يجدها هجرات مستمرة غير منقطعة إذ قدم مع الوالى «الحر بن عبد الرحمن الثقفى» سنة٩٩هـ عدد من الشخصيات العربية الأفريقية ما يقرب من أربعمائة أسرة ثم جاء بلج بن بشر القشيرى على رأس بضعة آلاف من الشخصيات العربية قدرت بحوالى سبعة آلاف.

ثم ازدادت الهجرة بعد عبور عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الملقب بالداخل سنة ١٣٨هـ سواء من بربر شمال أفريقيا لزيادة جيوشه أو من رجالات المشرق الهاربين من اضطهاد العباسيين، وإلى جانب العرب والبربر كانت هناك عناصر

أخرى من السكان منهم المسالمة وهم سكان البلاد الأصليون الذين اعتنقوا الإسلام، ومنهم أيضا المولدون الذين نشأوا فى ظل الإسلام وتربوا بتربيته، ومنهم أيضا عناصر سكان الأندلس العجم أو المستعربون، كما كان فى المجتمع الأندلسى قسم كبير من الموالى ظهروا بكثرة فى القرن العاشر كما كان يوجد من ضمن عناصر الأندلس قسم كبير من النصارى واليهود. إن هذه العناصر والفئات التى كونت المجتمع الأندلسى والتى أكسبته سمات خاصة لا توجد فى أى مجتمع آخر وذلك بسبب تعقيدة الوضع وعدم تحقيق الانسجام والتوفيق بين عناصر المجتمع الأندلسى الواحد، وقد ظلت هذه العناصر شوكة مؤرقة لحكام الأندلس وكانت سببًا لاضطرابات دموية ونزاعات مريرة طوال عصر المسلمين فى الأندلس، ولم تهدأ أو تستقر إلا فى القرن الرابع الهجرى -العاشر الميلادى حيث استطاع الخليفة عبد الرحمن الناصر ومن جاء بعده استخدام القوة فى وجه من يبز منها نحو الفتنة.

إن هذا التكوين المعقد قد صدر عنه العديد من المشاكل لم تظهر إلا فى هذا المجتمع، فإذا كان هذا المجتمع يضم بجانب العرب الفاتحين عددًا لا بأس به من غير العرب من بربر ومسالمة ومولدين ويهود ونصارى فإنه من الملاحظ سيادة لغة العرب عما سواها، فهى لغة التفكير ولغة التأليف وهى اللغة الرسمية، كما أن الثقافة التى سادت كانت هى الثقافة الإسلامية المستنيرة بروح الإسلام سواء كانت تلك الثقافة أو الحضارة أو الفن أو العمران أو التنظيم والإدارة والقانون، فنرى اللغة العربية والثقافة الإسلامية والروح الإسلامية واضحة تماما على الرغم من قلة عدد العرب إذا ما قورنت بأعداد البربر.. فما تفسير هذه الظاهرة؟ إن الإجابة عن هذا التساؤل سوف تتضح عند حديثنا عن التكوين الاقتصادى والاجتماعى للمجتمع الأندلسى والمكانة التى احتلتها الأسر العربية فى هذا التكوين.

لقد كان النظام السياسى الذى ساد هذا المجتمع مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بالتكوين الاقتصادى، فقد كانت الدولة آنذاك أداة بيد الطبقة المالكة المسيطرة على وسائل

الإنتاج لفرض إرادتها على المجتمع، كما كانت القوانين والأعراف والعادات وسائل بيد الدولة للمحافظة على مصالح الطبقات المسيطرة، فالزراعة فى المجتمع الأندلسى التى كانت وسيلة الحياة الرئيسية، ظهرت فيها طبقتان الأولى وهى طبقة الملاك الذين يمتلكون الأرض وهى أغنى طبقات المجتمع وأكثرها ثراء وتسمى الطبقة الارستقراطية أو الخاصة والقابضة على زمام الحكم والمسيرة لدفة الأمور والموجهة للثقافة والفن.. إلخ، والطبقة الثانية هى طبقة الفلاحين الذين يرتبطون برباط التبعية وإلى جانب هاتين توجد طبقة العبيد التى ترتبط هى أيضا بالملاك برباط التبعية وتستخدم قوتها فى العمل لأسيادها. وما يقال عن الزراعة يقال عن الصناعة والتجارة أيضا فقد ظهرت طبقة من أصحاب الأعمال الذين لم تسمح لهم على وجه العموم وسائل عملهم الحصول على ثروات ضخمة ولكنها مع ذلك تعيش فى مستوى مختلف باختلاف الأشخاص وأعمالهم وباختلاف الظروف العامة إلى جانب هذه الطبقات، وقد وجدت فى المدن الكبيرة أعداد كبيرة من الناس يكسبون العيش بواسطة الأعمال التى تتطلبها الصناعة والتجارة أو بتأجير قوتهم على العمل إلى الطبقات الأخرى لتنفيذ أغراضها ويطلق على هذه الطبقة اسم العامة، وبالإضافة إلى هذه الطبقات توجد طبقة المرتزقة من الجنود الذين يستقدمهم الملوك من داخل البلاد أو من خارجها قوة مسلحة لحفظ الأمن الداخلى وللنزاعات الخارجية، وهذه الطبقة مرتبطة بالطبقة الحاكمة برباط التبعية أيضا، وهذه الطبقات التى ذكرناها تربطهم -على الرغم من اختلاف أعمالهم- روابط مشتركة ومصالح عامة تحدد علاقاتهم مع بعضهم البعض وتصب فى النهاية فى خدمة الطبقة الخاصة الارستقراطية «الأندلسية».

وقد كانت الدولة فى الأندلس منذ الفتح الإسلامى أداة فى يد الفاتحين للاحتفاظ بالوضع الاقتصادى الجديد الناشئ عن اقتسام الفاتحين الجدد للأرض وقد كانت هذه المهمة يشوبها فى أغلب الأحيان نزاع شديد وقتال عنيف للاستئثار بالحكم، كما لاحظناه فى الحقب الأولى من حقب المسلمين فى الأندلس حيث ظهرت الخلافات القبلية بين القيسية واليمانية أو بين العرب والبربر، انتهت تقريبا بمجئ عبد الرحمن

الداخل حيث سيطر على الحكم من خلال تلك النزاعـات. والمتتبع لتاريخ الأمويين فى الأندلس يتضح له بجلاء ظهور تلك الطبقة الثـرية الخاصة الارستقراطية فكانت هى الطبقة التى بيدهـا النفوذ السياسى والاجتماعى والاقـتصادى، وهى ذات الثراء والملكية الواسعة، ومـا سمعناه عن عبد الرحمن الناصـر فى بناء مدينة الزهراء وما أنفق من أموال طائلة فى بنائهـا وتزيينها ثم ما قام به بنو عامـر من بعده الذين بنوا مدينة الزاهرة. . كل هذه الأحاديث تقدم لنا نموذجا واضـحا ومثالا دالا على المركز المالى والاقتصادى الذى كان يتمـتع به الحكام آنذاك، فغالبا لم تكن هناك أية حدود فاصلة بين بيت المال والخزينة الملكيـة الخاصة. وامتدت تلك الطبقات الارسـتقراطية مع التاريخ وازدادت ثراء فى مـختلف المدن الأندلسيـة، وقد ظهر تأثير الثـراء لهذه الأسر عند انحلال الخلافـة الأموية فى قرطبة وظهور عهـد ملوك الطوائف، فهؤلاء الملوك ما هم إلا أسـر ارستقـراطية تمردت فى مـختلف المدن الأندلسـية، وتطلعت للاستئثار بالنفوذ السياسى فى مناطقها واسـتغلالها لمصالحها الخاصة، فتروى المراجع أن بنى عبـاد الذين حكموا أشبـيلية كانوا قـبل توليتهم الحكم يمـتلكون ثلث كورة أشبيلية، ويذكر ابن الآبار وغيـره أن بنى طاهر الذين تولوا حكم مدينة مرسية كانوا يمتلكون نصف المدينة، أمـا أبو الحزم بن جهـور الذى تولى حكم قرطبة فقـد كان أغنى أهلها وأفحشهم ثراء[١].

ثم عـمل هؤلاء الأمراء وهم المنـفردون بالحكم على زيـادة ثرواتهم بطرق غيـر مشـروعة من أهمها مـصادرة ممتلكات منافسيـهم أو غيرهم من أغنيـاء المدينة بعد اتهامه بشتى التهم، كما فعل القاضى أبو القاسم بن عباد وابنه المعتضد حيث صادر كل منهما أمـوال معظم أغنياء مقاطعتـهما واستحوذا على أمـلاكهم، ثم بعد ذاك أضاف كل مـنهما تلـك الأموال إلى ثروته الخـاصة[٢]. ومن الوسـائل أيضا غيـر المشروعة أن يجبر الأمراء المالكين الصغـار على ترك أراضيهم لقاء حمايتهم إياه أو

(١) انظر الذخيـرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسـام الشنتريني ق١ ج٢ص١١٦. وانظر أشبيليـة فى القرن الخامس الهجرى. الدكتور صلاح خالص. دار الثقافة ١٩٦٥م ص٤٠ - ٤٣.

(٢) انظر المصدر السابق ونفس الصفحة.

أن يشتغل لقاء حصة معينة يأخذها من الإنتاج فإن رفضوا فيثقلون كاهلهم بالضرائب الباهظة حتى يعجزوا عن الدفع فيضطروا لترك أراضيهم لرغبة أمير المدينة، أما الطريق الثالث الذى كانت تسلكه الارستقراطية الحاكمة لزيادة ثروتها فهو إثقال كاهل الشعب بالضرائب الباهظة أو توسيع رقعة المملكة بالوسائل العسكرية[١].

وقد أدت سيطرة تلك الطبقة الارستقراطية إلى نفوذ مادى ومعنوى كبير تمتعت به هذه الطبقة مما كان له أعمق الأثر فى الحياة الفكرية والأدبية والثقافية للمجتمع وقد مكنها ذلك الصراع من الاعتداء على جيرانها الأقل ثراء والسطو على ممالكهم ثم ضمها إليهم أو الاستعانة بالعدو ألفونسو الثالث ليؤازره فى حربه ضد أخيه المسلم إن لم يقو عليه نظير جزية يدفعها إليه. وهكذا أدت تلك الارستقراطية فى النهاية إلى أن يتباغض ملوك الطوائف وأن يتنازعوا فيما بينهم مما أدى إلى تمزق دولة المسلمين بالأندلس وتفسخها وانحلالها حتى صارت دويلات لا حول لها ولا قوة، كل همها الأكبر أن تصالح أعداءها وتدفع الجزية ليساندوهم فى دوام الملك.

وما أشبه الليلة بالبارحة فما حدث لدول الطوائف يحدث اليوم لأمتنا العربية التى تمزقت إلى دويلات متباغضة هنا وهناك، تسارع كل منها لإرضاء القوة المنفردة فى المنطقة والمهيمنة عليها، وهكذا نجد ملوك العرب ورؤساءهم اليوم يلجأون إلى أمريكا ويبيعون مصالح الأوطان ويضحون بوطنيتهم من أجل البقاء فى الملك ومن ثم ظهرت الحكومات الشمولية والملوك المستبدون، كل يجرى من أجل أن يكون له دور فى مستقبل الشرق الأوسط الجديد.

❁❁❁

(١) البيان المغرب ج٣ ص٢٦٤، وابن عبدون رسالة فى الحسبة ص١٦٩؛ لتقف على الكثير من الجرائم والأساليب التى ارتكبتها الارستقراطية ضد الشعب لزيادة ثرواتها.



الفصل الثاني:

عهدا الفوضى.. والكفاح

أولاً: عهد الفوضى والانحلال
ثانيًا: عصر الكفاح
ثالثًا: المرابطون والموحدون وحركة التغيير
رابعًا: من مثالب المرابطين والموحدين

أولاً: عهد الفوضى والانحلال

عرفنا مما سبق أن الأندلس تقلبت بين مرحلتين متباينتين كل التباين، ففى منتصف القرن الرابع الهجرى وحتى أواخر هذا القرن بلغت ذروة القوة والتماسك فى ظل رجال عظام أمثال عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر والحاجب المنصور، ثم بدأت تنحدر فجأة إلى الفتنة والاضطراب والحرب الأهلية المدمرة فى أواخر القرن الخامس لتصبح أشلاء لا تربطها أية رابطة مشتركة، وقد كانت بالأمس تلتئم دولها ومدنها فى عقد منتظم واسطته مدينة قرطبة العظيمة وتتلألأ فى ظل حكومة الخلافة القوية، أما بعد ذلك فقد تبعثر وانفرط عقد هذه الدويلات وأصبحت حبات متفرقة منفردة حائرة تقوم فى كل منها حكومة محلية هزيلة على رأسها متغلب من أهل العصبية أو الرياسة يسيطر على أقدارها لحساب نفسه، ثم بعد ذاك نراها تخوض غمار سلسلة لا نهاية لها من الفتن والحروب الأهلية الصغيرة وتُنسى خلال هذه الفترة الخطيرة التى أغفل عنها هؤلاء الملوك المتغلبون ألا وهى قضية الأندلس الكبرى قضية الحياة أو الموت أو بعبارة أخرى قضية الصراع ضد عدو يتبنى سياسة الاسترداد وطرد المسلمين من الأندلس.

إن انتثار شمل الأندلس على هذا النحو لم يكن سوى نتيجة طبيعية للعوامل السياسية والاجتماعية التى توالت فى الحقبة السابقة وهى فترة الإمارة وصراع الإمارة والخلافة أى إلى بداية قيام الدولة الأموية ذاتها إذ دأب زعماء بنو أمية فى الأندلس منذ عبد الرحمن الداخل أن يعملوا بكل وسعهم للاستئثار بالسلطة وإخماد النزعة القبلية وتحطيم الزعامات والرياسات العربية المحلية والقضاء عليها، وقد بلغ هذا الصراع بين السلطة المركزية وبين المتسلطين عليها من البيوتات العربية ذروته فى أواخر القرن الثالث الهجرى إبان اضطراب الفتنة الكبرى وتفاقم ثورة المولدين والعرب، فى عهد الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن ٢٧٥-

٣٠٠هـ حينما اندلع لهيب الثورة فى كل ناحية من نواحى الأندلس، وظهر الزعماء العرب والبربر فى معظم النواحى واستقلت معظم الكور والمدن الكبيرة عن قرطبة وقد استطاع عبد الله بن محمد أن يخمد الثورة فى كثير من النواحى، وأن ينقذ سلطان بنى أمية من الخطر الداهم ثم جاء من بعده عبد الرحمن الناصر فأتم المهمة وقضى على جذور الفتنة من أساسها وعمل على تدعيم سلطانه بكل الوسائل، فاشتد فى مطاردة القبائل والأسر العربية ذات البأس والعصبية وقضى على رياستها وزعاماتها المحلية، ومال إلى اصطناع الموالى والصقالبة وأولاهم النفوذ والثقة فاستأثروا فى عهده بأرفع المناصب فى القصر وفى الحكومة والجيش، وكان من جراء ذلك أن انصرفت القبائل العربية عن الولاء له وكان تخاذلها فى نصرته يوم موقعة الخندق الشهيرة سنة ٣٢٧هـ يرجع من وجوه كثيرة إلى سخط الزعماء العرب لسياسته فى إذلالهم وسحق نفوذهم ومكانتهم.

وكذلك المنصور بن أبى عامر لم يحد عن تلك السياسة حين استولى على الملك فى تدعيم حكومته المركزية وسحق كل سلطة محلية، وعلى الرغم من أنه ينتمى إلى بيت من أكرم البيوتات العربية إلا أنه عمل على سحق العصبية العربية وعمل فى نفس الوقت على سحق عصبية الفتيان الصقالبة ولم يستبق منهم إلا أقلية مخلصة، وآثر أن يعتمد بصفة عامة على ولاء البربر وكان منهم معظم قادة الجيش وكان منهم خلفاء المنصور وعماله فى المغرب، وكان من جراء نظام الطغيان المطلق الذى فرضه المنصور على الأندلس أيضا والذى استمر قرابة ثلاثين عاما أن توارت معظم الزعامات والعناصر النابهة فى المجتمع الأندلسى من الميدان ولكنها لبثت فى مكامنها وعزلتها ترتقب فرصًا للظهور والعمل وإثبات الذات، ومن جهة أخرى فقد كان هذا النظام المطلق الذى فرضه المنصور على الأمة الأندلسية يخفى فى ثناياه كثيرا من عوامل الهدم والانتقاض، فقد كانت سائر العناصر التى تعاونت فى إقامته وتدعيمه يتربص بعضها ببعض ويخشى كل منها على مركزه وسلطانه وكانت ثمة معارك خفية تجرى بين البربر وخصومهم من الصقالبة فى القصر وفى الحكومة، وكان بنو أمية يميلون إلى الصقالبة مواليهم القدماء ويكرهون البربر إذ

كانوا سندا للمنصور فى استلاب سلطانهم، وكانت البطون العربية تكره هؤلاء وهؤلاء ولكنها ترى فى البربر خصمًا لها وهو من آثار الخصومة القديمة التى كانت تشتعل بين العنصرين منذ عصر الفتح.

وهكذا اجتمعت هذه العوامل لتحدث أثرها فى الوقت الملائم، واجتمعت فى ظلها العناصر الناقمة من سائر الطبقات، فلما وقع الانفجار وانهارت الدولة العامرية ظهرت فى ميدان النضال أربع قوى:

١- بنو أمية: يلتفون حول علم خلافتهم وتراث بيتهم المغصوب.

٢- طوائف البربر: تحاول الاحتفاظ برياستها وامتيازاتها.

٣- الأسر العربية التى اضطهدت وأبعدت عن الميدان تحاول استرداد مكانتها وزعامتها القديمة.

٤- ظهرت إلى جانب هذه القوى الثلاث طائفة الفتيان الصقالبة أو الفتيان العامريين.

وأسفر النضال بين هذه القوى المتخاصمة، بعد فوز البربر برياسة المناطق التى سبق ذكرها، عن فوز الأسر العربية بمعظم القواعد الأندلسية الكبرى، مثل قرطبة وأشبيلية وسرقسطة وبلنسية ومرسية وألمرية. واستطاع الفتيان العامريون أن يبسطوا سلطانهم على معظم المناطق الشرقية وعلى ألمرية لفترة قصيرة.

وأضحت الأندلس فى أواخر النصف الأول من القرن الخامس الهجرى كصرح شامخ انهارت أسسه وتصدع بنيانه وتناثرت أشلاؤه وتعددت الرياسات فى أنحائها لا تربطها رابطة، ولا تجمع كلمتها مصلحة مشتركة بل ساد بين ملوكها المنافسات والأطماع الشخصية واضطرمت بينهم الحروب الأهلية، كل هذا وقد غاب عنهم أن أمام أعينهم وراء الجبال عدواً كبيراً هو ألفونسو السادس ملك قشتالة النصرانية، يتربص بهم ليسترد دويلات الأندلس واحدة وراء الأخرى وأصبح العدو آنذاك يمثل القوى الكبرى، ومن ثم أخذ هذا الأجنبى يلعب بهم ألاعيبه ويزيد العداوة والبغضاء بين نفوسهم حتى أصبحوا مسلمين متنابذين.

يقول ابن الخطيب: «وذهب أهل الأندلس إلى الانشقاق والانشعاب والافتراق إلى حيث لم يذهب كثير من أهل الأقطار مع امتيازها بالمحل القريب والخطة المجاورة لعباد الصليب، ليس لأحدهم فى الخلافة ولا فى الأمارة سبب، ولا فى الفروسية نسب، ولا فى شروط الإمامة مكتسب. اقتطعوا الأقطار واقتسموا المدائن الكبار وجبوا العمالات والأمصار، وجندوا الجنود وقدموا القضاة وانتحلوا الألقاب، وكتب عنهم الكتاب الأعلام وأنشدهم الشعراء ودونت بأسمائهم الدواوين وشهدت بوجوب حقهم شهود، ووقفت بأبوابهم العلماء وتوسلت إليهم الفضلاء، وهم ما بين محبوب، وبربرى مجلوب، ومجند غير محبوب، وغفل ليس فى الثراة بمحسوب، ما منهم من يرضى أن يسمى ثائرًا ولا لحزب الحق مغايرًا، وقصارى أحدهم يقول: «أقيم على ما بيدى حتى يتعين من يستحق الخروج به إليه»، ولو جاءه عمر بن عبد العزيز لم يقبل عليه ولا لقى خيرا لديه، لكنهم استوفوا فى ذلك آجالا وأعمارا، وخلفوا آثارا وإن كانوا لم يبالوا اضطرارا من معتمد ومعترض، ومرتضى وموفق، ومستكف ومستظهر، ومستعين ومنصور، وناصر ومتوكل كما قال الشاعر:

مما يزهدنى فى أرض أندلسٍ ... سماع مقتدر فيها ومعتضد

ألقاب مملكة فى غير موضعها ... كالهر يحكى انتفاخًا صولة الأسد[(١)]

ولقد كان تمزق الأندلس على هذا النحو ضربة لم تنهض الأندلس من آثارها قط بل كان بداية عهد الانحلال الطويل الذى ما لبثت تتقلب فيه بعد ذلك زهاء أربعة قرون أخرى.

وإذا كنا سنتحدث فى عجالة عن فترة ملوك الطوائف فإنها حقبة تبلغ السبعين عاما تبدأ منذ سقوط الدولة العامرية وإعلان انتهاء الخلافة الأموية إلى سيطرة المرابطين على بلاد الأندلس. وإذا تأملنا رقعة الوطن الأندلسى إبان عصر الطوائف وقد انقسمت عقب الفتنة من الناحية الإقليمية لوجدناها ست مناطق رئيسية:

---

(١) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب. عبد الواحد للمراكشى. حققه محمد سعيد العريان ص١٢٣، ص٤، وانظر أعمال الأعلام طبعة بيروت ص١٤٤.

١- منطقة العاصمة القديمة قرطبة وما إليها من المدن والأراضى الوسطى.

٢- منطقة طليطلة أو الثغر الأوسط.

٣- منطقتا أشبيلية وغرب الأندلس وما إليها من الأراضى حتى المحيط الأطلنطى.

٤- غرناطة وريه والفرنتيره.

٥- منطقة شرق الأندلس أو بلنسية وما إليها شمالا وجنوبا.

٦- منطقة سرقسطة والثغر الأعلى. هذا بالإضافة إلى عدد كبير من المدن والقواعد الأندلسية اعتبرت إمارات قائمة بذاتها داخل منطقة أو أخرى ثم اختفت تباعا بالانضمام أو الخضوع إلى إحدى الإمارات الكبرى[١].

لقد شغل عصر الطوائف من حياة أمة المسلمين فى الأندلس نحو ثمانين عامًا كان أغلبه عصر تفكك وانحلال سياسى واجتماعى، فهذه الدويلات الصغيرة كان ينقصها الاستقلال السياسى والمنعة العسكرية، لذا لم تعرف تلك الحكومات الاستقرار الذى يؤدى إلى العمل وإلى خير الشعب ورخائه، وكان يحكم تلك الدويلات أسر أو زعامات تعمل لمصلحتها الخاصة وتنمية ثرواتها وتدعيم سلطانها قبل مصلحة الشعب، والشعب هذا لم يشكل عند الحكام إلا مصدرًا من مصادر المال وجباية الضرائب لتنفيذ مشاريعهم السياسية والعسكرية، وهذه المشاريع لا تخلو غالبًا من مهاجمة زميله أو مهاجمة جاره الأضعف منه وانتزاع ما فى يده دون أن يلتفت هؤلاء الحكام إلى القضية الأم وهى قضية الأندلس ضد عدوها الذى يتربص بها.

ما أشبه ملوك الطوائف بحكام العرب اليوم فهم ينزعون مثلهم إلى الاستبداد وضعف الوازع الدينى وفقد الانتماء إلى عروبتهم وإسلامهم وفشت بينهم الكراهية والبغضاء وإثارة الشائعات وصناعة المؤامرات، وليت الأمر يقف عند هذا الحد بل لجأوا إلى الأجنبى يستعينون به مما أدى إلى خضوعهم وانطوائهم تحت ركابه حتى

(١) انظر محمد عبد الله عنان. ملوك الطوائف ص٤٦٠.

فقد كل منهم قدرته على صناعة القرار السياسى أو العسكرى وأصبحوا اليوم جميعهم لا حول لهم ولا قوة.

ويكفينا فى هذا المقام أن نستعرض موقف هؤلاء الملوك إزاء نكبة طليطلة وتخاذلهم جميعا عن إنجادها وقت أن حاصرها ملك قشتالة وصمم على اقتناصها وهم جميعا ينظرون إلى غروب المدينة المسلمة وضياعها من أيدى المسلمين، فقد وقفوا جامدين لا يطمعون إلا فى رضا ملك قشتالة وفى سلامة أنفسهم، وكان هذا الملك يعاملهم كما قرأنا فى أكثر من موضع معاملة الأتباع ويبتز منهم الأموال الطائلة باسم الجزية ويعامل رسلهم وسفراءهم معاملة الخدم، واقرأ ما كتبه ابن بسام فى كتابه الذخيرة وهو يصف مثول سفراء ملوك الطوائف لدى ملك قشتالة وقت نزوله أمام طليطلة وهى على وشك التسليم إليه وما كان يتسم به موقفهم من المذلة والخنوع وفقدان الكرامة والشهامة[1].

إن سقوط مدينة طليطلة فى أيدى ملك قشتالة كان وفق خطة منظمة قد خطط لها ذلك الملك على مراحل متعددة؛ إذ استطاع أن يخضع ملوك الطوائف لوعيده وأن يتعهدوا له بدفع الجزية إلا ملك بطليوس عمر المتوكل. وبخضوع هؤلاء الملوك له أيقن ألفونسو السادس ملك قشتالة أن الطريق أصبح ممهدا لتنفيذ مشروعه «إسقاط طليطلة» ومما قوى أمله أن أهل طليطلة أنفسهم لم يكونوا على وفاق فيما بينهم، وقد شن ألفونسو العديد من الحملات المتوالية على أراضى طليطلة سواء لمصلحته الخاصة أو بحجة معاونة حاكمها القادر بن ذى النون ضد الثوار عليه، لقد خربت تلك الحملات سهول طليطلة وربوعها النضرة وشاع فيها الفقر والبطالة، وقد استمرت حملات ملك قشتالة على المدينة أربع سنوات كاملة وكانت تلك الحملات يساعدها من الداخل أولئك المدجنون أى الموالى لملك النصارى. ولم تجد تلك الحملات من المسلمين أحدا يصدها أو يرد ذلك الملك العابث، ومن ثم انتهى الأمر بالقضاء على موارد طليطلة وتجريدها من وسائل الدفاع وهذا يذكرنا اليوم بحصار اليهود لغزة فى هذه الأيام.

---

(١) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص١٢٩، ١٣٠.



وهكذا استطاع ملك قشتالة بدهائه أن يجردها فعلا من كل وسائل الدفاع سواء وسائلها الخاصة أو وسائل الدفاع للدول المجاورة لها، فالمعتمد ابن عباد مثلا والذى يعد أكبر قوة فى المنطقة تفاهم مع ألفونسو السادس على أن يتركه وشأنه نحو طليطلة لأنه كان مشغولا بحرب عبد الله بن بلكين بن باديس صاحب غرناطة، كما كان المقتدر بن هود أقوى الأمراء المجاورين لطليطلة من ناحية الشمال والشرق مشغولا بنضاله المستمر ضد هجمات ملك أراجون وأمراء برشلونة، أما دول الطوائف الشرقية والجنوبية فقد كانت بعيدة عن ميدان الخطر ولا تستطيع أن تساهم بالنجدة لبعد المسافة ومشقتها، وهكذا عدمت طليطلة كل مصدر للعون الحقيقى، كل ذلك وألفونسو السادس ماض فى غزواته المدمرة ولم يخف على الحكام المسلمين أن سقوط طليطلة إحدى قواعد الأندلس العظمى فى يد قشتالة إنما هو بداية السقوط النهائى للأندلس وأن انهيار الحجر الأول فى صرح الدولة الإسلامية إنما هو بداية انهيار الصرح كله، وقد أدرك ذلك بعض العقلاء من المسلمين فبادرت جماعة منهم إلى حث هؤلاء الملوك على الاتحاد واجتماع الكلمة إزاء الخطر المشترك، ونهض القاضى العلامة أبو الوليد الباجى فطاف بالولايات والقواعد الأندلسية صائحًا منذرًا من عواقب التفرق وهو يهيب بملوك الطوائف وشعوبها أن يبادروا إلى نجدة طليطلة مؤكدا أن ملك قشتالة سوف يسحق دول الطوائف كلها واحدة بعد الأخرى، ولكن أولئك العقلاء الذين استشرفوا المستقبل قد ضاعت آراؤهم سدى وغلبت الأطماع والأهواء الشخصية ولم يتقدم لإنجاز طليطلة سوى أمير بطليوس عمر المتوكل الذى بعث ولده الفضل والى مردة بجيش قوى لرد ألفونسو عن طليطلة ولكنه لم يستطع مغالبة قوى النصارى الصليبية المتغلبة عليه فى العدد والعدة فارتد بعد أن خاض معارك دامية لم تسفر عن شيء، وإليك شروط تسليم طليطلة كما صيغت آنذاك: «أن يؤمن أهل المدينة فى النفس والمال وأن يغادرها من شاء منهم حاملين أموالهم وأن يسمح لمن عاد منهم باسترداد أملاكهم وأن يؤدى المقيمون بها إلى ملك قشتالة ما كانوا يؤدونه لملوكهم من الضرائب والمكوث، وأن يحتفظ المسلمون إلى الأبد بمسجدهم الجامع وأن يتمتعوا

أحرارا بإقامة شعائرهم وأن يحتفظوا بقضاتهم وشريعتهم، وأن يسلموا إلى ملك قشتالة سائر القلاع والحصون والقصر الملكى والمنية المصورة التى كان ينزل بها ملكهم، أما بالنسبة للقادر بن ذى النون فقد تكفل ملك قشتالة بأن يمكنه من الاستيلاء على بلنسية وقيل بل عرض عليه أيضا أن يحصل له على دانية وشنتمرية الشرق، إذ كان يعرف جيدا أنها إذا خلصت للقادر فستكون فى الواقع ملكا له ورهن تصرفه وأن القواعد الشرقية كلها سوف تخضع له عن طريق ملكها الاسمى الضعيف أعنى القادر[1].

ويصف لنا ابن بسام خروج القادر من طليطلة فى تلك العبارات اللاذعة «وخرج ابن ذى النون خائبا مما تمناه، شرقا بعقبى ما جناه، والأرض تضج من مقامه وتستأذن فى انتقامه، والسماء تود لو لم تطلع نجما إلا كدرته عليه حتفا مبيدا، ولم تنبئ إلا مطرته فيه عذابا شديدا، واستقر بمحلة أدفونش مخفور الذمة، مذال الحرمة، ليس دونه باب، ولا دونه حرمة ستر ولا حجاب»[2].

وقد كان ملوك الطوائف فى سياستهم الداخلية وتعاملهم مع شعوبهم لا أفضل موقفا ولا أكرم تصرفا مما سبق ذكره، فقد كانوا طغاة قساة يسومون الرعية الخسف ويثقلون كواهلهم بالمغارم لملء خزائنهم، ولم يكن يردعهم فى ذلك رادع دينى ولا أخلاقى، لذا سخط عليهم الجميع وطعن فيهم كثير من الكتاب والمفكرين المعاصرين لهم، فابن حزم الفيلسوف المسلم المعاصر لم يرض عن فتنة الطوائف تلك وأمرائها المستهترين وحكوماتها الباغية فيقول فى رسالته «التلخيص لوجوه التخليص»إذ سأله بعض أصدقائه سؤالا يتعلق بأمر الفتنة فرد ردودا قاطعة تدمغ مجتمع الطوائف بشدة وقسوة فهو يصف فتنة الطوائف وتصرفات ملوكها على النحو الآتى: «وأما ما سألتم من أمر هذه الفتنة وملابسة الناس لها مع ما ظهر من تربص بعضهم ببعض فهذا أمر امتحنا به نسأل الله السلامة، وهى فتنة سوء أهلكت الأديان إلا من وقى الله تعالى من وجوه كثيرة يطول لها الخطاب، وعمدة ذلك أن كل مدبر مدينة أو حصن فى شىء من أندلسنا هذه أولها عن آخرها،

(١) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص١٢٩، ١٣٠.

(٢) المصدر السابق١٣٠

محارب لله تعالى ورسوله وساع فى الأرض بالفساد، والذى ترونه عيانا من شنهم الغارات على أموال المسلمين من الرعية التى تكون فى ملك من ضارهم، وإباحتهم لجندهم قطع الطريق على الجهة التى يقضون على أهلها ضاربون للمكوس والجزية على رقاب المسلمين مسلطون لليهود على قوارع طرق المسلمين فى أخذ الجزية والضريبة من أهل الإسلام، معتذرون بضرورة لا تبيح ما حرم الله، غرضهم فيها استدامة نفاذ أمرهم ونهبهم فلا تغالطوا أنفسكم ولا يغرنكم الفساق والمنتسبون إلى الفقه اللابسون جلود الضأن فى قلوب السباع، المزيفون لأهل الشر شرهم، الناصرون لهم على فسقهم»[1].

ويشير ابن حزم إلى طبقة الفقهاء فى هذا المجتمع الذى ساد فيه الانحلال والفوضى الأخلاقية والاجتماعية إذ كانوا أكبر عرض لأمراء الطوائف فى تبرير طغيانهم وظلمهم وتصرفاتهم وابتزازهم لأموال الرعية، وقد كان هؤلاء الفقهاء يأكلون على كل مائدة ويتقلبون فى خدمة كل قصر ليحرزوا النفوذ والمال فى مقابل تأييدهم للظلم والجور وخديعة الناس باسم الشرع. يقول ابن حيان المؤرخ المعاصر لهذه الأحداث عن تضامن هؤلاء الفقهاء مع الأمراء ظلما وخروجهم على أحكام الدين: «ولم تزل آفة الناس مذ خلقوا فى صنفين كالملح: فيهم الأمراء والفقهاء قل ما تتنافر أشكالهم، بصلاحهم يصلحون وبفسادهم يفسدون، وقد خص الله تعالى هذا القرن الذى نحن فيه من اعوجاج صنفيهم لدينا بما لا كفاية له ولا مخلص منه، فالأمراء القاسطون قد نكبوا بهم عن نهج الطريق زيادة عن جماعة وجريًا إلى الفرقة، والفقهاء أئمتهم صموت عنهم، صدف عما أكده الله عليهم من التبيين لهم، قد أصبحوا بين آل من حلوائهم وخابط فى أهوائهم[2]، وبين مستشعر مخافتهم آخذ بالتقية فى صدقهم[3].

---

(١) نقلا عن محمد عبد الله عنان. دولة الإسلام فى الأندلس ج٣ ص٤٢٠.

(٢) تشير الفقرة إلى تضامن بعض الأمراء الحكام مع بعض الفقهاء فى ظلم الرعية ونشر الفساد فى الأرض من أجل مصالحهم الخاصة وقد ظهر فى تلك الفقرة مدى نفاق الفقهاء مع الحكام. الأمراء القاسطون: العادلون. نكبوا بهم عن نهج الطريق: أبعدوهم عن الطريق السوى لصالح الجماعة. صدف: أعرض. من حلوائهم: أى صاروا منهم. خابط: خبط عشواء أى يأتى ما يأتى بجهالة. انظر المعجم الوجيز.

(٣) البيان المغرب ج٣ ص٢٥٤.

ومما يؤسف له حقا أن تفرق هؤلاء الملوك وتكالبهم على المناصب والرفعة يعد سفها وإثمًا كبيرا يدل على أن هؤلاء الملوك قد فقدوا كل تمييز، ولا هم لهم إلا أن يبز منافسه فى المكانة بين الناس ويستولى على ملكه، قال ابن حزم رحمه الله: «فضيحة لم يقع فى الدهر مثلها أربعة رجال فى مسافة ثلاثة أيام يسمى كل واحد منهم بأمير المؤمنين ويخطب لهم فى زمن واحد؛ أحدهم فى أشبيلية والثانى بالجزيرة الخضراء والثالث بمالطة والرابع بسبتة.

وتفرقوا شيعًا فكل محلة فيها أمير المؤمنين ومنبر

فكيف يكون فى هذه المنطقة أربعة خلفاء فى آن واحد أو أربعة أمراء للمسلمين، وما وجد هذا اللقب إلا ليوحد المسلمين على خلافة واحدة. ومن المستحسن أن نربط بين حال ملوك الطوائف فى الأندلس وحالنا نحن العرب اليوم، أعتقد أن الحالة مشابهة فكل منهما شتات وتفرق بعدما كانا وحدة وقوة فمسلمو اليوم -كما نراهم- مقسمون ومتفرقون فى دويلات هزيلة لا يملك حاكمها أمر نفسه بل لا يملك أمر قراره، فلابد أن يتخذ أوامره من أسياده مترددا على موائد الغرب وقد استخفوا بهم وامتلكوا رقابهم وباعدوا الهوة بينهم وبين رعاياهم، فانفصمت العلاقة التى من أجلها وجدوا. ولم تبق إلا السجون والمعتقلات والقنابل المسيلة للدموع.

وظل ملوك الطوائف على هذا النحو سالف الذكر ما يقرب من الثمانين عاما عاشها المسلمون فى نكد وفزع والعدو الأسبانى قد نشط مصمما على استرداد بلاد الأندلس، ونخص بالذكر ألفونسو السادس مسعر فكرة الاسترداد والتى ألهب بها ظهور ملوك الطوائف وأخذ يسترد البلاد بلدًا وراء أخرى وكأنه يتفقد خارطة طريق كالتى منى بها العرب والمسلمون اليوم.

❁❁❁

ثانياً: عصر الكفاح

إن أمتنا العربية بجناحيها الشرقى والغربى قد واجهت قوى الصليبيين فى آن واحد وقد قيض الله للمسلمين من يجمع صفوفهم ويوحد كيانهم ويقودهم من نصر إلى نصر، فكان الأيوبيون وعلى رأسهم عماد الدين زنكى وابنه نور الدين ممن يتصدون لتلك الحملات فى المشرق الإسلامى، وقد استطاع البطل المجاهد «صلاح الدين الأيوبى» أن يتصدى لتلك الحملات وأن يحقق انتصاره الرائع فى معركة حطين. بينما قاد المسلمين فى الجناح الغربى فى «المغرب والأندلس» البطل «يوسف بن تاشفين» زعيم دولة المرابطين ومن بعده البطل «عبد المؤمن بن على» «وأبو يعقوب المنصور» من خلفاء دولة الموحدين.

وإذا كان ينبغى علينا أخذ العظة من أحداث التاريخ فلنقف وقفة تأمل وتدبر لفكرة الجهاد التى قامت عليها هاتان الدولتان السابق ذكرهما «المرابطون والموحدون» فقد اندفعت جيوشهما نحو الأندلس لتجاهد فى سبيل الله وتصد جحافل النصارى بجانب إخوانهم المسلمين فى الأندلس فى فترة حرجة تعرضت فيها دولة الإسلام للإبادة والموت المحقق.

فقد كان حال الأندلس الإسلامية بعد سقوط الخلافة الأموية فى تمزق وتفسخ وانحلال سياسى حيث توزعت البلاد إلى دويلات يحكم كل واحدة منها ملك استبد بنفسه فى الحكم وهو ما يعرف بعصر الطوائف-كما ذكرنا سابقا-، والغريب أنهم كانوا يستعينون بألفونسو السادس ملك قشتالة عدوهم والقوة الكبرى المتحكمة فى منطقة الأندلس آنذاك، مما جعله يستخف بهم ويؤلب أحدهم على الآخر ويرهقهم بالضرائب الباهظة ويحاصر المدن ويشغلهم فى حروب مستمرة أنهكت قواهم، ومن ثم أخذت مدن الأندلس تتساقط فى يديه تباعًا باذلاً كل جهده لاسترداد أرض الأندلس كلها من أيدى المسلمين، ولا يغيب عن بالنا ما نراه اليوم

من استعانة حكام العرب بالأجنبى مما كان سببًا فى فرض الهيمنة الأجنبية على العالم العربى حكامه وشعوبه، فكيف كان العلاج وكيف خطا التاريخ خطوته وانتشل أمة المسلمين بالأندلس من الضياع والوقوع فى قبضة الأجنبى الذى صار قاب قوسين أو أدنى؟ لقد قيض الله لأهل الأندلس رجال دولتين مجاهدتين فى سبيل الله وهم إخوة لهم فى العقيدة والدين عرفهم التاريخ بالشجاعة والمروءة والبأس وهم المرابطون والموحدون.

وقد سمع أمراء الأندلس بدولة المرابطين تلك الدولة المجاهدة الفتية فماذا يفعلون وقد ضاقوا ذرعا وساءت أحوال بلادهم بسبب عدوان ألفونسو المتكرر وعزمه على استرداد بلاد الأندلس وخاصة بعد سقوط طليطلة واختراقه لأراضى أشبيلية وبطليوس وإرهاقهم بالأموال المطلوبة.

ومن هنا ظهرت فكرة استنصار مسلمى الأندلس بإخوانهم المسلمين من حكام دولة المرابطين فى المغرب أملا يداعبهم ثم صارت أمرًا ضروريًا، إلا أنها وجدت معارضة من بعض أمراء الأندلس، فقد كان ثمة ملوك من الطوائف يخشون عواقبها ويحذرون «ابن عباد» ملك «أشبيلية» صاحب فكرة الاستنصار من آثارها ونتائجها إذ قد تؤدى إلى ضياع ملكهم ولكنه أصر على الاستعانة بالمرابطين ورد عليهم بكلمته المأثورة: «راعى الجمال خير من راعى الخنازير» يقصد بذلك أن الأفضل له أن يغدو أسيرا لدى أمير المسلمين يرعى جمالهم من أن يغدو أسيرا لملك قشتالة النصرانى.

ويبدو من كلام «ابن عباد» اقتناعه بأهمية الاستنجاد بالمسلمين وأنه رأى أن شبح سقوط دويلات الأندلس واقع لا محالة وإذا كان الأمر كذلك فإن يقع فى أيدى المسلمين أفضل من أن يقع فى أيدى النصارى عملا بقول على بن أبى طالب: «إذا كنت مأكولا فكن أنت آكلى».

وبالفعل أرسل ابن عباد وفدا إلى بلاط المرابطين فى مراكش يعرض الأمر على يوسف بن تاشفين ملك المرابطين الذى رحب بهم ولبى مطلبهم ووعدهم بكل خير.

وسرعـان ما خف مـسلمو المغرب من المرابطـين لنجدة إخوانهم المسـلمين فى الأندلس وحقـقوا نصـرا رائعا فى معـركة الزلاقـة عام «٤٧٩هـ -١٠٨٧م» وهى معركة مـشتركة من المرابطين والأندلسيين ضد الصليـبين الذين توافدوا من أراجون وبسكونية وحـشد كبير من فـرسان فرنسا وإيطاليـا وغرب أوروبا، جاءوا جمـيعا بجـحـافلهم لهـزيمـة المسلمـين ثـم توالت انتـصـارات المرابطين فى مـعـركـتى أقليش٥٠١هـ ، وموقعـة إفراغة ٥٢٨هـ ثم أعقـبتهم جيـوش دولة الموحدين التى حققت نصرها الرائع فى موقعة الأرك عام «٥٩١هـ- ١١٩١م».

وبذلك الجهد العسكرى المشتـرك لأمة المسلمين فى المغرب والأندلس استطاعت جيوشهم أن تحـقن دماء المسلمين وأن تؤخر سقوط الأندلـس فى أيدى الأسبان ما يقرب من قرنين ونصف القرن.

ومما ينبغى أن نلاحظه فى هذا المجال هو ارتـداد ملوك الطوائف إلى التعامل مع ألفونسـو السادس ملك قشـتالة ومحاولة إرضـائه ودفع الجزية له مرة أخـرى بعد انتصار الزلاقة العظيم، فقـد عز ذلك على يوسف بن تاشفين ملك المرابطين حيث أدرك أن هؤلاء الملوك الضـعـاف سيكونون سـبـبًا فى ضـيـاع الأندلس من أيدى المسلمين، فـماذا يفعل؟ لقـد فكر ذلك القائد المسلم فى الأمـر جديًا ورأى أنه من الضرورى أن يزحف بجيوشه إلى جزيرة الأندلس بهـدف الاستيلاء عليها من أيدى ملوك الطوائف وأظهر أنه جـاء ليحارب القـشتاليـين والنصارى ولكن كان يضـمر خـلاف ذلك، فكان يضـمـر القـبض على أولئك الملوك الخـونة وأن يدعـهـم فى السـجون، وقد تم ذلك بـخطة محكمـة تمكن من خلالهـا إيداع أولئك الملوك فى سجون المغرب ثم الاستيـلاء على بلاد الأندلس التى ضمها إلى بلاد المغرب وصار المغرب والأندلس منذ ذلك الحـين دولة واحدة تتـمتع بوحدة سـياسية عـاصمتـها مراكش بينما كان الأندلس هو مسرح عمليات القتال والجهاد فى سبيل الله، وظلت هذه الدولة الموحـدة مـا يقـرب من قـرنين ونـصف وهمـا عـصـر دولة المرابطين والموحدين إبان القرن الخامس والسادس الهجريين.

ثالثاً: المرابطون والموحدون وحركة التغيير

إن دولتى المرابطين والموحدين تعدان حركتان لتجديد قوى الإسلام فى المغرب العربى والأندلسى إذ انطلقت كل منهما من دعوة تبناها فقيه ثم عاش لها بفكره ومشاعره حتى نضجت وكبرت على مراحل إلى أن صارت ذا قوة فعالة، فأسست جماعة مسلمة ثم مجتمعا مسلما ثم دولة كبرى لكل منهما ترفرف عليها ألوية الإسلام.

ويرى الباحث أنه من المفيد أن نقف على أسرار تلك الحركتين والأسباب المحركة لهما متأملين حركة التاريخ لنأخذ منها العظة والعبرة ونصحح بها مسار حركاتنا الإصلاحية اليوم إذا تطلب الأمر[1].

لقد قامت الدولتان على فكرة الجهاد فى سبيل الله، وقد نمت الدولتان بهذه الفكرة وتحمس لها الأتباع فى كل دولة حتى سيطرت حركة المرابطين ومن بعدها الموحدين على المغرب الأقصى بأكمله وأعادت إلى أهله مفهوم الإسلام الصحيح وأصبح رجال هاتين الدولتين وقوادهما فى حالة تعطش كبير إلى الجهاد فى سبيل الله فكيف رووا هذا الظمأ؟

والحقيقة أن أمراء المرابطين سرعان ما خفوا لنجدة المسلمين فى الأندلس وعبروا مضيق جبل طارق بجيوشهم الغفيرة وانضموا إلى جانب المسلمين فى الأندلس، ودارت رحى معركة رهيبة عرفت بمعركة «الزلاقة» التى سبق ذكرها عام «٤٧٩هـ» انتصر فيها المسلمون بقيادة يوسف بن تاشفين أمير دولة المرابطين، واستطاع هذا الأمير ومن بعده أبنائه: الأمير على بن يوسف ثم تاشفين بن على أن يحافظوا على رقعة الأندلس بدون نقص يذكر، وقد نعمت أبان حكمهم بالأمن والطمأنينة طوال قرنين ونصف القرن.

---

(١) انظر منهج كل من المرابطين والموحدين فى الإصلاح وحركتى التغيير فى كتاب «الجيوش الإسلامية وحركتى التغيير فى دولتى المرابطين والموحدين» للدكتور فتحى زغروت. طبعة أولى. دار النشر والتوزيع الإسلامية.

ثم جاء من بعدهم الموحدون الذين سيطروا على دولة المرابطين وأخذوا مكانها فى المغرب والأندلس وأخذت تصد جحافل النصارى التى تجمعت على هيئة جيوش صليبية جاءت من أغلب بلدان أوروبا بدعوة من مطران طليطلة الجديد «مارتن دى بسيرجا» الذى أثار فرسان الغرب ضد المسلمين. وقد قابلت جيوش الموحدين جحافل النصارى وهزمتهم فى معركة شهيرة عرفت بمعركة الأرك عام «٥٩١هـ».

ولكن المسلمين تقاعسوا وركنوا إلى الملذات والشهوات وظهر الفساد الخلقى والبعد عن الدين، وهذه أول مظاهر ضعف الدول وانهيارها، وقد انهارت دولة الموحدين أعقاب هزيمة موقعة العقاب عام ٦٠٩هـ، وهذه الهزيمة كانت هزيمة نكراء لم يقم لدولة الموحدين بعدها قيامة وتبعثرت دويلاتها، وظهر استقلال الولاة ببعض من دويلاتها وانتهت تلك الدولة وتركت الأندلس يعانى من فراغ قواد يحمونها ويدافعون عنها.

❁❁❁



رابعًا: من مثالب المرابطين والموحدين

وإذا كنا سنتحدث عن تلك المثالب التى ساهمت من قريب أو من بعيد فى زلزلة كيان المسلمين فى الأندلس وساعدت فيما بعد على سقوطها فى أيدى الأسبان أقول: إن المرابطين على وجه الخصوص لم يرتكبوا سقطات أو زلات كبرى أثرت على كيان المسلمين فى الأندلس حتى عند سقوط تلك الدولة، فقد سقطت وهى فى شبابها إذ تجمعت عليها عوامل عدة أدت إلى سقوطها على أيدى الموحدين الدولة الفتية المناوئة.

- أن الثورة التى اجتاحت الأندلس بسرعة من غربها إلى شرقها لم تكن نتيجة لظهور أمر الموحدين وتضعضع قوى الدولة المرابطية وعجز المرابطين عن حماية الأندلس من غزوات النصارى المخربة فقط، وإنما كانت عوامل الثورة الأندلسية ضد الحكم المرابطى تكمن منذ زمن بعيد بل ترجع إلى أعقاب الفتح المرابطى نفسه حيث كانت الفكرة القومية وبروز شخصية الأندلس تجيش بأذهان عدد كبير من أبناء الأمة الأندلسية، وكان هذا الفريق الأندلسى يرى فى المرابطين بعدما تعددت مظاهر الإعجاب الأولى بهم والتى تلت نصر الزلاقة، وبعد أن انقلب الإخوة المنقذون إلى فاتحين ومتغلبين، تغيرت نظرة أهل الأندلس إليهم بعد ذاك ونظروا إليهم على أنهم أجانب غاصبون يستظلون بفكرة الجهاد ليبسطوا سلطانهم على الأمة الأندلسية، وعلى الرغم من أن فكرة الجهاد الأولى التى اضطلع بها المرابطون بالأندلس فى عهد يوسف بن تاشفين وأوائل عهد على بن يوسف والتى أسفرت عن نصرهم ضد الجيوش النصرانية فى عدة وقائع مثل موقعة إقليش ٥٠١هـ وما تلاها من الغزوات المظفرة حتى موقعة إفراغة عام ٥٢٨هـ، كانت تغالب هذه الفكرة القومية وتضفى على حكم المرابطين رونقًا ومجدًا ومع ذلك فإن الأمة الأندلسية لم تنس الحقائق الواقعة ولم تنس أنها فقدت استقلالها وحرياتها فى ظل

الحكم المرابطى خصوصا بعد أن أخذت وطأة هذا الحكم تشتد شيئًا فشيئًا، فكانت ثورة قرطبة على حكومتها المرابطية سنة ٥١٥هـ أول تعبير مادى لهذا الشعور القومى وأول نفثة لهذا السخط المكبوت ضد عسف الحكم المرابطى، وقد رأينا كيف أدرك أمير المسلمين على بن يوسف يومئذ خطورة ذلك الموقف فقابله بالإغضاء والتسامح.

كما كان من أسباب سخط الأندلس على المرابطين أيضا مبالغة الدولة المرابطية فى العطف على النصارى، وإيثار على بن يوسف ومن بعده ولده تاشفين لهم، وقد استعانوا بفرق كثيرة من النصارى وتم إدماجهم فى الجيوش المرابطية وإعطاؤهم مراكز التفوق والقيادة[١].

المهم أن بزوغ الثورة الأندلسية ضد المرابطين ظلت -حينًا- كامنة ولكنها قابلة للنمو والزيادة والانفجار، ولما بدا على دولة المرابطين فى أواخر عهد على بن يوسف ثم ولده تاشفين من بعده ترنح الدولة تحت ضربات الموحدين فقد لاح عندئذ سنوح الفرصة لتقوم الأندلس بدورها الفعال فى الثورة ضد المرابطين والتخلص منهم، وازدادت حدة تلك الثورة بقيام سلطان الدولة الجديدة وتدفق جيوشها على شبه جزيرة الأندلس لتقوم بنفس المهمة الدفاعية التى كانت تقوم بها الجيوش المرابطية من قبل، ومن هؤلاء الزعماء الثائرين بالأندلس أبو القاسم أحمد بن الحسين بن قسىّ إذ قام أتباعه المريدون وكان مولدا ويرجع إلى أصل نصرانى واشتغل فى بداية أمره بالأعمال المخزنية[٢].

ثم اعتنق طرائق الصوفية وتبحر فيها حتى غدا من شيوخها وابتنى رابطة فى أحواز شلب اجتمع فيها هو وصحبه وانكب على قراءة كتب الغزالى وعلى قراءة الكتب الصوفية والباطنية ورسائل إخوان الصفا وقد اتخذوا من الصوفية قناعًا لمشاريع يضمرونها ويدعون إلى الثورة فى الباطن، ثم لم يلبث أن ادعى الولاية

(١) انظر الجيوش الإسلامية وحركة التغيير للمؤلف مرجع سابق ص١٠٨ وما بعدها.

(٢) ابن الآبار. الحلة السيراء ص١٩٩.

والهداية وتسمى بالمهدى وبالإمام، وكثرت مخاريقه وشعوذته وزعم القدرة على الخوارق وأنه حج فى ليلة واحدة وأنه يناجى بما يشاء وينفق من الكون ما يشاء فذاع أمره وكثر أتباعه.

فسقطت دولة قوية واستلمت الحكم دولة أخرى قوية فلم ينشأ عن السقوط والاستلام ثغرات أو مساوئ أثرت على مقدرات المسلمين فى الأندلس آنذاك، ولكن المشكلة الخطيرة هى التى تمثلت فى سقوط دولة الموحدين فعندما سقطت تلك الدولة الكبرى فقد تبعها ذيول وآثار امتدت إلى دول الأندلس وإلى وحدتها السياسية إذ تمزقت الوحدة السياسية للأندلس وطمع فيها بنو حفص وغيرهم -كما قلنا سابقا- وسوف نقصر حديثنا على ثغرة واحدة وقع فيها المرابطون وثغرة أخرى وقع فيها الموحدون، فهما أهم الثغرات التى أضعفت من حكم المرابطين والموحدين.

أ- الثغرة الأولى: سقوط سرقسطة

يُعد سقوط سرقسطة ثغرة فى جبين المرابطين العسكرى: لقد كانت سرقسطة فى الثغر الأعلى شمال شرق الأندلس مقرا لزعامة الأسر العربية متمثلة فى بنى هاشم التجيبيين ثم فى خلفائهم من بنى هود، حتى قدم المرابطون، فكانت سرقسطة آخر القواعد التى سقطت فى أيديهم.

ومدينة سرقسطة تحتل موقعًا هامًا استراتيجيًا وقوميًا، ولعل عاهل المرابطين الأول «يوسف بن تاشفين» قد أدرك أهمية ذلك الموقع فعمل جاهدا على أن يحسن استغلاله استراتيجيًا. فقد أوصى ابنه عليا عند بيعته بأمر الخلافة من بعده بثلاثة أمور منها: أن يهادن بنى هود أمراء سرقسطة وأن يتركهم حائلا بينه وبين النصارى، وأن ينشئ جيشًا مرابطيًا ثابتًا قوامه سبعة عشر ألفًا من الفرسان توزع على ممالك وثغور الأندلس، وأن يعهد إلى الأندلسيين بحراسة الحدود النصرانية فهم أكثر خبرة بأحوال النصارى وأكثر دربة على قتالهم من المرابطين[1].

(١) الحلل الموشية ص٥٦-٦٠.

ومن هذه الوصية يتبين لنا موقع سرقسطة الاستراتيجي والقومي الذي شعر به مبكرًا هذا القائد المرابطي، فمن الناحية الاستراتيجية فإن بعد موقع سرقسطة عن متوسطة الأندلس ومركز الحكومة الرئيسية وموقعها الحصين على الضفة اليسرى لنهر إبروا ومناعة أسوارها العالية قد تعاون الخارجين على تحدي الحكومة المركزية بقرطبة هذا من ناحية، وكانت من ناحية أخرى حاجزًا طبيعيًا بين أراضي المسلمين وأراضي النصارى.

إن وقوع مملكة سرقسطة المسلمة بين الممالك النصرانية، كإمارة برشلونة من الشرق، ومملكتي آراجون ونافار «نبذة» من الشمال ومملكة قشتالة من الغرب كان هذا يحتم عليها أن تتبع نحو جيرانها النصارى سياسة خاصة يغلب عليها طابع السلم والمهادنة والملق، والخضوع أحيانا في صورة أداء للجزية وبالإضافة إلى ذلك كان ملوك سرقسطة يستخدمون في جيوشهم كثيرًا من النصارى المرتزقة بل كانوا أحيانا يعتمدون على التحالف مع ملوك النصارى.

وقد شعر المرابطون منذ أن حلوا بالجزيرة بهذا المركز الحساس الذي تحتله سرقسطة في قلب هذا المعترك من الإمارات النصرانية المتوثبة عليها، فجاءت وصية أمير المسلمين يوسف لابنه علي بأن تكون سرقسطة حاجزًا بين المرابطين والنصارى وأن يمدها بالعون اللازم لتقوم بهذه المهمة. وتقدم لنا الرواية العربية تفاصيل مختلفة عن حوادث حصار النصارى لهذه المدينة لسنا في حاجة إليها إلا بالقدر الذي يوضح مدى خلل طرق التموين ومراكزها، ومدى تقصير الإمدادات اللازمة لجيوش المرابطين. والمتصفح لأحداث تلك القاعدة الثغرية المهمة سيتأكد من ذلك التقصير الذي كان سببا من الأسباب التي أدت إلى سقوطها.

وقد شجع سقوط سرقسطة «ألفونسو المحارب» أن يتابع ظفره بفتح ما بقي من قواعد الثغر الأعلى ومعاقله فاستولى على طرسونة، وبرجة، ثم افتتح حصن آلاجون ومالن، وماجيون، وأبيلا[١] وغيرها، ولعل تهاوي وسقوط تلك الحصون

(١) عبد الله علام. الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، ص١٤٤ وما بعدها.

يبرز مدى الخسارة الكبيرة لسقوط سرقسطة، وهذا بلا شك يعد كبوة واضحة وذلة كبيرة فى جبين تاريخ المرابطين العسكرى فكيف تم ذلك؟.

لما استقر المرابطون فى سرقسطة تحت أمرة قائدهم محمد بن الحاج وكان أول وال للمرابطين عليها كانت حوادث الثغر الأعلى تنذر باقتراب الخطر الداهم إذ أنشأ النصارى سنة ٤٨٤هـ على ضفة نهر إبروا اليسرى شمال سرقسطة حصنًا قويًا يقع على قيد أربعة فراسخ فقط منها واتخذوه قاعدة للضغط عليها وإرهاقها من آن لآخر، وقد سار إليها ألفونسو فى عام ٥٠٤هـ- ١١١١م وحاول مهاجمتها فردته عنها قوات المرابطين بقيادة ابن الحاج ومحمد بن عائشة والى مرسلية، ثم انشغل ألفونسو عنهم فترة انتهزها المرابطون فرصة سانحة فقاموا ببعض الغزوات المخربة فى أراضى إمارة برشلونة وحاصروا الثغر العظيم، وفى أثناء عودتهم قتل ابن الحاج فى تلك الغزوة عام ٥٠٨هـ ثم خلفه فى ولاية سرقسطة الأمير أبو بكر بن إبراهيم بن تافلوت المسوفى والى مرسيه وهو زوج أخت الأمير على بن يوسف أمير المسلمين، وقد أقام خلال عهده بسرقسطة بلاطًا فخمًا كبلاط الملوك واستوزر الفيلسوف الشهير أبا بكر بن الصائغ المعروف بابن باجة ومن حوله الأدباء والندماء وانهمك فى اللذات والشراب على الرغم مما كانت تتعرض له سرقسطة يومئذ من ظروف حرجة، كما أنه خاض فى تلك الفترة مع النصارى بعض معارك دفاعية كان لهم فيها التفوق على القوات المرابطية. وعلى ما يبدو أن ألفونسو ملك أراجون هو الذى كان يقود هذه الغزوات المرهقة(١)، ثم توفى الأمير أبو بكر سنة ٥١٠هـ ولما عرف بخبر وفاته الأمير أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف أخو أمير المسلمين على بن يوسف بادر بالسير إلى سرقسطة فنظر فى شؤونها وضبط أحوالها، ولما اطمأن إلى توطيد أمورها عاد إلى مرسيه مقر ولايته ولم يُعين وال جديد فى تلك الفترة العصيبة التى لاح فيها الخطر داهمًا على سرقسطة، كما أن من العجب العجاب أن أمير المسلمين على بن يوسف كان موجودًا فى تلك الفترة فى شبه الجزيرة عقب جوازه الثالث وبدلا من أن يتجه بجيوشه الجرارة العابرة إلى مواطن الخطر فى الثغر

(١) انظر الإحاطة - لابن الخطيب. القاهرة ١٩٥٦م ج١ ص٤١٦.

الأعلى نراه يفضل أن يقوم بغزوات عقيمة فى أراضى البرتغال يستولى خلالها على مدينة قلمرية ثم يتركها عقب افتتاحها، ثم ندب عبد الله بن مزديلى واليا على غرناطة وبلنسية وسرقسطة فى أواخر ٥١١هـ- ١١١٧م(١).

وعلى ما يبدو فإن الأراجونيين أعداء سرقسطة الأصليين قد حولوا العداء إلى عداء صليبى يشمل حصاراً ضخماً من النصارى المجتمعة من كل الطوائف، ففى الوقت الذى كان ملك أراجون يوالى الضغط على سرقسطة ويجد فى انتزاع حصونها الأمامية، فاستولى على طليطلة سنة ١١١٧م وواصل زحفه إلى موريلا القريبة منها وقد وجدت دعوته صداها ضد المسلمين حيث صادف قبل ذلك الوقت بعشرين عاما استيلاء الصليبيين على بيت المقدس ١٠٩٩م وقد ازدادت الروح الصليبية اضطراما فى فرنسا وفى أسبانيا إذ عبرت حملة قوية من الفرنج بقيادة جاستون دى بيارن وأخيه سانتولو وكانا قد اشتركا بالمشرق فى الحرب الصليبية الأولى وقد عادا إلى أسبانيا ليشتركا مع الأراجونيين فى افتتاح سرقسطة(٢).

ولكى ندرك معنى تلك الحملة الصليبية التى اضطرمت فيها الأنفس بروح صليبية حاقدة فقد عقد عام ١١١٨م بمدينة تولوز مؤامرة من أساقفة أرل وأوش ولاسكار وبمبلونة وببشتر وتقرر أن ترسل حملة صليبية أخرى إلى أسبانيا يقودها الكونت دى تولوز وحشدت فوق ذلك قوات كبيرة من البشكنس ومن قطلونية ومن أورقلة تحت إمرة سادة هذه المناطق، وكان بين المقاتلين كثير من الأساقفة ورجال الدين، وتنوه الرواية الإسلامية بضخامة هذه الحملات الإفرنجية التى اشتركت فى حصار سرقسطة وافتتاحها، وتصفها إحدى الروايات بأنها كانت أمماً كالنمل والجراد أو أنها أقبلت فى عدد لا يحصى أكثره من الجند والرماة(٣).

(١) انظر روض القرطاس ص١٠٥.

(٢) محمد عبد الله عنان. دولة الإسلام فى الأندلس عصر المرابطين والموحدين ص٩٠.

(٣) انظر روض القرطاس ص١٠٦، وعنان ص٩٠، ٩١.

وتقدمت هذه الجيوش النصرانية واتجهت لافتتاح سرقسطة، وتقدم لنا الرواية الإسلامية تفاصيل مختلفة عن حوادث الحصار والمعارك التى سبقته أو اقترنت به ويمكن أن نستخلص منها ما يأتى:

١- أنه وقعت قبل حصار سرقسطة أو خلال الحصار معارك شديدة بين المسلمين والنصارى.

٢- أن عبد الله بن مزدلى آخر ولاة سرقسطة المسلمين قد اشترك بقواته فى هذه المعارك وأبلى فيها.

وعلى كل حال بدأ حصار سرقسطة -كما يرى محمد عنان- فى مستهل شهر صفر سنة ٥١٢هـ- ٢٢ مايو سنة ١١١٨م وطوقتها قوات كثيفة من الفرنج والأرجوانيين والبشكنس والقطلان وغيرهم، وكانت سرقسطة -فضلا عما تتمتع به من حصانة طبيعية بحسب موقعها الجنوبى فهى تقع جنوبى نهر إيبرو وعلى ضفته اليسرى- تعتمد فى الدفاع على أسوارها العالية القوية وعلى قلعتها المنيعة وكان قصرها الشهير المسمى بالجعفرية يقع خارج الأسوار غربى سرقسطة على قيد نحو ميل منها وعلى مقربة من النهر، ومن ثم فقد احتله النصارى فى أول مقدمهم وجاء المحاصرون ومعهم أدوات الحصار ومنها أبراج خشبية عالية تجرى على بكرات لكى يستطيع المهاجمون محاذاة الأسوار العالية لينصبوا فوقها الرعادات، وكذلك جاءوا بعشرين منجنيقًا ضخمة لدك الأسوار[1]، وكان الذى يشرف على آلات الحصار واستعمالها طائفة من أهل بيارن ممن اشتركوا فى حصار بيت المقدس وتمرسوا فى استعمال هذه الآلات.

واستمر حصار سرقسطة سبعة أشهر والظاهر على ما يبدو أنه استطال أكثر مما قدر له ألفونسو المحارب وحلفاؤه، ذلك أنه فى الوقت الذى كان فيه أهل سرقسطة يعانون الويلات داخل الحصار كان المعسكر النصرانى منذ مقدم الخريف يعانى من نقص المؤن ويهدده الجوع حتى لقد فكر قادة الجيش النصرانى فى رفع

(١) روض القرطاس ص١٠٦.

الحصار لولا أن شجعهم أسقف وشقة وزملاؤه ووضعوا تحت تصرفهم ذخائر عدة من الكنائس يجلبون بثمنها الأقوات[1]. أما فى داخل سرقسطة فقد كانت الأقوات تنضب يوما بعد يوم خصوصا أن أهل المدينة المحصورة لم يتمكنوا من جنى محاصيلهم لتبكير النصارى فى فرض الحصار، وكان من العسير عليهم أن يتلقوا أية مؤن من الخارج لإحكام الحصار حول المدينة من ناحية النهر وناحية البر. ومضت الأشهر تباعًا والحالة تشتد شيئًا فشيئًا حتى فنيت الأقوات وفنى أكثر الناس جوعا. ووقع خلال ذلك حادث زاد فى وجوم أهل المدينة وأدى إلى ارتباك تدابير الدفاع وهو وفاة واليها عبد الله بن مزدلى والظاهر أنه لم يخلفه فى الرياسة أحد من أهل المدينة فترك الأمر فوضى وأخذت الخاتمة المروعة لمصير المدينة تدنو شيئًا فشيئًا.

ولكن ما الأحداث التى تمت قبل التعجيل بنهاية المدينة وسقوطها؟ تروى بعض الروايات أن جيشًا مرابطيًا كبيرًا بقيادة الأمير أبى الطاهر تميم وكان واليا لشرق الأندلس وصل أواخر أيام الحصار إلى مقربة من سرقسطة بقصد محاولة إنقاذها، فخرج إلى الأمير تميم زعيمان من زعماء المدينة هما الفقيه على بن مسعود بن إسحاق بن إبراهيم بن عصام الخولانى وهو من أكابر علماء سرقسطة وكان متوليًا قضاء ميورقه، والخطيب بن منتيال، وحدثاه باسم أهلها بمحضر أبو الغمر الشايب ابن غرون، عن أهبات النصارى ووجوب مناجزة العدو ولكن الأمير تميمًا جبن عن ذلك وكان انتقاله بالجيوش عن سرقسطة -حسبما يقول ابن الآبار وهو صاحب هذه الرواية- سببا فى نجاح النصارى فى الاستيلاء على المدينة[2]، على أن هناك رواية نصرانية تقول بعكس ذلك أنه قد وقعت فى يوم ستة ديسمبر سنة ١١١٨م معركة عنيفة بين قوات ألفونسو المحارب وجيش قوى من المرابطين انتهت بظفر النصارى ولم تمض على ذلك أيام قلائل حتى سلمت المدينة وذلك بعد أن انتهت المهلة الممنوحة للمحصورين[3].

---

(١) محمد عنان. مرجع سابق ص٩٥.

(٢) روض القرطاس ص١٠٦.

(٣) محمد عنان. مرجع سابق ص٩٦.

وتوجد لدينا وثيقة مخطوطة هامة وهى عبارة عن رسالة مؤثرة بل مبكية كتبها قاضى سرقسطة ثابت بن عبد الله وجماعة من أهلها إلى الأمير تميم يتضرعون إليه فى عبارات مؤثرة باسم الدين والوطن أن يتقدم لإنجاد سرقسطة وإنقاذ أهلها وألا ينكص على عقبيه أمام النصارى، وقد استهلت هذه الرسالة بالتاريخ الذى كتبت فيه وهو يوم الثلاثاء السابع عشر من شعبان سنة ٥١٢هـ أى كتبت بعد ستة أشهر ونصف من بدء الحصار وقبل تسليم المدينة بثمانية عشر يوما، وفيها يصف الكاتب معاناة أهل سرقسطة من أهوال الحصار والجوع ثم يشير إلى مقدم الأمير تميم بعساكره ويلومه على إحجامه عن لقاء النصارى، وفيها «..وما كان إلا أن وصل الله برّك بتقواك على مقربة من هذه الحضرة ونحن نأمن منك بحول الله أسباب النصرة فى تلك العساكر التى أقر العيون بهاؤها وسر النفوس زهاؤها، فسرعان ما انثنيت وما انتهيت وارعويت وما أدنيت خايبًا عن اللقاء ناكسًا على عقبيك عن الأعداء، فما أوليتنا بلاء بل زدتنا بلاء، وعلى الداء داء، بل أدواء وتناهت بنا الحال جهدا والتواء، بل أذلت الإسلام والمسلمين واجترأت فضيحة الدنيا والدين، فيالله ويا للإسلام لقد اهتضم حومه وحماه أشد الاهتضام، إذ أحجمت أنصاره عن إعزازه أقبح الإحجام، ونكست عن لقاء عدوه وهو فى فئة قليلة ولمة رزيلة وطائفة قليلة».

ثم يشير الكاتب بعد ذلك لأهمية سرقسطة الدفاعية وعواقب سقوطها الوخيمة على مركز المرابطين فى شبه الجزيرة بقوله: «فما هذا الجبن والفزع؟ وما هذا الهلع والجزع؟ بل ما هذا العار والضيع؟ أتحسبون يا معشر المرابطين وإخواننا فى ذات الله المؤمنين إن صدق على سرقسطة القدر بما يتوقع من المكروه والحذر أنكم تبلغون بعدها ريقًا، وتجدون فى سائر بلاد الأندلس عصمها الله مسلكًا من النجاة أو طريقًا-كلا والله ليسومنكم الكفار عنها جلاء وفرارًا، وليخرجنكم منها دارًا فدارًا، فسرقسطة حرسها الله هى السد الذى إن فتق فتقت بعده أسداد، والبلد الذى إن استبيح لأعداء الله استبيحت له أقطار وبلاد، فالآن أيها الأمير الأجل هذه أبواب الجنة قد فتحت وأعلام الفتح قد طلعت، فالمنية ولا الدنية، والنار ولا العار، فأين النفوس الأبية وأين الأنفة والحمية؟ وأين الهمم المرابطية؟ فلتقدح عن زنادها

بانتضاء حدها وامتضاء جدها، واجتهادها، وملاقاة أعداء الله وجهادها، فإن حزب الله هم الغالبون» ويتوجه الكاتب فى ختام رسالته بالضراعة إلى الأمير أن يقبل على سرقسطة وألا يتأخر قبل وقوع الكارثة فيقول: «ولن يسعك عند الله ولا عند مؤمن عذر فى التأخر والارعواء من مناجزة الكفار والأعداء، وكتابنا هذا أيها الأمير الأجل اعتذار تقوم لنا به الحجة فى جميع البلاد وعند سائر العباد، فى إسلامكم إيانا إلى أهل الكفر والإلحاد، ونحن مؤمنون بل موقنون إجابتك إلى نصرتنا وإعدادك إلى الدفاع عن حضرتنا، وأنك لا تتأخر عن تلبية ندائنا ودعائنا إلى استنقاذنا من أيدى أعدائنا، فأقبل بعسكرك على مقربة من سرقسطة عصمها الله ليخرج الجميع عنها»[1].

والذى يبدو من هذه الرسالة أن الجيش المرابطى لم يبذل أية محاولة لإنقاذ المدينة فإنما وصل إلى هناك والتزم الجمود والإحجام ثم ارتد بعد ذلك على أعقابه، وهذا كما يرويه صاحب روض القرطاس ثم يروى صاحب تلك الرواية أنه بعد سقوط سرقسطة وصل من العدوة جيش من عشرة آلاف فارس بعثهم أمير المؤمنين على لاستنقاذها فوجدها قد ملكها العدو ونفذ حكم الله فيها[2].

وقد يتساءل الإنسان عن الأسباب التى حملت قائد الجيش المرابطى الأمير أبا الطاهر تميم بن على المرابطى على اتخاذ هذا الموقف والتى دفعته إلى الإحجام عن لقاء العدو والعودة دون أن يفعل شيئًا، ولعل المتأمل فى الروايات السابقة يستطيع أن يتلمس تلك الأسباب وهى تعتبر بلا شك ثغرات عسكرية ينبغى المؤاخذة عليها وهذه الأسباب هى:

١- تفوق جيش النصارى فى الكثرة على الجيش المرابطى جعل الأمير تميم يخشى أن يدخل فى معركة غير مأمونة العواقب.

(١) محمد عنان. مرجع سابق ص٩٦.

(٢) انظر هذه الوثيقة فى كتاب المؤلف «الجيوش الإسلامية وحركة التغيير فى دولتى المرابطين والموحدين» فى قسم الوثائق وثيقة رقم ٣ ص٣٩٠ وهى مأخوذة عن المخطوط ٤٨٨ الغزيرى المحفوظة فى مكتبة الأسكوريال لوحة ٥٥ أ-٦١، وقد أخذناها من كتاب عنان قسم الوثائق إذ قاموا بنشر مجموعة رسائل فى عصر المرابطين والموحدين.

٢- الأمير تميم لم يكن من القواد العسكريين أصحاب الخبرة المحنكة، وإنما كان يقود الجيش بصفته الأميرية وإن كان قد انتصر فى موقعة إقليش فإنما كان ذلك راجعا إلى شجاعة من معه من القواد المرابطين المدربين أمثال محمد بن الحاج وداود ابن عائشة اللذين يرجع إليهما ذلك الانتصار.

٣- كما كان لبعد موقع سرقسطة عن مراكز تموين الجيوش المرابطية فى بلنسية ومرسية وقرطبة سبب لم يشجعه على القيام بمحاولة عسكرية غير مأمونة العواقب، كل هذه تعد ثغرات ومثالب فى النظام العسكرى للمرابطين كانت لها من البواعث ما أحجمت الأمير تميم عن نصرة أهل سرقسطة.

ومهما يكن من الأسباب فإن هذا الإحجام عن نصرة سرقسطة أمر قد قلل من هيبة المرابطين ولم يعفهم التاريخ من اللوم، وعلى ما يبدو -كما يرى محمد عنان- أن البواعث الحقيقية لتقاعس المرابطين عن المغامرة بإنقاذ سرقسطة يرجع إلى أنهم كانوا يشعرون بأن الاحتفاظ بهذه المنطقة النائية من شبه الجزيرة منطقة الثغر الأعلى يلقى عليهم مسؤوليات عظيمة لوقوعها فى منطقة أعداء أقوياء يتربصون بها باستمرار، وأن سرقسطة لم تكن بظروفها وروح شعبها كثيرة الولاء للمرابطين، ومن ثم فإنهم لم يعنوا فيما يبدو فى أن يتجشموا فى سبيل إنقاذها تضحيات عسكرية كبرى، وهكذا تركت سرقسطة لمصيرها واضطرت بعد معاناة من الحصار الطويل وشدة الجوع والحرمان والمرض واليأس من النجدة من أى مكان أقول: اضطرت أن تخاطب ألفونسو بن رزمير أن يمنح أهلها هدنة مؤقتة فإذا لم يأتهم الإنجاد المنشود سلمت إليهم المدينة، وتعاهد الفريقان على ذلك وقد مرت الأيام وانتهت المدة المتفق عليها واضطرت المدينة إلى التسليم[١].

وكان من شروط التسليم ما يلى:

١- أن تسلم سرقسطة إلى ملك أراجون ابن رزمير.

---

(١) روض القرطاس ص١٠٦.

٢- من أحب المقام من أهل المدينة فله ذلك على أن يؤدى جزية خاصة ومن أحب أن يرحل إلى حيث شاء من بلاد المسلمين رحل وله الأمان.

٣- أن يسكن الأراجونيون والفرنج المدينة والمسلمون ربض الدباغين.

٤- كل أسير يثبت للروم من المدينة ويحصل عند الإسلام فلا سبيل لمالكه إليه ولا اعتراض له عليه[١].

وقد كان ربض الدباغين من أحياء سرقسطة المتطرفة ويقع على ضفة النهر اليمنى[٢]. وكانت سياسة الملوك النصارى فيما يتعلق بمن يبقى من السكان المسلمين فى المدن المفتوحة هو أن يسمح لهم بالبقاء فى منازلهم لمدة سنة أو نحوها ثم يلزمون بعد ذلك بالانتقال إلى الأرباض وهى كما قلنا أحياء متطرفة أو ضواحٍ، وهذا ما تم مع سكان سرقسطة من المسلمين الذين فضلوا البقاء، وتصف الرواية الإسلامية تاريخ تسليم سرقسطة فى يوم الأربعاء الثالث من شهر رمضان سنة ٥١٢هـ وهو يوافق ١٨ ديسمبر سنة ١١١٨م[٣]، وتضع الرواية النصرانية هذا التاريخ فى يوم ١١ ديسمبر، أو فى ١٨ ديسمبر[٤]. ودخل ألفونسو الأرجونى وحلفاؤه المدينة بعد أن قطع لأهلها المسلمين العهود المذكورة وسمح لهم مدى فترة قصيرة باستبقاء قاضيهم ابن حفصين وبالاحتكام إلى شريعتهم ولكن مسجد سرقسطة الجامع حول منذ الثالث من يناير سنة ١١١٩م إلى كنيسة سلمها ألفونسو المحارب إلى الرهبان البرناردين سميت كنيسة لاسيو أى الكنيسة العظمى، وجعلت سرقسطة عاصمة مملكة أراجون وجعل منها مركزا لأسقفية ومنح سكانها النصارى امتيازات الإشراف، وعين الكونت جاستون دى بياين سيدا للمدينة المفتوحة، وهكذا سقطت الحاضرة الإسلامية ودخلها النصارى وغادرها معظم أعيانها وأكابرها المسلمون.

أما المرابطون بصفة عامة فقد غفر لهم تلك الذلة ما أحرزوه بعد ذاك من انتصارات بعد الزلاقة مثل نصر «أقليش» سنة ٥٠١هـ و«إفراغة» سنة ٥٢٨هـ.

---

(١) أى مسلم يخالف الشروط السابقة من المسلمين يعد أسير ولا يحق للمسلمين تخليصه فأصبح أسيرًا للروم.

(٢) روض القرطاس ص١٠٦. (٣) انظر ابن عذارى ص١٠٦.

(٤) ابن الكرديوس فى كتاب «الاكتفاء»مخطوط أكاديمية التاريخ لوحة ١٦٤ اهـ.



واستطاع المرابطون أن يحافظوا على أغلب رقعة الوطن الأندلسى من أن تتردى فى أيدى الأعداء ولكن إلى حين.

أما الموحدون فقد ورثوا تلك الثغور عن المرابطين بعدما استقر أمرهم فى المغرب والأندلس.

وكان سقوط سرقسطة بعد سقوط طليطلة ضربة جديدة قاصمة للأندلس وكان نذيراً بسقوط باقى قواعد الثغر الأعلى فى يد مملكة أراجون، وأصبح من ذلك الحين تواجه منطقة بلنسية خطر العدوان النصرانى المباشر كما كانت تواجهه من الغرب، وأخطر من ذلك كله ما أصاب هيبة المرابطين العسكرية بسبب هذه الضربة من تصدع وانهيار، إن سقوط سرقسطة على هذا النحو يعد سقطة عسكرية فى جبين العسكرية المرابطية ينبغى أخذ العظة والعبرة من خلالها، فما أشبهها اليوم بسقوط بغداد حاضرة العراق الحديث فى يد الأمريكان وحلفاؤهم من الغرب.

فهل آن لنا نحن العرب أن نأخذ الدرس والعظة ونحافظ على عواصمنا من أن تسقط أو تتهاوى مرة أخرى.

ب- هزيمة «العقاب» ثغرة فى جبين الموحدين العسكرى:

فى عام ٥٩٦هـ- ١١٩٩م تولى الخليفة «محمد الناصر لدين الله» شؤون دولة الموحدين بعد موت أبيه المنصور بطل معركة الأرك الشهيرة عام ٥٩١هـ- ١١٩٤م ثم انشغل الناصر بحوادث إفريقيا والمغرب فى محاولة للقضاء على الفتن الداخلية ولاسيما ثورة بنى غانية والتى استطالت مع الموحدين اثنى عشر عاما.

وفى غمرة انشغال الموحدين بحوادث إفريقيا، سنحت الفرصة للممالك النصرانية باستئناف غزواتهم التخريبية فى أراضى المسلمين بالأندلس، وكان ملك قشتالة منذ هزيمته الساحقة فى موقعة الأرك يتوق إلى الانتقام من المسلمين لرفع وصمة العار التى لحقت بالجيوش النصرانية من جراء هزيمتهم النكراء[1].

(١) ابن الآبار فى الحلة السيراء ص٢٢٥، والبيان المغرب «الأوراق المخطوطة السابقة الذكر» وذكر المقرى أنه «كان فى يوم الأربعاء الرابع من رمضان» نفح الطيب ج٢ ص٥٨٥.

وخرج ألفونسو الثامن ملك قشتالة في جيوشه ناقضًا الهدنة المبرمة بينه وبين الموحدين أعقاب موقعة الأرك ضاربًا بمبادئ الوفاء والشرف عرض الحائط، وسار بجيوشه صوب أراضي المسلمين فأحرق الحقول وخرب الضياع وقتل وسبى واستولى على عدة حصون، ولحق بالمسلمين من جراء غاراته تلك محن وخسائر فادحة.

وفي نفس الوقت تعرض شرق الأندلس الإسلامي لغارات «بيدرو الثاني» ملك أراغون الذي سار جنوبًا نحو أراضي ولاية بلنسية الشمالية وعاث فيها فسادًا، واستولى على عدة حصون إسلامية في تلك المنطقة[1]. حينئذ ضج مسلمو الأندلس بالشكوى من جراء تلك الغارات الوحشية، وعبروا المضيق إلى المغرب، وقصدوا الخليفة الناصر مستغيثين به متضرعين إليه أن ينقذهم من عبث جيوش النصارى، وأرسل الناصر رسله إلى ألفونسو الثامن يحتجون على خرق الهدنة ولكنه لم يأبه بهم وأصر على تنفيذ خطته العدوانية.

ولعل فيما طرأ على الساحة الإسلامية والنصرانية من متغيرات تعصبية ومذهبية آنذاك كانت من العوامل التي جعلت ألفونسو الثامن ملك قشتالة يركب رأسه ويصر على إشعال نار الحرب وتصعيدها.

إن سوء الأحوال التي كانت تمر بها دولة الموحدين من جراء الفتن الداخلية والانتفاضات المتوالية ضد الموحدين ولاسيما ثورة بني غانية في إفريقيا والتي تسببت في إجهاد الدولة على كل المستويات، ونجم عنها إهمال الجهاد في الأندلس اثني عشر عاما جعلت ألفونسو الثامن وغيره من ملوك النصارى يجولون ويصولون في بلاد المسلمين بكل غطرسة.

(١) انظر معركة الأرك للكاتب في مجلة كلية الملك خالد العسكرية، العدد السابع تحت عنوان «من معارك الإسلام الخالدة» وانظر كذلك كتاب الجيوش الإسلامية وحركة التغيير من المرابطين والموحدين للدكتور فتحي زغروت. ط دار التوزيع والنشر الإسلامية بالقاهرة.

ويقابل سوء الأحوال في دولة الموحدين تحسن ملحوظ في العلاقات بين الدول النصرانية الأسبانية فيما بينها، فإنه لم يمض وقت طويل بعد هزيمتهم في موقعة الأرك حتى جمعوا صفوفهم ونبذوا الخلافات والمنازعات التي كانت تمزق وحدتهم، وتم عقد صلح بين قشتالة وليون، ثم بين قشتالة ونفارا سنة ١٢٠٧م، ثم بين نفارا وأراغون سنة ١٢٠٩م، وساد بذلك نوع من الوئام والتفاهم بين معظم الممالك النصرانية في أسبانيا[١]، أعطى ألفونسو الثامن نوعا من الطمأنينة والأمل في عون زملائه له عندما يستدعي الموقف ذلك.

ولعل الدور الذي قام به البابا «إينوسنت الثالث» أكبر حبر على رأس البابوية آنذاك كان من أهم العوامل التي ساعدت ألفونسو الثامن على إشعال هذه الحرب، فقد كانت نفس هذا البابا تضطرم بروح صليبية عميقة، وبعث إليه ألفونسو أن يدعو أمم أوروبا النصرانية لمؤازرته وذلك بتنظيم حملة صليبية ضد المسلمين، ونزل البابا على رغبته، وبعث إلى أساقفة جنوب فرنسا أن يسيروا بأنفسهم وأموالهم لمؤازرة ملك قشتالة، وصرح البابا بأنه سيمنح كل من لبى هذه الدعوة الغفران التام، وبذلك تمكن ألفونسو الثامن من استدرار عطف الأمم النصرانية المجاورة، وأضفى بذلك على حملته روحًا صليبية ضد مسلمي الأندلس[٢].

وإزاء هذه الظروف الملحة أمام الناصر، لم يك ثم مندوحة لديه من أن يعبر بجيوشه البحر إلى الأندلس ليجاهد النصارى ويردعهم كما فعل أسلافه من قبل.

وقد تقابل الجيشان في ملحمة رهيبة كانت فيها الصولات سجالا ولكن المسلمين في النهاية هزموا هزيمة نكراء في تلك المعركة التي سميت معركة العقاب.

١- فقد قضت هذه الهزيمة على المنعة العسكرية للموحدين في الأندلس وضاعت هيبتهم من نفوس النصارى، إذ لم يقو الموحدون على امتلاك زمام الحكم

(١) ابن عذاري -البيان المغرب- القسم الثالث، المنشور بعناية معهد مولاي الحسن بتطوان: ١٩٦٠-١٩٦٤م ص٢٣٤.

(٢) محمد عبد الله عنان. عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس القسم الثاني ص ٢٨٨.

فيها، وتهـاوى سلطانهم، وانتشرت براثن الفوضى بين الأندلسيـين وانقسمت إلى دويلات وشيع من جديد لتأكـل بعضها بعضا بمعاركـها الانتحارية التى لا تنتهى.

٢- ولم ينج المغـرب هو الآخر من جـراء هذه الهزيمـة النكراء؛ فقـد فنى أغلب رجاله ومشاهير جنوده وقواده، وأصبح الجهـاد فى الأندلس أمرا مستحيلا بعد هذا الفناء، وقـد نوهت الرواية الإسلامـية بما أصـاب المغرب من جـراء تلك الهزيمـة «فقد بيـد أهله ورجاله، وفنى خيله وحـماته وأبطاله، وقتلت قـبائله وأقياله، وقد استشهد الجميع فى غزوة العقاب»[١].

٣- فلا غرو إذن أن تتهـاوى دعائم دولة الموحدين فى المغرب أيضا وينتـثر عقدها إلى دويلات متناحرة، مما شجع بنى حفص على اقتطاع أفريقية وإقامة دولتهم المستقلة على أنقاض دولة الموحدين، ولم تقم لهم بعد هذه الهزيمة فى المغرب قائمة.

أسباب الهزيمة:

لعل دراسة العوامل التى أدت إلى هزيمة المسلمين فى مـعركة العقاب تكون من أعظم الدروس المسـتفادة على المستوى العـسكرى والتى يجب أن تحظى باهتـمام الدارسين لها، ومن أسباب الهزيمة:

١- ضعـف الروح المعنوية لدى جنود الموحدين إذ خـرجوا للقـتال وهم كـارهون ساخطون على قوادهم بسبب حبس أعطياتهم وتأخرها، فخرج الناصر بحشود لا غـرض لهم فى الغـزو، وقد أمـسكت أرزاقـهم وقتـر عليـهم[٢]، ويقول المراكشى إنـه علم من أحدهـم «إنهم لم يسلُّوا سـيفًا ولا شـرعوا رمـحًا، ولا أخذوا بشيء من أهبة القـتال، بل انهزموا لأول حملة الإفرنج عليـهم قاصدين لذلك»[٣]، فالاهتمام بمشاكل الجند وحاجاتهم وتوفير مرتباتهم ومكافآتهم، كل هذه العوامل ترفع من معنويات الجند فى القتال.

---

(١) محمد عبد الله عنان. المصدر السابق، ونفس الصفحة.

(٢) ابن الآبار، التكملة، القاهرة ج١ ص١٠٢، البيان المغرب ص٢٤٠، المقرى. نفح الطيب ج٢ ص٥٣٨.

(٣) المعجب ص١٨٣.

٢- إعجاب الناصر بكثرة جنوده وأعدادهم الهائلة مما جعله يهون من شأن عدوه ولم يتحوط فى لقائه، وكأنه لم يستوعب درس موقعة حنين مع النبى ﷺ حيث اغتر المسلمون بكثرتهم وقالوا: لن نهزم اليوم من قلة، فنجم عن ذلك أن ظفر النصارى فى سرعة هائلة باختراق قلب الجيش الإسلامى وحدوث المأساة ولم تغنه كثرة جنده عن وقوع تلك الكارثة التى كانت عقوبة من الله على ما أبداه من العجب والاعتزاز بجموعه ليعلم أن النصر من عند الله.

٣- ضعف القيادة وسوء التنسيق الناشئان عن ضعف شخصية الناصر واستبداده برأيه وعدم تقبل النصح من كبار قواده، فقد أحاطت به حاشية السوء وعلى رأسهم الوزير أبو سعيد بن جامع الذى أغراه بقتل ابن قادس أمير قلعة رباح الأندلسية وهو من كبار قواد الأندلس، مما سبب استياء فى الجيش كله ولاسيما بين جند الأندلس وفى تثبيط همتهم فى القتال.

٤- اختلال نظم التموين فى الجيوش نظرا لكثرتها الهائلة، وابتعادها عن قواعدها مسافات شاسعة، هذا بالإضافة إلى أن تلك الجيوش قد حاصرت قلعة شلبطرة مدة ثمانية أشهر تعرضت خلالها لأقسى عوامل الطبيعة ونقص التموين.

وعلى ما يبدو فإن نهاية الدولة ووهنها كان باديًا أدركه المنصور الموحدى أبو يوسف يعقوب ٥٤٥-٥٩٥هـ فحينما دنت وفاته جمع بنيه والموحدين ووصاهم بوصايا منها: «أيها الناس أوصيكم بتقوى الله، وأوصيكم بالأيتام واليتيمة، فقال له الشيخ أبو محمد الهنتانى: يا سيدنا ومولانا: وما الأيتام واليتيمة؟ فقال: الأيتام أهل جزيرة الأندلس، وهى اليتيمة «أى الأندلس»، فإياكم والغفلة عما يصلحها من تشييد الأسوار وحماية الثغور وترتيب أجنادها وتوفير رعايتها. . .»[1].



(١) الروض المعطار ص١٣٨.



الفصل الثالث:



« الضعف والانحلال وسقوط الأندلس »

أولاً: دولة بني نصر ومملكة غرناطة

ثانيًا: تسليم غرناطة وإنهاء دولة الإسلام

على سبيل التمهيد:

وإذا كانت دولة الموحدين بعد هزيمة العقاب الكريهة لم تقم لها قائمة حتى سقطت، فلابد من دراسة الأسباب التى أدت إلى ذلك حتى يتم أخذ العظة والعبرة، فهناك عوامل الضعف والوهن الخفية التى تدب فى جسم الدولة الموحدية منذ قيامها إلى جانب العوامل المباشرة، وقد عمل الاثنان معا على سقوطها، وقد كانت بذور الضعف كامنة فى عقيدة، ابن تومرت داعية الموحدين ومؤسس دولتهم وظهرت واضحة جلية فى عهد الخلفاء الأوائل منهم أمثال عبد المؤمن بن على وابنه يوسف وحفيده يعقوب المنصور، وكانت الدولة فى أوج عظمتها فى عهد هؤلاء الخلفاء، ولا غرو فى ذلك فإننا نرى أن عوامل السقوط قد ظهرت منذ ذلك العهد المبكر خفية حينًا وظاهرة حينًا آخر، ضعيفة التأثير والأثر فى آن وقوية وعنيفة فى آن آخر، وهذه الأسباب كانت واضحة حينما أخذت الدولة بعصمة الإمام المهدى المنتظر حيث هيأ ابن تومرت نفسه بواسطة مريديه ليكون المهدى المنتظر الذى سينتشل البلاد من الظلم والاضطهاد ثم بعد ذلك اتخذ من نفسه إمامًا معصومًا من الخطأ وشرع تشريعات لأتباعه قد غالى فيها الموحدون من بعده، فأقدم عليها العامة منهم وتركوا الشريعة الإسلامية فى الأندلس خوفًا وإرهابًا، وقد ضاق الناس بهذه التعاليم ولم يجرؤ أحد على التفوه بكلمة تنافى تلك العقيدة. لذا نرى أغلب رجال دولة الموحدين كانوا ينظرون إليها نظرة المقطوع أمله ورجاؤه؛ ومن جراء تلك التعاليم القاسية قامت الثورة فى بلاد الأندلس الأمر الذى أدى إلى عدم وقوف جند الأندلس بجدية فى معاركهم الكبرى كما حدث فى معركة العقاب.

وهناك أسباب أخرى لسقوط الدولة وهى الصدام العسكرى بين الموحدين وغيرهم من قوى العدوة المغربية الطامعة فى دولتهم، وقد صاحبت هذا السقوط أحداث عسكرية عنيفة كانت من الأسباب المباشرة لهذا السقوط خاصة أن دولة الموحدين قامت على عصبية قبلية قوية وهى عصبية المصامدة ولما كانت قد انضوت

تحت زعامتها قبائل عديدة وقوية فى نفس الوقت ذات عصبيات متعددة لذلك كان من الطبيعى أن تتمرد هذه القبائل وتثور للانفصال عن جسم الدولة أو لاستعادة أمجادها، كما هو الحال فى تمرد قبائل صنهاجة وزناتة أكبر قبائل المغرب على الإطلاق والتى كانت قبل قيام الموحدين تسيطر على المغرب والأندلس ولها فيهما دول وإمارات ذات أثر بعيد فى تاريخ المنطقة وحضارتها. كما أن ممالك وإمارات أسبانيا كانت متحفزة على الدوام للوثوب على الموحدين حين تبدو لها بوادر الوهن والضعف، ومن ثم واتتها الظروف بهزيمة الموحدين فى موقعة العقاب، وحينئذ تكالبت القوى الأسبانية على الأندلس الإسلامية ضد دولة الموحدين وأخذت تضربها ضربات عنيفة متواصلة أوهنت عظمها وساعدت على انسلاخ الأندلس عنها ومهدت لسقوطها.

ومما ساعد أيضًا على إضعاف دولة الموحدين وأثر تأثيرًا مباشرًا على مجرى التاريخ الموحدى وأعاق الدولة أحيانًا كثيرة عن حركة البناء والإعمار وصرفها عن شئون الأندلس ثورة بنى غانية وقراقوش فقد كان من الأخطاء الفادحة متابعة الموحدين لبنى غانية الموالين للمرابطين ومطاردتهم لهم إذ رفعوا الحصار عن قسطنطينة وتقهقر بنو غانية بقواتهم إلى بلاد أفريقيا وإذا كان الموحدون قد تتبعوهم وحاولوا القضاء عليهم وقد نجحوا فى ذلك كثيرا إلا أنهم توقفوا عن مطاردتهم بعدما قضى الموحدون زهاء ستة أشهر، فكان من الواجب أن يستمروا فى المطاردة ويزيدوا فى حشودهم حتى يقضوا على بنى غانية وقراقوش ولكن الموحدين عادوا إلى المغربين الأوسط والأقصى وتركوا الأمر لابن غانية وقراقوش فى بلاد أفريقيا، ومن هنا تمكنا من التحالف ضد الموحدين وأحرزا النصر عليهم أكثر من مرة. ولكن من المهم أن نتوقف وقفة نبين فيها أثر ثورة بنى غانية وقراقوش على دولة الموحدين والآثار التى خلفتها كل منهما فى بلاد المغرب وأفريقية. فبنو غانية وقراقوش قد جاءوا إلى بلاد المغرب لتحقيق أهداف بعيدة حرصوا على تحقيقها، فقد جاءوا من جزر شرق الأندلس لتحطيم دولة الموحدين وللثأر من المصامدة لما ارتكبوه فى حق صنهاجة، كما أنهم كانوا يطمحون إلى تأسيس دولة تعيد أمجاد المرابطين وتنشل

تراثها وتعيد مفاخر صنهاجة التى كانت تحكم المغرب والأندلس معا. أما قراقوش وابن قراتكين وغيرهما من الزعماء الأيوبيين الذين دخلوا المغرب فى ذلك الوقت إنما جاءوا بغرض اقتطاع جزء من بلاد المغرب وكانت بلاد أفريقية هى خطوتهم الأولى لمجاورتها للبلاد المصرية، وذلك بهدف إيجاد نقطة ارتكاز للأيوبيين فى بلاد المغرب يتخذوا منها خطوطا أمامية دفاعية، وأيضا مراكز هجومية وذلك ليتمكنوا من الوقوف فى وجه الموحدين الذين كانوا يخططون لغزو البلاد المصرية والمشرق الإسلامى، وكانت المأساة الكبرى حينما تحالف ابن غانية وقراقوش فازدادوا قسوة وتنافسوا فى الفساد والخراب وكانت لتلك الأعمال التخريبية آثارها على المجتمع المغربى فقد تعطلت بالمغربين الأدنى والأوسط حركة التجارة وكسدت الصناعة أو توقفت وأهملت الزراعة لعدم توافر الأمن والاستقرار، كل هذا أدى إلى انهيار الأحوال الاقتصادية إذ نهبت الأموال وانتزعت الممتلكات وقتل الكثير من الرجال وسبيت النساء والأطفال وتشردت كثير من العائلات.

وهكذا ظل العبث بالبلاد من جراء ثورة بنى غانية حتى جاء عهد محمد الناصر لدين الله الخليفة الموحدى، ففى عصره برزت ظاهرتان أو حادثتان: الأولى القضاء على بنى غانية، والثانية الهزيمة الشنيعة فى موقعة العقاب والتى لم يستطع الموحدون القيام بعدها بل إن الدولة منذ هذه المعركة أخذت تتهاوى أو تسرع نحو السقوط -كما قلنا.

كذلك من العوامل التى ساهمت فى سقوط الدولة واستنفدت الكثير من الجهد والوقت بعض حركات التمرد منها:

حركة الجزيرى: وهو عبد الله بن عبد الله الجزيرى وهو أندلسى الأصل من الجزيرة الخضراء وإن كان من يعيشون بجواره قد رموه بالمروق والشعوذة وأعمال السحر والتأثير على السذج وعقول العامة إلا أن بعض الباحثين قد رأوا فيه داعية بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بعد أن رأى الرعية مالت إلى حياة الرفاهية ورغد العيش، وقد أثر ذلك فى نفسه ووهب حياته لإصلاح الأحوال وإحياء السنة واتخذ

من المهدى بن تومرت قدوة فى الدعوة إلى الإصلاح[١]. وقد تبرم به الموحدون وبحركته حينما ظهر فى مدينة مراكش عام ٥٨٦هـ، وقد التف حوله بعض الأتباع والمريدين وملأ صيته الآفاق فنفاه الموحدون عن مراكش وأخذ يلف مدن المغرب الأقصى ويرحل من مكان إلى مكان ثم يعود إلى عاصمة الموحدين مراكش مرة أخرى، وعندما أدرك الموحدون خطورة حركته قبضوا عليه هو وعدد من أتباعه فى مدينة مالقة وأمروا بقتله وانتهت بذلك حركة الجزيرى[٢].

حركة الأشل: وهو داعية ظهر خلال عصر ثالث الخلفاء الموحدين أى بدأت حوالى سنة ٥٨٩هـ وأظهر هذا الداعى أنه موعود به للقضاء على الظلم والطغيان وتوفير الخير للرعية والسير على هدى السنة النبوية، وقد التف حوله عدد كبير من أعراب بنى هلال وسليم ولما كثرت جموعه أخذ يعبث فى تلك النواحى حتى أصدر المنصور الموحدى أمرًا إلى والى بجاية «السيد أبى زكريا» بمطاردته والقضاء عليه، ولكن الأعراب داروا عليه وضللوا أبا زكريا ولما أدرك أن الأعراب يخادعونه دعاهم إلى قلعة بنى حماد وقبض على عدد كبير من أبنائهم ورؤسائهم وهددهم بأنه سيقتل هؤلاء ما لم يسلم إليه الأشل، وكادت تقع فتنة بين الأعراب؛ بعضهم رفض التسليم والبعض الآخر وافق، وأخيرا سلموا الداعية الأشل إلى السيد زكريا فقتله وانتهت بذلك حركته.

ومن الحركات الأخرى التى ظهرت فى عصر الموحدين تمرد محمد بن عبد الكريم وكان من كبار قادة الجيوش الموحدية وكان قائدا لجيش الموحدين الموجود بمدينة المهدية، وكذلك حركة أبى قصة الجزولى، هذا بالإضافة إلى فساد بعض كبار عمال الموحدين القائمين على أزمة الأمور وأخذ الفساد يزداد داخل الإدارة الموحدية فى عهد ثانى خلفائهم أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، فكان الكثير من العمال وجباة الأموال يشتطون على الرعية فى جمع الأموال بل أنه بلغ بهم الحد إلى أنهم احتجزوا الكثير منها لأنفسهم، وقد فطن يوسف بن عبد المؤمن لهذا

---

(١) ابن سعيد. المغرب فى حلى المغرب ج١ ص٣٢٣، ٣٢٤.

(٢) انظر ابن عذارى البيان المغرب ج٣ ص١٨٢.

الشر فأمر بالقبض على الكثير من العمال وعمل على درئه والقضاء عليه وحاسبهم حسابا دقيقًا(١).

ومن أولئك العمال الفاسدين أبو عبد الله محمد بن المعلم وكان مشرفا على مدينة أشبيلية وقد صودرت أمواله وممتلكاته، وأودع السجن سنة ٥٧٣هـ ثم ضرب عنقه بعد ذلك، ومن الذين حوسبوا على أعمالهم وثبتت التهم عليهم ابن فاخر مشرف مدينة سجلماسة وابن حسن على بن حنون وقد صودرت ممتلكاتهما ونالا عقابهما سنة ٥٧٣هـ(٢).

وكذلك من الشخصيات التى سرقت المال العام للدولة شيخ كومية أبو زكريا بن حيون المشرف على تلمسان وابنه وكثيرون أمثالهما، وقد قبض عليهما وعلى آخرين وأودعوا السجن وقد بلغ عددهم الثمانية عشر وصودرت أموالهم وممتلكاتهم وفرض عليهم غرامة قدرها أربعمائة وتسعون ألف دينار(٣).

والغريب أنه لم تتوقف مثل هذه الأعمال على الرغم من الإيقاع بالكثير منهم، بل استشرى الفساد وأخذ ينتشر بين العمال فى عهود الخلفاء، ومنهم الخليفة الثالث أبو يوسف يعقوب المنصور فقد تآمر عليه بعض أقربائه بهدف الوصول إلى كرسى الخلافة ومنهم أبو حفص الرشيد والى مرسية إذ أخذ فى إرهاق ولايته بالضرائب واشتط فى جمع الأموال واستولى على ما فى خزانة الولاية من أموال وذلك تمهيدا لما كان ينويه من القيام بالثورة ضده للاستيلاء على الخلافة يقول ابن عذارى: وكان هذا الرشيد قد استولى على الناس لضرورة العدوان وقد تسبب ذلك فى أخذ أموال التجار وإيذائه الجيران، وغالب العمال على بيوت الأموال وكلفهم المؤن الثقال(٤)، وقد أحاط الخليفة بأخبار المؤامرة وقضى على متزعمها ومن اشترك فيها إلا أن ما فعله ابن عمه الرشيد من ظلم للرعية وتعذيب للعمال والسطو على أموال الدولة كل ذلك يعطينا صورة واضحة عن مدى المرض الذى

(١) مراجع عقيلة الغناى. سقوط دولة الموحدين ص٢٣٩، ٢٤٩.

(٢) ابن عذارى. البيان المغرب ج٣ ص١١٢، وسقوط دولة الموحدين. مرجع سابق ص٢٣٩.

(٣) المصدران السابقان.

(٤) ابن عذارى ج٣ ص١٧٢.

ألم بالإدارة الموحدية، وقد انعكس ذلك على مجتمع دولة الموحدين وبدأت تبذر فى النفوس بذور التذمر والاحتجاج، وهذا ما سيتبلور بعد ذلك فى صورة ثورات عندما تضعف الدولة.

وفى سنة ٥٨٥هـ جاءته وفود بعض البلاد من جزيرة طريف واشتكوا إليه سوء معاملة عمالهم وولاتهم، وكان ذلك حين عبر المنصور بحر الزقاق إلى الأندلس يقول ابن عذارى: «ووصلت بعض وفود البلاد المجاورة للصلاة، وضجوا بالتشكى للولاة والحكام، ورفعوا فيهم تشنيع الأرفاء -الأدناء- بما لا تسعه شرائع الإسلام فأضرب المنصور عن شنيع ذلك الكلام وقال: إنما نبدأ بغزو المفترين والمشغبين من أطراف الأنام ثم غلبه تقاة فأضرب عما كان نواه وأمر بطردهم وحصرهم تحت الوعيد، وإن لم يتوبوا عن أعراض المسلمين فالموت أقرب لهم من حبل الوريد[1].

وقد كانت حركة بنى مرين لها تأثيرها القوى على تحطيم دولة الموحدين إذ عملوا بكل طاقاتهم على بناء إمارة لهم تقوم على أنقاض تلك الدولة المترنحة، فتمكنوا بقيادة أميرهم أبى يحيى بن عبد الحق من الاستيلاء على رباط تازى ثم مدينة فاس عام ٦٤٦هـ وقد تلاقى الخليفة المرتضى مع بنى مرين فهزم الموحدون فى أكثر من موضع مما أرغم المرتضى على موادعة بنى مرين، وبذلك استولى المرينيون على معظم بلاد المغرب وبخاصة بلاد المغرب الأقصى ولم يبق بيد الموحدين إلا ما يقع بين سلا والسوس[2].

ثم قام بنو مرين بمهاجمة عاصمة الموحدين مراكش انتهت بعقد هدنة بين الطرفين على أن يدفع الموحدون إتاوة سنوية لبنى مرين.

ثم وقع الشقاق بين أسرة الموحدين إذ لجأ ابن عم الخليفة المرتضى الموحدى وقائد جيوشه والسيد أبو العلاء إدريس الملقب بأبى دبوس فطلب من بنى مرين إمداده بالرجال والسلاح لخلع المرتضى وتولية الحكم بدله، ووجد المرينيون أن

---

(١) ابن عذارى ج٣ ص١٧٣.

(٢) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج٢ ص٢٥٣. تحقيق جعفر الناصرى.



الفرصة قد واتتهم لضرب الموحدين بعضهم ببعض والظفر ببعض البلاد من أيديهم نظير محالفتهم لأبى دبوس، وانتهت المواجهة العسكرية بهرب المرتضى واستيلاء أبى دبوس على مراكش سنة٦٦٥هـ ثم تم القبض على المرتضى وقتله أما أبو دبوس فقد تمت البيعة له فى محرم عام ٦٦٥هـ وتولى الخلافة ولكنه لم يهنأ بها فسرعان ما تم الصراع بينه وبين بنى مرين لأنه نكس بوعده معهم ولم يتنازل لهم عن نصف ما تحصل عليه من البلاد، كما هو متفق بينهما. حينئذ غضب أبو يعقوب المرينى وحاصر بقواته مدينة مراكش وضيق الحصار على أبى دبوس والموحدين وتوالت الهجمات بينهم سجالا حتى تمكن المرينيون من إحراز النصر على الموحدين وقتل خليفتهم أبى دبوس ودخل بنو مرين مراكش عام ٦٦٨هـ وبذلك سقطت دولة الموحدين.

وهكذا انتهى عهدا «الفوضى والكفاح» عهد الفوضى الذى مثله ملوك الطوائف وبما تميز من ضعف وتخاذل وانقسامات أدت إلى ضعف المسلمين فى الأندلس.. ثم أعقبها عصر الكفاح المتمثل فى وجود دولتين قويتين هما: دولتا المرابطين والموحدين اللتين اتخذتا من الأندلس مسرحا للجهاد فى سبيل الله ومقاومة الحملات الصليبية التى قادها ملوك الغرب وبخاصة ملك قشتالة لاسترداد الأندلس وقد كافحت جيوش هاتين الدولتين كفاحا طويلا.

وكانت هزيمة الموحدين فى موقعة العقاب هى بداية النهاية إذ تساقطت كبريات المدن أمام قوات النصارى، وقامت حركات فى عدد من الأقاليم الأندلسية مستغلة ضعف الموحدين واضطراب الأحوال مثل حركة ابن هود وابن مردنيش وابن الأحمر.

وقد خلف الموحدون بعد انهيار دولتهم ثلاث دويلات: دولة بنى مرين بالمغرب الأقصى ودولة بنى زيان أو «بنى عبد الواد» وعاصمتهم تلمسان فى المغرب الأوسط، ودولة بنى حفص فى تونس.

كان لمشيخة الغزاة التى أعدها بنو مرين فى الأندلس للجهاد ومتابعة الدفاع عن الأندلس أثرها فى مساعدة الأندلسيين وترجيح كفتهم أحيانا. إلا أن قوة المرينيين

كانت محدودة لم تقو على المقاومة نظرًا لـهجمات بنى زيان المتكررة مما دفعها إلى رد هجماتهم والانشغال معهم فى حروب أضعفها كثيراً.

ومن هنا لم يقو بنو مرين على إرسال نجدات لأهل الأندلس وضـعفت مشيخة الغزاة التى رتبها المرينيون. وقد اتسمت العلاقة الأندلسية المغربية آنذاك فى النصف الثانى من القرن الثامن بصفتين:

١- دخـول المغرب فى حـالة ضعف أدت إلى انـحلال دولة بنى مـرين بعد وفـاة السلطان أبى الحسن المرينى.

٢- تحولت العلاقـات بين المغرب والأندلس إلى علاقات بلاط أو قـصور سيطرت عليهـا دسائس القصـور مما نسب فى انقطاع الجيوش المغـربية عن عبـور عدوة المغرب إلى الأندلس لمقـاتلة النصارى المتجـمعين لاسـترداد الأندلس، وبذلك تركت غرناطة إلى مصيرها المحتوم.

❁❁❁

أولاً: دولة بنى نصر ومملكة غرناطة



الموقع وموجات الهجرة:

نشأت مملكة بنى نصر واتخذت من مدينة غرناطة عاصمة لها وذلك قبيل منتصف القرن السابع الهجرى «القرن الثالث عشر الميلادى»، وقد انحصرت حدود تلك المملكة فى الجزء الجنوبى من الأندلس وراء نهر الوادى الكبير وامتدت حتى ساحل البحر المتوسط وبوغاز جبل طارق، وقد اتسعت حدودها الشرقية لتضم ولاية مرسية التى امتدت شرقا حتى البحر، وقد امتدت حدودها الشمالية إلى ولايات أشبيلية وقرطبة وجيان، كما امتدت الحدود الغربية إلى أرض الفرنتيرة وولاية قادش. وكان التقسيم الإدارى لمملكة بنى نصر آنذاك يشتمل على ثلاث ولايات كبرى هى:

١- ولاية المرية: وتضم المساحة التى تشغلها مرسية على شاطئ البحر المتوسط ومن أهم مدنها المرية وأندرش ودلاية وبورجة وبرشانة وبيرة.

٢- ولاية مالقة: وهى تقع شرق غرناطة ومتاخمة لساحل البحر ومن أهم مدنها مالقة ومربلة ورندة وأنتقيرة وأرشدونة وبلايش ومالقة وقمارش.

٣- ولاية غرناطة: وهى تقع فى وسط المملكة وتمتد جنوبا حتى البحر وأهم مدنها غرناطة العاصمة ووادى أش والحامة تولوشة وأرجبه وأشكر وحصن اللوز وبسطة وشولبانية. وتنعم المملكة بعدة أنهار أهمها شنيل ونهر المنصورة، كما تخترقها سلسلة جبال سيبرة نيفادة وهضاب البشرات، كما تنتشر بها سهول خضراء مترامية الأطراف والتى تمد المنطقة بثروة زراعية مهمة كذلك سلسلة الجبال بما تحتويه من معادن نفيسة كالحديد والرصاص والنحاس، كل هذا قد ساهم فى إعطاء هذه المملكة طبيعة خصبة قد ساعدت على جذب المسلمين من أفريقيا والشرق، هذا علاوة على الكم الهائل من المهاجرين من الداخل الذين

أخـذوا يفدون إلى مملكة غرناطة منـذ سقـوط الدولة الأمـوية بالأندلس هذا بالإضافة إلى البربر الذين وفدوا من المغـرب وطاب لهم المقام فى غرناطة حتى غدت بهم غرناطة وكأنها إمارة بربرية رغم مـا فيها من عناصر أخرى سكانية، وقد زاد تدفق هؤلاء البـرابرة على مر الأيام وخاصة على القواعـد الجنوبية فى عهد دولتى المرابطين والموحدين.

هذا ويلاحظ أن موجات الهجرة الداخلية من البلاد الأندلسية المتاخمة قد بدأت تتزايد على مملكة غرناطة، فكلما سقطت فى يد الأسـبان مدينة مسلمة سواء كانت فى الشرق أو الوسط فـسرعان ما ينهضـون بالهجرة إلى غرناطة إذ كـان المسلمون آنذاك يفضلون الهـجرة إليهـا على الخضوع للنصـارى وقبول التـدجن، وكان من هؤلاء المهاجرين أسـرات عريقة أندلسية لجأت إلى المناطق الجنوبيـة والمدن الساحلية وهذا لا يمنع أن بعضًا من الأسر المغلوبة على أمرها قد أقعدتها مصالحها وظروفها تحت السيادة الأسـبانية الجديدة وهؤلاء هم الذين عـرفوا فى تاريخ الأندلس باسم المدجنين.

من هم بنو الأحمر أو بنو نصر وكيف أقاموا مملكة غرناطة؟

يقتـرن اسم مملكة غـرناطة فى التاريخ الأندلسى باسم أسـرة بنى الأحمـر أو بنى نصر، ويرجع نسبهم إلى «سعد بن عبادة الأنصارى» أحد كبار صحابة رسول الله ﷺ وسيد قبيلة الخزرج من الأنصار بالمدينة، وقد أضفى هذا اللقب على ملوك هذه الأسرة نسبًا عريقًـا وعزًا أصيلاً، وقد كان أول ملوكهم هو الغالب بالله أمـير المؤمنين أبو عبد الله محـمد بن يوسف بن أحمـد بن محمد بن خـميس بن نصر بن قـيس الخزرجى الأنصارى، ولد فى أراجونة من أعمال ولاية جيان سنة «٥٩٥هـ- ١١٩٨م»[1].

وكان يتميز بعدة سمات أهلته أن يتزعم قومه، وكانت الأندلس حين ذاك تموج بالاضطرابات الموجعة فقد أغار الأسبان على القواعد الأندلسية، وفى الوقت نفسه

(١) انظر الإحاطة فى أخبار غـرناطة لابن الخطيب ج١ ص١٤٨ نقلا عن عنان، وينظر أيضا يوسف الأول بن الأحمر سلطان غرناطة للدكتور محمد كمال شبانه ص١٧ وما بعدها.

تراجع الموحدون عن حماية الثغور الشرقية أمام أبى عبد الله محمد أبى يوسف بن هود الذى شق عصا الطاعة على الموحدين حيث تقلد ولاية مرسية، فرأى ابن الأحمر من جهته أن الفرصة سانحة فى وسط الأندلس لتكوين مملكة يستقل بها عن الموحدين وهكذا يثبت ابن هود أقدامه فى شرق الأندلس وجنوبها، بينما ابن الأحمر يثبت أقدامه فى بياسه ووادى أش وما جاورهما من البلاد والقواعد والحصون، وبعدها توجه إلى الموانى الجنوبية حتى يسهل عليهم الاتصال بعدوة المغرب، وحتى يبتعد عن مواقع الأسبان الشمالية ولكى يحقق ابن الأحمر أطماعه ويثبت ملكه فقد توجه إلى الأمير أبى زكريا الحفصى صاحب أفريقية «تونس» يطلب منه العون وأن يستظل بالدعوة إليه فأجابه إلى مطلبه وأعانه على أمره حتى أطاعته قرامونة وقرطبة وأشبيلية لفترة وجيزة ثم سرعان ما تخلت عنه أشبيلية وقرطبة ودخلتا فى طاعة ابن هود.

ثم انتشرت الثورة فى أشبيلية وتمكن من الاستيلاء عليها أحد الزعماء الثائرين وهو أبو مروان الباجى وطرد منها عامل ابن هود عليها فانتهز ابن الأحمر هذه الفرصة وتحالف مع هذا الثائر ضد ابن هود وعقدا العزم على مقاتلته فهزماه فى بعض المواقع غير أن ابن الأحمر نقض عهده مع حليفه ودبر له من قتله، وبعد فترة قصيرة تمكن من فرض سلطانه على كل من جيان ومالقة وشريش وغيرها من البلاد والحصون القريبة، وبذلك استطاع ابن الأحمر أن يكون لنفسه جيشًا عظيمًا مزودًا بالعتاد ومدربًا على فنون القتال.

وفى عام ٦٣٥هـ توفى ابن هود وقد ولى على غرناطة عتبة بن يحيى المغيلى، وكانت هناك خصومة بينه وبين ابن الأحمر وكان حاكمًا قاسيًا ظالمًا لا يحبه أهل غرناطة، فثار عليه أهل غرناطة وقتلوه فى قصره وطلبوا من ابن الأحمر أن يدخلوا فى طاعته فقبل منهم ذلك ولبى دعوة أهل غرناطة ودخلها فى شهر رمضان عام ٥٣٦هـ، وأضحت هذه المدينة هى عاصمة مملكته منذ ذلك الوقت ورفع لواء بنى نصر على حمرائها، ثم اتجه ابن الأحمر للاستيلاء على المرية وطرد عاملها ابن

الرميمى الذى اتجه إلى تونس لاجئًا إلى أميرها أبى زكريا الحفصى. وباستيلاء ابن الأحمر على المرية يكون قد بسط نفوذه على الشواطئ الجنوبية للأندلس.

وهكذا وجدت مملكة غرناطة إثر سقوط دولة الموحدين بالأندلس وقد تعرضت للعديد من الفتن والدسائس والثورات، الأمر الذى أوجب على ابن الأحمر مؤسس تلك المملكة أن يقدر خطورة المهمة الملقاة على عاتقه إذ تولى زمام الدولة وهى فى حاجة ماسة إلى الاستقرار والأمن حتى يتفرغ لمشروعاته وتنفيذ سياسته الداخلية فى مجال الإنشاء والنهضة والتعمير، ولكن كانت الأندلس وقتئذ قد تشعبت إلى دويلات صغيرة تحكمها حكومات أهلية بفعل الحروب التى مزقت وحدتها وفرقت كلمتها، فجاء ابن الأحمر فى ذلك الوقت ليحظى بتأييد الأندلسيين فى الجنوب فقد نظروا إليه على أنه هو المخلص لمشاكلهم وهو الحامى للأندلس من الانهيار وأنه بقوته سيستطيع أن يقضى على دعاة الفتنة ومن ثم ينشر الأمن فى ربوع البلاد وهكذا كان، وقد صدق الرجل وعده مع الأندلسيين.

وفى عام «٦٣٦هـ- ١٢٣٨م» جهز جيشًا لمحاربة الأسبان الذين عاثوا فى أحواز جيان فحاصر قلعة مرتش فى هذا العام وضيق عليها الخناق ولكنه أجبر على فك حصاره عن تلك القلعة واشتبك معه الأسبان فى معركة قوية طاحنة تمكن فيها ابن الأحمر من هزيمة الأسبان بعد أن سقط قائد قلعة مرتش قتيلا ومعه عدد من الفرسان والأحبار من قلعة رباح، ولكن الأسبان لم يتركوه فبعد أن تفرغ فرناندو الثالث من الاستيلاء على مرسية اتجه إلى ابن الأحمر لينتقم لموقعة مرتش فأرسل إليه جيشًا عظيمًا تحت إمرة ولده ألفونسو الذى تمكن من الاستيلاء على حصن أراجونة موطن بنى الأحمر، كما استولى على بعض الحصون المجاورة وتابع زحفه حتى حاصر غرناطة ولكنه فك الحصار عنها مؤخرا عام ٦٤٢هـ.

وفى عام ٦٤٣هـ هاجم الأسبان جيان وضيقوا عليها الحصار وكادت تسقط المدينة لولا ابن الأحمر الذى لجأ إلى المهادنة وعقد هدنة مع ملك قشتالة، فقدم إليه الولاء والطاعة وعقد معه اتفاقًا ضمن له حدود مملكة غرناطة وأن يحكمها باسمه

بعد أن يسدد له جزية سـنوية معينة بالإضافة إلى إقامة حلـف عسكرى ضد أعدائه الأسبان كافة، وطبقا لهذا الولاء اعـتبر ابن الأحمر من الأمراء المنضوين تحت لواء العرش القشتالى، وهذا يعنى حقه فى شـهود المجلس النيابى القشتالى، ولقاء هذا قدم ابن الأحـمر إلى ملك قشتـالة كل من بركونة وبيغـو وجيان والحجـار وكلها أراضٍ من أعمال مملكة غرناطة، وكذلك أرض الفرنتـيرة، كل ذلك ضمانًا لطاعته فوافـقه فـرناندو الثـالث وعقـد معه هـدنة مدتهـا عشـرون عاما عـام «٦٤٣هـ-١٢٤٥م»[١].

ولكن كيف قدم ابن الأحمر هذه التضحـيات الكثيرة لملك قشتالة؟. الظاهر أنه ربما قدمـها ليـحافظ على مملكتـه الجديدة التى لم يـقو عودها بعـد وهو مع ذلك يترقب الوقت الذى سيمكنه من أن يسترد فيه ما تنازل عنه لملك قشتالة وبهذا يتفرغ لمملكته الجديدة فيقوى دفاعاتها وينهج لها سياسة قوية استجابة للظروف التى كانت تجتـازها، وهذا مـسلك ليس غريبًـا على زعمـاء المنطقة آنذاك فـإن بعض زعـماء المسلميـن فى المناطق الأندلسية الأخـرى كانوا قـد سلكوا يومئذ نفـس مسلك ابن الأحمر فى مصـانعة ملك قشتالة متحـالفين متضامنين معه مـحافظة منهم على ما تبقى بأيديهم من أشلاء الأندلس، لقـد كانت أسبانيا النصرانية يومئـذ قد استولت على الولايات الشرقية الأندلسية جميعها وبقيت أمامها الولايات الغربية تتطلع إليها وطبقا للاتفاق السابق بين الأسبان وبين ابن الأحمـر فقد عاون الأخير حليفه على افتتاح الحصون المتاخمة لأشبيلية، كما تدخل بنصحه للعرب أصحاب هذه الحصون بأن يشتـروا السلم والأمان بتنازلهم عنها لأمـير قشتـالة فنفذوا ما أشـار به عليهم صاغريـن، ومن جهة أخرى فـقد أمد ابن الأحمـر حليفه بفرقـة من الجند عندما حاصـر أشبيليـة حتى تمكن الأسبـان من الاستيـلاء عليها فى رمـضان «٦٤٦هـ-١٢٤٨م» كما عاونه أيضا فى استيلائه على ثغر قادس بعد ذلك بقليل.

وهنا قد يثـار تساؤل عن موقف ابن الأحـمر هذا ومدى تحـمله لهذه المسئـولية التاريخية فى تلك المنطقة، فهل كان فى ظروف قـاسية أجبرته على هذا التصرف-

(١) ابن الخطيب. الإحاطة ج٣، ص٦٥، وانظر أيضا الوثائق الخمسة فى قسم الملاحق.

كما ذكرنا-؟ أم أنه كان يؤمل كسبًا مضمونًا بعد أن يتحرر من تلك القيود؟ لقد قبل دفع الجزية وتنازل عن عدة مواقع أندلسية ونصح الحكام الأندلسيين بالتنازل بدورهم عما بأيديهم حقنًا للدماء بل زاد على ذلك فقدم فرقًا من الجيش الأندلسى لتقف بجانب كتائب قشتالة لمحاربة الحكام العرب والآخرين.

وعلى ما يبدو فإن ابن الأحمر كان يتربص فرصة ليتخلص بها من تلك المعاهدات ويتحلل من عهوده التى طوقت عنقه، فإذا به يتجه نحو المغرب يطلب العون من بنى مرين وكانت تلك الدولة فى أول عهدها بالحكم فتية قوية فقد أجيب نداؤه وعبرت الكتائب المغربية البحر إلى الأندلس، وتمكن ابن الأحمر أن يهزم الأسبان عندما قاموا بغزو أرضه عام ٦٦٠هـ وبذلك خرج من طاعة النصارى ونبذ اتفاقاته معهم.

ومما يؤسف له أن تلك القوة الجديدة لم تدم طويلا إذ لاحقته النصارى بجيوشها وتوالت الهزائم على جيوشه ولم تصلح معه المعونات الحربية ولا المادية من المغرب وتونس، ومن ثم نراه لا يستطيع الصمود أكثر، فيقبل ابن الأحمر من جديد مهادنة قشتالة ومصانعة ملكها؛ إذ تنازل له عام ٦٥ ٥هـ عن شريش والقلعة والمدينة وغيرها، ومعظم هذه البلاد يقع غرب الأندلس[(١)]. وهكذا توالت خمس سنوات فى صراع متواصل بين مملكة غرناطة وبين الأسبان فى الخارج وبينها وبين الطامعين فى عرشها بالداخل.

وأخيرا توفى مؤسس دولة بنى نصر محمد بن الأحمر سنة «٦٧١هـ-١٢٧٢م» بعد أن أصيب بجرح إثر سقوطه من فوق جواده فور عودته من إحدى المعارك التى خاضها ضد بعض الثوار الذين حاولوا اقتحام قصر الحمراء لاغتياله، ولكنه ردهم على أعقابهم خائبين، وقد تولى الملك من بعده أكبر أولاده محمد واستقر الملك بعد ذاك فى بنى الأحمر فى تلك المملكة التى قويت دعائمها إلى حد كبير.

---

(١) ابن الخطيب. الإحاطة. ج٢ ص٦٥.

وقبل أن نتحدث عن الفصل الأخير لسقـوط مدينة غرناطة وتسليم مفاتيحها فى مشهدها الدرامى الحزين الذى يؤلم القلوب يستـحسن أن نستعرض موقف كل من ابن هود وابن الأحمر فى استعانتهما بالأجنـبى، وهى بطبيعة الحال مخالفة آثمة لا يرضى عنها الدين الإسلامى ولا يرضاها يومًا لإذلال أمة محمد ﷺ.

ما رأى الدين فى استعانة القائدين المسلمين ابن هود وابن الأحمر بالأجنبى ضد أبناء ملتهما؟

«لقد خالف هذان القـائدان التوجهات الإسلامية فى ولاية غـير المسلمين فطالما حذر القرآن الجمـاعة المسلمة من أن تتخذ من أعـدائها بطانة وأن تجعل منهم أمناء على أسرارها ومصالحـها، يقول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ**﴾ [آل عمران: ١١٨- ١٢٠].

فهذه الآيات تصور حال المسلمين فى ضعـفهم إزاء عدو قوى ماكر يتربص بهم الدوائر، وهذه الصورة نمـوذج بشرى نراه قد تكرر فى بلاد الأندلس مـع المسلمين مرات ومـرات فأعـداؤهم يتظاهرون عند انتـصار المسلمـين وغلبتـهم بالمودة وهم كاذبون منافـقون، وينخدع المسلمون بهـم فيمنحونهم الود والثـقة وهم لا يريدون للمسلمين إلا الاضطراب والخـبال ولا يقصرون فى إيقاع العنـت بالمسلمين والكيد لهم والوقيعـة بين قوادهم إذا واتتهم الفرصة، وبـهذا الأسلوب الملون الذى انخدع به المسلمون أخذوا يستردون البلاد مـدينة مدينة، والمسلمون فى غفلة من تحذير الله لهم يوادون من حـاد الله ورسوله ويفـتحـون لهم صدورهم وقلوبهم والله يـحذر الجمـاعة المسلمة تحـذيرًا دائمًا فى كل عـصر ﴿**وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ**

أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ ويحث الجماعة المسلمة على أن تصبر على كيد العدو وكيف تتقى كيده وتدفع أذاه فيقول: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً﴾** فلا سبيل أمام المسلم إلا الصبر والتقوى والاعتصام بقوة الله وحده دون الالتجاء إلى قوة أجنبية ليستعين بها. وها هى العبرة واضحة فى تاريخ الأندلس فإذا استعان القائد المسلم بقوة الأجنبى عاش ذليلا وضاع ملكه وخسر كل شىء وإذا ما هابه العدو انتصر عليه مهما كانت قوته.

ولدينا خمس رسائل وردت فى كتاب مؤرخ لهذه الفترة وكان شاهد عيان لأحداث تلك الفترة وهذه الرسائل تعد وثائق مهمة سجل فيها المؤرخ صيغة المعاهدات التى تمت بين ملوك غرناطة وملوك الأسبان المسيحيين ويتضح من خلالها كلمات الود التى يزينون بها رسائلهم إلى ملوك النصارى، وكيف يتوددون إليهم ويتوسلون فى ذلة وهوان، وأود أن ألفت نظر القارئ إلى عدة ملاحظات وردت فى تلك الرسائل:

١- أهمية تلك الرسائل من النواحى السياسية والتاريخية والوثائقية وإلى أهمية المعلومات الواردة فيها باعتبار ما جاء فيها يعد من القضايا الدائمة بين غرناطة وجيرانها.

٢- ينبغى أن يلتفت إلى صيغة الخطاب وبما فيها من تبجيل وتقديس لملوك النصارى.

٣- كما يلاحظ فى بعض هذه الرسائل أكثر من اعتذار عن قيام بعض أفراد الشعب فى الأندلس «الباقية» بأعمال انتقامية وفدائية مستمرة ضد العدو النصرانى الذى يريد التهام الأرض والقضاء على المسلمين.

٤- وكذلك يلاحظ أيضا موقف «أبى الحسن على ابن سعد» الضعيف إزاء ملوك النصارى وإن حاول أن يظهر بمظهر التماسك كما أن كل رسالة كانت تختتم بعبارة «صح هذا» وهى علامة بنى نصر كانت توضع فى ذيل كل رسالة توثيقًا لها وكان يكتبها على نحو معلوم كاتب يعرف بكاتب العلامة[1].

(١) آخر أيام غرناطة ص١٧١، ١٧٢.

الرسالة الأولى:

هذه الرسالة صادرة عن أبى الحسن إلى دون دياقه هرندس المرشكال ويبدو أنه كونت قبرة بن قند بن حصن بن أشر صاحب بيانة وقائد القلعة. وإلى بيغش بن بيغش صاحب لك والبندين، فى أمر جواز ألفونسو على وادى آش حيث يتوجه وزير غرناطة إلى ذلك المكان.

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.

إلى السلطان المعظم، الخبير، الحافل الأسمى، الأصيل الأشهر، الأوفى، ذون خوان سلطان قشتالة وليون. أكرمه الله تعالى بتقواه، وأسعده برضاه.

، سلام عليكم سلامًا يُراجع سلامكم كثيرًا أثيرًا، من الكثير الحب فى مقامكم، المبنى على مكارم سلطانكم، عبد الله محمد بن نصر سلطان غرناطة وما إليها من بلاد المسلمين. أيده الله بمعونته ويسره. . . .

وإلى هذا أيها السلطان المعظم فإن كتابكم الأثير وصل إلينا، ووقفنا على ما ذكرتم فيه من كون مقامكم عرف بأن منذ شهر فى الطريق القريبة من رندة. . . وأُخِذَ له جملة من الذهب وطلب من مقامكم العزيز. . . وأنه ظهر لكم فى الكتب إلينا فيها، والرغبة منكم لنا فى أن نأمر بالبحث عن القضية، حتى يُعلم الحق فيها وأن نأمر بالحكم على الفاعلين والإنصاف. . . من الذهب المذكور مما تضمنه كتابكم من الجزئيات واستوفينا جميع ذلك.

أما الخاتمة فكانت:

والله يهيئ ما فيه الخير للجميع بحوله وكرمه، وكل ما يكون لمقامكم العزيز بدارنا ورياستنا من الحوائج والأغراض، فنحن يأسرنا العمل الواجب فى ذلك.

والله يرفع قدركم، ويُزكى الخير عندكم، والسلام يراجع سلامكم كثيرًا أثيرًا. وكتب فى الخامس لشهر ذى القعدة عام ستة وأربعين وثمانى مئة.

صح هذا.

الرسالة الثانية

وهى وثيقة لتجديد الصلح بين دولة غرناطة وسلطانها الحسن على بن سعد وبين مجموعة من ولاة قشتالة وقوادها المجاورين لها لمدة عشر سنوات ميلادية من ١٤٧٢م: ١٤٨١م، وهؤلاء المذكورون هم ذون دياقة هرندس، ومرتين الهنشة وييغش بن ييغش صاحب لك والبندين، وفى هذه المعاهدة المذكورة للأمان بين البلدين مجموعة من التعهدات من دولة غرناطة تحد من سيادتها وتجعلها تابعة فى كثير من الأمور السياسية لدولة قشتالة وقوادها، والرسالة مؤرخة فى أواخر رجب عام٨٧٦هـ.

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.

من عبد الله أمير المسلمين علىّ الغالب بالله بن مولانا أمير المسلمين أبى النصر ابن الأمير المقدس أبى الحسن بن أمير المسلمين أبى الحجاج ابن أمير المسلمين أبى الوليد بن نصر، أيده الله بنصره وأمده بيسره إلى الفارسين المكرمين الزعيمين الحسيبين المشكورين الوفيين: ذون دياقة هرندس والهُشنة ذى منت ميور صاحب القبذيق: أكرمهما الله بتقواه، وأسعدهما بهذا. سلام يراجع سلامكم كثيراً أثيراً كتبنا إليكم من حمرائنا العلية بغرناطة -حرسها الله- عن الخير والعافية والحمد لله.

وإلى هذا فاعلموا أيها الفارسان المكرمان أنه وصل كتابكم وفهمنا جميع ما ذكرتم فيه، فشكرنا تعريفكم، وقصدكم، وأثنينا على محبتكم ومودتكم، وشكرناكم على وصولكم للقبذيق؛ وعلى إظهار المحبة التى لا شك فيها فأنتم - علم الله- عندنا من أحبابنا الأوفياء وأصدقائنا الأصفياء.

وبسبب أنه وصلنا التعريف أن ذون الهُنشة والفرسان جازوا على توجه وزير مقامنا لجهة وادى آش ولأجل أنه توجه سريعا، ولم يصح عندنا من الأخبار شيء

بصحيح مـا عرَّفكم بشىء فنريد منكم أن تزالوا تعرِّفـونا بما يزيد عندكم. وكذلك نحن نعرِّفكم بما يزيد عندنا، وجميع حوائجكم عندنا مقضية، والله يعمل كرامتكم بتقواه.

«كتب فى» التاسع عشر لربيع الأول عام خمسة وسبعين وثمان مئة.

صح هذا.

الرسالة الثالثة

وهذه الرسالة موجهة إلى ذون دياقة هرندس فيها توكيد مودة وتطمين بمناسبة سفر المذكور إلى سلطان قشـتالة للحفاظ على ولده وماله وأرضه من أى اعـتداء يأتيه من المطوعة الغرناطية الأندلسية، وفيها اعتذار عن شىء وقع لم يكن عن علم من سلطان الأندلس أو رضاه، وهذه الرسالة مؤرخة فى ٤٢ من ربيع الأول عام ٨٨٠هـ.

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.

ليعلم من يقف على هذا المكتـوب الكريم أو يسمعه أننا عبد الله أمـير المسلمين على الغالب بالله مولانا أمير المسلميـن أبى النصر بن الأمير المقدس أبى الحسن بن أمـيـر المسلمـين أبى الحجـاج بن أمـيـر المسلمـين أبى الوليـد بن نصـر أيدنا الله بنصره. . . وأمدنا بيسره. . .

كان بيننا وبين الفارس المكرم الزعيم الحسيب المشكور الأوفى ذون دياقة هرندس ذى قرطبة قند قبره بن قند حصن أشـر صاحب بيانة وقائد القلعة، والفارس المكرم الزعيم الحـسيب المشكور بيغش بن يـيغش صاحب لُك، والبندين -أكـرمهم الله بتقواه- صُلح ثابت، ومحبة صادقة، ومودة خالصة، منعقدة لأمد معلوم.

ولأجل أن هذه المحبة التى بين مقامنا وبين الفرسان المذكورين هى تزداد فى كل يوم وفى كل حين، ونـحن نريد أن تزيد أكثر من ذلك، وأنَّـا نجددها الآن وندخل فى الصلح والمحبة الفارسين المكرمين بيغش بن بيغش صاحب لُك والبندين، وذون

دياقة هرندس المرشكال بقشتالة. والوزير الكبير بقرطبة، وذون مرتين، قمند دور استبة أولاد القند ذى قبره؛ فلأجل ذلك تعملون أيها الفرسان المكرمون والأحباب المشكورون ذون دياقة هرندس ذى قرطبة قند قبره قند حصن أشر وصاحب بيانه وقائد القلعة ومرتين الهنشه ذى منت ميور صاحب القبذيق، ييغش بن ييغش صاحب لُك والبندين، ذون دياقة هرندس المرشكال بقشتالة الوزير الكبير بقرطبة، وذون مرتين قمندر استبة أكرمكم الله بتقواه...

واعلموا أيها الفرسان المكرمون المذكورون أن أولادنا الأمراء -أسعدهم الله- يحفظون لكم هذا الصلح، وهذه المحبة والصحبة مثلما نحفظها نحن بخاصة مقامنا الكريم، فإنكم من أجل أحبابنا الأوفياء وأصدقائنا الأصفياء، ومن أهل رأينا الكبراء. فجانبكم عندنا محفوظ ومحبتكم صحبة ثابتة، لا نشك فى صدق محبتكم ولا مودتكم. ونحن نعاهدكم على صحة جميع ما ذكرنا لكم، ونحلف لكم بالله الواحد الحق على أن كل ما ذكرنا لكم نوفى لكم به ونحفظه ونحرزه بالقدر والوفاء فى كل وقت من غير غدر ومن غير خداع. ولأجل أن يكون هذا العقد صحيحا وثابتا ختمناه بعلامتنا السعيدة الصادرة من يدنا الكريمة وجعلنا عليها طابعنا العزيز المعهود عن مقامكم الكريم، فى أوائل رجب الفرد المبارك عام ستة وسبعين وثمان مئة عرف الله بحكمته.

صح هذا[1].

ونعود بالحديث مرة أخرى إلى هذين القائدين اللذين واليا ملوك النصارى وعاشا فى كنفهم وتحت ربقتهم، وقد عرفنا سابقا أنه إبان ضعف الدولة الموحدية وتفسخها ظهرت دويلات متنافسة كان من أهم أمرائها المتنافسين محمد ابن الأحمر وابن هود وقد بلغ بينهما العداء مبلغًا كبيرًا أدى إلى استعانة ابن الأحمر على خصمه بملك قشتالة، وتنازل ابن هود بدوره عن ثلاثين من قلاع المسلمين لهذا

(١) نكتفى بهذه الرسائل على سبيل المثال ومن أراد الاستزادة فليرجع إلى تلك الرسائل الخمس وقد عرضناها فى قسم الملاحق فى آخر الكتاب وقد نقلنا هذه الرسائل الخمس من كتاب آخر أيام غرناطة. مرجع سابق ص١٧٢: ١٨٠.

الملك رغبة فى مساندة الأسبان له ضد ابن الأحمر، ولكن مملكة ابن هود لم تدم طويلا إذ هزمه الأعداء ومات أخيرا بالسل، بينما استطاع ابن الأحمر الذى اشترك فى حصار أشبيلية -كما عرفنا سابقا- من بسط سلطانه ودعمه فى جنوب الأندلس فاستولى على غرناطة وجعلها عاصمة لملكه والتى قد تضخمت أعداد سكانها فبلغوا مائتى ألف، وذلك بسبب لجوء الهاربين من مجازر الأسبان إليها، وقد بذل بنو الأحمر جهداً كبيراً فى تحصين غرناطة والنهوض بها نهضة شاملة حيث حولوا الوادى إلى حدائق فسيحة، كما أن موقعها الحصين قد مكن ساكنيها من الدفاع عنها. . كل هذه الأسباب جعلت من مدينة «غرناطة» موضعاً للغيرة والحسد من قبل ملك قشتالة الذى عاش يتربص بها الدوائر ويتحين الفرص للإيقاع بها وكان بنو الأحمر يدركون ذلك جيدا.

فبدأوا ببناء القصاب والقلاع كما بنى محمد بن الأحمر قصره على قمة تل كان فيما سبق موقعاً لحامية عسكرية مسلمة، وجلب إلى هذا الموقع المياه حيث أجرى القنوات العميقة من الجبال المحيطة، وقد تعاقب سلاطين بنى الأحمر على عمارة قصر الحمراء وتوسعة حدائقه حتى صار من أعظم الأعمال المعمارية آنذاك.

وتعد غرناطة آخر معقل من معاقل الإسلام فى الأندلس آنذاك ازدهرت فيها العلوم والآداب والفلسفة، وكان أمراؤها يشجعون العلماء على هذه النهضة ولا يبخلون فى سبيلها بالمال حتى زين بلاط بنى الأحمر بمجموعة من الشعراء والكتاب لهم أثرهم فى الحياة الثقافية آنذاك، وقد عاشت غرناطة قرنين من الزمان قبل سقوطها عام ١٤٩٢م، وقد يتساءل الإنسان عن سبب صمود غرناطة لهذين القرنين!! إن السبب فى ذلك قد يرجع إلى:

١- وجود قيادة قوية ومحكمة من ملوك بنى الأحمر وكان أولهم محمد بن يوسف النصرى المعروف بابن الأحمر، فهو أول من أنشأ دولة غرناطة وقد استمر الملك فى دولة بنى الأحمر حتى سقوط غرناطة، وكان الرعيل الأول منهم على مستوى المسئولية ووصلت لأوج قوتها حتى عهد محمد الخامس سنة٧٦٣هـ وبعد موته لم يكن خلفاؤه على نفس المستوى فبدأت المملكة فى الانحدار.

٢- التجأ كثير من المسلمين فى الأندلس إلى مملكة غرناطة التى كانت تمثل دار الإسلام آنذاك بعد أن سقطت مدنهم الأصلية فى يد الأسبان، وقد انحاز هؤلاء لغرناطة وهم موتورون حانقون على الأسبان، وكان منهم الأدباء والصناع والزراع وأرباب المهن والحرف وعمرت بهم غرناطة عمرانًا حافلاً فلم يبق شبر من أرضها إلا أستغل أحسن استغلال فلا غرو أن يصل عدد المسلمين فى تلك المملكة ستة ملايين مسلم.

٣- مساعدة ملوك دول المغرب العربى لإخوانهم الأندلسيين أمثال ملوك بنى حفص وملوك بنى مرين إذ كانت المساعدات الحربية وإرسال الجيوش لا تنقطع لنصرة مسلمى الأندلس وعلى ما يبدو لم تكن هذه المساعدات كانت تصادف نجاحًا مما جعلهم بعد ذاك يضنون بالمساعدة.

٤- حالة الصراعات الداخلية والتفكك الذى ساد ممالك أسبانيا النصرانية فى هذه الفترة حيث سادت الانقسامات داخل مملكة قشتالة أكبر ممالك أسبانيا النصرانية إذ دخلت فى صراعات دموية مع مملكة ليون وأراجون، فقد كانت هذه الصراعات فرصة وإن كانت مؤقتة أدت إلى تثبيت أركان دولة غرناطة وتقوية قواعدها إلى حين من الزمن.

وهكذا كانت منعة غرناطة وموقعها الحصين وحنكة سلاطين بنى الأحمر السياسية وانقسامات الأسبان الداخلية سببا فى بقاء غرناطة متماسكة ما يقرب من قرنين ونصف.



ثانيًا: تسليم غرناطة وإنهاء دولة الإسلام

يستحسن قبل أن نخوض فى الحديث عن إنهاء دولة الإسلام فى الأندلس أن نعيش مع مؤرخ يعتبر شاهد عيان قد شارك فى بعض المعارك الأخيرة وسجل بقلمه ما شاهده فى تلك المرحلة القاسية فى كتابه «آخر أيام غرناطة»، وهذا الكتاب يعد وثيقة تاريخية من أهم الوثائق الباقية فى التاريخ الأندلسى إذ ترجع أهميته -كما قلنا- أن مؤلفه يعد الشاهد الوحيد تقريبًا الذى سجل أحداث تلك الفترة التى سلمت فى أعقابها مفاتيح المدينة للأسبان، وهى فترة تقدر بنحو خمسة عشر عاما وسوف أقصر حديثى على هذه الفترة على وجه الخصوص.

عرفنا سالفا أن صمود غرناطة المؤقت كان يرجع لعدة أسباب منها منعة موقع غرناطة وحنكة سلاطين بنى الأحمر السياسية، وصراعات الأسبان الداخلية فيما بينهم.

ولكن كان من سوء طالع غرناطة أن ممالك الأسبان الرئيسية: «قشتالة والأراكون-وليون التى ضمت إلى الأراكون-» قد تم التصالح بين ملكى قشتالة والأراكون وذلك بزواج ملكة قشتالة إيزابيلا من ملك الأراكون فرديناند، وبهذا توحدت ممالك الأسبان وبرزت أسبانيا المسيحية كدولة فتية قوية، كان الهدف المشترك بينهما أن يقضى فرديناند وإيزابيلا على دولة المسلمين وذلك بسقوط غرناطة بصورة نهائية. . كانت إيزابيلا متعصبة لديانتها المسيحية إلى حد الهوس، وكانت ترى أن رسالتها تطهير أرض أسبانيا من الكفرة «المسلمين» وكان يساعدها على ذلك صرامة شديدة وقلب قاس لا يلين. أما زوجها فرديناند فهو ضب خلوف فى وعده لا يرى ضيرًا أن يكتب عهدًا بيمنه لتنقضها شماله، وكان يرى أن هذا تقرب للرب من أجل الوطن حتى ولو كان كذوبًا غادرًا ناقضًا للوعد.

وبينما كان البلاط الأسبانى سائرًا فى طريق الوحدة على نحو ما أسلفنا كان



بلاط بنى الأحمر مسرحًا للفتن والدسائس والمؤامرات التى أدت إلى أن يقتل بعضهم البعض.

اقتربت نهاية غرناطة عندما اعتلى السلطان على أبو الحسن ابن الأحمر عرش غرناطة، كان أبو الحسن شجاعًا مقدامًا ولكن يخالط شجاعته مزاج حاد وطبيعة نارية تبلغ درجة التهور والطيش غير عابئ للعواقب، كان أبوه قد أدرك ضعف غرناطة أمام الأسبان فآثر السلامة ورضى أن يدفع لملك الأسبان ضريبة سنوية لإرضائه.. أما أبو الحسن هذا فعندما طولب بالضريبة. أجاب الأسبان أن ليس عنده إلاّ السيف وأعقب كلامه بالفعل فهجم على حامية أسبانية قريبة واحتلها وطرد منها الأسبان.

وجد فرديناند وإيزابيلا فرصتهم الذهبية لتحقيق حلم أسلافهم بالقضاء على غرناطة هذا المعقل الحصين للمسلمين.

وقد ساعدهم على ذلك حصول فتنة كبيرة فى البلاط الملكى فى غرناطة إذ إن أبا الحسن كان قد تزوج من ابنة عمه عائشة أو «فاطمة» التى ولدت له ابنه أبو عبد الله الملقب «الصغير»، وكان لأبى الحسن زوجة أسبانية جميلة كانت المفضلة عنده حيث ولدت له طفلين، وأراد أن يجعل الملك لهما من بعده.. حدثت الفتنة داخل القصر بين أبى عبد الله الصغير مدفوعًا من أمه عائشة وبين أبيه، كان للأسبان يد فيها.. ويلف الغموض أحداث هذه الفترة إلاّ أن المعروف أن أبا الحسن ترك غرناطة متجهًا إلى المرية عند أخيه الملقب «الزغال» لشجاعته وبأسه، وهناك توفى أبو الحسن فاندلعت الفتنة بين الزغال وابن أخيه أبى عبد الله الصغير انتهت بأن يقسم الاثنان المملكة بينهما فيكون للزغال مالقة والمرية وجنوب غرناطة ويكون الباقى لأبى عبد الله.

قرر فرديناند تصفية الخصمين كلٍ على حدة وكان أبو عبد الله قد ارتبط بمعاهدة صداقة مع فرديناند.. فبعث فرديناند جيشًا كبيرًا لمحاصرة مالقة لعدة شهور أصابت المجاعة أهلها ببلاء عظيم واستبسل سكانها فى الدفاع عن مدينتهم.. وقد

أرسل الزغال جيشًا من المرية لنجدة مالقة ولكن قطع الطريق عليه قوة عسكرية أرسلها أبو عبد الله انتصارًا للأسبان!! ولم يجد هذا الخسيس ضيرًا أن يرسل رسالة تهنئة إلى فرديناند بسقوط مالقة فيما بعد.

أخيرا استسلمت مالقة للأسبان وبدأت المجازر التى راح ضحيتها الطفل والشيخ والمرأة على حد سواء.. لقد سجل الأسبان صفحة سوداء أخرى فى تاريخهم فى مالقة حفظتها كتب التاريخ.

أبدى الزغال شجاعة نادرة فى مناوراته مع الأسبان وحقق انتصارات لا بأس بها عليهم ولكن الكفة رجحت أخيرًا لصالحهم فلم يجد بُدًا من الاستسلام فأعطى بعض المال ونفى إلى أرض وهبها له فرديناند.

ولكن بقاءه فى الأندلس لم يعد مرغوبًا فيه فأُمر أخيرًا بالرحيل فعبر إلى فاس فى مراكش، وهناك اتهم بالخيانة والجبن وصودرت أمواله وفقئت عيناه وسجن ثم أخرج من السجن ليبدأ التسول فى شوارع فاس وليموت البطل أخيرًا كسير القلب مجروح الفؤاد على الرغم من استماتته فى الدفاع عن معقل الإسلام الأخير فى الأندلس.

ودارت الأيام على أبى عبد الله.. فلم يمض إلاّ وقت قصير حتى طلب فرديناند من أبى عبد الله تسليم غرناطة فورًا.. أسقط فى يد أبى عبد الله ولم يجد الغرناطيون بدًا من الدفاع عن مدينتهم والاستماتة فى سبيلها.

وهكذا فقد بدأ حصار غرناطة فى خريف سنة ١٤٩١م بعد أن سبقه تدمير الحقول والمروج والبساتين فى وديان غرناطة الخضراء، واستمر الحصار لبضعة شهور كانت تكثر خلاله المناوشات والمبارزات بين فرسان المسلمين والأسبان، كانت الغلبة فى معظمها لفرسان الإسلام حتى خشى فرديناند على فرسانه من الإبادة فأمر بإيقاف المبارزة بين الطرفين وضيّق بدلها الحصار حتى تفشت المجاعة فى داخل غرناطة.

يقول المؤرخ شاهد العيان أن ملك قشتالة قد رجع إلى فحص غرناطة ونزل بمحلته بقرية «عَتْقَه» ثم بنى سوراً ضخماً كبيراً وسماه «شنتفى»[(١)].

وصار يهدم القرى ويأخذ ما فيها من آلات البناء وينقلها إلى تلك البلدة وهو آنذاك يقاتل المسلمين ويقاتلونه قتالا شديدا، وكان مما رجح كفته على كفة المسلمين أنه استطاع أن يستولى على أبراج القرى الدائرة حول غرناطة ولم يبق منها إلا قرية الفخار التى استماتت المسلمون فى الدفاع عنها[(٢)]، وقد قُتل من القشتاليين أعداد كبيرة لأن المسلمين وجدوا فى الحرص على هذا الحصن سببا فى بقائهم فإذا سلبه العدو فيكون سببا فى إخلاء قرى الجبل ومن ثم يتمكنون من حصار البلد[(٣)]. ومن هنا دافع عنها المسلمون دفاعًا مستميتًا مما دفع القشتاليين إلى فك الحصار عن البلد.

ثم اتجه الملك القشتالى إلى شن العديد من الغارات فى أماكن متعددة من فحوص غرناطة مما أربك المسلمين إرباكًا شديدًا فتارة يغير على أرض الفخار وتارة فى أرض بليانة وتارة فى أرض رسانة وتارة فى أرض طفير وتارة فى أرض يعمور وتارة فى أرض الجدوى وتارة فى أرض رملة أفلوم وتارة فى أرض الربيط وتارة وادى منتشيل وغير ذلك من المواضع التابعة لغرناطة[(٤)].

وفى كل هجمة من هجمات القشتاليين كان يُثخن فيها المسلمون؛ فرسانهم وجنودهم بالجراح ويستشهد الكثيرون ولم تقتصر هذه التضحيات على المسلمين

---

(١) شنتفى هى santa fe هذا المكان صار مدينة عسكرية كبيرة سمتها الملكة إيزابيلا «سانتافيه» أى الإيمان المقدس. يقول الأستاذ عنان فى كتابه نهاية الأندلس ص٢٣٦: وذلك إشارة منها إلى المغزى الدينى لهذه الحرب الصليبية وما زالت هذه المدينة قائمة حتى اليوم جنوب غرناطة.

(٢) قرية الفخار: هى من جملة قرى غرناطة وتقع فى شمال شرق غرناطة، وقد ذكرها لسان الدين بن الخطيب ج١ ص١٣١ وقد سميت بهذا الاسم لأنها تقع فى سفح جبل الفخار وهو أحد أقاليم فحص غرناطة الخمسة.

(٣) آخر أيام غرناطة. مؤلف مجهول. من رجال القرن التاسع الهجرى. تقديم الدكتور محمد رضوان الداية. . دار حسان للطباعة والنشر ص١١٨ .

(٤) آخر أيام غرناطة ص١١٩ .

فقط بل أصيب النصارى أيضا بأضعاف ذلك، وقد صبر المسلمون واحتسبوا ذلك عند الله وقلوبهم مملوءة بالثقة التامة بنصر الله تعالى وهم يقاتلون عدوهم -كما يقول شاهد العيان- بنية صادقة وقلوب صافية ومع ذلك يمشى منهم الرجال فى ظلام الليل لمحلة النصارى ويتعرضون لهم فى الطرقات فيغنمون ما وجدوا من خيل وبغال وحمير وبقر وغنم ورجال وغير ذلك. . . . «ولم تزل الحرب متصلة بين المسلمين والنصارى والقتل والجراحات فاشيان فى الفريقين سبعة أشهر إلى أن فنيت خيل المسلمين بالقتل ولم يبق منها إلا القليل، وفنى أيضا كثير من نجدة الرجال بالقتل والجراحات»(١).

وقد اشتدت الكربة بالمسلمين فى تلك المدة التى فشت فيها الجراحات والقتل حتى هجر كثير من المسلمين قراهم متجهين إلى بلاد البشرّة لما نالهم من الجوع والخوف، وكانت تلك البلدة يعمها الخير الكثير عن طريق من أعلى جبل شلير، فكان يأتيها القمح والشعير والذرة والزيت والزبيب وغير ذلك من الفواكه والأغذية ولكن تبعًا للحصار الذى أحكمه ملك قشتالة أخذ الحال فى بلد بشرة يضعف ويقل من الطعام والرجال إلى أن دخل فصل الشتاء عام ٨٩٧هـ وقد تساقطت الثلوج بالجبل وقطع الطريق من البشرة فقل الطعام تماما فى أسواق غرناطة واشتد الغلاء وأدرك الجوع كثيرا من الناس وكثر السؤال والعدو مقيم ببلده شنتفى -سالفة الذكر- مقر محلته، ولقد مُنع الفحص كله ومُنع المسلمون من الحرث والزراعة وأحكم ملك قشتالة الحصار على المسلمين حينئذ اجتمع أعيان الناس من الخاصة والعامة والفقهاء والأمناء والأشياخ ومن بقى من أنجاد الفرسان وساروا جميعا إلى أمير مدينة غرناطة محمد بن على وأعلموه بحال الناس وما هم فيه من الضعف وشدة الجوع وقلة الطعام وأن بلدهم بلد كبير لا يقوم به طعام مجلوب، فكيف ولم يجلب إليه شىء، وأن الطريق التى كان يأتيهم عليها الطعام والفواكه من البشرة انقطعت وأن أنجاد الفرسان هلكوا وفنوا ثم قالوا له أيضا: إن إخواننا

(١) آخر أيام غرناطة ص١٢٠ .

المسلمين من أهل عدوة المغرب بعثنا إليهم فلم يأتنا أحد منهم ولا عرج على نصرتنا أحد، وعدونا قد بنى علينا وسكن معنا، فهو يزداد قوة ونحن نزداد ضعفا، والمدد يأتيه من بلاده ونحن لا بلد لنا، وهذا فصل الشتاء قد دخل علينا ومحلة عدونا قد تفرقت وضعفت وقد قطع عنا الحرب؛ وإن تكلمنا معه الآن فقد يقبل منا الكلام ويعطينا كل ما نطلب منه؛ وإن بقينا حتى يدخل فصل الربيع وتنجلى الثلوج فسوف تجتمع عليه جيوشه ويزداد قوة فلن يعود يقبل منا ما نطلبه منه، ومما زاد الطين بلة أنه قد هرب لمحلته من بلدنا أناس كثيرون فسوف يدلونه على عوراتنا ويستعينون بهم علينا.

فقال لهم الأمير محمد بن على: انظروا ما يظهر وما تتفقون عليه للرأى الذى فيه صلاحكم، فاتفق رأى الجميع أن يبعثوا إلى ملك قشتالة ويتكلموا معه فى أمرهم. ويروى أيضا أن أمير غرناطة ووزيره وقواده قد تقدموا مع النفر الموجهين لملك قشتالة، واتفقوا مع الملك وعادوا وقد أخفوا عن العامة هذا الاتفاق خوفا من غضبتهم وثورتهم وحينما وجد هؤلاء النفر أن العامة قد سكنت وهدأت بعثوا للملك بذلك فاطمأن ورغب فى توقيع المعاهدة مع المسلمين التى سميت بمعاهدة الاستسلام فى ٢١ من المحرم عام ٨٩٠هـ الموافق ٢٥/١١/١٤٩١م وقد تضمنت هذه الوثيقة ٢٧ مادة على ضرورة تسليم غرناطة قبل يوم ٢٥ يناير ١٤٩٢م للملكين الكاثوليكيين فرديناند وإيزابيلا بعد دخولهم فى حكم النصارى واحترام دينهم وعاداتهم وعدم إجبارهم على وضع شارات خاصة وضمان الحكم بالشريعة الإسلامية وعدم إجبار أحد منهم على اعتناق النصرانية. وقد وردت بعض هذه الشروط فى كتاب آخر أيام غرناطة على النحو التالى:

١- أن يؤمنهم الملك على أنفسهم وبلادهم ونسائهم وصبيانهم ومواشيهم ورباعهم

٢- لا يغرمون إلا الزكاة والعشر لمن أراد الإقامة ببلدة غرناطة.

٣- ومن أراد الخروج من غرناطة يبيع أصله بما يرضاه من الثمن لمن يريده من المسلمين والنصارى.

٤- ومن أراد الجواز لبلاد العدوة بالمغرب يبيع أصله ويحمل أمتعته فى مراكبه إلى أى أرض أراد من بلاد المسلمين من غير كراء ولا شىء يلزمه لمدة ثلاث سنين.

٥- ومن أراد الإقامة بغرناطة من المسلمين فله الأمان على نحو ما ذكر[١].

وقد كتب لهم ملك قشتالة بذلك كتابا وأخذوا عليه، عهودا ومواثيق فى دينه مغلظة على أنه يفى لهم بجميع ما اشترطوه عليه، فلما تمت هذه العهود والمواثيق قرئت على أهل غرناطة ولما سمعوا ما فيها اطمأنوا إليها وانقادوا لطاعته وكتبوا بيعتهم وأرسلوها لصاحب قشتالة وسمحوا له فى الدخول إلى مدينة الحمراء وإلى غرناطة فعند ذلك أمر أمير غرناطة بإخلاء مدينة الحمراء فأخليت دورها وقصورها ومنازلها وأقاموا ينتظرون دخول النصارى لاستلامها.

وفى اليوم الثانى من ربيع الأول من عام ٨٩٧هـ أقبل ملك قشتالة بجيوشه حتى قرب من البلد، وبعث فرقة من جيشه فدخلوا مدينة الحمراء وبقى هو مع بقية الجيش خارج البلد لأنه كان يخاف من الغدر، وكان الملك حين توقيع الاتفاق قد أخذ من المسلمين خمسمائة رجل رهينة ليطمئن عند دخول المدينة وأقعدهم فى محلته، فلما اطمأن من المسلمين ولم ير منهم غدرا سرح جنوده لدخول البلد ودخول الحمراء فدخل منهم خلق كثير وبقى هو أيضا خارج البلد وشحن الحمراء بكثير من الدقيق والطعام والعدة وترك بها قائدا من قواده وانصرف راجعا إلى محلته، وأخذ يمد المدينة بالدقيق والعلوفات وأنواع الطعام وما يحتاجون إليه وجلب إلى البلد قوادا وحكاما وبوابين، وصار المسلمون يختلفون إلى المحلة للبيع والشراء وأخذوا يتعاملون مع النصارى بطريقة سلمية[٢].

وقد ذيلت المعاهدة بتأكيد من الملكين الكاثوليكيين ضامنين لدينهما وشرفهما القيام بكل ما يحتويه العقد ثم ذيلت بتأكيد جديد موقع من ولى العهد وسائر عظماء المملكة الأسبانية باحترام المعاهدة من الآن وإلى الأبد.

(١) آخر أيام غرناطة ص١٢٤ .
(٢) المرجع السابق ص ١٢٦ .

ويروى أنه قد وقعت معاهدة أخرى فى نفس اليوم الذى وقعت فيه معاهدة تسليم غرناطة يضمن فيها الملك القشتالى وزوجه حقوق امتيازات ومنح السلطان أبى عبد الله وأفراد أسرته وحاشيته حق ملكية أبدية لمنطقة البشرة حول أندرش وعذرة كما يعطيه منحة قدرها ثلاثون ألف جنيه قشتالى وأن يحتفظ بأملاك أبيه أبى الحسن[(١)].

وقد قرر السلطان أبو عبد الله ورجاله تسليم غرناطة قبل التاريخ المتفق عليه خوفا من غضب شعب غرناطة فاتفق على تسليم مفاتيح قصر الحمراء وبوابات مدينة غرناطة بتاريخ ٢ من يناير سنة ١٤٩٢م، وقد تم تسليم الحاضرة الإسلامية للأندلس بقصورها وأربادها ومساجدها وأسواقها ومدارسها وأهلها للعدو الحاقد فى نفس اليوم، وبعد أن سلم أبو عبد الله المفاتيح تقدم إلى الملك ليضع بين يديه خاتمه الذهبى الذى كان يبصم به المراسيم والقرارات وكان ذلك فى يوم حزين قد غاض فيه ماء العروبة والإسلام وغربت شمسه إلى الأبد، وكان أول عمل قام به الكردينال عند دخول الحمراء هو نصب الصليب فوق أبراجها وترتيل صلاة الحمد الكاثوليكية وانتقل أبو عبد الله وأهله بعد أن أكد ولاءه للملكين الكاثوليكيين إلى مقامه الجديد إلى حين[(٢)].

حينئذ أمتطى أبو عبد الله الصغير صهوة فرسه وقد ارتعدت فرائصه موليًا ظهره لقصر الحمراء الشهير وقد تقطب جبينه وانعقدت سحابة الحزن على أسارير وجهه وانطفأ وهج الحياة أمام ناظريه وقد خيم على الركب المرافق له صمت كئيب لما اكتنف القلوب من الغم والكرب الشديدين، ومضى أبو عبد الله تتبعه أمه وأهله وأقاربه وصحبه فى ركب حزين متجها نحو مقر منفاه فى وقت قد كسفت فيه الشمس فمالت إلى الغروب وألقت بأشعتها على جدران قصر الحمراء التى بكت

(١) محمد عبد الله. التنصير القسرى لمسلمى الأندلس فى عهد الملكين الكاثوليكيين. عمان الأردن. عام ١٩٨٠م.

(٢) انظر هذه المواقف فى التنصير القسرى لمسلمى الأندلس مرجع سابق، نهاية الأندلس لعبد الله عنان، الصحوة الإسلامية فى الأندلس بذورها ومسارها للدكتور على المنتصر الكتانى.

أهلها وأصحابها. ولم لا فهي صائرة إلى المجهول وسوف يفارقها أهلها إلى الأبد.

وقد تذكر أبو عبد الله قصور الحمراء فتلفت إليها وهو على مرتفع من الأرض فرأى غرناطة ورأى بيوتها البيضاء الجميلة فألقى عليها نظرة وداع أخيرة وفاضت عيناه بالدمع فقد عزت عليه تلك المدينة وحدائقها الغناء ومسرح صباه ومرتع شبابه فاعتصر قلبه حزنا وانهمرت الدموع من عينيه، فحاول جاهدا أن يخفيها عن أمه التى ترقبه والحسرة تملأ قلبها فقالت له قولة صارت مثلا وهى: «ابك مثل النساء ملكًا مضاعا لم تحافظ عليه مثل الرجال» وقد بقى ذلك المكان إلى يومنا مزارا للسياح يسوقهم سكان المنطقة إليه وقد أطلقوا عليه زفرة العربى الأخيرة.

أسباب سقوط غرناطة:

لقد تضافرت عوامل عديدة أدت إلى ذلك السقوط الشنيع ومنها:

١- المنازعات الداخلية والصراعات المختلفة حول الحكم فى الأسرة المالكة مما أدى إلى انشغال الحاكم ووزرائه وقواده بتلك الفتن التى لا نهاية لها، وفى سبيل شهوة الملك يضحى بكل شىء ويضحى بقطع أجزاء من الوطن وبدفع جزية مالية مرهقة.

٢- استعانة حكام المسلمين بالعدو الأسبانى ملك قشتالة، وقد كان لذلك الملك الأثر الكبير فى إشعال الخصومة بين أمراء المسلمين فقد مال إليه ابن الأحمر وساعده فى حصار أشبيلية ومكنه من اقتطاع كورها، مما أدى إلى زوال ملك بنى هود. ولا غرو بعد ذلك أن نرى الدائرة تعود لتمسك بتلابيب ابن الأحمر الذى اضطر إلى تسليم غرناطة عندما شعر بضعفه أمام قوة قشتالة الناشئة، وهكذا كان الاتصال بالأجنبى وبالا على المسلمين وعلى هؤلاء الحكام وكأن التاريخ يعيد نفسه إذ نرى هذه الخصلة الرديئة لا تفارق ملوك وأمراء العرب اليوم.

٣- وقع المسلمون فى خطأ عسكرى كبير وعلى ما يبدو أنهم قد أجبروا عليه وهو أن الحصون والقلاع التى كانت تذود عن الحمراء وتدافع عنها من أى جهة سلمت للأعداء، وكان هذا شرطًا أساسيًا من شروط ملك قشتالة عند عقد معاهدة بينه وبين ملوك المسلمين، وقد أدى سقوط الحصون إلى ضعف حامية غرناطة ومن ثم زلزلة كيان المسلمين وازدياد قوة النصارى آنذاك.

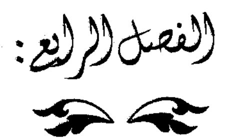
٤- كما يلاحظ من خلال جبهتى المسلمين والنصارى أن كلا منهما قد تطورت عكس الأخرى، فبينما توحدت قوى قشتالة وليون وغيرها تحت إمرة ملك قشتالة نرى أن ملوك المسلمين قد انشغلوا بالشهوات والانكباب على الملذات وشرب الخمر وحفلات الغناء وإنشاب الفتن فيما بينهم.

٥- وكان من أسباب سقوط غرناطة أيضا أن اعتلى العرش بعض الملوك الخونة الذين باعوا ضمائرهم أمثال الزغل والملك أبى عبد الله الصغير فقد باعوا البلاد وأضاعوا مصالح العباد فى سبيل محالفة الأعداء.

٦- وقد ترتب على تسليم غرناطة أن الملك أبو عبد الله الصغير ظن أنه بالاتفاقية التى توصل إليها مع النصارى قد حفظ للمسلمين حقوقهم وأنه وصل إلى أحسن الشروط لتسليم المدينة، ولم تكن هذه الشروط من قبل النصارى إلا ستارا لغدرهم وخيانتهم، وفى عام ٨٩٧هـ أمر فرديناند ملك قشتالة أبا عبد الله الملك الصغير بمغادرة الأندلس وأذن له وأعد المراكب لكثير ممن أراد العبور معه، فعبرت به إلى مدينة فى المغرب ثم نزح منها واستقر فى مدينة فاس وتوفى عام ٩٢٤هـ.

❀❀❀





من قضايا الموريسكيين بعد تسليم غرناطة

أولاً: التنصير القسرى ومحاكم التفتيش

ثانيًا: طلب النجدة من مسلمى الشرق

ثالثًا: تشتيت الموريسكيين وطردهم الجماعى من أسبانيا

رابعًا: هل أعرض العثمانيون عن مساعدة الموريسكيين؟

أولاً: التنصير القسرى ومحاكم التفتيش

لقد اطمأن المسلمون فى غرناطة إلى وعود ملك قشتالة حيث سمح لهم الجواز إلى بر العدوة المغربية وأتاهم بالمراكب إلى الساحل وصار كل من أراد الجواز يبيع ماله ورباعه ودوره، وكان الواحد منهم يبيع الدار الكبيرة المعتبرة بالثمن القليل، وكذلك يبيع جنانه وأرض حرثه وكرمه بأقل الأثمان بل بأقل من ثمن الغلة التى كانت فيه، ومنهم من اشتراه من المسلمين الذين عزموا على الدّجن[1]، ومنهم من اشتراه من النصارى، وبعدما يتم البيع يرحلون إلى الساحل بما معهم فيرفعهم النصارى فى البحر محترمين مكرمين مؤمنين ويجوزونهم إلى عدوة المغرب فى أمن واطمئنان. ويقول شاهد عيان لهذه الفترة: كان ملك قشتالة قد أظهر للمسلمين فى هذه المدة العناية والاحترام ووضع عنهم المغارم وأظهر لهم العدل حيلة منه وكيدا ذلك ليغررهم ويثبطهم عن الجواز إلى البحر، فوقع الطمع لكثير من المسلمين وظنوا أن ذلك يدوم لهم فاشتروا أموالا رخيصة وأمتعة أنيقة وعزموا على الجلوس مع النصارى[2].

وقد أصاب عدوة المغرب فى فاس وإغمات وتلمسان فى ذلك الوقت شدة عظيمة وغلاء مفرط وجوع شديد وطاعون مستشر واشتد الأمر بمدن هذه العدوة؛ حتى فر كثير من الناس من شدة الأمر، ورجع بعض المسلمين من الذين جازوا إلى الأندلس فأخبروا بتلك الشدة فامتنع مسلمو غرناطة عن الجواز وعزم أغلب المسلمين على الإقامة والدجن، كما أن النصارى من جهة أخرى قد رجعوا فى عهودهم وامتنعوا عن حمل المسلمين والجواز بهم إلا بالكراء والمغرم الثقيل وعشر المال، فلما رأى ملك قشتالة أن الناس قد تركوا الجواز وعزموا على الدجن

(١) الدجن أو التدجن: هو مصطلح أطلق على المسلمين الذين بقوا فى غرناطة تحت حكم الأسبان ثم تنصروا بعد ذلك بالإكراه.

(٢) آخر أيام غرناطة ص١٢٧.

والاستيطان والمقام فى غرناطة أخذ فى نقض الشروط التى أخذها على نفسه ولم يزل ينقضها شرطًا شرطًا إلى أن نقضها جميعا، وزالت حرمة الإسلام عن المسلمين وأدركهم الهوان والذلة، واستطال النصارى عليهم وفرضت عليهم الفروضات وثقلت عليهم المغارم وقطع لهم الأذان من الصوامع وأمرهم بالخروج من مدينة غرناطة إلى الأرباض والقرى فخرجوا أذلة صاغرين، ثم بعد ذاك دعاهم إلى التنصير وأكرههم عليه، وكان ذلك سنة ٩٠٤هـ فدخلوا فى دينه كرهًا وصارت الأندلس كلها نصرانية ولم يبق من يقول فيها: لا إله إلا الله محمد رسول الله جهرًا إلا من يقولها فى نفسه وفى قلبه أو خفية من الناس(١).

وقضية التنصير القسرى كانت من أقسى القضايا الشائكة التى تبرز غدر النصارى بالمسلمين وقد انتدب ملك قشتالة الكردينال «خمينيس» لملاحقة الموريسكيين(٢)، إذ أساء معاملتهم وانتهك حرماتهم وحملهم على التنصير القسرى، وحظر عليهم كل ما لهم من حقوق فى معاهدة التسليم، وظل هكذا إلى أن أدت أعمال هذا الكردينال فى نتيجتها إلى استفزازات الموريسكيين وهبوا بانتفاضات عدة كما سنوضح بعد.

وجعلت النواقيس فى الصوامع بعد الأذان وأدخلت فى المساجد الصور والصلبان بعد ذكر الله تعالى والقرآن(٣). ويصف شاهد عيان المسلمين الذين دجنوا وبقوا فى الأندلس لعدم مقدرتهم على الرحيل «قلوبهم تشتعل نارا ودموعهم تسيل سيلاً غزيرًا مدرارًا، وينظرون أبناءهم وبناتهم يعبدون الصلبان ويسجدون للأوثان ويأكلون الخنزير والميتات ويشربون الخمر التى هى أم الخبائث والمنكرات فلا يقدرون على منعهم ولا على نهيهم ولا على زجرهم، ومن فعل ذلك عوقب أشد العقاب(٤).

---

(١) آخر أيام غرناطة ص١٢٩، ١٣٠

(٢) هم المسلمون المدجنون الباقون تحت ظل دولة قشتالة وأراغون الموحدة.

(٣) آخر أيام غرناطة ص١٣١.

(٤) المصدر السابق ص١٣١.

وقد تولى خمينيس مطران طليطلة ورأس الكنيسة الأسبانية مهمة تنصير مسلمى الأندلس كما قلنا سابقا، وكان من أشد أهل الأرض عداوة للإسلام والمسلمين، فأنشأ هذا الرجل ما يسمى بديوان التحقيق وهو ما عرف بمحاكم التفتيش وذلك سنة ٩٠٥هـ وكان أن جمع كل المصاحف وكتب العلم والفقه والحديث وأحرقت فى ميدان عام كخطوة أولى لتنصير المسلمين وقطع صلتهم عن التراث العربى الإسلامى وعن علومهم الشرعية، وكانت العداوة الصليبية المستقرة فى قلوب الأسبان تجاه مسلمى الأندلس أكبر من مسألة الدين أو غيرها، فقد كانت هناك رغبة جامحة عند قساوسة ورهبان أسبانيا لاستئصال شأفة الأمة الأندلسية المسلمة، ومن ثم ظل الموريسكيون «وهم المسلمون الذين اضطروا إلى البقاء وأجبروا على إظهار النصرانية وترك الإسلام والذين يسمون أيضا بالمدجنين» موضع ريب وشك من جانب الكردينال خمينيس وديوان التحقيق، فعمل هذا الطاغية على الزج بآلاف الموريسكيين إلى محاكم التفتيش حيث آلات التعذيب والتنكيل التى تقشعر لها الأبدان، وكانت أدنى إشارة أو علامة تصدر من الموريسكيين يظهر من خلالها حنينهم إلى الإسلام أو اللغة العربية يتم تعذيبهم وحرقهم وهم أحياء، وقد بلغت المأساة مداها بعدما أصدر شارل الخامس قرارا بمنع سفر الموريسكيين خارج أسبانيا باعتبارهم نصارى ومن يخالف يقتل وتصادر أملاكه.

اندفعت أسبانيا فى محاولة لتصفية المسلمين فارضة أقسى الإجراءات عليهم لتنصيرهم بالجملة خلال عشر سنين، وقد اعترف ملوك أسبانيا خلال القرن السادس عشر بحتمية الاستمرار فى تطبيق هذا القانون، وبذلك خيرت الأقلية الإسلامية الأندلسية التى عرفت شتى ظروف التتبع والملاحقة عن طريق ديوان التحقيق بين التنصير أو الرق مدى الحياة، وصودرت أملاكهم وحرم عليهم التكلم باللغة العربية، وارتداء الألبسة الوطنية والتردد إلى الحمامات، وفتح أبواب منازلهم أيام الحفلات والجمعة والسبت[1]، وإقامة الشعائر الدينية وعدم التسمية بأسماء

(١) محمد عبد الله عنان. «نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين». ص٣٥٤، ٣٥٥ الطبعة الثالثة. القاهرة.

عربيـة، كمـا حولت جـميع المساجـد إلى كنائس[١]، ومنع المسلمـون من حمل السلاح كما فرض عليهم العيش فى أحيـاء خاصة وارتداء ألبسة معينة وأن يحملوا شارة زرقاء على القبعة إذا ما بقوا على دينهم، كما حرم عليهم بيع الحرير والذهب والفـضة والأحـجار الكريمـة، وأمروا أن يـسجـدوا فى الشوارع مـتى مر كـبيـر الأحبار[٢]، وسلطت عليهم أقـسى أنواع العقوبات إذا لوحـظ عليهم بعض الولاء إلى ماضيهم أو التعلق بدينهم فى أبسط مظاهره وعاداته. وقد كان المسلمون آنذاك يشكلون سـيطرة على الاقتـصاد الأندلسـى فى غرناطة بفـضل نشاطهم وذكـائهم وخبـرتهم فى تصريف شئـون التجارة والزراعة وازدهـارها على أيديهم، وقد أثار نجـاحهم هذا، حـقد النصـارى عليـهم الذين اتهمـوهم بالتـآمر ضـد أمن الدولة خصـوصا وهم الحلفاء الطبيـعيون لإخوانـهم قراصنة «شمال أفـريقيا» كمـا كانوا يعتبرونهم آنذاك.

ومن الطبيـعى فى مـثل هذه الـظروف أن يتـجـه الموريسكيـون إلى الثـورات والانتفاضات فى أغلب المدن التى بها أقلية إسلامـية وخاصة فى غرناطة وبلنسية، وقد أقمـعت تلك الثورات دون رحمة ولا شفـقة، واتخذت وسيلة لتـعميق الكره والحقد على هذه الطائفة، ومن جهة أخرى كان من الطبيعى أن يلتجئ الموريسكيون إلى ملوك الإسلام فى المشـرق والمغرب لاستنجادهم وأن تتكرر دعـواتهم وإرسال وفودهم برسـائل إليهم للعـمل على إنقاذهم مما يـعانونه من الظلم، وخـاصة من رجال الكنيسة وديوان التحقيق الذى أصدر ضدهم قرارات ظالمة.

وقد أرسل أهل غـرناطة فى منتصف سنة ١٤٧٧م سفـارة إلى استانبـول لافتين نظر السلطان العثمـانى محمد الفاتح إلى حالة المسلـمين بالأندلس، طالبين تدخله لإنقاذهم، كـما أرسل أهل غرناطة سـفارة إلى أحـد سلاطين المماليك فى مـصر «الملك الأشـرف» فى أواخر الـقرن الخـامس عشـر، مـستنجـدة إياه فى التـدخل

---

(١) المصدر السابق ص٣٥١.

(٢) المصدر السابق ص٣٥٣، ٣٥٤.

لإنقاذهم مما يعانونه على أيدى ملوك النصارى، وقد بعث الملك الأشرف بوفود إلى البابا وملوك النصرانية يذكرهم بأن النصارى الذين هم تحت حمايته يتمتعون بكل الحريات، فى حين أن أبناء دينه فى مدن أسبانيا يعانون أشد أنواع الظلم، وقد هدد بإتباع سياسة التنكيل والقصاص تجاه رعاياه من المسيحيين إذا لم يكف ملك قشتالة وأراكون وغرناطة عن هذا الاعتداء وترحيل المسلمين عن أراضيهم[1].

أما السلطان العثمانى بايزيد الثانى فقد وصلت إليه قصيدة من أحد الموريسكيين يصور له مأساة المسلمين ويستنجده لنصرتهم وإنقاذهم.

أما نداءاتهم لملوك المغرب فقد تعددت مع مرور الأيام غير أن الأوضاع الداخلية التى كان عليها المغرب وخضوع بنى وطاس لأسبانيا وعقد معاهدة ١٥٣٨م معهم وازدياد النفوذ الأسبانى - البرتغالى على السواحل المغربية قد جعل من المستحيل القيام برد فعل حازم وفعال، وسوف يأتى الحديث عن رسائل أهل غرناطة إلى المشرق الإسلامى لتظهر من خلالها علاقة هذا المشرق الإسلامى بالموريسكيين فى تلك الفترة.

كانت هناك شروط عند تسليم غرناطة للأسبان لم يلتزم بها النصارى مطلقا، وكانت هذه الشروط تقضى للمسلمين بالحرية التامة فى الدين واللغة وحقهم فى المحافظة على أموالهم وتقاليدهم، وأن تحسم قضاياهم من قبل قضاة مسلمين وكذلك السماح للمؤذنين بالأذان فى أوقات الصلاة. ويُمنع المسيحيون من دخول بيوت المسلمين من غير إذن. . إلى غير ذلك، ولكن النصارى الأسبان لم يحافظوا على عهودهم التى قطعوها على أنفسهم ولم يجعلوا حرمة للشرف الملكى القشتالى، وقد عرف المسلمون ذلك فارتفع صوت من بين أهالى غرناطة يحذر المسلمين أن يستسلموا لتلك الشروط التى يتستر وراءها خداع الملك ونفاقه. إن هذا الفارس الشجاع هو موسى الذى خطب فى قومه قبل الاستسلام وتسليم غرناطة محذراً إياهم من مغبة الاستنامة لوعود الأسبان، ولما لم يجد آذانًا مصغية غادر

(١) راجع ابن إياس فى تاريخ مصر ص٢٤٦، وكذلك نهاية الأندلس ص٢١٢.

قومه قائلاً: «إنّه يفضل الموت بالسيف على أن يموت صبرًا بيد لئام الأسبان أو يُجرع الذل والهوان على يد الشرك». وعندما خرج موسى من غرناطة اعترضته قوة من فرسان الأسبان فدارت معركة غير متكافئة قتل فيها عدة منهم وسقط أخيرًا من على فرسه مثخنًا بالجراح فقاتل بسيفه قائمًا على ركبتيه، ولما تكاثر الأسبان عليه ليفتكوا به رمى بنفسه من علو إلى النهر ولما كان مثقلاً بالدروع غاص موسى إلى قاع النهر ولم يعثر له على أثر. فضرب هذا الفارس المثل الأعلى فى الإباء والعزة والكرامة والشجاعة.

وقد صدق حدس موسى -رحمه الله- فلم يمض وقت قصير إلاّ والعهود قد نكثت الواحد تلو الآخر من قبل الأسبان حتى لم يبق منها شىء يذكر، وإذا بالمرحلة العصيبة الأخرى تمر على مسلمى الأندلس لتسدل الخاتمة على هذا التاريخ إلى يومنا هذا.

لقد عرفنا سابقا الشروط التى أبرمت فى معاهدة الصلح والتسليم التى تخص المسلمين من حيث إقامة شعائرهم وصلواتهم والبقاء على ديانتهم إلى غير ذلك من شروط، ولكن ملك أسبانيا قد حافظ على هذه العهود فترة من الزمن لشىء فى نفسه فلما رأى المسلمين متمسكين بعقيدتهم وبدورهم وبأعمالهم نراه يسارع لإلغاء تلك المعاهدة بندًا بندًا ويصدر القوانين التالية:

١- إجبار من بقى فى الأندلس من المسلمين على أن يتنصر أو يغادرها، وبناء على ذلك أصدر فرديناند عام ٩٠٥هـ بيانا بإغلاق المساجد وحظر على المسلمين إقامة شعائرهم فى أى مكان، ومن ثم زاولت الكنيسة الكاثوليكية أساليبها لتنصير المسلمين.

٢- وفى عام ٩٣٥م أصدر الملك قانونًا يحرم على المسلمين التكلم باللغة العربية ومن ينطق بها يقتل، وبذلك حرم المسلمون من قراءة القرآن الكريم وحرموا من الاتصال بإخوانهم المسلمين بالخارج.

٣- وفى عام ٩٧٤هـ صدر قانون يحظر على المسلمين الاغتسال، فالنصارى لا يغتسلون وبذلك أوجبوا على المسلمين ألا يغتسلوا، فهدموا ما يزيد عن ثلاثمائة حمام من الحمامات العامة فى غرناطة وغيرها من الحمامات العامة فى مدن الأندلس، ومن اغتسل وشهد عليه شاهد فإنه يقدم إلى محاكم التفتيش لتعاقبه على جنايته.

٤- ثم صدر قانون بمنع الزى العربى من أن يتزىّ به من بقى عندهم من العرب وجعل القتل جزاء لمن يخالف هذا البند من القانون.

محاكم التفتيش وإبادة المسلمين:

لقد كان سقوط غرناطة آخر قلاع المسلمين فى أسبانيا نذيرا بسقوط صرح الأمة الأندلسية الدينى والثقافى والاجتماعى والاقتصادى، وقد كان ذلك السقوط مأساة ونازلة كبرى من النوازل التى حلت بأمتنا الإسلامية كنكبة بغداد عام ٦٥٦هـ وسقوط الخلافة العثمانية وقيام العلمانية إلى غير ذلك من نوازل اعتصرت القلوب وقرحت العيون.

والعجيب فى أزمة سقوط الأندلس أنها تبرز مدى الحقد الدفين الذى كان يحمله النصارى ضد الإسلام على وجه الخصوص، على الرغم من أن الإسلام هو الذى أقام تلك الحضارة التى ينعمون بها اليوم وذلك التقدم العلمى الرائع الذى يشهده الغرب، فلم يكن حكم العرب والمسلمين فى الأندلس احتلالا أو فرض وصاية أو حماية على الشعوب كما توصى به اليوم الأمم المتحدة فى معاملة الشعوب الواقعة تحت الاحتلال، وإنما كان رسالة حق ونور وهدى للعالمين قام بها المسلمون هناك، هذه الرسالة هى رسالة الإسلام التى جاء بها النبى محمد ﷺ وهى رسالة إنسانية عامة كان من نصيب أولئك المسلمين فى الأندلس أن يحملوا شرف تلك الرسالة وتوصيلها إلى شعوب أوروبا، كما كان لهم الشرف العظيم والأجر الجزيل على صبرهم أمام محاكم التفتيش والذين نصّروهم بالقوة وأطلقوا عليهم «المدجنين» أقبح لفظ فى الوجود، هذا اللفظ القبيح أطلقوه على هؤلاء المسلمين الشرفاء وفيهم الدعاة إلى الله والفقهاء والعلماء والأطباء.

وكانت مأساة المسلمين فى الأندلس من أفظع مآسى التاريخ حيث شهدت تلك الفترة وحشية فظة ارتكبتها محاكم التفتيش بهدف تطهير أسبانيا من آثار الإسلام والمسلمين، ومن تراثهم الذى ازدهر فى هذه البلاد زهاء ثمانية قرون، ومن ثم هاجر كثير من مسلمى الأندلس إلى الشمال الأفريقى بعد سقوط مملكتهم فرارا بدينهم وحريتهم من اضطهاد النصارى الأسبان، وعادت أسبانيا إلى دينها القديم، أما من بقى من المسلمين فقد أجبروا على التنصر أو الرحيل -كما قلنا- وأفضت هذه الروح النصرانية إلى مطاردة وظلم وترويع المسلمين العزل، وقد انتهى ذلك الصراع بإعدام أمة ذات ماض عريق وحضارة إنسانية على أرض أسبانيا.

وكان لابد أن ينشط ديوان التحقيق أو الديوان المقدس الذى يدعمه العرش والكنيسة فى ارتكاب الفظائع ضد «الموريسكيين» المسلمين المتنصرين، وصدرت عشرات القرارات التى تحول بين هؤلاء المسلمين ودينهم ولغتهم وعاداتهم وثقافتهم. وقد أحرق الكردينال خمينيس عشرات الآلاف من كتب الدين والشريعة الإسلامية وصدر أمر ملكى فى يوم ٢٢ ربيع الأول ٩١٧هـ يلزم جميع السكان الذين تنصروا حديثا أن يسلموا سائر الكتب العربية التى لديهم ثم تتابعت المراسيم والأوامر الملكية التى منعت التخاطب باللغة العربية، وانتهت بفرض التنصير الإجبارى على المسلمين، وحمل التعلق بالأرض والخوف من الفقر كثيراً من المسلمين على قبول التنصير ملاذاً للنجاة، ورأى آخرون أن الموت خير ألف مرة من أن يصبح الوطن العزيز مهداً للكفر، وفر آخرون بدينهم، وكتبت نهايات متعددة لمأساة واحدة هى رحيل الإسلام عن الأندلس، وتوفى فرناندو الخامس ملك أسبانيا فى ١٧ ذى الحجة سنة ٩٢١هـ وأوصى حفيده شارل الخامس بحماية الكاثوليكية والكنيسة، فنهض يختار المحققين ذوى الضمائر لكى يعملوا فى حزم لخدمة الدين الكاثوليكى من ناحية؛ وأن يعملوا على سحق طائفة محمد من ناحية أخرى، وقد عاش المسلمون زهاء عشرين عاما ينزل بهم العذاب والاضطهاد الذى تم على أيدى محاكم التحقيق «محاكم التفتيش» التى أنشئت بمرسوم بابوى صدر

عام ٨٨٨هـ، وعين بمقتضاه القس طوماس دى تركيمادا محققًا عامًا لهذه المحاكم الجديدة التى نظم لوائحها وأصدر العديد من قرارات الظلم والإبادة.

ولما رأى الموريسكيون هذا التطرف والإجراءات الصارمة من ديوان التفتيش استغاثوا بالإمبراطور شارل الخامس وبعثوا وفدًا منهم إلى مدريد ليشرح مظالمهم، فندب شارل محكمة كبرى من النواب والأحبار والقادة والقضاة للنظر فى شكوى المسلمين، وتقرر إذا ما كان التنصير الذى وقع على المسلمين بالإكراه أم باختيار منهم حينئذ يعتبر صحيحا ملزما أى يحتم عقاب المخالف بالموت وقد أصدرت المحكمة قرارها بأن التنصير الذى وقع على المسلمين صحيح لا تشوبه شائبة لأن هؤلاء الموريسكيين سارعوا بقبوله اتقاء لما هو شر منه فكانوا بذلك أحرار فى قبوله، ومن هنا صدر أمر ملكى للذين تنصروا يجبرهم على البقاء فى أسبانيا باعتبارهم نصارى وأن ينصر كل أولادهم فإذا ارتدوا عن النصرانية قضى عليهم بالموت أو المصادرة.

وكان قدر هؤلاء المسلمين أن يعيشوا فى تلك الأيام الرهيبة التى ساد فيها إرهاب محاكم التحقيق، وكانت لوائح الممنوعات تزداد تباعا واشتملت على أوامر غريبة منها على سبيل المثال حظر الختان وحظر الوقوف تجاه القبلة وحظر الاستحمام والاغتسال وارتداء الملابس العربية، وقد نفذت هذه القرارات بكل قسوة وقد أقبلت محكمة التفتيش فى غرناطة على ضبط بعض المخالفات وبناء على ذلك أحرق اثنان من المخالفين فى شوال ٩٣٦هـ فى احتفال دينى.

وكان المسلمون الموريسكيون يحاولون بكل وسيلة إزاء تلك القرارات المتعسفة أن يستبقوا دينهم وتراثهم، فكان على الرغم من دخولهم فى النصرانية يتعلقون سراً بالإسلام وكثير منهم يؤدون شعائر الإسلام خفية وكانوا يحافظون على لغتهم العربية، ولما فطنت الحكومة الأسبانية إلى ذلك وأدركت أن إحياء اللغة العربية فى ذلك الوقت هو تدعيم للروح العربية الإسلامية؛ لذلك أصدر الإمبراطور شارل الخامس سنة ٩٣٢هـ أول قانون يحرم التخاطب بالعربية على الموريسكيين مما اضطر الموريسكيون إلى أن يدفعوا لهذا الملك مائة ألف دوقه حتى يسمح لهم بالتحدث

بالعربية. ولكن لم يدم ذلك طويلا إذ أصدر الإمبراطور فيليب الثانى سنة ٩٦٤هـ قانونًا جديدًا يحرم التخاطب بالعربية وفرضت القشتالية بديلا لها كلغة تخاطب بين الموريسكيين، ومع ذلك لم يعدم هؤلاء المسلمون وسيلة للتخاطب ولتفكيرهم فاخترعوا لغة جديدة حيث كتبوا اللغة القشتالية سراً بأحرف عربية وأسفر ذلك عن خلق لغة جديدة هى أليخميادوا وهى تعريف أسبانى لكلمة الأعجمية، وظلت هذه اللغة قرنين من الزمان سرًا مطمورًا، وبذلك تمكن هؤلاء المسلمون أصحاب العقيدة الحية أن يحتفظوا بعقيدتهم الإسلامية وألف بها بعض الفقهاء والعلماء كتبًا عما يجب أن يعتقد المسلم ويفعله حتى يحتفظ بإسلامه، وشرحوا آيات القرآن باللغة الأخميادية، وكذلك سطروا بها سيرة النبى ﷺ، وكان من أشهر كتاب هذه اللغة الفقيه المسمى فتى أميرالو وهو مؤلف لكتب التفسير وتلخيص السنة، ومن الشعراء محمد ربدان الذى نظم كثيرا من القصائد والأغنيات الدينية وبذلك تحصن الموريسكيون بمبدأ التقية وصمدوا فى وجه مساعى المنصرين الذين لم تنجح جهودهم التبشيرية والتعليمية والإرهابية فى الوصول إلى تنصير كامل لهؤلاء الموريسكيين فجاء قرار الطرد بعد هذه الإخفاقات(١).

وتشير الروايات السابقة إلى أساليب شنيعة للتعذيب اتبعها رهبان محاكم التفتيش منها حرق ضحاياهم وهم أحياء، وشيهم كما تشوى الأنعام، أو يوضع الرجل فى حفرة ثم يأتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعله نصفين، وقد كانت هناك حجرات للتعذيب لم يعرفها أحد وقد اكتشفت مؤخرا لها أبواب خفية تفتح بطريقة ماكرة بواسطة حلقة صغيرة وحينما فتح الباب على أيدى الجنود الفرنسيين الذين كانوا فى إحدى الدوريات لحفظ الأمن إذا بهم يكتشفون تلك الحجرة فقد ظهر لهم فجأة سلم يؤدى إلى باطن الأرض وعندما هبط الضابط الفرنسى هو وجنوده على درج السلم حتى وصلوا إلى آخر الدرج فإذا بهم يجدون غرفة كبيرة مرعبة وهى قاعة المحكمة فى وسطها عمود من الرخام به حلقة حديدية ضخمة

(١) محاكم التفتيش وإبادة المسلمين فى الأندلس. موقع موسوعة الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة.

وربطت بها سلاسل من أجل تقييد المحاكمين بها، وأمام هذا العمود كانت المصطبة التى يجلس عليها رئيس ديوان التفتيش والقضاة لمحاكمة الأبرياء، ثم توجهوا بعد ذلك إلى غرف التعذيب وتمزيق الأجسام البشرية التى امتدت على مسافات كبيرة تحت الأرض. يقول ذلك الضابط الفرنسى: «رأيت فيها ما يستفز نفسى ويدعونى إلى القشعريرة والتقزز طيلة حياتى، رأينا غرفًا صغيرة فى حجم جسم الإنسان بعضها عمودى وبعضها أفقى، فسجين الغرف العمودية واقفًا على رجليه مدة سجنه حتى يموت أما سجين الغرف الأفقية فيبقى فيها ممددًا حتى الموت وتبقى الجثث فى السجن الضيق حتى تبلى ويتساقط اللحم عن العظم وتأكله الديدان. ولتصريف الروائح الكريهة المنبعثة من جثث الموتى فتحوا نافذة صغيرة فى الفضاء الخارجى وقد عثر الجنود فى هذه الغرف على هياكل بشرية ما زالت فى أغلالها وكان السجناء رجالا ونساء تتراوح أعمارهم ما بين الرابعة عشرة والسبعين. وقد استطعنا إنقاذ عدد من السجناء الأحياء وتحطيم أغلالهم وهم فى الرمق الأخير من الحياة، وكان بعض هؤلاء السجناء قد أصابه الجنون من كثرة ما عاناه من عذاب، وكان السجناء جميعهم عرايا، ثم انتقل الجنود بعد ذلك إلى غرف أخرى وجدوا فيها ما تقشعر له الأبدان إذ عثروا على آلات رهيبة للتعذيب منها آلات لتكسير العظام وسحق الجسم البشرى، وكانوا يبدؤون بسحق عظام الأرجل ثم عظام الصدر والرأس واليدين تدريجيًا حتى يهشم الجسم كله ويخرج من الجانب الآخر كتلة من العظام المسحوقة والدماء الممزوجة باللحم المفروم، هكذا كانوا يفعلون بالسجناء الأبرياء. ومن وسائل تعذيبهم أيضا هو ذلك الصندوق وهو فى حجم رأس الإنسان تماما يوضع فيه رأس الذى يراد تعذيبه بعد أن يربطوا يديه ورجليه بالسلاسل حتى لا يستطيع الحركة وفى أعلى الصندوق ثقب تتقاطر منه نقط الماء البارد على رأس ذلك المسكين بانتظام، وقد جن الكثيرون من هذا اللون من العذاب. ومن وسائل التعذيب أيضا تابوت تثبت فيه سكاكين حادة يسمى تابوت السيدة الجميلة حيث يلقى فيها الشاب ثم يطبق عليه باب التابوت بسكاكينه وخناجره فإذا أغلق مزق جسم المسكين وقطعه إربًا إربًا، كما عثر هؤلاء الجنود

الفرنسيون على آلات كالكلاليب تغرز فى لسان المعذب ليخرج اللسان معها ليقص قطعة قطعة، وكلاليب تغرس فى أثداء النساء وتسحب بعنف حتى تتقطع الأثداء أو تبتر بالسكاكين إلى غير ذلك من آلات تعذيب تقشعر لها الأبدان وتتفتت لها الأكباد. وقد وصل خبر هذه الآلات إلى مدريد فهب الألوف ليروا وسائل التعذيب فأمسكوا برئيس اليسوعيين ووضعوه فى آلة تكسير العظام فدقت عظامه دقًا وسحقت سحقًا، وأمسكوا بكاتم سره وزفوه إلى السيدة الجميلة وأطبقوا عليه الأبواب فمزقته السكاكين شر ممزق وهكذا فعلوا بسائر العصابة وبقية الرهبان[١].

وعلى الرغم من ذلك الاضطهاد الذى مارسه النصارى ضد مسلمى الأندلس «الموريسكيين» فإنه كان منهم فئات عضت على دينها بالنواجذ وامتنعت عن التنصير ودافعوا عن أنفسهم دفاع المستميت فقاموا بالثورات ضد نصارى قشتالة. ويروى شاهد عيان إبان تلك الفترة أن أهل قرى ونجر والبشرة وأندراش وبلافيق قاموا بثورة عنيفة إلا أن ملك قشتالة جمع جموعه وأحاط بهم من كل ناحية حتى أخذهم عنوة بعد قتال شديد؛ فقتل رجالهم وسبى نساءهم وصبيانهم ونصرهم واستعبدهم[٢].

أما ثورة غرب الأندلس فقد كانت عنيفة، وقد تمسك بها المسلمون ممتنعين عن التنصير، فصمدت وكبدت القشتاليين خسائر فادحة فيروى ذلك الشاهد الذى عاصر تلك الأحداث أن هؤلاء النفر قد انحازوا إلى جبل منيع وعر واجتمعوا فيه بعيالهم وأموالهم وتحصنوا فيه، فجمع عليهم ملك قشتالة جموعه وطمع فى الوصول إليهم كما فعل بغيرهم فلما دنا منهم وأراد قتالهم خيب الله سعيه ورده

(١) انظر التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام للشيخ محمد الغزالى، محمد عبد الله عنان. نهاية الأندلس، وتاريخ العرب المتنصرين -ليونارد باترك هارفى، تاريخ الموريسكيين السياسى والاجتماعى والثقافى. نبيل عبد الحى رضوان. جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس واسترداده. مكتبة الطالب الجامعى. مكة المكرمة طبعة أولى. اعتمدنا فى الحديث عن وسائل التعذيب على موسوعة الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم. . محاكم التفتيش وإبادة المسلمين فى الأندلس إعداد فراس نور الحق http://ar.wikipedia

(٢) آخر أيام غرناطة ص١٣٢.

على عقبه ونصرهم عليه بعد أكثر من ثلاثة وعشرين معركة لأنهم اعتصموا بدينهم والتمسوا النصر من الله على الرغم من قلتهم، ويقول الراوى: إن هذه الفئة المسلمة قتلت خلقًا كثيرًا من رجال وفرسان وكونتات قشتالة، وتذكرنا الفئة المسلمة المتمسكة بدينها بأصحاب الأخدود حيث يقول الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ۝٤ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١- ١٠] كما تذكرنا تصرفات هؤلاء النصارى بغدرهم وخلفهم للوعد وكرههم الشديد للمسلمين حيث يقول تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۝٧ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ۝٨ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ٧- ٩].

إن هؤلاء الموريسكيين صبروا كثيرا على الأذى وتحملوا فى سبيل دينهم الكثير والكثير وواجهوا جرائم محاكم التفتيش التى فتكت بأجسامهم وأهليهم وابتلوا ابتلاءً شديدًا، وإنى بهم لأتذكر قول النبى ﷺ فى الحديث المروى عن خباب قال: أتينا رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة فى ظل الكعبة فشكونا إليه فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ فجلس محمرًا وجهه فقال: **قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض ثم يؤتى بالمنشار فيجعل على رأسه فيجعل فرقتين، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه. والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب ما بين صنعاء وحضرموت**

يخاف إلا الله تعالى والذئب على غنمه، ولكنكم تعجلون»[١] وهكذا ابتلى مسلمو الأندلس وصبروا واستنصروا الله فلم يستطع ملك قشتالة هزيمتهم أو أن يقضى عليهم، فقد قتل من جنده الكثير والكثير، فلما رأى أنه غير قادر على تلك الفئة المسلمة طلب منهم أن يعطيهم الأمان ويجوزهم لعدوة المغرب مؤمّنين فوافقوا على طلبه وقام بنقلهم إلى عدوة المغرب إلا أنه لم يسمح لهم بشيء من متاعهم غير الثياب التى كانت عليهم، وبعد هذه الفعلة خمد أمر المسلمين ولم يطمع أحد بعد ذلك أن يقوم بدعوة الإسلام آنذاك وعم الكفر جميع القرى والبلدان وانطفأ من الأندلس نور الإسلام والإيمان! فعلى هذا فليبك الباكون ولينتحب المنتحبون. فإنا لله وإنا إليه راجعون[٢].

❁❁❁

١) صحيح وأخرجه البخارى ومسلم.

٢) انظر آخر أيام غرناطة ص١٣٢.

ثانيًا: طلب النجدة من مسلمي الشرق

وثيقة من الدولة العثمانية إلى مسلمي أسبانيا والجزائر:

تعريب الوثيقة

لقد أرسلتم إلى سدة سعادتنا عرض حالكم وكيف أن الكفار الضالين ذوى الشعارات المضللة يتآمرون على المسلمين ويمنعونهم من التخاطب باللغة العربية، ويكلفون زوجاتهم بما يخالف الشرع الحنيف، مقترفين الظلم والاعتداء تجاههم، ويوجد الآن عشرون ألفًا من الرجال غير أن عدد الأشخاص الذين لا سلاح لهم وصل إلى مائة ألف، كما هو مقرر وثابت، وفى صورة وصول هذا المقدار من السلاح إلى الجزائر، فإن ذلك من شأنه أن يقوى من عزيمة الناس، وقد أخبرتمونا أنكم أنزلتم بالكفار الملاعين هزائم عديدة والحمد لله الذى يجعل أهل الإسلام ينتصرون دوما على الكفار الضالين. وكل ما حدث ذكرتموه وقررتموه فى عرض حالكم مفصلا، قد وصل إلى علم سيادتنا، وأن كل ما يتعلق بكم قد بلغ إلى شريف وشمول علم سلطاننا الذى يحرص دوما على إظهار الاهتمام والعطف لجانبكم.

إلا أنه فى هذا الظرف بالذات وبالقرب من ممالكى تقع جزيرة قبرص والتى يرجع الفضل إلى أجدادى العظام منذ زمن بعيد لعقد معاهدة أمان معها، غير أن الكفار أصحاب الجزيرة نقضوا ذلك العهد.. باعتدائهم على كل أهالى الإسلام وسائر طوائف التجار عندما تخلص نيتهم للتحول والطواف ببيت الحرام وزيارة قبر حضرة الرسول سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام، مقرين بذلك العصيان والطغيان.

قد اعتمدنا وتوكلنا على عناية الله، واستنجدنا وتوسلنا بمفخرة الموجودات، ذى البركة العميمة صلوات الله وسلامه عليه، وكذلك استعنا بأصحابه البررة الشرفاء رضوان الله عليهم أجمعين، وفى الربيع السعيد نتيجة لتلك الآثار عزم سلطانى

وقرر الاستيلاء وفتح الجزيرة المذكورة إذ حق جلالته السامية بين فى ذلك. **وإذا** تيسر فتح الجزيرة المذكورة بسهولة وأصبحت فى قبضتى وتحت تصرفى وصار أهالى الإسلام كما هو الحال فى الماضى يقومون بتكاليف الشرع الحنيف وعموم الزائرين والتجار أصبحوا آمنين وسالمين، عندها يقوم الأهالى بالدعاء لدوام الدولة وثبات مجدها، وكذلك فى الدعاء لرفعتى. وأنه لتحقيق ذلك هيأنا عدداً من السفن الضخمة والعساكر المنصورة ووجهناها إلى الجزيرة المذكورة بدون أى تأخير، وإن شاء الله يكون فى عزمنا ونيتنا توجيه أسطولى المظفر إلى تلك الجهة، إذ ذلك من الأمور المهمة الأساسية، وإننا الآن فى حالة استعداد وتحضير. وقد وجهت أمراً همايونياً مؤكدا إلى بيلرباى الجزائر فسيقوم هذا الأخير على تقديم جميع المساعدات والإعانات إليكم وذلك لما أظهرتموه من همة إسلامية وغيرة فى الدفاع على الدين المبين وعدم ترككم له، وهذا على الرغم من الحروب والقتال مع الكفار -أذلهم الله- إذ أنكم أبديتم كل أنواع الإقدام والشجاعة وحتى يكون النصر ميسراً لنا فى ذلك الجانى فإن العلماء والصلحاء وسائر أهل الإسلام سوف لن يتخلوا عن الدعاء لنا بذلك وإن لا تبخلوا عن إعلامنا دائما بأحوالكم وأوضاعكم فى تلك الجهة.

سلم هذا الأمر إلى الشاويش خليل فى ١٠ ذى القعدة ٩٧٧هـ(١)

رسالة أهل غرناطة إلى ملك مصر:

كما أرسل مسلمو أسبانيا سفارة إلى سلطان مصر الملك الأشرف فى أواخر القرن الخامس عشر، مستنجدة إياه فى التدخل لإنقاذهم من الملوك النصارى، وقد بعث الملك الأشرف بوفود إلى البابا وملوك النصرانية يذكرهم بأن النصارى الذين هم تحت حمايته يتمتعون بكل الحريات، فى حين أن أبناء دينه فى مدن أسبانيا يعانون أشد أنواع الظلم، وقد هدد باتباع سياسة التنكيل والقصاص تجاه رعاياه

(١) الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلس. للدكتور عبد الجليل التميمى. مرجع سابق. ص٢٥. وانظر أصل الوثيقة المكتوب باللغة التركية فى قسم الوثائق فى آخر الكتاب.

المسيحـيين إذا لم يكف ملك قشتـالة وأراكون وغرناطة عن هذا الاعـتداء وترحيل المسلمين عن أراضيهم[1].

أما السلطان بايزيد الثانى فقد وصلت إليه قصيدة من أحد الموريسكيين يصور له مأساة المسلمين ويستنجده لنصرتهم وإنقاذهم.

أما طلب النجـدة والاستغاثة من مـلوك المغرب فقد تعـددت مع مرور الأيام غير أن الأوضاع الداخليـة التى كان عليها المغرب وخضـوع بنى وطاس لأسبانيا وعقد معاهدة ١٥٣٨م معهم وازدياد النفـوذ الأسبانى -البرتغالى على السواحل المغربية قد جعل من المستحيل القـيام برد فعل حازم وفعال وسوف يأتى الحديث عن تلك الرسائل لنظهـر من خلالها علاقة المشرق الإسـلامى بالموريسكيين فى تلك الفترة.

على أن النجاح الســريع الذى عرفته الإمـبراطورية العثمـانية فى كل من أوروبا وأفريقيـا ومدى الانتصارات الحربية الـتى حققها السلطان سليم وسليـمان القانونى على الجيوش الأوروبيــة الحليفة آنذاك، وسقوط عدد من العـواصم الأوروبية، قد أعطى أبعادًا أخرى لهذا الصراع الذى واجهته الإمبـراطوريتان العثمانية والأسبانية، والذى اتخـذ شكل حرب دينيــة عقـائدية سـاعدت على إشـعال نار الصـراع بين الدولتين. على أن الانتصارات التى حققها العثمانيون والأهمية التى أصبحت عليها استانبول بعد فتح القسطنطينية، قد شجع عددا من المهاجرين المسلمين واليهود على الاستقرار بالعاصمة العثمانية.

كان الموريسكيون يتـتبعون باهتمام مـدى النجاح الذى حققه العثـمانيون وكيف دانت لهم كل من سوريا ومصر، وخاصة الجزائر التى أصبحت حصنًا منيعًا يلتجئ إليه المهـاجرون الأندلسـيون. إن وجود القـائد البحـرى خير الديـن برباروسا باى الجزائر فى العقد الثالث والرابع من القرن السادس عـشر ومدى النجاح الذى حققه فى ملاحـقة الأسـبان بالجـزائر، ثم تدميـره حصن البـينون سنة ١٥٢٩م فى تلك

(١) راجع ابن إياس فى تاريخ مصر ص٢٤٦، وكذلك نهاية الأندلس ص٢١٢.

الولاية وتشجيعه حركة إنقاذ مسلمي الأندلس. كل هذا قد جعل الأسبانيين يصرون على ملاحقة المسلمين أينما كانوا، وتشديد الحملات عليهم، وإقامة القلاع الحصينة على أرض أفريقيا الشمالية، ومراقبة الحركة البحرية العثمانية، وقطع الطريق للمحاولات المتكررة التي ما فتئ البحارة المغاربة يقومون بها بنجاح لإنقاذ الموريسكيين من الأرض الأسبانية، كما كان هؤلاء يتصلون سرا برجال البحر المسلمين ويمدونهم بالمعلومات اللازمة للقيام بهجماتهم بنجاح(١).

وقد أظهر قادة أسبانيا خوفهم من اتحاد كلمة الموريسكيين مع العثمانيين فشددوا المراقبة على موانئهم بل ذهبوا بقرار من الملك إلى إنشاء ميليشيا لرد هجمات المغاربة الخطيرة بهدف إنقاذ الأقليات الإسلامية المبثوثة في عدد من الولايات الأسبانية، وبالفعل كان نشاط خير الدين بربروسا في هذا المضمار حاسمًا وفعالاً، وكان ذلك راجعًا لما يتمتع به من صفات فهو الذي عرف ببعد نظره وحيويته الفائقة وتمسكه بالأصول الحربية التي اشتهر بها فضلا عن شخصيته القوية وما تمتع به من إرادة، وهذا أكسبه احترام أعدائه وخوفهم منه. إن نجاح حركة خير الدين البحرية وهجماته الموفقة على السواحل الأسبانية جعل الموريسكيين يستنجدون به لإنقاذهم كأهل بلنسية وغرناطة وغيرها، وكثيرا ما قام قواد أمثال صالح رايس وايدين رايس وطبقة رايس بهذه المهمة. ويذكر لنا المؤرخ كاتب شلبي أن خير الدين تمكن خلال سبع سفرات أن يوجه ٣٦ بارجة إلى السواحل الأسبانية لنقل سبعين ألف موريسكي خلال سنة ١٥٢٩م، ويدل هذا على مدى الدور الفعال الذي قام به خير الدين لإنقاذ آلاف من مسلمي الأندلس إلى السواحل المغربية(٢).

إن نجاح خير الدين في خلق هيكل دولة قوية بالجزائر، ثم المساندة المعنوية والعسكرية التي كان يلقاها لدى السلطان سليمان القانوني قد حثه على الاستمرار في جعل المغرب قاعدة عثمانية لصد الهجوم الأسباني، بل إن السياسة العثمانية كانت تهدف إلى إشغال جيوش شارل الخامس في حوض الأبيض المتوسط الغربي،

(١) الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين في الأندلس. للدكتور عبد الجليل التميمي. مرجع سابق. ص٢٩.
(٢) الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين ص٣٠.

وهذا ما يفسر إقدام خير الدين أثناء رجوعه من استانبول منذ ١٥٣٤م على احتلال تونس وإعلانها ولاية تابعة للإمبراطورية العثمانية.

أدخل هذا الانتصار الخوف لدى البابا، وكذلك الإمبراطور شارل الخامس الذى اعتبر ذلك تهديدا مباشرا للمسيحية ولخطوط مواصلاته البحرية مع أطراف مملكته من ناحية فضلا عن إعانة وتشجيع البحارة المغاربة للهجوم على السواحل الأسبانية، ونجدة مسلميها من ناحية أخرى، وبالفعل بذل شارل الخامس جهودا فى الاستيلاء على تونس وإبعاد خير الدين عنها وقد نجح فى ذلك. غير أن الخطة التى كان يحلم بتحقيقها ليست الاستيلاء على تونس حيث كانت أوضاعها الداخلية، واستنجاد مولاى حسن الحفصى بشارل الخامس، قد ساهما بشكل كبير فى إنجاح الحملة، إنما كان جلّ هدفهم هو ضرب مدينة الجزائر والاستيلاء عليها خصوصا وأن الشخصية القوية خير الدين قد دعيت إلى استانبول ليصبح قبطان دريا أى وزير البحر العثمانى، ولم يبق للإمبراطورية العثمانية على الساحل المغربى إلا الجزائر، وعليه كان شارل الخامس يخطط للقيام بحملة على الجزائر التى أصبحت قاعدة قوية وحصينة للسلطان سليمان القانونى تجاه السواحل الأسبانية خصوصا بعد الأنباء الحزينة التى وصلته من أوروبا أثر نجاح جيوش السلطان سليمان فى الاستيلاء على مدينة بود وتحويل أكبر كنائسها إلى مسجد. كان هذا الحدث بمثابة إهانة وتهديد للتكتلات المسيحية الأوروبية[١]. أصر شارل الخامس إذن على التوجه بأضخم أسطول قام على إشرافه وإحضاره ويبدو أنه من أكبر التجمعات البحرية المقاتلة التى ظهرت فى القرن السادس عشر، وكان البحارة والجيش خليطًا من مختلف أصقاع الإمبراطورية الأسبانية، وكان هدف الحملة هو الاستيلاء على الجزائر، واجتثاث العثمانيين من البحر الأبيض المتوسط وعزل فرنسا وقطع طريق النجدة إليها عن طريق حلفائها العثمانيين. وكان الأسبان يعتقدون أنه لولا بروز العثمانيين بالمغرب لأمكنهم إنشاء مملكة على السواحل المغربية وذلك بهدف قطع الطريق على رسل الموريسكيين إلى استانبول لطلب النجدة.

(١) الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين ص ٣١.

ومما لا شك فيه أن احتمال قيام العثمانيين بحملة على أسبانيا قد أثير فى بلاط مدريد[١].

إن إصرار شارل الخامس الشخصى فى اختيار زمن الهجوم من ناحية وتجمع كلمة الجزائريين وراء حسن أغا من ناحية أخرى، ثم نزول الأمطار بكثرة وهبوب عواصف مبكرة. كل هذا ألحق بجيش شارل الخامس أكبر هزيمة حربية وبحرية منى بها فى حياته، وكان ذلك فى أواخر شهر أكتوبر ١٥٤١م، على أن نتيجة تلك الحملة كانت بعيدة المدى وذات نتائج محسوسة حيث أصبحت الجزائر أكثر أمنًا ورخاء وهبطت فيها الأسعار ونعم الناس بالطمأنينة، ولم يبق لهم عدو يخافون منه، وشاعت هذه القضية فى مشارق الأرض ومغاربها، فأثارت رعب المسلمين فى قلوب الكفار مدة طويلة.

وقد ترددت أنباء تلك الهزيمة فى أسبانيا وكان وقعها شديدا على القادة ورجال الدين، إلا أن صداها لدى الموريسكيين قد كان مؤثرًا وبالغًا حيث جعلتهم يتطلعون إلى النجدة من السلطان العثمانى، وبالفعل ففى أقل من شهر فقط من هزيمة شارل الخامس أمام الجزائريين بعث مسلمو الأندلس برسالة إلى السلطان سليمان القانونى، وعلى الرغم من تعدد رسائل الموريسكيين إلى السلاطين العثمانيين، حسب مختلف الروايات التركية والعربية والأوروبية إلا أنه قد عثر على نص من هذا القبيل[٢]، وإن كان لا يتضح منه الاسم أو الأسماء التى قامت بتحرير تلك الرسالة، وعلى ما يبدو أن السبب فى ذلك هو الخوف من وقوع تلك الرسالة فى يد السلطة الأسبانية التى كانت تحرص دوما على بث العيون والجواسيس للعثور على مثل هذه الرسائل والمعلومات، وأنها لتكشف عن معلومات ذات أهمية تاريخية، كعدد الموريسكيين الموجودين بالأندلس، وإعطاء صورة حية مؤلمة لما يلقونه من السلطة الأسبانية المسيحية آنذاك، ومدى الحيرة التى

(١) الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين ص٣١.
(٢) المرجع السابق ص٣٢.

تمكنت منهم، ثم التأكيد على نشاط خير الدين وما قام به لإنقاذهم، ومطالبة السلطان سليمان القانوني بإعادة تعيينه بيلرباى الجزائر لأنه الشخصية الوحيدة القادرة على إنقاذهم من الهجومات الأسبانية.

فبخصوص عدد المورسكيين بالأندلس تضاربت الإحصائيات تضاربًا كبيرًا خلال القرن السادس عشر، وبالنسبة للمدن الكبرى كغرناطة آخر معقل للمسلمين وبلنسية وقشتلية وأراقون وغيرها، وقد جاء في هذه الرسالة ما يلي: «إن عبيدك الفقرا «كذا» الغربا «كذا» المنقطعين بجزيرة الأندلس وجملة عدتهم ثلاثمائة ألف وأربعة وستون ألفًا منهم من رسايلهم بغرناطة خمسون وغيرها بجزيرة الأندلس والباقي من عامة المسلمين. . . .» يتبين لنا أن ذكر هذا الرقم لا يدل قطعا على إعطاء رقم اعتباطي إجمالي، بل إن ذكر الأربعة آلاف بعد الستين ألفًا يوحي بمدى حرص محرر الرسالة وبلا شك إطلاعه على عدد الموريسكيين، على أننا إذا أخذنا بعين الاعتبار إحصائية سكان أسبانيا البالغ عددهم ستة ملايين[1] سنة ١٥٤١م، وهي السنة التي حررت فيها تلك الرسالة فلا نستغرب الرقم الذي قدمته هذه الوثيقة، ومما يساعد على تقريب هذا العدد ما قدمه المؤرخ محمد عبد الله عنان من أن سكان غرناطة وحدها بلغ ٤٠٠ ألف في أوائل القرن السادس عشر، والمؤرخ شونو ٥٠٠ ألف، وأنطونيو بلستيرو ٧٠٠ ألف، ومن جهة أخرى يذكر المؤرخ هنري لابير أن المسلمين القاطنين سنة ١٦٠٩م بأسبانيا بلغ ٢٩٦ ألفًا أي حوالي ٣٠٠ ألف وأن الذين غادروا أسبانيا بلغ عددهم ٢٧٥ ألفًا. ولابد أن نأخذ بعين الاعتبار الهجرات المتكررة من أسبانيا إلى المغرب لنلمس تأثير ذلك على عدد السكان خلال ٦٨ سنة الفاصلة بين هذين التاريخيين. يتبين لنا إذن أن رقم ٣٦٤ ألفًا الذي قدمته هذه الوثيقة يمكن الاعتماد عليه، وأنه اليوم أقربها إلى الصواب والواقع[2]. ترسم الوثيقة بعد ذلك صورة مؤلمة وحية لما قاساه الموريسكيون في

(١) الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين ص ٣٢.

(٢) المرجع السابق. ص ٣٣.

عهد محاكم التحقيق والقرارات الجائرة التى سلطت عليهم، ولا أدل على ذلك من قراءة نص الرسالة نفسه ليعكس لنا هذا النداء الأليم والمفجع الذى اصطبغت به الكتابات النادرة من الجانب العربى والتى وصلت إلينا عن هذا الموضوع.

وقد تعددت نداءات النجدة لملوك المغرب الأقصى إلا أن التحديات والحملات التى ما فتئت السفن الأسبانية والبرتغالية تشنها على الساحل المغربى لم تدع مجالا لاتخاذ موقف أكثر فاعلية ونجاعة فى نظر الموريسكيين، على أن ذلك لم يمنع المهاجرين الأندلسيين المرابطين على السواحل المغربية من العمل على نجدة إخوانهم الأندلسيين.

على أن الذى يلفت انتباهنا فى هذه الرسالة هو إطلاع الموريسكيين الدقيق على الأحداث والحروب والنتائج وسرعة وصول الأخبار إليهم، إذ بعد شهر من هزيمة شارل الخامس وعلى الرغم من تحويل بقايا جيشه إلى إيطاليا بدلا من أسبانيا، وصل إلى علم الموريسكيين خبر فداحة هزيمة عدوهم شارل الخامس أمام الجزائريين، واعتبروا ذلك نصرا من عند الله وقوى أملهم، وهذا ما يفسر تلقائيًا تحريرهم هذه الرسالة إلى السلطان سليمان القانونى واستنجادهم به وتذكيره ما قام به خير الدين الذى أنجدهم عندما كان بيلرباى الجزائر.

إن هزيمة شارل الخامس أمام الجزائريين قد أضفت على هذه المدينة مغزى كبيرًا ورمزًا للجهاد والدفاع عن المسلمين باعتبارها «سياجًا لأهل الإسلام وعذابا لأهل الكفر والطغيان. . . وأصبحت القلوب المنكسرة بها عزيزة والرعية المؤتلفة بها مؤتلفة أليفة. . .»[1].



(١) الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلس. للدكتور عبد الجليل التميمى. مرجع سابق. ص٣٤.

ثالثًا: تشتيت الموريسكيين وطردهم الجماعي من أسبانيا

توالت النقمات على مسلمى أسبانيا واشتدت وطأة القهر، ففى عام ١٥٧٠م قرر المجلس الملكى الأسبانى تشتيت الموريسكيين وتوزيعهم على قشتالة(١)، وصدر قرار بمصادرة جميع أملاك المهجرين الثابتة، وسمح لهم بنقل أملاكهم المنقولة، وقد صدر ذلك القرار إذ اعتقد النصارى الأسبان أن تشتيت الغرناطيين على أنحاء قشتالة هو الحل الأنجع لإدماجهم فى المجتمع النصرانى. وقد حدد القائمون على أمر تهجير المسلمين سبعة مراكز للتجمع هى: «غرناطة، وبسطة، ووادى آش، والمرية، وبيرة، ومالقة، ورنده» وفى كل نقطة تجمع يوجد بها نقاط أخرى ثانوية توزع عليها الأفراد، وقد استمرت المرحلة الأولى من التجمع أسبوعا كاملا ذاق فيها مسلمو الأندلس أشد صنوف العذاب فتجمع فى هذه المرحلة ما يقرب من ٤٦ ألف شخص بينما فر الآخرون إلى الجبال(٢) يعتصمون بها من أجل المقاومة.

ثم ابتدأت مرحلة التهجير الثانية بنقل المهجرين نحو الشمال والغرب فى قوافل تتكون كل واحدة منها من حوالى ١٥٠٠٠ أندلسى و٢٠٠ عسكرى نصرانى تتبعها عربات تحمل أمتعة المهجرين، وقد عانى هؤلاء المهجرون إذ خاضوا أراضى واسعة مشيا على الأقدام تحت المطر والثلج أسابيع متواصلة، وقد مات منهم فى الطريق عشرهم تقريبا ووصل منهم ٢١ ألفًا إلى بسطة و٦ آلاف إلى طليطلة و٢٢ ألفًا إلى قرطبة و٥٥٠٠ إلى أشبيلية، أما المرحلة الثالثة من التهجير فقد ابتدأت قاسية عنيفة لأن المقصود منها هو تشتيت المسلمين من مراكز الوصول الأساسية إلى مراكز ثانوية.. ثم تبعتها المرحلة الرابعة بتوزيع المهجرين على المدن والقرى الثانوية مراعين أن تكون نسبتهم من السكان أقل ما يمكن، وهكذا تم تشتيت مسلمى أسبانيا ولم يبق منهم سوى حوالى ٣٣ ألف شخص يعانون من وطأة الجوع والفقر

(١) محمد عبده حتاملة «التهجير القسرى لمسلمى الأندلس فى عهد الملك فيليب» عمان الأردن عام ١٩٨٢م.
(٢) الصحوة الإسلامية فى الأندلس اليوم جذورها ومسارها. دكتور على المنتصر الكتانى ص٤٧.

والمرض والبؤس وقد مات منهم ١٧ ألف شخص تقريبا ثم قررت الحكومة تهجير الغرناطيين إلى قشتالة، ولم تنته عمليات تهجير مسلمى مملكة غرناطة إلا سنة ١٥٧٤م وقد تم تهجير حوالى ٨٠ ألف غرناطى[١].

وفى شهر فبراير سنة ١٥٧١م صدر مرسوم ملكى بمصادرة أملاك الغرناطيين سواء أكان منهم المجاهدون أو المسالمون، وقد شملت تلك الأموال المصادرة المنقول وغير المنقول، وصارت جميعها ملكًا للملك ثم استقطب ما يقرب من خمسين ألف نصرانى مستوطن من الشمال ووزعت عليهم أملاك الغرناطيين، وعلى ما يبدو أن حركة الاستيطان تلك قد فشلت فشلاً ذريعًا إذ إن هؤلاء المستوطنين الجدد لم تكن لهم دراية بأعمال الزراعة ومن ثم رجع أكثرهم إلى قراهم فى الشمال، كما رجع لغرناطة أيضا عدد من المهجرين المسلمين وبقى فى غرناطة معظم مسلميها إما متسترين كنصارى أو مختبئين فى الجبال، وقد كان لهؤلاء الآخرين قدرة رائعة على القيام بأعمال فدائية ألقوا بها الرعب فى قلوب رجالات الكنيسة والمستوطنين الجدد والدولة بوجه عام، وقد شملت تلك الأعمال كل مقاطعات أسبانيا ولم تستطع الدولة القضاء على الفدائيين، إذ كانت هناك أكثر من فرقة فدائية تعمل بأساليب مختلفة للدفاع عن الإسلام والمسلمين مثل فرق «الزريق» فى قشتالة التى نشرت الرعب فى المرية، وكذلك فرق «بن المليح» التى جاهدت فى رنده. وحاولت الحكومة عبثًا تهجير الغرناطيين من منطقة الأندلس ولكنها لم تستطع تنفيذ القرار بل رجع أعداد كبيرة من المهجرين إلى مملكة غرناطة.

وحاولت الحكومة طرد الغرناطيين وقد وجدت معارضة شديدة ولكنها هجرت بعضهم قسرا إلى مناجم المعدن الرهيبة حيث كان يتعرض فيها الغرناطيون للموت بسبب أوضاعها السيئة.

والحقيقة أن حركة الجهاد التى قام بها الغرناطيون أزعجت السلطات الأسبانية سواء الحكومة أو الكنيسة وصاروا يخافون من تجمع الأندلسيين وخاصة مسلمى

(١) الصحوة الإسلامية فى الأندلس ص ٤٨.

غرناطة عبيدًا أم أحرارًا فهى تسعى جادة لعدم تجمعهم إذ كانت تخشى من الاتصال الذى كان يتم بين مسلمى أراجون وشمال أفريقيا، هذا من ناحية، كما كانت الحكومة الأسبانية تخشى اتصال الموريسكيين بالدولة العثمانية من ناحية أخرى، لذا كانت تسرع لتشتيتهم كلما اجتمعوا.

ولكن كما يقولون رب ضارة نافعة، وقد أدى نقل مسلمى غرناطة وتشتيتهم فى قشتالة إلى إحياء الروح الإسلامية فى الجاليات الإسلامية المدجنة فى تلك الإمارة، إذ تم الاتصال بين أغلب مسلمى أسبانيا، وارتفعت الروح المعنوية للمسلمين حين أدركوا روح الفداء وأحسوا بالرباط الأخوى الذى يربطهم جميعا، بل امتد أملهم إلى ما هو أبعد من ذلك، فقد تمنوا إحياء الدولة الإسلامية فى الأندلس كما أذيعت أخبار انتصارات العثمانيين على النصارى وانتشرت الإشاعات هنا وهناك، وفى خضم هذه الأخبار اكتشفت الحكومة الأسبانية مؤامرة تخطط لإنزال متطوعين مغاربة على مصب الوادى الكبير[١]. ويقول الدكتور على المنتصر: إن حركة الجهاد قد نشطت بين المنفيين فى مناطق كثيرة مثل بشترنه وبطليوس وآبدة وأشبيلية، وحاولت الدولة تقييد تلك الحركات والحد منها وفرضت قوانين تفرض على كل بلدة تسجيل أوصاف المسلمين المنفيين ثم أصدرت قوانين صارمة لعقوبة كل من يتساهل فى ذلك أو يظهر عليه ارتباطه بالإسلام، كما قررت الكنيسة من ناحية أخرى أخذ جميع أطفال المسلمين لتربيتهم على تعاليمها النصرانية كما لجأت إلى بيع أعداد منهم كعبيد للنصارى، ثم تابع ديوان التفتيش مطاردة المسلمين المنفيين دون هوادة[٢].

وعلى الرغم من تهجير بعض من أهل غرناطة إلا أنه قد انتقلت القيادة الإسلامية إلى مسلمى مملكة أراجون وقد وجد مسلمو غرناطة من إخوانهم فى أراجون مساندة ومعاونة تدل على أن الإسلام ما زال حيّاً أثره، وأن أثره فى نفوسهم صار قويًا حيث اغتنم بعض النصارى حرب غرناطة وهجموا على المسلمين

(١) الصحوة الإسلامية فى الأندلس مرجع سابق.

(٢) المرجع السابق.

لسلب أموالهم وسبى أبنائهم ونسائهم وبيعهم كعبيد وخاصة لاجئى غرناطة فكانوا يساقون إلى سوق النخاسة فيجتهد إخوانهم فى أراجون فى شرائهم لتحريرهم(١).

وقد زاد رعب حكومة أسبانيا بعد أن حرر العثمانيون تونس وحلق الوادى من يد الأسبان ١٥٧٤م خوفًا من إنزال قوة عثمانية فى مملكة بلنسية بمساندة المسلمين وبناء على هذا قرر الملك منع المسلمين من سكنى الشواطئ بمملكة بلنسية فأجلوا عنها إلى المناطق الداخلية.

وظل مسلمو أسبانيا طوال هذه الفترة لهم صلات قوية مع جهات ثلاث معادية لأسبانيا: الدولة العثمانية وهى أكبر قوة إسلامية فى البحر المتوسط، المملكة المغربية وهى الدعم الطبيعى لمسلمى الأندلس عبر التاريخ، وهوكونوا فرنسا الذين يشاركونهم فى عداوتهم للكاثوليك.

وقد عرفنا سابقا علاقة مسلمى الأندلس بالدولة العثمانية منذ سقوط غرناطة وقد تزايد أملهم فى نصرتها. وبعد انهيار ثورة غرناطة عام ١٥٧٠م عملت السفن العثمانية على حمل اللاجئين، ومن ثم تحول مركز المقاومة الإسلامية إلى بلنسية وقد شهدت الشواطئ الأسبانية إبان تلك الفترة ما يقرب من ٣٣ حملة، وقد شاعت أخبار تنم عن أن المسلمين يستعدون لثورة شاملة يقوم بها الغرناطيون ويساندهم العثمانيون بإنزال بحرى ولكن على ما يبدو أن ذلك الأمل لم يتحقق ولم يصل الأسطول العثمانى.

وهكذا تعددت الهجمات الفدائية وتمت تحالفات أكبر ضد أسبانيا بتأييد من فرنسا والعثمانيين، ولم يدخل القرن السابع عشر الميلادى حتى وصلت الكنيسة والحكومة الأسبانية إلى يأس تام من تنصير المسلمين، فانهزمت الكنيسة أمام عناد وثبات المسلمين على دينهم وارتعبت الدولة من حركاتهم الفدائية على الرغم من ضعفهم وقلة حيلتهم، ولما أدرك الملك وحكومته قلة حيلته إزاء هؤلاء المجاهدين أخذوا يفكرون فى حل يشفى غليلهم فاقترحوا ثلاثة حلول:

---

(١) الصحوة الإسلامية فى الأندلس ص ٥٠.

١- جمع الموريسكيين كلهم فى إحياء خاصة بهم.

٢- إفناؤهم جميعًا.

٣- أو طردهم خارج أسبانيا.

وقد ارتاح الجميع للحل الثالث سواء رجال الدولة أو رجال الكنيسة وابتدأت الفكرة تتبلور فى أذهانهم، فأمر الملك بتشكيل لجنة لدراسة وضع الدولة الداخلى والخارجى الناتج عن خطر الموريسكيين وتوصلت هذه اللجنة إلى توصية للملك بطرد جميع الموريسكيين خارج أسبانيا، ولم يأت هذا القرار عشوائيا إذ تدارست اللجنة مساوئ القرار ومحاسنه، فمن مساوئه انخفاض دخل الملك والنبلاء فى حالة طرد المسلمين وذلك لأن هؤلاء المسلمين هم عمد الاقتصاد سواء فى الزراعة أو التجارة أو الصناعة، كما وجدوا لها مساوئ سياسية ودينية ولكن تهون تلك المساوئ إزاء الطرد فأصدر الملك فى ١٨ من يناير ١٥٨٥م أمرًا بطرد جميع الموريسكيين فى ظرف شهرين والحكم بإعدام كل متخلف، واستثنى القرار الأطفال من الطرد وقرر تسليمهم للكنيسة حيث تتم تنشئتهم على الدين النصرانى ولكن على ما يبدو تعطل تنفيذ القرار أملا فى تنصير الموريسكيين. وفى ٣٠ من يناير ١٥٩٩م قرر مجلس الدولة طرد الرجال الذين تفوق أعمارهم على ستين سنة وكذلك النساء، أما الباقون فقد أرسلوا للأشغال الشاقة فوق السفن مدى الحياة، وفيما يخص الأطفال دون ١٥ سنة فيسلمون للكنيسة ثم تتم مصادرة جميع أموالهم، وقد اقترح وزير الملك إعدام الرجال بين ١٥ و٦٠ سنة عوضا عن طردهم وتقوية جيوش الأعداء بهم ولكن على ما يبدو لم يطبق شىء من هذا القرار(١).

وبعد سنة كاملة نفذ هذا القرار حيث استند الملك إلى ثلاثة أسباب شجعته على إصدار قرار الطرد فقد اتهم الموريسكيين بالخيانة لتآمرهم مع فرنسا، والمغرب، وكذلك الدولة العثمانية. وهناك سبب آخر وهو رعب الدولة من تكاثر الموريسكيين بالنسبة للنصارى. فالمسلمون لا يشربون الخمر ويتزوجون وليس فيهم

(١) الصحوة الإسلامية فى الأندلس ص ٥٤.



كهنة ولا رهبان ولا يلتحقــون بالجيش، ومن ثم فإنهم يتكاثرون بسرعة ولكن هذه الشائعات كــانت خاطئة لأن الثورات التى قام بها المسلمــون قد قضت على أغلب شبابهم وأتت على الأخضر واليابس ولم تترك شيئًا يشجع على النسل.

وقد أدرك الملك أن الأوضاع الدولية مناسبــة آنذاك لتطبيق قرار الطرد؛ فالمغرب مشغول فى حروبه الدولية والدولة العثمانيــة مشغولة مع الصفويين وانجلترا عقدت معاهدة مع أسبانيا، وفرنسا لن تهاجم أسبانيا بمفردها.

وقد وقع الملك قــرار تنفيذ الطرد يوم ٢٢ سـبتمـبر ١٦٠٩م واستــقر الرأى على طردهم إلى بلاد شمال أفــريقيا وإخراجهم جـميعا من مملكة بلنسيــة رجالا ونساء وأطفالا خلال ثلاثة أيام يقبض بعــدها على كل من تخلف، ويقتل كل من قاوم، وعلى مــسلمى بلنسيــة المكوث فى بيــوتهم انتظار تنفــيذ الأمــر ولا يسمح القــرار للمطرودين بحمل شىء ســوى أموالهم المنقولة التى يستطيــعون حملها شخـصيا؛ ويعدم كل مــن يخبئ ماله أو يتــلفه، وتسلم باقى الأمــوال للنبلاء ويســمح القرار بإبقاء الأطفال الذين يودون البــقاء بشرط موافقة أوليائهم ويبــقى أيضا الموريسكيون الذين برهنوا على إخلاصهم للنصرانية.

وكان تقبل الموريســكيين لقرار الطرد مختلفًــا، فمنهم من اعتبــره فرجًا من الله بينما رفض آخرون الخــروج وحاولوا الاختفاء، وإذا كان بعض المسلمــين قد أعدوا أنفســهم للطرد إنقاذًا لدينهم وفق الخــيار السابق إلا أنهم أوذوا كــثيرا إذ صــاحبت عمليات الطرد جرائم كثيرة فمنهم من مُــنع من بيع منتجاته الزراعية، فقد صادرها النصارى وأعطيت لــلنبلاء؛ ووقفت فى الطرقــات عصابات النصــارى تسطو على المسلمــين وتجردهم مما يحــملون من حلى ومــال، وللأسف الشديد قــد شاركــهم الجيش الأسبانى فى النهب والسلب والقتل، ومما ضــاعف من مأساة المسلمين قرار الدولة بأن يتحمل الموريسكيون مصاريف ترحيلهم، وليت الأمر قد توقف عند هذا الحد بل أغرق أصــحاب السفن النصارى كــثيرا من الموريسكيين فى البــحر للسطو

على أموالهم، وتحكى المراجع أنه رحل خلال ثلاثة شهور ما يقرب من ١٢٠ ألف مسلم، قد رحلوا متحملين تجاوزات النصارى وسوء المعاملة فوق السفن[١].

وفى شهر مايو سنة ١٦١١م صدر قرار قاس ينم عن الحقد الدفين للمسلمين ويقضى هذا القرار بالقضاء على المتخلفين من المسلمين فى بلنسية، ولكى يضمنوا سرعة التنفيذ قدروا جائزة ٦٠ ليرة لكل من يأتى بمسلم حى، وقد قدر من طرد من بلنسية بحوالى ١٣٠ ألف شخص.

ثم بعد ذاك قررت الدولة طرد مسلمى غرناطة ومرسية وجيان وباقى مدن الأندلس وقشتالة ومنطقة بطليوس؛ أما منطقة أراغون فإن المسلمين فيها قد أهملوا مزارعهم وأعمالهم، وباعوا ممتلكاتهم ورحلوا بعدما تأكد لهم رحيل المسلمين فى المناطق الأخرى، ويقدر عدد المطرودين من أراغون القديمة ما يقرب من ٦١ ألفًا وحكم على كل من يخالف بالأشغال الشاقة فوق السفن لمدة ست سنوات[٢].

وهكذا تم تهجير سائر المسلمين فى شتى ممالك أسبانيا وقد أحصيت أعداد من طرد من المسلمين من أسبانيا فى الحقبة بين سنتى ١٦٠٩ : ١٦١٤م أى فى مدة خمس سنوات تقريبا ما يقدر بحوالى ٣٢٧ ألف شخص، وقد تحملوا عنت النصارى ومصادرة أموالهم وحليهم وقتل الكثيرين منهم، وقد استقر معظم المهاجرين بالمغرب والجزائر وتونس، وهناك من المهاجرين من انتقل إلى البلاد الإسلامية الأخرى عبر فرنسا. ويقدر عدد الأندلسيين الذين دخلوا المغرب فى هذه الفترة بحوالى ٦٠ ألف شخص معظمهم من غربى الأندلس، واستقر منهم ١٠ آلاف أندلسى فى مصب وادى أبى رقراق وفى المناطق الشمالية كمدينة تطوان وشفشاون والقصر الكبير، وقد عمل هؤلاء المهاجرون الذين نزلوا مدينة الرباط على تعميرها كما استقرت أعداد منهم فى فاس أيضا.

(١) الصحوة الإسلامية فى الأندلس ص ٥٨.
(٢) المصدر السابق ص٥٨، ٥٩.

ويقدر عدد المهاجرين إلى الجزائر بحوالى ٦٥ ألف شخص معظمهم من مملكتى بلنسية وأراغون القديمة، وقد تم تهجيرهم من خلال فرنسا واستقبلتهم السلطات العثمانية أحسن استقبال، وكذلك أهالى الجزائر وتلمسان وبجاية، وقد استقر فى تونس ما يقرب من ٥٠ ألف شخص معظمهم جاءوا إليها عن طريق فرنسا، وقد ساهم هؤلاء المهاجرون فى تعمير تونس وخاصة فى المناطق الخالية حيث نهضت الزراعة والمهن الأخرى.

وبصفة عامة فإن عدد المهاجرين إلى الشمال الأفريقى كان يقدر بـ ١٨٠ ألف شخص تقريبًا.

وانتقل عدد من الأندلسيين عبر فرنسا وإيطاليا إلى الأراضى العثمانية والمشرق، وقد تدخل السلطان العثمانى أحمد الأول مع حكام فرنسا وبريطانيا وإيطاليا لتسهيل انتقالهم إلى الأراضى التركية فاستقر بعضهم فى البوسنة وبعضهم بسلانيك وآخرون بالقسطنطينية ومنهم من توجه إلى بلاد الشام واستقروا فى دمشق والساحل اللبنانى، ويقدر عدد المستقرين فى الأراضى العثمانية بصفة عامة ٤٠ ألف أندلسى وقد هاجر حوالى ١٠ آلاف أندلسى إلى البلدان الأوروبية فى أوروبا وعلى وجه الخصوص فرنسا وأمريكا.

ويمكننا أن ننهى حديثنا عن قضية طرد الموريسكيين بأنه قد هاجر منهم ما يقرب من ٢٣٠ ألف شخص واستقروا فى البلاد التى سبق ذكرها، بينما مات منهم ٦٥ ألفًا نتيجة ما تحملوه من غرق فى البحار أو قتل فى الطرقات أو أمراض فتاكة أو جوع وفاقة، وقد تمكن ٣٢ ألفًا من مسلمى الأندلس من العودة إليها بعد طردهم(١).

وهكذا أسدل الستار على صفحة من صفحات التاريخ الإسلامى عاشها المسلمون فى جنوب غرب أوروبا رفعوا فيها راية الإسلام خفاقة بالعزة والكرامة طوال ثمانية قرون، ولكن سنة الله غالبة فى كونه وفى خلقه، وقد وقع مسلمو

---

(١) للاستزادة ينظر كتاب الصحوة الإسلامية للدكتور على الكتانى مصدر سابق ص٤٧: ٦٢.

الأندلس تحت طائلة هذا القـانون بعدما تراخـوا وتفرق شملهـم وتوزعت دولتهم واستـبد بهم العـدو الأسبـانى استبـدادًا لم نسمع به فـى التاريخ، وقهـرًا للنفس الإنسانية لا تود العين رؤيته ثم تشتيتًا وطردًا مهينًا حطم كرامة الإنسان تحطيمًا.

فهل لنا نحن المسلمين أن نأخـذ العبرة والعظة لنسترشد بذلـك التاريخ وخاصة أنه مازال فى بلاد أوروبا حتى اليوم أقليات إسـلامية تعيش مع الأوروبيين فى دولة واحدة ويحكمهم قانون واحد.

فهل يمكن لهذه الأقليات أن تعيش معززة الجـانب موفورة الكرامة معتزة بدينها وشريعتها بجانب هؤلاء الغربيين؟ ولم لا؟ وهم يشاركون فى صنع حضارة إنسانية واحدة وثقافة واحـدة ويساهمون فى بناء المجتمع ونهضتـه، وهم ليسوا عالة على المجتمعـات الغربية التى بدأت تتبرم بالمسلمـين فى هذه الأيام ويتناولون الحجة تلو الأخرى للاصطدام بهم فى ساحـات القضاء كقضية الحـجاب تارة ومنع النشيطين من أداء أدوارهم السيـاسية حـينًا آخر، بل ذهبوا أبعـد من ذلك إذ دأبوا على منع كبار علماء المسلمين من دخول بعض العواصم الأوروبية، فهل لنا أن نربط الحاضر بالماضى ونستعيد الذكرى لنفهم الدرس ونأخذ العظة؟!.

❁❁❁

رابعًا: هل أعرض العثمانيون عن مساعدة الموريسكيين؟

تعد مشكلة الموريسكيين من أخطر المشكلات التى هيمنت إبان القرن الثالث عشر على شبه جزيرة الأندلس، وقد تناول هذه القضية الكتاب العرب وغير العرب ولكن ما زال يلف بها الغموض فى بعض جوانبها التى تحتاج إلى مزيد من البحث لمعرفة الأبعاد الحقيقية لهذا الموضوع، ولعل دراسة تلك القضية إذا ما اقترنت بتاريخ الدولة العثمانية تتضح أبعادها وينجلى غموضها من خلال صلة الموريسكيين بالدولة العثمانية.

وإذ كانت تركيا الإسلامية فى القرن الثالث عشر هى القوى الإسلامية الوحيدة المهيمنة على العالم آنذاك، واتسعت أراضيها لتشمل بقاعًا كثيرة من العالم العربى والإسلامى الأوروبى، فلا عجب أن يتطلع مسلمو الأندلس إلى تلك القوة يلتمسون منها العون والغوث، فهل تم اتصال من هذا القبيل بينهم وبين القادة العثمانيين؟ وماذا كان موقف العثمانيين تجاه المسألة الموريسكية آنذاك؟ ثم ماذا كان وزن هذا المشكل على سياستهم العامة بالبحر الأبيض المتوسط وفى أوروبا؟ لا شك أنه انطلاقًا من استيلاء العثمانيين على القسطنطينية ومن الانتصارات العسكرية التى حققوها فى أوروبا الشرقية، أصبح الأتراك-العثمانيون يتمتعون بوزن دينى وعسكرى وسياسى ذى أهمية كبرى، تدرك أثره دول حوض البحر المتوسط وخاصة أثناء حكم محمد الفاتح وابنه بايزيد الثانى. وذلك بفضل جيوشهم البرية التى ملأت الأرض وأساطيلهم الضخمة المهيمنة على أعالى البحار.

من هذا المنطلق رأى الموريسكيون أنه لا سبيل لمنجاتهم إلا بطلب النجدة من سلاطين العثمانيين وبخاصة بعدما انقطع الرجاء من دول عدوة المغرب. وقبل سقوط الأندلس بخمس سنين أى عام ١٤٨٧م أرسلت سفارة إلى السلطان العثمانى بايزيد -كما قلنا سابقًا- هى إلى طابع الرثاء العربى أقرب منها إلى شىء

آخر، وفيها يشتكى الأندلسيون من المعاناة التى يتكبدها المسلمون وكيف أن سقوط الإسلام فى أسبانيا أصبح وشيك الوقوع، وقد طلبت الرسالة بعبارات مؤثرة جدا مساعدة الشعوب والملوك المسلمين[1].

إن السلطان بايزيد الذى عرف بالتقوى والتدين قد رد على هذا الاستنجاد بإرسال أسطول عثمانى تجول فى الشواطئ الأسبانية، وقد أعطى قيادته إلى كمال رايس الذى أصبح بعدئذ مصدر الرعب الذى كانت تشعر به الأساطيل المسيحية فى أواخر القرن الخامس عشر الميلادى.

لقد كان رد فعل السلطان بايزيد الثانى بقيامه بمساعدة هؤلاء المستضعفين من مسلمى غرناطة، إنما كان يترجم عن شعور صادق بالقيام بواجب دينى تفرضه رابطة الأخوة فى الدين والتضامن الإسلامى. وقد كانت أخبار هؤلاء الموريسكيين تتناقل عن طريق الحجاج الأندلسيين والمغاربة ورحلاتهم إلى الأماكن المقدسة الإسلامية، وقد كانت تلك الأماكن مناسبة للقاءات المسلمين العالمية، ولا شك أن المشكل الموريسيكى والأخبار الموريسكية كانت تتناقل وتناقش وتنتشر عبر العالم الإسلامى، وإننا لا نستغرب على ضوء ذلك أن تعظم سمعة الإمبراطورية العثمانية وشهرة أسطولها وقوة جيوشها البرية، ذلك أن الإسلام فى الإمبراطورية العثمانية يحتل المكانة الأولى، وقد دخل الأتراك منذ العصور الوسطى فى الأعمال الدينية والاقتصادية، ولا غرو فى ذلك فإن مفتى وهران صرح فى رسالة كان قد وجهها إلى مسلمى الأندلس سنة ١٥٠٣م قائلا: «إنى أدعو المولى سبحانه وتعالى أن يغير الأحداث لصالح دين الإسلام، وحتى تتمكنوا من عبادة الخالق دون لوم أو خوف، وهذا بفضل التحالف مع الأمراء الأتراك»[2].

وبالفعل فقد أصبحت استانبول منذ بداية القرن السادس عشر «الأرض المفضلة» بالنسبة للمضطهدين سواء أكانوا مسلمين أو يهودا، وأن الأقلية الموريسكية أخذت

(١) انظر عبد الجليل التميمى. الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين. منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية. زغوان ١٩٨٩م. ص١١.

(٢) المصدر السابق ص١٦، ١٧.

فى الازدياد وأصبح بإمكانهم أن يلعبوا دورًا رئيسًا لإحاطة رجال الدولة العثمانيين بالوضع المؤلم والحقائق المذهلة لكل ما يتعلق بالموريسكيين.

كما أن قنصل البندقية ذكر أن عددًا كبيرًا من اللاجئين الموريسكيين يمتهنون الترجمة أو الاستخبارات لفائدة الإمبراطورية العثمانية وأنهم يُؤمّنون كل المراسلات تقريبا والتى كانت تتم مع الولايات المغربية ومع المدافعين عنهم أينما كانوا، وحتى اليهود فقد اتهموا بالجاسوسية والاستخبارات لفائدة العثمانيين[1].

إن مختلف المعلومات التى كانت تصل إلى مركز الإمبراطورية العثمانية عن الموريسكيين ابتداء من النصف الثانى من القرن السادس عشر، تؤكد بصورة لا مجال للشك فيها أن رجال الدولة العثمانية كانوا يراقبون ويتابعون عن كثب معطيات المشكل الموريسكى، وقد ذكر أحد التجار الألمان المقيمين باستانبول حوالى سنة ١٥٦٠م أن الشائعات كانت تروج بمركز الخلافة العثمانية حول وجود ٨٠ ألف موريسكى قد التجأوا إلى فاس وأنهم اعتنقوا البروتستانتية بغرض الانتقام من محاكم دواوين التفتيش الأسبانية، ويعتبر هؤلاء اللاجئون مرآة صادقة تدل على عمق المأساة التى يعيشها الموريسكيون على الأرض الأسبانية، وقد أعلن بعضهم أنهم سوف يلحقون الضرر بالمسيحيين مثلما فعل هؤلاء بالموريسكيين فى أسبانيا».

إن السلطان العثمانى قد استقبل عددًا من السفارات الجزائرية كان أهمها تلك التى ترأسها العالم أبو العباس بن أحمد بن قاضى والتى أحاط فيها السلطان علمًا بوضعية الولايات المغربية وصراعها مع أسبانيا الكاثوليكية والتى أنزلت بالمجموعة الإسلامية الأندلسية كثيرًا من المحن لتجبرها بالقوة على اعتناق الدين المسيحى. بعد أن قامت بتحويل كل الجوامع إلى كنائس، وكان يساعدها فى ذلك محاكم دواوين التفتيش التى كانت تحرص بإصرار على أن تقضى على الوجود الأخلاقى والحضارى للموريسكيين واليهود والبروتستانت، فى حين كان للمسيحيين باستانبول -على العموم- كنائسهم المحمية من طرف الجيش التركى، وإن كان كل

---

(١) الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين ص٧٩ وما بعدها.

فرد منهم حـراً فى ممارسة دينه، وقد أثار هذا التسامح إعجاب مختلف الزائرين لاستانبول خلال القرن السادس عشر، وهى الظاهرة التى لا يمكن حدوثها فى هذا الظرف بأسبانيا[١].

وعلى ضوء ذلك، فإن نشاط الدولة العثمانية بالبحر الأبيض المتوسط وتجاه المشكل الموريسكى بدأ يأخذ بعدًا جديدًا وأهمية خاصة.

فإنه انطلاقًا من سنة ١٥١٩م بعدما ارتبطت ولاية الجزائر بالإمبراطورية العثمانية، يمكننا أن نتحسس، على ضوء الأحداث، خلفية الموقف العثمانى وأهدافه وغاياته بالنسبة لموقفه فى القضية الموريسكية.

إن التاريخ العثمانى إبان القرن السادس عشر فى علاقته مع الأوروبيين قد تميز بظهور شخصيات كبرى حققت الانتصارات العثمانية كما أنها ساهمت فى إبقاء التوازن بين الدولة العثمانية والإمبراطورية الأوروبية، وزادت من قدرة العثمانيين على الدفاع والوقوف للمحافظة على التفوق العسكرى العثمانى، ومن أهم هذه الشخصيات القائد البحرى عروج وخير الدين برباروسا وغيرهما، وكان يعاونهما فى أعمال البحر ٥٠٠ شخص موريسكى وقد تضاعف عددهم وكانوا على علم بميدان العدو وتحركاته وكانوا يجيدون لغته[٢].

إن الدور الذى لعبته هذه الأقلية فى إدارة خير الدين ما زال مجهولا، وهو الدور الذى يترجم عمق قلقها وإصرارها لمساعدة إخوانهم بالأندلس، ويكاد يكون مسلما به اليوم، أن خير الدين كان يدرك جيدا الملف الأسبانى وحيث يعتبر المشكل الموريسكى أهم قضية فيه، ويرجع الفضل فى ذلك إلى هؤلاء اللاجئين الموريسكيين الذين أحاطوا بخير الدين وأخلصوا له تماما.

إن معرفة خير الدين بالملف الموريسكى بعد ذلك، قد دفعه إلى الاعتقاد بوجوب إنشاء دولة قوية وموحدة بالمغرب، وانطلاقا منها يكون باستطاعته استرجاع

(١) الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين ص١٤.
(٢) المصدر السابق ص١٥

الأندلس وإنقاذ الموريسكيين من ربقة الأسبان ومحاكم دواوين التفتيش. ونتيجة لذلك فإن خير الدين بعد أن قضى على قلعة البينون الأسبانية فى عرض البحر أمام مدينة الجزائر سنة ١٥٢٩م، استجاب لاستغاثات موريسكيي الأندلس مرسلا إليهم فى نفس السنة: «ستًا وثلاثين باخرة استطاعت أن تنقذ عشرة آلاف منهم فى كلِ مرة بحيث إنه خلال سبع رحلات متوالية، أنقذ سبعين ألفًا من عرب الأندلس»(١).

إن النجاح الذى حققه خير الدين قد أكسبه سمعة وهيبة لدى الجزائريين الموريسكيين على حد سواء، أما السلطان سليمان القانونى الذى اتصل بلائحة من الموريسكيين فقد سارع بإرسال فرمان إلى خير الدين يأمره بالتحول إلى استانبول، للمشورة، وفى الحقيقة كان ثقل السياسة العثمانية فى الولايات المغربية، يرتكز على خير الدين فى هذه الفترة.

وعلى ضوء المقابلة التى تمت أدرك السلطان جيدا خلفية وأهداف السياسة الأسبانية فى الحوض الغربى للبحر المتوسط ووضع الموريسكيين الدقيق ووجوب العمل على تقوية الوجود العثمانى فى هذا الجانب، وهذا وفقا للاستراتيجية العسكرية التى يسعى خير الدين شخصيا لإنجازها.

واستجابة لهذه الرؤية الجديدة، اتخذت عدة قرارات منها بناء ٦١ وحدة من وحدات الأسطول فى القرن الذهبى باستانبول، وإن مشاعر عطف السلطان سليمان «لشمال أفريقيا» قد قويت من جديد بفضل سياسته الوفاقية مع فرنسا، وعليه أصبحت سياسة سليمان القانونى ملتزمة حيال الولايات المغربية من أجل الموريسكيين. وقد وجه هؤلاء سنة ١٥٤١م رسالة سوف نعرضها فيما بعد.

ومن جهة أخرى فإن تقدم الدولة العثمانية فى أوروبا الغربية، فى هذا الظرف على وجه الخصوص، والتأثير الذى أحدثته على مصائر الأمراء الأوروبيين، قد أعطى أكثر من أى وقت مضى، إشعاعا وهيبة لهذه الدولة ومنحها وزنًا سياسيًا وعسكريًا كبيرين.

---

(١) الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين ص١٦

وقد انعكس هذا التأثير على دول الحوض الغربى للبحر الأبيض المتوسط. فلا نستغرب بعد ذلك اهتمام المسئولين العثمانيين للمشكل الموريسكى، وهو الاهتمام الذى سيظهر على جميع المستويات: كالتدخل المباشر وتقوية الوجود العثمانى، أو ربط الصداقة والتعاون مع الملك ألفونسو الأول وفتح طرابلس الغرب والمهدية وجربة، والقيام باتصالات مع مسئولى المغرب الأقصى وتونس للتنسيق مع بعضهم بعضًا فى مواجهة عدو مشترك. وقد ساهم هذا النشاط فى تبادل عدد من السفراء فيما بينهم.

أما بلاط مدريد، فكان على علم تام بعلاقات الموريسكيين بالعالم الإسلامى، وأن أغلب المؤرخين ومدونى الوقائع أو القساوسة وحتى الشعراء، فقد اتهموا الموريسكيين بارتباطهم بالأتراك العثمانيين، وهذا ما زاد من تخوفات فيليب الثانى، خاصة بعد الشائعات التى كانت تروج بكثرة حول تهديد الأسطول العثمانى وتدخله فى الثورة الموريسكية بغرناطة.

أما الصدر الأعظم محمد صوفللى الذى عرف بورعه وتقواه، والذى أحيط علما بمحن الموريسكيين عن طريق العديد من الرسائل التى وجهت إلى الباب العالى فيبدو أنه كان يخطط للهجوم على أسبانيا لغرض مساعدة موريسكيى غرناطة الثائرين وأنه اقترح على السلطان القيام بحملة على أسبانيا بدل قبرص، وقد سبق للصدر الأعظم أن أصدر فرمانين مهمين لمشكل الموريسكيين وهذا يدل على تقدير العثمانيين لهذه القضية.

وقد شوهدت مشاهد كثيرة فى هذه الفترة تؤكد أن الثوار قد تلقوا مددًا وأسلحة وبعض مئات من المتطوعين من الجزائر، أما سفير فرنسا فوركوفوا فقد أكد فى رسالة إلى كاترين دوماديسيس بتاريخ ٦ يناير ١٥٦٩م أنه: «يوجد ما بين ٤٠٠ و ٥٠٠ تركى صحبة «أمير غرناطة» وقد أرسلوا للجزائر، وحتى يوحى أمير غرناطة بأن عددهم أكثر بكثير من ذلك فقد عمل على ارتداء عدد من العرب البواسل، الزى التركى» ، كما أن المدد قد وصلهم من ملك فاس حيث تمكن بفضل ثمانية عشر باخرة خفيفة نقل ٤٠٠ عربى أو تركى وكذلك الذخيرة..»[(١)].

(١) الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين ص١٨ : ٢٠.

وموقف الدولة العثمانية سوف يترجم عنه هذا النشاط الحثيث لدى ملك المغرب الأقصى لتنسيق عملهما للدفاع عن السواحل ومساعدة اللاجئين الموريسكيين. وكذلك تبادل السفراء المتواصل بين البلدين والذى يترجم للسعى إلى تنسيق المجهودات، وهذا على الرغم من خوف واحتراز كل منهما للآخر، ومع ذلك فإن القضية الموريسكية تبقى المسألة التى اتفق عليها الطرفان، وذلك أن العثمانيين ما فتئوا يطالبون بمساعدة الموريسكيين، كما تؤكده تلك الرسالة التى وجهها السلطان العثمانى إلى ملك فاس بتاريخ شهر سبتمبر ١٥٧٣م.

على أن الاكتشاف بوجود مؤامرة موريسكية فى أشبيلية عام ١٥٨٠م تهدف إلى المساعدة على احتلال أسبانيا انطلاقا من السواحل المغربية، يؤكد ولا شك ظاهرة التنسيق المشترك لكل ما يتعلق بالمسألة الموريسكية والتى كان يتم بالتعاون مع الإمبراطورية العثمانية[١].

إن العوامل التى أثرت على مصير الموريسكيين كانت متعددة كما يقول الدكتور عبد الجليل التميمى وأنه من المفيد ذكر عدد كبير من الوسطاء غير المسلمين فرنسيين أو غيرهم، كانوا على اتصال منذ أواخر القرن السادس عشر بالموريسكيين، وذلك أن التدخل الفرنسى لدى الموريسكيين كان حقيقة يعلمها الأسبان، وقد قام الجاسوس المزدوج باسكال دوسانت استاف بأمر من الملك هنرى الرابع ودوك دولافورس سنة ١٥٩٩م بالاتصال بالموريسكيين»[٢].

ومن خلال هذه الاستراتيجية السياسية والعسكرية، فإن الولايات المغربية قد خدمت بشكل جذرى الإمبراطورية العثمانية فى كل ما يتعلق بالموضوع الموريسكى خلال القرن السادس عشر، ذلك أنه قبيل الطرد النهائى للموريسكيين فإن الولايات المغربية أصبحت أقل خطراً على أسبانيا نتيجة اختفاء الظاهرة الموريسكية.

أما موقف الدولة العثمانية من عملية الطرد النهائى للموريسكيين سنة ١٦٠٩م فسوف توضحه تلك الرسالة المهمة المرسلة من السلطان العثمانى أحمد الأول إلى

(١) الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين. ص٢١.

(٢) المرجع السابق ص٢١.

دوج البندقية سنة ١٦١٤م، وقد ظهرت من خلالها المساعى السياسية للإمبراطورية العثمانية لدى معظم الدول الأوروبية يومئذ، لمساعدة الموريسكيين وتقديم كل عون وتمكينهم من الالتحاق بأرض الدولة العثمانية فى أحسن ظروف الأمن والسلم والطمأنينة(*).



(*) لقد اعتمدنا فى كتابة هذا الجزء على كتاب الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين بالأندلس للدكتور عبد الجليل التميمى «بتصرف». منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات زغوان ١٩٨٩م. ومن يرد الاستزادة فليرجع إليه.

خاتمة البحث



مأساة الأندلس تعد سنة كونية من سنن الله متى توافرت أسبابها ودواعيها جاءت النتائج كما أرادها الله، يقول الله تعالى: ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ [الأحزاب: ٦٢].

ويقول تعالى: ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦].

ومأساة الأندلس ليست فريدة فهى تتكرر فى حياتنا وفى واقعنا نحن المسلمين حينا بعد حين، فقد مرت تلك المآسى فى فلسطين وأدركناها فى أفغانستان وفى البوسنة والهرسك وأرتيريا والفلبين والعراق، فهى سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا.

والواقع أن سقوط الأندلس كانت نذره وشيكة وعلاماته واضحة منذ أن منيت الأندلس بسقوطين هزا كيان المسلمين هزا عنيفا: السقوط الأول، وهو سقوط الخلافة الأموية فى الأندلس عام ٤٢١هـ تقريبا حيث أضحت البلاد نهبًا لدويلات مشرذمة مستضعفة متعادية فيما بينها يضرب بعضها البعض، ويلتهم القوى الضعيف، وصار بأسهم بينهم شديدًا بينما كان العدو الأسبانى أقرب إليهم من إخوانهم المسلمين فوالوا النصارى وتقربوا إلى ملك قشتالة فقوى عليهم ذلك العدو واستكلبهم واستنفد قواتهم وأصبحت الأندلس منذ ذلك الحين مطمعًا كبيرًا أمام الأسبان حيث حفزهم ضعف ملوك المسلمين على حركة الاسترداد والتى كان نتيجتها تساقط أغلب مدن الأندلس الكبرى واحدة تلو الأخرى.

أما السقوط الثانى فهو سقوط دولة الموحدين والذى بدأت طلائعه بعد هزيمة العقاب سنة ٦٠٩هـ ولم تقم للأندلس بعدها قائمة تذكر، إذ نشط الأسبان النصارى فى توحيد كلمتهم وتجمعوا فى حركة صليبية لاسترداد الأندلس من أيدى

المسلمين كما أن سقوط تلك الدولة أدى إلى اضطراب أمور الأندلس وقيام حركات في عدد من الأقاليم الأندلسية مثل حركات بن هود وابن مردنيش وابن الأحمر التى أسلمت فى النهاية إلى حصر المسلمين فى مدينة غرناطة.

ومما يجدر الإشارة إليه هو أن نشاط النصارى الأسبان لاسترداد أرض الأندلس لم يتوقف مطلقا بعد الفتح، فإذا كانوا قد هربوا إلى الشمال معتصمين بالجبال إبان سنوات الفتح الأولى إلا إنهم عاشوا متربصين بالمسلمين ينتظرون اللحظة المناسبة للانقضاض على مسلمى الأندلس، وقد واتتهم الفرصة سانحة بعد تفرق المسلمين وتمزق وحدتهم إبان عصر الطوائف، إذ سقطت طليطلة أولى المدن الكبرى التى استرجعها الأسبان والصليبيون سنة ١٠٥٨م، وعلى الرغم من أن هؤلاء النصارى قد هزموا هزيمة منكرة فى معركة الزلاقة على أيدى المرابطين الذين أطالوا عمر دولة الإسلام فى الأندلس ما يقرب من قرنين فإن هؤلاء النصارى استطاعوا أخيرا أن يوحدوا صفوفهم ويعبئوا جميع طاقاتهم فى حروب شرسة مع المسلمين أدت إلى أن تتساقط مدن الأندلس واحدة تلو الأخرى، فقد سقطت قرطبة سنة ١٢٣٦م ثم أشبيلية ١٢٤٨م، ثم مرسية ١٢٦٦م ثم سقطت مالقة ثم بعدها بخمس سنوات سقطت غرناطة آخر معاقل المسلمين فى الأندلس، فهل قراءتنا لتاريخ المسلمين فى الأندلس والذى قارب الثمانية قرون يمكن أن نستفيد منه اليوم؟

إننى أعتقد أننا يمكننا الاستفادة من تاريخ الأندلس لو اتبعنا منهجًا صحيحًا لاستيعاب حركة التاريخ الإسلامى ونظرنا إليه نظرة فاحصة إيجابية تختلف عن نظرتنا لسائر التواريخ على النحو التالى:

١- لابد أن ترتبط حركة التاريخ فى الأندلس بحركة التاريخ فى المشرق الإسلامى وينظر إليهما على أنهما حركة لتاريخ واحد لأمة واحدة هى الأمة الإسلامية، فإن ما يؤثر فى مشرق الأمة يؤثر فى مغربها، والعكس صحيح، فالحركة الصليبية الأوروبية التى استهدفت الشام وبيت المقدس ما هى إلا صدى للحركة الصليبية التى شنها الغرب المسيحى على أرض المسلمين بالأندلس، من هنا

ينبغى أن تختفى الفجوة الفاصلة بين جناحى الأمة الإسلامية لتلتئم حركة التاريخ وتجلو التجربة واضحة فى سياقها التاريخى، أما إذا قرأنا حركة التاريخ فى كل بلد مسلم على حدة فإننا نكون قد أعقنا حركة التاريخ أن تمتد وساهمنا فى تقوقع حركة الإنسان وانحصارها داخل حدود وهمية من صنع الاستعمار، فمثلا فتح القسطنطينية على يد العثمانيين سنة ١٤٥٣م كان له الوقع الكبير فى أوروبا مما جعل السلطة الدينية البابوية تستنفر الهمم لفك ذلك الحصار الإسلامى الذى أحاط بأوروبا وسبب لها خزيًا وعارًا، ومن ثم تجمعت قوى الغرب فى حركة صليبية لتواجه الإسلام والمسلمين، فكلما كان العثمانيون يتوغلون فى شرق أوروبا فى بلاد البلقان بما فيها البوسنة والهرسك وكوسوفو كان القشتاليون الأسبان وقوى الغرب فى حركته الصليبية يتقدمون من غرب أوروبا نحو الجنوب فيصل بهم الحال إلى احتلال مدن شمال أفريقيا بعد سقوط دولة الإسلام فى الأندلس ويتخذون من مدن المغرب مراكز متقدمة لهم مثل مدينة مليلة ووهران وبجاية وسبتة إلى غير ذلك. وخلاصة هذا أن أحداث التاريخ فى الغرب الإسلامى لا يمكن فهمها فهمًا جيدًا إلا إذا قورنت بأحداث الشرق الإسلامى.

إذا كانت دولة الإسلام قد انتهت وطويت فى أرض أسبانيا، فإن الإسلام باق إلى أن تقوم الساعة، فهو الرسالة الخاتمة والمنزلة إلى الناس جميعا، وهناك فرق بين الإسلام حينما يغزو الشعوب ويعيد حركة بناء الإنسان لتحمل مسئوليته فى خلافة الله فى الأرض وفق منهج ربانى يغمر نوره وهديه الإنسان والكون والحياة. وهذا الغزو يختلف بطبيعة الحال عن الغزو الاستعمارى البغيض الذى يلهب ظهور الناس ويمتص طاقاتهم ويستأثر بكل خير لنفسه ويحرم الخير على أهله وأصحابه. من هنا فإن الإسلام ليس مذهبًا وضعيًا سوف يختفى أو يقضى عليه وإنما هو رسالة الله الأخيرة إلى الناس، ولابد أن تعود وسوف تعود؛ ليأخذ الدين الإسلامى مكانه فى أسبانيا كما كان، لأن الإسلام ما زال يعيش فى وجدان تلك

الأمة وذاكرتها وتقاليدها وتراثها على الرغم من الممارسات القمعية التى كانت ضد المسلمين.

من أبرز مظاهر السقوط الحضارى -وهذه مشكلتنا اليوم- ليس فقط فى عجز الأمة عن تمثل تاريخها لبناء حاضرها وتخطيط مستقبلها، وإنما فى عجزها أيضا عن حماية تاريخها من النهب الفكرى والاستلاب الحضارى، كما لاحظناه فى كتابات كثير من المستشرقين المتعصبين، وفى التواريخ التى كتبها اليهود على وجه الخصوص فمثلا:

أ- لقد قام بعض المفكرين باعتناء شديد بتاريخنا دراسة وتحليلا ولكن كان وفق أغراضهم فسلبوا منه قيمه ومثله العليا ونظرة الإسلام ومنهجيته فى هذا التاريخ.

ب- التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية فى الأندلس يهوّدان اليوم بطريقة مستفزة بهدف الإساءة إلى الإسلام والزعم بأنه السبب فى تخلف المسلمين وضعفهم فى الأندلس، فيركز هؤلاء الكتاب على مظاهر الضعف والتفكك والانحدار تاركين نصف الكوب المملوء والذى يتمثل فى حضارة إنسانية وثقافة إسلامية لا مثيل لها إبان مراحل القوة فى الأندلس، وذلك ليثيروا حقد الغرب على الإسلام والمسلمين، كما أن اليهود حاولوا أن يثبتوا أنهم وراء كل علم أو تقدم حضارى فى الأندلس بما قدموه من علماء وكتاب وأطباء من أصل يهودى كابن ميمون وابن جبير وغيرهما ليؤكدوا أن الحضارة الأندلسية إنما هى من صنع اليهود.

فلا نستغرب أن يُهوِّد تاريخ الأندلس أو تعاد قراءته من منظور يهودى مستحلين لأنفسهم سرقة التاريخ الإسلامى باعتباره جزءًا من تاريخ اليهود فى الشتات.

ج- ومما يؤسف له ونحن نعيش فى غفلة عما يدبر حولنا أن أسبانيا تحاول إعادة كتابة تاريخها القومى آخذة فى الاعتبار أسبنة الحقبة التاريخية الإسلامية وجعلها جزءا من التاريخ القومى الأسبانى، فهى حقبة غنية برجالها وعلمائها وحكامها الذين أثروا الحضارة الإسلامية آنذاك كابن رشد، وابن حزم، والقرطبى والشاطبى وغيرهم كثيرون، ولعل هذا الاعتبار من دولة أسبانيا قد يعنى:



- أن الحقبة الأسبانية هى أخصب فترات التاريخ الأسبانى وأنها المرحلة المضيئة بعطائها الحضارى والثقافى.

- عدم اعتبار حقبة التاريخ الإسلامى فى الأندلس والتى قاربت الثمانية قرون حقبة احتلال عسكرى، بل هى حقبة أصيلة من التاريخ القومى الأسبانى بتنوعها الحضارى والثقافى وليس التاريخ السياسى العسكرى فهو تاريخ بائد، أما الباقى فهو حركة الإنسان المسلم بما خلف من تراث ثقافى وحضارى كان أساسا لنهضة أسبانيا الحديثة فى مرحلة من أهم مراحلها وهى مرحلة التطوير.

د- ومن خلال قراءة حركات المسلمين فى الأندلس كما هى حركتنا اليوم نجد أنها كانت مبنية على رد الأفعال والابتزاز السياسى وعدم التخطيط لحركة واقعية تمتد فيها النظرة إلى أفق المستقبل، وهذا واضح من معاملات حكام المسلمين مع ملوك قشتالة وليون وغيرهم إذ انعدم التخطيط والتفكير الاستراتيجى المنظم فى عسكريات المسلمين بينما ظهر ذلك واضحا فى برنامج منظم لدى ملوك قشتالة ونصارى الأسبان، وكم كانت عبارات الصداقة والود تفوح من أفواه ملوك النصارى أعداء المسلمين فيستنيم لها المسلمون وينخدعون بتلك الأقوال وسرعان ما يؤخذون على غرة، وهذا يذكرنا بقضية فلسطين اليوم؛ تخطيط محكم من الدولة اليهودية مع أكبر قوة تساندها لتعمل جاهدة على تركيع الفلسطينيين وعلى إبادتهم شيئًا فشيئًا مع ما نسمعه من وعود معسولة وبراقة بقيام الدولة الفلسطينية، وكم سمعنا من خرائط للطريق تتعلق بها الآمال ولكن سرعان ما تغيب حتى تاه الطريق.

إن المشكلة التى يعانيها العقل المسلم اليوم هى افتقاده إلى منهج الثقافة التاريخية وإلى إدراك السنن الكونية التى تخضع لها الحركة الكونية حتى يتكون لديه وعى بأحداث التاريخ فلا ينزلق فى مواضع الزلل وفى مهاوى الظلم والرفاهية التى يأخذ الله بها الشعوب أخذ عزيز مقتدر.

كما أنه ينبغى عند الحديث عن الوعى التاريخى أن نأخذ بتجربة القرآن فى هذا الصدد، فينبغى علينا وعلى كتاب التاريخ عدم الاقتصار على التجربة الذاتية أو

التاريخ الإقليمى لكل دولة مسلمة على حدة -كما وضحنا سابقا- بل ينبغى إدراك التاريخ العام للأمة الإسلامية -كما قلنا- ومما يستوجب تلك النظرة أن أمتنا الإسلامية هى أمة الرسالة الخاتمة وهى الوريث الفكرى والحضارى للأمم السابقة، لذا نرى أن القرآن الكريم قد جنبنا الوقوع فى تجربة فرعون وعاد وثمود وأصحاب الأيكة إلى غير ذلك لأنها الأمة الخاتمة صاحبة الرسالة العالمية التى لا تفنى ولا تتبدل إلى أن تقوم الساعة، ومن هنا فإن الاهتمام بكتابة التاريخ الإسلامى فى اعتقادى يعد فرض كفاية لما له من أهمية بالغة الأثر فى تنشيط تجربة وحركة الإنسان المسلم فى الزمان والمكان.

وإن كان علم التاريخ عند الكثيرين منا قد اقتصر على حفظ حوادث وسرد سياسات الملوك والحكام وضبط شديد لمنهج النقل أقول: إن كان هذا هو اهتمامنا بالتاريخ فإن الأهم من هذا أنه ينبغى علينا استقراء حركة التاريخ والحوادث، واكتشاف القوانين فى البحث عن المقاصد والبواعث والكيفيات التى تحكم حركة الحياة والتى تؤدى إلى السقوط والنهوض والتدافع البشرى وفق سنن الله.

ولا نلتفت إلى تلك النظرة الضيقة التى يأمر أصحابها بعدم الاتجاه إلى التحليل والتفسير التاريخى، وكم برروا تلك النظرة الضيقة بأوهام لا قيمة لها وكان هدفهم من ذلك واضحًا غير خفى، فهم لا يحللون أحداث التاريخ ولا يميلون إلى فلسفته خوفًا من ظهور الوعى الثقافى والحضارى الذى لا يروق لأصحاب النفوذ المتسلطين على عقلية المسلمين والموجهين لها حسب مصالحهم الخاصة. إن أصحاب تلك النظرة التاريخية المنهجية القائمة على التفسير والتحليل واستنباط العبرة. هم هداة التنمية وهم وقود الثورات وهم المشاعل التى تضئ النفوس وتحرك المشاعر لإزاحة التخلف والتطلع إلى المستقبل الواعد، فلا غرو إذن أن نرى أصحاب النظرة الضيقة للتاريخ من العلمانيين والذين هيمنوا على أنظمة التعليم فى بلادنا يحاولون الحد من منهج التاريخ فى المدارس الإعدادية والثانوية إلى عدد محدود من القضايا التاريخية التى تنعدم من ورائها الفائدة المرجوة.

أما عن سقوط الأندلس الأخير والذى انتهت معه دولة الإسلام فينبغى أن نقف معه وقفة نستخلص من خلالها أسباب السقوط وذلك التردى ومنها:

١- ضعف العقيدة الإسلامية وانحراف مسلمى الأندلس عن المنهج، وهذا واضح لمن يتصفح التاريخ الأندلسى فإن حكام الأندلس الذين اعتصموا بالدين وتمسكوا بالعقيدة وساروا على النهج الإسلامى نراهم يمثلون مرحلة القوة التى مرت بها الأندلس فكان همهم الأكبر هو الدفاع عن الدعوة الإسلامية واتساع رقعة الدولة فى بلاد الأسبان، ونرى الخليفة عبد الرحمن الناصر فى مقدمة المجاهدين فى سبيل الله يطارد الخارجين عن الدين ويقف فى وجه دعاة الشيعة المتطرفين، ومن ثم ازدهرت فترة الخلافة التى عاشها عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر، وتقدمت العلوم والمعارف بشتى أنواعها مما أدى إلى ظهور حضارة إسلامية وتقدم علمى رائع انتشر فى الأندلس وانتقل ليضئ حياة الأوروبيين التى كانت غارقة فى ظلمات الجهل آنذاك. ولما قل الوازع الدينى وانصرف الملوك والأمراء إلى شهواتهم وحادوا عن نهج الله ضعفت الدولة وانقسمت إلى دويلات كما لاحظنا فى دول الطوائف وذهبت ريح الدولة بعد ذاك.

٢- التحالف مع الأجنبى وموالاته والخضوع له وفى هذا مخالفة صريحة لتعاليم الإسلام التى تأمر الجماعة المسلمة بعدم موالاة الأجنبى إنما الموالاة تكون للمسلمين ولله ولرسوله، ولكن الدارس للتاريخ الأندلسى يجد التحالف المشين بين مسلمى الأندلس وبين النصارى ولاسيما فى فترات الضعف والتخاذل، فابن هود مثلا قد صانع النصارى وساومهم على حساب المصالح الإسلامية، وابن الأحمر عقد معاهدة مع ملك قشتالة النصرانى وهى معاهدة تنم عن الضعف والخذلان الذى أصاب حكام المسلمين آنذاك، وقد نصت المعاهدة التى أبرمت بينهما على أن يحكم ابن الأحمر مملكة غرناطة باسم ملك قشتالة وأن يؤدى له الجزية سنويا، وأن يكون هناك بينهما تحالف عسكرى، فنراه يقف مع ملك قشتالة وقفات عسكرية ضد إخوانه حكام المسلمين ويتعهد أن يقدم لنصرة النصارى عددا من الجنود بعددهم وسلاحهم ليحاربوا بجانبهم

ضد المسلمين، وأن يشهد اجتماع المجلس النيابى كواحد من أتباع ملك قشتالة. ولم يقتصر الأمر على ذلك بل أجبر ابن الأحمر على أن يسلم ملك قشتالة أهم القلاع التى تحيط بغرناطة والتى كانت مراكز أمامية متقدمة للدفاع عنها، فتنازل ابن الأحمر عن جيان وأراجونه وباركونة وقلعة جابر وأجزاء أخرى من بلاد المسلمين، وقد بلغ السفه قمته عندما وفى ابن الأحمر بتعهده، فعند حصار النصارى لأشبيلية قدم ابن الأحمر قوة من فرسان المسلمين لمعاونة النصارى فى حصارهم ضد المسلمين، وهكذا كان الخضوع للنصارى ومجاملتهم على حساب المسلمين سببًا رئيسا فى سقوط الأندلس وكأن هؤلاء الحكام لم يقرأوا قول الله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾** [المائدة: ٥١].

وكذلك لم يسمعوا قول الله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾** [المائدة: ٥٧]، ويقول أيضا جل وعلا: **﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾** [آل عمران: ٢٨].

إن قضية الولاء والبراء قضية خطيرة ينبغى على المسلمين تفهمها جيدا لأنها كانت وما تزال سببًا رئيسًا فى مشاكلنا اليوم عندما أعرضنا عن موالاة المسلمين واتجهنا لموالاة الغرب للدفاع عن أراضينا وإقراضنا الديون الباهظة وبيعنا السلاح اللازم لمخازننا والغذاء اللازم لقوتنا، وأصبح الأجنبى كل شىء فى حياتنا حتى أذلنا ذل العبيد وسارعنا لتقبيل عتبات قصوره لتلقى الأمر وتنفيذ القرار.

٣- اتساع الهوة بين الحكام وأهل العلم والفكر مما اضطر العلماء إلى الهجرة أو الانصراف عن مجالس الملوك والأمراء، كان ذلك فى فترات الضعف والفرقة وتمزق البلاد. وأحاط بالحكام بطانة سوء يزينون لهم المنكر ويحضونهم على

أفعال الشر وارتكاب القبائح، ومن ثم أصبح الحكام يحكمون باتباع الهوى وتحكم النوازع وسيطرة العصبيات فاختلت معادلة الحكم واضطربت أمور العباد وحدث الشرخ الحضارى بانفصال السلطان عن القرآن وتغلبت المصالح القريبة العاجلة على المبادئ والقيم الإسلامية. ولكى يتفادى حكام الأندلس هذا الانفصال فقد ظهر فى تاريخ الأندلس ما يعرف بولاية الفقيه حيث كان يحضر مجالس الحكام عند النظر فى أمور الناس ومشاكلهم بعض الفقهاء من أصحاب الفكر والعلم ليرشدوا الحاكم إلى الأصوب والأنفع للمسلمين(١)، وسوف نضرب مثالا من واقع الخليفة الأموى عبد الرحمن الناصر الذى حول إمارة الأندلس إلى خلافة وازدهرت الدولة فى عهده ازدهاراً رائعًا فى جميع النواحى، فقد كان هذا الرجل مغرمًا بالبناء والتشييد والتعمير ومدينة قرطبة وأرباضها خير شاهد على ذلك.

وعلى الرغم من تلك النهضة العمرانية الرائعة فقد تعرض الخليفة الناصر إلى نقد شديد من العلماء والفقهاء ورجال الدين، نعرف هذا من خلال المحاورات التى دارت بين الناصر وابنه الحكم من جهة وبينه وبين الفقيه منذر بن سعيد من جهة أخرى -والتى ذكرها المقرى فى نفح الطيب ج١ ص١٧٥، ١٧٦، ٢٦٦، ٣٦٧- وكان هذا الفقيه قد انتقد الناصر فى إسرافه فى تشييد الزهراء حتى شغل بها عن شهود الجمعة ثلاث مرات، وكان مما انتقد به الفقيه الخليفة، ابتداؤه خطبة حضرها الخليفة بقوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨، ١٢٩] فغضب الناصر وأقسم ألا يصلى الجمعة وراء منذر وكان قاضى مسجد الزهراء، وشرع يصلى وراء قاضى الجماعة بمسجد قرطبة، وقد قال الناصر لابنه فى ذلك: «والله لقد تعمدنى منذر بخطبته، وما عنى بها غيرى، وأسرف علىَّ وأفرط فى تقريعى وتفزيعى ولم يحسن السياسة بوعظى فزعزع قلبى وكاد بعصاه يقرعنى». فقال الحكم: «فما

(١) ولاية الفقيه وحضور الفقهاء مجالس القضاء مع الحكام كان فى فترات القوة التى عرفتها الاندلس ولا سيما فى عصور بنى أمية. وهذا المثال يثبت جدوى وجود العلماء والفقهاء بجانب الحكام.

الذى يمنعك من عـزل منذر عن الصلاة بك والاسـتبدال بغـيره منه إذ كـرهته؟ فزجره الناصر وقال: «أمثل منذر بن سعـيد فى فضله وخيره وعلمه -لا أم لك- يعزل لإرضـاء نفس ناكبة عن الـرشد سالكة غـير قصـد؟ هذا ما لا يكون وإنى لأستحى من الله ألا أجعل بينى وبينه فى صلاة الجمع شـفيعًا مثل منذر فى ورعه وصدقه، ولكنه أحرجنى فأقسمت ولوددت أن أجد سبيلا إلى كفارة يمينى بملكى بل يصلى بالناس حياته وحياتنا إن شاء الله تعالى، فما أظننا نعاض منه أبدا».

ومن المحـاورات الطريفة تلك المحـاورة التى دارت بين الناصـر ومنذر نفسـه، فكان الناصر قـد أبدع فى تزيين قبة من الذهب والفـضة حتى جـعلها تخطف الأبصار، وسـأل ذات يوم جلساءه من الوزراء والحاشيـة عنها، فأكبـروا صنعه وأثنوا عليه، ثم دخل عليهم منذر بن سعيـد فلما جلس سأله الناصر عن القبة كما سأل غيره فقال له: «يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الشيطان -لعنه الله- يبلغ منك هذا المبلغ ولا أن تمكنه من نفسك هذا التـمكين مع ما أتاك الله من فضله ونعمته وفضلك به على العالمين- حـتى ينزلك منازل الكافرين» فانفعل الناصر وقال له: «انظر ما تقول وكيف أنزلتنى منزلته؟»، فقال له منذر: نعم أليس الله تعالى يقول: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٣] فوجم الخليفة وأطرق ثم قال: «جزاك الله يا قـاضى عنا وعن نفسك خيـرًا وعن الدين والمسلمين لأجل ذلك، وكثر من أمـثالك، فالذى قلت هو الحق». وهكذا كان خلفـاء بنى أمية رقاق القلوب يدنون لـلحق دومًا، ويستـمعون إلى العلمـاء ويستحـيون منهم ويهتدون بأفكارهم فى أغلب مجـالات الحكم. وهكذا يتضح أن للعلماء دورًا عظيمًا فى رفع شأن الأمة حتى فى أحلك الحالات.

إن علماء الأندلس فى أغلب فـترات الضعف والتأخر. قـد تخلى بعضهم عن واجبه وظهر أغلبهم بمظهر المنافق والمرائى للحكام، وهذه ظاهرة أثبتها ابن حزم يقول رحمـه الله: «ولا يغرنكم الفُساق والمنـتسبون إلى الفقـه اللابسون جلود

الضأن على قلوب السباع، المزينون لأهل الشر شرهم الناصرون لهم على فسقهم» وهذا لا يمنع وجود علماء كان لهم فضل عظيم فى استقرار الأندلس كأبى الوليد الباجى ومحمد ابن حزم وابن عبد البر والقاضى عياض وغيرهم كثيرون قاموا بواجبهم المنوط بهم من نصح للحكام وللمسلمين.

٤- مؤامرات النصارى ومخططاتهم التى لا تنتهى، لقد تربص النصارى بالمسلمين وظلوا بأماكنهم فى الشمال ينتظرون أن تلوح الفرصة للانقضاض على المسلمين واسترداد أرض الأندلس من أيديهم، والحقيقة أنهم وجدوا الفرصة قد سنحت حينما انشغل ملوك الأندلس بأغراضهم الخاصة واستبدت بهم الأهواء والشهوات وغرقوا فى ملذات الدنيا، من هنا أحكم الأسبان خططهم ومؤامراتهم واتحدت كلمتهم وتقاربوا وتصالحوا بعدما كانوا متنازعين، فالمسلمون تتفرق كلمتهم وتدب بينهم المنازعات والحروب فى الوقت الذى تتحد فيه كلمة الأسبان النصارى للقضاء على المسلمين؛ كما يقول ابن عذارى الذى وصف استعداد النصارى لموقعة العقاب التى هزم فيها الموحدون هزيمة منكرة وقتل فيها عدة آلاف من المسلمين، فيروى ذلك المؤرخ أن ملك قشتالة سرح القسيسين والرهبان من البرتغال إلى القسطنطينية ينادون فى البلاد من البحر الرومى إلى البحر الأخضر: غوثًا غوثًا ورحمة رحمة، فجاء عباد الصليب من كل فج عميق ومكان سحيق وأقبلوا إقبال الليل والنهار من رؤوس الجبال وأسياف البحار ويذكر ابن عذارى فى موضع آخر أن البابا فريستان الثانى توسط بين أمراء الأسبان المتنازعين فوفق بينهم وسرعان ما نسوا خصوماتهم وتماسكوا وهم يعتقدون أنهم جاءوا من كل فج وناحية لتخليص بلادهم ونصرة الدين المسيحى، فلا غرو أن نجد اتحادًا يتم بين ملك قشتالة وأراجون بزعامة فرناندو الخامس وإيزابيلا وهما ملكان عنيدان ومتعصبان للدين المسيحى ويمقتان الإسلام وأهله، وقد سقطت دولة الإسلام على أيديهما وأُجبر ابن الأحمر «أبو عبد الله الصغير» أن يسلم مفاتيح غرناطة ويرحل إلى الأبد.

ومن الأمور الجديرة بالاهتمام ونحن نتكلم عن النصارى أن نشير إلى غدرهم ونقضهم للعهود، وهذه سمة واضحة جلية فى أغلب معاهداتهم مع المسلمين، وهذا واقع فى تاريخ الأندلس لمن أراد أن يتصفحه عندما دخلوا مدينة آبدة ونقضوا العهد المبرم مع المسلمين فاقتحم النصارى المدينة وقتلوا من أهلها ستين ألفا غدرًا وخيانة، وكذلك عندما احتل الملك الأراغونى بلنسية ووقع المعاهدة رحل عنها عشرات الألوف من المسلمين وحولت المساجد إلى كنائس، ونال المسلمون كل الاضطهاد ولم يكتفوا بتعذيب الأحياء بل نبشت القبور كما ذكر ابن الآبار فى التكملة وتحقق قوله تعالى: ﴿**لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ**﴾ [التوبة: ١٠] وقد ذكرنا عند تسليم غرناطة أنه كتبت معاهدة من ٢٧ بندا نقضت جميعها بعد سبع سنوات حيث تنكر ملك قشتالة لعهوده وفرض التنصير قسرًا ورفض إخراج المسلمين من غرناطة وامتنع عن نقلهم فى مراكبه، كما تعهد، واشتد الخسف والأذى والظلم بالمسلمين المدجنين تحت حكم النصارى وهذه صورة من أبشع الصور تدل على أن النصارى لا عهد لهم ولا ذمة، ومن سمات النصارى أيضا وهذا هو ديدنهم التخاذل عن نصرة من يحتاج إلى النصرة، والأغرب أن المسلمين تخاذلوا عن نصرة بعضهم بعضا ونجم عن ذلك الرضا بالخنوع والذل تحت حكم النصارى فى فترة من فترات السواد الحالك الذى لم تره البشرية قط فى حياتها، وهى الفترة التى عاشها المدجنون تحت حكم النصارى ووقعوا تحت اضطهاد محاكم التفتيش والتعذيب والتنكيل إلا أن بعضهم قد صبر وتحمل وقاموا بالثورات تلو الثورات لأنهم استوعبوا قول الرسول ﷺ: «**أنا بريئ من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين**» رواه الترمذى وأبو داوود بسنده وهو حديث حسن.

وكان من جراء التعسف المسيحى الأسبانى للمسلمين ومؤامراتهم التى لا نهاية لها أن أصيب المسلمون فى الأندلس بعدم الاستقرار السياسى وانتشرت الفتن والمؤامرات والشائعات، ولتتأمل أيها القارئ عدد حكام غرناطة فى آخر عهدها وقد حكمها أكثر من ثلاثين حاكمًا فى فترة محدودة، بعضهم لم يحكم إلا

عدة أشهر وبعضهم الآخر لم يتجاوز السنتين أو الثلاث، وهكذا فإن الاضطراب السياسى أدى فى نهاية الأمر إلى تمزق الجبهة الداخلية وقد انعكس هذا أيضا على قوة المسلمين العسكرية التى وهنت أمام العدو ولم تقم لها قائمة.

٥- إلغاء الخلافة الأموية التى كانت مظهرا من مظاهر القوة والعزة والاستقلال، ثم بدأ بعد ذلك عهد الطوائف الذى ينم عن تفسخ الدولة وانحدارها، ويعد هذا سببا من الأسباب الرئيسية فقد أُعلنت الخلافة الأموية فى عهد عبد الرحمن الناصر وصارت قرطبة عاصمة الخلافة الإسلامية تباهى خلافة العباسيين فى بغداد وتنافس خلافة الفاطميين فى الشمال الأفريقى، وكانت الأندلس إبان تلك الفترة فى أوج قمتها وعظمتها وقد هابتها الدول الإفرنجية وسرعان ما كانوا يتقربون للخليفة الناصر وابنه الحكم، وقارئ التاريخ الأندلسى يتبين له هذا واضحًا فى السفارات التى كانت تأتى من ملك الروم والملوك الآخرين إلى بلاط الخليفة الناصر فى قرطبة، ثم تولى الخلافة بعد ذلك ابنه الحكم الذى نهض بالبلاد نهضة علمية وثقافية وحضارية وأنشأ المكتبات وأقام دور العلم فى أنحاء الأندلس، ولما توفى ذلك الخليفة تولى الأمر من بعده خلفاء ضعاف استبد بهم المنصور بن أبى عامر وبعد موت المنصور اضطربت أمور الخلافة وترنحت أركانها إذ طمعت فيها عناصر عربية وغير عربية بجانب الأمويين أصحاب الأمر وكثرت الدسائس فى قصر الخلافة، وظل الأمر هكذا إلى أن أعلن ابن جهور إلغاءها فى قرطبة وابتدأ بعد ذلك عصر الطوائف حيث انقسمت الأندلس الموحدة إلى دويلات متمزقة متشرذمة يحارب حكامها بعضهم بعضا ويستعينون بالنصارى فى مقاتلة البعض، مما أدى إلى ضعف شأنهم وعدم القدرة على حماية أنفسهم وبدأت تتساقط مدن الأندلس فى أيدى ألفونسو الذى استبد بهم ليسترد الأرض، وقد بلغ خطر الاسترداد فى جزيرة الأندلس مداه بعد أن وقعت موسطة الأندلس فى أيديهم «قرطبة» والثغر الأعلى «سرقسطة» وغيرهما من البلدان والحصون، وجاء الدور على أشبيلية التى عجز عن حمايتها ابن عباد الذى أدرك الأمر وفداحته فاجتمع مع العلماء

والفقهاء يتشاورون فى طلب النجدة والغوث فاستقر رأيه على أن يطلب النجدة من المرابطين فى المغرب الأقصى وهى دولة ناشئة آنذاك قائمة على فكرة الجهاد فى سبيل الله وحاول بعض أصحاب ابن عباد أن يثنيه عن عزمه خوفا من طمع المرابطين فى حكم الأندلس والاستبداد بالأمر بعدما تتم النصرة، ولكن ابن عباد رفض وصمم على رأيه وقال قولته المشهورة: «أن أعمل راعيا للجمال عند ابن تاشفين المسلم خير من أن أعمل راعيا للخنازير عند ألفونسو النصرانى». وهكذا كان عصر الطوائف هو العصر الذى مزق وحدة الأندلس وسارع بها إلى بداية النهاية.

٦- من الدروس المستفادة والعبر التى ينبغى أن نتعظ بها فى حياتنا أيضا هو مواصلة الجهاد فى سبيل الله، فالأمة بدون الجهاد لا قيمة لها فهى أمة ضعيفة لا تقوى على منازلة الخصوم أو صد الهجوم أو الدفاع عن الأوطان والأعراض يقول الله تعالى: ﴿ **انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ [التوبة: ٤١]، ويقول فى موضع آخر: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ** ﴾ [التوبة: ٣٨]، ويقول الرسول: **«رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد»** صحيح بمجموع طرقه. سلسلة الأحاديث الصحيحة للألبانى المجلد الثالث ص١٤.

إن الأندلس ما استقر بها المسلمون ثمانية قرون وصارت جنة الله فى أرضه إلا بالجهاد فى سبيل الله الذى ظلت رايته مرفوعة منذ جاهد فى سبيل فتحها طارق بن زياد وموسى بن نصير ومن بعدهم عبد الرحمن الفاتح والسمح بن مالك الخولانى وعبد الرحمن الغافقى بطل معركة الشهداء ويوسف الفهرى وغيرهم كثيرون جاءوا للجهاد فى الأندلس، وكان من ثمرة الجهاد أن ظلت الأندلس قوية مرهوبة الجانب يسودها الأمن والطمأنينة والقوة والمنعة، كما كان

فى عهد عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم، وحينما مالت راية الجهاد وانتكست إلى الأرض تمزقت الأندلس إلى دويلات صغيرة متباينة ومتنازع ملوكها حتى استبد بهم النصارى فى معارك جانبية كثيرة أذاقت ملوكها الذل والهوان، وإن كان الأمر كذلك؛ فإن تاريخ الأندلس لا يخلو من فترات مضيئة كانت فيها الشجاعة والإقدام والجهاد فى سبيل الله وأعنى بذلك الفترة التى حكم فيها المرابطون ثم الموحدون بلاد الأندلس، وإذا كان هؤلاء الملوك من المغرب العربى إلا أنهم جاءوا إلى الأندلس واتخذوا منها مسرحًا لرفع راية الجهاد وحماية المسلمين من بطش النصارى وإيقاف زحفهم لاسترداد البلاد إلى حين.

٧- ولا ننسى دور المرأة فى الأندلس وقد كانت المرأة على مستوى عال من الرقى والنظافة والجمال والاعتناء بملابسها وزيها وكان منهن الطبيبات والمعلمات والمحفظات للقرآن الكريم، وكانت منهن نساخات تميزن بحسن الخط، وقد حوت مكتبة الحكم المستنصر العديد من هؤلاء الفتيات يكتبن المخطوطات بخط منمق جميل، والتاريخ الأندلسى ملئ بشخصيات فتيات أديبات كولادة بنت المستكفى تلك الأديبة الفذة التى كانت تجالس الشعراء والكتاب والأدباء إلى غير ذلك من شخصيات نسائية. ولكن يهمنى هنا أن أبرز مثالين للمرأة الأندلسية المسلمة المثال الأول وهو لأم أبى عبد الله الصغير الذى سلم الأندلس للنصارى، كانت تلك الأم حكيمة عاقلة وشجاعة وإن كان بعض المؤرخين يلقى عليها تبعة مسئولية ابنها أبى عبد الله حيث يقولون أنها كانت تحنو عليه وتدلله كثيرًا وعلى ما يبدو أن الأمر كان خلاف ذلك، فقد تميزت تلك المرأة بالصرامة والشدة وتفضيل الواجب على العاطفة فقد رأت ابنها أبا عبد الله ينزوى وراء أكمة أو تل ويبكى مستخفيًا عنها ظانًا أنها لم تلاحظه ولكنها كانت تراقبه ثم قالت له قولتها المشهورة: «ابك مثل النساء ملكًا مضاعًا لم تحافظ عليه مثل الرجال».

وعاشت الأم ملتاعة ما بين ضياع الأندلس وبين ابنها الصغير وكان صغيرًا حقًا: قدرًا وعقلاً وكانت مأساتها الحقيقية أنه ابنها.

والمثال الثانى: هو المرأة الموريسكية المسلمة المستضعفة تحت حكم النصارى حيث قدمت نموذجًا فريدًا ومشرفًا لملحمة بطولية عرفها المجتمع الموريسكى خلال القرن السادس عشر، فقد دأبت حكومة الملك القشتالى على سياسة المسخ والذوبان التى طبقت على المجتمع الإسلامى بالأندلس، وقد قدم الفقهاء إبان تلك الفترة دورًا رائدًا ومثاليًا أعان المرأة المسلمة على أداء دورها فقد كان هؤلاء الفقهاء يلقنون المسلمين ويذكرونهم بقواعد دينهم وتعاليمه ونظموا لذلك الاجتماعات السرية، ومن ثم استجابت المرأة لهذه التعليمات وكان عليها عبء المقاومة اليومية لمحاكم التفتيش إذ كان يتوقف عليها وحدها تحضير نوعية المآكل غير المحرمة وتلقين أبنائها تعاليم الدين الإسلامى والمحافظة على أسرار العائلة. ومن أمثلة النساء اللائى برزن فى هذا المجال «إيذابال كالفارا» وكان سنها آنذاك ٢٠ سنة حين أحرقت لأنها لم تخبر عن والدتها ولا أختها، وعندما شتم أحد المسيحيين آنادوفيفورا بقوله: «إنها كلبة عربية» ردت عليه: «نعم أنا عربية وأبى وأمى كانا وماتا عربيين وأنا عربية وسأموت عربية» وقد اضطر العديد من هؤلاء النساء المسلمات إلى شنق أنفسهن حيث إنه من خلال عمليات الحرق فى السنوات التالية ١٥٨٤، ١٥٨٥، ١٥٨٦ شنقت ٢٤ امرأة أنفسهن ليلة قرار حرقهن أو رمين أنفسهن فى البئر أو قطعن ألسنتهن حتى لا يكشفن عن أسرار عائلتهن، كما يقول الدكتور عبد الجليل التميمى فى بحثه القيم عن الموريسكيين الأندلسيين. ومع ذلك فإن محاكم التفتيش حكمت عليهن بالحرق وقد تم ذلك فعلا.

بل نرى من النساء الموريسكيات من اجتزن الحدود الأندلسية فى زى الرجال. أما «كاتلينا منداره» فقد تحولت إلى بابوية روما سعيًا منها لإلغاء حكم دواوين التفتيش ضدها حيث استولت على كل أموالها إلا أنها أحرقت سنة ١٥٨٥م لدى رجوعها من روما.

وقد بينت الدراسات التاريخية الإحصائية أنه تم ببلنسية حرق ١٢٩ سيدة موريسكية و٧٣ رجلا، بل إن ٧٠ فى المائة ممن أحرقوا بمنطقة «لوقرلو» فى الربع الأخير من القرن السادس عشر كان من النساء، وعلى العموم كان العنصر النسائى

يمثل ثلث من أحـرق، ومعنى هذا أنه قبـل سنة ١٥٧١م، كانت المرأة تمثل ٣٤ ٪ من ملفات المتهمين، وبعـد هذا التاريخ ارتفعت إلى ٥, ٤٠٪ ومن هنا فإن العنصر النسائى كان معرضا لكل أنواع التنكيل والتعذيب بل وصل العداء أوجه بإدانة أناس على جرائم لم يرتكبوها وبدون حـجج وبدون أدلة على ذلك، وكان سن المحكوم عليهم أو عليهن يقـارب الأربعين سنة فالشاب «خوان كوبانييـرو» من سرقسطة قد قطع أربا إربا أثناء حـرب١٥٨٢م وهذا بسبب شديد إيمـانه بدينه، وعندما رجـمه جلادوه صاح أحد الموريسـكيون إنى فعلا عربى حتى نخاع الـعظام وقد صور أحد الموريسكيين هاته العـزلة الأخلاقية والخوف بهـذا النداء فى أحد المخطوطات «إلهى أسألك باسم القدرة والعلم والرحمـة التى تخلق بها الجنين فى بطن أمه أن تخفف أحزانى فى الماضى والمستقبل وخوفى وقلقى مهما كان مصدرهما.

أرأيت قـدرة المرأة الموريسكية وحـرصهـا الشديد على صـيانة أسـرتها وحـفظ أسرارها فتحملت العذاب والحرق، وفضلت أن تقطع لسانها أو تلقى نفسها فى بئر بدلا من أن تشيع أخبـارا عن أسرتها المسلمة، فيكون فـيها قتل لأبيهـا أو أمها أو أخيـها أو أبنائها الذين اعتـصموا بالدين الإسـلامى وعضوا عليه بالنواجـذ، فهل للمرأة المسـلمة اليوم أن تقـتدى بهذا الـنموذج وتحافظ على أسـرتها وتـتحمل فى سبيلهـا الأذى وتمنع أن تخترقها عادات الغـرب الذميمة والصور القبـيحة والأفلام الجنسية الرذيلة من أن تغـزو بيتها وتهدم كيان أسرتـها؟! نحن فى حاجة إلى تلك المرأة الصبور القادرة المتحملة للأذى فى سبيل دينها ووطنها وأمتها.

والتاريخ - تاريخ أى أمـة- ما هو إلا سجـل أحداث منه تتـبين الأمـة عوامل النجاح، وفيـها تلتمس أسبـاب الهزائم وكما يقولون: أمـة بلا تاريخ هى أمة بلا مستقبل، ومن لم يتـعظ بالتاريخ عاش عاريًا من الحقيقة بعـيدًا عن الصواب قريبًا من الزلل، فإن حـال المسلمين اليوم لا يسر فـقد ضاع ملكهم ونهبت مـقدساتهم وخضعوا لأعدائهم ولا يزالون يتعثرون فى خطاهم لا يقدرون على استبانة الطريق فينبـغى الرجوع إلى تاريخ أمتنا وأن نتتبـع ما فيـه من هنات وهزائم ونقف على

أسبابها وعللها فنتجنبها ولا نعود إليها مرة أخرى، وبجانب الهنات ومواضع الانكسار توجد فى التاريخ حركات مضيئة حافلة بالخير عامرة بأبنائها المؤمنين الذين عمروا المكان واستغلوا الزمان.

٨- الترف والإسراف المؤدى إلى الفساد وهذا الترف من أكبر العوامل التى تؤدى إلى فساد الأخلاق، إذ يقول الله تعالى: ﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا** ﴾ [الإسراء: ١٦]. وهذا الترف يورث الغفلة عن اتباع الدين وصيانة الدولة ويشغل الناس عن المصالح العليا للدين والوطن بشهواتهم ولذاتهم، ولقد كانت بلاد الأندلس العامرة بخيراتها، الفاتنة بطبيعتها قد تغرى المترفين فيبلغ معهم الترف حد السفه، فالمعتمد بن عباد حاكم أشبيلية وهو أحد ملوك الطوائف قد اشتهت زوجته أن تخوض فى الطين فقالت له فى دلال: أريد أن أحمل قربة على كتفى وأخوض فى الطين فكيف تخوض فى الطين. وهى زوجة الملك فلما كان ذلك الملك يحبها حبا شديدا أراد أن يلبى مطلبها بطريقة غير مسبوقة، فأمر أن يؤتى بالمسك والكافور ويخلط بماء الورد ويوضع على الأرض كأنه طين على مسافات بعيدة ويرش عليه ماء الورد ثم صنعت لها قربة فاخرة من خيوط الحرير فحملتها على كتفها ومن خلفها بناتها ووصيفاتها، وصارت الزوجة تمشى فى هذا الطين وحقق لها بذلك رغبتها. هذا الترف الزائد الذى أنفق فيه مال المسلمين كان سببا من الأسباب التى عجلت بنهاية حزينة لذلك الملك، حيث قبض عليه المرابطون وأودعوه السجن فى مدينة إغمات، وظل ابن عباد بالسجن هو وبعض ملوك الطوائف فى إطار الحملة التى قام بها يوسف بن تاشفين فى معاقبة ملوك الطوائف بعدما ثبت له اتصالهم بألفونسو السادس ودفع الجزية له، فخاف على الأندلس من الضياع وقبض على أولئك الملوك وأودعهم السجون. وقد مات ابن عباد مغمومًا حينما رأى بناته قد بلت ملابسهن وساءت أحوالهن حتى لم يجدن ما يستر سوءاتهن فقال أبياتا من الشعر:

كنت فـى الأعـيـاد مـسـرورا فساءك الـعيد فى أغمـات مأسورا
ترى بناتك فـى الأطمـار جـائعـة يغـزلن للناس ما يملكن قطمـيرا
بـرزن نحـوك للـتسلـيم خاشـعـة أبصـارهن حـسـيرات مكاسـيـرا
يطأن فى الطين والأقـدام حـافيـة كـأنهـا لـم تـطأ مـسكا وكـافـورا

وصدق الله عـز وجل القائل: ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] فبعدما كان يطأن أقدامـهن فى المسك والكافور أصبحن تغوص أقدامهن فى الطين حافيات فقيرات.

٩- **عاقبة الظلم**: وهى عاقبة وخـيمة فيأخذ الله على يد الظالم المتـجبر، وكم رأينا من ظلم تفشى كـان سببًا فى سـقوط الدول، فالظلم هو وضع الأمر فـى غير موضعه، وهذا يعنى اغتصاب حقوق العباد وتفشى الكذب وأقوال الزور، فإذا عم الظلم كـان من أعظم أسبـاب زوال الدول، فقـد ينصر الله تعـالى الدولة العادلة ولو كـانت كافرة، ويخـذل الدولة الظالمة وإن كانت مسلمـة لذا يقال: «العدل أساس الملك» فـهل ترى الأمن والطمأنينة تسود البـلاد إذا نهبت أموال الرعية أو أخذت أراضيهم بالقوة أو تفشت الرشوة والمحسوبية أو نهبت الأموال من البنوك وهربت خارج البـلاد؟ ومن الظلم البين عدم إقامة العـدل فى إقامة الحدود أو تطبيق القانون على الضعفاء دون الأغنياء وأصحاب المكانة، كل هذه الأمور وغيرها قد تؤدى إلى زوال الدول. وتاريخ الأندلس يفيض بظلم الحكام بعضـهم لبعض؛ فكم سمـعنا عن ملوك الطوائف إذ كان القوى يعـتدى على الضعيف ويعمل على التهام دولتـه لاتساع ملكه دون وازع من ضمير أو خوف من الرب.

ومن أمثلة ظلم الملوك لبعـضهم بعضًا هو ذلك الملك المترف «المعتـمد بن عباد» فهـو يحكم أشبيليـة أكبر دويلة فى الأنـدلس آنذاك وقد استـعان به رجل من بنى جهور فى قرطبة حيث هاجـمه ملك مجاور فاستعان بالمعتمد بن عـباد ليحميه من

ذلك الجار المهاجم وهو «ابن ذى النون» فـقد كان طامعا فى مملكة قرطبة ليـضمها إلى أملاكه، فجاء المعتمد بن عباد ليـساعد بن جهور ملك قرطبة ويحميه من وطأة ابن ذى النون، فلما جاء بجيشـه وعدده وآلاته واقترب من المدينة إذا بابن بنى ذى النون يهرب خوفـا، حينئذ خرج بن جهـور ليودع جيش المعتمـد بن عباد ويشكره على نجدته وشـهامتـه؛ فإذا به يفاجـأ بالمعتمـد بن عباد قـد بث جنوده فى المدينة وحاصر قصر ابن جـهور واحتل المدينة بعد اجتياحها، فأصـيب بن جهور بصدمة عنيفة وقبض عليه ابن عباد وعلى والده الذى أصيب بالشلل النصفى وأخذ أموالهم وأودع أولادهم فى السجن وسبى زوجاته وأمواله وأولاده وأخرج الملك ووالده من المدينة إلى منفاهما فى مدينة أخرى.

ومن العجيب أن نسمع والد ابن جـهور يقول: «والله إن هذا لأثر دعوة مظلوم ظلمناه بالأمس» ثم رفع الأب المشلول بصره إلى السماء وقـال «اللهم كما انتقمت للمظلومين منا، فانتـقم لنا من الظالمين» وشاء الله أن يستجيب لدعـوته فأخذ ابن عباد أخذ عـزيز مقتدر إذ سلط عليه وعلى دولته جيـوش المرابطين فأخذوه وأخذوا أمواله وأولاده، وقضى حياته فى سجن فى مدينة إغمات إلى أن مات. فهل لنا أن نعتبر فقـد انتقم الله من المعتمد ابن عباد كما انتـقم من قبل من بنى جهور إذ كان كل منهما ظالما.

وأقول لأخى المسلم قارئ التاريخ أنه لا يكفى أن نعـقد النية على قراءة التاريخ فقط بل لابد من التجربة العـملية على هدى من تراثنا القديم، تراثنا الصالح، ولا أعنى ذلك التراث المرصـوص فى المتاحف وفوق الرفـوف وإنما أعنى التراث النافع والذى يواكب حيـاتنا وروح العصـر، وديننا الحنيف يأمرنا دائما بـاتخاذ العظة من التاريخ والعبـرة ممن سبقونا، ويقول تعـالى مخففًا عن المسلمـين وقع مرارة القتل والأذى بعد معركـة أحد ولكنه يدفعهم بأن يجدُّوا فى طلب الأعـداء ولا يضعفوا فيقول: ﴿ **وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩) إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ**

فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٩، ١٤٠]
والمطلوب من خلال هاتين الآيتين أن تتعلم الأمة المسلمة من التاريخ تلك السنن:

أ- قوة الله التى تتجلى بمظاهر طبيعية أهلك بها من عصوا الرسل من الأقوام البائدة، وقد أهلك البعض بالريح الصرصر أو بالغرق أو الصيحة أو المطر وتلك من سنة الله الماضية.

ب- ومن سنن الله أيضا قوته الغيبية التى ينصر بها أهل الحق وإن كانوا قلة ضعافًا، ويخذل بها أهل الباطل وإن كثر عددهم وثقلت عدتهم، وأن الله دائما مع المؤمنين فهو ناصرهم ومؤيدهم ضد الشر والأشرار، وذلك إذا لجأ المؤمن إلى ربه وتمسك بدينه يقول تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥١].

ج- هذا وبتسطيرنا هذه النازلة الكبرى التى نزلت بدولة الإسلام بالأندلس فإننا نرجو أن نوقظ الهمم ونستثير العواطف ونبعث الإباء والعزة ونرفض الضيم فى النفوس وأن نعيد للنفوس الضعيفة الملتاعة شعور الآباء والأجداد المفعم بالحب والصدق والعمل الجاد والعدل المطلق المنزه عن العصبيات والشهوات والهوى، وبذلك بنوا الممالك وأقاموا الحضارات وكانوا خير أمة أخرجت للناس. وإن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا.

❁❁❁

٥

النازلة الرابعة

إسقاط الخلافة الإسلامية فى تركيا

مقدمة



مرَّ بتركيا الإسلامية فى نهاية القرن الثامن عشر العديد من المحن الثقال والكوارث الشديدة، واجهها السلطان عبد الحميد الثانى بمفرده، ولكن كيف يتسنى لهذا الرجل أن يقاوم كل ذلك بمفرده فقد اتسعت الرقعة على الراتق وكثرت المؤامرات والدسائس للإجهاز على دولة الإسلام فى تركيا والعمل على إسقاط الإمامة الكبرى للمسلمين والتى كان السلطان عبد الحميد الثانى وسائر المسلمين يتطلعون إليها على أنها المنقذ الوحيد لتردى أحوال المسلمين وتخليصهم من براثن الاستعمار الغربى الذى جاء لتقسيم تركة السلطان العثمانى الذى أطلقوا عليه الرجل المريض أو المسألة الشرقية. وفى الوقت الذى تطلع فيه المصلحون المسلمون إلى ذلك الأمل الكبير الذى كان يساورهم وهو قيام الخلافة العثمانية والتى سعى إليها السلطان عبد الحميد أيضا سعيًا حثيثًا لجمع كلمة الأمة وتوحيد صفها وإن شكك بعضهم فى ذلك الهدف حيث اعتبروه هدفًا سعى إليه ذلك السلطان ليجمع شتات مملكته التى بات الغرب الاستعمارى يتربص بها لانتزاعها وفرض حمايته عليها.

وإن كان السلطان عبد الحميد قد تطلع إلى الخلافة الإسلامية وأراد أن يتلقب بها، فإن قضية الخلافة تلك تحتاج إلى وقفة متأنية لدراستها، فمن الملاحظ تاريخيا أن الحكام العثمانيين لم يتلقب أحد منهم بلقب الخليفة قط وإنما اتخذوا لقب سلطان وقد يقول قائل: إن السلطان سليم الأول عندما فتح مصر اصطحب معه آخر الخلفاء العباسيين وقد تنازل له عن الخلافة وهذا قول ضعيف، ولكن الذى أراه أن السلطان سليم لم يتلقب بلقب الخلافة لأنه يعرف أن الخلافة لابد أن تكون فى قريش كما أوصى النبى ﷺ بذلك فى عدة أحاديث ذكر بعضها فى سقيفة بنى ساعدة.

وإذا كان الرسول ﷺ قد نوه على أن هذا الأمر ينبغى أن يكون فى قريش فإنما أراد بذلك أن يكون لقريش الإمرة والحكم والسيادة، وهذا هو جوهر الأمر وقد

اتخذت هذه السيادة على مر العصور أشكالا مختلفة وأسماء كثيرة كما يقول ابن خلدون مثل الإمارة أو السلطنة أو المُلك أو الشياخة أو الرئاسة إلى غير ذلك من ألقاب وأشكال الحكم المختلفة، وليست العبرة فى شكل الحكم وإنما فى جوهره الذى ينبغى أن يقوم على كتاب الله وسنة رسوله ومقاصد الشريعة الإسلامية. وبمرور الوقت واختلاف الأزمنة احتاج المسلمون إلى لقب أو نوع من الحكم يذكرهم بمجد المسلمين الأوائل ويوحد كلمتهم فلا بأس أن يتطلع أى حاكم فى أى بقعة إلى التلقب بلقب الخلافة مادام مسلمًا وقادرًا على أن يجمع كلمة الأمة ويلم شتاتها، وهذا ما تطلع إليه السلطان عبد الحميد الثانى. وإذا كان هذا السلطان قد تلقب بهذا اللقب فعلا وورد ذلك فى كثير من الوثائق كما سنعرف بعد فإن هذا الأمر قد أثار غضب الإنجليز والفرنسيين والألمان وسائر الزعامات الأوروبية الذين رأوا فى إحياء مجد الخلافة الإسلامية ضررًا كبيرًا على أهدافهم الخبيثة ومؤامراتهم الدنيئة فى تفتيت رقعة العالم الإسلامى وإضعاف شأنه.

هذا بالإضافة إلى ما ابتليت به تركيا فى ذلك الوقت من بروز طائفة يهود الدونمة وتعاونها مع الاستعمار الغربى والصهيونية العالمية من جهة، ومع العلمانيين من جماعة الاتحاد والترقى من جهة أخرى مما جعل هذه التحالفات تشكل خطرًا شديدًا على السلطان عبد الحميد وعلى حكمه، ومن هنا دار البحث غالبا حول ظاهرتين متناقضتين عاشتا معًا فى تاريخنا المعاصر، ولكل منهما أهدافها وأبعادها التاريخية، التى أدت إلى تعقد هاتين الظاهرتين، وازدياد حدة الصراع بينهما.

الظاهرة الأولى: هى بروز طائفة يهود الدونمة فى تركيا وتحالفها مع العلمانيين الذين سمعوا عن الثورة الفرنسية الكبرى ودرسوا فى الخارج وتأثروا بالثقافات الأجنبية وما تمخض عنها من اتجاهات فكرية وسياسية واقتصادية وطائفية وقومية والتى مكنت لهذه الطائفة من أن تتغلغل فى جسم الدولة المترنحة آنذاك، حيث لقيت دعمًا قويًا من قوى الاستعمار الغربى والصهيونية العالمية؛ لما لهم من مآرب فى سقوط عرش السلطان عبد الحميد، وقد باشرت تلك القوى نشاطها السياسى

والعسكرى من أحد المحافل التركية وهو محفل «سالونيك» الماسونى تحت حماية الدول الأوربية الكبرى، وتحت رعاية سفرائها داخل تركيا وخارجها، وقد أفضى ذلك النشاط إلى ميلاد جماعة الاتحاد والترقى، التى تخرج أعضاؤها من محفل «سالونيك» الماسونى -المشار إليه سابقا- بزعامة مصطفى كمال أتاتورك.

والظاهرة الثانية: ظاهرة التسلط على الخلافة العثمانية على وجه الخصوص وهى «الإمامة العظمى للمسلمين» كما أنها السبيل الوحيد لوحدة المسلمين آنذاك، والتى تضافرت قوى الصهيونية والاستعمار للقضاء عليها باعتبارها التجسيد الحى للأمة الإسلامية وقتذاك، والتى ما فتئ السلطان عبد الحميد ومؤيدوه من المسلمين متمسكين بأهدابها، إذ أنهم يعتبرونها الرمق الأخير الباقى لدولتهم والذائد عن عقيدتهم، ولكن قد تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن، فقد تكالبت تلك القوى المعادية على تقطيع أوصال تلك الخلافة فى محاولة للإجهاز عليها، وقد تعددت طرق الإجهاز وتنوعت وأخذت أشكالاً وأبعادًا مترامية الأهداف والأغراض، كان منها: الاختصاصات الأجنبية والمشروعات الأوربية لتقسيم تركيا، وقد تم ذلك على أيدى كل من روسيا وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا.

كما كان أيضا من طرق الإجهاز على الخلافة إشعال الثورات داخل الدولة العثمانية، فأصابت شعوب البلقان واليونان، ولم تكتف القوى المعادية بذلك، بل شجعت الحركات الانفصالية داخل الدولة بين الترك والعرب، وحركت الثورة العربية بواسطة عملائهم، كما أثاروا فتنة القوميات والعصبيات الإقليمية والعرقية بغرض التفرقة والتفتيت.

وقد كان للفتنة اليهودية دورها الرئيسى فى سلسلة محكمة الحلقات، حركت هذه الأحداث وقد استهدفت على وجه الخصوص السلطان عبد الحميد الذى فقد عرشه بسبب موقفه الصلب مع «تيودور هرتزل» ويهود الدونمة، ورفضه القاطع اقتطاع فلسطين وجعلها وطنًا قوميًا لليهود.

وقد سعى هؤلاء اليهود سعيًا حثيثًا، مستغلين أحوال العالم الإسلامى المنهار حتى أحكموا التطويق وتفتيت الدولة فى شكلها الأخير، وذلك بالإجهاز على الخلافة وإلغائها على يد مصطفى كمال أتاتورك.

وعلى الرغم من أن الظاهرتين السابقتين تتجسدان فى شخصيتين دارت حولهما الأحداث التاريخية، وهما: مصطفى كمال أتاتورك -زعيم طائفة الدونمة ذات الأصل اليهودى، والسلطان عبد الحميد الثانى- آخر الخلفاء المسلمين، فإنه ليس مقصدنا عرض السيرة الذاتية لكل منهما، ولكن لكونهما يعبران عن ظاهرتين، تمثل كل منهما نقيضًا للآخر، فقد بدأ النزاع أولاً بتصارع الأفكار وعرض القضايا وتكوين الأحزاب والجماعات، الأمر الذى استوجب على الباحث أن يركز على دراسة تلك القضايا، وأن يتتبع الفكرة التى اعتمد عليها كل نظام، ومدى تأثيرها فى العقلية المسلمة آنذاك والأسباب التى أدت فى النهاية إلى تغليب إحدى الظاهرتين على نحو تردت معها أحوال المسلمين.

لذا آثرت أن أترك ذلك المنهج «السيرىً» الذى تخضع فيه أعمال التاريخ السياسى لأعمال البطل والتى غالبا ما تغلفها المبالغة والتهويل.

نعم فإن ذلك المنهج قد غالى فى شخصية «مصطفى كمال أتاتورك»، وأبرزه فى صورة البطل المنقذ، فى الوقت الذى انتقص فيه من قدر الإسلام والمسلمين و«السلطان عبد الخميد» وفى ذلك تزوير للتاريخ وتشويه للحقائق.

وقد انخدع المسلمون فى ذلك الرجل الذى أوحى إليهم بأنه ثار من أجل الإسلام وسيعمل على إعادة مجده وإحياء قواعده، فانخدع به المسلمون والمثقفون والشعراء فى كل البلاد العربية ومنهم شوقى الذى ناجاه وشبهه بخالد بن الوليد إذ قال فيه:

الله أكبر كم فى النصر من عجب   قم يا خالد الترك جدد خالد العرب

ومما يؤسف له حقًا أن ذلك التاريخ المشوه هو الذى يدرس الآن فى أغلب مدارسنا وجامعاتنا، وليس ذلك التاريخ إلا ترديدًا لآراء المستشرقين من اليهود

والنصارى، إذ من البدهى أن يتساءل الإنسان ونحن بصدد دراسة تلك الحقبة الحاسمة من تاريخ أمتنا: كيف لذلك الثورى المزعوم أن يتصدى لنظام الإمامة الكبرى، ويعمل على إزاحتها بهذه الطريقة الغريبة من حياة المسلمين؟ ثم كيف تمكنت تلك الجماعة أيضًا من فرض النظام الغربى على أنظمة الدولة الإسلامية ومن ثمّ عمل على طمس هويتها؟

إن الإجابة عن مثل هذه التساؤلات قد أفصح عنها البحث، حيث تعرض لبعض من القضايا الفكرية والسياسية التى لعب على أوتارها اليهود والعلمانيون، واستغلوها أبشع استغلال للقضاء على الخلافة الإسلامية، إذ من الثابت تاريخيا أن الأعمال العسكرية وحدها غير كافية لإسقاط نظام من الحكم له أصالته وجذوره العميقة، ولاسيما نظام الخلافة الإسلامية التى لا تعرف للهزائم طعمًا، لأن راية الجهاد فى الإسلام دومًا خفاقة، وإنما كانت هناك عوامل أخرى تفشت فى كيان تلك الدولة، حرّكتها أيادى يهود الدونمة نحو غايتها المرسومة لها.

ومن هذا المنطلق فإن الباحث -وهو يؤرخ للدور اليهودى والعلمانى فى إسقاط الخلافة العثمانية- قد أخذ بعين الاعتبار النظر فى بعض القضايا المهمة التى شكلت معظم أحداث تلك الفترة من التاريخ العثمانى، ولعل من أهم تلك القضايا: قضية الخلافة العثمانية.

وقد شكلت هذه القضية المحور الأساسى لعداء يهود الدونمة والعلمانيين، ولاسيما عداءهم للسلطان عبد الحميد الثانى.

وقد تجاوزت نظرة العداء للخلافة الإسلامية، لتلتقى مع غير هذين العدوين، اللذين نظرا إليها نظرة حاقدة متحيزة، ولا غرابة فى ذلك، فإن ما ورثه الاستعمار الأوربى من أحقاد آبائهم وأجدادهم إزاء انتصارات تلك الخلافة فى تاريخ أوربا كان باعثهم على تلك النظرة التى أفاضت بها كتابات المستشرقين من يهود ونصارى وقد أدى ذلك إلى:

* روح العداء الصليبي واليهودي الذي تجسد في شكل معارك عسكرية ضارية لم يخمد لها أوار، فكلما هبطت في جهة اشتعلت في جهة أخرى، وذلك لاستنزاف طاقات تلك الدولة، وإثارة الشغب بين شعوبها .

* التفوق العسكري لدول أوربا الذي صب كل نشاطاته في أراضي تلك الدولة على شكل حروب وهدن ومعاهدات، أجبرت على قبولها الخلافة العثمانية، والتي انتهت بتقلص دويلاتها وانتقاص أراضيها

وعلى الرغم من التفوق العسكري الأوربي فإنني أرى أنه ليس سببا أصيلا في إسقاط الخلافة، وإن كان مصطفى كمال أتاتورك قد أسقطها، فإن ذلك لم يتحقق له إلا بكسر إرادة الجماهير الإسلامية في كل أرجاء الدولة وأقاليمها التابعة لها، ولنا في تاريخ الخلافة العباسية دليل قوي على صحة ما نقول: فعلى الرغم من سقوط خلافة بغداد عام ٦٥٦هـ وقتل الخليفة العباسي على أيدي المغول فإن الخلافة الإسلامية ظلت باقية -وإن كانت رمزية فقط-، وإنما ظلت الجماهير الإسلامية في الدويلات المتناثرة تحافظ على رمزيتها باعتبارها رابطة دينية وسياسية أصيلة -وإن خفت صوتها فترة- فسوف يرتفع فترة أخرى وفي مكان آخر، فقد انتقلت الخلافة بعد سقوط بغداد إلى مصر ثم الشام، وعندما تطلع إليها السلطان عبدالحميد على أنها أمل يراوده هو وسائر المسلمين في الأقطار الأخرى وأخذ يتغنى بها المهتمون بأمر الأمة، وقد تلقب بها ذلك الرجل وجاء ذلك في الوثائق الرسمية -كما سنوضح بعد-، وتكالب عليها هؤلاء الأعداء وأخمدوها، والغرابة كل الغرابة أن تخمد أنفاس الخلافة مرة واحدة ويضيع الأمل الساطع في سماء الأمة على أيدي جماعة الاتحاد والترقي مرة واحدة، وذلك لان إرادة الجماهير الإسلامية قد انكسرت وحجب على أعينهم، فضاعت في غياهب التغريب وهيمنة الحضارة الغربية، التي غزت العقلية المسلمة في محيطها الإسلامي آنذاك، والتي كانت أكبر حاجز حجب الخلافة الإسلامية، وأفسح المجال لقيام حكومة علمانية، فصلت الدين عن الدولة، وقد انتشرت تلك الظاهرة في أغلب بلدان العالم الإسلامي حيث انفصلت عن جسم دولة الإسلام، ووقعت تحت براثن الحماية الأوربية.

والحقيـقة أن قضية فـصل الدين عن السياسة قـد أحسن اليهود استـغلالها، إذ مهدوا لها تمهيدًا ناجحًا أدى إلى اندفاع الكثيرين وراء تقليد الغرب، ونقل حضارته وثقافته، بحجة الرقى والتطور الحضارى، فكان هذا التغريب الذى ابتليت به تركيا الإسلامـية سببًا فى جفاء الـشباب التركـى للإسلام وتعاليـمه، إذ بات ينظر إلى الخلافة على أنها نظام مـتخلف مستبد وهى السبب فـى تأخر المسلمين، وقد نجح المستشرقون من اليهود والنصارى فى تلقين هؤلاء الأبناء ذلك المفهوم الخطير، الأمر الذى ساعد على انضمام الكثيرين إلى حركة الاتحاد والترقى.

وقد قام اليهود والعلمانيـون المسيطرون على أجهزة الإعلام فى الدولة بنشر آراء هؤلاء المتـفرنجـين فى الصحف والمجـلات داخل البـلاد وخارجـها، وفق حـملة مدروسة ومنفذة بمعرفة الدوائر الاستعمارية، والتى تطلعت من وراء ذلك إلى رمى هدفين بسهم واحد:

الأول: هو التغريب للقضاء على الهوية الإسلامية لتركيا.

الثانى: هو دفع تهمة الكفر والخيانة عن مصطفى كمال.

والغريب أن تلك الجرثومة قـد انتقلت إلى بلادنا العربية ولاسيمـا مصر والشام وسرعان ما تفشت فى عقلية الجماهير المسلمة آنذاك، والتى مازلنا نعانى من وطأتها حتى اليوم فى شتى مجالات الحياة.

إن مسألة فصل الدين عن الدولة هى التى عجلت بإسقاط الخلافة الإسلامية فى تركـيـا، لأن ذلك الفصل يـعنى وضع الدين تحت أمـر الحكومـة والسلطة، وهذا الوضع بالتالى يتنافى مع عزة الإسلام الذى يعلو ولا يعلى عليه ويتنافى مع المفهوم الذى ساد تركـيا الإسلامـية قرونًا: «إن الرأس مربوط بـالرئيس، والرئيس مربوط بالشريعة».

لقد انعكس الوضع تمامـا على أيدى جماعة الاتحاد والتـرقى وهيمنوا على كل شىء وظهر ذلك واضـحا فى عهد مصطـفى كمال إذ حذف من الدستـور التركى

الفقـرة القائلة «بأن دين الدولة الإسلام»، واستـبدل بها القانون المدنى السـويسرى، وأمر بلبس القبـعة مكان العمامة، وأباح زواج المسلمات من غـير المسلمين، ومنع السفـر لأداء فريضة الحج، وجـعل يوم الأحد العطلة الرسـمية. ويكـفينا فى هذا الصدد أن نتذكر قوله يوم افتتـاح مجلس الشعب: «نحن الآن فى القرن العشرين، ولا نستطيع أن نسيـر وراء كتاب تشريع يبحث فى التين والزيتـون» فصفق له يهود الدونمة والعلمانيون مؤيدين قائلين: «سلمنا البلاد لأتاتورك وتركنا الكعبة للعرب».

إن دور يهود الدونمة فى علمانية تركيا بارز وواضح، فقد سمح أتاتورك لواضع الدستـور سابق الذكر -وهو أحـد رجاله من الدونم- أن يصـدر الدستور بالعـبارة التالية: «القرآن دستور البداوة» كما أمر بتعيين «ظيا صفوت» اليهودى وهو مستشار «قرة صو» المعروف بالحاخام ناحوم سكرتيرا بحزبه.

وتتضح أبعـاد اللعبة فى مؤتمر الصلح «بلوزان» والذى مـثل تركيا فيـه الحاخام ناحوم -سالف الذكر- ورضا نور اليهوديان.

وقد قال الأخير فى المؤتمر: «لقد أصبحت تركيا علمانية، لقد انفصل الدين عن الدولة، وإذا تم الصلح فإننا سنقوم بوضع القوانين المدنية».

وقال أيضا: «إن صفقة بـيع وشراء الخلافة والتنازل عن الموصل قد تم بين لندن وأنقرة، وما حضور وفد تركى إلى «لوزان» إلا للتمويه والتوقيع».

ولم يغفل الباحث قضية الأقليات غيـر المسلمة فى تركيا الإسلامية وهى إحدى القضايا التى أثارت الشـغب والفوضى، وعجلت بسقوط نظام الخلافـة الإسلامية، وقد كان ليهود الدونمة والاتحاد والترقى دور طبيعى فى هذا المضمار.

ولعل حادثة ٥ مـايو عام ١٨٧٦م كانت أحـد المزاعم التى اختلقهـا المسيحـيون لكى يتسنى للـدول الأوربية أن تتدخل وتضـاعف نشاطها ضـد الدولة العثمـانية، وتطالب بحماية المسيحيين، مقدمة لفصلهم عن الحكم العثمانى، وقد شجعت هذه الحادثة الجـمعيـات الأرمنية التى تحالفت مع جـمعيـات رجال الأحرار، فنهـضوا

واشتدت نقمتهم على السلطان عبد الحميد، وقد تمخض عن هذا النشاط الأرمنى أن تدخلت الدول الكبرى ولاسيما روسيا تطالب السلطان عبدالحميد بالإصلاح وما زالت تلك الدول تتدخل فى شئون تركيا حتى اليوم بحجة انضمامها إلى المجموعة الأوربية.

والدارس لقضية الأقليات غير المسلمة لا يسعه إلا الإقرار بروح التسامح الدينى التى حرص عليها السلاطين العثمانيون، بل أثبت البحث أن أغلب هذه الطوائف كانت تطلب التقاضى بموجب القوانين الشرعية لما تميزت به من حيدة تامة وإقرارها للحق الذى تنادى به الشريعة الإسلامية، وقد علل أحدهم وهو مسيو «لويس دانول» أسباب انحلال الدولة العثمانية وأرجعها إلى الحرية المذهبية التى تمتعت بها الرعايا المسيحية والأقليات الأخرى غير المسلمة إذ لعب على أوتارها الغربيون واستفادوا منها فى زعزعة أركان الدولة المسلمة.

ومن العجيب حقًا أن عشرات الملايين من المسيحيين كانوا يعيشون موفورى الحال مترفين متمتعين بامتيازات كثيرة مدة عمل الأتراك بالشرع الإسلامى، وما إن سقطت الخلافة الإسلامية وحل محلها دستور الجمهورية التركية وبطل العمل بالشرع، وأخذت الدولة بقوانين الغرب، لم يبق منهم فى الأناضول سوى فئة قليلة جدا تقدر بعدة آلاف.

إذن لم ترع تلك الأقليات حق المواطنة فى الدولة الإسلامية ذلك الحق الذى منحهم إياه الإسلام الحنيف، وإنما امتدت أسنانهم لتعض اليد التى تفضلت عليهم، ومشوا جميعهم وراء يهود الدونمة وغيرهم من مثيرى الشائعات لإثارة القلاقل والمطالبة بعزل السلطان عبد الحميد.

أما قضية التتريك وبعث القوميات الممقوتة التى أحيتها جماعة الاتحاد والترقى والتى تعادى روح الإسلام، فهى الأخرى كانت معول هدم حمله يهود الدونمة والعلمانيون لتقطيع أوصال الدولة الإسلامية والإجهاز عليها عن طريق بث الفرقة والخصومة بين الأتراك والعرب، وقد وضعت الأحداث التى مرت بها المنطقة قسمة

ثنائية وقع العرب والأتراك معًا فى شركها الخبيث، فقد سلم الأتراك أنفسهم لمصطفى كمال بطل الإنقاذ كما كانوا يرون، وسلم العرب أنفسهم للاستعمار والصهيونية لتخلصهم من براثن الحكم العثمانى، ولم ينتبه أحد منهم لأبعاد اللعبة، فقد كانت تركيا تحت وصاية رجال الدونمة، ووضعت العرب تحت وصاية الاستعمار الإنجليزى والفرنسى والإيطالى والأسبانى الذى أخذ هو بدوره ينفخ فى كير عروبتهم ليتم انفصالهم عن كيان الدولة العثمانية ومن ثم الارتماء فى أحضان ذلك المستعمر.

وما كانت الثورة العربية التى قام بها الشريف حسين إلا مظهرًا من مظاهر تلك الخدعة الكبرى التى خطط لها الاستعمار تخطيطًا دقيقًا بالضرب على أوتار النزعات القومية: الطورانية فى تركيا، والعروبة عند العرب، الأمر الذى أدى إلى تفسخ الدولة الإسلامية، وبعثرة دويلاتها مما عجل بسقوط خلافة المسلمين وانتشار العلمانية.

وخلاصة ما يمكن قوله حول سقوط الخلافة العثمانية أنها حدث جلل ونازلة كبرى من النوازل التى حلت بالمسلمين إذ لم يبد المسلمون تجاهها أى حراك ولم نسمع عن أصوات حرة أو أعمال تنادى بالمقاومة أو النهوض من تلك الكارثة بل أصيبت الأمة بكتمان أنفاسها مرة واحدة إلى أن انحلت وتلاشت شخصيتها بمفارقة الخلافة التى هى الإمامة الكبرى للمسلمين.

فهل يثوب المسلمون إلى رشدهم فى بلادنا العربية والإسلامية ويأخذون التجربة التى مرت بها تركيا الإسلامية كاملة والتى أخرتها فيما مضى عن الركب الدولى عقودا كثيرة، ورأت أن نهضتها الكبرى فى ظل تعاليم دينها السمح لا بقوانين العلمانية التى أحدثت الجفوة بين الجيش وأبناء تركيا ومزقت أوصال الرحمة والمحبة والسلام الاجتماعى وتردى الأخلاق والتحرش الجنسى إلى غير ذلك من عادات وتقاليد غربية لا تعرفها المجتمعات الإسلامية.

❁❁❁

الفصل الأول:



الجماعات المتسلطة على الخلافة العثمانية

أولاً: العلمانيـون وهيـمنتـهم على صنع القرار

ثانيًا: يهـود الدونمة وتآمـرهـم على الخـلافـة

أولاً: العلمانيون وهيمنتهم على صنع القرار

من المفيد أن ندرس تلك التجربة التى خاضـها مصطفى كمال أتاتورك فى تركيا لنعرف ما الثمرة التى جنتها تركيا سياسيًا وحضاريًا وعلميًا من فكرة فصل الدين عن الدولة، وإذا كان لهذه الحركـة العلمانية فى تركيا أثر كبير هلل له الـغرب باعتبار أن تركيا أكبر دولة إسلاميـة وكانت راعية الدين الإسلامى فى يوم من الأيام قد تحولت إلى دولة علمـانية يمكن أن تؤثر فى المحـيط العربى والإسـلامى وتعمل علـى نشر العلمانية بين أفراد الأمة الإسلامية فيعزلون الدين عن الحياة وينزوى الدين فى ناحية بمساجده وأئمـته، ثم تصطدم الحياة بصبـغة الحداثة والتجديـد فهل تحقق هذا الزعم وإلى أى مدى كان المنظّرون صائبين فى نظرتهم؟

وقد شهدت تركـيا الإسلامية على امتداد خمـسين عاما حركة واسعـة للجماعات العلمانيـة المتمثلة فى جـماعة الاتحـاد والترقى والتى تأثرت بالفكر الأوربى بعد قـيام الثورة الفرنسية الكبرى فى فرنسا وعزل الدين عن سياسة الدولة؛ إذ من الملاحظ وفود كثـير من هؤلاء الأتراك إلى أوربا إما للدراسة وإمـا بهدف الرحلة أو الهجـرة والعمل ومن ثمّ تأثروا بالفكر العلمانى، وقد ارتـبطت مصالح هذه الفئة بالجمـاعات اليهودية والصهيونية التى عانى منها السلطان عبد الحميد الثانى منذ أن تولى مقاليد السلطنة عام ١٨٧٦م وحتى إلغاء الخلافة العثمانية عام ١٩٢٤م، فقد ظهرت عوامل عديدة أسهمت فى ظهور نشاط هؤلاء العلمانيين تساندهم الجمـاعات اليهودية -كما قلنا- سواء على المستـوى الداخلى للدولة أو على الصـعيد الخـارجى، فقـد حاكـوا المؤامرات وأثاروا النعرات القومية والطائفية، وحاولوا تغريب النظام التركى بعد أن كان متمسكًا بهويته.

ومما لا شك فيه أن حركة الاتحاد والترقى التى هيمنت على مجريات الأمور فى تركيا قد استـعانت بها الصهيونية فى التخلص من النظـام الإسلامى وتحويل تركيا إلى دولة علمانية.

وقد ساعد على ذلك أن العقول المفكرة لجماعة الاتحاد والترقى قد شُكلت وصيغت فى المحافل الماسونية التى انتشرت فى تركيا وأوربا آنذاك، وقد تمكنت تلك المحافل من أن تدس يهود الدونمة والعلمانيين فى جميع المراكز الحساسة فى الدولة العثمانية تمهيدًا لاحتوائها.

فلا عجب أن أصبح منهم جل الوزراء والنواب وقادة الجيش وكبار الموظفين، وجميعهم علمانيون تأثروا بالفكر العلمانى الغربى فى فرنسا وغيرها، وقد ذكرهم السلطان عبدالحميد فى مذكراته كما سنعرف بعد أمثال الدكتور عبدالله جودت والدكتور اسحق سكوتى والدكتور بهاء الدين شامر والدكتور إبراهيم تيمو.

وعندما شكلت جماعة الاتحاد والترقى سرًا فى بداية الأمر وكانت فرعا لحزب تركيا الفتاة الذى خمدت أنفاسه على أيديهم ثم استأثروا بعد ذلك بألاعيبهم وأساليبهم ومؤامراتهم التى لم تنقطع على الحكم كما سنوضح بعد، وهكذا كان للعلمانيين دور خطير فى إسقاط الخلافة العثمانية باتحادهم مع يهود الدونمة والصهيونية العالمية. وسيتضح ذلك للقارئ الكريم فى الفصول التالية.

ولكن يهمنا ونحن نتحدث عن العلمانية أن نُعرف بالعلمانية كمذهب وضعى وكيف ظهرت، ثم نبين أثرها الخطير فى تدهور الشعوب ثم نأتى بالأدلة العقلية والتاريخية على أن الحركة العلمانية فى طريقها إلى الأفول والغروب فكيف يتسنى لمذهب وضعى أن يتحدى الفكر الربانى الذى جاء به الإسلام رحمة للعالمين؟.

تعريف العلمانية:

العلمانية هى الإيمان بإمكانية إصلاح حال الإنسان من خلال الطرق المادية دون تصد للإيمان سواء بالقبول أو الرفض(١).

وهناك تعريفات أخرى كثيرة للعلمانية منها:

أ- العلمانية هى ترجمة لمعنى اللادينية أو الدنيوية أى «ما لا صلة له بالدين»، وقد ينطقها البعض بكسر العين أو فتحها، والثانى هو الأصح. فالأولى نسبها

(١) العلمانية تحت المجهر د/ عبد الوهاب المسيرى. نشر دار الفكر المعاصر ص١٢.

بعض العلماء إلى العلم وإن كان هذا خطأ، أما فتح العين فهى نسبة إلى العالم أى الدنيا وبهذا أخذ المعجم الوسيط الذى أصدره مجمع اللغة العربية.

ب- تقول عنها دائرة المعارف البريطانية مادة "secularism": «هى حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس وتوجيههم من الاهتمام بالآخرة، إلى الاهتمام بهذه الدنيا وحدها».. ومن ثم فالمدلول الصحيح للعلمانية هو «إقامة الحياة على غير الدين».

و«العلمانية» نظرية بشرية، من صنع الإنسان، فهى بنتُ العقل، واختراع آدمى فى المقام الأول.

وقد لجأت إليها الحضارة الغربية، كرد فعل على أوضاع خاطئة، عانى إنسانُ هذه الحضارة من قسوتها وظلمها المفرط له.

أتت كانقلاب على الدين وتعاليمه، وكانفلات من أسر الأوصياء عليه، هدفها تحقيق المصلحة والمنفعة القريبة لهذا الإنسان فى الحياة الدنيا، ورفع كل القيود عن كاهله -بما فيها قيود الدين والأخلاق- وتحريره من شريعة الله.

ج- وجاء فى قاموس العالم الجديد لوبستر شرحًا للمادة نفسها ما يلى:

١- الروح الدنيوية أو الاتجاهات الدنيوية ونحو ذلك على الخصوص: نظام من المبادئ والتطبيقات يرفض أى شكل من أشكال الإيمان والعبادة.

٢- الاعتقاد بأن الدين والشئون الكنسية لا دخل لها فى شئون الدولة وخاصة التربية العامة.

وجاء فى معجم اكسفورد شرحا للمادة نفسها ما يلى:

١- دنيوى أو مادى ليس دينيًا ولا روحيًا مثل التربية اللادينية، الفن أو الموسيقى اللادينية- السلطة اللادينية، الحكومة المناقضة للكنيسة.

٢- الرأى الذى يقول إنه لا ينبغى أن يكون الدين أساسا للأخلاق والتربية.

ويقــول «المعجم الدولى الثـالث الجديد» مـادة (secularism)ويقــول المستــشرق «أربرى» فى كـتابه «الدين فـى الشرق الأوسط» عن الكلمــة نفــسهـا: «إن المادية العلميــة والإنسانية والمذهب الطبـيعى والوضعـية كلها أشكال لا دينيــة، واللادينية صفة مميزة لأوروبا وأمريكا، ومع أن مظاهرها مـوجودة فى الشرق الأوسط، فإنها لم تتخذ أى صفة فلسفية أو أدبيــة محددة، والنموذج الرئيسى لها هو فصل الدين عن الدولة فى الجمهورية التركية»[1].

إن تلك الثنائية البغيضة - فصل الدين عن الدولة أو الحياة - لن ولم يكتب لها الحياة لأنها ضد الفطرة الإنسانية التى فطر الله عليها الإنسان، فالإنسان كل متكامل يحاول أن يعيـش بكل صفاته رجلاً صحـيحًا ولم يشأ أن يعـيش نصف رجل إما السياسة وإما الدين كما يقولون، ولذلك نقول بكل تأكيد: إن العلمانية ضد الدين وضد الدستور وضد إرادة الشعوب وضد مصلحة الأمة.

صور العلمانية فى تركيا:

للعلمانية فى تركيا صورتان نتجتا عن التعريف الغربى والنشاط العلمانى والبيئة التركية الإسلامية التى تمت علمنتها، ومن هذه الصور:

١- العلمانيــة الملحدة: وهى التى تنكر الدين إنكارًا كـليًا فتنكر وجـود الله الخالق البـارئ المصور وتعـادى من يدعو إلـى الإيمان ووجـود الله، وهذا النوع على فجوره ووقاحته فى التبـجح بالكفر فأمره واضح وأفكاره عارية لا ينطلى على المسلمين أمره ولا يقـبل عليها إلا كل خاسر يريد أن يفـارق دينه، ومثال ذلك قول مصطفى كمال أتاتورك يوم افتتاح مجلس الشعب التركى، إذ قال:

«نحن الآن فى القرن العشرين ولا نستطيع أن نسـير وراء كتاب تشريع يبحث فى التـين والزيتون» فـصـفق له المؤيدون والعلمـانيون قـائلين: «سلمنا البـلاد لأتاتورك وتركنا الكعبة للعرب» فهل بعد ذلك كفر وإلحاد؟

---

(١) هذه التعريفـات منقولة من «الإسلامُ والعلمانيةُ. . شـركاء أم فرقاء» بقلم: على عبـد العال، وكذلك من كتاب الإسلام والعلمانية وجها لوجه ص ٤٩ للدكتور يوسف القرضاوى - دار الصحوة للنشر ١٩٨٧م.

٢- العلمانية غير الملحدة: وهى علمانية لا تنكر وجود الله وتؤمن به إيمانًا نظريًا ولكنها تنكر تدخل الدين فى شؤون الدنيا وتنادى بعزل الدين عن الدنيا، وهذه الصورة أشد خطرًا من الصورة السابقة ففيها تلبيس وإضلال على عوام المسلمين، فهم يستترون على كفرهم بعدم إنكارهم لوجود الله وعدم محاربتهم للتدين، وهذا النوع هو الذى أخذ ينتشر فى منطقتنا العربية وقد أخذت به بعض الأنظمة الإسلامية الحاكمة فيبدو كثير من الناس لا تظهر لديهم نية محاربة العلمانية «غير الملحدة» لأن الدين انحسر عندهم فى نطاق بعض العبادات، فإذا لم تمنع العلمانية الصلاة فى المساجد أو لم تمنع الحج إلى بيت الله على سبيل المثال ظنوا أن العلمانية لا تحارب الدين أما من فهم الدين على أصوله الصحيحة لعرف أن العلمانية فى جميع صورها وأشكالها هى فى الحقيقة ملحدة سواء منها ما ينكر وجود الله وما لا ينكره، فهل هناك محاربة أشد وأوضح لشريعة الله التى جاءت شاملة لجميع ضروب الحياة من تلك الحركة الهدامة.

ولو تأملنا حركة مصطفى كمال أتاتورك فى أول مهدها لوجدنا أنه خدع المسلمين جميعًا إذ لم يعاد الدين فى أول الأمر ولكنه بعدما تمكن وآلت إليه السلطة انقلب على الإسلام والمسلمين، فألغى الشريعة الإسلامية والمعاهد الدينية وحرم لبس العمائم وفرض القبعات بدلا منها وأباح اختلاط النساء بالرجال وحرم على النساء لبس الحجاب وجعل يوم الأحد عطلة بدلا من الجمعة إلى غير ذلك من مظاهر وعادات وتقاليد إسلامية.

عودة الدين فى أمريكا وأوروبا وصراع الحضارات:

لقد اشتدت وطأة العلمانية بقوانينها المجحفة والبعيدة عن فطرة الإنسان حتى ضاق بها الناس وخاصة فى غيبة الدين الذى هو جانب فطرى فى الإنسان، فكان رد الفعل فى أوروبا متمثلا فى ظهور تيار المسيحية الصهيونية وسيطرته على الأمور فى أمريكا ثم امتدادها إلى إسرائيل فى منتصف القرن العشرين حيث تم ممارسة



هذا التيار وتم توجيهه ونفوذه على مستوى الثقافة والسياسة والحروب التى نشأت فى هذه الفترة، وخرج من هذا الظهور بمبشرات انهيار الاتحاد السوفيتى، ومن ثم اتجه الغرب إلى البحث عن عدو بديل فكان من الطبيعى أن يكون البديل مناسبا للمرحلة أى أن يكون دينيًا، من هنا وقع المسلمون فى الشرك.

فلا عجب أن نرى المفكر الأمريكى الشهير «صامويل هنتجنتون» فيلسوف هذه المرحلة الذى أعلن ضرورة الصدام الحضارى بين الغرب والشرق على أساس دينى تحديدا فى كتابه «صدام الحضارات» وكانت الخطوة الأولى إلى ذلك مطالبة الغرب بأن يعترف بأنه لم يعد يدير العالم وحده كما كان الأمر عليه فى أعقاب الحرب العالمية الأولى وأن الحضارات الكبرى كالصين والعالم العربى قد صعدت على الساحة العالمية، ومن هنا بدأ يتحسس الخطر من جهة العالم الإسلامى فما هو أول خطر استشعره؟[1].

لقد استشعر الخطر من جهة تركيا باعتبارها دولة قوية منظمة لمجتمع مسلم وتملك ديمقراطية مقبولة ويمكن أن تكون مؤهلة لقيادة العالم الإسلامى ولكنه ذهب بشكل عام إلى أن الحضارة الإسلامية خاصة تعتبر كتلة أيديولوجية تجبر الغربعلى التخلى عن فكرة الأحادية والهيمنة على العالم[2]. وحدد مصدر الخطر الذى يجب أن يتوقعه الغرب فقال: يجب علينا «فى الغرب» أن نعترف بأن الحضارات الكبرى كالصين والعالم العربى الإسلامى قد صعدت على الساحة العالمية دون أن تتقاسم نفس المبادئ مشيراً إلى أن العالم الإسلامى يتطور ويقوى بحسب نمطه وقيمه الخاصة وهذا هو مصدر الخطر.

واعتبر هنتجنتون أن العالم الغربى أخطأ عندما لم يأخذ بجدية التحليل القائل بتنامى العالم الإسلامى وقال: فى بداية التسعينيات عاش الغرب على وقع الاحتفالات بنهاية الحرب الباردة وكانت فكرة صراع الحضارات وقتها التى نادى بها

---

(١) انظر الحوار الذى دار معه فى مجلة لوبان الأسبوعية الفرنسية بتاريخ ٢٢/٤/٢٠٠٤م.

(٢) انظر الحوار السابق.

هنتجنتون وعرفت باسمه بمثابة صورة متطرفة تـعلن عودة البربرية الهمجية الصليبية، ولمواجهة خطر تنامى العالم الإسلامى حذر هنتجنتون من أن تستقل الولايات المتحدة بهذه المواجـهة دون حلفائـها الأوروبيين قـائلا: «يمكن للغرب أن ينقـذ مكانته فى العـالم فى مواجـهة الإسـلام إذا تجنبت الولايات المتـحدة اتـخاذ مـواقف متطرفـة واعتمدت سـياسة الشراكة الدائمة مع أوروبا.. إن على الولايات المتـحدة الأمريكية أن تتجنب فى هذا الصدد السياسات العسكرية والأحادية الجانب».

وحول فرض الاسـتقرار بالعالم الإسـلامى قال هنتجنتون: «إن إحـدى المشاكل الكبرى للعالم الإسلامى أنه منقسم ومتلاحم فى نفس الوقت. وعلى عكس الصين التى تمثل قوة دينية فى آسيا فإنه فى العالم الإسلامى لا توجد دولة يمكن أن تلعب دور القيادة». ورأى هنتجنتون أن كلاً من مصر وباكستان وأندونيسيا والمملكة العربية السعودية وإيران وتركيا هى قيادات افتراضية متنافسة وهو أمر يقلقنا جميعا[١].

تركيا بين العالم الإسلامى والغرب الأوربى:

وحول رؤيته لرغبـة تركيا فى الانضمام للاتحاد الأوروبى حذر هـنتجنتون من أنها سوف تعود إلى عالمنا الإسلامى قائلا: «إن الكثـيرين يعتبرون أن الاتحاد الأوروبى لن يصمد لدخول حوالى سبعين مليون مسلم إليه، فغالبية قادة أوروبا معارضون لدخول تركيا الاتحـاد الأوروبى، وبالتالى فإن من مصلحـة تركيا أن تختار الانضـمام للعالم الإسلامى وتتـصالح مع ميـراثها الإسلامى الذى حاول أتاتورك طـمسه بطريقة غـير مسبوقة. وأضـاف أن تركيا دولة مسلمة قوية منظمة وتملك إدارة جيدة وجـيشا فعالا وديمقراطية مقبولة وهى لكل ذلك يمكن أن تكون مؤهلة لقيادة العالم الإسلامى[٢].

ومع سيطرة الاتجاه الدينى أخـيرا فى أمريكا فإن هنتـجنتون يذهب إلى ضرورة توجيـهه إلى الصراع مع الإسـلام لا كعقـيدة وحضارة مـعادية فحـسب -حسب تصوره- ولكن أيضا كحل لما يراه من خطر يهدد تشكيل الهوية الأمريكية.

(١) انظر مقال نهاية العلمانية للدكتور يحيى هاشم. سبق ذكره.

(٢) المرجع السابق.

لماذا اتخذ الغرب الإسلام عدوا؟

ويرى الأستاذ عــلاء بيومى[1]: إن هنتجنتــون يرى أن التحديات التى تواجهــها الهوية الأمريكية فى المستقبل تدفعها نحو إعادة بناء الهوية الأمريكية على أساسين:

١- زيادة دور المسيحية فى الحياة العامة الأمريكية.

٢- الدور الذى يمكن أن يلعبه الإسلام كعدو جديد لأمريكا.

لقد اتجــه أغلب الشعب الأمريكى اليــوم إلى الدين وقد ظهر ذلك واضــحا فى ازدياد تردد الناس على الكنائس والأديرة، وهذه صــحوة سادت مــختلف الطوائف الدينية الأمــريكية وعلى رأسهــا الجماعــات الأنجليكية إذ زادوا بنسبــة ١٨٪ خلال التسعينيات ونجحوا فى بناء عدد كبير ومؤثر من المؤسسات السياسية بل سعى بعض قادتهم لخــوض مجال العمل فى الســياسة، ومن هنا وجــدوا أرضا خصبــة لعودة الدين وخاصــة بعد أن ضاق الأمــريكيون بشكل متــزايد منذ الثمانينيــات بالمشاكل الأخلاقــية التى انتــشرت فى مجــتمعــاتهم مثل الإدمان والجنــس والعنف. ويقول هنتــجنتون أيضــا: إن هناك عودة عــامة للدين فى أمــريكا انعكست على الروايات الأمريكيــة وظهرت فى الشركات والمؤســسات الاقتــصادية، كما أثرت على الحــياة السيــاسية مــشيرا إلى الحضــور الكبير للقــضايا الدينية والمتــدينين فى إدارة الرئيس الأمريكى الحالى جورج بوش[2]. ومن جانب آخر يرى هنتــجنتون أن عدو أمريكا الجديد هو الإسلام ثم يوسع تعــريفه للعدو الإسلامى فيــقلب الأوضاع رأسا على عقب ويدعــى أن المسلمين هم الذين حــاربوا العالم والغــرب وأمريكا فى العــقود الأخيرة حروبا طالت البروتستــانت والكاثوليك والبوذيين والصينيين، ويدعى أيضا أن المسلمين حاربوا فى كوسوفا والبوسنة والشيــشان وكشمير وفلسطين والفلبين ثم يقول: إن عداوة الــشعوب غير الأمــريكية لأمريكا عمــيقة وليست بســبب تأييدها

(١) مدير الشئون العــربية بمجلس العلاقات الإسلاميــة الأمريكية «كير» نقلا عن مقــال د/ يحيى حسن هاشم فرغل. نهاية العلمانية فى مقبرة النظريات الفاشلة.

(٢) نهاية العلمانية... مقال سابق.

لإسرائيل بل سبب تلك الكراهية يعود إلى السيطرة الأمريكية والعداء للثقافة الأمريكية يقول هذا متناسيا أن الثروة الإسلامية ضخمة وأنها السبب فى عدوان الغرب على المسلمين.

ويعلق الأستاذ علاء بيومى قائلا: «نحب أن نؤكد على خطورة ما ورد فى الكتاب من أفكار لأن كتابه يحول الإسلام من عدو تصاغ حوله علاقات أمريكا الخارجية -وهى الفكرة التى طرحها هنتجنتون لكتاب صدام الحضارات والتى قد تؤثر أو لا تؤثر على حياة المواطن الأمريكى العادى الذى لا يهتم كثيرا بالعلاقات الدولية - إلى عدو تصاغ حوله هوية المواطن الأمريكى مما قد يرسخ بشكل غير مسبوق عداء المواطن الأمريكى للإسلام.

بلاهة العلمانيين فى بلادنا:

وعلى الرغم مما عرفناه من ظهور للدين وعودة مرة أخرى فى أوروبا وأمريكا إذ تسيس المتدينون واشتغل المتدينون بالسياسة، فما زال العلمانيون فى بلادنا للأسف الشديد أسرى لفكرة العلمنة وعداوتها للدين، فكم سمعنا من متحدث عن الحجاب لأنه مسألة اجتماعية أو حرية شخصية إلى غير ذلك من تفسيرات تذبذب الشباب وتبعدهم عن أوامر دينهم الصحيحة، وكذلك انتشار السحر وعمل الجن والأرواح وما إلى ذلك من جهل وعجز أمام التقدم العلمى الهائل إلى غير ذلك من أقاويل يرددونها فى بلاهة على صفحات الصحف والهوائيات يريدون من ورائها الوصول إلى مقولة «لا سياسة فى الدين ولا دين فى السياسة» والحقيقة أنهم يرتكبون خطأ فادحا فهم يكفرون السياسة ويسيسون الكفر.

والعلمانيون فى العالم العربى والإسلامى كثيرون منهم كتاب وأدباء وصحفيون، ومنهم من أطلق عليهم لقب مفكرين ومنهم أساتذة الجامعات ومنهم جمهرة غفيرة منتشرة فى وسائل الإعلام المختلفة وتهيمن عليها، وقد تعاونت كل هذه الطبقات تعاونًا فيما بينها أدى إلى تداول السلطة بين أيديهم واحتكارهم للقرارات المهمة.

وكـان من نتائج تسـرب العلمانـية إلى المجـتمع الإسـلامى التركى أن أصـيب المجتمع بكثير من المساوئ امتدت إلى العالم العربى تعد نتيجة للعلمانية.

مساوئ العلمانية فى العالم الإسلامى:

١- نشر الإباحية والفوضى الأخلاقية والـتحرش بالفتيات، وقد ركزت فى هذا الجانب على هدم بنيان الأسرة باعتبارها النواة الأولى فى الـبنية الاجتماعية وقد تم ذلك عن طريق:

أ- محاربة الحجاب وفرض السفور وتزيين الاختلاط بين الشباب فى المجتمعات العامة والمدارس والجامعات والمصالح والهيئات.

ب- سن القوانين التى تبيح الرذيلة ولا تعاقب عليها، فـباسم الحرية الشخصية انتشر الزنى والشذوذ الجنسى.

ج- تسلط وسـائل الإعلام على كل ما يمـت للدين الإسلامى بصلة فـأخذت تحارب الفضـيلة وتنشر الرذيلة سواء بالتلميح أو التصـريح فى الصحف والمجلات والإذاعة والهوائيات التى تميزت بالعرى وتزيين الرذائل.

٢- محاربة الدعوة الإسلامية ومحاولة التضييق عليها عن طريق:

أ- إفساح المجـال لوسائل الإعلام للعلمانيـين المنحرفين لمخاطبة أكـبر عدد من الناس بهدف تضليل الفكر والبعد عن معانى الشرع الصحيحة، وفى الجانب الآخر التضييق بل إغلاق وسائل الإعلام فى وجـه علماء المسلمين الجادين الذين يبصرون الناس بحقيقة الدين.

ب- تضـييق الخناق على نشـر الكتاب الإسـلامى بينمـا يفسح المجـال للكتب المنحرفة التى تشكك فـى العقيدة الإسلامـيـة أو الشريعة الإسلامـيـة أو تتهجم على النبوة إلى غير ذلك.

٣- رفض أحكام الشـريعة الإسلامـيـة فى مـعظم مجـالات الحياة واسـتبـدالها بالقوانين الوضعية الفرنسية والإنجليزية وغيرها واعتبروا الرجوع إلى الإسلام تخلفا

ورجعية مما دفعهم إلى إقصاء الشباب المسلم من وظائفهم إلى وظائف أخرى إدارية وبعيدة عن إقامتهم.

٤- تعديل التعليم وتغييره بطريقة تجعله خادما للفكر العلمانى: وذلك عن طريق بث الأفكار العلمانية فى ثنايا المواد الدراسية لجميع المراحل التعليمية وتقليص عدد الحصص المتاحة للمادة الدينية إلى أقصى حد ممكن مع اختصار دروس التاريخ الإسلامى إلى أقصى ما يمكن، وتنقية المنهج من كلمة الجهاد فى سبيل الله، وقد أدى هذا إلى جعل التاريخ الإسلامى والمادة التاريخية مواد هامشية لا تؤثر فى فكر الطلاب ولا فى أنفسهم وعلى النقيض من ذلك تصوير العصور الذهبية بأنها هى عصور ما قبل الإسلام وإبراز القوميات المتعصبة.

٥- مطاردة الدعاة إلى الله وإلصاق التهم الباطلة بهم وتصويرهم على أنهم جماعة متخلفة ومتحجرة عقليًا وهم ضد كل جديد نافع فينبغى التخلص منهم.

٦- الدعوة إلى الوطنية أو القومية: وقد أسسوا هذه الدعوة تحت مسمى وهمى يدعون إليه فيكون رباطًا قوميًا كالجنس أو اللغة أو المكان أو المصالح بينما ينفون الدين كعامل من عوامل التجمع.

ولا يغيب عن فكر المسلم أن للعلمانية وسائلها فى تحريف الدين وتنفير الناس منه، وذلك باستقطاب بعض ذوى النفوس الضعيفة بمغريات مالية ومناصب عليا لكى يرددوا دعاوى العلمانية على مسامع الناس، وسوف تجد كلماتهم صدى إلى آذان العامة من الناس لأن هؤلاء المستقطبين هم من خيرة ذوى المناصب فى بلادنا وأحيانا تقوم بعض المؤسسات العلمانية بتربية بعض الشباب فى بلاد الغرب تربية خاصة وتلميعهم ببعض الألقاب العلمية كدرجة الدكتوراة مثلا أو درجة الأستاذية، ثم رجوعهم بعد ذلك ليكونوا أساتذة فى الجامعات وليمارسوا تعاليم العلمانية وتحريف الدين فى نفوس المتعلمين من شبابنا.

وهذا يفسر لنا الاهتمام المتزايد ببناء الجامعات الغربية فى بلادنا العربية والإسلامية؛ كالجامعة الأمريكية والجامعة الألمانية والجامعة الفرنسية والكندية إلى

غير ذلك من جامعات تستقى تعاليمها من علمانية الغرب وتعمل على توهين صلة المسلم بدينه فتخرج الأبناء من الشباب الذين سيكون بيديهم القرارات بتوليهم المناصب الكبرى فى الدولة بلا هوية. وهناك العديد من المساوئ الأخرى سوف نذكرها عند الحديث عن فصل الدين عن الدولة وقرارات مصطفى كمال التى باعدت بين الناس وبين عاداتهم وتقاليدهم الإسلامية.

مناقشة بعض القضايا المتعلقة بالعلمانية:

كان مصطفى كمال أتاتورك فى تركيا مثالاً بارزًا للبطولة فى نظر الغرب، فقد أرسى دعائم المجتمع الحديث فى تركيا والتى عدوها من أعظم الحلفاء لهم فهى عضو فى حلف ومعاهدة شمال الأطلسى «ناتو» كما كانت داعمًا رئيسيًا للغرب خلال الحرب الباردة، ومن ثم نظروا للإنجازات التى قام بها مصطفى كمال باعتبارها إنجازات أساسية لقيام تركيا المعاصرة إذ إنهم أقصوا الدين جانبًا من أجل التحديث والتقدم واللحاق بالركب العالمى وبخاصة الأوربى، ومن هنا يتجلى لدينا هذا التساؤل الذى نثيره من خلال القضايا التالية:

القضية الأولى:

١- هل من الضرورى إقصاء الدين من أجل التحديث؟

إننا نشهد الآن عالمًا يسقط الفكرة القائلة بأن التحديث يؤدى بالضرورة إلى إقصاء الدين، فإلى أى مدى تكون هذه العبارة صائبة؟ ولكى ندرك البعد الدينى وأهميته أو عدم أهميته فى التحديث نقول:

أ- إن خبرة العديد من المجتمعات فى العالم من خلال نصف قرن تقريبا لو تأملنا تلك الخبرة فى تحديثها ونهضتها لوجدنا الدور الدينى قائمًا بدوره الفعال فى الحياة العامة، ومن هنا نستنبط أن علمنة المجتمع ليست جزءًا أصيلا فى عملية التحديث، وإنه من الواضح أن سياسة فصل الكنيسة عن الدولة أو فصل الدين عن السياسة ليست دعوة موضوعية وإنما كان الجانب المظلوم فيها هو الدين بقيمه ومثله

فلو ترك الأمر يتم تلقائيا بعد فترة من الفترات التاريخية لثبت لنا تفوق الجانب الدينى بطبيعة الأمر، فهو الجانب الذى يتلاءم مع الفطرة الإنسانية، وهذا ما حدث فى تركيا من سيطرة حزب العدالة الاجتماعية وهو حزب إسلامى على الحكم من خلال الانتخابات وهذا يدل دلالة كبيرة على أن العلمنة فى انحسار دائم وسوف تقبر عن قريب.

ومن هنا يمكننا اعتبار الدين حلاً أصيلاً فى هذه المسألة وليس مشكلة يلجأ إليه الساسة والحكام مناقضين مبدأ العلمانية، فانظر إلى الحرب الموجهة إلى الإرهاب أو حرب العراق وأفغانستان تجد الدافع هو العقيدة، والحمية الدينية لها النصيب الأكبر فى تلك الحروب، فكانت حروبا صليبية بمعنى الكلمة وقد تكشفت الآن فى مهاجمتهم للدين الإسلامى، ولو صدق هؤلاء الساسة لأبعدوا دينهم عن الساحة ولكن الذى حركهم هنا الدافع العقدى والدينى واختلطت السياسة بالدين ولم تنفصل كما قالوا.

ب- إننا اليوم نشهد عالما يتطور فى شتى المجالات، والفكرة الدينية من ورائه تغذيه وتدفعه، وقد سقطت الفكرة القائلة بأن التحديث يؤدى بالضرورة إلى إقصاء الدين، ففى تركيا اليوم نهضة حديثة شاملة ومعها أيضا صحوة إسلامية رشيدة إذ نرى النساء يلتزمن بارتداء الحجاب والزى الإسلامى كما نسمع الأذان يعود باللغة العربية إلى غير ذلك من مظاهر إسلامية.

ج- كما تبين لنا أن سياسات فصل الكنيسة عن الدولة أو فصل الدين عن السياسة لم تكن محايدة دينًيا، ولعلنا نشاهد اليوم نهاية تلك الحقبة التى بدأت بظهور العلمنة فى الغرب حيث كانت العلمانية فى نظر الكثيرين هى ما ينبغى أن يكون عليه المجتمع. والمشاهد حقا اليوم هو بروز الجانب الدينى والركون إليه أو الاعتماد عليه حينا، وهذا ما يبشر بنهاية العلمانية. ولعل هذا الطرح بمنظوره الجديد يساعدنا على فهم الإسلام المعاصر الذى ظهر مع الصحوة الإسلامية بمفاهيم



أصـيلة ولكن فى أثواب جديدة كـمـا هو حادث الآن فى تركـيا ومـصر وسـوريا والمملكة الأردنية الهاشمية وباكستان وأندونيـسيا والجالية الإسلامية فى أمريكا وفى فرنسا إلى غـير ذلك من دول وأقليات شهـدت صحوة دينية ولكنهـا ملائمة لروح العصر الذى نعيشه بدون جمـود أو تحجر، ومن هنا فإن بروز هذه الصحوة الدينية والتى صاحبها تقدم وانفتاح يجعلنا نتساءل:

القضية الثانية:

هل وجود الدين يؤدى إلى صراع أم إلى سلام اجتماعى؟

وعلى الرغم من أن بعض المفكريـن يرون أن البعـد الدينى يمثل مـشكلة فى عالم اليوم وهم المتحمسون للعلمانية إلا أننا نرى أن الدين يصلح أن يكون سبيلا للتـصالح والوفـاق مثلمـا يمكن أن يكون أداة للصـراع، كمـا هو معـروف فى الحـروب الصليبـية لقـد عرفـنا سابقـا خطأ الفكرة القـائلة بأن التحـديث يؤدى بالضرورة إلى إقصاء الدين، لـقد أدبرت تلك الحقبة التى ساد فيـها ذلك المفهوم وبالنظر إلى دور الولايات المتـحدة فى شئـون العالم يتأكـد لنا قبـول فكرة نهاية العلمنة كأحد أبعاد عملية التحديث، وفى داخل الولايات المتحدة نجد مؤمنين أو بروتستانت متغيرين أو كاثوليك إصلاحـيين أو وعاظ مسيحيين وغيرهم ممن لهم علاقة بالدين، قد انخرطوا فى سلك السياسة وأثروا فى صنع القرار الأمريكى، وكانت اتجاهاتهم الدينيـة هى المثيرة للعدوان الأمريكى على أفغـانستان والعراق فكانت حركـة صليبية حـديثة، ولو كانت العلمـانية دائمة صلاحـيتها لاخـتفى الوازع الدينـى آنذاك وكم من مـرة نرى الجنود الأمـريـكان يركلون المصـحف الشريف بأحذيتهم ثم نـسمع عن صيحاتهم ضد الإسلام هنا وهناك، فـيقذفون الرسول والصـحابة ونسـاء النبى، وغير ذلك مما نقـرأه فى صحف الغـرب وما نسمعه فى القنوات الفضائيـة، كل هذه الحالات تؤكد دور الدين وتجعلنا نعترف به.

ومن هذا المنطلق يتضح أن العلـمانية باتت موضع نظر وبات حـضور الدين فى الشأن العام أمرًا ظاهرًا ومنتشرًا حتى إن الملتقى الثانى للمثقفين الأمريكيين والعرب الذى انعقد مؤخرا من «٧-١١ تشرين الثـانى/ نوفمبر» كان حول الدين فى المجال العـام فى التجـربتين الأمـريكية والعـربية وهو عنوان ذو دلالة خـاصة فى كلـمة التجربتين تلك، فقد كتب «بيتـر بيرجر» و«هارفى كوكس» الأبوان الروحيان لمقولة «سيادة العلمانية» كـتبًا عن المدينة العلمانية ثم عادا واعترفـا بعد ذلك بأنهما أخطآ فكتب بيرجر يقول: «إن الـعالم ما يزال متدينًا» وكتب «جون فـول» أستاذ التاريخ الإسلامى بـ«جورج تاون» مقالا بتـاريخ ٩ / ٧ / ٢٠٠٤م يتحدث فيه عن الإسلام ونهاية العلمنة ولأن حديث النهايـات ذو نفس أصولى أرثوذكسى لابد من توضيح أن جون فول يعنى أننا نشهد نهاية حقبة كـانت تعتبر فيها العلمنة معطى لازما فى تطور المجتمعات الحديثة[١]. فهو يركز على أن علمنة المجتـمع واستحسان العلمنة هما مجرد جزء من عالم الرؤى والأفكار المتنافسة أى أن ما أقر به «بتريك ميشيل» من أن هناك فى الوسط الأمريكى تيارًا مضادًا لمقولة سيادة العلمنة، ويقول بالخروج منها، وفيما مضى كـان الحديث يتم عن الاستثناء الأمريكى بمعنى أن هناك بلدا - الولايات المتحدة الأمريكية- سيظل متدينا فى عالم تغلب عليه العلمانية.

إن الحديث عن عودة الدين ليس جديدا، لقد دفعت جملة من الأحداث العالمية فى منتصف السبـعينيات إلى الحديث عنه، وقد ألف «جيل كـيبل» كتابه «يوم الله» الطبعة العربية الأولى ١٩٩٢م ورصد فيه ما سماه التجدد الدينى فى الأديان الثلاثة الإبراهيمية[٢].

---

(١) انظر مقال نهاية العلمانية للدكتور هاشم حسن فرغلى. سبق ذكره.

(٢) الإبراهيمية مصطلح أطلقه اليهود يشير إلى سلسلة الأنبـياء المتصلة بسيدنا إبراهيم عليه السلام على اعتبار أنهم من ذريتـه، والحقيـقة أنهم أرادوا من هذا تـخريب المعتـقدات الدينيـة إذ يدعون أن الديانات كـلها سماوية ومـصدرها واحد والدين الأساسى هو دين إبراهيم، وهو قـول حق أريد به باطل، فدين إبراهيم هو الإسلام والإسلام دين مـتصل مع موسى وعيـسى ومحمد عليـه السلام الذى جاءت رسالتـه ناسخة لجميع الأديان السماوية.

القضية الثالثة:

عودة الدين. ولكن كيف يعود؟ وهل الدين الإسلامى فيه من المرونة ما يجعله ملائمًا لكل عصر.

أما فيما يخص المسألة الأولى فقد ساد اعتقاد فى أوساط المثقفين وعلماء الاجتماع الغربيين بأن التحديث هو المحرك الذى سوف يتسبب بصورة حتمية فى إقصاء الدين عن الحياة، ومن هنا فقد دأب هؤلاء المنظرون على ما يقرب من ثلاثة قرون على أن يؤكدوا على أفول الدين غير أن تلك العودة للدين والتى تحدثنا عنها سابقا زعزعت تلك التصورات الصلبة وأدت إلى وجود مقولات مثل مقولة «رودنى ستارك» أبرز علماء اجتماع الدين: «حرى بمبدأ العلمنة أن يلقى فى مقبرة النظريات الفاشلة» غير أن تجربتنا مع التحديث خلال نصف قرن كافية للاعتقاد بخطأ فكرة إقصاء الدين وبمعنى آخر أى أن التحديث سيؤدى إلى إقصائه وبالنظر إلى الأحداث القريبة ودور الولايات المتحدة فى شئون العالم جدير بنا أن نتقبل فكرة نهاية العلمنة كأحد أبعاد عملية التحديث.

وفيما يخص الإسلام تحديدا فقد قدم الأنثربيلوجى «أرنست غلنر» أطروحته بعد أن شغله سؤال: وهو لماذا يكون الدين الإسلامى وحده على هذه الدرجة الملحوظة فى مقاومة العلمنة؟ فهل الأديان الأخرى على نفس الدرجة فى المقاومة. لقد خلص ذلك الباحث إلى أن فى الإسلام إيمانًا دينيًا عميقًا بمعنى دين مؤسس عقدى قادر على تحدى حركة العلمنة بشكل كلى ومؤثر. وقال: إن عالم الإسلام يظهر بوضوح أنه يمكنه إقامة اقتصاد عصرى قائم على المبادئ التكنولوجية والتعليمية ويعمل على ضمها وتوحيدها مع الإيمان الراسخ والاندماج الكلى فى الإسلام، وهكذا استدل ذلك العالم على أن إقصاء الدين ليس شرطا للحداثة بل وجوده يكون قوة محركة ودافعة إلى الأخذ بأسلوب العصر والدفع نحو التقدم العلمى والتكنولوجى(١).

(١) انظر المقال السابق.

القضية الرابعة:

هل العلمانية شرط ضرورى للديمقراطية؟

وإذا كان إقصاء الدين ليس شرطا للحداثة فإن العلمانية ليست شرطا للديمقراطية أيضا، لأنها لا تعدو سوى أيديولوجيا منافسة، ولم تعد الحقيقة الواحدة والخيار الوحيد الذى لابد منه للمجتمعات، والتجارب الحالية. ومن هنا نتساءل: إذا كانت العلمانية تحول دون حرية التفكير فى الديمقراطية نفسها.

والحقيقة أن العلمانية تحمل جملة من التناقضات أبرزها دعوتها إلى حرية الاجتماع الدينى الذى يقود فى نهاية المطاف كما هو الحال الراهن إلى زيادة رقعة الدين والدعوات الدينية للتدخل فى الشأن العام والسياسة باعتبار أن للدين دوراً مهما يمكن أن يؤديه فى السياسة كما حدث فى تركيا اليوم حيث إن حزب العدالة الاجتماعية وهو ذو مرجعية دينية إسلامية قد تفوق على سائر الأحزاب فى الانتخابات الأخيرة التى أجريت فى تركيا وأثبت خلالها الإسلاميون نجاحا باهراً وتفوقا رائعًا إلى درجة أنهم انفردوا بتشكيل الحكومة التركية وهذا يثبت أن للدين دورا مهمًا فى حياة المواطنين لا غنى عنه. وقد تتقارب العلمانية مع الديكتاتورية فيبدو التناقض واضحًا تحت مسميات عديدة كما هو الحال فى فرنسا وانجلترا من حيث قضية حجاب المرأة المسلمة وغير ذلك من قضايا تخص المسلمين وتتعلق بالدين الإسلامى.

وبناء على المسألتين السابقتين نعود لمناقشة عودة الدين وبأى معنى يعود. ولكى ندرك ذلك ينبغى علينا أن نرى الظاهرة الدينية بمنظار جديد وأن نبتعد عن الآراء التقليدية التى ننظر بها دائما إلى الأمور، وإذا تم ذلك فسيرى الدارس ظهور تفسيرات جديدة لبعض المسائل الدينية التى تساعد على الارتفاع بواقع الناس بحيث يتلاءم مع الحقيقة الدينية، وكيف نفسر ذلك الظهور، وكيف نرى هذا الوجود الدينى المتعاظم والمؤثر بشكل كبير فى السياسة والاجتماع. إن هذه الرؤية تعزل مفهوم الدين نفسه لتقتصر على الممارسات القابلة للتوصيف فقط. هذه رؤية

قد تكون محكومة على الديانات بشكل عام فى أوروبا أما عالم الإسلام فهو مختلف تماما عن ذلك، فالعلاقة بالدين فى الأساس هى علاقة فردية أولاً ثم يكون لها أبعادها الاجتماعية الظاهرة فى الأسرة ثم المجتمع ثم الدولة. ويرى باتريك ميشيل أن تفسير عودة الدين يجب أن يتصل بنهاية الاستقطاب بين الشيوعية والرأسمالية كنظم وليس كدول فقط، وهو ما أدى إلى إعادة طرح فكرة الدين من جديد ومع إعادة تشكيل العالم فإن هناك مشكلة وأزمة فى الهوية، فقد أدت خلخلة الهوية إلى نوع من الحماس الدينى لأن الأحاسيس والمشاعر اتجهت لأعم الموارد الرمزية التى لا تزال باقية والتى تعطى معنى للعالم. بعد هذا الطرح نستطيع أن نقول: حرى بمبدأ العلمنة أن يلقى فى مقبرة النظريات الفاشلة. توقيع «جون فول» أستاذ التاريخ الإسلامى وتاريخ العالم فى جامعة جورج تاون بواشنطن[1].



(١) للمزيد يرجع إلى كتاب العلمانية تحت المجهر للدكتور عبد الوهاب المسيرى، وكتاب الإسلام والعلمانية للدكتور يوسف القرضاوى، وكتاب العلمانية بين الخرافة والتخريب للدكتور يحيى هاشم فرغل، كذلك مقال نهاية العلمانية للدكتور يحيى هاشم فرغل وهو منشور على الإنترنت.

ثانياً: يهود الدونمة وتآمرهم على الخلافة

الدونمة كلمة تركية أطلقها الأتراك على اليهود الذين هاجروا من أسبانيا إلى تركيا بعد اضطهادهم وطردهم والمسلمين على أيدى محاكم التفتيش الأسبانية، وقد فتحت تركيا الإسلامية أبوابها أمام طلائع اليهود التى أخذت تفد إلى مدينة «سالونيك» الواقعة فى ممتلكات الدولة العثمانية آنذاك، وإلى سائر المدن التركية، بعد أن تعرضوا لمخاطر البحر وقراصنته وكادوا يهلكون جوعا.

والدونمة كلمة تركية مركبة من جزءين: الأول (دو) بمعنى اثنين وهى فارسية الأصل والثانية (نمه) بمعنى نوع، ومعنى الكلمة بجزءيها كما أرادها الأتراك الفرقة القائمة على نوعين من الأصول «النوع اليهودى» و«النوع الإسلامى»[1] ، وقد أطلقوها على تلك الفرقة اليهودية التى تظاهرت بالإسلام وأضمروا اليهودية وعاشوا بين الأتراك بوجهين وكأنهم يعنون بها المرتد أو الملحد أو الزنديق، ومن ثم صارت لقبًا شائعًا لتلك الجماعة اليهودية التى سكنت منطقة الغرب من آسيا الوسطى والتى ساهمت إسهامًا كبيرًا فى تقويض أركان الخلافة العثمانية.

وظاهرة الازدواجية الدينية عند اليهود ليست بغريبة عليهم، فقد وصفهم بها القرآن فى أكثر من موضع ﴿ **وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ [آل عمران: ٧٢]، ويقول تعالى: ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ** ﴾ [البقرة: ٧٦].

ولم تسلم الديانات الإلهية من تلك الظاهرة اليهودية وقد اندس نفر منهم إلى الديانة المسيحية الصافية وتظاهروا باعتناقها وهم ما يزالون على كفرهم حتى

(١) حسن ظاظا. الفكر الدينى اليهودى أطواره، ومذاهبه، ص ٢٦١. ولما كانت هذه التسمية تسئ إليهم قاموا بتعديلها وسموا أنفسهم «المؤمنين» و«الرفاق» و«المجاهدين».



قوضوا أركانها وحرفوا معتقداتها، ولعل يهود «المارانوس» فى البرتغال مثال جيد لتلك الظاهرة إذ تظاهروا باعتناق المسيحية خوفًا من بطش محاكم التفتيش، وكونوا فرقة تظاهرت بالكاثوليكية، بينما بقيت على دينها اليهودى فى الخفاء، ولحرصهم الشديد على عدم الظهور بالمظهر اليهودى فقد قاموا بتشييد معابدهم على شكل الكنائس، وظهروا فى الحياة العامة بين النصارى بمظهر لا يميزهم عن الكاثوليك بينما هم فى عقائدهم وشعائرهم كانوا يهودًا متعصبين ليهوديتهم(١).

وقد كان نفاقهم ذلك وازدواجيتهم تلك سببًا فى تعنت محاكم التفتيش الأسبانية معهم، إذ إنها همت بطردهم وطلبت منهم الرحيل فورا أو الموت حرقا، ولم يخيروهم مثل العرب المسلمين فى الرحيل بدينهم أو البقاء على المسيحية، وذلك لأن الأسبان كانوا يدركون جيدًا أنهم سيختارون البقاء على المسيحية ظاهرًا من أجل البقاء فى أسبانيا والنجاة من ويلات تلك المحاكم. ولما أدرك اليهود أنهم مأخوذون بواحدة من الاثنين ولا مفر من ذلك شرعت طلائعهم تفد إلى تركيا الإسلامية التى أحسنت الظن بهم وعاملتهم معاملة كريمة طيبة تسودها روح التسامح، تلك الصفة التى عرف بها سلاطين العثمانيين.

ولكن هؤلاء اليهود على عاداتهم لم يرعوا حرمة المواطنة فى الدولة الإسلامية، بل امتدت أسنانهم لتعض الأيدى التى تفضلت عليهم، فنراهم يتحزبون ويكونون جيبا منفصلا عن الدولة وعن نسيجها الاجتماعى، ومع تحزبهم ذلك إلا أنهم تمكنوا بنفاقهم وازدواجيتهم من التغلغل فى الكيان الاجتماعى للدولة العثمانية، فهم أمام المسلمين يصلون ويصومون ويحجون ويتزيون بالزى التركى ويتسمون بالأسماء العربية والإسلامية إما فيما بينهم فهم يقرأون التلمود والعهد القديم ويرتلون بالعبرية ويأكلون الفطير ويقيمون أعيادهم اليهودية وإن أسماءهم فى الأوكار عزرا وحاييم وديوره واستير وساراى وشبتاى وقره. وقد اعترف بهذه الظاهرة «اسحق بن زفى» رئيس إسرائيل السابق فى كتابه الصادر عام ١٩٥٧م

(١) حسن ظاظا. الفكر الدينى اليهودى أطواره ومذاهبه، مرجع سابق.

بعنوان «الدونمة» قال فيه: «إن يهودا كثيرين وكثيرين جدا يعيشون بين الشعوب بطبيعيتين إحداهما ظاهرة وهى اعتناق دين الشعب الذين يعيشون فى وسطه اعتناقًا جماعيًا وظاهريًا، والثانية باطنة فهى إخلاص عميق لليهودية»(١).

ولعل هذه الظاهرة الخطيرة التى دأب عليها اليهود تجاه الديانات قد آتت أكلها فى تركيا فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى، وما أن هل القرن التاسع عشر حتى كانت جماعات الدونمة قد تغلغلت وتداخلت وتدخلت فى شؤون تركيا وهيمنت هيمنة كاملة على جميع مجالات الأنشطة الفكرية والاقتصادية والتربوية والسياسية، وكان منهم الوزراء والصدور العظام والنواب والمدرسون وأصحاب بيوت المال، وقد توجت نشاطاتهم بميلاد جماعة الاتحاد والترقى التى دبرت انقلابًا عسكريًا دونميًا عام ١٩٠٩م من مدينة «سالونيك» مركز تجمعهم وترساناتها العسكرية ضد السلطان عبدالحميد والذى انتهى ذلك الانقلاب بعزله عن سلطنة الدولة العثمانية.

وقد يتساءل المسلم عن مؤسس تلك الطائفة وكيفية ظهورها فى تركيا الإسلامية حتى أصبح لها مثل ذلك الثقل السياسى والعسكرى الذى أودى بعرش ذلك السلطان المفترى عليه.

مؤسس الدونمة:

مؤسس تلك الطائفة هو «شبتاى صبى» وقد تنطقها بعض المراجع «ساباتاى زفى» أو «شبتاى ليفى» وهو يهودى من أصل أسبانى قد هاجر آباؤه فى إطار الطلائع المهاجرة من أسبانيا، وقد ولد فى مدينة «أزمير» عام ١٦٢٦م ومات فى ألبانيا عام ١٦٧٥م وكان أبوه تاجرًا ميسورًا فأدخله فى مدرسة يهودية تعلم فيها التوراة والتلمود وتخرج منها وهو ابن الخامسة عشرة ومارس مهنة التدريس وبرع فى دراسة علم «القباله» وأجاد تأويلات الباطنية والصوفية وكان يتميز بطلاقة اللسان وجمال المحيا والتأثير فى محدثيه.

(١) محمد على الزعبى. الماسونية فى العراء. دار الجيل بيروت ١٩٨٣م نقلا عن جريدة الشهاب البيروتية. العدد الأول لنيسان ١٩٦٩م.

وقد وافق ظهور «شبتاى» فى أواسط القرن السابع عشر أن لقى يهود أوربا أشد أنواع الملاحقة والاضطهـاد، الأمر الذى دفعهم إلى البحث عـن مخلص يخلصهم من ذلك العنت، فـلا عجـب أن نراهم يلتفـون حـول هذا الرجل الذى زعم بأنه المسيح المنتظر والذى سوف يخلصهـم من العذاب، ثم يعلن إليهم أن سنة خلاص بنى إسرائيل ستكون عام ١٦٤٧م. ثم قام شبـتاى بعدة تنقلات فى البلدان الأوربية والعربية لنشر دعـوته حتى بلغ أوج مجده فى عاصمة الدولة العثـمانية وأقام مملكة يهودية ولـقب بملك الملوك، وقسم العـالم إلى ٣٨ قسمًـا وعين عـلى كـل قسم ملكًا وجعل توقيعه «الابن الوحيد الأول ليهوه»[١].

وإن كانت الدولة العثـمانية قد انزعجت من خطورة تلك الحـركة، فإن الدلائل تشير إلى أن تنبهها قـد جاء متأخرًا، وبدون إدراك واع لمرامى ذلك الدونمى الخطير ومخططه الرهيب، وكل ما أهمها من حركته هو إثبات الدليل على نبوته أو إظهار أكذوبته ومعاقبته، بينما الحقيقة التى كان ينبغى عليهم إدراكها أبعد من ذلك، فهم يريدون القـضاء على الإسـلام فى عقـر مملكته وسلخ تركـيا من هويتـها المسلـمة وتحويلها إلى دولة عـلمانية. وهذا ما حدث فـيما بعد على أيدى «مـصطفى كمال أتاتورك» رائد حركة الدونمة فى النصف الأول من القرن العشرين.

وتشير المراجع أنه عندما مثل «صـبى» أمام السلطان محمد الرابع وطلب منه أن يثـبت دعـواه أو يقـتل، أدرك ذلك المدعى أنه لا مناص من الموت فـأنكر ادعـاءه بالمسيح المنتظر وبدهائه اليهودى أظهر رغبته فى الإسـلام وذلك ليفتدى جماعته من القتل، والعجـيب أن السلطة الحاكمة آنذاك قد قبلت منه ذلك، والـغريب حقا أن تقوم بتكريمه وتعينه رئيسًا للآذنين «الحجاب» مكافأة له دون أن تتبصر مرامى الرجل وأهدافه. ثم نراه يتسمى باسم «محمد عزيز أفندى»[٢] أمام المسلمين، ويبقى على اتصال دائم مع جماعته. ثم يخطو بهم خطوة ليؤمنهم من تعقب السلطات التركية

(١) الفكر الدينى اليهودى مرجع سابق ص١٢٤ .

(٢) يقول الدكتور حسن ظاظا: إن اسمه محمد أفندى ولـقبه «قافوجى باشا إيطراق» ومعناها خاتم الأعتاب، انظر كتابه الفكر الدينى ص١٢٦ .

لهم فيطلب من المفتى السماح له بدعوة إخوانه اليهود إلى الإسلام، ولما أذن له أمر جميع مريديه بالدخول فى الإسلام فأطاعوه ولبسوا الجبب والعمائم، فكانوا فى الظاهر مسلمين وفى الباطن يهودًا، وبذلك تكونت أول فرق الدونمة فى تركيا تتستر بالإسلام لتأخذ مأمنها، بينما تتحرك نحو أهدافها وفق مخطط دس رهيب حتى لا ينكشف أمره، وقد أصدر لأتباعه وثيقة مكونة من (١٨) مادة تنص المادة رقم (١٦) على أنه يجب على اليهود الدونميين تطبيق عادات الأتراك المسلمين بدقة لصرف أنظارهم عنهم، كما أنه يجب ألا يظهر أحد من أتباعه تضايقه من صيام رمضان ومن الأضحية، وعليهم أن ينفذوا ذلك بكل دقة أمام مسلمى تركيا. كما تنص المادة رقم (١٧) على عدم مناكحة يهود الدونمة بالمسلمين منعًا باتًا[١].

تاريخ حركة الدونمة السرى:

تستمد حركة الدونمة فلسفتها من تعاليم مدرسة «الكابالا اليهودية» التى عرفت على امتداد العصور التاريخية ببث الروح الثورية وإنشاء الجمعيات السرية وإثارة الحركات الهدامة فى المجتمعات، «والكابالا» كلمة عبرية معناها «ما يتلقى» وهو نسيج من الفلسفة والتعاليم الروحية والشعوذة والسحر قد تعارف عليها اليهود من القدم. وقد ظهرت تعاليم «الكابالا» واضحة فى المجتمعات الأوربية منذ القرن الثانى عشر عن طرق الجمعيات السرية التى أقامها اليهود فى تلك المجتمعات مثل جمعية «فرسان المعبد» وجمعية البناء الحر «الماسونية» وما انبثق منها من جمعيات فرعية مثل إخوة الشيطان، وأصحاب القداس الأسود، وشهود يهوه، وجمعية بناى برت «أبناء العهد» وأندية الروتارى والليونز، والشيوعية والبهائية وغيرها[٢].

والدونمة أيضًا واحدة من الجمعيات السرية التى أقامها اليهود فى تركيا والتى باشرت نشاطها فى محفل سالونيك الماسونى تحت رعاية قناصل الدول الغربية

(١) محمد على قطب. يهود الدونمة. دار الأنصار. القاهرة ط أولى ١٩٧٨م ص٢٤ .

(٢) انظر داؤود عبد العفو سنقرط. القوى الخفية اليهودية العالمية الماسونية. دار الفرقان. طبعة أولى ١٩٨٣م ص١٥٩-١٦٢ وكذلك محمد على الزغبى. حقيقة الماسونية ص ٣٢٨-٣٣٠ .

الذين يتمتعون بنفوذ قوى فى الدولة العثمانية آنذاك، وقد كانت الدونمة هى الأداة المنفذة لمخططات الصهيونية العالمية فى دولة الخلافة العثمانية، وقد تمكنت من الوصول إلى مراكز النفوذ فى الدولة مستترة وراء جمعية الاتحاد والترقى التى أحكمت قبضتها على مجريات الأمور فى تركيا بعد خلع السلطان عبد الحميد. ولعل مذكرة السفير البريطانى فى تركيا إلى وزارة خارجيته آنذاك لأكبر دليل على ذلك النفوذ «إن لجنة الاتحاد والترقى تبدو فى تشكيلها الداخلى تحالفًا يهوديًا تركيًا مزدوجًا، والأتراك يمدونها بالمادة العسكرية الفاخرة، ويمدها اليهود بالعقل المدبر وبالتدبير وبالمال وبالنفوذ الصحفى القوى فى أوربا» وتشير المذكرة أيضا إلى الأسلوب الذى انتهجه يهود الدونمة لإضعاف الدولة العثمانية وتمزيق شملها «. . . ولكى يصل اليهود إلى مكان النفوذ فى مراكز النفوذ فى تركيا الفتاة، فإنهم يشجعون الاتجاهات القومية التركية» وبعث القوميات الوطنية كانت من أكبر معاول الهدم لدولة الخلافة العثمانية، إذ أخذوا ينفخون فى كير العروبة تارة، وفى كير القومية الطورانية تارة أخرى، ويدب الصراع بين أبناء تركيا الفتاة، وبين أنصار العربية الفتاة، وتضيع الفتاتان معا وترتميان فى أحضان الصهيونية والاستعمار.

فلا عجب إذن أن ترتبط حبال يهود الدونمة فى تركيا بشبكة الصهيونية العالمية وبالقوى الاستعمارية المتطلعة للإجهاز على الدولة العثمانية المترنحة والتى بلغت مرحلة من مراحل الضعف أغرتهم بمضاعفة نشاطهم فى تلك البلاد، وبالفعل استطاعت أن تحقق هدفًا مزدوجًا يصب فى اتجاهين:

الأول: لخدمة الصهيونية والمتمثل فى استيطان اليهود فى فلسطين.

الثانى: لخدمة الاستعمار والمقصود منه إضعاف تركيا وتمزيق تركة الرجل المريض كما كانوا يسمونه فى أوربا.

وتشير الوثائق إلى تمكن طائفة يهود الدونمة من القيام بهذين الهدفين والعمل المتواصل من أجلهما فى آن واحد، وقد تمخض نشاطهم داخل تركيا إلى ميلاد حزب تركيا الفتاة والذى كانت أغلب تشكيلاته من يهود الدونمة الماسونيين الذين

هيمنوا على مجريات الحياة الاقتصادية والإعلامية كما أنهم كانوا يشجعون الاتجاهات القومية والعرقية فى تركيا، ولعل مذكرة السفير البريطانى فى تركيا إلى وزارة خارجيته عن نشاط أولئك اليهود يعد دليلاً قويًا على النفوذ الذى آل إلى تلك الفئة «إن لجنة الاتحاد والترقى تبدو فى تشكيلها الداخلى تحالفًا يهوديًا تركيًا مزدوجًا، فالأتراك يمدونها بالمادة العسكرية الفاخرة، ويمدها اليهود بالعقل المدبر وبالتدبير وبالمال وبالنفوذ الصحفى القوى فى أوربا» وتقول المذكرة أيضا: «إن اليهود الذين يبدون الآن فى موقف الملهم والمسيطر على الجهاز الداخلى للدولة يعملون على السيطرة الاقتصادية والصناعية على تركيا الفتاة، ويبدون مصممين على ألا يبدأ أى مشروع عام فى العراق دون إسهامهم فيه بل دون سيطرتهم عليه»[(١)]، وتشير الوثيقة إلى العراق حيث أشار السلطان عبد الحميد على هرتزل أن يتخذ منه مشروعا استيطانيا لليهود بدلا من فلسطين. وسوف نوضح ذلك فيما بعد.

كما تشير المذكرة السابقة إلى الأسلوب الذى انتهجه اليهود لإضعاف الدولة وتمزيق شملها: «... ولكى يصل اليهود إلى مكان النفوذ فى مراكز النفوذ فى تركيا الفتاة فإنهم يشجعون الاتجاهات القومية التركية، وهذان العنصران يشكلان تزاوجًا قويًا مميزًا ينبغى على كل من يهتمون بالعراق أن يأخذوه فى الاعتبار»[(٢)] ولم يقتصر نفوذ يهود الدونم على تركيا فقط وإنما امتد ليأخذ مكانه لدى يهود أوربا حيث أصبح المجمع اليهودى فى الآستانة مركزًا استشاريًا يهرع إليه يهود أوربا للمشورة وإبداء الرأى فى أغلب مشاكله. وظاهرة انتشار المحافل الماسونية قد بدأت على نطاق واسع منذ القرن الثامن عشر الميلادى حتى شملت أغلب بلدان أوربا الشرقية والغربية وتوثقت أواصر العلاقة بين محفل الآستانة ومحافل انجلترا وباريس ومدريد ولاهاى، وقد استغلت تلك المحافل فى بادئ الأمر للعمل فى نطاق الأسر الملكية، لقد كانت مطية لتحقيق مطامعها إلى أن وضع الدكتور

(١) الوثيقة رقم٧ ص١٠٩ المجلد الثانى وثائق ونصوص تاريخية. حسن صبرى الخولى. سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين. دار المعارف ١٩٧٠م.

(٢) الوثيقة السابقة فى المرجع السابق.

أندرسون دستورها الأول عام ١٧٢٣م وكان هذا الدستور يحمل فى طياته الدعوة إلى دين يتفق فيه جميع الناس، وبذلك فإنه يدعوهم إلى نبذ النصرانية الأمر الذى جعل بعض الباحثين يرى أن البناء الحر الذى هو رمز لهذه المحافل إنما هى جمعيات هدامة تعمل كمعظم الجمعيات السرية على سحق التعاليم الدينية وبث الدسائس السياسية تحت ستار الإخاء والصداقة والحرية. وبمرور الزمن تكشفت أهداف البنائيين الأحرار نوعًا ما وإن كان من الصعب استخلاصها إلا أنه يمكن القول إن نظام هذه المحافل يرتبط بغاية تختلف باختلاف الزمان والمكان والظروف، وقد تسلطت المحافل الماسونية بأنظمتها على شعوب العالم الأوربى: قادته وزعمائه، ومن الملاحظ أن المحافل الماسونية تلك لم تسلك نظامًا واحدًا فى جميع هذه البلدان وإنما تتبع نظامًا يخدم أهدافهم من واقع الظروف السياسية التى تمر بها كل بلد من هذه البلدان، فى الوقت الذى كانت فيه الماسونية تخوض غمار الاضطرابات الثورية فى فرنسا وانجلترا وإيطاليا وبلجيكا وأسبانيا والبرتغال وغيرها، إذا بها فى شرق أوربا تخوض غمار الاشتراكية الماركسية تحت إشراف اليهود وتدبيرهم حيث ثبت بما لا يدعو إلى الشك أن الشيوعية اجتاحت جميع المحافل فى تلك البلدان وإن نظريات ماركس وإنجلز كان يلقنها إخوة البناء الحر لشعوبها وقادتها، كما لوحظ أن الماسونية فى أنحاء أخرى من شرق أوربا قد اتخذت صبغة سياسية قومية كما حدث فى تركيا، فقد أنشئ أول محفل ماسونى بها فى سالونيك عام ١٦٨٣م[1]، وهو محفل عريق وأصبح هو الأب الروحى والشرعى لجميع المحافل الماسونية التى انتشرت فى جسم الدولة العثمانية وعلى رأسها محفل الآستانة[2].

---

(١) القوى الخفية لليهودية العالمية الماسونية. مرجع سابق ص١٢٩.

(٢) تأسست محافل كثيرة فى الاستانة وأزمير، بعضها تابع للشرق الأعظم الإنجليزى وبعضها للفرنسى وبعضها للإيطالى إلى أن أنشأ «حليم باشا» مجمعًا وطنيًا برئاسته، وقد أصبح عدد الماسون الأتراك «المسلمين» عام ١٨٨٢م نحو عشرة آلاف شخص. محمد على الزغبى مرجع سابق.

وقد استطاعت هذه المحافل بمساعدة يهود العالم والدول الاستعمارية أن تدس يهود الدونمة فى جميع المراكز الحساسة فى كيان الدولة تمهيدًا لاحتوائها ومن ثم قلب نظامها رأسًا على عقب، فلا غرو أن أصبح منهم جل الوزراء والنواب وقادة الجيش وكبار الموظفين والمسئولين ولعل استقراء سريعًا لأسماء بعض هؤلاء القادة والنواب والموظفين من خلال مذكرات السلطان عبد الحميد يتبين لنا مدى تسلط يهود الدونمة على الدولة العثمانية وامتلاك صنع القرار. يقول السلطان عبد الحميد: «رأيت خطابا تسلمه أحمد جلال الدين باشا من على كمال بك فى مصر -وغالبا ما يكون هذا الخطاب بين محفوظات قصر «يلدز» - فيه أسماء ومصادر التمويل. . .» وفى هذا الخطاب أيضا يذكر أن الدكتور عبد الله جودت والدكتور إسحاق شكوتى والدكتور بهاء الدين شاكر والدكتور ناظم والدكتور إبراهيم تيمو ينتسبون إلى المحافل الفرنسية والإيطالية حتى إن هذه المحافل أيضا تسلم عائلتهم الموجودة داخل البلاد النقود يداً بيد ،هذا ما كتبه وأرسل معه الوثائق المؤكدة لهذه المعلومات[1]. ومن الدراسة الوثائقية اتضح أن مجموعة هذه الأسماء قد شكلت تنظيمًا سريًا عرف باسم «الاتحاد والترقى» وكان فى بداية الأمر فرعًا لحزب تركيا الفتاة، وقد تشكل هذا التنظيم عام ١٨٨٩م ضد السلطان عبد الحميد بزعامة رجل ماسونى ألبانى من هؤلاء الخمسة هو «إبراهيم تيمو» المعروف بأدهم حيث اتفق مع عدد من طلاب المدرسة الطبية العسكرية فى استانبول على قيام ذلك التنظيم بهدف عزل السلطان عبد الحميد الثانى، وكان منهم إسحاق سكوتى، وشركس محمد رشيد، وعبد الله جودت، وكورديان، وقد باشرت أعمالها فى جنيف أولا عام ١٨٩١م ثم نقلت إلى باريس، وقد ركزوا دعوتهم داخل صفوف الجيش، وقد أنشأ كل من إسحاق سكوتى وعبد الله جودت مجلة «عثمانيلى» فى جنيف لتأليب الرأى العام على السلطان عبد الحميد وخوفًا من تعقب رجالات السلطان عبدالحميد لنشاط هذه الجماعة فقد أوت إلى أوكار المحافل الماسونية فى تركيا لعقد

(١) انظر مذكرات السلطان عبد الحميد. ترجمة وتحقيق الدكتور محمد حرب عبد الحميد. دار الأنصار القاهرة ١٩٧٨م ص ٦٠.

اجتماعاتهم السرية بها كما فتحت السفارات الأجنبية أبوابها داخل تركيا وخارجها لأولئك المتمردين لحمايتهم وتشجيعهم على معارضة السلطان عبد الحميد علنا لإسقاطه واستئصال شأفته(١).

ولم يقتصر دور الماسون على هؤلاء الخمسة فهناك شخصيات مؤثرة أخرى كثيرة سنتعرض لها فى حينها، وإنما أود فى هذه العجالة أن أتعرض لمحفل «سلانيك» بالدراسة لما له من ارتباطات دولية غامضة، كما أنه كان أكبر محفل تخرج فيه أعضاء الاتحاد والترقى.

ويقبع محفل سلانيك فى ولاية سلانيك التركية وتتمتع هذه الولاية بمكانة استراتيجية، فهى تعد من الثغور التجارية المعروفة بتجارتها الواسعة وترتبط بالآستانة بخط سكة حديد وتغشاه سفن الشركات العثمانية والأوربية بالعديد من التجارات المتعددة، وقد بلغ عدد سكانها عام ١٩٠٩م ما يزيد عن ٣٤٠ ألف نسمة منهم ثمانون ألفا من اليهود ومائتا ألف من يهود الدونمة(٢). ومعنى ذلك أن اليهود كانوا يشكلون الأكثرية العظمى فى تلك الولاية وقد مكنهم غناهم من تمويل الحركات المعادية لحكم السلطان عبدالحميد، وتشير جريدة الفتح إلى تبعية الاتحاديين للمحافل الماسونية التى دعمتهم بالمال للوقوف ضد السلطان عبد الحميد: «إن مسيو ليون قره صو» مدير المصرف المعروف باسم ابن النائب اليهودى فى مجلس «المبعوثان» فى زمن الاتحاديين «لوفين قره صو» هو الذى مثل دوراً خطيراً فى السياسة العثمانية والذى تمكن من تقويض خلافة السلطان عبد الحميد، وعندما اشتدت الحال فى الروملى ورأى أركان جمعية الاتحاد والترقى أن موقفهم بات خطيراً لجأوا إلى «قره صو أفندى» الثرى اليهودى فساعدهم بأمواله وضمهم إلى المحافل الماسونية التى كانت قائمة فى ذلك الوقت.. فأخذوا يعقدون فيها اجتماعاتهم فى سرية تامة دون أن يتمكن السلطان عبد الحميد من الإطلاع على

(١) حسان على حلاق. موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية. مرجع سابق ص٢٨٧ .

(٢) موقف الدولة العثمانية. مرجع سابق ص٢٣٥ . وانظر أيضا إسماعيل سرهنك. حقائق الأخبار من دول البحار ج١ طبعة أولى القاهرة ١٨١٤ ص٤٤٦ .

أسرارهم ومقاومة تدابيرهم، وكان من جراء ذلك أن نجحوا فى مساعيهم وأعلنوا الانقلاب المزعوم»[١].

وتشير الوثائق أن السلطان عبد الحميد عندما أدرك خطر المحافل الماسونية فى بلاده أصدر فرمانًا عام ١٨٩٤م بإغلاق جميع المحافل الماسونية فأغلقت جميعها ما عدا محافل سلانيك لم يستطع إغلاقها وذلك لارتباطها الدولى مع قادة دول أوربا ومحافلها آنذاك. ومن أبرز الأنشطة التى قام بها ذلك المحفل ضد السلطان عبد الحميد:

أولا: ارتباط كل يهود الدونمة والماسونية فى سلانيك بالصهيونية العالمية التى باتت تخطط للتغلغل فى الأوساط الحاكمة على وجه الخصوص وكسب الطبقة الحاكمة العليا من حكام وقواد ووزراء وأصحاب نفوذ، ومن خطر تلك الحركة أن نشاط الدونمة كاد أن ينحصر فى الأوساط الحاكمة وليس فى الأوساط الجماهيرية[٢]. وقد أكدت مجلة الشرق فى عددها الصادر فى أغسطس عام ١٩١١م الارتباط العملى بين الماسونية واليهودية «. . .إن الماسونية تحولت إلى اليهودية أو بالأحرى أن اليهود تميسنوا لإدراك غايتهم الخبيثة»[٣].

ولسنا فى حاجة إلى إثبات نوعية العلاقة التى ربطت بين ماسون سلانيك والقوى الصهيونية العالمية بأدلة جديدة إلا أنه يمكننا القول باطمئنان أن الحركة الصهيونية استطاعت بتحالفها مع جماعة الاتحاد والترقى فى المحفل الماسونى قد تمكنت من بذل نشاط مضاعف لتحقيق المشروع الصهيونى الاستيطانى فى فلسطين، وهذا هو الهدف المباشر لهم وكان يهود الدونمة الأداة المنفذة لذلك المشروع.

---

(١) انظر أنور الجندى. الصحافة الإسلامية الجزء الخاص بجريدة الفتح ص١٩٣ .

(٢) عودة بطرس. عودة القضية الفلسطينية من واقع العرب ص١٤١ .

(٣) من مقال لويس شيخوا السر المصون فى شيعة الفرمسون، مجلة الشرق، بيروت، أغسطس١٩١١ نقلا عن كتاب موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ص٢٨٦.

ثانيًا: بذل ماسون سلانيك نشاطًا سياسيًا على الصعيد الأوربى ضد السلطان عبد الحميد الثانى الذى وحد بين هاتين القوتين بعدائه لهما فى آن واحد، والذى أصبح وجوده فى الحكم حجر عثرة فى طريق تحقيق أغراضهم، وبالفعل قد بدأ هذا النشاط. ويذكر أحد القادة الأتراك المعاصرين للسلطان عبد الحميد أن القرار رقم ٧٠ للجمعية الماسونية الفرنسية قد نص على تأسيس جمعية سرية باسم «جون ترك» قد باشرت نشاطها من سلانيك وقد ضمت اليهود الأكثر نفوذا فى أوربا... ويمكن القول أن فرق الاتحاد والترقى قد ولدت فعلا فى المحفل الماسونى المسمى «ماكدونيا ريزتورا» المؤسس من قبل «قرهصوه اليهودى السلانيكى»[١]. ولم يقتصر الأمر على ذلك بل قامت المحافل الأوربية ولاسيما الفرنسية والإيطالية بتأييد فرقة الاتحاد والترقى وتقديم العون المالى والسياسى لأفراد هذه الجماعة لتباشر نشاطها ضد السلطان عبد الحميد داخل تركيا وخارجها[٢].

ويؤكد المؤرخ الصهيونى «kallel» الدعم الأوربى لتلك الطائفة حيث يشير إلى أن أكثر أعضاء جمعية الاتحاد والترقى كانوا من الدونمة وممن عاشوا فى المنفى، وكان هؤلاء تلاميذ السياسة الأوربية والذين كانت تأتيهم المساعدات المالية من الرأسمالية العالمية من فينا وبودابست وبرلين ولندن وباريس[٣].

ويستطرد السلطان عبد الحميد فى مذكراته فيحدثنا عن الكوارث التى حلت بالدولة فى ذلك الوقت وعن المكائد التى كانت الدول الأوربية الكبرى تدبرها ضدهم بمعاونة يهود الدونمة والماسون طمعا فى الأسلاب التى تنتظرهم بعد انهيار دولة الإسلام فى تركيا: «وكما استغل الإنجليز غفلة أعضاء تركيا الفتاة عن طريق المحافل الماسونية بدأ الألمان يفعلون هذا مع الفريق الآخر منهم، وعن طريق المحافل الماسونية أيضا وبهذا الشكل سيطر الألمان على تشكيل تركيا الفتاة فى

---

(١) القائد التركى هو جواد رفعت إتلخان. انظر حسان على حلاق. موقف الدولة العثمانية مرجع سابق ص٢٨٦، ٢٨٧.

(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد. مرجع سابق. ص٦٠ .

(٣) موقف الدولة العثمانية. مرجع سابق ص٢٩٧، ٢٩٨.

سلانيك، وسيطر الإنجليز على تشكيل تركيا الفتاة فى مناستر»[١] من الحدود اليوغسلافية اليونانية الألبانية، وقد ضمت محفلاً ماسونيًا أرمنيا يعمل مع جماعة الاتحاد والترقى ضد السلطان عبد الحميد، وقد نشرت هذه الجمعية مبادئها بين الضباط والجنود، ومن أشهر أعضائها طلعت بك ومدحت بك[٢].

ويبدى السلطان عبد الحميد أسفه الشديد لما عرفه عن بعض المسلمين فى حكومته من قواد ووزراء كانوا على اتصال بالدولة الأجنبية للعمل ضده وضد أسرته «كنت أعلم أن السر عسكر عونى باشا قد أخذ من الإنجليز أموالاً، وإن رجلا من رجال الدولة يأخذ مالا من دولة أخرى لابد أن يكون قد قدم لهم خدمات. ويعنى هذا أيضًا أن خلع المرحوم عمى السلطان عبد العزيز وتولية السلطان مراد العرش بدله لم يكن حقدًا فقط من حسين عونى باشا ولكنه مرضاة لرغبة دولة أخرى أيضًا»[٣].

ويقول السلطان عبد الحميد الثانى عن مدحت باشا الصدر الأعظم وهو ماسونى من جماعة الاتحاد: «مدحت باشا أيضا مثل حسين عونى باشا، اتبع سياسة مؤيدة للإنجليز وكان دائما يفصح عن ثقته فى الإنجليز» ثم يعقب قائلا: «لم يهزنى شىء فى حياتى هزًا ضخمًا قدر شخص يرتفع إلى مقام قيادة الجيش أو إلى مقام الصدارة العظمى- رئاسة مجلس الوزراء - ويقبل نقودًا من دولة أجنبية»[٤] .

ثم يتحدث عن الدور الذى لعبه مدحت باشا لصالح إنجلترا، إذ أوهم السلطان أن الإنجليز والفرنسيين سيؤيدون تركيا فى حربها مع الروس ولكن السلطان عبد الحميد يقف على حقيقة كذبه من خلال رسالة «سالسيبورى» وزير خارجية إنجلترا آنذاك يعتذر فيها عن تقديم العون لهم إذا قبلت تركيا الحرب ضد روسيا.

---

(١) مناستر أو مناستير مدينة يوغسلافية.

(٢) انظر يوسف آصاف. تاريخ سلاطين آل عثمان. تحقيق بسام عبد الوهاب. دار البصائر دمشق. طبعة ثالثة ص ١٦٨ .

(٣) مذكرات السلطان عبد الحميد مرجع سابق. ص٦٩ .

(٤) المرجع السابق. ص٣٩ .

يقول السلطان عبد الحميد: «إنجلترا كانت دائبة على تسيير الفتن عن طريق الماسونية وكان مدحت باشا لم يكتف بإثارة ما أثاره من مشاكل، فهو من ناحية يريد خلق أزمة فى السراى ومن ناحية أخرى يريد الزج بالبلاد فى أتون الحرب. أعمال كهذه يمكن أن تؤدى معاذ الله إلى تقويض الدولة من أساسها، وكان الملك العثمانى يهتز من أساسه بناء على هذا كله»[١].

ويقول السلطان عبدالحميد: «كنت أرى أن الصدر الأعظم يؤيد الإنجليز ويتعاون معهم سواء بدافع من ماسونيته أو بدافع من أسباب أخرى خاصة جدا به، ولم أعد أحتمل فاستندت إلى صلاحياتى فى القانون الأساسى وعزلته -أى مدحت باشا- من الصدارة العظمى وأبعدته خارج الحدود[٢] .

ثالثًا: والنشاط الثالث الذى قام به يهود الدونمة عن طريق محافلهم الماسونية نشر الجاسوسية واستغلال ذوى النفوس الضعيفة من أبناء تركيا وغيرهم لتنفيذ أهدافهم ضد السلطان عبد الحميد. ولم تعدم الدونمة وسائلها فى هذا الصدد فقد نفذت إلى الوزارة التركية نفسها وإلى البيت العثمانى ذاته وهى تمتلك فى سبيل ذلك طابورًا خامسًا من الحانقين على السلطان عبد الحميد، ومن ثم انتشروا فى جميع بلدان العالم داخل تركيا وخارجها يدعمونهم بالمناصب العليا والأموال اللازمة لتحقيق تلك الأهداف.

ولما كان لاتساع ممالك الدولة العثمانية أثره الكبير فى انتشار الجاسوسية لصالح اليهود وحلفائهم من المستعمرين فقد دأب اليهود على وجه الخصوص على القيام بهذه المهمة إذ كانوا يحملون جنسيات أمريكية أو إيطالية أو روسية أو فرنسية وغير ذلك ثم يفدون إلى البلدان الإسلامية بشكل ممثلين دبلوماسيين أو مفاوضين أو فنيين أو ثقافيين أو مستشارين.

وكان أمثال هؤلاء ينتشرون فى السفارات والبعثات الأجنبية ويعملون على استكشاف أسرار البلاد وتسخير من يحدثونهم لخدمة أهدافهم، وتزكية نار الفتنة

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد. مرجع سابق. ص٤٠، ٤١ .

(٢) المرجع السابق. ص٤٣، ٤٤ .

والعداوة بين الطوائف ثم يلوذون بالسفارات الأجنبية يـحتمون بها. وخلاصة هذا العرض ليهود الـدونمة ونشاطهم ضد السلطان عبد الحمـيد توضح لنا كيف تمكنت تلك الجماعات من أن تتسلط وتهيمن على الدولـة العثمانية المسلمة تسلطًا شديدًا، وهيمنـة ضاغطة على مجـريات الأمور ومـقدراتها وإثـارتهم للمشاكل وتـدبيرهم المؤامرات التى انتهت بانقـلابهم العسكرى ضد ذلك السلطان ثم القيـام بعزله عام ١٩٠٩م وتولية الاتحاديين والكماليـين للحكومة التركية فى ظل سلاطين عـثمانيين ضعفاء كانوا ألعوبة فى أيديهم.

وفى ظل تلك الهيمنة قام الاتحاديون والكماليون بمؤامرتهم الكبرى التى خططوا لها تخطيطا محكما لإسقاط الخلافة العثـمانية نهائيًا من حياة المسلمين إذ تبين لهم أن التهجم على الخلافة مباشرة آنذاك قد يثـير عليهم غضبة المسلمين فى كل البلاد الإسلامية، لـذا فقد اتجهوا نحو إلغـاء الخلافة تدريجيا كمـا سنوضح فى الفصول التالية.



الفصل الثاني:

زعزعة أركان الدولة العثمانية

أولاً: إثارة الأقليات غير المسلمة

ثانيًا: سياسة التتريك وبعث القوميات والتعصب العرقي

أولاً: إثارة الأقليات غير المسلمة

إن إثارة فتنة الأرمن -إحدى الأقليات المسيحية فى تركيا- ضد السلطان عبد الحميد كان خطًا من خطوط المؤامرة على الخلافة العثمانية، وقد كان لمحفل «سلانيك الماسونى» دور بارز فى إثارة تلك الفتنة باعتبارها منطقة تكاثر فيها النفوذ الأجنبى، لذا كانت المركز الأساسى والأمين لنشاط يهود الدونمة السياسى والعسكرى، تدبر من خلالها المؤامرات ضد الخلافة العثمانية، وتشير المراجع إلى أن جماعة الاتحاد والترقى الناشئة قد أثارت الأقليات المسيحية ضد الدولة فى أكثر من حادثة ملفقة حتى تكون ذريعة لتدخل الدول الأوروبية ومضاعفة نشاطها ضد الدولة العثمانية؛ ومن ثم تطالب بحماية المسيحيين وإصلاح أحوالهم تمهيدا لفصلهم عن الحكم العثمانى.

والمتتبع لأحداث تلك الفتنة يقف على حقيقة أمرها ومراميها الخبيثة، ولا أدرى لماذا خفيت تلك المرامى على مؤرخ معاصر للسلطان عبد الحميد هو «يوسف آصاف» المولود عام «١٢٧٦هـ- ١٨٥٩م»، يقول: بعد انتهاء الحرب الروسية التركية والتى انتهت بانتصار الروس وعقد معاهدة «سان استفانو» عام ١٨٧٨م والتى استبدلت بمعاهدة برلين.. ولأن المادة ٦١ من معاهدة برلين أوجبت على الباب العالى السرعة فى إجراء التحسينات والإصلاحات التى تقتضيها حالة البلاد فى الولايات المأهولة من الأرمن لحمايتها من الجراكسة والأتراك، فانجلترا قامت تطالب السلطان بذلك فانحرفت سياسته عنها واتجهت نحو ألمانيا، وبقى الأرمن يتألمون من صنوف الظلم التى تقع عليهم، ولما لم يجدوا لهم مغيثًا أسسوا فى سنة ١٨٩٠م جمعية لتحريرهم، وكان رأس مالها ١٣٠٠٠٠ فرنك، فأحس بها أحرار العثمانيين[1] وتشاوروا معها خفية لإصلاح عموم الولايات العثمانية، لأن الظلم

(١) المقصود بهم جماعة الاتحاد والترقى الناشئة آنذاك من محفل سلانيك بزعامة مصطفى كمال أتاتورك، ويبدو أن المؤلف كان معجبًا به، وقد انطلى عليه زعاماته المزورة كما نفهم من باقى السياق.

والغدر شاملان للأرمن والأتراك، ولعموم المسلمين والمسيحيين، ويزيد المسلمون على غيرهم باحتمالهم أعباء الخدمة العسكرية التى تقعدهم عن زرع الأراضى والاتجار، ثم انتشرت فروع لهذه الجمعيات فى أوروبا، فشعر السلطان بذلك، وأوعز إلى المقربين منه ليبثوا روح العداء بين الأكراد والأرمن، فاشتعلت نار الفتن بينهم فى سنة ١٨٩٤م، وحدثت مذابح «ساسون» وسواها، وخربت ثلاثون قرية من قرى الأرمن عن آخرها، وذبحت النساء والأطفال ذبح الأغنام»[١].

وقد يتساءل المرء عن ذلك التوقيت الذى اندلعت فيه تلك الفتنة على وجه الخصوص عام ١٨٩٤م على الرغم من وجود فتن أخرى أثارتها يهود الدونمة[٢]، ولو رجعنا إلى الأحداث التى سبقت ذلك التاريخ بخمس سنوات على وجه التقريب، سنقف على خيوط المؤامرة ومدبريها.

---

(١) تاريخ سلاطين آل عثمان - الجزء الثانى، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابى - دار البصائر، دمشق، طبعة ثالثة ١٩٨٥م ص١٦٥، ١٦٦.

(٢) مثل حادثة سلانيك وموجزها أن فتاة بلغارية مسيحية اعتنقت الإسلام عن طواعية واقتناع، وأتت إلى سلانيك فى ٥ مايو سنة ١٨٧٦م لإشهار إسلامها شرعًا، فتعرض لها بعض الأروام فى الطريق حين توجهها إلى دار الحكومة واختطفوها من أيدى المحافظين عليها بالقوة، وأخفوها أولا فى قنصلية أمريكا، ثم نقلوها إلى أحد بيوت كبرائهم، ولما شاع الخبر بين المسلمين هاجوا وتجمعوا فى فسحة دار الحكومة مطالبين بتخليص البنت من أيدى مختطفيها، فوعدهم والى المدينة بذلك، ولما رأى المسلمون عدم تمكن الوالى من إظهار البنت، تجمعوا ثانية مطالبين بالإفراج عنها، وقد توافد إلى المسلمين المتجمعين كل من قنصلى فرنسا وألمانيا، وقد دخلا المسجد بطريقة غير لائقة، واستفزا المسلمين، ولما علم المسلمون أن البنت قد أخفاها قنصل ألمانيا اشتد هياجهم، وتعدوا على القنصلين بالقتل، الأمر الذى أزعج الدول الأوربية والتى أجمعت وقررت اتخاذ سبب للتدخل وحرروا لائحة إلى الباب العالى عرفت بلائحة برلين، وصدقت عليها كل من روسيا وفرنسا والنمسا وإيطاليا، ومفادها التشديد على السلطان العثمانى بتنفيذ ما جاء فى الفرمان السلطانى المؤرخ فى ١٢ ديسمبر سنة ١٨٧٥م وتعيين مجلس دولى لمراقبة تنفيذه وإجراء إصلاحات لتحسين أحوال المسيحيين، وأن تعطى الدول العثمانية هدنة قدرها شهران للوصول إلى اتفاق مرض مع الثائرين المسيحيين، وإن لم تتوصل إلى اتفاق فى خلال هذه المدة تكون الدول الموقعة على تلك اللائحة مضطرة إلى استعمال القوة لإجبار السلطان العثمانى على تنفيذ بنود هذه اللائحة، وقد رفض السلطان العثمانى قبول تلك اللائحة التى أبرزت مطامع تلك الدول فى تقسيم أملاكه، وأنهم اتخذوا من ذلك الحادث ذريعة للتوصل إلى مطامعهم -انظر محمد فريد بك المحامى- تاريخ الدولة العلية العثمانية تحقيق إحسان حقى، دار النقاش، بيروت، طبعة أولى ١٩٨١م ص٦٠٣، ٦٠٤.

وتفصح مذكرات السلطان عبد الحميد بوضوح عن أحداث السنوات الخمس التى مهدت لقيام تلك الفتنة على أيدى «بيير كيار» الذى وفد للتدريس فى المدارس الأرمنية عام ١٨٩٣م، ثم ترك البلاد بعد أن قضى فيها ثلاث أو أربع سنوات، وعلى ما يبدو أنه كان ماسونيًا كبيرًا، حيث أحرز نجاحًا كبيرًا فى تلقين الثورية والإيمان بها على الشباب الأرمنى، وقد أقر بذلك خطيبان أرمنيان عرفا بحماستيهما الخطابية فى إثارة شباب ملتهما، وكانا على صلة وثيقة ببيير كيار وهما «أهارونيان وجوبانيان» وقد عرف السلطان من خطبهما الحماسية فى كتاب «إلى ذكرى بيير كيار»[١] أطلق عليه « الحيوان الأحمر»[٢]، وقد شاع ذلك اللقب داخل تركيا وخارجها، على الرغم من أنه كان يجهل قائلها قبل إطلاعه على ذلك الكتاب، وأن ذلك الماسونى «أصبح من الواجبات المباركة للجامعة الأرمنية أن تذكر بالمنة والشكر اسم بيير كيار فى كل مسألة تطفئ كيان المجتمع الأرمنى وتريق دمه مثل مسألة صاسون[٣]، ومسألة زستون، ومسألة البنك - المصرف»[٤].

وتشير مذكرات السلطان عبد الحميد إلى أن رجال الأمن قد قبضوا على بيير كيار؛ لأنه كان يعمل لحساب الأرمن، وتدخلت فرنسا لدى السلطان حتى أفرج عنه وغادر تركيا إلى فرنسا، وأشاع الأخبار عن مذابح الأرمن، وتحرك فى عواصم أوروبا يثيرها ويحرك عواطف الأوروبيين للتدخل من أجل إيقاف مذابح المسلمين

(١) كتاب تسلمه السلطان عبد الحميد من أحد مرافقيه، وهو كتاب مؤلف بالفرنسية يهدف إلى مدح بيير كيار، وهجاء السلطان، ويضم مجموعة خطب لبعض الأدباء من الفرنسيين، ينظر مذكرات السلطان عبد الحميد ص٥١، ٥٢.

(٢) لقب الحيوان الأحمر يشير إلى حقد هؤلاء الأعداء على السلطان عبد الحميد، وكان من عاداته أن يتقلد وشاحا أحمر فى وسطه ماسة صفراء، ولذلك كان يلقب بالسلطان الأحمر، وليس كما يزعم هؤلاء الأعداء بأنه كان محبًا لسفك الدماء، حتى إن لقب السلطان الأحمر كان يغضبه، ويراه تهجما على شخصيته، كما كانت تصفه به صحف أوربا، فما بالك باللقب الأول الذى يدل على مدى كراهية قائله للسلطان.

(٣) صاسون، هى مذبحة ساسون التى أشار إليها يوسف آصاف سابقا إبان فتنة الأرمن عام ١٨٩٤م.

(٤) مذكرات السلطان عبد الحميد ص٥٢.

كما يدعى. وكان لخطب ذلك الرجل تأثيرها البالغ فى إثارة هذه الأقلية ودفعها لأعمال الشغب[١].

ولكن الحقيقة يكشف عنها السلطان عبد الحميد: «لم تكن المشكلة الأرمنية مشكلة الأرمن أنفسهم، وأستطيع القول -وأنا مرتاح القلب - إن الأرمن أفضل من يتبنون «العثمانية» وأفضل من يمثلونها. ولم تكن للأرمن منا شكوى قط، ولكن الروس لكى يصلوا إلى آمالهم فى بلغاريا ولكى يقطفوا من الإمبراطورية العثمانية قطعة جديدة لفوا الأرمن حول أصبعهم وأرسلوا جواسيسهم بصحبة قساوستهم ومعلميهم إلى الأرمن فألبوهم علينا، وانغمس هؤلاء فى المغامرة»[٢].

ونظرة فاحصة لموضوع تلك الفتنة تُوقفنا على المآرب الحقيقية التى من أجلها تدخل الروس وتبعها فى ذلك كل من انجلترا وفرنسا، فهم جميعا ليسوا حريصين على التدخل فى شئون الدولة العثمانية، كل يعمل لصالحه، فلو صح ادعاؤهم لكان استقلال الأرمن وبالا على روسيا، فكيف ينادون بقيام كيان أرمنى مستقل «أرمنستان» فى تركيا وفى داخل بلادهم أرمن يمكنهم أن ينادوا فى هذه الحالة بالانضمام إلى هؤلاء الأرمن المستقلين!.

وقد حاول السلطان عبد الحميد جهد طاقته أن يقف أمام نشاط الجمعيات الأرمنية التى شُكلت لمحاربته ولاسيما تلك التى أقيمت فى باريس، وكانت هى رأس الفتنة التى تدبر المؤامرات وتنفذها فى تركيا، فقد كان يعاملهم معاملة رحيمة، ويعمل على فض النزاعات بين الأرمن من أرثوذكس وكاثوليك، كما كان حريصا على أن يفض النزاعات بينهم وبين المسلمين حتى لا تتكرر لعبة الدول الكبرى فى بلغاريا والتى انتهت بحصولها على الاستقلال الذاتى، ولكن اشتدت وطأة كل من روسيا وفرنسا، وتدخلتا تدخلا مباشرا بحجة حماية المسيحيين، فكانت فرنسا تدعى حمايتها للكاثوليك، وكانت روسيا تدعى حمايتها

(١) المذكرات ص٥٣.

(٢) المرجع السابق ص٥٣، ٥٤.

للأرثوذكس، وبعد هذا التدخل المباشـر للدول الأوروبية إذا بنا نراهم يقولون: «إن الحياة بين هذين العنصرين مستحيلة، ولذلك لابد من الاستقلال الذاتى»[1].

وأخيرا يكشف السلـطان عبد الحميد بـنفسه عن خيوط المؤامـرة وأسلوب تنفيذ المذبحة الـتى تمت فى عام ١٨٩٤م والتى أشار إلـيها يوسف آصـاف، واتهم فيـها السلطان عبد الحمـيد بتدبيرها فى «ساسون» حيث تم تـنفيذ الخطة وذلك بأن يقوم الأرمن بإثارة المسلمين واستفزازهم للاعتداء عليهم، وقد تم ذلك على مرحلتين:

الأولى: قامت بها الجمعيات الثـورية الأرمنية ضد إخوانهم من الأرمن الشرفاء على حـد قول السلطان عـبد الحـميـد الذين رفضـوا الانصيـاع لمؤامرات روسـيا وقساوستها، إذ قام أعضاء تلك الجمعيات بمذابح عامة لكى تجبر هؤلاء الشرفاء من الأرمن على مسايرتهـم، وقد كانوا فى حيرة وفى خـوف سواء من الحكومة أو من الجمعيات الأرمنية حتى أجبروهم على إمداد تلك الجمعيات.

أما المرحلة الثانية: فكانت أن ارتدى جـماعات من الأرمن زى الأتراك وراحوا يقتلون مواطنيـهم الذين أحجموا عن مسـاعدتهم، ويقولون لهم «ألا ترون الأتراك وهم يقتلوننا، وأنتم الآن ما زلتم بعيدين عنا[2]».

هذه حادثة واحـدة وقعت بين المسـلمين والمسيـحيـين من الأرمن، ويمكن أن نقيس علـيها لنرى من خـلال تلك الأحداث المدبرة الوجـه الحقيـقى لمطامع الدول الكبرى فى تدخلها لحماية الرعايا المسيحيين، فليس هو إصلاح أحوالهم، وإنما هو محاولة للتدخل فى شئون الدولة العثمـانية وفرض هيمنتهم عليها، ومن ثم يكفينا فى هذا المقـام أن نتصـفح المادة رقم ٦١ من معـاهدة برلين عام ١٨٧٨م: «الـباب العـالى يتعـهد بأن يجـرى بدون تأخـير فى الولايات التـى يسكنها الأرمن سـائر الإصلاحات والتحسينات التى تحتاج إليها أمورها الداخلية، وأن يتعهد بتأمينهم من

(١) المذكرات ص٥٤.

(٢) المرجع السابق ص ٥٥.

تعدى الجراكسة والأكراد عليهم، ويفيد الدول الأجنبية المرة بعد المرة بالتشبثات التى اتخذها لهذه الغاية، وهى تراقب كيفية إجرائها»[1].

ثم يأتى البند ٦٢ ليذكر بيان ما يجب مراعاته فى حق باقى الطوائف غير الإسلامية، وقد فوض إلى قناصل تلك الدول ونوابها الحق فى حماية جميع الأقليات غير الإسلامية وحماية محلاتهم الدينية والخيرية ومراقبة ذلك مراقبة فعالة[2].

والدارس لموقف الخلافة العثمانية من الأقليات غير الإسلامية يقف بلا شك على مدى التسامح الدينى من قبل سلاطين تلك الدولة تجاه تلك الأقليات.

ويروى لنا شيخ الإسلام مصطفى صبرى الذى عاصر تلك الأحداث واقعة عاصرها بنفسه حينما كان نائبا عن «توقاد»، إذ قام نزاع بين الأروام والبلغار العثمانيين عن الكنائس الموجودة فى «مكدونيا» حينما كانت فى كنف الدولة العثمانية، وقد ادعى كل من الطائفتين استحقاقها لها، فأحالت الحكومة موضوع النزاع إلى مجلس النواب للفصل فيه، فقام «آد يستيدى باشا» الرومى نائب أزمير يعترض قائلا: «إن لهذه الدولة دارا للفتوى تفصل فى المسائل المعروضة عليها بموجب القوانين الشرعية فأحيلوا الأمر على رأى تلك الدار، ونحن الأروام راضون عما ستصدره من القرار»[3].

هذه شهادة أحدهم تبرز بحق عدالة تلك الدولة المفترى عليها تجاه الأقليات التى كانت تتمتع بكافة حقوق المواطنة فى كنف الإسلام، فهو يأمن حكم الشريعة التى ليس أمامها سوى الحق والفصل العادل فى قضيتهم، وبالإضافة إلى ذلك فإنهم

(١) تاريخ الدولة العلية العثمانية. مرجع سابق ص٦٩٦.
(٢) المرجع السابق.
(٣) «موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعبادة المرسلين»، للشيخ مصطفى صبرى ج٤ ص٣٤٠ نقلاً عن الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية. تحقيق الدكتور مصطفى حلمى، وعنوان الكتاب حسب وضع المؤلف: «النكير على منكرى النعمة من الدين والخلافة والنعمة»، دار الدعوة، الإسكندرية، طبعة أولى ١٩٨٥م ص٨٩.

وجدوا من العثمانيين تسامحا كبيرا، يشهد بذلك شغلهم لأغلب وظائف الدولة يقول السلطان عبد الحميد -فى معرض حديثه عن قلة عدد الموظفين الأتراك-: «كان القسم الأعظم فى يد الأقليات، وبالتدريج بدأ الشبان يتولون الأعمال ولاسيما فى وزارة الخارجية، ولكن كان فى هيئاتنا التمثيلية فى الدول الأوروبية موظفون من أصل رومى فى سفارتنا يفضل بعضهم خدمة اليونان وإعلاء مصالحها على الدولة العثمانية»(١).

فلا غرابة والأمر هكذا أن يتساءل ذلك السلطان بعد مرور ثمانية أعوام من عزله قائلا: «.. يا ترى، ما بال مواطنى الأرمن؟ هل هم أكثر سرورا فى حاضرهم؟ وهل هم أكثر أمنا على مستقبلهم؟»(٢).

يقول الأمير «شكيب أرسلان»: إن عشرات الملايين من المسيحيين كانوا يعيشون فى كنف الدولة الإسلامية وتحت رعايتها ينعمون بامتيازات كثيرة مدة عمل الأتراك بالشرع الإسلامى إبان الخلافة الإسلامية، وحينما تبدل نظام الحكم وأعلنت الجمهورية التركية إبطال العمل بالشريعة الإسلامية وأخذوا فى تقليد الغرب فى كل شيء، هاجر أغلب المسيحيين من الأناضول ولم يبق منهم إلا فئة قليلة تقدر بعدة آلاف. ويعلق على ذلك قائلا: «إن هذا برهان ساطع على سماحة الشرع الإسلامى، كان تساكن المسلم والمسيحى واليهودى فى ظله بالأمان والاطمئنان»(٣).

هذه إحدى القضايا الشائكة التى عجلت بسقوط الخلافة العثمانية، رتب لها يهود الدونمة ترتيبا دقيقا أقلقت السلطان عبد الحميد، إذ أصبحت تلك المسألة من المسائل التى شغلت الرأى العام العالمى آنذاك، وتناولتها الصحف الأوروبية بشكل دائم لتحريض الرأى العام ضده، وإثارة الشغب وإشعال الثورات بين الأقليات، والحقيقة أن السلطان عبد الحميد كان واعيا لتلك المسألة، ملما بأطرافها، مطلعا

(١) المذكرات ص٦٣.
(٢) المرجع السابق ص ٥٣.
(٣) حاضر العالم الإسلامى ج٣ ص٣٢٨.

على دور الدول الكبرى فيها، وهذا أمر لم يندهش له كثيرا بعد إدراكه اللعبة وإنما الذى كان يدهشه حقا كما يقول: «لم أكن أدهش لهيام الأرمن بحب الاستقلال، خاصة بعد معرفة إثارة الدول الكبرى لهم بلا توقف، لكنى أدهش لأن بعض أفراد تركيا الفتاة الذين هربوا إلى أوروبا وأصدروا هناك صحفا ضدى كانوا يتعاونون مع أعضاء المنظمات والجمعيات الأرمنية، كما أدهش لأنهم كانوا يأخذون منهم أموالا أيضا»(١) ويقول أيضا: «كانوا يقولون: إنهم يريدون إنقاذ الدولة ويتعاهدون معهم. هل قيام دولة أرمنية فى بطن الأناضول شاهد على إثبات وطنيتهم؟... إنهم لم يهدموا عبد الحميد، ها هم قد هدموا الدولة العثمانية!»(٢).

❀❀❀

(١) محمد الخير عبد القادر، نكبة الأمة العربية بسقوط الخلافة العثمانية، مكتبة وهبة، القاهرة ١٩٨٥م ، ص٦٢.

(٢) المذكرات ص٥٦.

ثانيًا: سياسة التتريك وبعث القوميات والتعصب العرقي

كانت سياسة التتريك وبعث القوميات فى الدولة العثمانية أحد الخطوط العريضة فى المؤامرة على إسقاط الخلافة، والتى لعب فيها الاتحاديون والكماليون ومصطفى كمال أتاتورك بالتعاون مع الدوائر العالمية والصهيونية العالمية دورًا بارزًا غير خفى، الأمر الذى يستوجب على دارس تلك القضية ألا يأخذها على علاتها، لأن آثارها ونتائجها مازالت متداخلة ومتماثلة فى أغلب قطاعات الحياة السياسية والاجتماعية فى البلدان العربية والإسلامية حتى اليوم.

وتدور فكرة هذه القضية على نقض نسيج الدولة العثمانية الموحدة، والفصل بين خيوط ذلك النسيج وتهلهله، حتى لا يقوى على التحامه ونسجه مرة أخرى وذلك بالضرب على أوتار القوميات القديمة التى أماتها الإسلام، وإحياء النعرات الطائفية، وإثارة الجنسيات المختلفة التى تعيش فى كنف الدولة العثمانية، ومن ثم تتمزق أوصال تلك الدولة التى ظلت دولة متماسكة زهاء خمسة قرون، يضم جميع جنسياتها نسيج ذو صبغة إسلامية غالبًا.

والعجيب أن يتبنى الاتحاديون ثم الكماليون تلك السياسة التى قضت على أقوى حصن من حصون الإسلام، وهو الخلافة والتى ضاعت بضياعها الدولة العثمانية، إذ انقسمت إلى أكثر من ثلاثين دولة[1]، تواجه كل منها مصيرًا محفوفًا بالمخاطر، والمطامع الاستعمارية حتى اليوم، فى حين أن العالم الأوربى الذى مزق أوصال وحدة تلك الدول بالأمس نراه اليوم قد حقق الوحدة الأوربية، وذلك بهدف تحقيق

(١) هى: (رومانيا، بلغاريا، اليونان، ألبانيا، يوغسلافيا، هنغاريا «المجر»، قبرص، تشيكوسلوفاكيا، مصر، الأردن، السعودية، جيبوتى، الصومال، ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب، موريتانيا، سوريا، لبنان، العراق، السودان، الكويت، الإمارات العربية، عمان، قطر، البحرين، اليمن الشمالى، اليمن الجنوبى، فلسطين) ولك أن تتصور أن جميع تلك الدول بنزعاتها القومية ودياناتها المتعددة وأجناسها المختلفة كانت تكون الدولة العثمانية وتأتلف فى نسيج إسلامى واحد.

التكتل السياسى والاقتصادى ليعود عليهم بالنفع من جهة ويكون لهذه الوحدة تأثيرها على القرار الدولى من جهة أخرى.

وإن كانت سياسة التتريك تلك التى روج لها الاتحاديون، ثم استعملها الكماليون فى هدم كيان الخلافة الإسلامية، قد بدأ تنفيذها الفعلى فى عهد هاتين الجماعتين، إلا إن بذور تلك السياسة وفكرتها قد ظهرت فى عهد السلطان عبد الحميد الثانى، على أيدى بعض المناوئين لحكمه، والحانقين على الخلافة الإسلامية، لذا يفضل أن يتناول البحث سياسة التتريك فى فترتين متعاقبتين:

تمثل الأولى فترة السلطان عبد الحميد الثانى. والأخرى: فترة الاتحاديين والكماليين لكى يقف القارئ على مبالغات الكماليين فى هذا الشأن:

١- سياسة التتريك فى عهد السلطان عبد الحميد:

شهدت الفترة التى قضاها السلطان عبد الحميد الثانى فى الحكم «١٨٧٨م-١٩٠٩م» ظاهرة قد فرضت وجودها على الصعيد الدولى وهى «بعث القوميات» فى أوربا، والتى بدأت تتسلل إلى المحيط الإسلامى «العربى والتركى» آنذاك، فإن سياج العزلة الذى فرضه سلاطين العثمانيين على ممالكهم قد أخذ يتهاوى فى أواخر القرن التاسع عشر إزاء تقدم المواصلات وانتشار التعليم، وقد وجدت بعض العوامل التى ساعدت على بزوغ تلك الظاهرة فى الدولة العثمانية - وإن لم يكن لها آثار ملموسة آنذاك - إذ ظلت الشعوب العربية تنظر إلى الخلافة العثمانية على أنها امتداد للتاريخ الإسلامى، وكان يعزز تلك النظرة آنذاك، اندماج جميع الأنشطة السياسية للعرب الخاضعين للخلافة الإسلامية فى الحركات العامة فى تلك الخلافة فى صراعها العلنى والسرى الذى شغل كل عصر السلطان عبد الحميد. فلا عجب أن تكون نظرة العرب للعثمانيين أنهم إخوة فى العقيدة، وحماة لدار الإسلام، وكانت حروب الدولة العثمانية فى نظر المسلمين - عربًا أم تركًا - جهادًا فى سبيل الله، وكان هذا هو الشعور السائد إلى نهاية القرن التاسع عشر وحتى بداية القرن العشرين لم يكن العرب يلقون بالا إلى الدولة العثمانية أنها تركية بقدر ما كان يهمهم أنها إسلامية[١].

(١) محمد الخير عبد القادر، نكبة الأمة العربية بسقوط الخلافة العثمانية، مكتبة وهبة، القاهرة ١٩٨٥م ، ص٦٢.

وقد بزغت فكرة القوميات مصاحبة لفكرة الإصلاح الداخلى التى انشغلت به الدولة خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر، إذ واجه السلطان عبد الحميد فى تلك الفترة مشاكل سياسية واقتصادية وعسكرية، أدت إلى تدهور مركز دولته المالية، ورهن مواردها وتسلط الدول الكبرى عليها، مما أدى إلى سقوط تونس تحت الحماية الفرنسية عام ١٨٨١م، واحتلال بريطانيا لمصر عام ١٨٨٢م. وقبل ذلك بقليل كانت الدولة العثمانية مشغولة بمسألة الإصلاح الدستورى والتى تمخضت عن إعلان دستور مدحت باشا فى ٣٢ ديسمبر عام ١٨٧٦م، وقد تطلع العرب إلى المشاركة فى الإصلاح، وإلى التمتع بقدر أكبر من الحرية فى إدارة شئونها الداخلية[١].

وقد اختلف الباحثون حول الهدف من إعلان ذلك الدستور، ولكن ما يمكن قوله: إن السلطان عبد الحميد قد قبل إعلان الدستور إرضاء مؤقتا للغرب، حيث تضمن ذلك الدستور المساواة بين العناصر الوطنية والأقليات فى دولته، وهذا ما كان دوما ينادى به الغرب عند كل فتنة، ولكنه رأى أن غاية الغربيين ليست إعلان المساواة، بل كانت غايتهم القضاء على السلطنة، وما مطالبتهم بالمساواة وغيرها إلا حيل لإنهاكها وتفريق شملها، لذا نراه يلغى ذلك الدستور فى ١٤ فبراير عام ١٨٧٨م، ثم يحل البرلمان الذى كان يضم ١٣٠ نائبا، منهم ١٣ نائبا يمثلون الأقاليم العربية، ولم يدع ذلك البرلمان للانعقاد إلا بعد ثلاثين عاما «١٩٠٨م»، وخلال تلك الفترة قبض السلطان عبد الحميد على الأمور بيد من حديد، مما جعل المؤرخين العرب يطلقون على تلك الفترة «الاستبداد الحميدى»[٢].

---

(١) المرجع السابق صـ٦٣.

(٢) يبرر السلطان عبد الحميد إلغاء الدستور بأنه كان غير كاف لمعالجة أدواء الأمة الإسلامية، وإنما وضعه مدحت باشا لخدمة مرامى انجلترا، ولم يكن لديه خبرة قانونية فى هذا المجال كما لم يكن لدى المطالبين بالقانون الأساسى أى توافق فكرى، فقد كانوا معارضين لبعضهم بعضا، كما أن الخواص من الدولة هم أكثر المؤيدين لإصدار الدستور بهذه السرعة دون دراسة متأنية جيدة.

أما عن قبول السلطان للدستور فقد أجبر عليه؛ لأن الأمة كانت منخدعة بمدحت باشا، حيث رأت أن فى دستوره الدواء الناجع لأمراضها: «كنت مجبرا فى البداية على تفضيل لائحة مدحت باشا على لوائح الآخرين، فقد كان من الضرورى أن نقدم لشعب مريض أفصح بأن اسم «مدحت» يساوى بحساب الجمل «دواء الأمة» أن نقدم له الدواء الذى طلبه، ويقول: «مدحت باشا لم ير غير فوائد الحكم المشروطى فى أوروبا، ولكنه لم يدرس أسباب هذه المشروطية، ولا تأثيراتها الأخرى، مثل أقراص «السلفات» لا تصلح لكل مرض أو لكل بنية. وأظن أن أصول المشروطية لا تصلح لكل شعب، ولكل بنية قوم. كنت أظن أنها غير مفيدة، أما الآن فإننى مقتنع بضررها». مذكرات السلطان عبد الحميد ص٢٩، ٣٠. =

وكان رأى السلطان عبد الحميد أن إصلاح الأمة ليس فى دستور مدحت باشا، وأن إنقاذ السلطنة لا يأتى إلا بالقوة، ولكن من أين له القوة، وهى تحتاج إلى المال وخزينته مفلسة؟ إذن اتجهت أنظاره إلى قوة معنوية أمضى من قوة المال ألا وهى قوة الإسلام، فاهتم بالدعوة إلى الجامعة الإسلامية، وإحياء الخلافة الإسلامية، وقد نجحت سياسته إلى أمد، واستطاع أن يحكم البلاد ثلاثا وثلاثين سنة، كانت السلطنة على ضعفها وإفلاسها والمؤامرات التى تحاك لها من الداخل والخارج محترمة المكانة، مرهوبة الجانب.

وفى ظل السياسة الجديدة التى ارتسمها السلطان عبد الحميد، قرب إليه رجالات من زعماء الإسلام أمثال جمال الدين الأفغانى، والشيخ أبو الهدى الرفاعى من حماه، وأحمد عز العابد من دمشق، والشيخ محمد ظافر من الجزائر، والشيخ سعيد من حمص، والشيخ أحمد أسعد القيصرلى من المدينة المنورة، والسيد فضل الله من مليبار، وبالإضافة إلى فريق من أشراف مكة على رأسهم: الحسين بن على، وعلى حيدر، وعبد الإله باشا، وصادق باشا وغيرهم[1].

وقد حاول السلطان عبد الحميد إذابة الجنسيات جميعا فى إطار سياسته الجديدة، حتى لا تطل فتنة القوميات برأسها فتفسد عليه سياسته، فنراه يقرب إليه رجالات من جميع الجنسيات: من العرب والأفغان والإيرانيين، وعينهم فى أكبر وظائف

= والحقيقة أن مدحت باشا كان معجبا إعجابا شديدا بانجلترا، وبالنظام الديمقراطى الإنجليزى، وكان يعتقد أن الدولة العثمانية يمكنها تفادى كل نقص ألم بها إذا طبقت النظام الإنجليزى، وكانت إنجلترا تؤيد مدحت باشا وتنصره، لذلك كان يرى أن تقليص نفوذ السلطان عبدالحميد وسلطة الأسرة العثمانية لا يتم إلا بإعلان القانون الأساسى، فأرسل أستاذه الفكرى - أوديان أفندى - إلى لندن وهو قانونى أرمنى لا يثق فيه السلطان عبد الحميد ، ليطلب من انجلترا تعهدها بكفالة القانون الأساسى وحمايته، وكان أوديان أفندى لم يستطع الحصول على هذه الحماية، لذا فإن مدحت باشا قد طلب من مؤتمر الآستانة الذى انعقد فى استانبول وحضرته الدول الأوروبية التصديق على القانون الأساسى العثمانى، والتدخل إذا ما ألغى. مذكرات السلطان عبد الحميد ص ١٣٦، ١٣٧.

(١) لقد فعل ذلك من قبيل تأليف القلوب، وقد أجرى عليهم الرواتب، ولكنه لم يكن مخدوعا بأحد، إذ أنزل كل واحد على قدره، وكان لا يأمن للشريف حسين، فحينما أصر الاتحاديون على تعيين الشريف حسين شريفا على مكة بدلا من الشريف على، قال لهم: إنى أبرأ من تبعة كل ما يستعمله هذا الرجل لأنى أعرف حقيقته. انظر تاريخ الدولة العلية - مرجع سابق ص٧٤٥.

الدولة، وفى حرسه الخاص، بل لجأ إلى تزويج أميرات من البيت العثمانى المالك من غير الأتراك، كما نراه لم يهمل الأقوام المسلمة الأخرى وبذلك تمكن السلطان عبد الحميد من جمع كلمة رعاياه فى دولته حول لواء الإسلام، وصهرهم جميعا فى إطار الدعوة إلى الجامعة الإسلامية.

ولكن بقدر ما نجح ذلك الرجل فى سياسته الإصلاحية تلك فى تدعيم أركان الدولة، بقدر ما لقى العنت من الدول الغربية التى تخشى أية تجمع إسلامى، لذا كان كل همها هو إزاحة السلطان عبد الحميد من السلطنة أولا، ثم القضاء على الخلافة الإسلامية ثانيًا.

يقول السلطان عبد الحميد فى مذكراته: «نعم لم تكن لدى الطاقة ولا القوة لمحاربة الدول الأوربية بمفردى، ولكن الدول الكبرى التى تحكم شعوبًا مسلمة عديدة فى آسيا مثل إنجلترا وروسيا، ترتعد من سلاح الخلافة الذى أحمله؛ لهذا السبب استطاعوا الاتفاق على إنهاء الدولة العثمانية، وكان لزاما علىَّ ألا استخدم هذا السلاح خارج حدودى حتى اليوم المنتظر؛ لأن محاولة كهذه لم تكن تفيد إخوتنا فى الدين ولا فى بلادى، وقررت استخدام قوتى كخليفة فى وحدة بلادى وأمنها، كما قررت العمل على سلامة إخوتنا فى الدين فى الخارج ضد كل احتمال[1].

(١) عهد السلطان عبد الحميد إلى كثير من العرب بأعلى المناصب فى الدولة، وكان منهم أحمد عزة باشا العابد الكاتب الثانى فى المابين وشفيق بك المؤيد الكورانى رئيس الشرطة، وعرب حقى باشا، وسليم بك ملحمة، ونجيب بك ملحمة، وسليمان البستانى، وكلهم قد بلغوا رتبة الوزارة وهم من سوريا ولبنان، وطالب باشا النقيب وأحمد باشا الزهير من أعضاء شورى البلاد، وهما عراقيان، وكان الفريق محمد باشا، والفريق محيى الدين باشا ولدا الأمير عبد القادر الجزائرى، وفؤاد باشا المصرى من مرافقى السلطان، وكان المشير أركان حرب شفيق باشا وأخوه الفريق وهيب باشا من أركان المدارس العسكرية والحكومية، وهما لبنانيان، وكان شكرى باشا الأيوبى الدمشقى ناظرا للأعمال العسكرية، وغيرهم كثيرون من العرب.

كما جمع حوله طائفة من الأكراد والأرناؤوط أمثال إسماعيل باشا الكردى، ودرويش باشا الألبانى، ومن دلائل جديته فى سياسته الإصلاحية أنه قام بتزويج الشريف على حيدر، وصالح بك خير الدين التونسى، وأحمد نامى شركسى الأصل من أميرات البيت المالك. ينظر تاريخ الدولة العلية، مرجع سابق ٧٤٥، ٧٤٦.

وعلى الرغم من وقوف الإنجليز ضد مشروع الخلافة الإسلامية فإن السلطان عبد الحميد قد بذل نشاطًا ملموسًا فى هذا الجانب، دون أن يثير شكوكهم، وقد تركز نشاطه بين مسلمى آسيا الوسطى البالغ عددهم المائة والخمسين مليونا من المسلمين تحت النفوذ البريطانى، وذلك لربطهم بالخلافة العثمانية.

يقول السلطان عبد الحميد: «كنت أرسل السادة الأشراف وشيوخ الطرق الصوفية والدراويش إلى مسلمى آسيا الوسطى، وكنت أعرض عناية خاصة بربط مسلمى آسيا معنويا بالخلافة»(١). وقد كان من رواد الدعوة الذين أعتمد عليهم السلطان عبد الحميد الشيخ سليمان أفندى البخارى، وهو من مسلمى روسيا الذى بذل دورا كبيرا فى ربط مسلمى الهند بالدولة العثمانية.

وهكذا سعى السلطان عبد الحميد لإحلال فكرة الجامعة الإسلامية محل الجامعة العربية التى كان ينادى بها مدحت باشا وأنصار التنظيمات الدستورية فى تركيا، وكان السلطان عبد الحميد يعتقد تماما أنه يمكن استخدام فكرة الجامعة الإسلامية كأداة تضمن التفاف العالم العربى بل والعالم الإسلامى حول الخلافة العثمانية، وبذلك تتأكد السيطرة الفعلية للدولة العثمانية على الأقاليم العربية فى الوقت الذى كانت فيه الدولة تفقد أقاليمها فى البلقان شيئًا فشيئًا.

هكذا كان السلطان عبد الحميد يهدف إلى تدعيم مركزه فى الدولة بغية أمرين:

الأول: إخماد أى حركة تغريبية تتستر وراء الإصلاحات الدستورية.

والثانى: مقاومة مطامع الدول الغربية والضغط عليها بمشروع الجامعة الإسلامية وقد نجح فى ذلك نجاحا عظيما، إذ تمكن من إيقاف مطامع تلك الدول إلى حين، وجعلها تعيد حساباتها إزاء التكتل الإسلامى الذى أوجده السلطان عبد الحميد، ولا عجب فى ذلك فإنه سيجمع بمشروع الجامعة الإسلامية الشعوب الإسلامية، سواء العربية وغير العربية بما فيها الشعوب الخاضعة للحماية البريطانية والفرنسية. وخاصة مسلمى الشمال الأفريقى الخاضعين لفرنسا، ومسلمى الهند الخاضعين لبريطانيا، والتتر الخاضعين لروسيا.

---

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد ص٦٧.

يقول السلطان عبد الحميد عن سياسته تلك: «ورأيت فى هذا فوائد جمة، ورأى الولاة العموميون «المندوبون السامون» الإنجليز فى الهند أن مسلمى الهند على رباط وثيق بالدولة العثمانية، فكتبوا إلى حكوماتهم بضرورة التعايش فى سلام مع العثمانيين، ولهذا سهل عملنا قليلا»[1].

وهكذا وفى ظل السياسة الإسلامية التى انتهجها السلطان عبد الحميد الثانى، اندمج العرب فى مشروع الجامعة الإسلامية وكذلك سائر الأقليات المسلمة، وصار الدين بديلا عن القوميات وفيه الغناء، وصار الجميع يتطلعون إلى حكم مثالى فى ظل الجامعة الإسلامية.

والملاحظة التى يجب أخذها بعين الاعتبار فى هذا الصدد: أن العرب فى ظل السياسة الإسلامية للسلطان عبد الحميد لم يفكروا فى الانفصال عن العثمانيين ولم تظهر ثمة بارقة من جانبهم يشتم منهم ريح التعصب القومى كما يدعى بعض المؤرخين، وإنما كان هدفهم الأسمى هو إصلاح حال الدولة العثمانية وليس تحطيمها أو الانسلاخ عنها، وإنما انصب أغلب نشاطهم لإدخال الإصلاحات السياسة والاقتصادية التى تمكنهم من التقدم والنهوض والوقوف بصلابة فى وجه أطماع الغرب.

ولعل استعراضا سريعا لاتجاهات زعماء الإصلاح من العرب والمسلمين آنذاك، يبين لنا مدى إخلاص هؤلاء الزعماء للدولة العثمانية، وإن كان هناك نوع من اليقظة العربية -كما يسميها البعض- فإنها كانت يقظة ضد مساوئ الحكم العثمانى وطغيان الولاة، ولم تكن يقظة ذات أهداف عنصرية قومية تدعو لانفصال العرب عن الأتراك، ويجدر بنا فى هذا الموضع أن نقف قليلا لنتبين طبيعة ما كان يدعو إليه هؤلاء المصلحون.

- حقيقة الأفغانى والجامعة الإسلامية:

يعد الأفغانى الرائد الأول من رواد الإصلاح الذى نادى بوجوب تحرير الوطن الإسلامى من الاحتلال الأجنبى، إذ يرجع إليه الفضل فى تأسيس حركة إسلامية

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد ص٦٨.

مناوئة للاستعمار الغربى وهو الداعى إلى فكرة الجامعة الإسلامية بهدف توحيد العالم الإسلامى، وإصلاح أوضاعه السياسية والاجتماعية، وبث الوعى الدينى الصحيح بين أبنائه استعدادًا لتحرير دار الإسلام من الغزو الأجنبى الذى لا يقتصر على الغزو العسكرى، فقد كان بالإضافة إلى ذلك غزوًا سياسيًا وفكريًا فى آن واحد.

وإن كانت شخصية جمال الدين الأفغانى تحيط بها بعض الغموض -على الرغم من كثرة ما كتب حولها- فإننا لا يمكن حسم هذه القضية فى دراسة عاجلة كهذه، ولكن الأمر يحتاج إلى دراسة متخصصة أكثر عمقًا وأكثر تأنيًا، إلا أننا قد وقعنا على كتاب مؤلف بالفارسية، قد كتبه ابن أخت جمال الدين الأفغانى[1] «ميرزا لطف الله خان الأسدبادى» بعنوان «حقيقة جمال الدين الأفغانى»، وسوف نكشف بعض الجوانب فى شخصية ذلك الرجل وفى طبيعة حركته الإصلاحية.

عاش الأفغانى فى عصر ملئ بالدسائس، سواء من العملاء داخل البلاد أو خارجها، إذ وقف بعضهم ضد حركته الإصلاحية تلك، وشنت صحف الاستعمار الغربى حملة شعواء، هذا بالإضافة إلى ما لاقاه من حقد وضغينة من علماء عصره الذين استبد بهم الركود والتقليد الأعمى، فاتهموه بأنه شيعى، وليس من أصل أفغانى سنى على حد قول أبى الهدى الصيادى[2]، الذى انقلب عليه فى أخريات أيامه، وهذه مسألة فى غاية الأهمية؛ لأنه لو سلمنا بصحة هذا الادعاء، فكيف إذن تمكن من نشر أفكاره ومبادئه بين جموع السنيين ممن كانوا لا يتقبلون هذه الآراء من داعية شيعى؟ ولكن من الملاحظ أن أفكاره وآراءه قد وجدت صدى طيبا وأثمرت فى نفوس المسلمين، ولاسيما أهل السنة فبم نعلل ذلك؟

---

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد ص ٦٨.

(٢) قام بترجمته وقدم له الدكتور عبد المنعم حسين. دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة، ١٩٧٦م ويعد هذا الكتاب من أفضل الكتب التى تلقى ضوءًا حقيقيًا على شخصية جمال الدين الأفغانى، والتى قد تريح الباحثين من جراء الغموض الذى يعانونه فى حياة ذلك الرجل.

ولإزالة هذا الغموض حـول أصل الأفغاني، يمكن القول باطمـئنان أنه كان من أصل إيراني، ومن بلدة «أسد أباد» بالقرب من هـمدان، وأنه كان شيعيـا جعفري المذهب[1]. هذه هي حقيقة ذلك المصلح الكبيـر، تفصح بها رسائله التي نشرت، وكتاب ابـن أخته لطف الله الذي ألفه عن خـاله -وقد سبق أن ذكرنا ذلك- كـما يوجد بمدينة «أسد آباد» مسقط رأسه «المدرسة الجمالية» التي سميت باسمه وما زال أفراد أسرته يعيـشون فيه[2]، وأن اسم أبيه صفدر، وهو اسم شـيعي صرف بمعنى «ممزق الصفـوف» أي البطل الشجـاع وهو اسم أسنده الشيعـة لعلي بن أبي طالب لشجاعته، كما وأن هذا الاسم لا يوجد مطلقا في أفغانستان.

ومن الدلائل الأخرى التي تثبت تشيع جـمال الدين الأفغاني: نشأته، وأسلوب تحصيله للعلوم الشيعية، حيث التحق بمدرسة قزوين ثم رحل منها عام ١٨٥١م إلى طهران يدرس المذهب الشيعي على يد «آقاسيد صادق» ثم رحل إلى العراق ليدرس في النجف مركز الـدراسات الشيعيـة آنذاك، وتتلمذ فيها على يـد الشيخ مرتضى الأنصاري أحد كبار علماء الشيعـة المعروفين، وقد تفوق في فن الجدل والاستدلال والقـدرة على البـحث والنقاش، كـمـا توسع في دراسة المـنطق وعلم الكلام إلى جانب دراسة الفقه وعلم الأصول.

كمـا أن اشتـراك جمال الدين في تـوجيه الأحـداث في إيران آنذاك دليل على تشيعه وإيرانيـته، إذ ثبت اشتراكه في تدبير مؤامـرة للتخلص من ناصر الدين شاه ملك إيران المعاصر لـه، إذ كان يعتقد أنه يمـثل عقبة تحول بيـنه وبين نجاح دعوته الإصلاحية، وكان قتل ناصر الدين سببا في افتضاح أمره وكشف حقيقته أنه إيراني

---

(١) أبو الهدى الصيادي كان من أقرب المقربين إلى السلطان عـبد الحميد، وهو الذي توسط لدى جمال الدين عن طريق منيف باشا، حامي الأفغـاني القديم، وعبد الحق حامد، حتى جاء جـمال الدين إلى استانبول ولم يسمح له السلطان بالخروج منهـا، وأبو الهدى الصيادي هذا الذي كان يثق فيه السلطان عـبد الحميد قد دبر محادثات سرية مع بريطانيا ضد السلطـان نفسه، وهذا يدل على أن اتهام أبي الهدى لجمال الدين الأفغاني ربما يكون من قبيل تشويه سمعة الرجل، انظر المذكرات ص٦٧، ٦٩.

(٢) المذهب الجعفري هو المذهب الرسمي في إيران منـذ بداية العصر الصفوي ٩٠٧هـ، ولا يزال هذا المذهب هو الرسمي في إيران إلى يومنا هذا.



شيعى، مما جعل السلطان عبد الحميد يتخلص منه فى النهاية؛ لأن خصوم جمال الدين حينما أرادوا الكيد له لم يجدوا شيئا يتهمونه به سوى أنه إيرانى شيعى، يكذب ويدعى أنه أفغانى سنى حتى يجد له طريقًا فى تركيا والأقطار السنية الأخرى، وهذا ما فعله أعداء جمال الدين فى إسلامبول، وكان على رأسهم شيخ الإسلام أبو الهدى الصيادى الذى سبق ذكره، إذ قدموا وثيقة للسلطان تثبت أن جمال الدين إيرانى شيعى، وقد تمكنوا من خلالها من تغيير رأى السلطان عبد الحميد خليفة المسلمين السنيين فى حياة جمال الدين، وهذه هى أحد الأسباب التى باعدت بين السلطان عبد الحميد وجمال الدين الداعية للجامعة الإسلامية[١].

وقد تحقق السلطان عبد الحميد بنفسه من هذه الحقيقة التى اطلع عليها بوسيلتين:

الأولى: اعتراف من أحد كبار المسئولين الأفغان بأن جمال الدين شيعى، إذ قام ذلك الرجل بزيارة البلدة التى ولد فيها، والتقى بأفراد أسرته.

والثانية: وصول عريضة من أهل «أسد آباد» بهمدان تثبت أن جمال الدين من بلدتهم وأنه شيعى، وقد وصلت هذه العريضة للسلطان عبد الحميد بواسطة السفارة الإيرانية فى إسلامبول، وحينما استدعى السلطان جمال الدين للاستفسار عن صحة ما جاء فى العريضة لم يستطع أن ينكر أنه إيرانى الأصل شيعى المذهب فتغير رأى السلطان فيه[٢].

وقد يتساءل المرء كيف تمكن جمال الدين من إخفاء أصله، وما الدافع الذى دفعه إلى ذلك؟ والحقيقة أن الإجابة عن هذا السؤال واضحة، فقد أدرك جمال الدين بذكائه أن انتسابه إلى بلاد الأفغان السنية المذهب قد يسر له مهمته

(١) انظر كتاب «حقيقة جمال الدين الأفغانى»، ميرزا لطف الله خان تعريب عبد المنعم حسين ص٥، ٦، ١٢.

(٢) ينظر حقيقة جمال الدين الأفغانى فى كتاب ابن أخته لطف الله خان «حقيقة جمال الدين الأفغانى» سبق ذكره ص٥ - ٣٠ وكذلك الصفحات ٣٨، ٤٢، ٤٥.

الإصلاحية فى العالم الإسلامى، المتمذهب سنيًا، وبخاصة تركيا ومصر، وبذلك يبدو أمام الأنظار فى صورة العالم السنى، وهذا بلا شك يسهل عليه دخول الأقطار السنية والتفاف المسلمين حوله؛ لهذا كان انتساب جمال الدين إلى بلاد الأفغان أمرًا يتعلق بدعوته الإصلاحية، إذ أنه خشى أن لو عرف المسلمون حقيقة أصله ومذهبه لانصرفوا عنه، ووضعت العراقيل أمام دعوته.

والرجل لم يكذب فى تسميته بالأفغانى، فقد ثبت من تاريخ نشأته أنه رحل إلى بلاد الأفغان فى بداية تجواله، وأقام فيها بضع سنوات، ألف أثناءها كتابا سماه «تاريخ الأفغان»، ولقبه الأفغانيون بسبب إقامته بينهم بالأفغانى، الأمر الذى أحنق عليه ملك إيران «ناصر الدين شاه»، ومن هنا فضل التشبث بذلك اللقب والحرص على الانتساب إليه[1].

وبالفعل فقد استفاد الرجل من ذلك اللقب، مما سهل عليه أمر دعوته الإصلاحية فقد كانت أفغانستان بلدًا سنيًا، وقد تشابهت لغتها مع لغة إيران فكلاهما ينطقان بالفارسية، كما كان المذهب الرسمى لأفغانستان هو المذهب الحنفى[2] الذى هو نفسه مذهب تركيا الرسمى آنذاك -دولة الخلافة العثمانية-.

(١) المرجع السابق ص٢٠ يرى المحقق أن تلك العريضة كانت انتقاما من مظهر الدين بن شاه «ناصر الدين» الذى دبر جمال الدين مؤامرة قتله، إذ لم يجد الابن سوى الغمز لدى السلطان عبد الحميد بأن جمال الدين الأفغانى إيرانى شيعى، نفس الصفحة ونفس المرجع.

(٢) يشير الإمام محمد عبده فى مقدمة رسالة فى إبطال مذهب الدهريين، بيروت ١٣٠٢هـ ص٩ بأن مذهب جمال الدين كان حنفيًا، وعلى ما يبدو أنه لم يقف على حقيقة جمال الدين بعد، فقد كان من تلاميذه الأبرار، والمتأثرين بفكره، يقول: «أما مذهب الرجل فحنيفى حنفى، وهو لم يكن فى عقيدته مقلدا، ولكنه لم يفارق السنة الصحيحة مع ميل إلى مذهب السادة الصوفية، وله مثابرة شديدة على أداء الفرائض فى مذهبه، أما قصده السياسى الذى وجه إليه أفكاره وأخذ على نفسه السعى إليه مدة حياته، وكل ما أصابه من البلاء أصابه فى سبيله، فهو إنهاض الدولة الإسلامية من ضعفها، وتنبيهها للقيام على شئونها، فيعود للإسلام شأنه وللدين الحنفى مجده، ويدخل فى ذلك تنكيس دولة بريطانيا فى الأقطار المشرقية، وتقليص ظلها عن رءوس الطوائف الإسلامية، وله فى عداوة الإنجليز شئون يطول بيانها. أما منزلته من العلم وغزارة المعارف فليس يحدها قلمى إلا بنوع من الإشارة إليها، كل موضوع يلقى إليه يدخل للبحث فيه كأنه صنع يديه فيأتى على أطرافه ويحيط بجميع أكنافه».

ومن الأمور التى ينبغى الإشارة إليها فى هذا الصدد والتى سوف تكشف عن سر آخر قد يبدو غامضا، وهو سر اتصاله بالإنجليز، والذى أحدث قتامة على نوايا الرجل عند بعض الباحثين، فقد لوحظ أن جمال الدين كان يتمتع برعاية ممثلى انجلترا، والسبب فى ذلك أن انجلترا كانت لها نفوذ كبير فى أفغانستان، وكانت ترعى مصالحها وأتباعها فى الخارج، مما وفر الحماية لجمال الدين، ويسر له مهمة السفر إلى الأقطار الإسلامية السنية، كما حمته من ممثلى إيران وقناصلها فى الخارج الذين أخذوا يطاردونه بعد مقتل «ناصر الدين» ملك إيران[١].

وهكذا تمكن جمال الدين بانتسابه إلى الأفغان، وحمل لقب الأفغانى من أن يختفى بمهارة فائقة وراء ذلك اللقب لبث دعوته الإصلاحية والتى وجدت من جميع مسلمى السنية آذانا مصغية حتى السلطان عبد الحميد ذاته الذى كان يصفه بقوله: «إنه عالم مشهور فى قصر يلدز»[٢]، ويقول الدكتور محمد حرب عبد الحميد محقق مذكرات السلطان عبد الحميد: «إنه وجد فى مكتبة السلطان عبد الحميد خلاصات للإطلاع، قام بها جمال الدين الأفغانى ولخصها، وقدمها للسلطان عبد الحميد، مما يقوى مكانة ذلك الرجل عند السلطان».

والحقيقة التى ينبغى ألا تغيب عنا فى هذا المقام أن السلطان عبد الحميد كان جادا فى البحث عن صيغة لتوحيد جبهة المسلمين لا فى الدولة العثمانية فقط، بل أن تمتد جبهة المسلمين الموحدة إلى كل مسلمى آسيا بمن فى ذلك مسلمو آسيا الوسطى، وكان يرى ضرورة العمل على تدعيم أواصر الأخوة الإسلامية بين كل مسلمى العالم فى الصين والهند وأواسط إفريقية، وحتى مع إيران الشيعية، وفى ذلك يقول: «عدم وجود تفاهم مع إيران أمر جدير بالتأسف عليه، وإذا أردنا أن نفوت الفرصة على الإنجليز وعلى الروس فإننا نرى فائدة فى وجود تقارب إسلامى فى هذا الأمر»[٣].

(١) حقيقة جمال الدين الأفغانى، مرجع سابق ص١٢، ١٣. .

(٢) حقيقة جمال الدين الأفغانى، مرجع سابق ص١٨.

(٣) مذكرات السلطان عبد الحميد ص٨. قصر يلدز هو مقر سلطة السلطان عبد الحميد.

ولعل تلك الرغبة التى ملكت على السلطان مشاعره كانت هى السبب فى استدعاء السلطان لجمال الدين الأفغانى من لندن، وفى أحد اجتماعاتهما الخاصة خاطب السلطان جمال الدين بقوله: «إنى ملتمس من حضرتك أن تبذل غاية الجهد حتى نستطيع بتوحيد آرائنا ومساعدة حضرتكم أن ننشئ ونؤسس اتحادا واتفاقا قويا ثابت الأركان، لا يقبل الخلل بين الشعوب الإسلامية، حتى يمكن بفضل الله لتلك الوحدة أن تمد شعوب الجامعة الإسلامية يد المودة والإخاء بعضها إلى بعض، وتنهض بالصناعة والعلوم فى ظل الاستقلال القومى والاتحاد الإسلامى، ولكى يحصل لها التوفيق بعون الله تعالى لاسترجاع تلك القوة العظيمة السابقة، ولا تتأخر عن ركب السعادة والرقى»[١].

وعلى ما يبدو أن السلطان عبد الحميد الذى أبدى أسفه سابقا لعدم وجود تفاهم مع إيران، فإن جمال الدين الأفغانى قد غير من تلك النظرة، وأعطاه أملا منشودا فى إمكانية وجود ذلك التفاهم، حيث اقتنع بإمكان توحيد الشيعة مع أهل السنة فى مواجهة قوى الغرب فى حالة إذا ما أظهر الشيعة تجاوبا فى ذلك الأمر، ومن هنا علق السلطان عبد الحميد آمالا كبيرة على كلام جمال الدين. وعلى ما يبدو أيضا أن الأخير قام بإقناع بعض كبار الموظفين فى إيران وبعض علمائها بفكرته تلك، وصدر وعد من قنصل إيران فى استانبول يبذل كافة ما فى وسعه لإنجاح هذه المحاولة[٢]، وكان السلطان عبد الحميد خلال تلك الفترة راضيا كل الرضا عن جمال الدين.

ولكن بعد مرور فترة ليست بطويلة، إذا بهذه العلاقة الطيبة تنقلب رأسًا على عقب، وتتعثر خطوات مشروع الجامعة الإسلامية الذى تبناه جمال الدين، وسوف نفهم أسباب تلك الجفوة من خلال حديث السلطان عبد الحميد نفسه، يقول فى مذكراته: «وقعت فى يدى خطة أعدها فى وزارة الخارجية الإنجليزية كل من مهرج اسمه «جمال الدين الأفغانى» وإنجليزى يدعى «بلند» قالا فيها بإقصاء الخلافة عن

---

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد ص٧.

(٢) حقيقة جمال الدين الأفغانى. مرجع سابق ص٧٩.

الأتراك، واقترحا على الإنجليز إعلان الشريف حسين أمير مكة خليفة على المسلمين . . . كنت أعرف جمال الدين الأفغانى هذا عن قرب . . كان فى مصر، وكان رجلا خطرا . . اقترح على ذات مرة - وهو يدعى المهدية - أن يثير جميع مسلمى آسيا الوسطى، وكنت أعرف أنه غير قادر على هذا، وكان رجل الإنجليز، ومن المحتمل جدا أن يكون الإنجليز قد أعدوا هذا الرجل لاختبارى . . رفضت فورا، فاتحد مع بلند»(١) .

أسباب فشل مشروع الجامعة الإسلامية:

ولعلنا من خلال قول السلطان عبد الحميد السابق يمكننا أن نقف على الأسباب التى باعدت بين الرجلين وأدت إلى تعثر مشروع الجامعة الإسلامية، وسوف نوضح ذلك من خلال النقاط التالية:

أ- مخاوف السلطان عبد الحميد من مشروع جمال الدين الوحدوى:

يذكر لطف الله خان ابن أخت جمال الدين أنه قد دارت جلسات خاصة بين السلطان عبد الحميد وجمال الدين بشأن مشروع الجامعة الإسلامية، وكانت خطة جمال الدين تقوم على مقترحات أربعة هى:

- أن تكون جميع المراسلات والمخابرات الدولية والرسمية مباشرة مع السلطان عبد الحميد ووزرائه وسفرائه ورجال حاشيته بالطريقة التى يختارها سواء أكانت مع ناصر الدين شاه، أم مع خديو مصر، أم مع سلطان مراكش، أم مع سائر الأمراء.

- أن يتعهد جمال الدين بالشطر الأكثر أهمية، وهو المختص بعامة الناس من الشعوب الإسلامية بأن يقوم بمكاتبة علماء المسلمين وزعمائهم، سواء أكانوا من أهل الشيعة، أم من أهل السنة، أم من غيرهم. وأن يبسط القضية لكافة رؤساء الأمة الإسلامية وقوادها بحيث تحظى بموافقتهم وتأييدهم.

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد ص٩.

والحقيقة أن جمال الدين قد نجح فى تنفيذ هذين المقترحين نجاحا باهرا على الصعيدين الرسمى والشعبى، حيث منحه السلطان حرية التصرف، ومن ثم قام هو ورفاقه من الإيرانيين الشيعيين على وجه الخصوص[1] بتحرير ما يقرب من خمسمائة رسالة بألسنة مختلفة من فارسية وعربية وهندية وتركية، وأرسلوها إلى العتبات المقدسة فى العراق وإيران والهند ومصر والجزائر وطرابلس وبلاد الشام والحجاز وسائر الأقاليم الإسلامية، كما عزم جمال الدين على إيفاد ستة أشخاص من رفاقه وأتباعه الذين يتكلمون اللغات الشرقية إلى الأقطار المعنية بالأمر لبث الدعوة.

وبالفعل فقد وصلت ردود طيبة على كل تلك الرسائل من كل الطبقات فى المجتمع الإسلامى من العلماء وغيرهم، بل أرسل بعضهم هدايا وتحفًا تاريخية مصحوبة برسائلهم إلى السلطان عبد الحميد، وقد ترجمت تلك الرسائل إلى اللغة التركية، وحملت إلى السلطان فقرأها وسر منها غاية السرور، وقام محييًا جمال الدين عدة مرات وهنأه على ما حصل من توفيق على يديه، واستولت عليه الحيرة والعجب من نفوذ كلمة جمال الدين ونفاذ أمره فى هذا المجال الخطير[2].

- أما المقترح الثالث وهو مقترح خاص بدولة إيران الشيعية، ويبدو أن الدافع إليه كان بهدف التقرب من الشيعة[3] وضمهم إلى مشروع الجامعة الإسلامية.

(١) المرجع السابق ص٦٧.

(٢) يقول لطف الله خان: «وبعد أن تم الاتفاق بين السيد والسلطان، أفضى السيد بهذا الحديث إلى خواص رفاقه وأتباعه الذين كانوا جميعا من فحول الأدباء والعلماء، ومشاهير الأحرار من الشيعة، وكان منهم فيضى أفندى العالم الإيرانى، ورضا باشا الشيعى، والسيد برهان الدين البلخى، والشيخ الرئيس أبو الحسن ميرزا، ونواب حسين الهندى، والشيخ أحمد روحى، والميرزا آقا خان الكرمانى خبير الملك، وعبد الكريم بك، وحمدى بك، والجواهر زادت الأصفهانى، والشيخ محمود أفضل الملك روحى، ونفر من الأحرار من مريديه فى زمرة من حضروا هذا المجلس». ينظر كتاب حقيقة جمال الدين الأفغانى سابق الذكر ص٨٢.

(٣) حقيقة جمال الدين، ص٨٣. وقد سبق أن ذكرنا أن الدكتور محمد حرب مترجم مذكرات السلطان، قد وجد فى مكتبة السلطان عبد الحميد خلاصات للإطلاع، قام بها جمال الدين الأفغانى، ولخصها مترجمة إلى التركية، وقدمها للسلطان عبد الحميد، كما أن السلطان قد ذكر فى مذكراته: «كنت أعرف جمال الدين عن قرب، كان فى مصر وكان رجلا خطرا، اقترح على ذات مرة أن يثير جميع مسلمى آسيا الوسطى».

ولحسم الخلاف الدائر آنذاك بينهم وبين أهل السنة اقترح جمال الدين على السلطان عبد الحميد بأن يتعهد بنزع العتبات المقدسة وجزء آخر من بلاد النهرين «العراق»(١) مما له صلة بالمشاهد المشرفة التى تزورها الشيعة ويضمها السلطان عبد الحميد إلى إيران إزاء ما تبذله حكومة وشعبًا فى تأييد الوحدة الإسلامية.

- كما اقترح جمال الدين أن تنتخب حكومة من كل بلد إسلامى ممثلا لها، ويختار كل شعب إسلامى شخصًا من أكبر علمائه ليجتمعوا فى الآستانة فى مؤتمر عالٍ باسم «المؤتمر الإسلامى الأعلى»، وأن يكون له الرأى القاطع فى حل المسائل والقضايا المهمة الخاصة بكل قطر، وأن تعرف كل دولة إسلامية أنها مكلفة باحترام وإقرار ما يشير به هذا المؤتمر أو يدعو إليه.

يقول لطف الله خان: ثم تبين بعد ذلك أن غاية السلطان عبد الحميد هى أن يفرض نفسه زعيما لهذا المؤتمر، وأن يقرن الخلافة العامة بالخلافة الخاصة فى آن واحد، وكانت هذه المسألة إحدى المسائل التى ولَّدت الخلاف بعد ذلك بين السيد جمال الدين والسلطان عبد الحميد.

وكانت خطة جمال الدين فى اقتراحه الأخير تتضمن تحويل الإمبراطورية العثمانية إلى مملكة الممالك، وذلك بتنظيمها على أساس لا مركزى، وقد حاول إقناع السلطان بذلك وذكر مثالا بمصر وتقدمها بعد تحويلها إلى خديوية يتمتع حاكمها بسلطات واسعة، ورأى جمال الدين أن مثل ذلك الخديو سيكون أفضل للأقاليم ولتركيا من حكام ترسلهم إلى الآستانة، ولذلك طلب من السلطان عبد الحميد تحويل الولايات إلى خديويات، وقال: إن هذه الوحدة إلى جانب الخوف من الاحتلال الأجنبى ستدفع إيران وأفغانستان والإمارات السياسية فى الهند إلى الانضمام إلى المملكة العثمانية فى شكلها الجديد، وبذلك يصبح السلطان -فى نظر

---

(١) يذكر لطف الله خان أن من الأمور التى تم القول فى شأنها مع السلطان عبد الحميد، أن الدولة الإيرانية تفوق مصر والأفغان ومراكش وغيرها، وذلك نظرا لتمتعها بالاستقلال التام الناجز، فضلا عن أن الخلاف بين السنة والشيعة يرجع القسم الأعظم منه إلى أن إيران دولة شيعية. حقيقة جمال الدين ص٨١.

جمال الدين- ملك الملوك، ويصير سيدا على دولة قوية تستطيع أن تعيد للإسلام أمجاده وتحمى البلاد الإسلامية من السيطرة الأجنبية، إلا أن السلطان عبد الحميد لم يستجب لأفكار الأفغانى اللامركزية[1].

(١) ورد فى رسالة هرتزل إلى «تشمبرلين» والمتضمنة مشروع هرتزل لتوطين اليهود فى سيناء ومؤرخة فى الثانى عشر من شهر يونيو ١٩٠٢م أن السلطان عبد الحميد أثناء اجتماعه بهرتزل فى الآستانة عرض علىّ فى أن يكون الاستيطان فى العراق بدلا من فلسطين: «لقد أخبرتك أن السلطان عرض على الاستيطان فى العراق وذلك فى شباط من هذه السنة لما ذهبت إلى الآستانة بناء على دعوته، وقد رفضت العرض لأنه لم يشمل فلسطين». وثيقة رقم (٢) من كتاب حسن صبرى الخولى، سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين - المجلد الثانى الخاص بالوثائق ص٩٨.

ويبدو أن اقتراح جمال الدين بضم العتبات وأجزاء من العراق إلى إيران، قد داخلت الشكوك فى نفس السلطان عبد الحميد تجاه نوايا جمال الدين الأفغانى، مما جعله يسدل الستار نهائيا على مشروع الجامعة الإسلامية، فقد وجد فى أفكاره اتجاها دستوريا لمناصرة الأحرار المناوئين لحكمه، ولاسيما وقد بدأت تظهر إلى الوجود حركة تركيا الفتاة، وقد كانت سياسة السلطان عبد الحميد ضرب القوى المعادية لدولته بعضها ببعض، وقد كانت الشيعة فى إيران على خلاف حاد مع السلطان عبد الحميد على نحو ما عرفنا، وقد أدرك الرجل نوايا الشيعة فى اقتطاع العتبات وأجزاء من العراق وضمها إلى إيران عن طريق جمال الدين الأفغانى، وعلى ما يبدو كان وراء تلك الفكرة أصابع صهيونية ماسونية تحركها فى الخفاء لإلهاب الصراع بين الشيعة الإيرانيين والسنيين العثمانيين، مما يسهل عليهم تمزيق الدولة العثمانية ومن ثم الاستيطان فى فلسطين، ونراه يعرض على هرتزل أن يتخذ من العراق مركزا استيطانيا لهم بدلا من فلسطين، ليضرب الشيعة بالصهيونية.

ومن الدلائل التى تبرز الاتجاه الماسونى فى هذه المؤامرة أن السلطان عبد الحميد لم يسمح لجمال الدين الأفغانى بالخروج من استانبول وظل بها إلى أن مات وكان يصفه بأنه رجل الإنجليز، يدبر معهم الخطط ضد حكمه، وقد عرفنا سابقا مدى الهيمنة الإنجليزية على محافل الماسونية فى تركيا، وأن طبيعة العمل فى المحافل الماسونية بصيغة عامة غير متشابهة، فكل محفل يعمل وفق الظروف التى تمر بها كل دولة، وقد وجدت المحافل الماسونية فى إيران عملها فى هذا الاتجاه. كما ينبغى ألا يأخذ رأى السلطان عبد الحميد سالف الذكر ضد جمال الدين على علاته، فقد يكون لميول السلطان واتجاهاته تأثير كبير على ذلك الرأى، لذا فإن ذلك الاتهام يحتاج من المؤرخين إلى بحث وتدقيق.

وقد اتخذت المحافل الماسونية آنذاك والتى كانت تسمى بالبنائين الأحرار شعارا براقا، انخدع به كثير من زعماء المسلمين، وهو الحرية والإخاء، كما لم تفصح أيضا عن هويتها خلال تلك الفترة، ولا عن أهدافها البعيدة، وكل ما هنالك أن غمرت تركيا والعالم الإسلامى بجمعيات سرية، اتخذت بعض مقارها فى تلك المحافل، وقد ضمت أعضاء غرر بهم للمطالبة بالحرية، والإصلاحات الدستورية، هذا بالإضافة إلى أن جمعية الاتحاد والترقى كانت باكورة أعمال هذه المحافل، وقد أحيط حولها هالة إعلامية سحرت عقول المسلمين، ومن ثم دأبت تلك المحافل الماسونية على استقطاب أهم زعماء العالم الإسلامى للانضمام إليها، وكان من جملة هؤلاء الزعماء «جمال الدين الأفغانى». =

ولعل اقتراحىْ جمال الدين الثالث والرابع والخاصين بنزع العتبات وتقسيم الدولة العثمانية إلى دويلات مستقلة ذات نظام لا مركزى -كما ورد فى كتاب لطف الله خان[1]- قد أدخل الشك فى نفس السلطان عبد الحميد تجاه نوايا جمال الدين الأفغانى، حيث رأى السلطان أن أفكار جمال الدين تهدف إلى استقلال البلدان العربية عن الخلافة العثمانية فى الوقت الذى كان يسعى فيه من وراء جمال الدين إلى جمع شمل البلدان العربية وجمع شتات المسلمين حول عرشه، كما أن نزع العتبات من العراق وضمها إلى إيران سوف يقوى شوكة الشيعة ضده، ويؤلب السُّنيين عليه، الأمر الذى يؤدى بمملكته إلى التمزق والضياع، ولعل ارتياب السلطان عبد الحميد فى هذين المقترحين هو الذى عجل بسوء العلاقات بينه وبين جمال الدين، إذ أدرك السلطان أن الرجل لم ينس أصله الإيرانى، وأنه يعمل لصالح الشيعة.

والمتأمل فى ذلك الموقف يجد السلطان عبد الحميد وهو يحاول جمع شمل دولته قد واجه مطلبين خطيرين وراء كل مطلب قوى كبرى تسانده:

المطلب الأول وهو: اقتطاع فلسطين من الدولة العثمانية لتكون وطنًا قوميًا لليهود، وكانت قوى الصهيونية بزعامة هرتزل تساند ذلك المطلب وتلح عليه.

= وفى رأيى أن هذا الرجل قد انضم إلى الماسونية مغررا به، وهذا موضوع شائك يحتاج إلى بحث مستفيض يكشف عن تلك الحقيقة، إذ لا تكفى هذه العجالة لمعالجته. وقد نشر الدكتور محمد حرب المترجم لمذكرات السلطان عبد الحميد وثيقتين بهذا الخصوص:

الأولى: فى صفحة ٢٠٨ صادرة عن لوج كوكب الشرق الماسونى فى القاهرة إلى السيد جمال الدين الأفغانى حول انتخابه رئيسا للوج، وقد نقلها عن كتاب أصفر مهدوى وزميله، والوثيقة مؤرخة بتاريخ ٧مايو ١٨٧٨م.

والثانية: صورة الطلب الذى قدمه السيد جمال الدين الأفغانى للانضمام إلى الماسونية، وقد نقلها عن كتاب سيد جمال الدين المشهور بالأفغانى طهران ١٣٨٣هـ. مذكرات السلطان عبد الحميد ص٢٠٧، ٢٠٨.

(١) محمد صالح منسى، حركة اليقظة العربية فى الشرق الآسيوى، مرجع سابق ص٨٣، ٨٤.

أما المطلب الثانى وهو: اقتطاع العتبات وأجزاء أخرى من العراق وضمها لإيران، وكانت قوى الشيعة بزعامة جمال الدين الأفغانى تسانده وتدعو إليه[(١)].
وليس من المستبعد والحالة هذه أن نرى السلطان عبد الحميد يعرض على هرتزل أن يستوطن اليهود العراق بدلا من فلسطين، وذلك جريا على عادته فى ضرب القوى المعادية للإسلام بعضها ببعض.

ب- مخاوف السلطان عبد الحميد من أفكار جمال الدين الإصلاحية:

وعلى الرغم من كون جمال الدين إيرانيًا إلا أنه تخطى ذلك الجانب المتعصب فى الفكر الشيعى، وبدت أفكاره الإصلاحية تأخذ طابعًا إسلاميًا أصيلاً، وإن كان يشوبها فى بعض الأحيان أفكار تحررية متطرفة أدخلت الريب فى نفس السلطان عبد الحميد. ومن جملة أفكار الأفغانى الأصيلة التى رضى عنها السلطان وسائر المسلمين ما يأتى:

- رابطة العقيدة:

يرى الأفغانى أن رابطة العقيدة أقوى من أية رابطة أخرى تجمع المسلمين؛ إذ تذوب فيها سائر الجنسيات والقوميات، وأنه لا جنسية للمسلمين إلا فى دينهم.. يقول: «علمنا وعلم العقلاء أجمعون أن المسلمين لا يعرفون لهم جنسية إلا فى دينهم واعتقادهم، وتسنى للمفسدين نجاح فى بعض الأقطار العربية وتبعهم بعض الغفل من المسلمين جهلاً وتقليدًا، فساعدوهم فى التنفير من العصبية الدينية بعدما فقدوها» ثم يقول مخاطبا المسلمين: «واعتصموا بحبل الرابطة الدينية التى هى أحكم رابطة اجتمع فيها العربى بالتركى والفارسى بالهندى والمصرى بالمغربى وقامت لهم مقام الرابطة النسبية»[(٢)].

---

(١) حقيقة جمال الدين الأفغانى - مرجع سابق ص٨١.

(٢) قال جمال الدين للسلطان عبد الحميد الثانى فى معرض حديثهما عن الإنجازات التى تمت فى مراسلة الدول من أجل مشروع الجامعة الإسلامية، وقد وجد قبولا لدى غالبية المسلمين: «الآن وقد وفقنا بعون الله، ومساعدة حضرتكم فى الحصول على الشطر الأعظم من مقصودنا، يجب علينا أن نبدأ المرحلة الثانية أى دور التنفيذ وحيث إن حاشيتك من الوزراء متعصبون لمذهب السنة، ومن المحتمل أن يدبروا الدسائس لعرقلة الموضوع ويتهموننى بالتشيع فيتأخر تنفيذ الأمر نتيجة لذلك أرى من الصحة تحويل هذا الغرض المهم من الباب العالى إلى الصدارة العظمى، وأن تجعل شيخ الإسلام فى السر متحدًا ومتفقًا معك فى هذا الشأن» انظر حقيقة جمال الدين الأفغانى ص٨٣.

وقد وجدت تلك الدعوة صداها الطيب فى نفس السلطان عبد الحميد؛ إذ إنها ستجمع شتات المسلمين، وتوحد كلمتهم فى دولة واحدة تحت ظل الخلافة العثمانية التى كان يعلق عليها آمالا عريضة لحماية العالم الإسلامى من مطامع الاستعمار الأوروبى المسيحى. «إن الذات الشاهانية، وهى الأب الأكبر لعموم المسلمين، وهى الكافلة للشريعة الحافظة للدين، هى أجدر الناس بالالتفاف إلى حركة الأعداء فى البلاد الإسلامية، وهى لا تألو جهدا فى تعويق سيرهم وإحباط أعمالهم»(١).

- نشر اللغة العربية:

يرى جمال الدين أن رابطة اللسان مع رابطة الدين من أمضى الروابط التى تجمع المسلمين؛ وذلك لأن اللغة عنصر حيوى فى إيجاد المجتمعات المستقرة، ولو أن العثمانيين اتخذوا اللغة العربية لغة رسمية لدولتهم الإسلامية المترامية الأطراف فإن كل شعوبها سوف تجمعهم رابطتان بدلا من رابطة واحدة، وبذلك تقوى وحدتهم ثم يخلص بعد ذلك للحديث عن الأمة العربية صاحبة اللسان العربى بأنها «عرب قبل كل دين ومذهب»(٢).

ثم يطالب الدولة العثمانية بالتعرب لما فيه من مزايا عديدة فيقول: «لو تعربت وانتفى ما بين الأمتين النعرة القومية وزال داعى النفور والانقسام بالتركى والعربى، وصاروا أمة عربية بكل ما فى اللسان من معنى وما فى الدين الإسلامى من عدل وما فى سيرة أفاضل العرب من أخلاق وفى مكارمهم من عادات لكان إعادة عصر الرشيد للمسلمين ميسوراً»(٣).

---

(١) العروة الوثقى، الطبعة الأولى ١٩٥٧م، ص٤٥، ٤٨ مقال التعصب.

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة.

(٣) يقول الأفغانى: «لا سبيل إلى تمييز أمة عن أخرى إلا بلغتها، فالأمة العربية هى عرب قبل كل دين ومذهب، وهذا أمر من الوضوح والظهور للعيان بما لا يحتاج معه إلى دليل أو برهان» ولعلنا نشتم من قوله هذا رائحة القومية، والدعوة إلى العروبة، ولكنها دعوة توفق بين فكرتى الإسلام والعروبة، فهو يرى «أن الإسلام كعقيدة إنما هو طريق التعرب، واكتساب خصائص الأمة العربية، وذلك لأن كل من رضى بالإسلام، أو رضى بدفع الجزية قد سارع عن طيب خاطر إلى التقرب، فمصر مثلا بينما كانت هرقلية رومانية أصبحت بعد قليل من الزمن إسلامية فى الأغلبية، عربية بالصورة المطلقة فى كل مميزات=

وقد أصاب جمال الدين كبد الحقيقة بإثارته تلك القضية المهمة، فقد كانت الخلافة العثمانية أول خلافة إسلامية لم تستعرب؛ إذ أحس المسلمون العرب الذين عاشوا طيلة تسعة قرون على الأقل بأنهم قلب الإسلام النابض، ثم إذا بهم فى ظل الحكم العثمانى يشعرون بلون من العزلة، وأن حكامه الجدد يخاطبونهم بغير لغتهم وبغير اللغة التى نزل بها القرآن وانتشرت بفضلها تعاليم الإسلام؛ لذا كان أول مطاعن الخلافة العثمانية التى سددها أعداء الإسلام هى التخلص من اللغة العربية وحروفها تماما من اللغة التركية وإحلال الحروف اللاتينية محلها، الأمر الذى ساعد على بروز فتنة القوميات فى جسم الدولة التركية الجديدة.

يقول الأستاذ محمد قطب: «ولو تصورنا أن دولة الخلافة قد استعربت، وتكلمت اللغة العربية التى نزل بها هذا الدين، فلا شك أن عوامل الوحدة داخل الدولة كانت تصبح أقوى وأقدر على مقاومة عبث العابثين، فضلا عما يتيحه تعلم العربية من المعرفة الصحيحة بحقائق هذا الدين من مصادره المباشرة: كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، مما كان الحكام والعامة كلاهما فى حاجة إليه، على الرغم من كل ما ترجم إلى التركية وما ألف أصلا بالتركية حول هذا الدين»[1].

هاتان قضيتان من القضايا الإصلاحية التى كان ينادى بهما جمال الدين، ويمكن تتبع سائر القضايا من كتابات الأفغانى نفسه فى العروة الوثقى، وسائر الصحف التى كان ينشر فيها آراءه.

= العرب، وقس على ذلك سائر الدول العربية، وأن المسلم والمسيحى واليهودى فى تلك البلدان يحافظ كل منهم على نسبته العربية فيقول «عربى»، ثم يذكر جامعته الدينية: بل إن التركى والجركسى والأرناؤوطى وغيرهم من العناصر يستعرب متى وجد أو سكن فى بلاد العرب بأقرب الأوقات، ويمتزج فى المجموع حتى يخال أنه عربى قح» نقلا عن حركة اليقظة العربية - مرجع سابق ص٨١.

من هنا نلاحظ أن جمال الدين يدعو إلى إحياء فكرة القومية عن طريق الإسلام، وأن التعصب لا يكون للجنس أو الوطن أو الطائفية، إنما يكون للعقيدة الإسلامية.

(١) حركة اليقظة العربية - مرجع سابق ص٨٢.

ونكتفى بعرض هاتين القضيتين لضيق المقام، والذى أودُّ التركيز عليه هو النوع الآخر من الآراء التحريرية المتطرفة، والتى داخلت الشك فى نفس السلطان عبد الحميد، وأدت إلى فصم عرى التعاون بينه وبين جمال الدين الأفغانى فى مشروع الجامعة الإسلامية

والحقيقة أنه كان من الصعب أن يستمر التعاون بين الرجلين نظرا لعدم الوفاق بين أفكارهما؛ إذ أصبح كل منهما يسير فى مسار يخالف مسار أفكار الآخر، فقد رأى الأفغانى أن السلطان عبد الحميد يوجه سياسته ضد الأحرار والثوار من أجل تحقيق مصالحه التى صورتها له حاشيته الفاسدة[1]، وأنه لا أمل مرجواً فى إصلاح ذلك السلطان، ومن هنا بدأ الأفغانى يبرز أفكاره التحررية والتى منها:

١- تشجيع الحركات القومية فى ظل الوحدة الإسلامية:

وقد ظهرت تلك الأفكار فى الفترة الأخيرة من حياة الأفغانى، ويبدو أنه قد تأثر بفكر عصره الذى فشت فيه ظاهرة القوميات، وكان الرجل يرى أن تشجيع الحركات القومية داخل المجتمع الإسلامى لا يتناقض تناقضا صارخا مع فكرة الوحدة الإسلامية[2]، لذا نراه يشجع على التعرب إذ يرى أن الأمة العربية هى عرب قبل كل دين ومذهب، ثم يتجه إلى إيران ليجعلها مصدر الوحدة الإسلامية قبل أى بلد آخر، ثم يدعو الأفغانيين إلى الاتحاد مع الإيرانيين من أجل ذلك الهدف، ثم يدعوهم إلى إحياء اللسان الفارسى العذب فى خدمة الوحدة الإسلامية، ويعلل ذلك بأن الأفغانيين والإيرانيين هما فرعان لشجرة واحدة، وشعبتان ترجعان لأصل واحد هو الأصل الفارسى القديم[3].

(١) واقعنا المعاصر، مرجع سابق ص١٥٣.

(٢) محمد صالح منسى، حركة اليقظة العربية، مرجع سابق ص٨٣.

(٣) المرجع السابق، ونفس الصفحة.

ثم نراه يحث الإيرانيين على أن يكونوا أول القائمين بتجديد الوحدة الإسلامية، وتقوية الصلات الدينية، ثم يذكرهم بما قاموا به من خدمة للشرع، ونشر علومه، وحفظ أحكامه، وكشف أسراره: «.. وما قصروا فى خدمة الشرع الشريف بأية وسيلة .. نعم البخارى ومسلم والنيسابورى والنسائى والترمذى وابن ماجه وأبو داود والبغوى وأبو جعفر البلخى والكلينى وغيرهم ممن أنبتتهم إيران... إلخ»، وكما كان منهم محدثون وفقهاء، كان منهم فلاسفة الإسلام كأبى حامد الغزالى والأطباء كأبى بكر الرازى، كما أنهم كانوا من أول القائمين بخدمة اللسان العربى، وضبط أصوله، وتأسيس متونه، فكان منهم سيبويه وأبو على الفارسى والرضى وعبد القادر الجرجانى مؤسس علوم البلاغة، وصاحب الصحاح: الجوهرى، ومحب الدين الفيروز أبادى والزمخشرى والسكاكى وأبو الفرج الأصبهانى وبديع الزمان الهمذانى وغيرهم كثيرون[1].

وهكذا نرى الرجل يحيى مآثر القوميات بهدف إثارة المسلمين، ومن ثم يتم توظيفها فى إطار الوحدة الإسلامية الكبرى، ولا غضاضة فى ذلك، فإنه كان مكلفًا من السلطان عبد الحميد بجمع شمل الشيعة الإيرانيين فى ظل الوحدة الإسلامية التى كان الاثنان يدعوان إليها. ولكن هل كان ذلك النمط من الدعوة يعجب السلطان عبد الحميد؟ بلا شك أنها دعوة توجس منها خيفة، وخاصة فيما يتعلق بدعوة الأفغانى إلى العروبة والتعرب؛ إذ ظن أنه يسعى مع الإنجليز لإحلال خليفة عربى محل الخليفة العثمانى، كما سنوضح بعد، إذ اتهم فيها الأفغانى أنه مدبر لذلك الأمر ومخطط له مع الإنجليز.

(١) العروة الوثقى، العدد الصادر فى ٢٢ شوال سنة ١٣٠١هـ - ١٨٨٤م. ص١٠٤ من القسم الثانى، طبع بيروت، مطبعة التوفيق ط عام ١٣٢٨هـ.

٢- تشجيع الاتجاه الدستورى ومناصرة الأحرار:

عرفنا سابقًا أن السلطان عبدالحميد كان يهدف من وراء الجامعة الإسلامية إلى ضرب الأحرار المنادين بالدستور أو القانون الأساسى، كما كان يهدف بها إلى الضغط على الاستعمار الغربى الذى يتربص به وبدولته فى كل اتجاه، ومن هنا كان من الطبيعى أن يحنق السلطان عبدالحميد على جمال الدين الأفغانى إذا ما دعا إلى الإصلاحات الدستورية، ومناصرة الأحرار المناوئين لحكمه.

وقد كان جمال الدين الأفغانى يريد أن يكون الاتجاه الإسلامى اتحادًا دستوريًا، وكان يفضل العمل على ازدياد الوعى الدستورى بين الشعوب الإسلامية حتى ترغم حكامها على إصدار دساتير من واقع حياتهم حتى يستميتوا فى الدفاع عنها، ولعله فى ذلك يكون قد خالف رأى مدحت باشا واضع الدستور التركى الذى كان يرى أن الدستور منحة من السلطان، ومن مأثور قوله: لا يحيا الشرق بدوله وإماراته إلا إذا أتاح الله لكل منهم رجلاً قويًا عادلاً لا مستبدًا عادلاً؛ لأن الاستبداد يتنافى مع العدالة»[1].

وتشير المراجع إلى أن جمال الدين حينما كان فى الآستانة طلب من السلطان عبدالحميد إقامة نظام للشورى فى دولته، وتغيير نظام الحكم تغييرًا جذريًا، ولكن السلطان رفض ذلك، فصار جمال الدين يعتقد أن حكم عبد الحميد الفردى لا يمكن أن يصلح للوحدة الإسلامية[2]، الأمر الذى أخذ فيه على عاتقه أن يحيى ذلك فى الدويلات العربية التى كان ينتقل فيها، وقد استفادت منه مصر أعظم استفادة، حيث أقام بها ما يقرب من عشر سنين، كوّن فيها نخبة من الطلاب الذين تتلمذوا على يديه وتشربوا أفكاره الدستورية، كان منهم: المهدى السودانى،

---

(١) المقال السابق من العروة الوثقى، نفس الدورية.

(٢) حركة اليقظة العربية، مرجع سابق ص٨٤.

وأديب إسحق الكاتب المشهور، والشيخ محمد عبده، وعرابى باشا، وقد ساعد المصريين على تأسيس الحزب الوطنى، وانعقدت أول جلسة من جلسات الحزب الوطنى برئاسته، والذى بلغ تقريبا ثلاثمائة عضو(١).

ولعل مثل هذه الآراء الدستورية جعلت السلطان عبد الحميد يشك فى نوايا الأفغانى الإصلاحية، واتهمه بأنه يهدف إلى تشجيع الحركات الثورية، والدعوة إلى استقلال البلاد العربية عن الدولة العثمانية، لذا فقد كان السلطان يبث جواسيسه وعيونه وراء الأفغانى وكانت تحيط به حاشية تصور له فعل السوء، وتخلق الشائعات، وتبالغ فى كل صغيرة حتى أصبح يتوجس خيفة من جمال الدين، وقد ظهر ذلك واضحًا فى مصادرته لجريدة «البيان» التى أصدرها محمد باشا المخزومى تلميذ الأفغانى عام ١٨٩٣م، وقد أشرف عليها جمال الدين، ورسم لها منهاجًا شبيهًا بمنهاج العروة الوثقى، وكان من جملة أسباب تعطيل تلك الجريدة أن حدث فيها خطأ مطبعى غير مقصود، حيث تصدرت مقدمتها بعبارة: «من نوايانا الخدمة العامة والإخلاص، والنية سابقة العمل» وقد كتبت خطأ: «والنية سابقة اليمن» فتلقفتها حاشية السلطان عبدالحميد، واتهموا فيها المخزومى وجمال الدين أنهما يهدفان بإصدار الجريدة إلى تحرير اليمن واستقلالها، ثم يتبعها استقلال باقى الدول العربية(٢).

(١) قد حدث ذلك أثناء زيارته لمصر فى المرة الثانية، وكان رياض باشا رئيس وزرائها الذى أعجب بعلمه وفضله، وقد ألقى خطبة مثيرة فى تلك الجلسة برهن فيها على أن الإسلام قد أرشد الناس عن طريق القرآن الكريم إلى ما فيه الرقى الحضارى بشقيه المادى والمعنوى، ثم يشير إلى إهمال المصريين وعامة المسلمين للقرآن الكريم قائلا: «فكيف تركناه وراءنا ظهريا، واكتفينا بتلاوته على القبور فى ليالى الجمع، وجعل تلاوته وسيلة يشغل الصائمون بها أوقاتهم، ويتسلى بها الأطفال فى المكاتب، واتخذنا التعاويذ والنذور والقرابين، وجعلناه مطية للأيمان الكاذبة، ووسيلة للتسول وزينة لرقاب الأطفال، وقلائد العرائس، ومعاصم الخبازين، وحماية للمسافرين، وسلاحًا لمن أصابهم مس من الجن، وزينة للحفلات وأقواس النصر. .إلخ» ينظر كتاب حقيقة جمال الدين الأفغانى، مرجع سابق ص٥٤.

(٢) المرجع السابق ص٨٥.

وهكذا تسببت أفكار جمال الدين الأفغانى القومية والدستورية ومناصرته للأحرار وعلاوة على انكشاف أصله الإيرانى، وانتمائه الشيعى، والتحيز فى بعض الأحيان من أجل خدمة الإيرانيين، فى عدم استمرار الوفاق بينه وبين السلطان عبدالحميد فى مشروع الجامعة الإسلامية والذى أعد له جمال الدين عدته، وقضى فيه أغلب جهاده، وفنى فيه سائر عمره، غير أن مخاوف السلطان عبدالحميد التى كانت تصورها له حاشيته، وحساسية الجو الذى كان يعيشه والزاخر بالفتن والقلاقل وتدبير المؤامرات، كل ذلك عجل بإسدال الستار على مشروع الجامعة الإسلامية وصار مجرد ذكرى من ذكريات التاريخ.

ج- مخاوف السلطان عبد الحميد من إحياء الخلافة العربية:

هذه إحدى القضايا التى اتهم فيها السلطان عبد الحميد جمال الدين الأفغانى بأنه دبر مع «بلند» الإنجليزى مؤامرة لإقصاء الخلافة عن الأتراك، واقترحا على الإنجليز إعلان الشريف حسين أمير مكة خليفة على المسلمين، وقد تم ذلك عن طريق خطة أعدها الرجلان إلى وزارة الخارجية الإنجليزية(١).

ومما لا شك فيه أن السلطان عبد الحميد كانت تساوره المخاوف والظنون من أن يتجه قادة العرب إلى إحياء الخلافة العربية فى بلادهم، حتى إنه أصدر أمرًا بمنع نشر أى كتاب من كتب الكلام أو العقائد، أو الحديث، أو التفسير، يرد فيه ذكر للخلاف(٢)، ولعل مخاوفه تلك كانت وراء فكرة تقربه للقادة والزعماء العرب على نحو ما وضحنا سابقا، كما كانت دافعًا أساسيًا لتقوية مركزه إزاء تدخل

---

(١) حركة اليقظة العربية - مرجع سابق ص٨٥. كانت قضية اليمن آنذاك تشغل أذهان السلطان ورجال حاشيته، وكانت الآراء مختلفة حولها، فتعهد جمال الدين بإصلاح الأمور دون الحاجة إلى جند أو مال، واشترط أن يكلفه السلطان بذلك بتفويض منه، ومن رجال دولته، وزعماء شعبه، وكان «ميرزا حسن» صديقا للسيد جمال الدين، فنقل هذا المطلب إلى الجهات المختصة، فخشى العظماء والزعماء أن تكون إجابة السيد إلى طلبه مدعاة للإقلال من نفوذهم، فأشاروا بإبعاد جمال الدين من تركيا، فخرج منها إلى الهند عن طريق القاهرة. حقيقة جمال الدين الأفغانى ص٥٠، ٥١.

(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد ص٦٧.

الدول الكبرى لإحياء مشروع الجامعة العربية، لذا نراه لا يقصر ولا يتوانى فى الدعوة لفكرة الجامعة الإسلامية لتوحيد جميع المسلمين، ومن ثم مواجهة خطر تلك الدول، وأحسب أن الرجل كان صادقًا فى دعوته. ويمكننا توضيح تلك القضية فى النقاط الآتية:

- الشريف حسين والخلافة العربية:

وإن كان لنا بد من دراسة تلك القضية، فإن من الأفضل دراستها فى إطار قضية «التعريب» والدعوة لإحياء فكرة العروبة التى حاول السلطان عبد الحميد إذابتها فى مشروع الجامعة الإسلامية، ولكن على ما يبدو أن السلطات الإنجليزية الحاكمة فى لندن وفى القاهرة آنذاك، قد صممت على أن تلعب على أوتار تلك القضية، وتتبنى فكرة إحياء الخلافة العربية وتنصيب «الحسين بن على» شريف مكة خليفة للمسلمين.

وكان السلطان عبد الحميد يدرك فى أواخر حكمه أبعاد تلك اللعبة التى لم يتكشف عنها النقاب بعد، وقد أثبتت الأيام صدق مخاوفه وطيب نواياه، حيث باء العرب بالخسران المبين بعدما قطعت انجلترا بوعودها الكاذبة لشريف مكة على لسان «مكماهون»، وكانت النتيجة ضياع خلافتهم الإسلامية المتمثلة فى الخلافة العثمانية، وخذلان القضية العربية خذلانًا ساحقًا لم يظفروا منها بشىء.

وقد كان الاتفاق الذى عقدته بريطانيا مع الشريف حسين بن على اتفاقًا مهمًا وخطيرًا أثر على مستقبل الشرق العربى الآسيوى بأكمله، وكانت بريطانيا تهدف من ورائه إلى الاستفادة من العرب الذين يشكلون تكتلاً سياسيًا مندمجًا فى داخل أنشطة الدولة العثمانية، وذلك بالعمل على انشقاق ذلك التكتل، وبتره كلية من كيان الدولة العثمانية، وإحداث فرقة بين العرب والأتراك تطل من خلالها فتنة القوميات بوجهها البغيض، فكيف ننسى لها ذلك.

وجهت بريطانيا جل اهتمامها لتنفيذ تلك الخطة نحو الشريف حسين بن على شريف مكة، واعتبرته أفضل زعماء العرب فى تنفيذ خطتها، وذلك لعدة اعتبارات

مهمة، منها أنه كان يتمتع بمركز دينى محترم، وذلك لإشرافه على الحرم المكى من جهة، ولانتمائه للدوحة النبوية من جهة أخرى. كما كانت الدولة العثمانية تعتمد عليه فى الدعوة للجهاد، وترتيب الأعمال الحربية لنفاذ كلمته، وتأثيره الروحى فى المسلمين، ويضاف إلى تلك الاعتبارات بُعد بلاد الحجاز عن مقر الدولة العثمانية مما يساعد على نجاح حركة التمرد والثورة التى سيقوم بها الشريف حسين، وذلك لأن نقل القوات العثمانية سوف يكلف الدولة نفقات باهظة، بالإضافة إلى الوقت الذى ستستغرقه تلك القوات فى الانتقال إلى الحجاز.

لقد كانت تلك المبررات كافية من وجهة نظر بريطانيا لاستمالة الشريف حسين إلى جانبهم، ولا سيما إذا لوحت له بالخلافة، وبذلك يتحول ولاء المسلمين من الخلافة العثمانية فى الآستانة إلى الخلافة العربية فى مكة، وبهذه الخطة تنجح بريطانيا فى تجزئة الولاء فى العالم الإسلامى بين زعامتين إسلاميتين وتحدث صدعا فى الإسلام، فيضعف مركز الخليفة العثمانى وتتمكن من نقل سلاح الجهاد الذى كانت تعلم أن الخليفة العثمانى سوف يلجأ إليه ليجمع كلمة المسلمين من حوله»[1]، وقد تمكنت بريطانيا بالفعل من قلب حركة الجهاد رأسا على عقب، فقد كان من المفروض أن توجه تلك الحركة نحو بريطانيا الطامعة فى بلاد المسلمين، إلا أنها وجهت بمهارة لتطعن دولة الخلافة فى مقتل، وذلك باندلاع الثورة العربية الكبرى التى قادها الشريف حسين عام ١٩١٦م ضد الدولة العثمانية.

ولسنا هنا بصدد دراسة شاملة للثورة العربية الكبرى، وإنما حسبنا منها خيوط المؤامرة التى دعت إلى إثارة النعرة القومية عند العرب، فى الوقت الذى أثارت فيه تلك القوى أيضا النعرة الطورانية عند الأتراك على أيدى الاتحاديين. إن ثورة العرب على جماعة الاتحاد والترقى لم تكن ارتجالية، وإنما كانت صداها فى النفوس العربية التى ذاقت الويل على أيدى الولاة المأجورين، والعملاء المستترين فى ظل الحكم التركى، أمثال: جمال باشا السفاح الذى أخذ يسوق أحرار العرب

(١) المنار، المسألة العربية ج١ مجلد ٢٠، ٣٠ يوليو ١٩١٧م ص٤٢.

بتهم ملفقة إلى حبل المشنقة لا بسبب سوى أن يوصل العرب -وبتخطيط مسبق- إلى الارتماء فى أحضان الحلفاء.

إننا لا نلوم العرب الذين حركوا تلك الثورة أو شاركوا فيها، لأنهم هبوا للدفاع عن كيان أمتهم فى وقت أراد فيه الاتحاديون امتهانهم، وإنما نلومهم من جانب واحد فقط هو أنهم أخطأوا التقدير وظنوا فى الثورة العربية الخلاص كما وعدتهم بريطانيا، وإنما هم فروا كما يقال من «الدلف إلى المزراب»، حين ارتموا فى أحضان الدولة الاستعمارية، وانتهى بهم الفرار إلى الوقوع فى براثن الحماية الأجنبية فى أعقاب الحرب العالمية الأولى.

وفى ظل حكومة الاتحاديين المتأثرة بالفكر العلمانى ومؤامرات الصهيونية فى تركيا ظفرت بريطانيا بما تريده، وجنت من خلال لعبة القوميات وإثارتها بين العرب والأتراك أهدافًا بعيدة المدى، فقد ضمنت ولاء عرب الشام والعراق وبعض القبائل القريبة من القوات البريطانية، وبذلك فوتت الفرصة على السلطان العثمانى «محمد رشاد» الذى أعلن الحرب الدينية ضد الحلفاء، كما أنها تمكنت من جهة أخرى من إقامة دول عربية مستقلة على أنقاض الدولة العثمانية تحت حمايتها تخدم كبديل للإمبراطورية العثمانية، وتقوم بالدور التقليدى فى حماية مواصلات بريطانيا مع الهند»[1].

ومما ينبغى الإشارة إليه فى إطار دراسة تلك الثورة، أن العرب لم يتحركوا إلى الثورة إلا بعد أن استنفدوا كل وسائل التعاون فى سبيل الإصلاح مع جمعية الاتحاد والترقى، صاحبة السلطة الحقيقية فى الدولة العثمانية «١٩٠٩-١٩١٨م» وهى الفترة التى نشطت فيها الجمعيات والأحزاب السياسية العربية الداعية إلى الإصلاح والحكم اللامركزى فى الإدارة، وليس الانفصال عن الأتراك، وقد شهدت تلك الفترة على وجه الخصوص سوء العلاقات بين العرب وجمعية الاتحاد والترقى، وهى فترة تعد شاذة فى تاريخ العلاقات الطيبة بين الأتراك والعرب طوال أربعة قرون، إذ حاولت تلك الجمعية تتريك الأقاليم العربية وإحياء العصبية الطورانية، واستعملت فى ذلك أقسى ألوان البطش والإرهاب، الأمر الذى ساعد

(١) حركة اليقظة العربية، محمود صالح المنسى، ص٢٦٦ .

على انفجار تلك الثورة، وعلى الرغم من هذا الحنق وهذا الغضب الذى كان سببًا فى قيام بعض الثورات فإن أولئك الذين ساهموا فيها من العرب، كانوا ينادون بالإصلاح لا بالانفصال، وباللامركزية فى الحكم لا بالاستقلال التام، ومن الدلائل التى تشير إلى ذلك:

- اعتراض بعض القادة والزعماء من العرب على الثورة ضد الأتراك والإبقاء على العلاقات مع العثمانيين، والمطالبة بإصلاح الدستور العثمانى، وأن يخصص للعرب مقاعد فى المجالس النيابية تتناسب ومجموعة البلاد العربية فى ظل الدولة الإسلامية العثمانية، وكان منهم عزيز المصرى، وعلى الرغم من تدخل بريطانيا لدى الآستانة للعفو عنه فإنه حذر أعضاء جمعية العهد بألا ينساقوا وراء الأعمال العدوانية ضد الدولة العثمانية التى تقوم بها انجلترا والحلفاء لانضمام تركيا إليهم، إذ أن دخولها الحرب قد يعرض أقطار المشرق العربى للغزو الأوروبى وأن عليهم أن يقفوا بجانب الدولة إلى أن يتم الحصول على ضمانات كافية ضد الأطماع الأوروبية[١].

وكان من الموافقين بالبقاء فى كنف الدولة العثمانية بشرط الإصلاح فى الجزيرة العربية ابن الرشيد، والإمام يحيى، وسلطان مسقط، وابن سعود الذى كان يرى إصلاح الدولة العثمانية أفضل من الانفصال عنها، ويكون الإصلاح باستقلال الولايات العربية استقلالاً تامًا إداريًا تحت سيطرة الترك[٢]، ولم يحظ الشريف حسين بتأييد كامل إلا من زعماء الشام الموتورين أمثال جمال باشا السفاح[٣]، ومن السيد على الميرغنى فى السودان بتأثير من بريطانيا.

- المؤتمر العربى الأول الذى انعقد فى باريس فى شهر يونيو عام ١٩١٣م قبيل الثورة العربية بقليل وفى عهد الأتراك الاتحاديين لم يطالب بالاستقلال عن الدولة العثمانية، وإنما حصر مطالبه فى الإصلاح الإدارى، وقد وصف السيد رشيد رضا هذا المؤتمر بأنه أول مؤتمر عربى عرَّف كثيرا من الأمم الغربية بالتاريخ الجديد الذى

(١) حركة اليقظة العربية، مرجع سابق ص٣٠٩.

(٢) المرجع السابق، ص٢٦٣.

(٣) جمال الدين السفاح هو والى الشام من قبل العثمانين وكان معروفًا بالتعصب الدينى والجنسى، وكان قاسيًا فظًا أعدم الكثيرين من أبناء الشام.

دخل فيه العرب العثمانيون[1]، ويؤكد رئيس المؤتمر «السيد الزهراوى»[2] بأنه يتحدث باسم العرب العثمانيين باعتبارهم أهم عناصر الدولة التركية، وأنهم لا يطالبون بالانفصال عن الدولة العثمانية، بل إنهم يطالبون بتحسين حالة الدولة، والعنصر العربى معًا لحفظ صرح الدولة من أن يتهاوى[3].

كما أن المتتبع لمطالب الجمعيات الوطنية التى برزت فى تلك الحقبة فى الوطن العربى وفى تركيا، مثل: جمعية الإخاء العربى العثمانى، والمنتدى الأدبى، والجمعية القحطانية، وجمعية بيروت الإصلاحية، والنادى الوطنى العلمى فى بغداد، وجمعية البصرة الإصلاحية، والجمعية العربية للفتاة، وحزب اللامركزية الإدارية العثمانى فى مصر، يجد أغلب هذه الجمعيات لم تناد بالانفصال عن الدولة العثمانية، لا على العكس من ذلك، فقد حرصت أشد الحرص على المحافظة على وحدتها، وقد انحصرت مطالبهم فى ضرورة تحقيق الإصلاحات الإدارية، والحكم اللامركزى، وإن كانت معالم القضية العربية بمطالبها الإصلاحية تلك قد بدأت تتضح فى صورة العمل الجماعى المنظم من خلال تلك الجمعيات، إلا أنها لم تأخذ بعد طابع الحركة الاستقلالية أو الانفصالية.

- إن الشريف حسين نفسه الذى تزعم الثورة العربية كان يعمل لصالح الدولة العثمانية فى الفترة من «١٩٠٩-١٩١٣م»، من أجل توطيد الحكم التركى فى شبه الجزيرة، ومقاومة محاولات التحرر بإرسال قواته للمحاربة بجانب الترك فى إخماد الثورات، كما حدث فى عسير، كما أنه رفض مطلب «طالب النقيب» زعيم البصرة بمبايعته له بالخلافة هو وخمسة وثلاثين نائبًا عربيًا فى مجلس المبعوثان العثمانى عام ١٩١١م فى مقابل مساعدته لهم ضد الاتحاديين، ولعل ذلك الرفض كان بسبب ولائه للدولة العثمانية آنذاك، والذى ظل عليه حتى بعد محادثته مع

---

(١) أمين الريحانى، تاريخ نجد الحديث وملحقاته، ١٩٢٨م ص١٨١.

(٢) مقدمة الشيخ رشيد رضا لكتاب المؤتمر العربى الأول. مطبعة البسفور، القاهرة ١٩٣١م.

(٣) من المعروف أن حزب اللامركزية الإدارية العثمانى هو الذى نظم هذا المؤتمر وأسند أعماله إلى السيد عبدالحميد الزهراوى واسكندر بك عمون.

السلطات البريطانية فى أمر الثورة، ولعله كان يأمل فى الوصول إلى تسوية لمشكلته مع حكومة الآستانة باستجابتـها لمطالبه الخاصة بشرافة مكة[١]، وهى مطالب تدور أغلبها حول الإصلاحات الإدارية والنظام اللامـركزى للحجاز وليس الانفصال عن الدولة العثمانية.

ولعلنا من العرض السابق ندرك أبعـاد الثورة العربية التى زج فيـها عرب الشام بزعـامة الشـريف حسـين بن على بتدبيـر من بريطانيـا لإيجاد فـرقة بين العـرب والأتراك، وقد لاحظنا أن العرب من خلال تلك الـثورة لم تكن تطالب بالانفصال عن الحكم التـركى وإنما كانت تطالب بالإصـلاحات الإدارية وبالنظام اللامـركزى ولكن جماعـة الاتحاديين حكام تركيا الـيوم قد سدت عليهم وعلـى الأتراك جميع منافذ الاتحاد، وذلك بالنفخ فى نار الطورانية فى تركـيا وفى نار العروبة فى المحيط العربى، وظـهرت «تركيـا الفتـاة» و«العربية الفـتاة» وضـاعت أحلام الفـتاتين فى أحضان الغرب الاستعمارى.

- عبد الرحمن الكواكبى والخديو عباس حلمى الثانى:

يتبقى من قـضية إحياء الخـلافة العربية التى كـانت مثار خوف العثـمانيين ذلك الادعاء الذى ورد على لسان نجيب خدورى، إذ زعـم أن دعوة الكواكبى إلى خلافة عربية ربما كانت دعاية سياسية لعباس حلمى الثانى حاكم مصر وطموحه للاستئثار بحكم البلاد العربية[٢]، وقبل أن نرد على ذلك الادعاء يفضل أن نقف على حقيقة آراء كل من الرجلين: عبد الرحمن الكواكبى ونجيب خدورى[٣].

---

(١) المصدر السابق ص٥-١٩.

(٢) أرسل الشريف حسين برقية فى مارس ١٩١٦م إلى أنور باشا يعبـر فيها عن اعتقاده بأن انتصار الدولة فى حملتها الثانية على مصر يتوقف على اشتراك جميع العناصـر العثمانية فيها ولاسيما العرب وأن مطالبهم تتلخص فى العفو العام عن المتـهمين السياسيين، ومنح الشام نظامًا لا مـركزيًا، وجعل إمارة مكة وراثية فى أولاده، وإبقائها على حالتها الحاضرة، وعلق الشريف حـسين اشتراكه فى الحرب على قبول مطالبه، وتشير المراجع إلى أنه كون جيشًا عربيًا بالفعل وأمـده جمال باشا بالأسلحة ولكنه أخذ يراوغ لحين قبول مطالبه. انظر حركة اليقظة العربية ص٣١٦، ٣١٧.

(٣) نقلا عن محمد الخير عبد القادر، نكبة الأمة العربية بسقوط الخلافة العثمانية ص٧٢.

وقد ضمن عبد الرحمن الكواكبى آراءه فى كتابه «أم القرى» حلل فيه مفاسد الدولة العثمانية وانتقد إدارتها وأنكر على سلاطينها تلقبهم بألقاب الخلافة[(١)]، ورأى أن يكون العالم الإسلامى تحت لواء الخلافة بشرط أن يكون الخليفة عربيًا قرشيًا وأن يكون مركزه مكة «أم القرى» لا استانبول، وبذلك يكون الكواكبى من دعاة الوحدة الإسلامية والنهضة العربية معا، ولكنه لا يرى فى سلاطين آل عثمان القدوة الحسنة للمسلمين لأنهم فى رأيه وضعوا مصلحتهم فوق مصلحة الإسلام، يقول: «وهذا السلطان عبد المجيد رأى من مؤيدات إدارة ملكه إباحة الربا والخمور وإبطال الحدود. ورأى مصلحته فى قهر الأشراف وإذلال السادات لإلغاء نفوذ النقابات ففعل، وفى هذا المقدار كفاية لإيضاح قاعدة أن مؤيدات الملك عند السلاطين مقدم على المحافظة على الدين»[(٢)].

---

(١) هما من أصل شامى، وقد ارتبطا معا بالنظام العثمانى فى بداية حياتهما، ثم ابتعدا عنه وقضى كل منهما بقية حياته فى المنفى، الأول نفى إلى مصر وظل بها إلى أن مات عام ١٩٠٣م، والآخر إلى باريس وظل بها إلى أن مات عام ١٩٦١م، وعلى الرغم من وجود بعض أوجه الشبه فى حياة كل من الرجلين وفى بعض مبادئهما إلا أن الأول كان مسلمًا، والثانى كان مسيحيًا، وكانت آراء خدورى أكثر تطرفا من آراء الكواكبى من أقطاب دعاة القومية العربية. ينظر الدكتور عمر عبد العزيز عمر، تاريخ المشرق العربى، مرجع سابق ص٤٢٥-٤٢٨.

(٢) يقول الكواكبى معرضًا باتخاذ آل عثمان لقب الخلافة: «فيجعلون تارة آل عثمان يتصلون نسبًا بعثمان بن عفان، وأخرى يرفعون نسبهم إلى أعالى قريش ويعطونهم حق الخلافة مرة بالتنازل والإدلاء من العباسيين، وأخرى بالاستحقاق والوراثة، وآونة بالعهد، وأخرى بالبيعة العامة، وحينًا بخدمة الحرمين الشريفين، ووقتًا بحفظ المخلفات النبوية، وكأن هؤلاء الغشاشين يريدون بهذه الدسائس أن يجعلوا حفيد السلطان نظيرهم دعى نسب كاذب كدعواهم لأنفسهم السيادة». ينظر «عبد الرحمن الكواكبى» للدكتور سامى الدهان، دار المعارف بمصر طبعة رابعة ص٩٢، ٩٣. ولإبداء رأى فى هذه القضية ينبغى أن نرجع إلى موقف السلطان سليم الأول من الخليفة العباسى.

وقد اختلف الباحثون حول موقف السلطان سليم الأول من الخليفة «المستمسك أبو المتوكل على الله» العباسى آخر الخلفاء العباسيين فى مصر المملوكية، إذ يرى بعض المؤرخين أن السلطان سليم الأول قد اصطحبه معه إلى استانبول بعد فتح مصر وإعدام طومان باى، ثم أفرج عنه وأعاده إلى مصر عام ١٥٢٠م، وظل بها حتى مات عام ١٥٤٣م.

على حين أن هناك رأيًا آخر يثبت أن الخليفة المتوكل على الله قد تنازل عن الخلافة للسلطان سليم الأول وسلمه شاراتها وهى مخلفات الرسول ﷺ: البردة، وبعض من شعر لحيته، وسيف الخليفة عمر، وقد =

ولعل دعوته إلى إحيـاء الخلافة العربية قد صادمت دعـوة كل من جمال الدين الأفغـانى والسلطان عبد الحـميد فى إقـامة الجامعـة الإسلاميـة التى تؤكد أحقـية العثمانيين فى الخلافة العامة، وذلك لأن أحد شروط دعوته أن يكون الخليفة عربيًا قرشـيًا، ولذلك كـانت دعوته تلك تهـجمًا صـريحًا على نظام الدولة العـثمـانية ومضيعة لآمال السلطان عبد الحـميد، ولكننا نعود لنرى الكواكبى قد تحلل من رأيه السابق، أو خفف منه، ورأى أن الخليـفة ما هو إلا مجرد رئيس روحى للمـجتمع الإسلامى دون أن تكون له سلطة سياسية[١].

وفى إطار دعوته للخلافة العربية نرى الكـواكبى يشيد بالجنس العربى، ويعرّض بالعثمانيين الذين يحتقرونهم لا لشىء سـوى أنهم يعتبرون أنفسهم العنصر المتغلب

= ظلت الحال هكذا حـتى اختلقت أسطورة التنازل عن الخلافـة فى أواخر القرن الثـامن عشر نتيـجة لتطور ظروف الدولة السياسية، إذ أن التـمسك بالخلافة يعطى العثمانيين الحق فى فـرض سلطتهم الروحية على جميع المسلمين بمن فيهم من الأقليات المسيحية، وكانت أول وثيقة رسمية أطلقت على السلطان العثمانى لقب خليفة هى معاهدة «كوتشك فينجارى» عام ١٧٧٤م بين روسيا والدولة العثمانية، حيث نصت على وضع مسلـمى بلاد القرم التى استـولت عليـها روسيـا تحت النفوذ الروحى للسـلطان العثمـانى، ويرى صاحب ذلك الـرأى أن لقب الخلافة لم يظهـر جديًا إلا فى عـهد السلطان عـبد العزيز، وعـندما وضع الدستور كانت فكرة الخلافة قد كسبت رواجًا كافيًا لإدخالها فى ذلك الدستور، إذ نص على: «أن جلالة السلطان بوصفه خليفة أعلى هو حامى الدين الإسلامى».

وفى عهد الســلطان عبد الحميـد الثانى دعمت فكرة الخلافـة على نطاق واسع، وذلك لأغراض سيـاسية وهى كبح جماح الدول الأوروبيـة التى كانت تحكم رعايا من مسلمين من الروس والقوقاز والتـركستان، ومن الفرنسيين فى شمال أفريقيا، ومن البـريطانيين فى الهند، كما كان يهدف إلى تعزيز الشعور بالولاء لدى الشعوب الإسلامية التى تعرضت للتزعزع من جـراء القوانين الوضعية العلمانية، ينظر تاريخ المشرق العربى، دار النهضة العربية، بيروت، ص٨٣ - ٨٦ .

استدلوا على ذلك بوجود هذه الأشيـاء المحفوظة فى مسجد أيوب. ولكن الدكتور عـمر عبد العزيز يرى أن الخليفة المتـوكل لم يتنازل فعلا عن الخلافـة للسلطان سليم الأول، ويثبت بالأدلة التاريخيـة والوثائقية صحة رأيه، ويخلص إلى أن سليم الأول لم يحفل بهذا اللقب، إذ أصبح شـائع الاستعمال مبتذلا، ولم يعد ينحدر من سـلالة الرسول ﷺ أو حتى من قريش، وسار هـو ومن تبعه من سلاطين العثـمانيين لم يهتمـوا بهذا اللقب، ولم تقم منهم محـاولة حتى أواخر القرن الثـامن عشر ترمى إلى اعتبـار أحد منهم خليفة بالمعنى الذى عرف به خلفاء النبى محمد ﷺ.

(١) عبد الرحمن الكواكبى، المرجع السابق، ص٩٢.

المسيطر، ثم نراه يدحض تلك الفرية من واقع التاريخ الإسلامى، فيلاحظ أن جميع الأعاجم الذين قامت لهم دول فى الإسلام، كآل بويه والسلجوقيين والأيوبيين والغوريين والجراكسة وآل محمد على قد استعربوا، وتخلقوا بأخلاق العرب، ولم يشذ منهم غير المغول أى الأتراك العثمانيين، فإنهم يفخرون بمحافظتهم على استتراكهم، ولم يقبلوا أن يستعربوا، وإنما قبلوا أن يكونوا فرنسيين وألمانًا، وسبب ذلك كرههم للعرب، فقد كان الأتراك شجعانًا مقاتلين، ولم يكونوا ساسة عادلين، فزادوا العالم الإسلامى تدهورًا وجهلاً، بل إنهم احتقروا العرب وتناولوهم بالسباب ونبذوهم بالألقاب(١).

أما رأى نجيب خدورى كما ورد فى كتابه «يقظة الأمة العربية» فإنه يدعو إلى انفصال الولايات العربية عن الدولة العثمانية، ويرى أن تكون الدولة العربية المستقلة المكونة من الجزيرة العربية والهلال الخصيب سلطنة دستورية حرة، وعلى رأسها سلطان عربى مسلم، وأن تقام فى الحجاز خلافة عربية.

واقترح أن يكون السلطان أحد أفراد العائلة الخديوية، وأن يكون الخليفة شريف مكة.

وبالمقارنة بين مشروعى الكواكبى وخدورى نجد أن الثانى قد أخذ رأى الكواكبى عن الخلافة العربية، وأضاف إلى سلطة الخليفة السيادة السياسية على الحجاز، والسلطة الأدبية على جميع المسلمين(٢).

---

(١) تاريخ المشرق العربى، مرجع سابق ص٤٢٦.

(٢) يقول الكواكبى: «ولا يعقل لذلك سبب غير شديد بغضهم للعرب، كما يستدل عليه من أقوالهم التى تجرى على ألسنتهم مجرى الأمثال فى حق العرب، وذلك كإطلاقهم على عرب الحجاز «ديلنجى عرب» أى العرب الشحاذين، وإطلاقهم على عرب مصر «كور فلاح» بمعنى الفلاحين الأجلاف، و«عرب حكنه سى» أى نور العرب، و«قبطى عرب» أى العرب المصريين، وقولهم عن عرب سوريا «نه شامك شكرى ونه عربك يوز» أى دع الشام وسكرياتها وتر وجوه العرب، وقولهم: « بيس عرب» أى عرب قذر، و«عرب عقلى» أى عقل عربى صغير، «وعرب طبيعتى» أى ذوق عربى فاسد، وقولهم: « بونى بيارسه م عرب أوله يم» أى إن فعلت هذا أكن من العرب والعرب كانت تقابلهم بكلمتين فقط. الأولى: «ثلاث خلقن للجور والفساد: القمل والترك والجراد» أما الثانية فهى تسميتهم «الأروام» كناية عن الريبة فى إسلامهم. أم القرى ص٧٨. =

أما عن القضية التى طرحناها عن دعوة الكواكبى لتعيين عباس حلمى الثانى سلطانا للمسلمين، نرى أنه رأى انفرد به خدورى وحده، إذ يتهمه بأنه كان عميلا للخديو عباس، وعميلا لإيطاليا، وقد بنى رأيه فى ذلك على زيارة الكواكبى للصومال بالاتفاق مع إيطاليا، وقد استقى معلوماته تلك من رسالة وجهها السيد رشيد رضا إلى جورج أنطونيوس فى ١٠ يناير سنة ١٩٣٥م، وأن هذه الرسالة موجودة فى أوراق أنطونيوس المحفوظة فى دار الوثائق الإسرائيلية(١).

والحقيقة غير ذلك بالمرة فلم يكن الكواكبى عميلا للخديو عباس حلمى الثانى، ولم يكن أيضا عميلا لإيطاليا، ويتولى السيد رشيد رضا إبانة الحقيقة، موضحا: «أن المفسدين كانوا يتهمون خديو مصر عباس حلمى باشا بذلك فكان يسمع لهم، لأن مصر بلاد عربية غنية بالمال والرجال، وقد تصدى جده محمد على باشا لحرب الدولة العثمانية فقهرها واستولى على سورية والحجاز، وتوغل فى الأناضول ولولا الإنجليز لاستولى على سائر الممتلكات.

ولكن عباس حلمى لم يكن ليطمع بمثل ما طمع به جده الأعلى، ولا بمثل ما كان يطمع به جده الأدنى «إسماعيل باشا» من الاستقلال السياسى بمصر والسودان فقط لمكان الاحتلال الإنجليزى الذى جعل السلطة الفعلية فى مصر بيد انجلترا دونه، ولهذا كان الموسوسون والجواسيس يزعمون أنه على اتفاق مع الإنجليز فى هذا الأمر، وكان كثير من المصريين وغيرهم يصدق ذلك، ومنهم من لم يرجع عن هذا التصديق إلا بعد نشر كتاب «عباس حلمى الثانى» للورد كرومر، والذى صرح فيه بأن حياة عباس الثانى مع الاحتلال كانت حياة خلاف وشقاق»(٢).

= وعلى ما يبدو أن آراء الكواكبى نحو العثمانيين قد تغيرت منذ أن نفى إلى مصر، ولما لاقاه من ظلم واضطهاد على أيدى العثمانيين ولاسيما فى الفترة التى استبد بها السلطان عبد الحميد والتى قبض فيها على الدولة بيد من حديد حتى يتمكن من مواجهة الغوائل التى تحيط بالدولة من كل جانب، كما أن آراء الكواكبى كانت تشغل آنذاك فى نظر السلطان عبد الحميد عائقًا نحو مشروع الجامعة الإسلامية، لذا ظل مضطهداً من قبل العثمانيين، فلا عجب أن نراه يوجه جل همه وأفكاره نحو العرب. ويثير مثل تلك الأحقاد والضغائن بين العرب والأتراك.

(١) عمر عبد العزيز، تاريخ المشرق العربى، مرجع سابق ص٤٢٨.

(٢) محمد الخير عبد القادر، نكبة الأمة العربية، مرجع سابق ص٧٢.

ومن العرض السابق لسياسة التتريك إبان عهد السلطان عبد الحميد الثانى، اتضح لنا أن طيب العلاقات بين العرب والأتراك كانت هى الظاهرة السائدة طوال ذلك العهد، اللهم إلا بعض الحالات التى كانت تدبر بفعل المكائد الأجنبية، كمحاولات بريطانيا إحياء الخلافة العربية، وتفجير ثورة الشريف حسين ضد الأتراك، لإحداث شقة بين الجنسين المسلمين: العرب والأتراك.

ولكن كان السلطان عبد الحميد بإدراكه الواعى، وخبرته الطويلة، كان يقطع عليهم سبل محاولاتهم، لذا نراه يتقرب إلى العرب ويعينهم فى الوظائف المهمة فى الدولة، وفى أعلى مراتب الجيش، كما نراه يدعو إلى مشروع الجامعة الإسلامية لجمع كلمة المسلمين جميعًا فى إطار سياسى واحد، درءًا للانشقاق الطائفى، وتجنبًا لبزوغ القوميات البغيضة.

وإن كان العرب قد عانوا من وطأة الاستبداد الحميدى، فقد عانى منه الأتراك أيضا، وإن كنا لا نقر الحكم الاستبدادى فى أى أشكاله وصوره، إلا أننا نلتمس بعض العذر لذلك السلطان الذى حاول أن يجمع شتات دولته قبل أن تتبعثر من حوله، فقد كانت الغوائل والمصاعب تحيط به من كل جانب، وكان عليه أن يواجه بنفسه تآمر الدول الاستعمارية التى تطمع فى تمزيق أوصال دولته، والعملاء من الصدور العظام، وكبار الموظفين الذين يعملون لحساب جهات أجنبية، كل ذلك أدى بالسلطان عبد الحميد أن يحكم بنفسه ويستبد بأمور دولته.

وقد أدى ذلك بالعرب أن باشرت بعض الأنشطة السياسية ضد الدولة العثمانية من خلال الصحف، أو الجمعيات السرية، أو إلقاء المنشورات المختلفة، إلا أن أغلب مطالبهم كانت تنحصر فى المناداة بالإصلاح الإدارى، والحكم اللامركزى، وليس الانفصال عن الدولة العثمانية، أو الانسلاخ عن دولة الخلافة.

ولذا كانت العلاقات العربية التركية فى العصر الحميدى تتسم أغلبها بعلاقات الود إلا أنه فى عصر جمعية الاتحاديين ثم الكماليين قد انقلبت تلك العلاقات يشوبها الكره والصراع القومى؛ إذ حاول الاتحاديون تتريك الدولة العثمانية فى

جميع ولاياتها بالقوة مما كون رد فعل قويًا لدى العرب الذين جابهوهم بيقظة عربية رشيدة وهذا ما سنوضحه فى الصفحات التالية.

٢- سياسة التتريك فى عهد الاتحاديين والكماليين:

عرفنا سابقا كيف دعم السلطان عبد الحميد العلاقات الودية بين العرب والأتراك فى ظل جامعة إسلامية، كان يأمل أن تمد ظلالها إلى كافة أرجاء دولته، لتربط بين أجناسها برابطة العقيدة الإسلامية التى هى أقوى روابط الجنس واللون والجوار، وبقدر ما أتيحت له من إمكانيات وطاقات وفرص عمل مواتية، تمكن من إخماد فتنة القوميات إلى حين، ولكنها بقية مستترة تحت الرماد إلى أن أوقد جذوتها الاتحاديون.

لقد تولى الاتحاديون الحكم بعد انقلاب «سالونيك» بفعل يهود الدونمة على السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٩م، وتولية السلطان محمد رشاد، الذى ظل ألعوبة فى أيدى الاتحاد والترقى، حيث هيمنوا على الحكومة والدولة إلا أنها شهدت أسوأ العلاقات بين العرب والأتراك، فقد حاول أعضاؤها فرض المركزية الإدارية، وذلك بتتريك شعوب الدول العثمانية بهدف تتريك كل القوميات، وإنشاء أمة تركية قومية، وهو ما يعرف بالجامعة العثمانية، وهذا اتجاه يتعارض بطبيعة الحال مع اتجاه الجامعة الإسلامية الذى كان يدعو إليه السلطان عبد الحميد وجمال الدين الأفغانى.

وقد شهدت العلاقات بين العرب والأتراك فى فترة الحكم الاتحادى حتى قيام الحرب العالمية الأولى عدة تغييرات، أملتها الحوادث والظروف التى مرت بها حكومة الاتحاديين، الأمر الذى أدى إلى تطور سياستهم تجاه فكرة التتريك على النحو التالى:

أ- الدعوة إلى الجامعة العثمانية:

وكانت تلك الدعوة هى أول اتجاه لرجال الاتحاد والترقى عقب توليهم الحكم، وكانت نظرتهم فى بادئ الأمر من خلال ذلك الاتجاه الطيب، إذ إنهم يريدون أمة

عثمانية يتساوى فيها جميع الرعايا فى الدولة على اختلاف جنسياتهم، وقد وجد ذلك الاتجاه اعتراضًا لدى القوميات الأخرى غير التركية، إذ رأت تلك العناصر أن تمسكها بالعثمانية يعنى تخليها عن قوميتها الأصلية، ولاسيما العناصر غير الإسلامية، وقد اضطرت جماعة الاتحاد والترقى أن تتخلى عن ذلك الاتجاه بعد أن تجددت الاضطرابات القومية فى البلقان، وفى أرمينية، وذلك بسبب خروج سياسة الاتحاديين عن مبدأ العثمانيين فى المساواة بين الأتراك والعناصر الأخرى.

ب- الدعوة إلى الجامعة الإسلامية:

التجأت جماعة الاتحاد والترقى إلى فكرة الجامعة الإسلامية لا إيمانًا بأهميتها، وإنما حرصًا على مصلحة الدولة، والمحافظة على كيانها، وكانوا يلجئون إليها كلما أحوجتهم الظروف، كما حدث فى محنتهم فى الحرب الطرابلسية مع إيطاليا، وحروب البلقان إلا أن أملهم فى هذا الاتجاه سرعان ما ضاع أدراج الرياح بسبب اندلاع الثورات فى ألبانيا واليمن وحوران. ولم يؤت ثماره المرجوة منه من كسب العرب والأكراد والمسلمين بصفة عامة.

ج- الدعوة إلى الجامعة الطورانية:

وقد ظهرت تلك الدعوة بعد حرب البلقان واستيلائهم على «أدرنة» عاصمتهم الأوربية الأولى قبل القسطنطينية عام ١٩١٣م، إذ حركت تلك البلدة ذكريات الانتصارات التركية القديمة، وقد كان الهدف من تلك الدعوة هو كسب التتر الواقعين تحت سيطرة الدول الأخرى. وقد ثبت للاتحاديين عدم جدوى الاتجاه الأول والثانى، بينما بقى الاتجاه الأخير «الحركة الطورانية» عماد دعوتهم فى سياسة التتريك، وهو الذى خرجت منه القوميات التركية الحديثة(١).

ولما كان هذا الاتجاه سببًا فى تدهور العلاقات بين العرب والأتراك، إبان عصر الحكومة الاتحادية، يفضل أن نقف عنده وقفة متأنية، نبرز من خلالها الأساس

(١) المرجع السابق ونفس الصفحة.

الفلسفى الذى قامت عليه فكرة الطورانية، ثم نبين أهدافها، وطرق تنفيذها، والنتائج التى ترتبت على شيوع تلك الفكرة، وفرضها على العرب.

أساس فكرة الطورانية:

تقوم فكرة الطورانية على أساس التأليف بين الناطقين باللهجات التركية أولا، ثم تكوين اتحاد حلفى منهم ومن الأمم التى أصلها طورانى مثل: المجر «هنغاريا» والبلغار وفنلندا، وهى حركة تركية بحتة تعتبر الأتراك عنصرًا نقيًا له سماته السلالية والتاريخية، ويمكنه أن يخلق قومية على غرار القوميات الأوربية التى ظهرت آنذاك كالنازية مثلا، وتهدف فكرة الطورانية إلى إعلان القومية التركية، وتدعيم الصلات بين الترك فى الدولة العثمانية وسائر أجناسها فى وسط آسيا، ويقوم أساسها الفلسفى على الدعوة إلى:

١- ربط أتراك الدولة العثمانية بسائر أجناسهم خارج الدولة.

٢- تحرير التراث التركى والثقافة واللغة من المؤثرات العربية والفارسية.

٣- العمل على سيادة العنصر التركى وتفوقه بتتريك سائر الجنسيات فى الدولة.

ولتدعيم تلك الاتجاهات فقد تم تأسيس أكاديمية تركية عام ١٩١٢م، وترجمة القرآن الكريم إلى اللغة التركية، ثم أنشئ اتحاد «بنى لسان» أى اللغة الجديدة و«اتحاد بنى حياة» أى الحياة الجديدة لتنقية اللغة التركية من الألفاظ العربية والفارسية[1].

وقد أساءت تلك الحركة الطورانية بعصبيتها البغيضة إلى الشعور القومى لغير الأتراك ولاسيما العرب، الأمر الذى دفعهم للدفاع عن قوميتهم وإبرازها فى صورة المجابهة، مما أدى إلى انفصام عرى الوحدة الإسلامية فى مماليك الدولة العثمانية.

وتستمد القومية الطورانية أفكارها من فيلسوفها «ضياء آلب»، إذ اعتبرها كأساس دولى عالمى، ورأى فيها عوضًا عن الخلافة الإسلامية، لذا نراه يدعو إلى سلخ تركيا من ماضيها القريب، وإعادة تكوينها تكوينًا غربيًا قوميًا خالصًا، وما

(١) حركة اليقظة العربية ص١٤٩ ـ ١٥٤، وتاريخ المشرق العربى ص٢٩١، ٢٩٢.

ذلك إلا لسبب واحد فى رأيه هو أن الحضارة الغربيــة هى امتداد للحضارة القديمة التى ساهم الأتراك السلف - سكان آسيا الوسطى فى العصر الطورانى- فى تكوينها، ثم ساهم الأتراك المسلمون فى رقيها ونقلها إلى أوروبا[١]، ومن رواد تلك الفكرة بجانب «ضياء آلب» يوسف آقشورا بك، وجلال نورى بك، وأغا أوغلى أحمد بك، وحمد الله صبحى بك، وغيرهم كثيرون[٢].

ومن الأمور التى ينبغى الإشارة إليها أن ذلك الاتجاه الطورانى كان على الصعيد الرسمى للاتحاديين وعلى الرغم من سطوته وجبروته، إلا أنه كان يوجد بعض المعارضين له على المستوى الشعبى، ومن المناصرين للجماعة الإسلامية، وهم عامة الشعب التركى ولاسيما فى الأناضول، غير أن آراءهم كانت قاصرة، ولم تحرك ساكنًا إزاء تسلط الاتحاديين بفكرة الطورانية، الأمر الذى جعل المتطرفين من الاتحاديين ثم الكماليين أن يظفروا بالغلبة ويوجهوا الأحداث وفق مخططهم[٣] الذى ارتسمه لهم مصطفى كمال أتاتورك، وشعارهم الابتعاد عن الدين وإهمال فكرة الجامعة الإسلامية إلا إذ كانت خادمة لنفوذ القومية الطورانية.

ومن أقوالهم: «نحن أتراك فكعبتنا طوران»[٤]، كما أنهم راحوا يتغنون بمدح جنكيز خان، ويعجبون بفتوحات المغول، ولا ينكرون شيئًا من أعمالهم. ولا غرو فى ذلك فالمغول سلالة من الترك.

---

(١) المرجع السابق.

(٢) أبو الحسن الندوى، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة العربية ص٤٧.

(٣) الشيخ مصطفى صبرى، الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية ص١٧٤.

(٤) ينظر رد الشيخ مصطفى صبرى على مقال نشر فى جريدة الأهرام المصرية يوم ٨ ديسمبر ١٩٢٣م بقلم كاتب مصرى يتحدث عن شيوع الفكرة الطورانية فى أنقرة على أيدى « يوسف أقشورا بك»، إذ يرى الكاتب المصرى أن ذلك الرجل وأمثاله يعتقدون أن الدين الإسلامى هو عبارة عن احتلال عربى بسط سلطانه على الترك ودخل بيوتهم، وجعل لنفسه سيادة على نفوسهم، ومن الواجب الخلاص منه، ويقولون أيضا: لأن الوضوء وسائر القواعد الإسلامية وضعت لأمم تسكن البلاد الحارة والمعتدلة، أما الترك وأمثالهم من أبناء الأمم الباردة فلا تلائمهم هذه القواعد. الكتاب السابق - الأسرار الخفية.

وفى الحقيقة أن ذلك الاتجاه الذى تبناه مصطفى كمال لم يكن هو الاتجاه الوحيد فى تركيا على الرغم من علو صوته، فقد كان هناك المعتدلون من أصحاب اتجاه «القومية العثمانية الإسلامية»، وتميل إليه الفئة الكبرى من العلماء، بل إن بعضهم ينفى أن هناك أدنى صلة بين الترك العثمانيين والمغول، ويصفون أعمال جنكيز خان وهولاكو وقومهما بمثل ما وصفها به مؤرخو العرب والفرس والإفرنج، حتى قال أحدهم وهو طاهر المولوى: ليس للترك أن يفخروا بمثل هؤلاء المفسدين فى الأرض، العابثين المدمرين الذين كانوا علة انحطاط الشرق عن الغرب، وأعظم بلاء وقع على الإنسان، وإذا أراد الأتراك المسلمون صحيفة حسابهم فليراجعوا تاريخ آل طولون بمصر، وتاريخ السلاجقة وآل زنكى، والدولة العثمانية، وقال جلال نور -صاحب التصانيف الاجتماعية العديدة- الترك العثمانيون هم مسلمون أولاً، ترك ثانيًا[1].

شعار الطورانية «الذئب الأغبر»:

شعار الذئب الأبيض -أو الأغبر- هو رمز الأتراك القدامى، وكان مصطفى كمال قد بعثه إبان فترة حكمه ليقوى به نزعة القومية الطورانية، وقد تم نشره على بعض طوابع البريد فى حكومة تركيا الجديدة.

ويروى لنا الشيخ مصطفى صبرى أسطورة ذلك الشعار، وكيف اتخذ منه الأتراك القدامى شعارًا فعندما انسحب هؤلاء الأتراك إلى «أركنة قونة» بعد انهزام أصابهم، بقوا فى مجموعة من البقاع، محاطة بسلسلة من الجبال، ولما تكاثروا فيها بمرور الزمن أخذوا يبحثون فيها عن مخرج، وتصادف أنهم أضرموا نارًا ذات يوم على سفح جبل، وصادفت تلك النيران فلزًا من الحديد وأذابته، فانفتحت منه فوهة، وكان أول من مر على هذه الفوهة ذئب أغبر، فمشى القوم على أثر ذلك الذئب، ثم خرجوا وفتحوا بعده الدنيا، وأشادوا ملكًا عظيمًا.

---

(١) المصدر السابق ص١٧٥.

ومنذ ذلك الحين صـار الحديد والذئب مكرمين عند التـرك، ومن ثم ظهر على رايات الأمراء والخواقين القدماء، وكانوا يركزون على أعلامها رءوس الذئب[1].

ومما لا شك فيه، أن إحـياء ذلك الشعار الطوراني فى تركـيا الكاملة آنذاك كان بداية مشجـعة لرفع الشعارات الوطنية والقـومية فى سائر ممالك الدولة العثـمانية، فإذا بالفـرعونيـة تبرز فى مصـر، والفينيـقية فى الشـام، والبابليـة والآشورية فى العراق، والسبئيـة فى اليمن، والبربرية فى المغرب، وقد قام المبشـرون والاستعمار والمستشرقون بـالترويج لهذه القوميات على سبيل الدعـوة لإحياء الوطنية، ولتكون عوضا عن القومـية الإسلامية، ومن ثم قضوا على كل قـومية ترتبط بالإسلام فى الوقت الذى تم فيه ربط هذه القوميات بالغرب وقوى الاستعمار المختلفة.

- الاتحاديون والقضية العربية:

إن سياسة الاتحاد والترقى وبخاصة بعد وقوعها تحت الفكرة الطورانية قد ساعد على تقوية الشعور بالذاتية العربية فى مقابل الشعور بتلك الفكرة الجائرة التى بدأت تحكم تصرفات المسئـولين آنذاك، فإذا بالنفور والتباعد والخـصام يحل محل الوئام العربى التـركى الذى ساد قرونًا طويلة، ولا غرو فى ذلك، فـإن الفكرة الطورانية هى فى حقيقـتها إحياء للعصبـية التركية التى أعد لها الاتحـاديون إعدادًا محكمًا، وخصصـوا لها دعمًا ماليًـا كبيرًا، أطلق عليه «إعـانات الملية التركية»، وكـان كبار الاتحاديين أعضـاء منتمين إليها، ومن ثم برزت سـياستهم فى هذا الصدد متـجهة نحو سياسة الأتراك الإجبارية للشعوب العربية والشعوب الإسلامية الأخرى.

وقد حملت سيـاسة التتريك فى طياتها بذور العداوة والجـفاء للعرب وللإسلام معًا، إذ قـرنوا الإسلام بالعرب، وبدأوا يعملون على دحـر هذين العنصرين دحرًا ساحقًـا، حتى ينفسح المجال أمـام سياسة العنصر التـركى، ومن الأمور التى تمت على أيدى الاتحاديين، وتسببت فى نفور العرب فى إطار سياسة التتريك:

---

(1) شكيب أرسلان: حاضر العالم الإسلامى ج١ ص١٥٧ وما بعدها.

- كون الاتحاديون لجانًا لتصفية الموظفين غير الترك فى الدولة، وتم عزل عدد كبير منهم، حتى لم يعد منهم فى وزارة الخارجية التركية سوى موظف واحد من العرب، وكان تعليلهم لذلك الأمر أن الأمة التركية هى الأمة الحاكمة فى السلطنة العثمانية، وينبغى أن يتمتع أفرادها بحقوق وامتيازات سامية بصفتهم الأمة الفاتحة، ومن ثم فهم يرون أنه لا مجال مطلقا للاعتراف بحقوق مساوية للعناصر الجنسية الأخرى.

- محاولات فرض اللغة التركية على مختلف العناصر وأجناس الدولة بمن فيهم العرب، وهذا بطبيعة الحال سوف يكون على حساب اللغات القومية لهذه العناصر، وقد تم ذلك فى المدارس الأهلية والحكومية بهدف التتريك، كما تم ذلك أيضا فى المحاكم، إذ اشترطوا أن تكون المرافعات باللغة التركية، ولم يقتصر الأمر على فرض اللغة التركية فى هذين المجالين بل امتدت على أغلب أنشطة العرب فى التجارة وتقديم البيانات إلى دوائر الجمارك، كما حرم الأعضاء التحدث باللغة العربية فى مجلس «المبعوثان» أو التقدم بشكاوى إلى ذلك المجلس إذا كتبت بالعربية. وقد أدت سياسة تتريك اللغات بالاتحاديين إلى ترجمة القرآن الكريم باللغة التركية، مما شكل مشكلة دينية ذات طابع قومى، فقد دفع بهم كرههم للعرب أن يبدلوا لغة القرآن، وهذا فى حد ذاته يعتبر ظاهرة عدائية للإسلام والعروبة معا، وقد عرفنا سابقا أن جمال الدين الأفغانى قد نصح الأتراك بالتعريب حفاظًا على هيبة الدولة، وتوطيداً لمركز الخلافة العثمانية، من هنا فإن محاولة الاتحاديين تتريك العرب - أصحاب اللسان العربى - كانت من أكبر العوامل التى أدت إلى نفورهم من حكم الأتراك الجدد.

- تمسك الاتحاديين فى حكمهم بالنظام المركزى المستبد والذى فاق عهد السلطان عبد الحميد، وذلك لأن النظام المركزى للاتحاديين قد قام على أساس سيادة العنصر التركى، الأمر الذى أزعج العرب، ودفع بهم إلى النفور، إذ جاءت تلك السياسة مصادمة لمطالبهم التى كانوا ينادون بها وهى الإصلاح الإدارى فى ظل النظام اللامركزى تتعاون فيه كل العناصر على قدم المساواة.

- تحكم الاتحاديون فى نتائج الانتخابات لمجلس «المبعوثان» بطريقة تضمن فوز الترك بأكثرية المقاعد وإغفال بقية العناصر فى اختيار عدد من النواب يتناسب وأعدادهم، وقد ذكرت بعض المصادر أن عدد سكان الدولة آنذاك كان يتراوح ما بين (٣٢) مليونا، منهم: ١٠,٥ مليون من العرب، ٧,٥ مليون من الترك، أى أن العرب كانت تشكل $\frac{٢}{٥}$ سكان الدولة تقريبًا، وقد صار يمثلهم رسميا (٦٥) نائبا فقط من جملة عدد أعضاء المجلس البالغ عددهم (٢٧٥) عضوا، وكان من المفروض أن يكون عددهم (١٠٠) عضو تقريبا. كذلك كان الحال فى مجلس الشيوخ حيث لم يمثل العرب فيه سوى ثلاثة من أعضائه البالغ عددهم الأربعين.

- كما ظهرت بعض القضايا العربية التى كانت تتطلب علاجا سريعا من حكومة الاتحاد والترقى، ولكنها أعرضت صفحًا عن تلك القضايا مما أغضب العرب وساعد على نفورهم مثل: قضية اليمن[(١)] والعراق[(٢)] وطرابلس[(٣)].

- والمعارضة العربية فى مجلس «المبعوثان» التى لم تلق بالا من الاتحاديين والكماليين[(٤)]، فقد دأبت حكوماتهم على التسويف إذا ما عرضت القضايا العربية

(١) الأسرار الخفية، المصدر السابق ص١٩٧.

(٢) كانت اليمن دائمة الثورة ضد الأتراك، وقد طالب الإمام يحيى بوضع مشروع لتسوية مشكلة اليمن، وكاد الصلح أن يتم بواسطة عزيز المصرى، وقد وضع ذلك المشروع فعلا وتم تقسيم اليمن إلى دولتين: أحدهما على الساحل والأخرى فى المنطقة الجبلية. على أن تعهد بالأخرى إلى الإمام يحيى، ولكن المشروع فشل، إذ إن مثل ذلك المشروع سوف يؤدى إلى تقسيم الدولة، وقد خشى الأتراك أن يطالب الإدريسى فى عسير بامتيازات مثل الإمام يحيى، وقد أدى رفض المشروع إلى اندلاع الثورة مرة أخرى، وقد أخذت الصحف الاتحادية تشن هجوما عنيفا على العرب مطالبة باستخدام الأسلوب الإستعمارى الإنجليزى فى اليمن.

(٣) مما أغضب العراقيين أن جماعة الاتحاد والترقى عقدت مع شركة «لنسن» الإنجليزية اتفاقًا، كان بمقتضاه أن انضمت البواخر العثمانية العاملة فى أنهار العراق إلى البواخر الإنجليزية فى شركة واحدة تحتكر النقل النهرى فى العراق لمدة خمسة وسبعين عاما على أن تكون نصف أسهم الشركة الجديدة ملكًا للاتحاديين والنصف الآخر لشركة «لنسن»، وقد أدى ذلك إلى تزايد السخط فى العراق خوفًا من تزايد النفوذ البريطانى فى المنطقة.

(٤) وجهت إيطاليا قواتها للاستيلاء على طرابلس الغرب فى سبتمبر١٩١١م، وقد أثار ذلك العدوان العرب، فهاجموا حكومة الاتحاد والترقى، واتهموها بالتواطؤ مع إيطاليا، وبخاصة عندما اتجهت لعقد صلح مع الإيطاليين، وقد تم تنفيذ الصلح عام ١٩١٢م على أساس انسحاب القوات العثمانية من طرابلس الغرب وبرقة فى مقابل انسحاب إيطاليا من الجزر التركية التى كانت قد احتلتها فى بحر إيجة، وقد أثار ذلك الصلح غضبة العرب واستياءهم من موقف الاتحاديين السلبى فى نجدة طرابلس.

على مجلس «المبعوثان» ولاسيما تلك القضايا التى كانوا يطلبون فيها بالإصلاحات والتوسع فى النظام اللامركزى وتمثيلهم فى وظائف الدولة تمثيلاً يتناسب مع نسبتهم العددية.

تلك كانت القضية العربية بأبعادها السياسية والقومية، والتى تتمثل فى المطالبة بحقوقهم المشروعة إزاء جماعة الاتحاد والترقى التى أرادت بسياسة التتريك «تسييد» العنصر التركى وإساءة الشعور القومى لدى العرب، وذلك بتتريك اللسان العربى، والتهجم على الدين الإسلامى، وإبعاد العناصر العربية من الوظائف العليا فى الدولة، والتآمر مع الدول الأجنبية لفرض الحماية على البلدان العربية، ثم تسهيل استيطان اليهود فى فلسطين.

ولا غرابة فى أن تقف جماعة الاتحاد والترقى من العرب هذا الموقف، فقد كانت موضع الشبهات منذ وقت مبكر، وقد عرفنا سابقًا بأنها جمعية يهودية، وأن أعضاءها لم يكونوا أتراكًا ولا مسلمين، وقد أفادت التقارير عن علاقة الاتحاديين بالصهيونية التى باتت تخطط لبعث القوميات وإحداث الفتنة بين شعوب الأمم. وقد نص البروتوكول الخامس على ما يلى: «.. وقد خلقنا الحزازات بين المصالح الشخصية والقومية للأغيار عن طريق استثارة العداوات الدينية والعنصرية التى غذيناها فى قلوبهم مدة عشرين قرنًا»[1].

ولعلنا من العرض السابق لسياسة التتريك بصفة عامة ندرك أنها خطة يهودية شجعت رجالات الاتحاد والترقى على القيام بها لفرط عقد الدولة الإسلامية، وذلك بالضرب على أوتار القوميتين التركية والعربية اللتين تشكلان أغلب سكان تلك الدولة، وقد حرص السلطان عبد الحميد على عدم ظهورها بين شعوب

(١) وقف الاتحاديون موقفًا متراخيًا من مسألة فلسطين والحكم الذاتى، وقد عين «فيكتور جيلكسيون» الصهيونى، ومدير الشركة الإنجليزية الفلسطينية فى بيروت ممثلا للمنظمة فى الآستانة، والذى أخذ يتعاون مع يهود الدونمة الذين كان يضمهم البرلمان العثمانى فى الحصول على امتيازات كبيرة، وتسهيلات عظيمة، نحو استيطان اليهود فى فلسطين، مثل بيع الأراضى الفلسطينية لليهود، وتيسير الهجرة إلى الأراضى المقدسة، والحصول على قروض مالية لمواجهة حرب البلقان.

دولتـه، إذ تمكن لحين مـن الوقت أن يذيب هاتين القـوميـتـين فى إطار سيـاسى إسلامى واحد وإن كانت هنـاك بعض المحاولات لشيوع فكرة القوميـة العربية فهى مـحاولات جـزئية لم تشكـل خطورة تذكر كـتلك التى بدرت من عـبد الرحـمن الكواكبى ونجيب خدورى.

أما اشتعال الفتنة بين الأتراك والعرب، فقد تمت فى عهد الاتحاديين الذين أحيوا الفكرة الطورانية لسيـادة الجنس التركى ثم حاولوا بعد ذلك فرض سيـاسة التريك على العـرب، الأمـر الذى أدى إلى نفـورهم من الأتراك من ناحـيـة، ثم عـجل بسقوطهم فى قبضة الحماية الأجنبية والاستعمار الأوروبى من ناحية أخرى.

ولا أدل على ذلك من الثورة العربية الكبرى التى خيبت آمال العرب، ففروا من السندان إلى المطرقة، وكانت تلك السياسة بلا شك من أكبر العوامل التى أدت إلى سقوط الخلافة(*) العثمانية التى لم يعد لها جدوى فى جمع شتات العرب والأتراك فى نظام حكم إسلامى واحد.

❀❀❀

(*) قال الإمام أحمد فى مسنده: حدثنا الحكم بن نافع، حدثنا إسـماعيل بن عياش، عن ضمضم بن زرعة، عن شريح عن كثير بن مرة عن عـتبة بن عبد أن النبى ﷺ قال **«الخلافة فى قريش والحكم فى الأنصار والدعوة فى الحبشة»** مسند أحمد ج٤ ص١٨٥ .

الفصل الثالث:

إلغاء الخلافة وإعلان الجمهورية

أولاً: تمجيد الحضارة الغربية وتغريب تركيا

ثانيًا: فصل الدين عن الدولة وإلغاء الخلافة

أولا: تمجيد الحضارة الغربية وتغريب تركيا

كانت الخطوة الأولى التى تسربت من أوروبا إلى كيان الدولة العثمانية تمهيدًا لانتشار العلمانية هى استيراد النظم الحضارية والمبادئ من أوربا، إذ لم نعرف حكومة إسلامية طوال عصور الخلافة قد استوردت المبادئ والنظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية من خارج الدولة الإسلامية، لما فى الإسلام من الكفاية فهو دين ودولة.

وللإنصاف نقول: إن الدولة العثمانية ظلت قرونا محافظة على تلك القاعدة رغبة فى خدمة الدين، وبذلت الدماء والأموال فى سبيل ذلك، وكان الشعب التركى المسلم أشد الشعوب الإسلامية تمسكًا ومحافظة على التقاليد الإسلامية الموروثة بوصفه شعب الدولة المسلمة الحاكمة آنذاك، وكان يغذى تلك التقاليد وعى إسلامى أصيل انبثق من عقيدة إسلامية صحيحة، ولنضرب لذلك مثلا واحدًا لعله يكون دليلنا فى إبراز تلك الفكرة وهو: حجاب المرأة المسلمة، فهذا تشريع إسلامى أصيل ظل الشعب التركى متمسكًا به لفترة طويلة إيمانًا منهم أنه ضرورة إيمانية، ووعيًا كافيًا بأهميته لستر حياء المرأة المسلمة.

تقول عائشة رضى الله عنها: «رحم الله نساء الأنصار، لما نزلت آية الحجاب عمدت كل واحدة منهن إلى ثوبها فاعتجرت به» أى لفته فوق رأسها ووجهها. وقد أخرج أبو داود وغيره عن أم سلمة قالت: لما نزل قول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ**﴾ [الأحزاب: ٥٩] خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من أكسية سود يلبسنها[١].

(١) تتعالى اليوم بعض أصوات الباحثين بأن الحجاب ليس تشريعًا إسلاميًا مفروضًا على المرأة المسلمة، وإنما هو تقليد عربى بدوى تمسك به المسلمون بعد إسلامهم، وبعضهم يرجعه إلى أنه تقليد تركى، لما عرف عن جمال المرأة التركية. وقد أحدثت تلك الأصوات بلبلة فكرية لدى بعض المسلمين الجاهلين لحقيقة الحجاب وأصله التشريعى فى القرآن والسنة والفقه الإسلامى. وللمزيد من ذلك يقرأ كتاب «حوار هادئ =

لقد وعى الشعب التركى المبادئ الأخلاقية من وراء ذلك التشريع الإسلامى، فحافظ علية لفترة طويلة، ولكن حينما غاب الوعى الإسلامى فى الفترة الأخيرة، صارت تلك التقاليد مجرد تقاليد خاوية من الروح الإسلامية والمبادئ الأخلاقية، لذلك لا نعجب أن نرى تلك التقاليد تزول نهائيًا بمجرد اصطدامها بمؤثر فكرى دخيل ضمن مخططات الغزو الفكرى والتغريب التى ابتليت بها تركيا والعالم الإسلامى بأكمله، والتى دعت إلى تحرير المرأة وخروجها سافرة، ولم تدم تلك الحملة أكثر من نصف قرن حتى زال حجاب المرأة وزالت أكثر التقاليد الإسلامية التى ظلت مرعية طوال عهد السلاطين العثمانيين الأقوياء.

ويشير الشيخ مصطفى صبرى شيخ الإسلام فى تركيا أن مصطفى كمال قد أفتى لنفسه ولحكومته فى «مسألة اختلاط النساء بالرجال ومقابلتهن بمن يلقين من الرجال بزيهن»(١). وقد أجبر نساء أنقرة على نبذ الحجاب، وخرجت زوجته سافرة ترتدى مثل ثياب الرجال، وتحرض نساء أنقرة على المطالبة بمساواتهن بالرجال(٢).

ولم يقتصر مصطفى كمال على ذلك الأمر. وإنما أراد أن يغير عقول الأتراك ويغسلها تماما من كل تقليد إسلامى موروث فى أنماط معيشتهم وأساليب حياتهم ليصل بهم للنمط الأوروبى الذى خطط له. وقد توهم أن استبدال غطاء الرأس من العمامة إلى القبعة سوف يؤدى إلى تغيير العقلية المسلمة ودفعها إلى التمدن بخطى سريعة نحو أهداف الغربيين فينال رضاهم وعطفهم، لذا نراه يقيم محاكم الاستقلال فى شتى البلاد لتأمر بالشنق والسجن على كل معترض ومتمرد على ارتداء القبعة، ثم أصدر أوامر بإلغاء الحروف العربية(٣)، وأمر بترجمة القرآن إلى

= مع محمد الغزالى» للشيخ سليمان بن فهد العودة - الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ، إذ يشير ذلك الكتاب لبعض القضايا الإسلامية المختلف حولها.

(١) النكير على منكرى النعمة من الدين والخلافة والنعمة، حققه د/ مصطفى حلمى تحت عنوان «الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية» دار الدعوة -الإسكندرية- الطبعة الأولى١٩٨٥م ص١٧٠ ويعد ذلك الكتاب من أهم المصادر التى اعتمدنا عليها نظرًا لأن مؤلفه كان شاهد عيان لأحداث العصر.

(٢) س. أرمسترونج «الذئب الأغبر» مصطفى كمال، دار الهلال ١٩٥٢م ص٢٠٦.

(٣) وقد أشارت جريدة الفتح فى عددها الثالث الصادر بتاريخ ٨/ ١١/ ١٩٢٢م إلى تلك القضية، وبينت فى =

اللغة التركية، وجعل الأذان باللغة التركية أيضًا، وجعل العطلة الأسبوعية يوم الأحد، واتخذ التقويم الغربى تقويمًا رسميًا للدولة. وأصدر قانونا سماه القانون المدنى الذى غير به حياة الأتراك الأسرية والاجتماعية والاقتصادية، من نظمها الإسلامية إلى النمط الأوروبى، وأخيرًا لكى يمحى كل أثر يمت إلى العالم الشرقى الإسلامى بصلة قام باستبدال عاصمة الدولة من الآستانة إلى أنقرة عام ١٩٢٣م[(١)].

وإن كانت تلك الأفكار قد وجدت صداها لدى الشعب التركى فلابد من الإشارة إلى العقل المدبر الذى خطط لها بكل دقه ودهاء: إنه «ضيا كوك آلب»[(٢)]

= مقال للشيخ مصطفى صبرى خطر الحروف اللاتينية، والتى اعتبرها الكماليون حروفًا تركية بين عشية وضحاها، أما الحروف العربية التى استعملها الترك منذ ألف سنة فيرونها أجنبية، وكان العداء للأجنبى منصبًا على العرب وكل ما يتصل بهم، بينما القضية خلاف ذلك تمامًا فإن كان الكماليون يريدون التخلص من العرب، فيجب عليهم أن يخرجوا الكلمات العربية كلها من اللسان التركى، وإذا هم فعلوا ذلك فلا يبقى حينئذ شيء اسمه لغة تركية، لأن اللغة التركية تشهر فى ذلك الحين إفلاسها فيمتنع على الترك النطق والبيان.

وقد أنذرهم السير «إدوار رينسون روسى» مدير مدرسة اللغات الشرقية فى لندن من استعمال الحروف اللاتينية فى كتابة اللغة العربية، وذلك لأن الحروف العربية هى حروف القرآن، وإذا مست تلك الحروف فسوف تمس القرآن، وتتسبب فى ضياع الإسلام، كما أشارت الفتح إلى أن استعمال الحروف اللاتينية حول اللغة التركية إلى لغة غير مفهومة، فقد اتخذ حرف S للدلالة على الثاء والسين والصاد، وحرف Z للدلالة على الذال والزاى والظاء، وأبدلت حرف الزاى بحرف التاء وأبدلت حرف الخاء والحاء بحرف h فقط. ينظر ما أشارت إليه جريدة الفتح فى هذا الصدد فى كتاب «تاريخ الصحافة الإسلامية»، أنور الجندى - الجزء الثانى - جريدة الفتح، دار الأنصار، القاهرة ص١٩٠.

(١) محمود ثابت الشاذلى «المسألة الشرقية، دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية» مكتبة وهبة، القاهرة، طبعة أولى ١٩٨٩م ص٢٤٠، ٢٤١.

(٢) هو أبو الضيا بك «١٨٤٩-١٩١٣م» من الأدباء الأتراك المعارضين للسلطان عبد الحميد، تعلم فى أوروبا وأجاد الفرنسية وشغل عدة مناصب هامة فى الدولة العثمانية منها مدير المدرسة الفنية، وعضوية مجلس الشورى، أصدر مجلة باسمه هى مجلة مجموعة «أبو الضيا»، أبعده السلطان عبد الحميد إلى رودس وقونية، ثم عاد إلى استانبول بعد انقلاب ١٩٠٨م الذى دبر ضد السلطان عبد الحميد ثم أصبح بعد ذلك نائبا برلمانيا، وكانت له مطبعة مغلقة فأعاد افتتاحها، ثم أعاد إصدار جريدة أستاذه «شناسى» توحيد أفكار «التى كانت تنشر أفكاره التغريبية». ينظر مذكرات السلطان عبد الحميد ص١٣٨.

الذى يعد نبى الاتحاديين وداعى الأتراك إلى صراط الطورانية، وقد عظمت منزلته عند الكماليين، ومن دلائل ذلك ما قامت به جريدة «توحيد أفكار» التركية، حيث نشرت صورته وكتبت تحتها: «إنه أول رجلين أسسا بنيان الجمهورية التركية أولهما مصطفى كمال، وثانيهما: أغا أوغلى أحمد»[1]، وكان يقيم ذلك الدونمى الكبير فى مدينة «سالونيك» التى كانت بمثابة المركز الأساسى للنشاط السياسى والعسكرى لجماعة الاتحاد والترقى -كما أوضحنا سابقا-. يقول السلطان عبد الحميد عن ضيا كوك: «لم أكن أنا أيضا أحب أحمد ضيا بك فى ذلك الوقت، وكذلك عندما ارتقى إلى درجة الباشا لأنه كان يستخدم ذكاءه أكثر من غيره ضد من يحقد عليهم، كان رجلا شرها يجرى وراء الانتقام جريًا»[2].

ويشير الأستاذ عباس محمود العقاد إلى خطورة فكر «ضيا كوك آلب» الذى تتلمذ على أيدى فلاسفة الفكر الماركسى والصهيونى وراح يبث فكره للأتراك عبر صحيفة «توحيد أفكار» يقول: «وفى سالونيك هذه كان يقيم «جوك آلب» فيلسوف الحركة ومبشرها الأكبر فى القرن العشرين، وجوك آلب هذا رجل غير موثوق من نسبه التركى ولم يكن من المولودين فى البلاد التركية، وإنما كان ينتمى إلى جهة فى جانب ديار بكر بالعراق، وكان يقول: إن اللغة والثقافة والشعور هى عناصر القومية وليست علاقة النسب والميلاد، وكان أكثر من هذا وذاك تلميذا للعالم الاجتماعى الاسرائيلى «دركيم»، ودركيم هذا يعرفه المتعقبون لمساعى الصهيونيين فى ميدان الثقافة، وهو رسول الماركسية فى ميدان العلم الاجتماعى».

ثم يربط العقاد بين الوسط الثقافى لمدينة «سالونيك» التى يغلب عليها يهود الدونمة أتباع «شبتاى زيفى» وبين التأثير الصهيونى، فيقول: «فمن المستحيل أن يكون هذا شأن المدينة وبيئتها الثقافية، ثم يظهر فيها فيلسوف يتتلمذ على العالم الاجتماعى الاسرائيلى دون غيره، ثم يقال إن الصهيونية لم تعمل شيئا فى هذا الاتجاه يقبله الماضون فيه كما أسلفنا عن قصد وتدبير»[3].

(١) الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية. سبق ذكره ص١٨١.
(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد ص٢٠.
(٣) «بين الكتب والناس-الحركة الطورانية»، مطبعة مصر، ١٩٥٢م، ص٤٣، وما بعدها.

وقد كتب الأمير «شكيب أرسلان» يصف حال تركيا الجديدة فى عهد مصطفى كمال بعد أن تسرب إلى غالبية شعبها التغريب والافتتان بالحضارة الغربية وأخذت بتعاليم «ضيا كوك آلب»، أن غدت الخمر والميسر ولحم الخنزير ثلاثة من أركان الترقى عند أنقرة، وقد قالت الصحف التركية آنذاك بأن المقامرة والمعاقرة هما من ضرورات المدنية الحديثة، وأنه لا مندوحة للأمة التركية إن شاءت أن تعلو فى درجات الترقى العصرى من أن تسوق أبناءها إلى اللعب والشرب وتهزأ بتعاليم الإسلام التى تعد لعب القمار وشرب الخمور من الرذائل، وقد عمدت جماعة الكماليين إلى اتخاذ قصر «يلدز» مقامراً شهيراً ضارع مونت كارلو، وأن بعض المطاعم فى أنقرة لا تطبخ سوى لحم الخنزير، ويذهب هواة التفرنج وعشاق الرقى العصرى عمدا إلى تلك المطاعم ليأكلوا لحم الخنزير وإنها أطلقت من عقال التقليد[١].

وقد يتساءل المرء عن الأسباب والدوافع التى حدت بالاتحاديين ثم الكماليين أن يتجهوا نحو ذلك التغريب الذى أفقد الأتراك هويتهم وأصالتهم التراثية.

وإذا كانت الدوافع والأسباب هى الرقى والتقدم واللحاق بمصاف الدول الغربية ألم يكن لديهم خطة إصلاحية ذات منهج إسلامى تحافظ من جهة على أصالة الشعب التركى -بوصفه شعبًا إسلاميًا- وتدفع نحو الرقى والتقدم من جهة أخرى؟.

وهل خلت الساحة الإسلامية آنذاك من المصلحين الإسلاميين حتى يتجه أصحاب التغريب نحو الحضارة الغربية ونظمها الوضعية تغترف منها وتأخذها بقضها وقضيضها؟.

إن الأمر يتطلب وقفة متأنية للإجابة عن التساؤلات، ندرس من خلالها قضية الأخذ عن المدنية الغربية والتى تعد قضية شاذة فى تاريخ الخلافة الإسلامية بصفة عامة والخلافة العثمانية بصفة خاصة.

(١) تاريخ الصحافة الإسلامية، أنور الجندى ص١٢٢، ١٢٣.

ولا يظن ظان أننا من دعاة الجمود والانغلاق عن العالم. وإنما الدارس لتاريخ الإسلام يقف على ملاحظة جديرة بالاهتمام وهى: أن الحكام المسلمين طوال عصور الخلافة كانوا يأنفون من استيراد النظم والمبادئ من عند أعداء الإسلام، ولكن إذا احتاجت الخلافة إلى بعض النظم الإدارية التى لم تكن فى رصيدها السابق وأصبحت فى حاجة إليها لترفع مستوى الكفاءة اللازمة فلا غضاضة من الأخذ ببعض أساليب غير المسلمين دون الأخذ بمبادئهم واتجاهاتهم الثقافية والفكرية، فالأخذ يكون فى إطار التنظيمات والأشكال والعلوم التجريبية، وهذا ما سبق للمسلمين أخذه من حضارات الفرس والروم والهند ولم يجدوا حرجًا فى ذلك، لأنهم لم يفقدوا هويتهم الإسلامية، ولم يعد ذلك من قبيل الغزو الفكرى، وإنما هو نوع من الاحتكاك الثقافى بين الشعوب والأمم لابد منه، وهو ظاهرة طبيعية طالما المستفيد لم يفقد أصالته، ولم يطرأ على مبادئه وقيمه ما يحولها إلى مبادئ وقيم المستفاد منه. وبنفس المنظور لم يأخذ الغربيون منا إبان عصورهم الحضارية المنظومة الحضارية بأكملها، وإنما أخذوا من جامعتنا فى بغداد وقرطبة والقاهرة وصقلية ما يحتاجون إليه فقط من الأمور التنظيمية والأشكال المادية والعلوم التجريبية، بينما سائر العلوم الإنسانية من ديانات وفلسفات وأخلاقيات فقد فرضت الكنيسة عليها حظرًا شديدًا، وضربت بيد من حديد على دارسيها من طلابهم إلا فى إطار الحاجة التى تراها الكنيسة.

والآن نتساءل: هل اتجه الأتراك نحو الحضارة الغربية بنفس المنظور الذى اتجه به القدماء من المسلمين والغربيين على السواء؟.

إن الوضع مختلف أشد الاختلاف فقد اتجهوا إلى الحضارة الغربية وهم فى خواء روحى وتخلف عقدى مما هيأ لغزو فكرى وليس احتكاكًا ثقافيًا مفيدًا، فقد انهارت الحواجز المنيعة لانهيار القيم الدينية ولم يعد فى مقدورهم التفريق بين ما ينبغى عليهم أخذه وما ينبغى عليهم تركه، نعم كانوا متخلفين فى كل شىء والغرب يملك تقدمًا علميًا وتقنيًا هائلاً وأنماطًا تنظيمية مبدعة، وروحًا من الجلد

والصبر على العمل والإنتاج، كما كان يملك قدرة عملية على مواجهة المشكلات، وهذه الأمور جميعًا - بلا شك - كان المسلمون الأتراك فى مسيس الحاجة إليها.

وبجانب ما يملكه الغرب من التقدم العلمى كان يمتلك قدرًا هائلاً من الفساد الخلقى والدينى واتجاهات من الفكر الضال، لا ينبغى للمسلم أن يأخذ به، كما كانت تختلط نظمه الاقتصادية والسياسة والاجتماعية، الصحيح منها بالفاسد.

فما الذى أخذه الأتراك بالفعل من الحضارة الغربية؟

إن المتصفح لتاريخ النهضة التركية الحديثة وما آلت إليه البلاد فى عهد الاتحاديين ثم الكماليين يخرج بثلاث ملاحظات فى ذلك الصدد:

الأولى: أنهم لم يتجهوا إلى الأمور النافعة ولاسيما العلوم التجريبية اتجاهًا نافعًا، وإنما تقاعسوا فى ذلك ولم تستفد بلادهم بشىء من ذلك يذكر.

والثانية: أنهم سارعوا إلى القيم المنحلة والفساد والمظاهر البراقة للحضارة الغربية فغرفوا منها بدون وعى ولا إدراك حيث توهموا أنها الأثواب التى ينبغى أن يتشح بها المتفرنج.

أما الثالثة: فقد سعوا إلى استيراد النظم الغربية، وأحلوها محل النظم التشريعية المنزلة من عند الله، وادعوا أنها أركان الرقى والتقدم لتركيا الحديثة.

يقول الأستاذ (محمد قطب): «ومن هنا فإن تيار التغريب الذى يدعو لإصلاح الحال على منهج الغرب راح يحاول تقليد أوروبا فى كل شىء، فانزلقت قدمه فى الفساد قبل أن يحاول تثبيتها بالتقدم العلمى والتقدم المادى»[(1)].

ويعطينا السلطان عبد الحميد مؤشرًا صادقًا لمدى انحراف طلاب الحضارة الغربية من رعاياه الأتراك، وكيف انبهروا ببريق تلك الحضارة، فلم يفرقوا بين غثها وسمينها، يقول: «بعض الشباب الذى كان يذهب إلى أوروبا كان يرى وقبل أن يرى ما يحدث فى المختبرات العلمية هناك أو حتى قبل أن يدير رأسه إليها،

(١) واقعنا المعاصر - مؤسسة المدينة للصحافة، جدة، طبعة أولى ١٩٨٧م ص٣٢٧.

كان يرى السيدات تراقص الرجال، وكان هذا الشباب يعجب بالأوروبيين وهم يشربون الخمر أيضا، وفى عودتهم إلى بلادهم كانوا يعملون على التوصية بكل ذلك، مدعين أن قمة الحضارة الأوربية تتمثل فى هذه الأمور. كنت أقول: إن هذا خطأ، وكانوا يتهمون تفكيرى بأنه عنكبوتى»[1].

والغريب أن هؤلاء الطلاب قد تلقفتهم العناصر الصهيونية واليهودية من الأساتذة المستشرقين الذين لقنوهم الكثير من المبادئ والاتجاهات الفكرية المضللة التى غزت عقولهم، وعششت فيها، ليسلخوهم انسلاخا كاملا عن مقومات دينهم فى السلوك والأفكار والأخلاق والعادات والتقاليد، وذلك لأنهم أوهموهم أن الحضارة الغربية كل لا يتجزأ، وينبغى أخذ المنظومة كاملة. والمتأمل فى أمر هؤلاء الطلاب يجدهم لم يتحصلوا من المنظومة الأوروبية سوى المبادئ والأفكار المضللة التى أرادها المستشرقون من اليهود والنصارى أن تعشش فى عقولهم ثم تنساب إلى إخوانهم وزملائهم.

يقول السلطان عبد الحميد: «كذلك بعض الشبان الذين أرسلتهم إلى أوروبا، درسوا وتعلموا الثورة الفرنسية، ووجهوا اهتمامهم بها دون أن يدرسوا أسباب انفجار هذه الثورة، وهؤلاء كانوا عند عودتهم إلى البلاد يعتبرون أن حب الوطن هو الدعوة لإثارة الشعب والعمل على تمرده، ولم أكن أسمح لهم بهذا، كانوا فى ذلك الوقت يهاجموننى بمثل ما كان يهاجمنى به أعداء البلاد من وصفهم لى بصفةالسلطان الأحمر، وكنت أمنع انتشار هذه الأفكار فى البلاد»[2].

ويبدو أن السلطان عبد الحميد كان يعانى من تأثر الشباب التركى بالأفكار الثورية والاتجاهات المنحرفة والغوايات السياسية التى كان يبثها فى عقولهم أساتذة الجامعات الغربية وبخاصة اليهود والماسون العاملون فى حقل الدراسات الاستشراقية، ونلمس ذلك واضحًا من خلال وثيقة أرسل بها «هرتزل» إلى

---

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد، تحقيق د. محمد حرب عبد الحميد، دار الأنصار، القاهرة ١٩٧٨م ص٨٩.

(٢) المرجع السابق ص٨٩.

السلطان عبد الحميد فى الثالث من شهر مايو ١٩٠٢م، يقترح عليه إنشاء جامعة يهودية فى القدس تفتح أبوابها للطلبة العثمانيين جاء فيها: «لى الشرف أن أقدم لحكمة جلالتكم المتناهية الاقتراح التالى: إنى أدرك الصعوبة التى تواجه حكومتكم بسبب ذهاب شباب تركيا لتلقى العلم فى الخارج، وما يتعرض له هؤلاء الشبان من ضياع، خاصة فى تأثرهم بالأفكار الثورية، مما يجعل الحكومة أمام أحد أمرين: إما أن تحرم هؤلاء من التدريب العلمى. وإما أن تعرضهم إلى أخطار الغوايات السياسية»(١).

ثم تبرز الوثيقة الدور الخطير الذى يلعبه اليهود فى الحياة الجامعية فى جميع أنحاء العالم، وأن الأساتذة اليهود يملئون جامعات أوروبا، وأن منهم عدداً كبيراً من العلماء والمتخصصين فى جميع الحقول العلمية لا يمكن الاستغناء عنهم، وبناء على ذلك يقدم اقتراحه قائلا: «لهذا فإننا نستطيع أن نقيم جامعة يهودية فى إمبراطوريتكم، ولتكن فى القدس مثلا، وعندئذ لن يضطر العثمانيون إلى الذهاب إلى الخارج، بل يبقون فى بلادهم ويتلقون فيها أفضل التدريب، وهم خاضعون لقوانين بلادهم وتقاليدها»(٢).

وللإنصاف والعدل نقول إن السلطان عبد الحميد على الرغم من محاولات التغريب التى تمت فى بلاده، فأنه كان له رأيه الخاص فى إدخال عناصر المدنية الغربية إلى بلاده، وظل متمسكًا به، ولكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه، فقد كانت الغوائل تحيط به من كل جانب، والضربات تتلاحق من كل جهة، وخلاصة رأيه أنه لا ينبغى أخذ الحضارة الغربية جملة واحدة خيرها وشرها، فهو لا يريد منها الثقافات والتراث، لأنه كان يرى أن للشرق حضارته الإسلامية المتكاملة المتفوقة على حضارة الغرب فى هذا المضمار، إنما كان يريد «ما يهم فقط» من العلوم الحديثة حسب تعبيره هو، وحتى هذا الجانب المهم لا يريده دفعة واحدة،

(١) نقلا عن حسن صبرى الخولى، سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين، المجلد الثانى «وثائق ونصوص تاريخية» دار المعارف ١٩٧٠م وثيقة رقم١ ص٩٧.

(٢) المرجع السابق.

وإنما يريده بالتدريج إذ يقـول: «ليس من الصواب القول بأنى ضـد كل تجديد يأتى من أوروبا، لكن العجلة من الشيطان، ويقابل العجلة الهدوء والاعتدال، يجب أن نضع نصب أعيننا ما تفضل به الله تعـالى علينا. . ليس الإسلام ضد التقدم، لكن الأمور القيمة يجب أن تكون طبيعـية، وأن تأتى من الداخل وحسب الحاجة إليها، ولا يمكن أن يكتب لها النجاح إذا كانت على شكل تطعيم من الخارج»(١).

ولم يكن مفهـوم الرجل للأخذ من الحضارة الغربية مـجرد قول، وإنما نراه قد استفاد من تلك المدنية بمفهومـه الخاص فى بعض الميادين التى نراها أنها تحتاج إلى خبـرة الأجانب، فأقـام العديد من الكليـات منها كلية العـلوم، وكليات للآداب، والحقوق «مكتب حقوق شاهانه»، وكلية للعلـوم السياسية «مكتب ملكية شاهانه»، وأكاديميـة للفنون الجميلة «مكتب شاهانه صنايع نـفيسة»، ومدارس عليـا للتجارة والزراعة والبيطرة والغابات والتعدين والمعلمين العليا، ومدارس متوسطة متخصصة مثل مدارس الصم والعمى والبكم، ولم يهمل أقاليم الدولة المتطرفة ودولها التابعة لها، حـيث أقام المدارس العليا الـتى تعادل الجامـعات فى دمشق وبغـداد وبيروت وسالونيك وقونية وغيرهـا، ولكى تعمل تلك المدارس بالكوادر الوطنية قام بإرسال البعثات العلمية إلى كل من فرنسا وألمانيا.

وأما فى مـيادين الخدمـات العامـة فنرى الرجل يحاول الإصلاح بـكل طاقاته المتواضـعة، فعلى الرغم من ديون الدولة المتـراكمة وضـعف إيرادات خزانتها فـقد تمكن من إقامة مـؤسسة حديثة للمـياه، وغرف تجارية وزراعيـة وصناعية، وأسس البلديات، وبنى الغـواصة البـحريـة، وأقام خطوط البـرق، واهتم بالبريد، ومـد السكك الحـديدية، وأدخل الترام، واهتم بتـدعيم المواقع العـسكرية فى الدردنيل، إلى غير ذلك من إصلاحات(٢).

هذا هو السلطان عبـد الحميد المفـترى عليه والذى اسـتهدفتـه قوى الاستعـمار الغربية، وصـبت عليه جماعات اليـهود جام غضبـها، فشنوا عليه حملة إعـلامية

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد ص١٠.

(٢) المرجع السابق، وانظر أيضا كتاب واقعنا المعاصر -سبق ذكره.

شرسة استهدفت شخصه، ووصفته الأقلام العميلة بالسلطان المستبد تارة، وبالسلطان الأحمر تارة أخرى، والغريب أن تلك القوى المعادية لم تمهله لتمتد يده بالإصلاحات الشاملة لدولته المتهاوية على مفهومه الخاص - كما وضحنا سابقا - ولكن اشتدت عليه حملات المطالبة بالتغريب فى الداخل والخارج حتى باءت بعض إصلاحاته بالفشل.

ومن المفيد ونحن بصدد دراسة لظاهرة التغريب تلك والتى اتسعت فى عهد ذلك الرجل حتى استعصت الرقعة على الراتق، ثم أخذت أبعادا خطيرة فى عهد الاتحاديين ثم الكماليين فلو عدنا إلى الوراء قليلا لعرفنا أن تسلل الأنظمة الأجنبية إلى تركيا قد بدأ فى مرحلة مبكرة منذ عهد السلطان سليمان القانونى والذى اشتهر بهذا الاسم كما يقول الأستاذ محمد قطب: «لأنه بدأ عملية إدخال القوانين الأوروبية لتحكم بها المحاكم فى الدولة الإسلامية فيما جد من الأمور التى لم يتناولها الفقهاء القدامى، وكان الذى أغراه بهذا هم اليهود والنصارى فى بلاط الخلافة»[1]. ولا غضاضة فى أن تأخذ الدولة آنذاك ببعض هذه القوانين حتى إن علماء وفقهاء ذلك العصر لم يجدوا حرجًا فى استخدامها طالما كانت لا تتنافى مع تعاليم الدين الإسلامى دين الدولة الرسمى.

وعلى الرغم من ذلك فقد بدأت تتسع تلك الثغرة شيئًا فشيئًا حتى بدت ظاهرة يحلو لبعض السلاطين التغنى بها والحرص عليها. ويشير السلطان عبدالحميد الثانى إلى أن جده السلطان «محمود خان الثانى»[2] كان هو السابق بفتح باب إدخال المدنية الأوروبية إلى تركيا، وقد اقتفى أبوه السلطان «عبد المجيد خان»[3] أثره

---

(١) واقعنا المعاصر - سبق ذكره ص١٦٠.

(٢) من الإصلاحات التى قام بها السلطان محمود خان الثانى: إدخال بعض التنظيمات العسكرية المستعملة فى جيوش أوروبا على الجيش التركى، وقد تطلب ذلك إلغاء نظام الإنكشارية الذى تسبب فى تأخر الدولة العثمانية أمام تقدم الدول الأوربية المستمر، ينظر الفرمان العثمانى بذلك فى كتاب «تاريخ الدولة العلية»، مرجع سابق ص٤٢٩ - ٤٣١.

(٣) سار السلطان عبد المجيد خان على خطة والده فى الإصلاحات الداخلية، حتى تجارى الدولة العثمانية باقى الدول من التمدن والعمران، فأصدر عقب توليه الخلافة أمرًا ساميًا فى يوم ٢٦ شعبان سنة =

فأعلن أساس التنظيمات الخيرية المتكفلة بالمحافظة على نفوس أهالينا وأموالهم وأعراضهم وناموسهم، ومنذ ذلك اليوم اتسعت تجارة ممالكنا وزراعتها، وزادت وارداتنا أضعافًا فى أمد قليل، ومن ثم وضعت القوانين والنظامات التى هى مدار لما يعوزنا من الإصلاحات»[1].

لقد سبق أن ذكرنا أن تلك القوانين كانت فى مبدئها متمشية مع روح الإسلام ولا حرج فى ذلك، ولكن ابتداء من عصر السلطان عبد الحميد، فقد أخذت مظهراً مغايراً أثبتت الأيام خطورة آثاره ونتائجه، إذ أحدث تهافتًا شديدًا على النظم الأوروبية من قبل الأتراك بجانب النظم الإسلامية، بحجة أنها لا تتنافى مع الإسلام، وأصبحت تلك النظم المستعارة بمثابة الرقع الكثيرة لثوب مهلهل بال، أحدث رد فعل فى نفوس الناس تجاه الشريعة الإسلامية، حيث بدت فى أعينهم غير صالحة إلا فى مجالات العبادة والشعائر وكل الأمور الثابتة التى لم تتغير، أما متجددات الحياة وما يكتنفها من مشكلات سياسية وتعليمية واجتماعية واقتصادية فإنه لا يناسبها إلا استيراد القوانين والنظم الأوروبية.

= «١٢٥٥- ١٨٣٩» ينص على وجوب وضع قوانين جديدة تتحسن بها إدارة الدولة وتؤمن الناس على أداء أعمالهم، وقد شملت ذلك طرق جباية الخراج وطرق صرفه، وطرق تجنيد الأتراك فى الجيوش لمدة خمس سنوات بدلا من التجنيد المؤبد، وإلغاء عقوبة الإعدام والتسميم فى قضايا الجنح، والحريات الشخصية للأفراد فى جميع المعاملات، والقضاء على الرشوة بسن قانون رادع لذلك. وقد أبلغت جميع الأهالى بتلك الإصلاحات، كما أبلغت إلى سفراء الدول الموجودة بالآستانة، ولكن جدت على الدولة الحرب الروسية المعروفة بحرب القرم، مما شغل السلطان عن إتمام تلك الإصلاحات، ولما انتهت الحرب أصدر السلطان فرمانا جديدا ببيان الإصلاحات المقتضى إدخالها فى الحادى عشر من جمادى الآخرة عام «١٢٧٢- ١٨٥٦م» شملت علاوة على ما سبق أموراً أخرى لمسايرة التطور الدولى آنذاك، منها امتيازات للطوائف المسيحية وإصلاح أصول الانتخابات الجارية للبطاركة والمذاهب الأخرى المنفردة، وإلغاء كل التعبيرات والألفاظ المتضمنة تحقير جنس لجنس آخر فى اللسان، أو الجنسية أو المذهب، ووضع الشروط اللازمة لقبول الطلاب فى المدارس وإصلاح طرق التدريس فيها، واختيار المدرسين وإنشاء دواوين مختلطة للفصل فى القضايا المتنازع عليها من المسلمين وغيرهم، وإصلاح جميع السجون، وإلغاء معاملات الأذى والضرب والجزاءات البدنية فيها، والمساواة فى الحقوق، وفى كافة الوظائف.. إلى غير ذلك من إصلاحية، ينظر نص تلك الإصلاحات فى تاريخ الدولة العلية - مرجع سابق ص٤٨٠ - ٤٨٩.

(١) تاريخ الدولة العلية - المرجع السابق ص٥٩٤.

أما فى عهـد الاتحاديين والكماليين فإن الوضع أصبح شاذًا بأكمله، إذ إنهم لم يبقوا حتى على الثوب المهلهل، وإنما ألغـوا كل قانون أو نظام إسلامى لتحل محله النظم الأوروبية بـغثهـا وسمينهـا، وبذلك انبترت كل صـلة أو علاقة تربط حـياة أولئك النفر بالإسلام، تمهيدًا لإلغاء الخلافة الإسـلامية التى أصبحت نصبًا تذكاريًا لا قيمة له.

ولعلنا فى ختام ذلك العرض يمكننا الإجابة عن الأسباب والمبررات التى أغرقت المجتمـع التركي فى التغريب، ومن ثم عـجلت بسقوط الخـلافة الإسلاميـة، فقد انطوى نظام الخلافة العثمانية على بعـض الهنات والانحرافات كانت بمثابة الثغرات التى تسرب منها التغريب إلى نفوس المسلمين الأتراك وغيرهم على السواء، منها:

١- الاستبداد السـياسى الذى وصف به السلاطين العثمانيون، ويفـسر الأستاذ محمـد قطب ذلك الاستبداد بأنه «الحزم» الزائد الذى بـاشره السلاطين الأتراك مع أعدائهم لإخضاعهم بالقوة، وهو أشبـه بالحزم الذى يمارسه العسكريون فى المعتاد حين يتـولون شئون السيـاسة، ثم يذكر بأنه مهـما كان نوعه فـإن الإسلام لا يقر الاسـتبـداد فى الحكم ويوجـب تطبيق الـعدالة بين الحـاكم ورعـيـته فى جـمـيع الأحوال(١). ومن الملاحظ على السلاطين العثمانيـين وخاصة المتأخرين منهم أنهم كـانوا فى أغلب الأحوال يمـارسون نظام حـكم الفرد، وغـالبا مـا كانت تصـدر المشروطيـات، وتفتح مجالس الأعـيان، وسرعان ما تـتـعطل أعمالهـا عن قصد، فتباشر الحكومـة أعمالها بدون قاعدة المشورة، وتستـبد بأحوال الناس، وهذه صفة اعترف بها السلطان عبدالحميد نفسه فى مذكراته حيث كانت نقطة التهجم عليه من قبل أعدائه، إذ وصفوه بالسلطان المستبد.

وفى الوقت الذى كانت فيه الخـلافة العثمانية توصف بالاسـتبداد، كانت تموج أوروبا بأكملها بحركات دستورية منتشـرة وواعية لتضع حدًا لاستبداد الملوك، وقد بدأت الحركة فى باريس بإسـقاط حكومة (لويس فيليب) والمناداة بقيـام الجمهورية

(١) واقعنا المعاصر - سبق ذكره ص١٥٣.

الثانية، ثم سرت منها إلى جميع الأمم فى برلين وفينا وبراغ وغيرها من العواصم، طلبا للحرية وطمعا فى الحصول على أنظمة دستورية، ثم امتدت أيضا إلى بلاد بولونيا وبلاد المجر التى انسلخت عن الدولة العثمانية[1]، وقد أفضت تلك الحركات بطبيعة الحال إلى تطلع العثمانيين ولاسيما الدارسين فى الغرب إلى وضع حد لاستبداد السلاطين العثمانيين، وتقليد أوروبا فى مطالبها الدستورية.

٢- كما انطوى نظام الحكم العثمانى فى الولايات على النظام المركزى بكل مساوئه وذلك بهدف تركيز السلطة فى يد الخليفة، وضمان عدم استقلال الولاة بولاياتهم، الأمر الذى أدى إلى إهمال أغلب تلك الولايات، وترديها فى الفقر والمرض، ولا غرابة فى ذلك، فإن قصر مدة الوالى جعلته ينصرف إلى الاهتمام بجمع الثروات، كما أن النزاع المستمر الذى كان ينشب بين الوالى والديوان أدى بطبيعة الحال إلى إهمال أحوال الشعوب وتخبطها فى متاهات التخلف، وبذلك عم الاستبداد جميع أرجاء الدولة الإسلامية العثمانية. فإذا أضفنا إلى ذلك نظام الإقطاع الذى شاع فى ظل الحكم العثمانى والذى عاشت فيه الشعوب فى حالة من التبعية الكاملة لحفنة من الباشوات أصحاب الإقطاع الذين لا هم لهم سوى جمع المال، لتبين لنا مدى سوء حال تلك الشعوب التى عانت من جراء الاستبداد السياسى والظلم الاجتماعى.

٣- الزج بالدين فى كل صغيرة وكبيرة من أمور الحياة بطريقة خالية من الوعى الدينى الصحيح، حتى أصبح الدين ألعوبة فى أيدى قبضة من الجهال المتشددين فى الدين والمتنطعين فيه، الأمر الذى جعل كثيراً من الأفراد يتبرمون بالدين، ويحاولون التحلل من قبضته، ولاسيما أولئك النفر الذين انفتحوا على الحضارة الغربية، ولنا أن نتصور تلك الواقعة: فقد أراد أحدهم إنشاء مطبعة فى استانبول، فوجد معارضة شديدة من قبل علماء الدين، حينئذ لجأ إلى السلطان وإلى حاشيته يطلب إليهم أن يقنعوا هؤلاء العلماء بفائدة المطابع، فأمر السلطان شيخ الإسلام بأن يفتى أن المطبعة نعمة من نعم الله، وليست رجساً من عمل الشيطان، فأفتى الشيخ بجواز إنشاء المطابع شريطة ألا تطبع القرآن الكريم، ولا كتب التفسير

---

(١) تاريخ الدولة العلية العثمانية - المرجع السابق ص٤٨٩، ٤٩٠.

والحديث والفقه. وقد أنشأت أول مطبعة فى إستانبول عام ١٧١٢م بعد أن أنشأت فرنسا المطبعة الوطنية بنحو قرنين[١].

وتفسير تلك الظاهرة الدينية الخطيرة، ترجع إلى هيمنة التيار الصوفى على الدولة العثمانية، وبخاصة فى القرنين الأخيرين اللذين سبقا إلغاء الخلافة العثمانية، إذ أصبحت الصوفية - كما يقول الأستاذ محمد قطب - هى المجتمع وهى الدين، وصار الأتراك يؤمنون بأهمية وجود شيوخ المتصوفة وأقطابهم فى حياتهم، حتى أثر عنهم قولهم: «من لا شيخ له فشيخه الشيطان». وقد تعلقت بهؤلاء المشايخ مجموعة من الخرافات والبدع، صارت هى الدين فى نظر عامة الشعب مثل التعلق بالأضرحة والأولياء، ونذر النذور، والتقرب بالقرابين إلى غير الله، وفك السحر، واستخراج الشياطين من أجسام الإنس، إلى غير ذلك من البدع والأوهام التى أصبحت فى نظرة العامة هى الدين[٢].

٤- كما يوجد سبب أخير لابد من الإشارة إليه، وهو يتعلق بأمور الخلافة الموكل إليها رعاية الدين والدنيا، إذ من الواجب على علماء المسلمين مراعاة التطور الزمنى الذى يحدث فى كل حقبة، حتى يتم التكيف بين واقع المسلمين المتطور وبين أصول الشريعة الإسلامية الثابتة، وذلك بأن لا نخضع الدين لمجريات العصر، وإنما نكيف الواقع الجديد ليتلاءم مع الدين، وهذا ما يعبر عنه «بالاجتهاد»، والذى من أخص وظائفه: وجود حلول شرعية لمشكلات مستجدة لم ترد فى القرآن والسنة، وله صلاحيته المطلقة فى كل بعد زمانى ومكانى، وهذه الثمرة كانت واضحة جلية على امتداد خمسة قرون من بداية ظهور الإسلام، إذ تمكن فقهاء الإسلام من تكييف حياتهم الجديدة، فاجتهدوا وأوجدوا فقها متكاملا غطى جميع احتياجاتهم فى العبادات والمعاملات، وأغناهم عن استيراد نظم وحلول من خارج الإسلام.

وأما إذا أهمل الاجتهاد، وأغلقت أبوابه مع وجود دواعيه ومتطلباته، فقد تتجمد حياة المسلمين، وتتوقف عن النمو، لأنها صارت محكومة بقوالب غير

(١) تاريخ الدولة العلية العثمانية - المرجع السابق ص٧٣٣.

(٢) واقعنا المعاصر - سبق ذكره ص١٥٥.

ملائمة، الأمر الذى يؤدى إلى خروج المسلمين عن تلك القوالب، وتبتعد بالتالى عن روح الإسلام[1]. وهذا ما حدث بالفعل مع الخلافة العثمانية منذ القرن الثانى عشر الهجرى تقريبا، إذ بدأت تتغير الحياة تغيرًا ملموسًا ولاسيما حياة الأوربيين بعد اختراع الآلة، وتقدم الأبحاث والمكتشفات الجديدة التى ساعدت على تغيير موازين الحياة بطفرتها العلمية الهائلة، وما أعقبها من تغيرات ثقافية وفكرية، بدأت تتسلل بالضرورة إلى حياة المسلمين، وأوجدت أوضاعًا جديدة، وعلاقات مستحدثة، ومشكلات ملحة، كان من الأحرى على الخلافة الإسلامية أن تدعو فقهاءها «للاجتهاد»[2] لمواجهة المتغيرات الجديدة فى واقع المسلمين وبيان حكم الشرع فيها، ليلتزم بها المسلمون، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث، مما تسبب فى تنحية الشريعة الإسلامية جملة، والاتجاه إلى النظم الأجنبية على أيدى جماعات الاتحاديين ثم الكماليين، مما عجل بإلغاء الخلافة العثمانية.

وهكذا يتبين لنا أن تيار التغريب، والأخذ بالأنظمة الغربية كانت له بعض الدوافع والمبررات داخل نظام الخلافة العثمانية ذاته حيث وجدت فيه الصهيونية العالمية ودوائر الاستعمار فرصة سانحة للإجهاز عليه بحملات من الغزو الفكرى والتغريب، وقد بدأت عملية التغريب بالترقيع أولاً للنظم الإسلامية، ثم انتهت بعملية استبدال للثوب الإسلامى المرقع بثوب أوروبى غريب فى عهد الكماليين.

---

(١) محمد قطب - واقعنا المعاصر - سبق ذكره ص١٥٩.

(٢) يرى الأستاذ محمد قطب أن باب الاجتهاد أغلق منذ القرن الخامس الهجرى لعدم حاجة المسلمين آنذاك إليه، وأن الدولة العثمانية لم توافق على إعادة فتحه حين اقتضت الظروف ذلك. ولكن على ما يبدو لى أن باب الاجتهاد لم يغلق قط، وإنما كانت تأتى بعض الفترات التاريخية تضعف فيها همم الحكام، وتخيم البدع والضلالات على الدين، كما حدث فى تركيا إبان الفترة الأخيرة حيث هيمن التصوف على رجالات الدين والعلماء، فمنهم من غرق فى البدع، ومنهم من بقى مقلدًا متشددًا على حق أو غير حق، ولعل موقف علماء تركيا من إنشاء المطبعة المزمع قيامها فى استانبول دليل قوى على تفشى تلك الروح فى أغلب علماء الدين، مما جعلهم غير جديرين بالاجتهاد، مع أن هذا لا يمنع من ظهور بعض الفقهاء المجتهدين آنذاك، ولكن لم يجدوا حظوة أو اهتماما من المسلمين وحكامهم الذين شغلتهم أحداث الفتن السياسية والحروب المستمرة التى تكالبت على دولة الخلافة، ووقوف القوى الاستعمارية ضد أية حركة إصلاحية دينية تعيد للخلافة العثمانية مجدها الإسلامى. ينظر رأى الأستاذ محمد قطب فى واقعنا المعاصر ص١٥٨، ١٥٩.

ثانياً: فصل الدين عن الدولة وإلغاء الخلافة

فصل الدين عن الدولة هو أحد العوامل التى أخمدت أنفاس الخلافة العثمانية فى المحيط الإسلامى كلية على أيدى جماعة الاتحاد والترقى والكماليين، وإن كانت تلك الواقعة قد تمت فى تركيا على مراحل مخطط لها بكل دقة، فإنها قد وجدت سبيلها إلى جميع أنحاء العالم الإسلامى، وفى مقدمتها مصر وبلاد الشام، الأمر الذى أدى إلى كسر إرادة الجماهير الإسلامية فى المطالبة بإحياء مجد الخلافة الإسلامية من جهة، وإفساح المجال لقيام حكومات علمانية تفصل الدين عن الدولة من جهة أخرى.

وقد كللت أعمال هذه الطائفة بالنجاح إذ إنهم استهدفوا الرأس وتعقبوا الأطراف فى آن واحد، فقد عرفوا من تاريخ الخلافة أنها إذا أخمدت جذورها فى قلب الدولة كما حدث لخلافة العباسيين فى بغداد سنة ٦٥٦هـ فإنها ستظهر فى أى مكان آخر - ولو اسميًا- فى الدويلات الإسلامية المتناثرة يحافظ على رمزيتها المسلمون باعتبارها رابطة دينية وسياسية أصيلة، لذا نرى أولئك النفر -فى الوقت نفسه- يتعقبون ظاهرة الخلافة فى الأطراف التابعة لتركيا الإسلامية آنذاك ويحاولون تسريب العلمانية لتحل محل أنظمتها الإسلامية الموروثة، وهذا ما حدث بالفعل فسرعان ما انتقلت الظاهرة إلى البلدان العربية والإسلامية التى وقعت تحت الحماية الأجنبية وهذا هو الداء العضال الذى ما زالت شعوبنا الإسلامية تعانى من سطوته حتى اليوم إذ تعمل الدوائر الصهيونية العالمية والقوى السياسية الاستعمارية فى العالم على إفساح المجال للعلمانيين صناع القرار فى أغلب حكومات بلادنا، والذين يقفون حجر عثرة أمام أصحاب الحركات الإصلاحية من التيارات الإسلامية المعاصرة.

ولعبة الإجهاز على نظام الخلافة فى تركيا التى هى بمثابة الرأس للدولة الإسلامية قد بدأت خيوطها منذ اعتلاء السلطان عبد الحميد عرش السلطنة، فقد

تبوءهـا والبلاد فى أسوأ حـال، والدول الغربيـة ما فـتئت منذ مـؤتمر باريس سنة ١٨٥٦م أن تتـدخل فى أمـور الدولة بكل طاقـاتها وتنـظر تلك الدول إلى الدولة العثمـانية «دولة الخلافة» نظـرتها إلى مريض على فراش الموت ينبـغى العمل على تقسيم تركته، كما كـانت الدولة فى حالة إفلاس تام، وقد بلغت ديونها حتى عام ١٨٧٥م ثلاثة مليارات وثلاثة عـشر مليون فـرنك ذهبا[1]. وقد أحـجمت الدول الكبرى عن إقراض السلطنة لأغراض سياسية مشروطة.

كما كانت القوميات تطل بقرونهـا والحروب تشتعل فى أجزاء كثيرة من الدولة مما تكبدها نفقات باهظة، وتزيدها إفلاسا على إفلاس، ودول الغرب الصليبية تصر على تحقيق إصلاحات للرعايا المسيحـيين من الأرمن وغيرهم، ومعنى ذلك إفساح المجال لهؤلاء وهؤلاء للعبث بمقدرات ونظم الدولة.

وفى ظل تلك الحالة التى خيـمت على الدولة العثمانية رسمـت خيوط المؤامرة بين الدول الكبرى وعلى رأسـها انجلترا من جـهة وبين الاتحاديين والكمـاليين من جهـة أخرى لإسقاط الخـلافـة العثمانيـة وإلغاء الحكم الشرعى، واتبـعوا فى ذلك خطة ذات شعبتين:

الأولى: إبراز السلطان عـبد الحـميـد بالحـاكم المستـبد، وأن نظامـه فى الحكم «الخلافة الإسـلامية» هو السبب فى تخلف المسلمـين، وقد نالت هذه الخطوة هالة إعلامية كبرى فى صـحف ومجلات أوروبا، ثم بعد ذلك تسربت إلى داخل البلاد بمعرفـة الدوائر الاستـعماريـة التى دأبت على وصف السلطان عبـدالحميـد بالملك الأحمر.

وقد آتت هذه الخطوة ثمارها عـلى حساب النظم الإسلاميـة القائمة آنذاك، إذ اندفع الكثـيرون من أبناء تركـيا يلهـثون وراء بريق الحـضارة الغـربية، وبخـاصة المبعوثون لجامعـات ومدارس الغرب، فقد تلقوا على أيدى المستشـرقين من اليهود والنصارى ما أفـقدهم الثقة بخليـفتهم ونظام الحكم فى دولتـه، الأمر الذى عجل

(١) تاريخ الدولة العلية - المرجع السابق ص٧٤٤.

بانضمام الكثيرين منهم إلى حركة الاتحاد والترقى لإنقاذ الدولة من براثن التخلف.

أما الشعبة الثانية: فهى مؤامرة بيع الخلافة الإسلامية فى عواصم أوروبا، والذين قاموا بإجراء تلك الصفقة هم جماعة الاتحاد والترقى، وقد ظهر ذلك جليا فى مؤتمر الصلح الذى انعقد فى مدينة «لوزان»، وقد مثّل فيه تركيا كل من الحاخام «ناحوم» اليهودى المعروف «بقره صو» رئيس الوفد وهو نفسه الذى قدم للسلطان عبد الحميد الثانى قرار عزله، ويشاركه العضوية كل من «رضا نور» و«عصمت أينونو»، ويعترف رضا نور فى كتابه «حياتى وذكرياتى» بأنه هو الذى أعلن علمانية تركيا فى مؤتمر الصلح بقوله: «لقد أصبحت تركيا علمانية.. لقد انفصل الدين عن الدولة، وإذا تم الصلح فإننا سنقوم بوضع القوانين المدنية». ثم يقول فى موضع آخر: «.. كانت هذه أهم نقاط الارتكاز التى اعتمدنا عليها فى لوزان.. إن صفقة بيع وشراء الخلافة، والتنازل عن الموصل، قد تمت بين لندن وأنقرة، وما حضور وفد تركى إلى لوزان إلا للتمويه والتوقيع»[(١)].

والحقيقة أن المسلمين لم يكونوا يعلمون عن أسرار إلغاء الخلافة شيئًا، ولم يقفوا على نوايا الكماليين، إذ أنهم انخدعوا بالدعايات التى كانت ترافق ثورتهم حتى أولوها كل دعم وتأييد، وذلك لأن العالم الإسلامى -كما قلنا- كان قد فقد صوابه بعد انهيار الدولة العثمانية دولة الخلافة، بل كان على أتم استعداد آنذاك لمناصرة أية حركة تقوم فى أى ناحية لنصرة الإسلام وإعادة الخلافة، فانخدع بها المسلمون، وظنوها حركة إسلامية، وليست حركة غربية علمانية فى انطلاقتها وأهدافها، ومن ثم تعلقت قلوبهم بمصطفى كمال أتاتورك على أنه مسلم، يقف فى وجه الغرب، وعما قريب سيعيد للمسلمين خلافتهم الإسلامية، وسيعيد إليهم شأنهم وعظمتهم. وقد كانت الهالة الإعلامية التى صاحبت ميلاد الكماليين كبيرة

---

(١) داؤد عبد العفو سنقراط - القوى الخفية لليهودية العالمية الماسونية - مرجع سابق ص١٣٧، وسنعود لنفس المسألة بشىء من التوضيح فى هذا المبحث.

وهائلة وهى هالة مصطنعة بطبيعة الحال خطط لها الغربيون تخطيطًا محكمًا، جعل العالم الإسـلامى كله من أقصاه إلى أقـصاه يسيـر وراء تلك الثورة فخـورًا لبضع سنين، استـغل فيها مـصطفى كمال عـواطف المسلمين وأموالهم إلى أبعـد حدود الاستـغلال وكسا ثورتـه لباسًا إسلامـيًا زاهيًا انخـدع به المسلمون سواء بأحـاديثه وتصريحاته وخطبه، أو بمعاملته لزعماء المسلمـين، ويشير الأستاذ محمد فريد بك فى تاريخه أنه استعـان بالزعيم الليبى السيد أحمد السنوسى وجعلـه مستشارا له، فعندما يريد شن هجوم على مكان ما يقـول له: «إننا ننوى الهجوم غدا أو بعد غد على مكان ما، فاقرءوا البخارى الشريف علـى نية النجاح والتوفيق، ويشير المؤرخ أن مصطفى كمـال استغل أيضا أعمال وأمـوال جمعية الخـلافة الهندية التى قامت بزعامة الأخوين «شوقى على» و«محمد عـلى» واستغل الشعراء فمدحوه، والأدباء فأثنوا عليه ومشايخ الطرق فرفعوه إلى مقام الولاية[(١)].

ولكن كان مصطفى كـمال على عادة يهود الدونمة يبطن خلاف مـا يظهر ويفعل خلاف مايقول، إذ أنه ما كـادت تستقر له الأمور وينتصر نهائيًـا ويطمئن إلى مصيره حتى قام بإلغـاء الخلافة العثمانيـة، وإعلان الجمهورية وطرد الخليـفة من البلاد[(٢)].

---

(١) تاريخ الدولة العلية - المرجع السابق ص٧٥٤، ٧٥٥.

(٢) من المعروف تاريخيًا أن الكماليين ألغوا الخلافة عام ١٩٢٤م، وقد سبق ذلك التاريخ عدة خطوات أفضت إلى إلغاء الخلافة، كانت الخطوة الأولى هى نزع السلطة عن الخلافة، ثم تحويل الخليفة إلى مجرد رمز لا يمثل سلطـة وليس له أدنى تأثير رسمى أو روحى، ثم تـلا ذلك الخطوة الثانية وهى الفـصل بين السلطة والخلافة: فألغى مصطفى كمال السلطنة عام ١٩٢٢م، وخلع السلطان وحيد الدين ذلك لأنهم لم يجرءوا آنذاك على مهاجمة الخلافة لما فى ذلك من إثارة لشعور المسلمين قاطبة.

وبعد نفى السلطان وحيد الدين آخـر سلاطين آل عثمان بدأت الخطوة الثالثة نحـو إلغاء الخلافة إذ نودى بابن أخيه عبد المجـيد خليفة المسلمين، ولكنه مجرد من كل سلطة ونفـوذ، وقد بالغ أتاتورك فى انتهاك حرمته كخليفة للمسلمين، إذ أنه أصدر أمره إلى حاكم استانبول، بإلغاء مظاهر الأبهة الخلافية التى تحيط بموكب الخليفة أثناء تأدية الـصلاة، كما أنه أمر بتخـفيض مرتبه إلى الحد الأدنى، وأنذر أتبـاعه بوجوب التخلى عنه، حيث لا ينبغى أن يبقى فى القسطنطينية رئيس دينى يتحدى حكومة أنقرة.

وفى الثالث من شهر مارس عام ١٩٢٤م تمت الخطوة الأخيرة، إذ تقدم أتاتورك إلى الجمعية العمومية بمرسوم يقـضى بإلغاء الخـلافـة، وطرد الخليفـة، وفـصل الدين عن الدولة ومن ثم خلع السلطـان عبـد المجيـد =

وتنكر لكل القيم الإنسانية، فنراه يحذف من الدستور التركى الفقرة القائلة: «بأن دين الدولة الإسلام» ويستبدلها بالقانون المدنى السويسرى ويأمر بلبس القبعة مكان العمامة ويبيح زواج المسلمات من غير المسلمين ويمنع السفر لأداء فريضة الحج، ويجعل يوم الأحد عطلة رسمية بدلا من الجمعة، ثم يأمر واضع الدستور أن يصدره بالعبارة التالية: «القرآن دستور البداوة»، ثم تبلغ ذروة وقاحته وتهجمه على القرآن يوم افتتاح مجلس الشعب أعقاب إعلان الجمهورية، إذ يقول: «نحن الآن فى القرن العشرين ولا نستطيع أن نسير وراء كتاب يبحث فى التين والزيتون»، فصفق له يهود الدونمة مؤيدين قائلين: «سلمنا البلاد لأتاتورك وتركنا الكعبة للعرب»[1].

ما حقيقة فصل الدين عن الدولة؟

ومما ينبغى الإشارة إليه أن نقف وقفة متأنية نبرز من خلالها حقيقة فصل الدين عن السياسة والتى انتهجتها حكومة الكماليين فى تركيا، ولا نقصد بطبيعة الحال

= إيذانا بنقل السلطة من آل عثمان إلى مصطفى كمال أتاتورك - والعجيب فى هذا الموضوع هو تلك الخطة ذات المراحل المتعددة خشية انفجار الشعور العام إذا وقف المسلمون على حقيقة نوايا الكماليين نحو إلغاء الخلافة، وقد صور «رينية دايرياس» تلك المراحل التى غمضت عن فهم المسلمين آنذاك بقوله: «فلنتجنب التزوير فى التاريخ، لأن الستار لم يلق بعد على آخر فصل من رواية تركيا مصطفى كمال. نقلا عن كتاب الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية ص، ١٢٠، ١٢١، ١٩٢.

ويشير شيخ الإسلام إسماعيل صبرى فى هذا الصدد إلى تصريح صحفى لأتاتورك، قد نشر فى جريدة «الوطن التركية» فى عدديها الثانى والثالث قبيل إلغاء الخلافة: «إن أسعد أدوار الترك التاريخية مرحلتان لم يكن سلاطينهم خلفاء، ثم بذل واحد منهم نفوذه وثروته لحصول على لقب الخلافة، وكان ذلك من آثار الصدفة والاتفاق، وأن نبينا أمر تلاميذه - الصحابة - أن يدعو الأمم إلى دين الإسلام، ولم يأمرهم أن يتولوا حكوماتهم، وما دار فكر كهذا فى خلده قط». ويقول: «. . نحن أبقينا الخليفة حرمة للتقليد القديم المحترم، نؤمن له ولعائلته معيشتهم، ما يحتاجون إليه، والترك هى الأمة الوحيدة بين العالم الإسلامى التى تتحمل نفقة الخليفة، والذين يدعون العموم والشمول لجميع شعوب المسلمين فى العلاقة بالخليفة، جانبوا إلى الآن كل اشتراك من أجل لقب الخليفة، فماذا يدعون الآن؟ وكيف يجوز أن تحمل أمة الترك أعباء الخلافة، وترعى وحدها نفوذ الخليفة وسلطته؟! إن هذا إفراط» ينظر: الأسرار الخفية - مصدر سابق ص١٩٢، ١٩٣.

(١) محمد على الزغبى، الماسونية فى العراء، ص٢٢١، الرجل الصنم، ترجمة عبد الله عبد الرحمن ص١٦٧، ٤٩٣.

أن نعيد للمثقف المسلم تاريخًا قد مضى وانتهت أيامه، ولكن نريد استخلاص العبرة وتصحيح بعض المفاهيم الخاطئة التى برزت مع مناهج المستشرقين من ناحية، وحملة الأقلام من المتمردين فى بلادنا من ناحية أخرى، ولعل من خلال تلك الوقفة تتضح لنا الأسباب الكامنة وراء تلك القضية التى لعب على أوتارها اليهود والماسون لا فى تركيا فقط وإنما فى أغلب البلدان العربية والإسلامية، وسوف نخص بالحديث جمهورية مصر العربية التى كانت إحدى ولايات الدولة العثمانية وقد تسربت إليها بعض مظاهر العلمانية وسيكون ذلك على سبيل المثال واليوم هى أكثر الدول العربية اتجاها نحو العلمانية حيث استهدفها الغرب والأمريكان بنشر تلك الحركة ودعموا القائمين عليها تدعيمًا سياسيًا وماليًا وأدبيًا حتى صار أغلب القرارات تصنع اليوم بأيديهم.

إن مسألة فصل الدين عن السياسة ليست مجرد فصل كل منهما عن الآخر، وإنما تكمن خطورة ذلك الفصل فى نوعية العلاقة التى سيتمخض عنها الفصل بين الحكومة والدين، ويعنى ذلك ببساطة شديدة وضع الدين تحت أمر الحكومة، وهذه العلاقة التى تبسط فيها الحكومة يدها على الدين تنافى عزة الإسلام الذى يعلو ولا يعلى عليه، وهذا أمر لم تألفه الدول الإسلامية فى تاريخها المجيد ولنا أن نتخيل تلك العلاقة المطلوبة فى سيطرة أيهما على الآخر، فإن وضع الدين تحت حماية الحكومة يشبه تماما وقوع دولة تحت الحماية الأجنبية فأيهما المسيطر على الآخر؟[١] فأين تلك العلاقة فى تركيا العلمانية بعد أن كان شعار سلاطينها فيما مضى إن الرأس مربوط بالرئيس والرئيس مربوط بالشريعة؟[٢].

إن فصل الدين عن السياسة هو فى حقيقته تجريد الحكومة من الدين وتحللها من أوامره وأحكامه وهذه ظاهرة شاذة بلا شك فى تاريخ الشعوب الإسلامية لم ترد ببال أى حكومة من حكوماتهم فيما مضى مهما بلغ ضعفها أو قوتها على حد

(١) مصطفى حلمى، فى تقديمه لكتاب الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية ص٨١.
(٢) المرجع السابق.

سواء فلم ترد ببال أية حكومة من حكوماتهم تلك الفكرة حتى ولو مجرد الاقتراع عليها كما يفعل الغرب، وكما حدث فى تركيا فهو فى حد ذاته إلحاد مقصود وجهل خطير لأبعاد تلك الفكرة والتى هى كفيلة بتقويض الدين من فاعليته وحيويته ومبادئه.

وقد يقول قائل: ما المانع فى أن تقوم حكومة علمانية «لا دينية» ما دام شعبها باقيًا على إسلامه، على نحو ما حدث فى تركيا الجديدة والذى سوف يحدث لا قدر الله فى بلادنا العربية؟ وبمعنى آخر أنه لا حاجة أن تتمسك الحكومة بالدين ما دام فى دين الأمة الكفاية.

ولسنا بحاجة أيضا إلى بذل جهد للتدليل على خطأ هذا القول، وذلك لأنه من الواضح أن تأثير الحكومة واقع على الشعب وليس العكس ما دام الشعب خاضعًا لحكمها، بينما تأثير الشعب فى الحكومة تأثير قليل وقد يكون نادرا فهو لا يتعدى تغييرها فقط وهذا أمر قلما يحدث كما قلنا، ومن هنا فإن تأثير الحكومات فى الشعوب هو الغالب وهذا هو واقع الحال الذى آل إليه الجيل الجديد فى تركيا وفى بلادنا العربية.

يقول صاحب «تاريخ الدولة العلية»: ها هى تركيا بعد مضى ستين سنة على هذه الثورة ما زالت بلدًا ناميًا ضعيفًا لا حول له ولا طول، فالحركة العلمية فيها ضعيفة والأمية سائدة والحياة الاجتماعية متأخرة والحالة الاقتصادية فى الحضيض»[1].

وضع الأقليات غير المسلمة فى تركيا الإسلامية:

وقد يقول قائل مرة أخرى: إن الحكومة العلمانية هى أنسب الحكومات لأمة مسلمة تعيش بينها أقليات غير مسلمة كما كان الحال فى تركيا وبعض بلداننا العربية والإسلامية، ظنا منه أن فى الحكومة اللادينية إنصافًا لتلك الأقليات!. والحقيقة أن ذلك وهم وظن ليس فى محله مطلقًا، يدفع ببطلانه «المفهوم

(١) الأستاذ محمد فريد بك المحامى ص٧٥٥.

الديمقراطى» المتبع لدى الحكومات العلمانية نفسها، فإن المسلمين فى تركيا تشكل أغلبية كبرى تكفل لها بطبيعة الحال التغلب فى ظل القوانين الوضعية سواء أكانوا منصفين أو جائرين، وهؤلاء المسلمون تمنعهم شريعتهم الغراء من إيقاع الجور أو الظلم على غيرهم من رعايا الأقليات[1]، ومعنى ذلك أن الأمة المسلمة التى تعيش بين أبنائها أقليات غير مسلمة سوف تنعم بعدالة التشريع الإسلامى الذى يعم ولا يخص، والتاريخ الإسلامى خير شاهد على روح التسامح التى تميز بها حكام المسلمين، وقد ذكرنا سابقًا كيف كانت تلك الأقليات تفضل الاحتكام إلى الشرع الإسلامى دون غيره من الأحكام.

ويشير «شكيب أرسلان» إلى أن السلطان سليم الأول أراد توحيد عناصر السلطنة وإجبار عناصر المسيحيين على إحدى خطتين: الإسلام أو الرحيل فانبرى له شيخ الإسلام آنذاك «ذبنيلى على أفندى»وقال له: «لا يحق لك هذا، والمسيحيون واليهود متى خضعوا ودفعوا الجزية فقد عصموا منك دماءهم وأموالهم»[2].

والغريب أن مقولة الأقليات التى استند إليها البعض فى إزالة الخلافة الإسلامية بحجة إنصافهم من الأتراك والمسلمين، قد أضرت بالمسيحيين أكبر ضرر فى ظل حكومة مصطفى كمال أتاتورك، وجاءت على خلاف ما كانوا يتوقعون من وراء إلغاء الخلافة العثمانية، ويشير الشيخ إسماعيل صبرى، شيخ الإسلام فى تركيا والمعاصر لتلك الأحداث بنفسه إلى أن عداء الكماليين كان للمسلمين والنصارى معا، وإن تظاهروا أمام المسلمين بعدائهم للنصارى فى بادئ الأمر، وكان هدفهم الحقيقى هو إنقاذ اليهود بنى جنسهم من ربقة الدين الإسلامى: «. . .المؤمن الذى ينظر بنور الله لا يخفى عليه ما بدأ به الاتحاديون، ثم امتد حتى اشتد وتفاقم بعد ظهور الكماليين من المؤامرة ضد الإسلام والمسلمين المخلصين، ومن شدائد المكايد التى جعلت هذه العداوة المضمرة داء عضالا وأغفلت المسلمين إغفالا أن أعداء

(١) الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية - مرجع سابق ص٨٨.
(٢) المرجع السابق ص٩٠.

الإسلام هؤلاء لا يزالون يتراءون فى صورة أعـداء النصارى ويتظاهرون بها، وهم فى الحقيقـة أعداء الإسلام والنصرانية معـا، وبالتعبير الوجيـز إنهم ملاحدة أعداء الدين على إطلاقه، أى دين كان، لكنهم لدين الإسلام أشد منهم خصومة لغيره، كمـا أنهم يرون كثيـرًا من أبناء جنسهم فى أسر هذا الدين ومـبدؤهم هدم عقـيدة الدين وتخليص بنى جنسهم من ربقته»[1].

ومن هذا المنطلق لم يسلـم النصارى من أذى الكمـاليين بعـد غيـاب الخلافـة العثمانيـة. وتشير أحداث التاريخ إبان هذه الفتـرة إلى الفتن التى أثارها الكماليون للإيقاع بالمسلمين والنصارى[2]، حيث إن كل خسارة تحل بـهما هى فى واقع الأمر مكسب للكماليـين وأبناء جلدتهم يهود الدونمة، الأمر الذى أدى إلى خروج كـثير من المسيحيين من تركيا.

ويعجب الشيخ إسمـاعيل صبرى لتناقض أقوال الكماليين وتصـرفاتهم الفعلية بعد هجرة الكثيرين من النصارى فيـقول: «. . . وهم -الكماليون- كانوا يعتذرون من قبل عن إهمالهم لكثير من الأحكام الشرعية فى إجراءات الحكومة ومفاوضات البرلمان قـائلين بأن الحكومة تحت يدهـا عناصر مخـتلفة، وأن مـجلس الأمة الذى ينظم فيـه قوانينها مـؤلف من النواب المسلمين وغـيرهم، فهـا هو ذا الآن مجلس المسلمين والديار ديارهم بعد إخـراج غيرهم منها فكان فرصـة لأن تنصبغ الحكومة بالصبغة الإسلامية، لا فرصة لأن تنسلخ منها، فهل كان وجود حكومة الخلافة فى أرضنا للتبعة غير المسلمة حتى ذهبت بذهابهم»[3].

(١) النكير على مـنكرى النعمة من الدين والخـلافة والنعمـة، حققـه الدكتور مـصطفى حلمى تحت عنوان: الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية - مرجع سابق ص٢٥١.

(٢) يشير الشيخ إسماعيل صبرى إلى فتنة الأناضول التى دبر أحداثها الكماليون، حيث تظاهروا أمام المسلمين بإخراج اليونان من الأناضـول، ولكن اشتدت وطأة داخلها، الأمر الذى أدى إلى تقهقـر الكماليين وفى أثناء انسحابهم اعـتدوا بالقتل والنهب على الأروام بين سكان المدن والقرى التى ينسحـبون منها، مما دفع المسيحيين للانتقام من المسلمين، حتى عـمت البلاد البلايا على المسلمين والمسيحيين من جنود الطرفين. ويعلق الشيخ إسماعيل صبرى على ذلك قائلا: «ولا يبالى الاتحاديون والكماليون أن بالغوا فى فتنة الناس حتى أتوا فيها بالعجب العجاب، اتكالا على أنها مهما ازدادت غرابة زادتهم نجاحا» المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق ص٢٥٥.

كانت تلك أهم القضايا الفكرية التى استند إليها الكماليون وأشياعهم لإلغاء الخلافة العثمانية، وهى بلا شك أفكار متهافتة لا تقوى على إعطاء مبرر واحد لإلغائها سوى القضاء على السيادة الدينية المتمثلة فى الإمامة الكبرى جامعة شمل المسلمين، ولنقرأ إحدى وثائق لورانس السرية بعنوان «احتلال سوريا» إذ تم بتاريخ ١٩٦١م ص٥٨ من «الوقائع السرية فى حياة لورانس العرب» ما نصه: «مهما تمخضت عنه هذه الحرب فيجب أن تكون نتيجتها القضاء نهائيا وإلى الأبد على السيادة الدينية للسلطان التركى»، وقد برر كل من «فيليب نايتلتى»، «وكولين سمبسون» لبريطانيا وللغرب كله هذا الهدف فى تقرير نصه: «من حق بريطانيا أن تنظر بعين الاهتمام إلى سقوط الإمبراطورية العثمانية الذى كان يعنى دعوة خطرة بالنسبة إليها خصوصا أن هذه الإمبراطورية كانت عبارة عن وحدة دينية متماسكة يحكمها السلطان كخليفة للمسلمين وزعيم لمسلمى العالم»[1].

تآمر الإنجليز للقضاء على الخلافة العثمانية:

ويمضى التقرير ليوضح أسباب حرص بريطانيا على القضاء على الخلافة العثمانية حيث خشيت على وجودها فى المستعمرات التى يشكل المسلمون الغالبية العظمى لسكانها، ففى الهند مثلا سبعون مليونا من المسلمين يمكن أن يتعاونوا مع الخلافة العثمانية لتلبيتهم نداء الخليفة بإعلان الجهاد فى سبيل الله. إذن كان الهدف الأساسى وما زال هو القضاء على كل وجود إسلامى متكتل حتى ولو كان هذا الوجود مهلهلاً لا يتعدى معناه الرمزى[2].

ولعل السر العميق الذى كشفت عنه الوثائق فيما بعد مؤتمر لوزان والذى سبق الحديث عنه وعن «حاييم ناحوم» حاخام اليهود الأكبر فى تركيا الذى ترأس وفد تركيا فى ذلك المؤتمر، وقد ألمح مستشار وزارة الخارجية البريطانية إلى هذا السر فى

(١) زهدى الفاتح، لورانس العرب على خطى هرتزل، تقارير لورانس السرية، دار النفائس بيروت. الطبعة الثالثة ١٩٨٦م، ص٧١، ٧٢.

(٢) المرجع السابق.

البرلمان الإنجليزى بعد انتهاء أعمال المؤتمر وعودة مندوب كل دولة إلى بلاده حيث اعترض بعض النواب الإنجليز على ما أفضى إليه المؤتمر واعتبروه انهزامًا سياسيًا للإنجليز تجاه الأتراك حتى لو انتصرت تركيا فى الحرب العظمى ما استفادوا بأكثر مما منحوا بهذه المعاهدة.

فقال المستشار: «عليك بوزن المسألة من حيث الفرق بين دولتى الترك القديمة والجديدة، فهى اليوم ملّية متحدة» يعنى مقصورة فى هذه الدائرة المحدودة ومنقطعة عن تعلقاتها الفسيحة العميقة لأخطار العالم، وتفصح الوثائق عن السر العميق فيما بعد وهو المعاهدة السرية التى أبرمها «كرزن» وزير خارجية بريطانيا آنذاك مع وفد تركيا السرى الذى أرسله سراً مصطفى كمال أتاتورك، وكان يضم حاييم ناحوم اليهودى وعصمت أينونو، وقد حملهما رسالة جاء فيها: «لماذا تقاتلوننا مرة أخرى؟ لقد كنا إمبراطورية كبيرة وكنتم تخشون جانبنا فانسلخت عنا أكبر البلاد ولم يبق إلا العنصر التركى فى الأناضول».

وبعد محادثات ومفاوضات طويلة كان رد الإنجليز: «إننا نخشى أن تعودوا فتصبحوا مركز تجمع المسلمين ونواة لوحدتهم» وهنا وبعد مشاورة للوفد التركى مع مصطفى كمال عرض الأخير على بريطانيا الشروط الأربعة التالية:

١- إلغاء الخلافة الإسلامية نهائيًا فى تركيا.

٢- أن تقطع تركيا كل صلة بالإسلام.

٣- أن تضمن تركيا تجميد وشل حركة جميع العناصر الإسلامية الباقية فى تركيا.

٤- أن يستبدلوا الدستور العثمانى القائم على الإسلام بدستور مدنى بحت[1].

كانت تلك أهم النقاط التى تم عليها الصلح والتى كان بيع الخلافة العثمانية هى الصفقة الرابحة التى جنتها بريطانيا من مصطفى كمال أتاتورك.

---

(١) محمد الصواف: المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام ص١٧٤، ويوسف القرضاوى: الحلول المستوردة ص ١٢٣، والشيخ مصطفى صبرى فى كتابه الأسرار الخفية ص ٢٦٥،٢٦٦.



مساوئ إلغاء الخلافة وإعلان العلمانية:

ولنعد الآن إلى حال الأمة التى قبلت إلغاء الخلافة مخدوعة بوعود الكماليين لنستبطن حالها، فهل هى أمة مسلمة كما كانت أم أصبحت أمة متفرنجة خلعت عنها كساء الإسلام أملا فى الرقى والتقدم المفقودين فى ظل الخلافة الإسلامية؟ مما لا شك فيه أن ديانة أمة ما لا يتحقق لها الوجود الفعلى إلا بشرطين:

الأول: أن ينتسب أفرادها إلى هذا الدين عن طواعية واقتناع، والثانى: أن تذعن هذه الأمة لتشريعات دينها المختار ولا تجد غضاضة فى ذلك، وفى اعتقادى أن هذين الشرطين مفقودان فى تركيا الكمالية وفى البلدان العربية التى حذت حذوها، إذ اقتصر الأمر على مجرد انتساب تلك الحكومات للدين كما نصت على ذلك بعض دساتيرها من باب ذر الرماد فى العيون، وإن تجرأت بعضها فاعتبرت دين الإسلام دين بداوة، كما ورد فى دستور الجمهورية التركية.

كما أن إلغاء الخلافة وفصل الدين عن الدولة قد أضاع كل تأثير فعلى للدين الإسلامى فى تلك البلدان. يقول مصطفى كمال أتاتورك: «. . . فالخليفة ومخلفات آل عثمان يجب أن يذهبوا، والمحاكم الدينية العتيقة وقوانينها يجب أن تستبدل بها محاكم وقوانين عصرية، ومدارس رجال الدين يجب أن تخلى مكانها لمدارس حكومية غير دينية»(١).

وقد كان لذلك التصريح أثره الفعال فى قلب جميع الأنظمة الإسلامية التركية التى سادت ما يقرب من خمسة قرون إلى أنظمة علمانية مستوردة من أوروبا على النحو التالى:

١-إلغاء المحاكم الشرعية والقوانين الإسلامية:

أمر مصطفى كمال بإلغاء العمل بالشريعة الإسلامية فألغى المحاكم الشرعية وكل ما يمت إليها من قوانين، وأمر العمل بالقانون المدنى السويسرى والقانون

(١) أرمسترونج -مصطفى كمال «الذئب الأغبر» ص٢٠٩، ٢١٠ نقلا عن الأسرار الخفية- مرجع سابق ص١٣٨.

الجنائى الإيطالى والقانون التجارى الألمانى وإدخال الأحوال الشخصية فى القانون المدنى الأوروبى[1].

وقال «ضيا كوك آلب» -شاعر الكماليين- إبان الحرب عدة أبيات تعريبها: «ودولة لا تلد علم حقوقها بنفسها، وتقول فى قانونها أنها نزلت من السماء، لا تتبدل فما هى بدولة أصلا، ولا يدوم لها استقلال، والأرض لا تحمل موجودا غير متبدل»[2].

ولا يخفى على القارئ الكريم ما تقوم به بعض البلدان الإسلامية اليوم بإلغاء المحاكم الشرعية واستيراد القوانين الفرنسية أو الإنجليزية وهو ما يطلق عليها بالقوانين المدنية تقربًا إلى الغرب أو تنفيذًا لأوامر أمريكا كما نراه اليوم فى باكستان وفى مصر وغيرها من البلدان حيث اختلت القوانين المدنية وزاحمت الشرعية الإسلامية وأصبحت كالثوب المقطع لا جدوى لها.

٢- تعطيل عمل المشيخة الإسلامية:

وهى التى كانت تحمى العلوم الإسلامية، وتعمل على رقيها، والتى كانت أيضا تشرف على المحاكم الشرعية، وذلك بنزع الحكم عنها، وتسليم دورها العلمى إلى الجامعة، يقول «ضيا كوك آلب» -الشاعر السابق- فى قصيدته آنفة الذكر مخاطبًا المشيخة الإسلامية: «اتركى العلم للجامعة، والعدل -الحكم والقضاء- للدولة، واشتغلى بنشر الدين فقط إن أردت أن تنالى الاحترام الذى تستحقينه، واجتهدى فى وظيفتك التى تتفق مع العصر الحاضر»[3] بل الأعجب من ذلك أن نرى بعض العاملين فى التدريس الجامعى ممن ينادون بفصل الدين عن الدولة يقول:

«إن من شاء من الأمة أن يتمسك بدينه، ويتعبد على مقتضاه.. إلا أن الكنيسة يلزم ألا تتدخل فى شئون الحكومة، ولا يكون لها شىء من السلطة والنفوذ»[4].

(١) الندوى، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية فى الأقطار الإسلامية ص٦٩.

(٢) الشيخ مصطفى صبرى، الأسرار الخفية ص١٨١.

(٣) المصدر السابق ص١٨٧. (٤) المصدر السابق ونفس الصفحة.

إن مبعث الغرابة هنا أن يعبر ذلك الرجل المثقف عن المسجد بالكنيسة، وعن سلطتها بسلطة الدين الإسلامى!.

ولعلنا نلمس من تلك الفكرة مدى تأثر الكماليين وأتباعهم بالثورة الفرنسية العلمانية، وبالفكر الأوروبى الذى عزل الكنيسة ورجالات الدين عن الحياة العلمية والعمل السياسى.

وهذه النقطة هى جوهر العلمانية التى تفصل كل ما يمت للدين بصلة عن السياسة والحياة. ولا يغيب عن بالنا ما تم اليوم بأمر من القوى الكبرى من إلغاء المعاهد الدينية والعلوم الإسلامية فى باكستان واليمن وفى بعض البلدان العربية والإسلامية الأخرى حتى الجمعيات الإسلامية جمد الاستعمار أموالها وأمر حكام المسلمين بإلغائها، وذلك تمهيداً لعدم بث الوعى الدينى الخيرى وأعمال البر بين الناس والقضاء على العلوم الإسلامية من جهة أخرى.

٣- اختلاط الرجال بالنساء وإزالة الحواجز بينهما:

حيث أمرت الحكومة بإزالة الحواجز الفاصلة بين مقاعد الرجال والنساء فى الترامات والسفن وسائر المراكب والسينمات والتياترات.

وقد روى أن مصطفى كمال أجبر نساء أنقرة على نبذ الحجاب وقد خرجت زوجته سافرة ترتدى مثل ثياب الرجال، وتحرض نساء أنقرة على المطالبة بمساواتهن بالجنس الآخر[١]، وعندما استاء الناس من ذلك السفور والاختلاط الشاذ قال وزير الداخلية:

«إن الحكومة لاحظت أن فى رفع الستائر فائدة صحية». ولم يتورع أحد النواب فى مجلس أنقرة قائلا: «إن الجمهورية التركية ليست بجمهورية إسلامية»[٢].

(١) الأسرار الخفية ص ١٧٠.

(٢) هو فالح رفقى بك حيث كتب ضمن مقال له فى جريدة «اقشام». انظر المصدر السابق ونفس الصفحة.

ولعل هذا التصرف يذكرنا بما قامت به الحركة النسائية فى مصر بقيادة هدى شعرواى -وإن كنا لسنا من دعاة التخلف والجمود- حيث قامت بنبذ حجابها وبرزت أمام الجميع سافرة وأخذت نساء مصر فى تقليدها، فانتشر السفور وضاع الحياء وزاد الاختلاط والاحتكاك وتحرش الرجال بالنساء فى المركبات العامة وفى الأسواق وفى أماكن العمل، وكثر الاغتصاب وانتشرت الجرائم مع انحلال أخلاق المجتمع وضاع انضباط الشارع المصرى بسبب ذلك السفور.

وقد كشفت جريدة الفتح عن جناية الكماليين فى مارس ١٩٢٤م بمقال عن ذكرى إلغاء الخلافة جاء فيه: «. . . ولعمرى لقد كان فى بعض ما نطقوا به من وجوب التفرنج، وما فعلوه من إباحة الخمر بعد منعها، ومن إكراههم النساء على مخالطة الرجال برفعهم الحواجز عن محال النساء وغيرها فى عربات الترام، كل ذلك دل على شىء فى نفس الرجل، وقد أدى إطلاق الحرية الاجتماعية والإباحية فى تركيا إلى خطر انحلال عظيم، فقد انتشرت الفاحشة فيها انتشارًا مؤسفًا ومخيفًا، ونشأ السفاح، فتساقطت عشرات على الطريق»[1].

٤- إلغاء تعدد الزوجات:

ولم يقتصر الأمر على ذلك فقد أعد الكماليون مشروعات تلغى تعدد الزوجات وتنهى زواج الفتيات والفتيان الأقل من ثمانى عشرة سنة، وقد قامت جريدة الوطن بإثارة ذلك الموضوع على صفحاتها حيث واصلت نشر مقالات بتوقيع رجالات ونساء من أهل الآستانة يندّدون بتعدد الزوجات وينعتونه بالنعوت القبيحة، وقد أشار إلى تلك البدع العديد من رجال الدين ومنهم الشيخ الزواوى[2] الذى أكد خروج الحكومة التركية الجديدة عن نصوص الشرع خروجًا مقصودًا فى الميراث والحجاب والزواج وشرب الخمر ورقص الأجنبى مع الأجنبية فى المحافل ومخاطبة الأنبياء بما لا يليق.

(١) الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية ـ مرجع سابق ص٢٣٨.
(٢) المصدر السابق ص٢٣٩.

٥- التصفية الجسدية لرجال الدين :

حيث أصدر الكماليون قانون الخيانة الوطنية الذى أبطلوا به حرية الفكر والاجتهاد لدى رجال الدين الإسلامى على وجه الخصوص.

ويشير شيخ الإسلام مصطفى صبرى إلى خطتهم التى لا يحيدون عنها وهى استئصال الدين وإنقاذ البلاد من نفوذه حتى إن إفناء الدين عندهم مرتبط بإفناء المتدين، ومن هنا أصدروا ذلك القانون الذى يحكم على من خالفهم فى خطتهم بالإعدام إرغامًا لأنوف أهل الإسلام. وقد صرح مصطفى كمال بذلك القانون وتناقلت الصحف قوله: « . . . أنه عازم على قهر أولئك الطائفة المعممة الباحثين عن الديانة وسيكفى هو وحده أصحابه فى أمر القهر»(١).

ويشير شيخ الإسلام إلى الظلم الذى لقيه علماء الدين على أيدى الكماليين من جراء ذلك القانون، وكانت أولى هجماتهم على مراكز التعليم الدينى فى تركيا كمعهد جامع السلطان محمد حيث أهانوا أهله ومزقوه شر ممزق، وقد دأب هؤلاء اللادينيون على شن غاراتهم أعقاب كل حادثة سياسية على الطائفة المعممة على وجه الخصوص، ولا أدل على ذلك من تلك الغارة التى شنوها على طلبة العلوم الدينية واللغة العربية وأبادوهم عن آخرهم كما أن الجيش المجهز المنساق من سالونيك عند دخوله الآستانة عمم القبض على العلماء وطلابهم المتعممين وعلى النمط ذاته دار اعتقال «سينوب» الذى كان أغلب المعتقلين فيه من رجال الدين ومعارك الدردنيل «جيناق قلعة» التى راح ضحيتها الألوف من الشباب والكهول العلماء أصحاب العمائم الذين واراهم التراب، وأخيرا بعد هدنة الحرب العظمى كم قتل الكماليون أو شنقوا من شيوخ الإسلام وكهولهم لبلاد الأناضول؟(٢).

(١) نقلا عن تاريخ الصحافة الإسلامية، أنور الجندى ج٢، الفتح - دارالأنصار، القاهرة ص١٩١، ١٩٢.
(٢) تاريخ الصحافة الإسلامية، المرجع السابق ص١٩٥.

دفاع شيخ الإسلام مصطفى صبرى عن العمائم:

وعن ظاهرة العمائم التى شن عليـها مصطفى كمال وأعوانه حـربًا فى تركيا نرى الشيخ مصطفى صبرى ينبرى للدفاع عنهـا باعتبارها مظهرًا أصيلاً من مظاهر الزى الإسلامى، التـزم به رجالات الدين عبر القـرون، وهم الذين يتوغلون فى علم الدين ويفنـون شبـابهم فى درسـه، وإذا نظرنا نظرة منـطقيـة فى ذلك فـلا غـضاضـة من ارتداء العـمامـة شأنهم فى ذلـك شأن رجـالات الطب فى زيهم الخـاص، ورجـالات العـسكرية فى زيهـم الخـاص، ولكل براعـتـه فى علومـه وصنائعه، ويتحسر على فقدان تلك العمـامة وزوال هيبتها ووقارها بذهاب رجال الدين وكسـر شوكتـهم فيقـول: «. . . وكنت قبل خمس عـشرة سنة أروح إلى جامع محـمد الفاتح المار ذكره، وكان الأزهر المصرى وهذا المعـهد فرسى رهان، فأجده على سعته ملآن إلى خارج أبوابه ركعًـا وسجدًا، وأربعة أخماس الجماعة المالئين المعممين»[1].

أما غياب تلك الظاهرة فهى اقتلاع لكل ظاهرة دينية فى تركيا، ولاسيما ارتياد المسلمين للمسـاجد، فهم يريدون قطع كل علاقـة بالمسجد تقليدًا للثورة الفـرنسية التى قطعت علاقة الحكومة بالكنيسة، فلا غرابة أن يتعقبوا المعممين، وهم أحرص المسلمين على ارتياد المساجد، وهم أكثر الناس رمزية للإسلام.

أيهما أفضل للمسلمين: العمامة أم القبعة؟

ولنسأل أنفسنا: أيهمـا أجدى للعلماء المسلمين ارتداء العمامـة أم ارتداء القبعة التى هى زى الأجـانب؟ إن مصطفى كـمال قد ضـمن إجراءً تعـسفيًـا عن طريق «محاكم الاستـقلال» أجبر به الشعب على لبس القبـعات، ولما رفض الشعب ذلك حكمت على مئات من المسلمين بالشنق والسجن والرمى بالرصاص[2].

(١) الأسرار الخفية مصدر سابق ص٢٤٠.

(٢) المرجع السابق ص٢٠١.



٦- تحويل مسجد «أيا صوفيا» إلى متحف كنسى:

وقد تضمنت جريدة الفتح الصادرة عام ١٩٣٢م مقالا للسيد محب الدين الخطيب تحدث فيه عن موقف تركيا من الإسلام ذكر فيه أن جامع «أيا صوفيا» تحول اليوم عما كان عليه فى عهد الخلافة العثمانية، وذلك بأن سلمه الكماليون للكنيسة فنزعت منه آيات القرآن وأعادت صور القديسين والصلبان وأجرت الكشف عن الآثار النصرانية والرموز الدينية لتكون هى الظاهرة فى الجامع(١).



(١) تاريخ الصحافة الإسلامية، أنور الجندى ص١٩٤.

الفصل الرابع:

تركيا بين الأمس واليوم

أولاً: تقييم تجربة مصطفى كمال العلمانية

ثانيًا: تركيا بين الإسلاميين والاتحاد الأوروبى

أولاً: تقييم تجربة مصطفى كمال العلمانية



- هذه هى تجربة الكماليين فى تركيـا الحديثة: ثورة على الإسلام ورجاله، وفصل تام بين الحكومة وشرائع الدين، وإذا أخذنا فى تقيـيم هذه الثغرة نجد أنها كانت انتكاسة عـلى تركيا ووبالاً على الـعالم الإسلامى، لأنهـا أتت على كل ثروات وطاقات تركيا المادية والمعنوية وسلبتها عظمتها ومجدها القائمين على الإسلام.

- إن تلك التجـربة الفاشلة كانت فى مـصلحة الغرب وليـست فى مصلحة تركـيا الإسلامية ولا فى مصلحة الشعب التركى الذى سلخوه من هويته الأصيلة.

- لقد قطع مصطفى كمال كل الجـذور والعلاقات التى تربط بين الأتراك وإخوانهم المسلمين بإلغـاء الخلافة، تلك الخلافـة التى كانت سلاحًـا ماضيًا بيـد المسلمين يزعج المعتدين من الغربيين حتى فى أوقات تخاذل المسلمين وضعفهم.

- لقد عرفنا فيما سبق كيف كانت بريطانيا تنظر بعين القلق لأية تجمعات إسلامية، الأمر الذى دفعها أن تعقد صفـقة بيع الخلافة مع مصطفى كمال أتاتورك، يقول محمد فريد بك المحامى: «ثم إن مصطفى كمال بقضائه على الخلافة جردها من سلاح مـاض كان فى يدها تهزه مـتى شاءت فى وجه الأعـداء، وكانت الدولة العثـمانية حتى فى أخـريات أيامها -يوم لم يكن لها صـول ولا طول- مرهوبة الجانب يخشـاها القريب والبعيد، ويحـترمها العدو قبل الصـديق؛ لأنها كانت تحمل صولجان الإسلام الذى كانت تهدد به الطامعين مهما كثر عددهم»(١)

أما فى ظل مصطفى كمال فقد أصبحت دولة ثانوية، شأنها شأن الدول الصغيرة ليس لها وزن سياسى إلا بقـدر ما لمركزها الاستراتيجى من أهميـة وبقدر حاجة الدول إليه، وليس أدل على ذلك من قول «كرزن» وزير خـارجية بريطانيا عندما عاتبـه أعضاء البرلمان الإنجليـزى على تهاونه فى إحكام الشروط المفـروضة على

(١) تاريخ الدولة العلية ص٧٦٨.

تركيا فقال: «عليك بوزن المسألة من حيث الفرق بين دولتى الترك القديمة والجديدة». ولم يقتصر الأمر على ذلك بل قضى أتاتورك على كل مظاهر الأصالة التركية فطمس معالم الأمة وعراقتها وخلقها أمة جديدة مقطوعة الأصول ولم يتقدم بها خطوة واحدة إلى الأمام، بل أرجعها خطوات إلى الخلف فى مجالات العلم والاقتصاد حتى فى مجال السياحة على الرغم من شهرة تركيا بمناظرها الطبيعية الخلابة.

- إنه فشل مريع فى شتى المجالات وإذا جاز لنا أن نسمى حركة مصطفى كمال ثورة فهى ثورة بلا شك على الدين ورجاله وعلى الثقافة الإسلامية الأصيلة وعلى التاريخ الإسلامى وحضارته الإسلامية، هى باختصار ثورة ضد أمة الإسلام التى جعلها الله خير أمة أخرجت للناس.

صدى تجربة العلمانيين من أنقرة إلى العالم الإسلامى:

قد يتساءل المرء: ألم يكن لإلغاء الخلافة أثرها على العالم الإسلامى كما كان لتجربة الكماليين فى الفصل بين الدين والدولة والأخذ بالقوانين الوضعية أثرها وصداها فى بعض البلدان العربية؟

إن المتتبع لمراحل إلغاء الخلافة يجدها منطوية على خدعة كبيرة للمسلمين إذ بقى مصطفى كمال إلى حين عقد معاهدة لوزان يتظاهر بأن الدين والقيم الإسلامية ما زالت شعاره، وأن الحرب هى جهاد فى سبيل الله وعمل بالكتاب والسنة، وأخذ يصدر المنشورات التى تفصح عن ذلك حتى انخدع به المسلمون.

وقد صورت جريدة الفتح الصادرة فى مارس عام ١٩٢٤م مدى انخداع المسلمين بمصطفى كمال: «لقد كانت الألسنة تتحدث بأن الرجل يشرب الخمر فكانت القلوب تأبى التصديق، وكان بعض الناس يطعن فى زمرته باللادينية فكانت النفوس تسرع جازمة إلى التكذيب ولكن كان حديث الحق، ونذير الخطر كان صدقًا.

وما أظن ذلك الرجل ومن معه إلا كانوا مبيتين لذلك حين قاموا بحركتهم الأولى ضد وحيد الدين»(١). لم تسر الفكرة إلى عقول عامة المسلمين فقط، بل

(١) تاريخ الصحافة الإسلامية، مرجع سابق ص, ١٩١

وجدت سبيلها سهلاً ممهدًا لدى عقول بعض المفكرين والأدباء من أمتنا الإسلامية، فنرى أمير الشعراء أحمد شوقى ينخدع كغيره من المسلمين، حيث إنه كان يظن أن مصطفى كمال ينتصر للإسلام، فيعبر عن إعجابه بقصيدة عنوانها «الآستانة تُعزل وأنقرة تُكلل» يقول فيها:

الله أكبر كم فى الفتح من عجب   قم يا خالد الترك جدد خالد العرب

وعندما ظهرت حقيقة الكماليين بعد مؤتمر لوزان، وكشفوا عن نواياهم الخبيثة، وتم إلغاء الخلافة العثمانية، يثوب شاعرنا إلى رشده، ويبكى الخلافة مع الباكين فى قصيدة مطلعها:

عادت أغانى العرس رجع نواح   ونعيت بين معالم الأفراح[1]

ومما لا شك فيه أن سقوط الخلافة العثمانية كان من أخطر الأحداث التى زلزلت كيان الأقطار العربية، وعرضتها للغزو الاستعمارى، وعملت على تمزيق الدولة العثمانية وتغريب تركيا، ولم يقف الأمر إلى حد الإضرار بتركيا، بل تم تصدير تلك التجربة إلى البلاد الإسلامية والعربية وفى مقدمتها مصر وإيران وسوريا.

أثر خطة مصطفى كمال:

وقد ربطت جريدة الفتح بين الخطة اللادينية التى قام بها مصطفى كمال فى تركيا المسلمة وبين خطط أخرى تجرى فى نفس الوقت فى إيران وأفغانستان، وسوريا ومصر وغير ذلك من الدول العربية والإسلامية فكتبت مثلاً تحت عنوان «إيران بعد تركيا» ما نصه:

«كان لعمل الترك الأثر السيئ فى غيرهم من الأمم، فقد بدأ اعتزام إيران على إبدال الحروف العربية باللاتينية وتنقية اللغة الفارسية من الكلمات العربية وإلغاء الحجاب وتعميم القبعة»، ثم تواصل الحديث قائلة: «إن الحكومة الإيرانية بدأت تسير على سياسة لا دينية بحتة فى مشروعات القوانين الجديدة وقد وضعت قانونًا مدنيًا اقتبسته من القوانين الأوروبية كما فعلت تركيا»[2].

(١) ديوان شوقى.

(٢) تاريخ الصحافة الإسلامية ص١٨٣، ١٨٤. للاستزادة، ولمعرفة أثر التجربة العلمانية يرجع إلى نفس المصدر.

كما أشارت الفتح إلى تسرب الدعاية الكمالية إلى سوريا، وتخصيص مبالغ طائلة لنشر الدعاية القوية لمبادئهم فى نفوس ضعفاء الدين والوطن من السوريين، وقد قال فى ذلك الأستاذ مصطفى السباعى فى تلك الجريدة بمناسبة موت مصطفى كمال: «إنهم يفكرون فى غزونا وإزالة الصبغة الإسلامية من وطننا، وعلى الأمة أن تتبين مبلغ إساءتهم إلى الإسلام، وعملهم على تقويض أركانه لئلا ينخدع بهم أحد»[1].

صدى تجربة الكماليين فى مصر:

أما فى مصر فقد كان لتجربة مصطفى كمال صداها العميق فى نفوس الكثير من أبنائها، إذ تناوله بالإعجاب أصحاب الأقلام والصحف، وراحوا يعدون مناقبه، وكان أول من أثار مسألة الفصل بين الدين والسياسة هو الأستاذ على عبدالرازق الذى ألف فى تلك المسألة كتابه المعروف «الإسلام وأصول الحكم».

وقد أراد بتأليفه تأييد ما فعله مصطفى كمال فى تركيا من إلغاء الخلافة، وقد ترجم الكتاب إلى اللغة التركية، واعتمد عليه الكماليون فى تحقيق أغراضهم، وقد أحدث ذلك الكتاب ضجة كبرى فى المحيط الإسلامى، وانبرى للرد عليه كثير من مفكرى الإسلام كان منهم: الشيخ مصطفى صبرى فى كتابه الأسرار الخفية - الذى سبق ذكره.

كما خصص للرد عليه تفصيلا كتابه «موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين - الجزء الرابع»، ولم يكتف الشيخ بهذين الكتابين، وإنما خاض معركة فكرية على صفحات الجرائد المصرية وغيرها، ليثبت للرأى العام الإسلامى ولاسيما المصريين أنهم منخدعون بإعجابهم بمصطفى كمال أتاتورك، ويقيم الحجة تلو الحجة على جريمته النكراء فى إلغاء الخلافة وتجريد تركيا من كل مسحة إسلامية:

(١) تاريخ الصحافة الإسلامية ١٩٤.

«إن الكتاب من علماء مصر فى قضية الخلافة والسلطة التى أحدثها الكماليون لا يزالون بعيدين عن إدراك لب المسألة، فشرقوا وغربوا، واتهموا وأنجدوا، وجعلوا مباحثها ذريعة لبسط علومهم الواسعة فى مباحث الإمامة والخلافة، وتاريخ الخلفاء»(١).

ثم يشير الشيخ مصطفى إلى طرف من الجهالات التى تعلق بها المصريون وكتبوه فى صحفهم، ولاسيما فيما يتعلق بالجمهورية التركية.

ومن أمثلة تلك الكتابات: «فاز أنصار التجدد فى أنقرة ونودى بالجمهورية التركية، فأصبح يوم ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٢٣م علمًا من الأعلام، ويومًا من الأيام المشهورة فى تاريخ المشرق والترك والإسلام، ففيه نودى بالجمهورية الشرقية المسلمة الأولى وفيه أعيد الحكم شوريًا ديمقراطيًا كما بدأ الإسلام من قبل، بعد انقضاء ألف وثلاثمائة سنة وسنة واحدة، فمحا يوم أنقرة يوم صفين، ونقض مصطفى كمال ما أسسه ابن أبى سفيان، فأعاد الأمر شورى بعد أن جعله ذاك ملكًا عضوضًا»(٢).

وعلى ما يبدو أن تلك الحملة الدعائية قد صادفت هوى فى أنفس بعض الوزراء والمسئولين فى الوزارة المصرية آنذاك، ويشير الشيخ مصطفى إلى نوايا «إسماعيل صدقى باشا» الذى اقترح على مجلس النواب توحيد القضاء فى مصر بإدماج المحاكم الشرعية فى المحاكم الأهلية، وأن هذا الاقتراح يعد خطوة كبيرة فى فصل الدين عن السياسة، ولكن وجد معارضة من بعض النواب الذين وقفوا على حقيقة نواياه، إذ أنهم ردوا عليه بأن الإسلام ليس دين عبادة فقط بل هو دين ودولة، وأن إدماج المحاكم الأهلية المتضمن لإلغاء المحاكم الشرعية ينافى كون الإسلام دين حكم. يقول الشيخ مصطفى:

(١) الأسرار الخفية ص١٥٣. ويلاحظ مدى تأثر الشيخ مصطفى صبرى من الكتاب المصريين لأنهم يؤيدون مصطفى كمال، وذلك بسبب انتصاره العسكرى على اليونان، مما جعلهم يظنون أنه سيعيد للإسلام سالف مجده، كما كانت الصحافة الموالية للاستعمار: كالمقطم والمقتطف تضاعف حملتها على الشيخ مصطفى وأعوانه من المعارضين لإلغاء الخلافة العثمانية.

(٢) الأسرار الخفية ص١٦٤.



«لكن دولة إسماعيل صدقى باشا الذى لا يجهل كون الإسلام دين حكم يريد إلغاء هذا الحكم، لكونه ممن لا يقبلون حكومة الدين على الناس، وإن شئت فقل حكومة الله عز وجل على الناس، وإنما يقبلون حكومة الناس على الناس»[1].

. كما نرى مصطفى النحاس باشا رئيس الحكومة المصرية يعبر عن إعجابه بمصطفى كمال، ويشير إلى مقدرته البارعة فى خلق تركيا الحديثة: «. . . ولست أعجب فحسب لعبقريته السياسية، بل أعجب أيضا لعبقريته الخالقة وفهمه لمفهوم الدولة الحديثة التى تستطيع وحدها فى الحالة العالمية الحاضرة أن تعيش وتنمو»، وتشير جريدة الفتح إلى رد الأستاذ حسن البنا - المرشد العام للإخوان المسلمين - على مصطفى النحاس فى ١٤ يونيه عام ١٩٣٦م بمناسبة ذلك التصريح، أبان فيه عن دهشته لذلك الإطراء الذى بدر من رئيس الحكومة المصرية إلى مصطفى كمال أتاتورك الذى قلب نظام الخلافة إلى جمهورية، وحذف القانون الإسلامى، وحكم بالقانون السويسرى، وصرح فى دستورها أنها حكومة لا دينية، وأنها قطعت علاقتها بالشرق الإسلامى حتى فى شكل حروفه وأزيائه وعاداته.

ومن هنا وقع الاستغراب له ولغيره من المسلمين لما ورد فى تصريح النحاس، ثم يبادره بالسؤال قائلا: «هل يفهم من هذا التصريح أن دولة النحاس باشا -وهو الزعيم المسلم الرشيد - يوافق على أن يكون الأخذ بعد الانتهاء من القصة السياسية ببرنامج كالبرنامج الكمالى، يبدل كل الأوضاع فيها، ويقصيها عن الشرق والإسلام ويسقط من يدها لواء الزعامة، لقد كان من أعز الأمانى أن يؤيدكم الله فيؤيد بكم الدين والأخلاق، وتسلكون بالأمة مسلكًا يعيد إليها ما فقدته من استقلالها السياسى وتشريعها الإسلامى وخلقها الاجتماعى»[2].

ولا يخفى على الباحث المنصف كيف سرب الاستعمار تجربة مصطفى كمال إلى مصر، وكيف تواطأ الإنجليز مع بعض زعمائها إبان الحماية البريطانية على

(١) الأسرار الخفية ص٨٥، ٨٦.

(٢) الصحافة الإسلامية - مرجع سابق - ص٢٣٧، ٢٣٨.

إدخال النظم الأوروبية إلى مصر التى أخـذت تسرى تدرجيًا إلى أن تم الفصل بين الدين والدولة فى أغلب الأمور والحـالات، وتحويل المصريين عن العمل بالـتشريع الإسلامى وانغماسهم فى التغريب، وإن كـان التوسع فى هذا الموضوع سيخرج بنا عن دائرة المطلوب إلا أن ما تعانيه مصر اليوم فى مجالات التعليم، والأسرة ونظم المجتمع، وظهور القيادات المعادية، والتخلف التقنى والاقتصادى والتحرش الجنسى والتحلل الخلقى والرشوة وانتشار البطالة إلى غيـر ذلك من قضايا يئن منها المجتمع اليوم والحكومة عاجزة عن أن تجد لها حلا، إن كل هذه المساوئ والسلبيات بسبب النظم العلمانية التى غـزت حياة المصريين والتى أصبح للعلمـانيين اليد الطولى فى صنع القرار.

كما لا يخفى علينا جميعا كيف تم التنسيق بين اليهود والاستعمار لفصل الدين عن الحكم، وكـيف تلاقت الجـهـود فى وقت واحـد للإجـهـاز على نظام الحكم الإسلامى فى تركيا ومصر وبعض البلدان العربية. ويعزز ذلك الرأى أن الاستعمار يدرك من تاريخ الخلافـة الإسلاميـة أنها رابطة شعـورية لا يستغنى عنهـا المسلمون حتى وإن بلـغت ذروة الضعف والانحلال، وأنهـا إذا سقطت فى عـرينها فـسوف تقوم فى عرين آخر، فسقوط الخلافة فى بغـداد على أيدى المغول أعقبه قيام خلافة عبـاسيـة فى مصر تحت رعـاية المماليك وإن كـانت مجـرد خلافة رمـزية. ولكن المؤسف له حقًا أن إحباك خطة إلغاء الخلافة فى تركيا قد صاحبها فى نفس الوقت اقتلاع لجـذورها من نفوس المسلمين فى أغلب البلـدان العربية والإسلامـية، الأمر الذى قضى على كل ذرة أمل فى قيامها آنذاك.

عودة تركيا إلى الإسلام:

وكانت بداية عودة ظهور الإسلاميين وبزوغ نجمهم فى تركيا عام ١٩٤٥م عندما سـمح النظام العلمانى لأول مـرة بتـعدد الأحـزاب، فظهر على السـاحة الحـزب الديمقراطى لينافس حزب الشعب الذى أسـسه أتاتورك والذى احتكر السلطة سبعة وعشرين عاما، واستطاع الحزب الديمقراطى أن يحصل على أغلبية مقاعد البرلمان،

وكـان تصويت الأتـراك له نكاية فى حـزب الشعب ومن وقـتـها أصبح النشـاط الإسلامى ممكنًا بعد أن كان ممنوعًا أو مصادرًا.

وقد شـهدت فترة السـتينيات تحولات اجـتماعـية واقتصـادية كبيرة فى تركـيا فارتفـعت الدخول وتغـيرت بعض أنماط الحـياة وانتشـرت الأحزاب اليـسارية فى صفوف الطلاب والمثقفين، وظهرت فى تلك الفترة توجـهات سياسية إسلامية على الساحـة فى تركيـا فظهر المهندس الإسـلامى نجم الدين أربكان الذى عـينه حزب العدالة رئيسًا لاتحـاد مجالس الصناعة والتجارة التركـية، وقد توالت الأحزاب فى تركيا واحدًا تلو الآخر إلى أن جاء حزب العدالة والتنمية فتمتعت الحركة الإسلامية بحرية أكبر مما كـانت عليه واحتلت مساحة أوسع سـواء فى سياسة الدولة أو على مـسـتوى الشـارع التركى، وظهـرت إبان ذلك فكرة «الأسلمـة المعـتدلة» كـإطار أيديولوجى للحـد من تطرف الأتاتوركيـة من ناحيـة أو تطرف بعض الإسلامـيين وظهور الأفكار المتطرفة من ناحـية أخرى، وخاصة بعد نجاح الثـورة الإسلامية فى إيران. وقد تدعم الاتجاه الإسـلامى بفتح المدارس التى تخرج الأئمة والخطبـاء كما سمح بالدعـوة الإسلاميـة فى الإذاعة والتلفزيون بعـد أن كان مجرمًـا قبل ذلك، وسمح بقـيام مؤسـسات الأوقاف كـما سمـحت الدولة بالسياسـيات الاقتـصادية الإسلاميـة وذلك بوجود شركات ومـشروعات إسلامـية كما سـمح بنشاط رابطة العالم الإسلامى فى تركيا على أن تكون مقرًا لعقد الاجتماعات لتلك المنظمة.

ومما يروى عن حـرص الأتراك على دينهم الإسـلامى الحنيف رجالا ونسـاء بل كانت النساء قبل الرجال، ففى عهد أوزال سنة ١٩٨٩م نظمت طالبات جامعة انقرة مظاهرة كبـيرة اشتـرك فيهـا خمسـة آلاف طالبة احتـجاجا على منع الحـجاب فى الجامعات التركية بقرار من المحكمة الدستورية العليا وأحدثت هذه الظاهرة أثرها فى الشـارع التركى حـيث رأى البعض أن الظهـور المكثف للمحـجبـات هو من قبـيل التخطيط السـياسى حيث تتقـدمن النساء والفتـيات فى الواجهة مما يجـعل تأثيرهن أقوى. ورأى آخرون أن النساء رفعن رايات الانتماء للإسلام بارتداء الحجاب لتثبيت دعائم الحركة الإسلامية فى تركيا وإثبات أنها ما زالت موجودة فى الوجدان الشعبى

والجماهيرى، وبذلك تمكنت الحركة الإسلامية أن تنقل معركتها مع العلمانيين من الحرم الجامعى إلى الشارع العام لإثارة المشاعر الإسلامية لدى المواطن التركى. والمتأمل فى هذه الحركة وهذا الأداء الإسلامى المحسوب بكل دقة يجد أنه كان يهدف إلى عدم حدوث انتكاسة للإسلاميين كالتى حدثت فى بداية الثمانينيات والتى أدت إلى اقتصار المد الإسلامى على العبادات فقط بعد الانقلاب الأخير.

وخطا الإسلاميون خطوة أوسع وأدق إذ تمكن حزب الرفاة والإسلاميون أن يقتربوا من السلطة أكثر. وقد تأسس ذلك الحزب عام ١٩٨٣م وكان شعاره «النظام العادل» وهو عنوان برنامج الحزب وكان يهدف إلى إلغاء العلمانية فى تركيا وخاصة أن تلك العلمانية التى فى تركيا تختلف عن العلمانية التى فى الغرب، إذ الأخيرة تقتصر على فصل الدين عن السياسة وليس محاربة الدين أو معاداته لذا كان أربكان يرى أن الديمقراطية وسيلة وليست غاية فهى تهدف إلى إقامة نظام السعادة، وإذا فشلت فى ذلك فلا قيمة لها، وكان هذا هو الخطاب السياسى الذى خاض به أربكان الانتخابات واستطاع أن يحصل بها على خمس بلديات، هذا النجاح المطرد للإسلاميين كان يقابل أحيانا بعنف شديد من العسكريين أو بانقلاب يقصى الزعيم الإسلامى عن الحكم، ومن هنا فإن الزعماء الإسلاميين مثل أربكان وغيره كانوا يدركون قواعد اللعبة السياسية ويتحركون من خلالها مدركين ومنتبهين للتوازنات السياسية التى تحيط بهم، وهم الآن قد نجحوا نجاحا عظيما فى الانتخابات الأخيرة وفازوا بأكثر المقاعد وانفردوا بتشكيل الحكومة وهذا مكسب لا يستهان به، وإذا دل على شيء فإنما يدل على تلك الصحوة الدينية لإعادة الدين الإسلامى بوجهه الأصيل والحديث، وسوف تزداد تلك الصحوة يوما بعد يوم وينعكس أثرها الإيجابى على المنطقة الإسلامية بأسرها وخاصة بعد فشل تجربة مصطفى كمال العلمانية، هذا وإنما أود أن أتحدث عن موقف تركيا من الاتحاد الأوروبى على وجه الخصوص لأنها دولة أوروبية من ناحية وشرق أوسطية من ناحية أخرى، فهل مصلحتها ستكون فى انتمائها إلى العالم الإسلامى الذى نشأت فيه وترعرعت أم سيكون مع الاتحاد الأوروبى الذى كان يناصبها العداء من قبل؟.



ثانياً: تركيا بين الإسلاميين والاتحاد الأوروبى

وبعد هذا الإنجاز الكبير الذى تحقق للإسلاميين من حزب العدالة والتنمية -كما قلنا- إلا أننا لاحظنا أن رئيس هذا الحزب أخذ يتوجه نحو أوروبا لقبول تركيا بالاتحاد الأوروبى، وإذا كانت تركيا قد منحت الضوء الأخضر لتصبح عضواً كاملاً فى الاتحاد الأوروبى، وبالطبع فإن هذا القبول لن يتحقق بسهولة إذ يتعين على تركيا أن تخوض اختبارات عديدة وكثيرة حتى يتبين لدول الاتحاد حسن سير وسلوك الدولة التركية ذات السبعين مليون نسمة.

فتركيا مُتهمة بانتهاك حقوق الإنسان وبتنفيذ عقوبات الإعدام بحق المعارضين السياسيين مثل: عبد الله أوجلان. وكذلك يتهمونها بديكتاتورية الحكم، وسيطرة الجيش على جميع المؤسسات، ولكى يتم - تطبيقياً وتنفيذياً- إلحاق تركيا بالاتحاد الأوروبى عليها أن تتخلص نهائياً من تلك الاتهامات، وأن تنفض يديها تماماً من تلك الجرائم البشعة التى ترتكبها حيال شعبها.

ولعل من أسباب توجه هذا الحزب نحو الاتحاد الاوروبى هى تلك المعاناة التى يعانيها الأتراك من جراء دكتاتورية العسكرة ومن ممارسات حكومته إذ صارت جميع فئات الشعب تنظر إلى عضوية تركيا فى الاتحاد الأوروبى على أنها المخرج الوحيد للأزمة التركية، حتى الذين كانوا يُعارضون تلك العضوية صاروا يؤيدونها ويرون فيها المتنفس الأمثل لفك القيود والأغلال من عليهم.

والحقيقة أن اتخاذ دول الاتحاد الأوروبى تلك الخطوة -السماح لتركيا بنيل تلك العضوية فى وقت لاحق- يُعتبر بداية عهد جديد ليس لتركيا فقط بل لأوروبا أيضا. لأن كلاً منهما سيستفيد من الآخر فإذا تم القبول النهائى لتلك العضوية ستصير تركيا هى العضو المسلم الوحيد داخل الاتحاد الأوروبى. وهذا أمر ليس سهلاً بل سيجبر أوروبا على أن تواجه حقيقة الإسلام كحقيقة أوروبية وليس كأمر بعيد ينتمى إلى «الشرق الأوسط» فحسب، مما يؤدى إلى انعطاف أو تطور جديد

تجاه المفهوم الناشئ وهو دخول الإسلام إلى أوروبا من أوسع أبوابها هذا خلاف الأقليات الإسلامية الموجودة بها.

هذا الانعطاف سيكون له دلالات حاسمة وقاطعة بالنسبة للدول المسلمة الأخرى فى أوروبا: البوسنة، كوسوفا، مقدونيا، والأقليات المسلمة فى بلغاريا واليونان.

على ضوء هذه التطورات الجديدة سيتعين على الدول الأوروبية أن تنظر إلى أقلياتها المسلمة من منظور مختلف؛ حيث إن هذه الأقليات ستُمثل مستقبلاً - فى الاتحاد الأوروبى- عن طريق دولة مسلمة يجاوز عدد سكانها سبعين مليون نسمة.

ولكن ينبغى على تركيا لقبولها عضوا فى الاتحاد الأوروبى أن تتخلص من عدة عقبات تهدد عضويتها الكاملة من إصلاح اقتصادى إلى التسلط العسكرى والركود البيروقراطى، وهذا أمر لا ينكره الأتراك أنفسهم إذ ما زال الجيش العلمانى متسلطًا ومهيمنًا على السياسة التركية. ومن أهم العقبات التى تهدد عضوية تركيا:

١- انتهاكات حقوق الإنسان:

يُعتبر هذا الموضوع من أكثر المواضيع الملحة فى الوقت الحالى؛ فمنع طالبات الجامعة من ارتداء الحجاب يُطبق بالقوة والضغط وبسرعة. والعلمانية التى خضعت لها كل تركيا وفى شتى المجالات-الجيش والإعلام والشركات الاقتصادية الكبيرة - لا تترك أى متنفس للحرية الدينية ولا حتى حرية التعبير عن الرأى.

ففى تركيا يوجد شىء اسمه «جريمة الفكر». فمئات الكتاب والصحفيين أصحاب التيارات المختلفة -من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار إلى الإسلاميين- يتم اعتقالهم سنويًا لاتهامهم بجريمة الفكر. وهم يُسمون بالتالى «مجرمو الفكر». ويكفينا القول بأن العدد الضخم من الكتاب والصحفيين المعتقلين فى تركيا جعلها تتصدر المكانة الثانية -بعد الصين- فى اعتقال أهل الفكر.

والأخطر من ذلك أن الأوضاع العلمانية التركية لا تبالى ولا تلقى سمعًا للانتقادات الموجهة إليها من قبل المنظمات العالمية لحقوق الإنسان والتى تقدم عشرات التقارير سنويًا عن انتهاكات حقوق الإنسان فى تركيا.

وتعتبر المؤسسات حامية العلمانيـة فى تركيا أن تلك الانتقادات الخارجية تدخلاً فى شئونـها الداخلية، خاصـة أن تركيا «تتمـتع» بنظام فريد وخاص فى الديمقـراطية والحكم المدنى، كما تزعم هذه المؤسسـات أن هذا النظام الفريد يفوق كل المقاييس الدولية لحقوق الإنسان أو الاعتبارات الديمقراطية!

ولنرَ معًا بعض الأمثلة عن انتـهاك حقوق الإنسان: فقد اعتُقل عـمدة إستانبول المعروف طيب أردوجـان وهو يقرأ أبياتًا من الـشعر فى إحدى خـطبه. الحكاية أنه اتهم باستفـزاز الناس على أسس عقائدية وإثنيـة، وكذلك بانتقاص قدر الـعلمانية التى هى سمة الجمـهورية التركية. والطريف فى الأمر أن أبيـات الشعر التى ألقاها أردوجان كانت مكتوبة بيد زياجو كلب (Ziya Gokalb) وهو نفسه مؤسس الحركة القومية التركية الحديثة «ذات الطبيعة العلمانية».

ومثال آخر لانتهاكات حقوق الإنسان يتمثل فى «حسن جلال جوزيل» (Hasan Galal Guzel)، ذلك السيـاسى المشهور ووزير الثقـافة والتعليم السابق (فـى فترة رئاسة تورجوت أوزال)، وكذلك رئيس حزب البعث الذى أُلقى به فى السجن فى نفس الأسبوع الذى أُعلن فيه ترشيح تركـيا للعضوية فى الاتحاد الأوروبى. وكانت تهمة «جوزيل» تتلخص فى إضـعاف وتشويه الأسس العلمانية التابعـة للجمهورية التركية، وبالتالى كان جزاؤه الحكم عليه لمدة خمسة شهور. واعتمد القضاء التركى - فى اتهامه لجوزيل- على الخطبة التى ألقاها منذ عامين، وانتقد فيها الديمقراطية العسكرية التى فرضها لواءات الجيش على البلاد.

هاتان الواقعتـان تُشكلان جزءًا صغيرًا جـدًا من الانتهاكات الواضحـة للمبادئ والأحكام التى وعدت تركـيا بالالتزام بهـا فى البروتوكول المتـعلق بعضويتـها فى الاتحاد الأوروبى.

ولقد تعـهدت تركـيا بإحداث تغييرات مهـمة فى الدستـور والقانون الجنائى بالإضـافة إلى التـوقيع عـلى إلغاء مـجلس الأمن القـومى ومحـاكم أمن الدولة، ويتألف مجلس الأمن القـومى من الرئيس، ورئيس الوزراء، وألوية الجيش، وهذا

المجلس بمثابة الحاكم الفعلي لتركيا. أما محاكم أمن الدولة فهي تمثل الفرع القضائي - التشريعي في داخل مجلس الأمن القومي. هكذا كأن الدولة تحكم بقوانين الطوارئ أو القوانين العرفية وخاصة هيمنة محاكم أمن الدولة على الناس، وفي ذلك إهدار لحقوق الإنسان وضياع لكرامته وإنسانيته.

٢- مشكلة عقوبة الإعدام:

بجانب مشكلة انتهاكات حقوق الإنسان تُمثل مشكلة عقوبة الإعدام خطرًا ثانيًا يعترض طريق تركيا في التحاقها بالاتحاد الأوروبي. وبالرغم من أن رئيس الوزراء «بولاند أجاويد»[١] قد أظهر عدم رضاه بعقوبة الإعدام، وبالرغم من أنه قد بدأ بالفعل في شن حملة -ولكن غير رسمية- لإلغاء مثل تلك العقوبة؛ فإن قضية عبد الله أوجلان -رئيس حزب العمال الكردستاني- ما زالت موجودة في الآفاق!!

إن اعتقال أوجلان يُعتبر من أكثر المواضيع حساسية وتأثيرًا في تاريخ تركيا الحديث.

ومن المؤكد الآن أن أوجلان لن يتم إعدامه، ومن ثم فعلى الحكومة التركية الحالية أن تبحث عن مُبررات مقنعة تشرح بها موقفها الجديد حيال أوجلان. فالمعروف أن هذه الحكومة قد تعهدت سابقًا - فيما مضى- باعتقال وإعدام أوجلان على حساب كل الاعتبارات.

٣- استياء الجيش من الاتحاد الأوروبي:

يضع بروتوكول العضوية الكاملة في الاتحاد الأوروبي شروطًا مُلحة وصارمة على السياسات العسكرية التي ينتهجها النظام التركي. لذا فإننا نجد الجيش وحلفاءه مستائين ومتبرمين من الاتحاد الأوروبي، وهم يستخدمون الذريعة القديمة التي تقول: «إن ما يفعله الاتحاد الأوروبي حيال تركيا يُعتبر خطرًا على سيادة الجمهورية

---

(١) وصل إلى السلطة في السبعينيات. وأصبح لأول مرة رئيسًا لوزراء تركيا على رأس ائتلاف حكومي مع الإسلاميين في عام ١٩٧٤م، وقد أمضى ٤٩ عامًا من حياته في المعترك السياسي لخدمة بلاده. وقد توفي عن ٨١ عامًا.

التركية واستقلالها مما يعكس كون ذلك أحد المخططات الخبيثة لزعزعة الاستقرار فى البلاد».

٤- الاتحاد الأوروبى المخرج لكل التيارات:

المفترض أن يكون العلمانيون هم أول من يؤيد النهج الغربى، ومن ثم السعى وراء العضوية فى الاتحاد الأوروبى، ولكن الغريب فى الأمر أن لديهم تحفظات كثيرة -أكثر من ذى قبل- على تلك العضوية التى ظلت تركيا طويلاً تعمل وتكافح من أجلها. وسبب تلك التحفظات يكمن فى أن تلك العضوية ليس لها إلا معنى واحد ألا وهو: نهاية الحكم غير الديمقراطى فى تركيا.

كل التيارات فى تركيا الآن تؤيد هذا الالتحاق، فبالرغم من اختلاف التوجهات يتحد الجميع على هذا المبدأ: الإسلاميون، الليبراليون، اليمين واليسار السياسى، وكل الناقمين على السياسة التركية الداخلية خاصة فى الفترة بعد أوزال التى أظهرت الحكم العسكرى على صورته الحقيقية فى الهيمنة والسيطرة على البلاد. ولذا فهم يرون أنه من الصعب جداً أن يفقد ذلك الحكم سيطرته على البلاد.

ومن الواضح أنه لا يوجد أحد فى تركيا يعتقد أو حتى يأمل أن التغيير للأحسن سيحدث من داخل تركيا نفسها. فالسلطة المهولة التى يحتكم عليها الجيش التركى ستتطلب وقتاً طويلاً للغاية ليتم حلها أو تغييرها. وتبعاً لذلك سلّم كثير من العقلاء بأنه لا مخرج ولا فكاك من الأزمة التركية الداخلية إلا عن طريق الاتحاد الأوروبى.

إن الطريق إلى الاتحاد الأوروبى كان وسيظل طويلاً شاقاً بالنسبة لتركيا، ولا أحد يشك أنه فى ظل الاشتراطات الصارمة -التى تعهدت الحكومة التركية بتنفيذها- ستأخذ عملية العضوية الكاملة عشر سنوات على الأقل. وطبعاً لتركيا الحرية الكاملة فى تسريع تلك العملية أو إبطائها أو حتى قتلها.. وفى هذه الحالة سيصير من المستحيل التنبؤ إذا ما كانت تركيا قادرة على تحويل التحديات التى تواجهها إلى فرص حقيقية. تلك الفرص يمكن أن يكون لها دلالات

حاسمة بالنسبة لتركيا من ناحيـة، وبالنسبة لمستقبل الإسلام فى أوروبا من ناحية أخرى.

هل مصلحة التيار الإسلامي فى الانضمام إلى الاتحاد الأوربى؛

يشير عدد كبير من المحللين إلى أنه لم يسـبق لحكومة تركية -منذ أربعة عقود- أن مارسـت القدر ذاته من الضـغوط، أو عـبرت عن رغـبتهـا فى الانضمـام إلى المجمـوعة الأوربية بهذا الإلحـاح الذى أظهرته حكومة عبـد الله جول[1] المحسوبة على التـيار الإسـلامى؛ وهو أمـر -فى رأى هؤلاء المحللين- يسـتـدعى الانتبـاه والبحث فى دوافعه وخلفياته.

لقد ثابر العلمانيون المـتشددون الأتراك طيلة أكثر من سبعـين عاما على تصوير الإسلامـيين فى بلادهم لجيرانهم الأوربيـين والغربيـين على أنهم «البعـبع» الذى يخطط لإرجاع تركـيا إلى حظيرتها الإسـلامية، وبناء سـد بينها وبين أوربا بشكل خاص والغـرب عموما، غـير أن سلوك أول حكومة إسـلامية خـالصة فى تاريخ الجمهورية التركـية أثبت خلاف ما هو رائج، حيث بدا الإسلاميـون الأكثر حرصا من غيرهم على تحويل بلادهم إلى عضو كامل فى النادى الأوربى - الغربى.

وما تزال المصادر العلمـانية التركية - بالرغم من كـل الدلائل التى أظهرها قادة العدالة والتنمية تأكيدا على تشبثهم بالانضمام للاتحاد الأوربى - تثير الشكوك حول مصداقية توجهات حكومتهم الإسلامـية، غير أن مصادر أخرى محايدة تؤكد على وجهة نظر مختلفة، مفادها أن ما جرى عليه قادة الحكومة التركية الجديدة يعد أمرًا طبيعيًا منسـجمًا للغاية مع مصلحة بلادهم بشكل عام ومـصلحة حزبهم - وعموم التيار الإسلامى- على وجه الخصوص.

(١) أعلن جول عن قيام حزب العدالة والتنمية عام ٢٠٠١م ويعد مؤسس هذا الحزب واحدًا من أبرز العناصر الفعّالة والنشطة فى المجال السياسى التركى مع صديقه رجب طيب أردوغان، وقد دخل البرلمان تحت علم الحزب الجديد وأعيد انتـخابه مرة أخرى سنة ٢٠٠٧م بعد الأزمة الدستورية التى حـصلت بشأن انتخاب رئيس الجمهورية والتى كان مـرشحًا لها وذلك عندما رفض الجيش التركى والأحزاب العلمـانية ترشيحه لمنصب الرئاسة لكنه انتخب رئيسًا لتركيا فى ٢٨ أغسطس ٢٠٠٧م.

ويستدل أصحاب الرأى الأخير على صحة رأيهم بالإشارة إلى ثلاث مشاكل رئيسية يعانى الإسلاميون الأتراك منها كثيرا ولا يوجد حل جذرى لها برأيهم إلا من خلال تحقيق الانتماء الأوربى لتركيا، والتطبيق الكامل لمعايير هذا الانتماء. وتتمثل هذه المشاكل الثلاثة - كما قلنا- فى: حظر الأحزاب، وحقوق الإنسان، والملف الكردى.

وإذا كان غياب الديمقراطية الكاملة فى تركيا مشكلة يعانى منها السياسيون وتكوين أحزاب جديدة فإن انضمام تركيا إلى الاتحاد الأوروبى هو وحده القادر فى المدى البعيد على تخليص الأتراك من نظامهم السياسى العتيق ومن خطورة الانقلابات العسكرية وحظر الأحزاب السياسية، ومن هنا إذا قدر لتركيا الانضمام إلى الاتحاد الأوروبى فإن التزامها بمعايير هذا الاتحاد وبخاصة معيار الديمقراطية سيكفل للشعب التركى حقه فى صيانة هويته الإسلامية والتعبير عنها بطريقة حضارية ومعاصرة ولكنه ذو مرجعية إسلامية.

وكذلك حقوق الإنسان التركى سينالها ذلك الإنسان بانضمامهم إلى الاتحاد الأوربى فأول شىء سوف يتحقق هو تغيير علمانية تركيا إلى علمانية الغرب، فمن المعروف أن العلمانية التركية لم تكتف بفصل الدين عن الدولة كما هو سائد فى أوروبا بل اتخذت شكلا مغايرا معاديًا للدين والعقائد الدينية على وجه الخصوص، وقد بالغت فى ذلك مبالغات عنيفة وصلت إلى حد القتل والشنق والإعدام وهكذا تختلف تلك العلمانية عن علمانية الغرب التى تعنى بفصل الدين عن الدولة بقدر يحافظ على حقوق المواطنين أمام القانون ويحافظ أيضا على حقوق المؤسسات الدينية وحق المتدينين فى ممارسة أنشطتهم وشعائرهم. وفى ظل تلك العلمانية ستكون الحلول الكثيرة لما يعانى منه الأتراك فسوف تجد مشكلة الحجاب حلا لها، فالنساء المسلمات المحجبات فى دول الاتحاد الأوروبى لا يعانين من تلك المشكلة فى أغلب الدول الأوروبية وكم أقيمت من قضايا للمحجبات المسلمات أمام محاكم

ألمانيا وهولندا وانجلترا وقد ربحن فى قضاياهن وهذا أمر لم يحدث فى تركيا إلا فى هذه الأيام.

وكذلك مشكلة القوميات فسوف تجد طريقها إلى الحل فى ظل التوجه التركى إلى الاتحاد الأوربى، فمثلا مشكلة الأكراد التى تشكل نسبة لا بأس بها من المجموعة السكانية وهذا ما يصور لنا شعبية الفكرة الإسلامية فى الصفوف الكردية التى عانت من عمليات اضطهاد متواصل على أيدى النخب العلمانية والعسكرية المهيمنة على القرار فى تركيا، وسوف يدرك قادة تركيا الذين هيمن عليهم التعصب أن التعصب القومى والعرقى غير موجود فى أوروبا، ومن هنا فإن العمل من أجل الاستجابة للمعايير الأوروبية سيوفر للقادة المسلمين فرصة تطبيق قناعتهم تجاه الأكراد دون أن يبددوا جهودهم فى معارك سياسية جانبية قد تكلفهم كثيراً.

وخلاصة ما يمكن قوله كما يرى البعض أن التوجه التركى نحو الاتحاد الأوروبى سوف يكون فيه الحلول لأغلب مشاكل الشعب التركى وخاصة فى ذلك العصر الذى بدأت العلمانية فى انحسارها وجاء الإسلام كما كان ليحل مكانها، ولن تتعارض مصالح تركيا الإسلامية مع متطلبات الاتحاد الأوروبى لأنه ستكون العلاقات بين العالمين الإسلامى والأوربى علاقات هادئة وذلك بدخول الإسلام إلى أوروبا عن طريق تركيا.

وهكذا نرى أن الانضمام التركى إلى الاتحاد الاوربى أخذت تتناوله أقلام المحللين من السياسيين والكتاب، ولكل وجهة نظر، وسوف نعرض فى الصفحات التالية ما يعود على تركيا من نفع أو ضرر من جراء انضمامها إلى ذلك الاتحاد.

تركيا المسلمة والاتحاد الأوربى:

ما مدى استفادة كل منهما من الآخر؟

١- تركيا:

- السلبيات:

أ- يرى بعض الإسلاميين أن التحاق تركيا بالاتحاد الأوربى خطوة نحو استدراج

البلد الذى كان يوما قاعدة الدولة العثمانية الإسلامية إلى مزيد من العلمانية، الأمر الذى يراه أغلب المسلمين إهانة بالغة واستهتارًا شديدًا بقيم المسلمين.

ب- هناك بعض المحللين يرون أن انضمام تركيا إلى أوربا ما هى إلا مؤامرة صليبية جديدة لتذويب الشخصية الإسلامية لتركيا واستغلال مواطنيها كعمالة رخيصة فى المزارع والخدمات والمناطق الصناعية فى غرب أوربا.

ج- فصل تركيا الإسلامية عن أشقائها المسلمين فى البلدان المجاورة وفى وسط آسيا خاصة الجمهوريات المسلمة التى تتحدث اللغة التركية وهذا سوف يسبب مشاكل كثيرة وترديًا لوضع هذه الجمهوريات.

د- يحذر القوميون العرب من أن قبول أوروبا - التى يجرى الدم الاستعمارى فى عروقها - لعضوية تركيا هو المكافأة على تعاونها مع إسرائيل وتقديمها القواعد التى يدعون بأن إسرائيل تستخدمها للتجسس على إيران المسلمة والتآمر ضد سوريا والعراق العربيتين

هـ- ويقول بعض الإسلاميين الدارسين لهذا الموقف أن المسيحية التى اخترق دينها اليهود لن تكون جادة أبدا بقبول تركيا الإسلامية، فأوروبا التى عرفت بروحها الصليبية تعمل على إنقاص عدد المسلمين وليس زيادتهم وذلك على أراضيها وفى جميع البلدان الأوربية.

- الإيجابيات:

أ- يرى بعض المسلمين أن فى عضوية تركيا للاتحاد الأوروبى تعزيزًا للاستقرار الإقليمى وتحركًا إيجابيًا فى المنطقة يصب لصالح شعوبها.

ب- تحلى المسلمين فى تركيا بروح التسامح وحبهم الدائم للتجديد والتحديث وإيمانهم بحق الفرد فى الاختيار دفعهم إلى قبول الانضمام إلى الاتحاد الأوربى من أجل الحداثة.

ج- يرى بعض الإسلاميين بأن العضوية الكاملة لتركيا فى الاتحاد الأوروبى سوف تضعف كثيراً من تعاونها مع إسرائيل وإلغاء اتفاقياتها معها، خاصة وأن سياسة الاتحاد الأوروبى تجاه النزاع الفلسطينى الإسرائيلى، وتجاه قضايا الشرق الأوسط عامة، هو أكثر توازنا من سياسة الولايات المتحدة الأمريكية فى المنطقة، وهو ما يدفع باليمين الإسرائيلى إلى الشك فى أوروبا والحيلولة دون مشاركتها فى إيجاد حلول للنزاع مع الفلسطينيين.

د- ولعل أهم النتائج العملية المترتبة على عضوية تركيا فى أوروبا هو تقليص نفوذ كل التيارات الإسلامية المتشددة من ناحية - والعسكرية التركية من ناحية أخرى. فالأخيرة اعتبرت نفسها تقليديا، وحسب القواعد التى أرساها مؤسس تركيا العلمانية الحديثة كمال أتاتورك، الحارس الأمين لعلمانية الأمة، فالناخب التركى، والذى يرغب فى الالتحاق بالاتحاد الأوروبى سيصوت لصالح الأحزاب والتيارات غير الدينية المتشددة التى تعرقل الانغماس فى أوروبا، وبالتالى تقلل الاعتماد على المؤسسة العسكرية، غير المنتخبة ديموقراطيا، والتى يشكل تسلطها الدستورى على تركيا عائقًا مهمًا فى سبيل قبول أوروبا الديمقراطية لعضوية تركيا، وبدوره، سيضعف من حجج أنظمة الانقلابات العسكرية التى تحكم المنطقة وترفض الإصلاح والديمقراطية بحجة حماية الشعوب «المقهورة» من وصول المتطرفين الإسلاميين للسلطة.

٢- الاتحاد الأوروبى :

هل فى انضمام تركيا إلى الاتحاد الأوروبى فائدة لذلك الاتحاد؟

أ- سوف يستفيد الاتحاد الأوروبى من ضم تركيا إليه وهى دولة استهلاكية تضم سبعين مليون نسمة، فسوف يستفيد الاتحاد الأوروبى من التصدير إليها بمعدلات مرتفعة وفى ذلك تأكيد على أنها شريك حقيقى للاتحاد الأوربى.

ب- سوف يستفيد الاتحاد الأوربى من موقع تركيا الذى يتمتع بقوة استراتيجية، فهى تطل على بحار كثيرة ومضائق مائية وتتوسط قارات آسيا وأوروبا، فإن انضمامها إلى الاتحاد سوف يمكن أوروبا من أن تتمتع بهوية حدودية قوية تجعلها تتحكم فى أغلب سياسات العالم وبذلك يمكن له أن يصل إلى الشرق الأوسط من خلال تركيا.

ج- وعن تركيا التى تعتبر جسر عبور من الشرق إلى الغرب فقد ظهرت أهميتها الثمينة فى المحيط الدولى، ويتضح ذلك فى قمة الناتو ومنظمة المؤتمر الإسلامى حيث ساعد ذلك على بروز تركيا فى المحيط الدولى وهذا أمر لم ينكره الاتحاد الأوروبى.

د- إن تركيا ذات الكثافة السكانية التى تميزت فى الماضى بالقدرة العسكرية الرائعة سوف يستفيد منها الاتحاد الأوروبى لتجنيد شباب تركيا فى الجيش الموحد والقوة الموحدة التى تتطلع إليها أوروبا.

ومما يصور أهمية انضمام تركيا إلى الاتحاد الأوروبى وحرص تركيا الزائد على هذا الانضمام رغم تعنت الأوربيين فى ذلك بسبب المسالة القبرصية أقول مما يصور أهمية انضمام تركيا ما قاله عبد الله جول لرئيس الوزراء الهولندى ووزير خارجيته: «إذا باءت المفاوضات بيننا بالفشل فإنكم بذلك تكونون قد زرعتم بأيديكم بذور تصادم الحضارات، وأيضا إذا وصلت العلاقات بيننا إلى مرحلة الانقطاع، عندها ستجدون تركيا سلبية بمواجهتكم.. ونصيحتى لكم بأن تفكروا جيدا وتأخذوا بعين الاعتبار ماذا ستعنى سلبية تركيا بقوتها الاقتصادية والسياسية بالنسبة لكم».

وأخيرًا... فإن قرار الاتحاد الأوروبى ببدء محادثات العضوية الكاملة إلى تركيا حدث تاريخى ومثير ومهم ليس للأتراك فقط، ولكن لمنطقة الشرق الأوسط برمتها، فعبر هذه المفاوضات سيتعين على تركيا إحداث الكثير من الإصلاحات

السياسية والديمقراطية والاقتصادية والقضائية والتشريعية كى تتوافق مع معايير الاتحاد الأوروبى، وسيتعين عليها حل جميع مشاكلها الحدودية مع دول الجوار(*).

هذا وإن كان هذا الانضمام إلى الاتحاد الأوروبى أمامه بضع سنوات لتتم الاتفاقية النهائية إلا أنه أصبح -وما زال- مثار جدل كبير بين الإسلاميين من جهة والأوروبيين من جهة أخرى.

ولعل هذا الجدل المثير يدفع الإنسان إلى تساؤل فى غاية الأهمية: هل من الأفضل لتركيا أن تدير وجهها وتفتح عقلها وقلبها إلى المجموعة العربية الإسلامية وهى بلا شك المحك الذى عاشت فيه ودرجت عليه، وتفاعل المسلمون فيه عثمانيين أم عربا مهتدين بشريعة الإسلام وعاداته وتقاليده؛ أم تدير ظهرها لتلك المجموعة وتتوجه إلى الاتحاد الأوروبى ملحة فى ذلك إلحاحًا شديدًا كى يقبلها عضوا فى ذلك الاتحاد الذى تختلف عنه فى الدين والمعتقد واللغة؟

إن الإجابة عن هذا التساؤل سوف تكشف عنه الأيام فقد يكون فى جعبتها الخير الكثير أو المفاجآت غير المتوقعة، وهل سيأتى ذلك اليوم الذى نرى فيه توافقًا بين المسلمين والغرب الأوروبى بدلا من صراع الحضارات وتصادم الديانات؟ ولعل تركيا الإسلامية بعضويتها فى الاتحاد الاوربى تكون هى البلسم الذى يخفف من وقع هذا التصادم والذى يرجى منه الخير والسلام من هذا الجانب



(*) اعتمدنا فى كتابة هذا المبحث على عدة مقالات منها: تركيا بين الأمس والحاضر حلقات مقدمة من قناة الجزيرة بتاريخ ١٥/ ٤/ ١٩٩٩م -الحركة الإسلامية السياسية التركية فى الميزان دكتور / محمد خيرى قيرباش أوغلو أستاذ فى كلية الإلهيات جامعة أنقرة. (بحث مقدم فى ندوة (الحركات الإسلامية المشاركة فى المؤسسات السياسية فى البلاد العربية وتركيا) الدولية، المنعقدة فى مراكش/ المغرب برعاية جامعة القاضى عياض فى ١٦، ١٧ يونيو/ ٢٠٠٦م.

- تركيا مسار تاريخى. إعداد / محمد سليمان القضاة. المصدر الجزيرة -إسلاميو تركيا الحظر يزيدهم قوة. محمد عبد القادر، باحث فى العلوم السياسية، إسلام أون لاين ٢٦/٩/٢٠٠٢ - هل تصبح تركيا الإسلامية أوروبية. مقال لطه عود بمجلة المسلم ١٨/ ١١/ ١٤٢٥- طريق أوربية صعبة لابتلاع تركيا الإسلامية فى اتحادها. جريدة العرب الدولية. الشرق الأوسط ١٦/ ١٠/ ٢٠٠٤.


الوثائق



وثيقة رقم ١

رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة ١٥٤١

نقلا عن كتاب الدولة العثمانية و قضية الموريسكيين الأندلسيين للدكتور عبد الجليل التميمي

نص الرسالة



بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبى الكريم وعلى آله وصحبه، يقبل مواطئ الأقدام الشريفة التى ثراها، إذا مر بالعيون الرمدة أبراها، ورحاب الأكف الكريمة التى (كذا) عطاها (كذا)، إذا مر بالأرض الممحلة أثراها، أقدام شأنها السعى فى الخيرات والقربات، وأكف شأنها فعل الخيرات والمكرمات، أدام الله أيامها ونصر أعلامها، وأوطاء (كذا) ركابها أعناق الملحدين والمتمردين، وأنعشه فى كل وقت بنصر وفتح مبين، نسئل (كذا) الله تعالى أن يجعله أركابًا لم يزل ممتطيًا مطايا السعد، محفوفا بالسعود، قطبا للسيادة السلطانية عليه تدور وبه تسود، وأن يجعله دايمًا نسيم الخلافة العلية فى منصب الوراثة، وحايز الفضيلة السيئة من خدمة المساجد الثلاثة، وله ملك مصر وأنهارها، والشام وديارها، والحجاز وشرف مقدارها، وإلى حضرته مجتمع الرفاق من الأفاق، وإليها تحتج الأجسام بالرحلة والافئدة بالأشواق، وعلى جميع تلك الحضرة العليا لمحاسن الدين والدنيا، انعقد الاجماع والاصفاق (كذا)، مولانا السلطان الملك الأشرف الأضخم الأرفع الأعرف الأعلم الأحلم الأرحم الأرئف (كذا)، الأجود الأكرم الأسمح الأعطف، قامع الملحدين وقاطع دابرة الطغاة (كذا) والبغاة (كذا) والمردة والمفسدين، ممهد طريق الحج والعمرة والزيارة، الفايز بشرف الدين والدنيا من الجهاد فى سبيل الله والسقاية فى المسجد الحرام والعمارة، مطهر البسيطة من درن فسادها، ومظهر آيات الرأفة والرحمة فى بلادها، سلطان الإسلام والمسلمين، عز الدنيا والدين وظل الله على الخليقة أجمعين السلطان بن السلطان بن السلطان، السلطان سليمان بن السلطان سليم بن السلطان بايزيد بن محمد خان، مد الله ظلال النعمة بامتداد ظلاله، وضاعف لديه مواهب أكرامه وأفضاله، وأدام نجم سعده المنير باهر الإشراق، وجعل سهم ضدة الحقير لازم الأخفاق، وحفظ بشهب أولياء مجده من مردة النفاق، جميع الأقطار والآفاق، فهو الإمام الهمام، والأسد

الباسل الضرغام، الذى مهد الله تعالى بدولته البلاد، وأمن ببركة آيالته فى مسالكها وممالكها العباد، ومزق به ثوب الفساد، وقطع بسيفه وسنانه وبادرتى قلمه الأعلى ولسانه دابر أهل العناد، فسعد الإسلام بدولته، واعتز دين الله العزيز فى مدته، وخمدت نيران البغى بسعادته، وامتدت الأمانى وشمل الأمان بحسن سياسته، نسئل (كذا) الله تعالى أن يصل لسيدنا ومولانا عادت (كذا) نصره وتمكينه، ويريه قرة العين فى دنياه ودينه وبعد: فإن عبيدك الفقرا (كذا) المساكين المنقطعين بجزيرة الأندلس وجملة عدتهم ثلثمائة ألف وأربعة وستون ألف منهم من رسايهم بغرناطة وغيرها خمسون والباقى من عامة المسلمين، رافعين شكواهم، وما يلاقون من بلواهم باكين متضرعين مستنصرين بعناية مولانا السلطان دام عزه ونصره لما أصابهم من أعداء الدين وطغاة المشركين، ولما هم فيه من مكابدة الكفار، ومقاسات (كذا) التضييق والأضرار، وجو على الشرك أناء الليل وأطراف النهار، وتحريقهم إيانا بالنار قد تكالب العدو علينا، ومدد السوء والضرر إلينا، وأحاطت بنا الأعداء من كل جانب، ورمونا عن قوس واحد بسهم صايب، وطالت بنا الأيام، وعاشت فينا يد النكاية والآيلام، وخذلنا جيراننا وإخواننا ببلاد المغرب من أهل الإيمان، وقد كان بجوارنا الوزير المكرم، المجاهد فى سبيل الله خير الدين وناصر الدين وسيف الله على الكافرين، علم بأحوالنا، وما نجده من عظيم أهوالنا لما كان بالجزائر، واجتمعت أهل الإسلام على إطاعة مولانا ومحبته بالخواطر والضماير (كذا)، وانتظم العدل والشرع والأمان فى البادى والحاضر، فاستغثنا به فأغاثنا وكان سببًا فى خلاص كثير من المسلمين، من أيدى الكفرة المتمردين، ونقلهم إلى أرض الإسلام، وتحت آيالة طاعة مولانا السلطان ولعمارة مدينة برشك (٣٧) وشرشال ويواحى تلمسان، فلما سمع الكافر اللعين بذلك ولم يقدر على منعنا بالسياسة والإهانة والحرق بالنيران، علم أنا اخترنا المصيبة فى الأموال والأبدان، وآثرنا ديننا على ساير الأديان، فلما صدقت الضماير، وبلغت القلوب الحناجر، خلف من عصبتنا واجتماع كلمتنا وتركنا أموالنا وأوطاننا وهجرتنا وفرارنا إلى بلاد الإسلام لسلامة ديننا، تحاير فى أمره، وجمع إليه أهل

تدبيـره وحزنه، فدبروا ومـكروا وهل يحيق المكر السيء إلا بأهله؟ واتفـق رأسهم المعكوس، وتدبيرهم المنكوس، على قـتال الجزائر، لئلا يبـقى ببلاد المغرب لأهل الإسلام ناصر، فـعاقبهم الله بعقـاب أصحاب الفيل، وجعل كـيدهم فى تضليل، وأرسل عليهم ريح عاصف وموج قاصف (كذا)، فـجعلهم بسواحل البحر ما بين أسيـر وقتيل، ولا نجـا منهم من الغرق إلا قليل، والأن اشـتد غضـبهم على أهل الإسلام، وهم يتوسلون بالرهبان والأصنام، ونحن نتوسل بسيد الأنام إلى موجب الوجود ذو (كذا) الجـلال والإكرام، وهم عازمين (كذا) عـلى الجزائر، والله تعالى هلكهم وينصر دينه وهو نعم الناصـر، يا مولانا سلطان البرين والبـحرين نصركم الله، المدد المدد لنصرة الجـزائر لأنها سـياج لأهل الإسلام، وعـذاب وشغل لأهل الكفر والطغـيان، وهى موسومـة باسمكم الشريف، وتحت آيالة مـقامكم المنيف، وقد أصبحت القلوب المنكسرة بها عزيزة، والرعية المختلفة بها مؤتلفة اليفة، وطراز رونقهـا المجاهد فى سبـيل الله عبدكم الوزير الأجل خـير الدين، الممتـثل لأوامر مولانا، ونتاج عز الدنيا والدين، فإنه أحيا هذا الوطن، وجميع النواحى والسكن، وأرعب قلوب الكفار، وخرب ديار المردة والفجار، وأظهـر نظام السلطنة العثمانية وأحكام مولانا نـصره الله حتى تزينت بهـا الديار والأمصـار، فنرغب ونطلب من مولانا نصره الله فيما يراه من أرسالة لهذا الوطن أن رءا (كذا) مولانا صلاح (كذا) فى ذلك فـيكون ذلك غاية الإحـسان لجـمـيع أهل الإسلام وقـهر ونكاية لحـزب الشيـطان، وقد اتفق جـمعنا من المسلمـين المذكورين على رفع الشكـوا (كذا) إلى مـولانا السلطان الأعظم سلطان الإسـلام لازال بالعـز موصـوف (كـذا) وبالبهـاء والنصـر محفـوف (كذا) بأن يغـيثنا بإرسـال المجاهد خـير الدين باشـا (كذا) إلى الجزائر، فإنه لهذا الوطن نعم ناصر وجـميع أهل الشرك منه خايف وحاير (كذا)، والسلام التام على المقام الشريف العالى ورحمـة الله بتاريخ أوايل شهر شعبان أحد شهور سنة ثمانية وأربعين وتسعمائة.

نقلا عن كتاب الدولة العثمانية
وقضية الموريسكيين الأندلسيين

للدكتور عبد الجليل التميمي

وثيقة رقم ٢
رسالة من السلطان العثمانى أحمد الأول إلى دوج البندقية حول الموريسكيين سنة ١٦١٤

النص التركى للرسالة

افتخـار الأمراء العظام العيسوية مـحمد كبراء الفـخام فى الملة المسيحـية مصلح المصالح جـماهيـر النصرانية سـاحب أذيال الحشمـة والوقار صـاحب دلائل المجد والافتخار ونديك دوزى خـتمت عواقبه بالخير وأصلح الله تعـالى شأنه توقيع رفيع همايون واصـل أو ليجاق مـعلوم أولاكه مـقدمًا ولايت أسـبانيـة ده ساكن أولان مدجل طايفه سندن سليمان وعلى نام مسلمان مـدجللر دركاه معلمامه عرض حال صـونوب بوندن أقدم مـسلمـان مدجل طائفـة سندن بعـضيـلرى قالقـوب ممالك محروسمه داخل أولوب لكن حالا مزبورلردن بعضيلرى أيده أولوب دريادن كلمكه خوف ايدوب واقتدار لرى داخلى أولمغه قره آيله ونديلك طرفندن ممالك محروسمه كلوب داخل أولمق مراد لرى أولوب ونديك طرفندن ممالك محروسمه كلمك أوزره أولان مسلمانره دخل وتعـرض أولنميوب أمين وسالم مرور وعبـور ايتدرمكز رجا ايلديلر ايمدى سـز قديم الاياملن سدة سنيـة، سعادت مـدار وعتبه عليـة كردون اقتدار مزه خلوص قلب وحسن اعتقاد آيله عرض اخلاص واختصاص ايده كلمش دولت عليه مزك خيـر خواهى أولوب بومقوله أستانه، سعادت أشيـانه مزه متعلق خدمتـلرده معاونت ومظاهرت ايده كلد كلز عز حـضور فائض النور مزده مـحقق وظاهر أولدوغى اجلدن طائفة مزبوردن حاليًـا سزك ولا يتكز ده أولان مسلما نلره أجازت ويريلوب قره طرفندن آمـين وسالم بروجانبه إرسال وإيصـال ايتمكنز بابنده نامة همايون سعادت مقر وغمز يازيلوب إرسال أولنمشدر كركدركه:

وصول بولدقده قديم الآيامـدن استأنه سعادن أشيـان ودودمان مخلد الأركانمزه أولان خلوص محـبت وداد وصفاى عـقيدت اعـتقاد كـوز موجبنجـه ذكر أولنان

مسلمان مدجل طائفة سى أسبانية دن قالقوب ممالك محروسه مزه كلوركن ونديك ولايتنه أوغراد قلرنده منازل ومراحلده ومعـبر لرده كندو لرينه وطوار لرينه وأسباب وارزاقارينه عهد وأمانة مخالف برفـردى دخل وتعرض اتدوميوب أمين سالم ممالك محروسـة مزه إيصال آيليه سـز شمدية دكين حـسن اهتمامكز ظهـوره كتورلدوك اجلدن بوفقـرانك دخى سهولت اينه دار الآمـان أولان ممالك محروسة مـزه كلمة لرينه مـساعدة كـوز ظهورى وتحـصيل رضـاى اقتـضاؤه بادى وأسـاس مصـائحه ومعاهدة نك استحكام وامتدادى أولا جغنده اشتـباه يوقدر اكاكوره تقيد كوستروب عرضى الحال ومرفـه البال روانه قلمرينه سعى واهتمام ايلـيه سز تحريراً فى أواسط جمادى الأولى سنة ثلاث (كذا) وعشرين وألف.

مقام قسطنطينية المحروسة
نقلا عن كتاب الدولة العثمانية
وقضية الموريسكيين الأندلسيين

للدكتور عبد الجليل التميمى

وثيقة رقم ٣

رسالة من السلطان العثماني أحمد الأول إلى دوج البندقية حول الموريسكيين سنة ١٦١٤

نقلا عن كتـاب الدولة العثمانية و قضية الموريسكيين الأندلسيين للدكتور عبد الجليل التميمي

تعريف الرسالة

افتخار الأمراء العيساوية مختار الكبراء الفخام فى الملة المسيحية، مصلح مصالح جماهير النصرانية، ساحب أذيال الحشـمة والوقار، صاحب دلائل المجد والافتخار فوج Doge البندقية ختمت عواقبه بالخير وأصلح الله تعالى شأنه.

نحيطكم علما بهذا التوقيع الرفيع الـهمايونى بان سليمان وعلى وهما من طائفة المدجلين (المدجنين) القاطنين بالأندلس، قـد رفعا إلى أبوابنا العالية عـرضا أعلما فيه أنه قد ورد سـابقًا إلى الممالك المحروسة طائفة من المدجلين المـسلمين كانوا قد غادروا بلادهم وأنه مـا يزال منهم هناك أناس يريدون القدوم عليـنا عن طريق البر ليدخلوا الممالك المحـروسة وهم يرجون أن لا يتعرض لـهم ولا يتدخل فى شأنهم أحد، إذا ورد هؤلاء المسلمون عن طريق البندقية إلى المـمالك المحروسة، فلتسمح بمرورهم وعبورهم بالأمن والسلامة.

نظرا إلى أنكم ممن يريد الخير لدولتنا العلية وما زلتم تظهرون الإخلاص والولاء من قديم الآيام إلى سدة سـعادتنا وعتبتـنا العالية، عدو الأفلاك، عن نيـة خالصة وطوية حسنة فإنه واضح وجلى لدى حضـرتنا العزيزة الفائضة الأنوار، أنكم كنتم وما زلتم تقومون بأمثال هذه الخدمـات وتقديم المعونة لسدة سعادتنا السنية، ونظرا لكل هذا فقد حررنا وأرسلنا إليكم هذا الكتاب الميمـون الهمايونى لتجيزوا من هو الأن ببلادكم من طائفة المسلمين أن يعبروا عن طريق البر إلى ممالكنا آمنين سالمين.

وبناء على خلوص محـبتكم ووِدادكم وصفاء عـقيدتكم لهذه الأبواب السـعيدة المشـيدة الأركـان من سـابق الأيام والأزمان، إذا مـا ورد هذا الكتـاب إليكم، أن توصلوا إلى ممالـكنا المحـروسة كل مـن يريد القـدوم عليـهـا من طائفـة المدجنين المسلمين الذين خـرجوا من أسبانيا وحلوا بولاية البـندقية، فلا تسمـحوا لأحد أن يتدخل فى أمـورهم أو يتعرض لهم ولا أرزاقهـم وأموالهم ودوابهم خلافًا للعـهد

والآمان (بيننا) وهذا أثناء مـروروهم بالمنازل والمراحل والمعابر ليـصلوها آمنين سالمين وقد سـبق واتضح لنا حتى الأن حسن اهـتمامكم وتيـقنوا أن مساعـدتكم لهؤلاء المساكين بدخولهم بلادنا التى هى دار الأمان وسيلة لتحصيل رضانا الميمون وسبب لتحكيم بنيان المصـالحة وتمديد المعاهدة، فاهتموا واسـعوا، بناء على هذا أن يمروا ويعبروا راضيين عن حالهم، مرفهى البال.

تحريراً فى أوسط شهر جمادى الأولى سنة ١٠٢٣هـ

بمقام قسطنطينية المحروسة

نقلا عن كتاب الدولة العثمانية

وقضية الموريسكيين الأندلسيين

للدكتور عبد الجليل التميمى

❁❁❁

قائمة المصادر والمراجع



أولا: المصادر العربية:

١- ابن الأثير: عز الدين أبو الحسن على بن محمد بن عبد الكريم.

- «الكامل فى التاريخ» ١٣ جزءاً. دار صادر ودار بيروت ١٣٨٥هـ- ١٩٦٥م.

٢- ابن الآبار: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى «ت ٦٥٨هـ- ١٢٦٠م».

- الحلة السيراء حققه حسين مؤنس. طبعة القاهرة ١٩٦٣م

- التكملة لكتاب الصلة. القاهرة. طبعة أولى ١٩٥٥م-١٣٧٥هـ.

٣- شيخ الإسلام أحمد بن تيمية:

- مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية. دار التقوى للنشر والتوزيع.

٤- ابن أبى أصيبعة: أحمد بن القاسم بن خليفة.

- عيون الأنباء فى طبقات الأطباء. القاهرة ١٢٩٩هـ.

٥- الإدريسى: أبو عبد الله محمد بن محمد ت ٥٦٠هـ.

- نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق المجلد الأول. مكتبة الثقافة الدينية.

- وصف أفريقيا الشمالية والصحراوية قطعة من نزهة المشتاق. نشرها هنرى بريس. الجزائر سنة ١٩٥٧م

٦- ابن إياس: محمد بن أحمد ت «٩٣٠هـ- ١٥٢٣م».

- بدائع الزهور فى وقائع الدهور فيسبادن «١٣٩٥هـ- ١٩٧٥م».

٧- أسامة بن منقذ: مؤيد الدولة أبو مظفر أسامة بن مرشد الكنانى الشيرزى «ت٥٨٤هـ- ١١٨٨م».

- كتاب الاعتبار أو حياة أسامة بن منقذ. ط جامعة برلستون الولايات المتحدة ١٩٣٠م، وطبعة باريس ١٨٨٩م

٨- ابن أيبك الدواداري: أبو بكر بن عبد الله « ت٧٣٢هـ- ١٣٣١م».

- الدرة المضية فى أخبار الدولة الفاطمية، وهى الجزء الثالث من كتاب كنز الدرر نشره صلاح المنجد القاهرة ١٩٦١م.

٩- الأزدى: محمد بن عبد الله.

- تاريخ فتوح الشام تحقيق: عبد المنعم عبد الله عامر. مؤسسة سجل العرب.

١٠- ابن بسام: أبو حسن على الشنترينى «ت ٥٤٢هـ- ١١٤٧م».

- الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة. القسم الأول فى مجلدين حققه ونشره عبد الحليم العبادى وعبد الوهاب عزام. القاهرة ١٩٣٩م.

١١- ابن بشكوال: خلف بن عبد الملك بن مسعود أبو القاسم «ت ٥٧٨هـ- ١١٨٣م».

- الصلة، مجلدان نشره عزت العطار. القاهرة ١٩٥٥م.

١٢- البخارى: الحافظ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة ت٢٥٦هـ.

- صحيح البخارى. شرح القسطلانى طبعة بولاق ١٣٠٤ـ ١٣٠٦هـ.

١٣- البيذق: أبو بكر بن على الصنهاجى. القرن السادس الهجرى.

- أخبار المهدى بن تومرت وابتداء دولة الموحدين. تحقيق ليفى بروفنسال باريس ١٩٤٨م.

١٤- البلاذرى: أحمد بن يحيى بن جابر ت « ٢٧٩- ٨٩٢».

- فتوح البلدان. تحقيق صلاح الدين المنجد. مكتبة النهضة المصرية.

١٥- البكرى: أبو عبد الله بن عبد العزيز «ت ٤٨٧- ١٠٩٤».

- المغرب فى وصف أفريقيا والمغرب. نشره وسيلان الجزائر ١٩١١م.

١٦- التميمى: أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم « ت ٣٣٣- ٩٤٤».

- طبقات علماء أفريقيا الجزائر، نشره ابن شنب١٩١٤م وطبعة تونس ١٩٦٨م.

١٧- التجانى: أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد «القرن الثامن الهجرى»

- رحلة التجانى. تحقيق حسن حسنى عبد الوهاب، تونس ١٩٥٨م.

١٨- ابن الجوزى: أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد ت٥٩٧- ١٢٠١.

- المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم. تحقيق محمد عبد القادر عطا، ط دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٢م.

١٩- ابن جبير: أبو الحسن محمد ت (٦١٤- ١٢١٧).

- رحلة ابن جبير. تحقيق الدكتور حسن نصار. القاهرة ١٩٥٥م.

٢٠- ابن حزم: أبو محمد على بن أحمد «ت٤٥٦- ١٠٦٤».

- جمهرة أنساب العرب. نشره ليفى بروفنسال. القاهرة ١٩٤٨م.

- الفصل فى الملل والأهواء والنحل. فى مجلدين طبعة بيروت. وبهامشه الملل والنحل للشهرستانى.

٢١- ابن حماد أبو عبد الله محمد بن على القلعى «ت فى القرن السابع الهجرى»

- أخبار ملوك بنى عبيد وسيرتهم. تحقيق التهامى نقره وعويس. ١٤٠١هـ.

٢٢- ابن حجر العسقلانى: شهاب الدين، ت «٨٥٣هـ- ١٤٤٩م»

- رفع الإصر عن قضاة مصر. القسم الثانى منه، نشره حامد عبد المجيد وراجعه الإيبارى. القاهرة ١٩٦١م.

٢٣- ابن حوقل النصيبى: أبو القاسم محمد «ت فى القرن الرابع الهجرى».

- كتاب صورة الارض. منشورات مكتبة الحياة بيروت ١٣٧٩هـ وطبعة ليدن ١٩٣٨.

٢٤- ابن حيان: أبو مروان حيان بن خلف القرطبى ت « ٤٦٩- ١٠٧٦م».

- المقتبس فى أخبار بلد الأندلس. تحقيق عبد الرحمن الحجى. نشر وتوزريع دار الثقافة بيروت. لبنان.

٢٥- الحميرى: أبو عبد الله بن عبد الله بن عبد المنعم «توفى فى أواخر القرن التاسع».

- صفة جزيرة الأندلس. ١٩٣٧م، وطبعة ١٩٨٠م تحقيق إحسان عباس.

٢٦- الحسن الوزان «ليون الأفريقى».

- وصف أفريقيا. منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض.

٢٧- الحسن: الحسن بن عبد الله بن محمد.

- آثار الأول فى تدبير الدول. مطبوع على هامش تاريخ الخلفاء للسيوطى١٢٩٥هـ.

٢٨- ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد ت « ٨٠٨- ١٤٠٥م».

- المقدمة. دار ابن خلدون. الإسكندرية. وطبعة بيروت ١٩٠٠م.

- العبر وديوان المبتدأ والخبر. طبعة بولاق ١٢٤٨هـ.

٢٩- ابن خلكان: شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم «ت٦٨١- ١٢٨٢».

- وفيات الأعيان وأنباء الزمان، عدة أجزاء. تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر. بيروت ١٩٦٨م.

٣٠- الذهبى: الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان.

- سير أعلام النبلاء. دار الحديث. القاهرة.

٣١- الزركشي: أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللؤلؤى (ت القرن الحادى عشر الهجرى).

- تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية. تونس ١٢٨٩هـ.

٣٢- ابن الساعى أبو طالب على ابن أنجب «ت٦٧٤-١٢٧٦».

- مختصر أخبار الخلفاء. المطبعة الأميرية. القاهرة ١٣٠٩هـ.

٣٣- السيوطى: جلال الدين عبد الرحمن السيوطى «توفى ٩١١هـ- ١٥٠٥م»

- حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة. طبعة أولى ١٩٦٧م. دار إحياء الكتب العربية.

٣٤- ابن شداد القاضى بهاء الدين.

- «كتاب سيرة صلاح الدين الأيوبى المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» القاهرة ١٣١٧هـ.

٣٥- أبو شامة عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان بن شهاب الدين الملقب بأبى شامة.

- كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية. جزءان فى مجلد. مطبعة وادى النيل. مصر ١٢٨٧م.

٣٦- الاصطخرى: ابن إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسى ت « ٣٤١هـ- ٩٥٢م.

- المسالك والممالك. منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومى ١٩٦١م.

٣٧- الطبرى: أبو جعفر محمد بن جرير «توفى ٣١٠ هـ».

- تاريخ الأمم والملوك. أجزاء متعددة. طبعة أولى دار الكتب العلمية بيروت.

٣٨- ابن طباطبا محمد بن على بن الطقطقى العلوى.

- «الفخـرى فى الآداب السلطانيـة والدول الإسلاميـة. الطبعـة الرحمـانية. القاهرة ١٣٤٠هـ.

٣٩- ابن عبد الحكم: عبد الرحمن بن عبد الحكم.

- فتوح مصر والمغرب والأندلس. ط شارل تورى، ومطبعة جامعة ييل.

٤٠- ابن عذارى: أبو عبد الله محمد المراكشى «ت فى نهاية القرن السابع».

- البيان المغرب فى أخبار المغرب. نشر مكتبة صادر. حققه دوزى ١٩٥٨م.

٤١- أبو الفدا عماد الدين إسـماعيل بن عمر بن كثيـر الدمشقى «٧٧٤هـ» البداية والنهاية» دار الفكر.

- تفسير القرآن العظيم. المكتبة التوفيقية

٤٢- القلقشندى: أبو القاسم أحمد بن على بن أحمد بن الجمال ت٨٢١هـ.

- صبح الأعشى فى صناعة الإنشا. ط دار الكتب ١٩٢٨، القاهرة ١٩٢٢م.

٤٣- ابن الكرديوس: أبو مـروان عـبد الملـك الوزرى من علماء الـقرن السـادس الهجرى.

- الاكتفاء فى أخبار الخلفاء. تحقيق أحمد مختار العبادى. مدريد ١٩٧١م.

٤٤- أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغرى بردى الأتابكى.

- النجـوم الزاهرة فى ملوك مصـر والقاهرة. طبـعة مـصورة عن طبـعة دار الكتب. منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومى بمصر.

٤٥- المسعودى: أبو الحسن على ابن الحسين.

- مروج الذهب ومعادن الجوهر. دار الأندلس، بيروت ١٣٨٥- ١٩٦٥م.

٤٦- المقدسى: شمس الدين أبو عبد الله محمد «ت٣٨٠هـ- ٩٩٠م»

- أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم. الطبعة الثالثة. القاهرة ١٤١١.

٤٧- المقريزى: تقى الدين أحمد بن على ت « ٨٤٥هـ- ١٤٤١م»

- اتعاظ الحنفا بأخبـار الأئمة الفاطميين الخلفا. حققه جـمال الدين الشيال. القاهرة ١٣٨٧هـ- ١٩٦٧م.

- المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار. جزءان طبعة بولاق ١٢٧٠هـ.

- شذور العقود فى ذكر النقود. النجف ١٩٦٧م.

٤٨- الدكتور محمد جمال الدين سرور.

- «سياسة الفاطميين الخارجية» دار الفكر العربى. القاهرة. ١٩٧٦م

٤٩- محمد بن أبى سرور البكرى.

- المنح الرحمانية فى الدولة العثمانية. تحقيق ليلى الصباغ.

٥٠- الماوردى: أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى البغدادى «ت ٤٥٠»

- الأحكام السلطانية ط مصر ١٢٩٨هـ.

٥١- المراكشى: محمد عثمان.

- الجامعة اليوسفية الرباط ١٩٣٧.

٥٢- المالكى: أبو بكر عبد الله بن أبى عبد الله ت «٤٥٣- ١٠٦١».

- رياض النفوس. حققه حسين مؤنس. القاهرة ١٩٥١م.

٥٣- مجهول:

- مفاخر البـربر. حققه ونشره ليفى بروفنســال. الرباط ١٩٣٤م. مطبوعات معهد الدراسات العليا المغربية.

٥٤- مؤلف مجهول:

- الحلل الموشيـة فى ذكر الأخبار المراكـشية. نشـر علوش. رباط الفتح سنة ١٩٣٦، طبعة تونس ١٩٢٣.

٥٥- مؤلف مجهول:

- الاستبصار فى عجائب الأمصار. نشر وتعليق د/ سعد زغلول عبد الحميد، مطبعة جامعة الاسكندرية المطبوع رقم ١٠ كلية الآداب.

٥٦- النويرى: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد النويرى «ت٧٣٣هـ».

- نهاية الأرب فى فنون الأدب. طبعة دار الكتاب ١٣٤٥هـ- ١٩٢٦م

٥٧- الناصرى: أبو العباس أحمد ابن خالد «ت١٣١٥- ١٨٩٠».

- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. تحقيق جعفر الناصرى ومحمد الناصرى. الدار البيضاء ١٩٥٤، القاهرة ١٣٠٦.

٥٨- النعمان: بن محمد بن حيون التميمي «ت٣٦٣هـ-٩٧٣م»

- المجالس والمسايرات. حققه مجموعة. طبعة كلية الآداب بالجامعة التونسية ١٩٧٨م.

٥٩- ابن واصل: جمال الدين محمد بن سالم.

- مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب. نشره وحققه د/ جمال الشيال. طبعة جامعة القاهرة. جزءان.

٦٠- ياقوت الحموى: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله ت «٦٢٦-١٩٢٩».

- معجم البلدان. تحقيق فريد عبد العزيز الجندى. أجزاء متعددة. طبعة دار الكتب العلمية. بيروت لبنان ١٤١٠.

ثانياً: المراجع العربية الحديثة:

١- أمين: أحمد. الدكتور.

- فجر الإسلام. القاهرة ١٩٤٥م.

- ضحا الإسلام.

- ظهر الإسلام. لجنة التأليف والنشر القاهرة ١٩٥٣م.

٢- أمين: حسين:

- تاريخ العراق فى العصر السلجوقى. المكتبة الأهلية ١٩٦٥م.

٣- بروفنسال: المستشرق ليفى.

- الإسلام فى المغرب والأندلس. ترجمة الدكتور / السيد عبد العزيز سالم والأستاذ محمد صلاح الدين حلمى. القاهرة ١٩٥٨م.

- الحضارة العربية فى أسبانيا. ترجمة طاهر مكى طبعة أولى ١٩٧٩م.

- مجموعة رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية. رباط الفتح. المطبعة الاقتصادية ١٩٤١م.

٤- بارتولد «مستشرق روسى».

- تاريخ الترك فى آسيا الصغرى. ترجمة أحمد السعيد سليمان. مطبعة الأنجلو المصرية. القاهرة «١٣٧٨- ١٩٥٨م».

٥- بروكلمال: كارل.

- تاريخ الشعوب الإسلامية بيروت ١٩٥٤م.

٦- الباشا: حسن. الدكتور.

- الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية. ط ١٩٦٦م.

٧- التميمى: عبد الجليل. الدكتور.

- الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين بالأندلس. منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات. زغوان، ١٩٨٩م.

٨- جارودى: رجاء.

- الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية.

٩- د/ جاسر: شفيق. الدكتور.

- تاريخ القدس. دار البشير للنشر والتوزيع. عمان.

١٠- الجندى: أنور.

- موسوعة تاريخ الصحافة الإسلامية.

١١- الجعفرى: وليد.

- المستعمرات الاستيطانية فى الأراضى المحتلة. بيروت مؤسسة الدراسات الفلسطينية ١٩٨١م.

١٢- حسن إبراهيم حسن (الدكتور).

- تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى. القاهرة ١٩٥٧م.

- النظم الإسلامية. القاهرة ١٩٦٢م.

- تاريخ الدولة الفاطمية. الطبعة الثالثة ١٩٦٤م.

١٣- حلاق: حسان. الدكتور:

- العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب. إصدارات الداز الجامعية.

١٤- حبيبة: على حسن محمود (الدكتور)

- مع المسلمين فى الأندلس.

١٥- حتى: فيلب.

- تاريخ العرب. تعريب الأستاذ نافع. ط ثانية ١٩٤٩م.

- فؤاد بن سيد عبد الرحمن الرفاعى.

- النفوذ اليهودى فى الأجهزة الإعلامية. دار اليقين للنشر والتوزيع

١٦- حسين: عبد المنعم.

- دولة السلاجقة. الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٧٥م.

١٧- الحتة: محمد عبد المنعم السيد ـ أحمد.

- الغزو العثمانى لمصر مؤسسة شباب الجامعة.

١٨- حتامله: محمد عبد الله.

- التنصير القسرى لمسلمى الأندلس فى عهد الملكين الكاثوليكيين. عمان الأردن عام ١٩٨٠م.

١٩- الخولى: حسن صبرى. الدكتور.

- وثائق ونصوص تاريخية. سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين. دار المعارف ١٩٧٠م.

٢٠- خالص: صلاح. الدكتور.

- أشبيلية فى القرن الخامس الهجرى. دار الثقافة ١٩٦٥م.

٢١- خليل: عماد الدين.

- عماد الدين زنكى.

٢٢- الخويطر: عبد العزيز عبد الله.

- «الملك الظاهر بيبرس» جدة مطابع دار الأصفهانى ١٩٧٦م.

٢٣- الخضرى: محمد.

- تاريخ الأمم الإسلامية «الدولة العباسية». مؤسسة الكتب الثقافية. بيروت. لبنان. الطبعة الأولى ٢٠٠٢م.

٢٤- خسرو: ناصر.

- سفرنامة. ترجمة دكتور يحيى الخشاب، ط القاهرة ١٩٤٨م.

٢٥- رانسيمان: ستيفن.

- تاريخ الحروب الصليبية.

٢٦- رينهارت: دوزى:

- تاريخ مسلمى أسبانيا. دار الكتب المصرية.

- معجم مفصل فى أسماء الآلية عند العرب. دار الكتب المصرية.

- ملوك الطوائف ونظرات فى تاريخ الإسلام. ط أولى ١٩٣٣م- ١٣٥١هـ.

٢٧- رضوان: نبيل عبد الحى.

- جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس واسترداده. مكتبة الطالب الجامعى مكة المكرمة طبعة أولى.

٢٨- ربابعة: غازى إسماعيل. الدكتور.

- القدس فى الصراع العربى الإسرائيلى. دار الفرقان.

٢٩- زغروت: الدكتور فتحى زغروت.

- الجيوش الإسلامية وحركة التغيير فى دولتى المرابطين والموحدين (المغرب والأندلس). دار التوزيع والنشر الإسلامية بالقاهرة.

- العلاقات بين الخليفة الناصر الأموى والخلفاء الفاطميين فى الشمال الأفريقى. دار التوزيع والنشر الإسلامية بالقاهرة.

- أثر الفكر اليهودى فى كتابة التاريخ الإسلامى. دار التوزيع والنشر الإسلامية بالقاهرة.

- دور يهود الدونمة فى إسقاط الخلافة العثمانية. دار التوزيع والنشر الإسلامية بالقاهرة.

- عقيدة تغدق نصرا أو «العقيدة العسكرية عند المسلمين». مكتبة العلوم والحكمة. مكتبة عباد الرحمن.

٣٠- الزهرانى: محمد بن مسفر حسين. الدكتور.

- نفوذ السلاجقة السياسى فى الدولة العباسية. مؤسسة الرسالة.

٣١- سالم: السيد عبد العزيز سالم (الدكتور).

- المغرب الكبير. العصر الإسلامى. القاهرة ١٩٦٨م.

٣٢- د/ السويدان: طارق.

- الأندلس التاريخ المصور.

٣٣- السائح: عبد الحميد.

- أهمية القدس فى الإسلام.

٣٤- شلبى: أحمد جاب الله. الدكتور.

- موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية.

- الفكر الإسلامى منابعه وآثاره. طبعة سادسة.

- مقارنة الأديان «اليهودية» مكتبة النهضة المصرية.

٣٥- الشامى: رشاد عبد الله.

- الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية. سلسلة عالم المعرفة.

٣٦- الشناوى: عبد العزيز محمد. الدكتور.

- «الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها».

٣٧- شعيرة: محمد عبد الهادى. أستاذ التاريخ الإسلامى سابقا بجامعة عين شمس.

- المرابطون وتاريخهم السياسى. ط أولى مكتبة القاهرة الحديثة.

٣٨- الصلابى على.

- الدولة العثمانية عوامل النهضة وسبب السقوط.

٣٩- صبرى: مصطفى. الشيخ.

- النكير على منكرى النعمة من الدين والخلافة والنعمة، دار الدعوة، الإسكندرية، طبعة أولى ١٩٨٥م ص٨٩.

٤٠- ظاظا: حسن الدكتور. والسيد عاشور.

- شريعة الحرب عند اليهود.

٤١- عباس: إحسان. الدكتور.

- تاريخ الأدب الأندلسى. المكتبة الأندلسية. بيروت. ١٩٦٠م.

٤٢- العسلى: بسام.

- الأيام الحاسمة فى الحروب الصليبية. طبعة أولى سنة ١٩٧٨م. مدار النفائس ببيروت.

٤٣- عبد العواد: حسن على حسن. (الدكتور).

- الحياة الإدارية والاقتصادية والاجتماعية فى المغرب الأقصى فى القرنين الخامس والسادس الهجرى. رسالة دكتوراة.

٤٤- علام: عبد الله علام. الدكتور.

- الدعوة الموحدية بالمغرب. القاهرة ١٩٦٤م.

٤٥- العدوى: إبراهيم أحمد العدوى (الدكتور).

- القوات البحرية العربية فى مياه البحر المتوسط، نشر مكتبة مصر.

- الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية القاهرة ١٩٥١م.

٤٦- العبادى: أحمد مختار.

- دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس. ط أولى ١٩٨٦م. مطبعة المصرى.

- قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام. مؤسسة شباب الجامعة بالإسكندرية.

٤٧- عنان: محمد عبد الله.

- عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس. القسم الأول والثانى. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. ط ١٣٧٣هـ- ١٩٦٤م.

- دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطى. القاهرة ١٩٦٠م.
- الآثار الأندلسية الباقية. القاهرة ١٩٦١م.
- نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين. الطبعة الثانية طبعة مصر.

٤٨- عبد القادر: محمد الخير.
- نكبة الأمة العربية بسقوط الخلافة العثمانية، مكتبة وهبة، القاهرة ١٩٨٥م.

٤٩- عبد الحميد: محمد حرب.
- مذكرات السلطان عبد الحميد. ترجمة وتحقيق الدكتور. دار الأنصار القاهرة ١٩٧٨م.

٥٠- عبادة: عبد الفتاح.
- سفن الأسطول الإسلامى ١٩١٣م.

٥١- العوفى: محمد سالم. الدكتور.
- العلاقات السياسية بين الدولة الفاطمية والدولة العباسية فى العصر السلجوقى. طبعة أولى ١٩٨٢م.

٥٢- ابن عبد الله: عبد العزيز.
- مظاهر الحضارة المغربية. الدار البيضاء ١٩٥٧م.

٥٣- الغانى: مراجع عقيلة. الدكتور بكلية الآداب جامعة بنغازى.
- سقوط دولة الموحدين. منشورات جامعة بنغازى ط أولى- ١٩٧٥م.

٥٤- الغزالى: محمد. الشيخ.
- التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام.

٥٥- فريد: محمد بك.
- تاريخ الدولة العلية العثمانية.

٥٦- قدرى: حفنى.
- الإسرائيليون من هم؟ دراسات نفسية. طبعة القاهرة ١٩٨٤م.

٥٧- فلادمير: ب. ستوف. الدكتور.

- حياة جنكيز خان الإدارية والسياسية والعسكرية. ترجمة سعد محمد حذيفة الغامدى. الطبعة الأولى ١٩٨٣م.

٥٨- قلعجى: قدرى.

- «صلاح الدين الأيوبى - قصة الصراع بين الشرق والغرب خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلادى» بيروت دار الكتاب العربى ١٩٧٩م.

٥٩- قاسم: قاسم عبده. الدكتور .

- ماهية الحروب الصليبية. سلسلة عالم المعرفة عدد ١٤٩ .

٦٠- الكتانى: على منتصر. الدكتور.

- الصحوة الإسلامية فى الأندلس جذورها ومسارها. كتاب الأمة.

٦١- كامل: عبد العزيز بن مصطفى.

- «حُمَّى سنة ٢٠٠٠» الناشر المنتدى الإسلامى. مجلة البيان.

- قبل الكارثة نذير ونفير. المنتدى الإسلامى. مجلة البيان.

٦٢- ميرندا: أمبرسيو أوشى:

- التاريخ السياسى لدولة الموحدين. نشره الأستاذان / محمد بن تاربت وإبراهيم الكتانى. تطوان ١٩٦١م.

٦٣- ميتز: آدم.

- الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى. جزءان القاهرة ١٩٤٠م. ترجمة عبد الهادى أبو ريدة.

٦٤- المدور: جميل نخلة.

- حضارة الإسلام فى دار السلام.

٦٥- محمود: حسن أحمد. الدكتور.

- العالم الإسلامى فى العصر العباسى. القاهرة. دار الفكر العربى

- قيام دولة المرابطين صفحة مشرقة من تاريخ المغرب. ط ١٩٥٧م.

٦٦- مؤنس: حسين. الدكتور.

- فجر الأندلس. دار الرشاد.

- نور الدين محمود رائد نصر المسلمين على الصليبيين.

٦٧- المسيرى: عبد الوهاب. الدكتور.

- «نهاية التاريخ.. دراسة فى بنية الفكر الصهيونى» المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

٦٨- مصطفى: عبد التواب. الدكتور.

- قضية القدس دراسة فى أبعادها التاريخية والدينية والسياسية والقانونية. إصدارات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. جمهورية مصر العربية. العدد ١٣٩.

٦٩- مانديلى: كوستى.

- إسرائيل بين الدعوة والرفض. بيروت لبنان. منشورات النور ١٩٨٥م.

٧٠- الندوى: أبو الحسن.

الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة العربية.

٧١- نوار: صلاح الدين محمد. الدكتور.

- العدوان الصليبى على العالم الإسلامى. دار الدعوة.

٧٢- هيكل: أحمد. الدكتور.

- الأدب الأندلسى من الفتح حتى سقوط الخلافة. الطبعة الثالثة. مطابع سجل العرب.

٧٣- هارفى: ليونارد باترك.

- تاريخ الموريسكيين السياسى والاجتماعى والثقافى.

٧٤- هرتزل.

- الدولة اليهودية. إصدار المركز الصهيونى الأمريكى عام ١٩٤٦م.

٧٥- ويل ديورانت.

- قصة الحضارة. منشورات مكتبة الأسرة.

٧٦- لوبون: جوستاف: المؤرخ المستشرق.

- حضارة العرب. ط الحلبىَ ١٩٤٥م. تعريب زعيتر

٧٧- يكن: فتحى.

- القضية الفلسطينية من منظور إسلامى. مؤسسة الرسالة.

ثالثا: الدوريات والمجلات:

١- قراءة فى كتاب: «القدس بين رؤيتين» عن مجلة الإسلام وفلسطين العدد ٨٠.

٢- مجلة الفيصل الثقافية العدد ١٢٠ فبراير ١٩٨٧م.

٣- الشيخ سعد الدين العلمى. المسجد الأقصى فى خطر مجلة منار الإسلام العدد السابع ١٩٨٧م.

٤- مقال الأستاذ حسانين محمد ربيع. عميد كلية الآداب الأسبق.

٥- القدس مدينة عربية إسلامية.

٦- مقال الدكتور سعيد عاشور فى هذا الصدد شخصية الدولة الفاطمية فى الحركة الصليبية. المجلة التاريخية المصرية ١٩٦٩م المجلد ١٦.

٧- شوقى شعث. أضواء على الأبحاث الأثرية فى فلسطين. بحث مقدم إلى الندوة العالمية الأولى للآثار الفلسطينية بجامعة حلب ١٩/ ٩/ ١٩٨١م.

٨- الدكتور رشاد الشمى. الأثريون الإسرائيليون يكشفون زيف الادعاءات الدينية والتاريخية لليهود فى فلسطين. الهلال. القاهرة نوفمبر سنة ٢٠٠٠م.

٩- محاكم التفتيش وإبادة المسلمين فى الأندلس. موقع موسوعة الإعجاز العلمى فى القرآن والسنة.

١٠- مجلة لوبان الأسبوعية الفرنسية بتاريخ ٢٢/ ٤/ ٢٠٠٤م.

١١- د/ يحيى حسن هاشم فرغل نهاية العلمانية فى مقبرة النظريات الفاشلة.

١٢- مقال لويس شيخوا، السر المصون فى شيعة الفرمسون، مجلة الشرق، بيروت، أغسطس١٩١١م.

١٣- العروة الوثقى. العدد الصادر فى ٢٢ شوال سنة ١٣٠١هـ- ١٨٨٤م. القسم الثانى، طبع بيروت، مطبعة التوفيق ط عام ١٣٢٨هـ.

١٤- تركيا بين الأمس والحاضر. حلقات مقدمة من قناة الجزيرة بتاريخ ١٥/ ٤/ ١٩٩٩م.

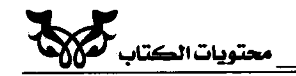
١٥- الحركة الإسلامية السياسية التركية فى الميزان. دكتور / محمد خيرى قيرباش أوغلو أستاذ فى كلية الإلهيات جامعة أنقره. (بحث مقدم في ندوة (الحركات الاسلامية المشاركة في المؤسسات السياسية في البلاد العربية وتركيا) الدولية، المنعقدة في مراكش/ المغرب برعاية جامعة القاضي عياض في ١٦، ١٧ يونيو/ ٢٠٠٦م.

١٦- تركيا مسار تاريخى. إعداد / محمد سليمان القضاة. المصدر. الجزيرة.

١٧- إسلاميو تركيا. . الحظر يزيدهم قوة. محمد عبد القادر، باحث فى العلوم السياسية، إسلام أون لاين ٢٦/ ٩/ ٢٠٠٢م.

١٨- هل تصبح تركيا الإسلامية أوروبية؟ مقال لطه عود بمجلة المسلم ١٨/ ١١/ ١٤٢٥هـ.

١٩- طريق أوربية صعبة لابتلاع تركيا الإسلامية فى اتحادها. جريدة العرب الدولية. الشرق الأوسط ١٦/ ١٠/ ٢٠٠٤م.



محتويات الكتاب

الفصل الثالث

المغول وسقوط بغداد

النازلة الثانية

الصليبيون وسقوط القدس

الفصل الأول

القدس فى مسيرة التاريخ

الفصل الثانى:
مسير الحملة الصليبية الأولى نحو بيت المقدس

الفصل الثالث
سقوط بيت المقدس

الفصل الرابع
القدس فى التخطيط الصهيونى

النازلة الثالثة

سقوط الأندلس وإنهاء دولة الإسلام

الفصل الأول

موجز لتاريخ الأندلس من القوة حتى الضعف

الفصل الثانى

عهد الفوضى والكفاح

الفصل الثالث

سقوط دولة الموحدين

الفصل الرابع

من قضايا الموريسكيين بعد تسليم غرناطة

النازلة الرابعة

إسقاط الخلافة الإسلامية فى تركيا

الفصل الأول

الجماعات المتسلطة على الخلافة العثمانية

الفصل الثانى

زعزعة أركان الدولة العثمانية

الفصل الثالث

إلغاء الخلافة وإعلان الجمهورية

الفصل الرابع

تركيا بين الأمس واليوم